لغزٌ عمرُه ثلاثةُ آلاف عام

تاريخ اليهود من منظور روسيا المعاصرة

تأليف: إيغر شفريفتش

ترجمة: د. نوفل نيّوف

د. عادل اسماعيل

إيغَر شَفَريفِتش

لغزٌ عمرُه ثلاثةُ آلاف عام

تاريخ اليهود من منظور روسيا المعاصرة

ترجمة د.نوفل نيُّوف

د.عادل اسماعيل

المؤلِّف في سطور

إيغر شَفَريفِتْش عالم في الرياضيات، فيلسوف، وكاتب وشخصية اجتماعية، وعضو في أكاديمية العلوم الروسية، ودكتور في العلوم الرياضية والفيزياء.

ولد **إيغر شَفَريفِتْش** في مدينة ***جيتومير*** الروسية (3/6/ 1923) لأبٍ أستاذٍ في الميكانيكا النظرية، وأمٍّ متخصصة بالأدب. محيطُه الأُسري وما خلّفه الجدُّ من كتب زرَعا في **إيغر**، منذ طفولته الباكرة، حبّاً عميقاً للأدب الروسي وما فيه من حكايات وخرافات، ثم للتاريخ . وقد كانت الرياضيات شغفَه الثاني . غير أن موهبته الفذّة في الرياضيات مكّنته من اجتياز امتحانات كلية الميكانيكا والرياضيات في جامعة موسكو وهو بعدُ تلميذ في الصف الثامن. وحين أكمل دراسته في المدرسة الثانوية قُبِل طالباً في السنة الجامعية الأخيرة، فأنهى دراسته الجامعية وهو في السابعة عشرة من عمره (عام 1940). و بعد عامين من ذلك (أي سنة 1942) دافع عن أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه وعمره تسعة عشر عاماً . ثم نال لقب دكتور في العلوم في سن الثالثة والعشرين (سنة 1946) ليبدأ العمل، منذ ذلك التاريخ، في معهد الرياضيات لدى أكاديمية العلوم السوفيتية، إلى أن تولّى رئاسة قسم الجبر عام 1960.

في 20/6/ 1958 (وعمره خمس وثلاثون سنة) انتُخِب عضواً مراسلاً في أكاديمية العلوم السوفيتية / قسم الرياضيات والفيزياء.

سنة 1959 فاز بجائزة **لينين** (أعلى جائزة في الاتحاد السوفيتي).

وفي 1991/12/7 نال لقب أكاديمي في أكاديمية العلوم الروسية.

أهم مؤلفات **شَفَريفِتش** العلمية كانت في الجبر، ونظرية الأعداد، والهندسة الجبرية . أوجد حلولاً لمسائل إشكالية كثيرة طرحها قبله علماء كبار، مثل **آيلر**، و**هاوس**، و**غالوَا**، و**بيرنسايد**...

صدرت ترجمة إنكليزية لمختارات تضم عدداً كبيراً من مؤلفاته العلمية تحت عنوان:

("Collected Papers", Springer, 1989).

وفضلاً عن شهرته العالمية كعالمٍ في الرياضيات، فإنَّ **شَفَريفِتش** كاتب وشخصية اجتماعية ، له كتب ومقالات ذات طابع تاريخي فلسفي، أو اجتماعي سياسي ... مثل "كُرْهُ الروس " (ثم : "كُرْهُ الروس : بعد مُضيّ عشر سنوات")، و"طريقان إلى هاوية واحدة"، و"الاشتراكية بوصفها ظاهرة في التاريخ العالمي"...

منذ أواخر الستينيات أفصح **شَفَريفِتش** عن وقوفه في صف معارضة النظام الشيوعي، وراح يشارك في النشاط الاجتماعي، فيصدر بيانات، ويعقد مؤتمرات صحفية دفاعاً عن الكنيسة الأرثوذكسية الروسية، ويعارض (بالاشتراك مع أحد "آباء" السلاح الذري السوفيتي، المنشقّ **أندريه ساخَروف**) استخدام الأساليب النفسية وسيلة تنكيل سياسي.

عام 1974 شارك مع الأديب المعروف، المنشقّ الشهير، الحائز فيما ب عدُ على جائزة **نوبل** للآداب **ألكسندر صَلْجِنيتسِن** ، في نشر كتابٍ في مطبعة "ساميزدات" السرية الممنوعة عنوانه "من تحت الصخور ". ويتألَّف هذا الكتاب من مجموعة مقالات تتناول الحياة الروحية والاجتماعية في ذلك الزمن . كما يتضمن مقالة كتبها **شَفَريفِتش** نفسه، وعنوانها "الاشتراكية".

وقد وسّع **شَفَريفِتش** الأفكار الرئيسية في تلك المقالة، ثم أصدرها في فرنسا كتاباً مستقلاً عام 1977 تحت عنوان "الاشتراكية كظاهرةٍ في التاريخ العالمي ". ويتحدث المؤلف في هذا الكتاب عن الاشتراكية بوصفها ظاهرة تمثِّل قوة جبّارة تواجه البشرية فتهدد وجود ها وتشل العقل الذي يُعَدُّ أهم أركانها . وقد اعتمد **شَفَريفِتش** على فكرة النزعة التدميرية عند **سيغموند فرويد** القائلة بنزوع البشر إلى الموت، وذلك ليوضِّح رأيه القائل بأن الاشتراكية تلجأ إلى العنف ضد الفرد والجماعة، سعياً منها إلى تدمير الثقافة والدين على طريق ا لتدمير الذاتي...

أواخر عام 1974 عقد **شَفَريفِتش** مؤتمراً صحفياً في موسكو ، بمناسبة صدور مجموعة "من تحت الصخور"، انتقد فيه الاشتراكية والماركسية، وشن هجوماً على غياب الحريات في الاتحاد السوفيتي.

وسرعان ما أُقيل **شَفَريفِتش** بعد ذلك من عملِه في جامعة موسكو الحكومية عام 1975وكفّ عن التدريس منذ ذلك الحين.

وفي عام 1977 أجرت إذاعة "بي بي سي " البريطانية مقابلة معه تحدث فيها عن محاربة الدين والمتدينين في الاتحاد السوفيتي . ولم تلجأ السلطات السوفيتية يومها إلى طرد **شَفَريفِتش** من البلاد، على جري عادتها مع الآخرين، لأسباب يعزوها بعضهم إلى أهميته كعالمٍ وحائز على جائزة **لينين** ، فيما يردها بعض آخر إلى رغبة الكريملِن في إبقائه تحت أنظار أجهزة الأمن السوفيتية (كي جي بي)، واستخدام بقائه كدليل على أن للمعارضين، أصحابِ الرأي الآخر، مكاناً في البلاد أيضاً.

عام 1980 صدرت في دار النشر السرية "ساميزدات" في الخارج الطبعة الأولى من مقالة **شَفَريفِتش** "كُرْه الروس". وقد استند المؤلِّف فيها إلى المؤرخ القومي الفرنسي المعروف في مطلع القرن العشرين، **أوغسطين كوشين**، صاحب فكرة "الشعب الصغير"، أي النخبة القومية التي فرضت على "الشعب الكبير " أفكارها ونظرياتها وكانت السبب الحقيقي والقوة المحركة للثورة الفرنسية (1789). إذ يرى **شَفَريفِتش** أن التجسيد الروسي لظاهرة "الشعب الصغير " لعب دوراً كبيراً في الثورة الروسية (1917) أيضاً . على أن "الشعب الصغير "، وَفقَ رأيه وبالتوازي مع **كوشين**، ليس تياراً قومياً ما، بل هو تيارٌ خليطٌ يشارك فيه ممثلون عن مختلف القوميات في المجتمع، غير أنه يقوم على نواة مؤثِّرة ترتبط باليهود.

في هذه المقالة/الكتاب "كُرْه الروس" يؤيد **شَفَريفِتش** الرأي القائل بأن إعدام الأسرة القيصرية (على أيدي الشيوعيين) يمثّل عملية "قتل طقسي" يهودي.

لئن كانت الطبعة الأولى (عام 1980) من "كُرْه الروس" مرّت بسلام، "مرورَ الكرام"، فإن طبعتها الثانية التي صدرت في روسيا بعد مُضيٍّ أقل من عشر سنوات (عام 1989)، أي أيام البيريسترويكا، بعد انهيار النظام الشيوعي، كان لها مصير مختلف تماماً، إذ حظيت بشهرة، سلبية وإيجابية، واسعة وكان لها وقع القنبلة .

فسرعان ما رمى خصوم ليبراليون في الداخل مؤلِّفها بـ "العِداء للسامية ". ووجَّه 31 من الشخصيات الروسية البارزة، بينهم **ساخَروف** و**دميتري ليخاتشوف** ، مثلاً، رسالة ضد **شَفَريفِتش** وأفكاره. أما في الخارج ، فقد طالبت الأكاديمية الوطنية الأمريكية للعلوم **إيغر شَفَريفِتْش** بمغادرة صفوفها (في 1992/7/16)، نظراً لعدم وجود إجراءات طرد أو فصل من الأكاديمية (وعدم وقوع حادثة مماثلة خلال 129 سنة من عمر هذه الأكاديمية). ولمّا رفض **شَفَريفِتْش** الانصياع لهذا الطلب أصدر مجلس الأكا ديمية بياناً خاصاً عبّر فيه عن "شجبه أعمال **شَفَريفِتْش** المعادية للسامية"، كما جاء في البيان.

وفي عام 1989 أيضاً نشر **شَفَريفِتْش** بحثاً بعنوان "طريقان إلى هاوية واحدة ". وفيه يهاجم الشيوعية والديمقراطية الغربية معاً.

انتخب **شَفَريفِتْش** أواخر عام 1991 نائباً في البرلمان الروسي (مجلس الدوما) في قائمة "الاتحاد الروسي الشعبي العام". وانضمّ بعد أقلَّ من عام إلى اللجنة التنظيمية لـ "جبهة الإنقاذ القومي"...

ساهم في تحرير بعض الدوريات، ونشر عام 2002 كتاباً يُعَدُّ شديد الموضوعية والأهمية في بابه، وهو: "لغزٌ عمرُه ثلاثة آلاف عام(تاريخ اليهود من منظور روسيا المعاصرة)".

يقول **إيغر شَفَريفِتْش** عن نفسه إن الكتب التي كان لها تأثير عميق في تكوينه هي،على وجه الخصوص:

الحكايات التي جمعها الروسي **أفاناسييف** ، والألمانيان الأخَوان **غريم**، والتراجيديا الإغريقية (ولا سيّما مسرحية **إسخيلوس** "بروميثيوس مقيَّداً ")، وتاريخ **هيرودوت** ، والجزء الأول من "فاوست " **غوته** ، و**بوشكِن** و**دوستويفسكي** ، ومن المعاصرين أعمال **ألكسندر صَلْجِنيتسِن** : ("يوم من حياة إيفان دينيسَفِتش "، و"مدار السرطان "، و"أرخبيل غولاغ ")، و**فاسيلي بيلوف** "العشيّات "، و**فالِنتين راسبوتِن** "وداعاً يا ماتيورا "، وأعمال **فلاديمِر بروب** حول الحكاية، و "أسطورة العَود الأبدي " لـ **م. إلياده**، وأعمال كتبها كل من **دميتري ليخاتشوف** ، و**هيبوليت تين**، و**ماكس فيبر**، و**زومبَرت**...

ما يزال **إيغر شَفَريفِتْش** يعيش ويتابع الكتابة في موسكو.

ن. نيوف

دمشق

آذار 2009

مقدمة

لقد كتبتُ جزءاً كبيراً من هذا الكتاب قبل ما ينوف على خمسة وعشرين عاماً من الآن. كنت يومئذ أضع كتاباً (وبالطبع لدار النشر **ساميزدات** [1])، عشية أزمة تقترب، أخصصه للوضع في الاتحاد السوفيتي في ذلك الوقت (أي قبل "**البيريسترويكا** ")، وكنت أتحدث في ذلك الكتاب عن نزعات تجلّت حينئذ، وكانت في تقديري خطيرة على مستقبل البلاد. على أنني لم أكن قادراً على عدم لفت الانتباه إلى المشاركة الفائقة البادية للعيان التي كان يقوم بها الكتّاب والأدباء اليهود في تطوير تلك النزعات. وفي سياق مناقشة جميع القضايا المطروحة آنذاك، كان يخطر على بالي بعض التشابهات التاريخية فأقوم باستعراضه. وشيئاً فشيئاً اتّضح لي أن غزارة هذه الاسترجاعات التاريخية تحجب الفكرة الأساسية في كتابي. وقد نصحني صديقٌ لي، لم يعد على قيد الحياة الآن، قائلاً إنه خير لي أن أجمع هذه الاسترجاعات التاريخية كلها في ملحق واحد أضمه إلى الكتاب. وقد راقت لي الفكرة، فبدأت بكتابة هذا الملحق. وشرعت، في أثناء العمل، أتعرف على أعمال جديدة عليَّ، فأدرجت الأفكار والوقائع التي استخلصتها منها أيضاً في الملحق المعني. وأصبح لدي، في المحصلة، نص أو حتى نصان (أحدهما كان مخصصاً للتاريخ الروسي حصراً) يفوقان معا الكتاب الأوليّ حجماً. لقد فقد هذان النصان المعنى بوصفهما "ملحقاً"، وعندئذ لم أدرجه ما إطلاقاً في كتابي الذي نشرته في "**ساميزدات**" تحت عنوان "**الرهاب الروسي**" وراح يعيش حياته المستقلة، بينما ظل النص التاريخي نائماً في "الدرج".

لقد أثار نشر كتابي "**الرهاب الروسي**" كثيراً من الردود عليه، سواء داخل البلاد أو خارجها. وإنه ليؤسفني أن تلك الردود كانت جميعها على وجه الحصر تقريباً ردوداً على إشاراتي إلى الكتّاب اليهود ذوي الصلة بالتيار الذي كنت أناقشه، وإلى أقوال عن دور الثوريين اليهود في ثورة عام 1917، علماً بأن ذلك لم يكن الشيء الأساس في كتابي، وهو أمر واضح، مثلاً، من عنوانه، بل و يجري التأكيد عليه غير مرة في متن الكتاب. ثم إنهم، وفي هذا الجانب الضيق أيضاً، كانوا في العادة يتجاهلون حججي وما أطرحه من أسئلة (يدرجونها تحت مصطلح "العداء للسامية"، على سبيل المثال)، ومجمل هذا الكم من المقالات والتصريحات المتفرقة كان، على الأغلب، يعكس شعوراً بالاستياء من خرق بعض المحرمات، ومن مناقشة قضية تحظى بالاعتراف أنها لا تناقش. وقد خيل إليّ أن ردة الفعل هذه مذهلة، ولا سيما الآن، فيما يعترف الجميع، على ما يبدو، بجدوى المناقشة المفتوحة لأي موضوع. إن المفارقة في هذا الموضوع جذبت انتباهي إلى المسألة التي يبدو أنها تحتل مكانة استثنائية تماماً في الوعي المعاصر. لقد شغلني هذا الموضوع بمختلف جوانبه. وبذلك ازداد اتساعاً نص "الملحق" الذي أعددته يوماً لكتابي "**الرهاب الروسي**"، ولم أنشره. فلعل نشره اليوم يبدد بعض مكامن الحيرة التي نشأت من جراء الإيجاز الإجباري (خصوصية "**ساميزدات**") في كتابي المذكور أعلاه.

---

[1] ***"ساميزدات" كلمة روسية تعني حرفياً "النشر الخاص أو الذاتي"، وأطلقت على ما كان المنشقون والمعارضون في الاتحاد السوفيتي يصدرونه سراً من كتابات ممنوعة، لأن جميع دور النشر كانت تابعة للدولة. – المترجم***

لقد مرت سنوات كثيرة منذ ذلك الحين. وإنه لمن دواعي حزني العظيم أن تكون الأفكار التي أعربتُ عنها في ذلك الكتاب، وأعددتُ نشرَه فيما بعد، قد تأكدت تماما، كما أظن.

فالنزعات التي كنت أ شير إليها، بوصفها تصدعات لا تكاد تظهر في بنيان الدولة إبان ذلك الزمن ، إنما تحولت الآن إلى هوّات وانهيارات دمرت البلاد تقريباً . وقد عادت إلى البروز من جديد، وعلى وجه الخصوص، ظاهرة المشاركة المفرطة من جانب بعض التيارات اليهودية في عملية التدمير هذه.

مرةً أخرى الآن، وكما قبل خمسة وعشرين عاماً ، تبرز الحاجة إلى الاستيعاب الفكري لما جرى من أحداث . إننا نعيش في وضع جديد تماماً نشأ عن التغيرات الدراماتيكية التي وقعت في غضون السنوات الـ 12- 15 الأخيرة. إلا أن هذه التغيرات تمنحنا أيضاً مادة غنية للتفكير، بل وحتى وجهة نظر جديدة كل الجِدةً نستطيع من زاويتها أن نطل على التاريخ كله.

إن هذا الكتاب يتضمن النص القديم الذي يعود إلى ما يزيد عن خمس وعشرين سنة خلت (بعد إعادة النظر فيه أحياناً)، وكذلك ما استجد لديَّ من ملاحظات وأفكار . فمضمون عملي هذا يتكشف، كما أظن، من عنوانه . إنه مناقشات تدور حول الموضوع الذي يسمى، وأحياناً بضبابية كبيرة، بـ "**المسألة اليهودية**".

إنني أريد أن أحدد موقفي حالاً: لقد كان حافزي، عند كتابة هذا العمل، معايشة تاريخِ شعبي، بل حتى وبقدْ ر أكبر، مناقشة مستقبله المحتمل. وهذا ما يحدد توجه الكتاب، إذ إن تاريخ العلاقات بين اليهود والشعوب الأخرى يفيد بوصفه مَ جْمَ عَ أمثلة لتوضيح العلاقات المتبادلة بين الروس واليه ود. ويخيل إليَّ أنه مستحيل أن يكون في الإمكان مناقشة هذه المسألة بعيداً عن انتمائك القومي، كما لو من علٍ، مثلما يزِنُ **زيوس**، عند **هوميروس**، مصير، أو "قسمة"، كل من **هكتور وأخيل** دون تحيز. إذ إن ذلك يتطلب من المرء أن يكون ملك الصواعق الخالد. إلا أن وجهة النظر المشوبةَ بهوى بشري لا تفترض الانحياز ، ولا سيّما العداء على وجه الخصوص، وذلك على الأقل لأن الكُره ناصح رديء. إن هدف هذا الكتاب هو تقديم بعض الوقائع والأفكار التي يمكن أن تساعد على صوغ وجهة نظر روسية إزاء مسألة صعبة وهامة، ولا سيّما بالنسبة للروس، هي "المسألة اليهودية".

ولكننا في البداية ينبغي، بالطبع، أن نناقش ما إذا كانت هذه "المسألة" موجودة أم لا، وهل لدينا هنا مادة معقولة لإعمال الفكر فيها. من هنا يبدأ هذا العمل.

لقد قدّ م لي السيد س . ي. **ديموشكِن**، في أثناء إعداد مخطوط هذا الكتاب، مساعدة لا تقدَّ ر بثمن. فلولا تعاونه معي لما كان لهذا الكتاب أن يرى النور، بالتأكيد.

وإني لمدين بالشكر الجزيل للسيد م . ف. **نازاروف** الذي قرأ مخط وط الكتاب وأدخل عليه ملاحظات بالغة القيمة في تقديري.

كما أتقدم بالشكر إلى جميع من قرأوا المخطوط (أو أجزاء منه) على ما تفضّلوا به من ملاحظات.

وإني لعميق الشكر أيضاً لجميع من ساعدني في الحصول على ما كان يحتاجه هذا الكتاب من مراجع، سواء داخل بلادنا أو خارج حدودها.

المؤلف

الفصل الأول

هل توجد "مسألة يهودية"؟

لعب اليهود غير مرة دوراً مصيرياً في تاريخ بلادنا ، سواء في الحركة الثورية ، أو في الاقتصاد ، أو في الإعلام قبل ثورة عام 1917، أو في جهاز السلطة بعد الثورة (في الحزب ، وأجهزة الأمن ، وتنظيم الإدارة السياسية للدولة، ومفوضية الشعب لشؤون الداخلية– وزارة الداخلية – والصفوف الأولى في الوزارات الأساسية). كما أن دورهم بالغُ الضخامة في الحياة المعاصرة، أي في الحزب وجهاز الدعاية والثقافة، وفي تشكيل موقف الغرب من الاتحاد السوفيتي، وفي التحكم بالرأي العام . وما من شك في أن تأثيرهم لن يتراجع في المستقبل المنظور . (بعد قرابة عشرين عاماً من كتابة هذا النص، أكّدتِ الأحداث أواخر الثمانينيات وخلال التسعينيات، كما أظن، تأكيداً كاملاً هذه الفكرة التي أعرضها بمزيد من التفصيل في الفصول التالية).

يخيّل إليّ أن التفكير المستقل في بلادنا كان يجب أن يعود دائماً إلى هذه الظاهرة المذهلة والهامة . غير أن ذلك لم يحدث، لأسباب كثيرة، وليس الآن فقط ، بل وفي الماضي أيضاً. على أن الأديب **دوستويفسكي** يندرج في عداد القليل من الاستثناءات ، وهو مَن أدركتْ بصيرتُه كثيراً مما كان لا يزال خفياً عن الآخرين، فخصَّ *"المسألة اليهودية"* قبل ما يزيد عن مائة عام بعدد من المقالات العميقة. وقد بدأها بالقول:

"أوه، لا تظنوا أنني أنوي حقاً إثارة *"المسألة اليهودية"*. فقد كتبت هذا العنوان من باب المزاح. إذ ليس في مقدوري أن أثير مسألة بهذا الحجم، كوضع اليهود في روسيا التي تضم بين أبنائها ثلاثة ملايين يهودي . إن هذه المسألة تفوق طاقتي".

بالطبع، إن هذه الكلمات لا تمثل تعبيراً عن غنج الكاتب، إذ يبدو أن **دوستويفسكي** كان يشعر بأن زمنه لم يكن بعدُ يقدِّم له الوقائع اللازمة، ولا وجهات النظر المطلوبة للاقتراب من فهم الجذور الحقيقية للقضية التي يلامسها (مثل هذه التلميحات موجودة في مقالاته). لكن القرن العشرين المنصرم زوّدنا بجملة من الوقائع الجديدة بخصوص هذا الموضوع . إلا أنني أخشى أن لا يكون الوضع قد أصبح أكثر ملاءمةً عمّا كان عليه أيام **دوستويفسكي**، لأن الزمن حمل إلينا، فضلا عن الوقائع، كثيراً من الأساطير، والمحرَّمات، بل والكذب الصريح، حتى أصبح ذلك كله متاريسَ تسدّ المنافذ نفسها إلى *"المسألة اليهودية"*. وهكذا، فإنني أيضاً لا أضع في هذا الكتاب نُصْب عيني هدفاً هو "إثارة المسألة اليهودية "، سيّما وأنه "يفوق طاقتي " كذلك. ولكن بودي أن أحاول القيام ولو بالتمهيد لمناقشتها في ضوء مجمل تجربتنا الضخمة خلال القرن العشرين، علّني بذلك أساعد في تنظيف الطريق إلى فهم ما تعنيه هذه المسألة بالنسبة للروس (أي في إطار *"المسألة اليهودية"*).

ويعترض طريقنا ، قبل كل شيء ، القولُ بأن هذه المسألة عموماً لا يجوز أن تناقَش، فكثيراً ما يترامى إلى سمعنا أن: "استخدام شيء من التجريد ، من قبيل *"المسألة اليهودية"*، أو *"اليهود"*، أمر ليس إنسانياً ، لأن ذلك يقصي الذات البشرية، ويُقرُّ بأن بعض الناس مسؤولون عن أعمال الآخرين . فلا يعود ثمة أكثر من خطوة تفصلنا عن الزج في معسكرات الاعتقال و غرف الغاز، وفقاً للسمة الطبقية أو العرقية". غير أن "مناقشة" ظاهرة

اجتماعية أو تاريخية أمرٌ متعذرٌ من غير إدخال بعض من المقولات العامة : كالدول ، والأمم ، والفئات الاجتماعية. فذلك عنصر بالغ الأهمية في التحليل الاجتماعي والتاريخي، وهو في الحالات الأخرى لا يستدع ي أي اعتراضات. فلماذا يمكن الحديث عن الدور الذي مارسه *الهوغنوت* (بروتستانت على مذهب **كالفن**. – م) المهاجرون من *فرنسا* على تطور الرأسمالية في ألمانيا، بينما يُ عَدُّ لاأخلاقياً طرحُ مسألة التأثير المشابه الذي مارسه اليهود؟ أيمكننا أن نلقي النظ ر إلى الدور الكبير الذي لعبه طابع *روسيا* المتعددة القوميات في الثورة الروسية، ولكنه "ليس من التهذيب" أن نهتم، بصفة خاصة، بما كان عليه دور اليهود؟ هيهات أن يكون بالإمكان الإجابة عن أسئلة من هذا النوع ، إذا لم نقبل بأنه ينبغي أن نطبق على اليهود مقاييس تختلف عن تلك التي نطبقها على الشعوب الأخرى. يجب ألا نأخذ بعين الاعتبار إلا أننا نستخدم شيئاً من التجريد، ولا نضفي عليه صفة المطلق.

أما الاعتراض الآخر ، الذي يبدو للوهلة الأولى أكثر إقناعاً ، فهو التأكيد بأنه لا يوجد أي مسألة لها صفة العمومية ، وبأن مفه وم "اليهودي" و"الشعب اليهودي " هو تجريد فارغ لا يقوم على أي أساس واقعي . وهكذا يتساءل الفيلسوف الفرنسي المعاصر (ابن القرن العشر ين) **ريمون آرون** : ما الشيء المشترك بين اليهودي اليمني واليهودي الأميركي، حتى إذا كان كلاهما يعيشان في إسرائيل؟ وقبل ذلك بوقت طويل طرح **ستالين** هذا السؤال بالذات: ما الشيء المشترك بين يهود القوقاز واليهود الأميركيين؟ ولكن يتبين أن الجواب معروف جيداً لكثير من المؤلفين اليهود الذين ينطلقون من مواقع القومية اليهودية. إليكم كيف يفكر بهذا الموضوع أبرز زعماء القومية اليهودية في القرن التاسع عشر ، أي **هرتزل** الذي كتب (في النصف الأول منه) *"تاريخ الشعب اليهودي"* في أحد عشر مجلداً. يقول في المجلد الأخير من هذا "التاريخ": "بحلول منتصف القرن التاسع عشر شرع بعض القوميين اليهود بالشكوى من أن اليهود أخذوا يفقدون تعاضدهم الذي يعلو على الدولة ، وذلك تحت تأثير التواصل مع الثقافة الأوروبية، ونتيج ة لحصولهم على المساواة . ولكن برزت عام 1840 في *دمشق بسورية* قضية اتهام عدد من اليهود بعملية قتل طقسية[2] راح ضحيتها كاهن كاثوليكي، وسرعان ما انكشف:

"كم هي بديعة تلك الصلة التي توحِّ د أعضاء العالم اليهودي على نحو لا ينفصم، و كم هي متينة الأواصر التي ما زالت تشدُّ هم بعضاً إلى بعض على نحو غير مرئي و غير مدرك، فسرعان ما يجعل أوَّلُ تهديد للشعب اليهودي قلوبَ جميع اليهود على الكرة الأرضية تنبض بالحَمِيَّة الوطنية، أياً ما كانت مشاربهم الحزبية، و يتساوى في ذلك من كان منهم إصلاحياً متحرراً، أو أرثوذكسياً مغالياً، أو رجل دولة تخلّى ظاهرياً عن يهوديته، أو غارقاً في ترتيل نصوص *القبالاه*[3] *والتلمود*، وفي *فرنسا* المرحة، تماماً كما في *آسيا* السارحة في التأملات".

لقد تصدَّ ر حركة إطلاق سراح اليهود المعتقلين في دمشق كل من رجل السياسة الفرنسي **أدولف كريميه** ، والمقيمَ ين في *إنجلترا*: **البارون ناثانييل روتشيلد** ، والسير **موزيس مونتيفيوريه** . إذ سافر هؤلاء إلى *تركيا* ، فتمكنوا من تحرير اليهود المعتقلين، بل فرضوا إخراج تابوت الكاهن القتيل من كنيسة الدير الكابوتشي. نتساءل حقاً، ما هو الشيء المشترك الذي يربط البارون **روتشيلد** والسير **مونتيفيوريه** باليهود السوريين؟ غير أن ثمة

---

[2] أي دينية، تتعلق بطقوس العبادة. – المترجم.

[3] فلسفة القبول اليهودية. من كتب القبالاه: سفر "ياتسيرا" بمعنى كتاب الخلق، و"الباهر"، و"الزوهار". – المترجم.

نوعاً من "علاقة لا تنفصم". وهذه العلاقة ليست موجودة منذ القرن الماضي فقط . إليكم شهادة أخرى تعود إلى العصور القديمة Antique (إنها شهادة للمؤرخ الشهير **مومزين**):

"تشير ملاحظة أحد كتاب ذلك الزمن إلى كثرة عدد السكان اليهود حتى في روما، وذلك قبل **يوليوس قيصر** ، وإلى مدى صمود اليهود منذ ذلك الحين كقبيلة، وإلى أنه كان من الخطر على الحاكم أن يزيد من تدخله في شؤون اليهود المقيمين في مقاطعته، لأنه كان عليه أن يواجه عند عودته إلى روما غوغاء العاصمة وهي تستقبله بالصفير".

هكذا نجد اليهود، عبر التاريخ كله وحتى أيامنا هذه، مثل جسد "حيّ" واحد لا يلبث أن يستجيب لكل هزة ألم في أي من أعضائه. وما من مسألة حادة بالنسبة لليهود إلا وتتسابق إلى تناولها في الحال صحافة العالم بأسره، فقد ظهر ذلك ، مثلاً، في *"قضية دريفوس"*، و*"قضية بيليس"*، أو *"قضية الأطباء"*. ومنذ بداية القرن العشرين اصطدمت مباحثات الحكومة الروسية بشأن القروض في إنجلترا وفرنسا وأمريكا بمقاومة من جانب البيوتات البنكية اليهودية التي كانت تشترط تغيير وضع اليهود في روسيا . أي أن مصالح اليهود الروس كانت، مثلاً ، بالنسبة لآل **روتشيلد** الإنجليز أهمَّ من مصالحهم المالية الذاتية! ووصل الأمر إلى حد تنظيم مقاطعة عالمية، حتى أن البنوك التي حاولت خرق هذه المقاطعة تعرضت للضغط والعقوبات . ففي عام 1911 ألغى الرئيس الأمريكي **تافت** معاهدة عام 1832 التجارية بين روسيا وأمريكا، وذلك تحت ضغط الأوساط اليهودية المستاءة من وضع اليهود في روسيا ، وبصفة خاصة، من أن القوانين الروسية كانت تجعل دخول اليهود إلى روسيا محدوداً. ونشأ وضع مماثل عندما لم تعقد معاهدة تجارية بين الطرفين بسبب عدم السماح لليهود بالسفر من الاتحاد السوفيتي، فكنا شهوداً على ذلك (وظهر قانون **جاكسون – فينيك**).

وحتى وقت قريب كان بوسعنا أن نقرأ في الجرائد، أو أن نسمع عبر الإذاعات ، عن مظاهرات وعرائض ينظمها اليهود البلجيكيون، مثلاً، دفاعاً عن اليهود السوفيت الذين يتعرضون – حسب رأيهم – لمضايقات. ولكن ذلك أمر مذهل، إذ لو قُدِّر لليهودي السوفيتي أن يلتقي مع ذلك الأوروبي الذي يدافع عنه لتعذَّر عليهما أن يتبادلا الكلام ، في أغلب الظن . فما الذي يربط بينهما؟ لا اللغة، ولا الأرض أو حب مناظرها الحميمة، ولا الدولة، ولا الثقافة، بل حتى ولا الدين، في الأغلب الأعم. ويبدو أن اليهود أنفسهم لا يشعرون في أحيان كثيرة إلا بهذه القوة التي تربط بينهم، ولكنهم لا يستطيعون أن يجدوا لها تفسيراً عقلانياً. فمثلاً، ثمة مجلة معاصرة تصدر في إسرائيل باللغة الروسية نشرت مقالاً بقلم يهودي أمريكي جاء فيه:

"إن معظم ما يميز اليهود الأمريكيين الذين يشكلون اليوم قمة الطبقة الوسطى في أمريكا، ما يميزهم بوصفهم يهوداً، هو إحساس معيّن بالقربى (.....). ولعله من الأدق القول بأنهم "يشعرون بشيء ما"... وهذا الـ "شيء ما" هو ما يشكل أساس إحساسهم بيهوديتهم. "شيء ما ..." صغير (....). وكما يتبين، فإن فحوى هذا الشيء البالغ الخصوصية هو أن تكون مميزاً، وتنتمي إلى هذه الجماعة. إنه على قدر من الخصوصية يجعل الناس يرفضون التخلي عن الإحساس بهذا الانتماء، والتميز، ولا يريدون "مبادلته" بأي شيء آخر.

أما **فرويد** فيقول مخاطبا معاصره "المتمرد" قائلاً:

"لو سألوه، ما الشيء اليهودي فيك ، ما دمت قد تخليت عن كل ما كان مشتركاً بينك وبين أبناء جِ لدتك، لأجاب: ما زال فيَّ الكثير، وربما الشيء الأهمّ".

هذه الأقوال التي أوليتها انتباهي منذ زمن بعيد تتأكد بأقوال أخرى أقرب زمناً . فالكاتبة س. **مارغولينا**، مثلاً، وهي كاتبة مقيمة في ألمانيا، ومن جيل "الموجة الثالثة" من المهاجرين، تقول:

"ليس اليهودي اختلاقا خيالياً. إن وعي الذات يبدأ لديه من الإحساس بـ "الاختلاف". وهذا الإحساس يضرب بجذوره في موروث الاصطفاء الذي فقدَ منشأه الديني ليتجسد في شكل دنيوي للشعور بالتفوق والنرجسية".

وهنا كثيراً ما يُطرَح اعتراض آخر، هو: لئن كان يوجد قدْر ما من الوعي الذاتي لدى يهود العالم أجمع بأنهم كلٌّ واحدٌ متكامل، فإن سبب ذلك ليس كامناً في اليهود، وإنما في الوضع الذي وجدوا أنفسهم فيه، وهذه صفة مشتركة بين جميع الشعوب المشتتة والمطاردة . فلنُشِرْ إلى أن هذا الاعتراض يُقرّ بوجود تلك الظاهرة التي نناقشها ويكتفي بتقديم *تفسيرٍ* لها. ولكن حتى هذا التفسير لا يبدو مقنِعاً. فهو انعكاس لنظرية عامة، فحواها أن ما يتحكم بنشاط الجسم والإنسان والمجتمع ليس الحوافز الداخلية، وإنما تأثير الوسط المحيط . إنها نظرية مستقاة من البيولوجيا (الداروينية، السلوكية)، ولكنها لم تعد تحظى بشعبية حتى هناك، على ما يبدو . أما في الحالة التي تهمنا هنا، فيمكن القول بأن المسألة قابلة لأن يتحقق منها المرء بالتجربة، لأن عدداً كبير من الشعوب فقدَ دولته، وليس اليهودُ وحدهم! إلا أن مصير تلك الشعوب كان مختلفاً تماماً عن مصير اليهود . فقد قضت *بيزنطة* على دولة *الوندال*، ولم يعد أحد يسمع شيئاً عن *الوندال*، أما الدولة اليهودية فقد قضى عليها الآشوريون ، والبابليون، والرومان، ولكنّ دول هؤلاء جميعا قد بادت في نهاية المطاف، فيما لا يزال وجود اليهود مستمراً حتى الآن! كما قذفت الثورة الروسية إلى خارج البلاد بعدد كبير من المهاجرين الروس الذين كان معظمهم ملتهب المشاعر الوطنية، ويبذل قصارى جهده من أجل الحفاظ على علاقته بروسيا، إلا أن أحفاد أولئك المهاجرين يتكلمون الروسية بالكاد، ولا يشعرون تجاه روسيا إلا باهتمام عاطفي في أحسن الأحوال، أما تأثيرهم على الحياة السياسية في العالم، أو في تلك البلدان التي يعيش فيها أولئك المهاجرون فمعدوم تماماً ؛ في حين تقدم أمريكا مثالاً مذهلا، ذلك أن جميع سكانها تقريباً ، ومن مختلف الأجيال، هم من المهاجرين، ولكنْ ليس لمصالحهم القومية، إذا ما استثنينا اليهود وحدهم، إلا تأثير بالغ الضآلة على سياسة الولايات المتحدة الأمريكية. فوجود عدد كبير من الألمان لم يمنع أمريكا في الحربين العالميتين الماضيتين من القتال ضد ألمانيا. وبالمقابل، فإن مصالح الفئة اليهودية من سكان الولايات المتحدة الأمريكية مهيمنة بكل بساطة في السياسة هناك، إذ تضحّي واشنطن من أجلها بالصفقات التجارية مع الاتحاد السوفيتي، وبمسألة التزود بالنفط من الشرق الأوسط . وسنورد لاحقا أمثلة أخرى.

لقد لفت كثيرون الأنظارَ إلى هذه الظاهرة المذهلة. فكتب م. أو. **غيرشنزون**، مثلاً:

" إن تاريخ اليهود (....) غريب للغاية باختلافه اللافت عن تاريخ الشعوب الأخرى... ".

وهو يسوق الصورة التالية:

"بالمقارنة مع معظم النباتات المرتبطة بمكان معين، فإن النبتة التي تجوب البحر لا تكون طبيعية ... وهم (أي اليهود،– المؤلف) يشبهون النباتات التائهة في البحر، تلك النباتات التي لا تمد جذورها إلى القاع".

ويجب الإقرار، أخيراً، بأن حياة البشرية لا تخضع لمنطق مبتذل، وبأن فيها قواعد عامة، واستثناءات من تلك القواعد، وبأن مصير اليهود ما هو إلا واحدٌ من تلك الاستثناءات . هذا الإقرار يقدم فائدة لا تقدَّر بثمن، إذ إنه يجنبنا التصديق بوجود حلول سهذجة وسخيفة، كالتصديق، مثلاً، بأن المسألة اليهودية التي ظلت لغزاً أمام البشرية طيلة ثلاثين قرناً، ستجد حلها نتيجةً لاندماج اليهود، أو بإصدار قوانين خاصة تنظم أوضاعهم.

إن عدم الرغبة بالتخلي عن التصورات البسيطة الساذجة أمر مفهوم تماماً . فكم يصعب التخلي عن وجهة النظر "العاقلة" و"المنطقية" الزاعمة بأن اليهود شعب كالشعوب الأخرى؛ إلا أن القوميين المتطرفين اليهود من جهة، والمتطرفين في كُرْهِ اليهود من جهة ثانية (حيث يلتقي هذان الفريقان في التطرف) يتصورون اليهود بوصفهم إمّا رسلاً من السماء، وإما أبناء الجحيم . إنهم بالطبع شعب ذو تاريخ صعب، متكاتفون على نحو غريب، ولكننا لو وضعنا آخرين في ظروفهم نفسها لكانت النتيجة مشابهة . إن التخلي عن وجهة النظر هذه يوقعنا، على ما يبدو، في مجال خيالات ما، أو غيبيات (بل حتى إنه لمن المزعج الاعتراف بأن للآخرين بعض سمات خاصة ومتفردة). إن كاتب هذه السطور يعرف من خبرته الشخصية كم هو صعب أن يتخلى المرء عن هذا التصور، وكم يطول به الزمن وهو يضحِّي بالمنطق والوقائع في سبيله ، قبل أن يدرك بوضوح كامل أنه يقارع حقيقة جلية . فالأمر لا يقتصر على أن اليهود ليسوا شعباً كباقي الشعوب، بل وليس بينهم وبين الشعوب الأخرى نقاط تقاطع، أي أن هناك قطيعة، خرقاً للاستمرارية. أما عندما تتعرض الشعوب الأخرى لوضع مشابه للوضع الذي يكون فيه اليهود فإن ذلك لا يعدو كونه تأكيداً على اختلافهم. فلا يجوز إنكار وجود تلك القوة التي سماها **غريتس** بـ "الوشائج العجيبة" التي توحد يهود العالم ، إذ ما أكثر تأثير هذه القوة على حياة البشرية وما أشده. وكوننا نحن – وربما اليهود أنفسهم – لا ندرك العوامل التي تساعد هذه القوة على الفعل ، لا يضع وجود هذه القوة موضع الشك . ذلك أن الفيزيائي الذي يراقب ظاهرة ما لا ينكرها لمجرد كونه لا يستطيع تفسيرها بعدُ. على أننا سننطلق لاحقاً من وجهة النظر هذه، أي من وجود قوة اجتماعية ما، تعمل ككل واحد، ويمكن أن نسميها بـ"النفوذ اليهودي في العالم"، أو بـ "الجماعة اليهودية". إننا لن نحاول تحليل الدوافع الداخلية التي تحرك هذه القوة وتدفعها في هذا الاتجاه أو ذاك، بل ولن نتساءل عمّا إذا كان جميعُ اليهود يخضعون لتأثير هذه القوة، أم بعضهم فقط. ذلك أن الذين يخضعون لها هم مَن يشكلون "الجماعة اليهودية". وسوف ينصبّ اهتمامنا على ما يثير هذه القوة ويحفّزها، وكيف تتغير نقطة تموضعها، ولن نتكلم عن "أهدافها" إلا بهذا المعنى حصراً.

إن وجود هذه القوة بالذات هو ما يشكِّل "المسألة اليهودية". وخلال عملنا هذا كله سنحاول إظهار تجلياتها في الأوضاع التاريخية بشتى أشكالها، بدءاً من المراحل الغابرة وحتى أيامنا هذه . ولكن فيمَ "القضية" على أي حال؟ لماذا وجود هذه القوة (إذا ما افترضنا أن حججنا مقنِعة بأنها موجودة)؟ لماذا هذه الحقيقة هامة ، ونحن ننظر إليها كمسألة مطروحة علينا باسم التاريخ؟ يبدو أن السبب يعود إلى كون هذه القوة تظهر أكثر ما تظهر عندما ينهار بعض الأنظمة الحياتية التقليدية، فتصبح عاملا يساعد على تقويضها بصورة جذرية خالية من الرحمة. لكأن التاريخ برمَّته تبيان لما يشبه التعايش بين هذين الجوهرين المتباينين اللذين يصعب الجمع بينهما. إنه تعايش يتحول إلى نزاعات يتحمل فيها الأذى تارة هذا الجانب ، وتارة ذاك. فالمذبحة التي قام بها القوزاق بقيادة **خميلنيتسكي** في قرية **نِميروف** اليهودية كأنما تجسدت في مذبحة العرب في قرية **دير ياسين** الفلسطينية، وفي

مخيَّمي *صبرا وشاتيلا* للاجئين الفلسطينيين في *لبنان*. إن الأمثلة تظهر عبر التاريخ كله، وهي تطالعنا بكثرة في هذا الكتاب أيضاً. وهيهات أن يكون البحث عن "المذنب" ذا جدوى في نزاعات بهذا الحجم . إن ما يفوقه أهمية هو إدراك الوضع نفسه . فكون تاريخ الجماعة اليهودية استثنائياً، غيرَ مألوف ، هو تحديداً ما يفسر اجتذابها الدائم للفكر البشري، والنظر إليها بوصفها لغزاً.

وكما أسلفنا، فإن القوة التي تمثل مدار اهتمامنا هنا تتجلى من خلال مقطع من التاريخ كبير للغاية . لذلك، وتوخِّياً لالتقاط بعض سماتها ، لابد من متابعتها عبر هذا المقطع الزمني بكامله . وسوف نورد هنا عرضاً بالغ الإيجاز، أو وصفاً شديد التكثيف خلال الحقبة التاريخية التي يمكن أن نراقبها فيها . فكتابنا هذا جهد تمهيدي لمن سيحاول في المستقبل أن يتملى بمزيد من العمق تأثير تلك القوة على مصير شعبنا ، أو على مصير البشرية بأسرها؛ لكأننا نرسم المهاد التاريخي الذي ينبغي أن تدُرَس هذه المشكلة من خلاله، كما أظن.

إننا نواجه هنا مجالاً خُصَّ بكمٍّ هائل من الكتابات. ونحن لن نعتمد في كتابنا هذا إلا على جزء صغير من تلك المراجع. إن ما يلعب دوراً في ذلك لا ينحصر في السبب الجلي المتمثل في عجز المؤلف عن الإحاطة بمجمل الكتابات (ويعود هذا في كثير من الحالات إلى تعذر الحصول على المراجع التي تبدو مشوِّقة)، بل (وهو الأمر الأكثر جوهرية) يتعداه إلى كون هذه الكتابات في معظمها متحيزة تماماً ، ولا تحظى إلا بقدر ضئيل من الثقة. وتلك الاعتراضات التي أوردناها في بداية هذا الفصل ضد مناقشة "المسألة اليهودية" تُعَدّ أنماط تفكير متجذِّرةً بكل بساطة، وتكاد تكون أركان رؤية ما، يثير عدم الخضوع لها غضباً لاعقلانياً. وتظهر قوة المشاعر الملتهبة هنا من خلال اتساع الحجج التي تتعدى كثيراً حدود النقاش الذهني . ويكفي أن نذكِّر بأن التعبير ، حتى بصورة علنية في عدد من بلدان الغرب الآن، عن الشك برقم ستة ملايين يهودي قتلوا بـأيدي النازيين، هو جناية يعاقَب عليها بالسجن. وقد أدت أحكام هذه المادة إلى معاقبة عدد من الأشخاص ، فأمضى بعضهم مدة سجنه، وهرب بعض آخر، بينما سُرِّح فريق ثالث من عمله دون أمل بإيجاد عمل ، ودون حقٍّ بالحصول على معاش تقاعدي . بل وأنا شخصياً، وتحديداً في مرحلة ازدهار الحرية الليبرالية في بلادنا، ما إن حاولتُ مقاربة هذه "المسألة" بالكلمة المكتوبة حتى واجهني طلبٌ علنيٌ بأن تحال مؤلفاتي إلى كي. جي. بي.(كما كان يسمى جهاز الاستخبارات في ذلك الحين). وقد جاء ذلك من كاتب في الصحف كان يَدَّعي الإخلاص للديمقراطية ! يومها اكتشفت لأول مرة أنه لا تناقض في هذا الموقف . على أن ذلك يولِّد لدى كثيرين الحذر والرقابة الذاتية، أي بالضبط ذلك الرقيب الداخلي الذي يتذكره الجميع في أيام النظام الشيوعي.

وطبيعي أن هذه الإضاءة المتحيزة والأحادية الجانب لقضية هامة استدعت، كرد فعل، ظهورَ مؤلفات كثيرة لدى الاتجاه المضاد تتقتع بالقدْر نفسه من التحيز، ولا سيما خلال السنوات العشر الأخيرة في بلادنا . إنها مؤلفات تزخر بالأفكار أو بالوقائع المعلنة التي تبعث على الشك بسبب أسلوبها السجالي المتطرف تحديداً . وسأستشهد هنا بواحدة من دراسات **فاديم كوجينوف** ، هي الأخيرة التي نشرت في حياته، على ما أظن . وقد طُبعت هذه الدراسة في مجلة *"سفيتايا روس"* التي تصدر في مدينة *مينسك* أيضاً تحت عنوان *"الحرب وَفقاً لقوانين النذالة"*. يقول **كوجينوف** في دراسته تلك إن الكتاب مخصص أساسا لـ."المسألة اليهودية "، ولكنه يضم بين دفتيه ركاماً مختلطاً ، ففيه، كما يقول، مسألة "جوهرية للغاية وحادّة للغاية"، إلى جانب عدد كبير مما نشأ

حول هذه المسألة من آراء مسبقة، وشائعاتٍ وأساطير يجري التحقق منها . ويخص **كوجينوف** بالذكر رأياً يحضُّ عليه الكتاب، مفاده أن "اليهود وحدهم مصدر جميع الشرور في العالم"، وكذلك قولاً بأن "جميع اليهود في جميع الأزمنة هم الأعداء الألداء لروسيا والعالم برمته". وإلى هذا النوع من التصورات أيضا ينسب **كوجينوف** في هذا الكتاب عدداً وافراً من "الوقائع" التي لا يقبلها العقل ولم يتحقق منها أحد، مثل "**وصية ستالين**"، وإجمالاً تصوير **ستالين** بوصفه مناضلاً مبدئياً وثابتاً ضد النفوذ اليهودي ("الصهيونية")، ولا سيما قائمة طويلة بأسماء رجال السياسة الذين لا يروقون للمؤلفين، فيزجّون بهم في عداد اليهود ، ويشيرون إلى ألقابهم "الحقيقية" التي لا يعرف أحد من أين ج اؤوا بها، مثلاً : **خروشوف، سوسلوف، غورباتشوف، يلتسِ ن، تشرنوميردِ ن،** وحتى **غيرينغ وغوبلز**. لقد أشرت إلى هذا الكتاب بوصفه واحداً من النماذج لا غير . كيف نستنبط، إذاً، من الأدبيات هذه الوقائع أو تلك، وكيف نوجّه خُطانا في مجال العلاقات البشرية التي تشكل هذه "المسألة" عموماً؟ يحسن بنا أن نقتصر على المراجع الجديرةِ بالثقة، ولكن مِن جانب مَن هي "جديرة بالثقة"؟ من أي وجهة نظر؟

ومع ذلك، يخيل إليَّ أن هناك عدداً من الدلائل التي تمنحنا الإمكانية لانتقاء المراجع (أو أجزاء محددة منها) التي يمكن الركون إليها ولو بقدر ضئيل. وسوف آتي على ذكر هذه الدلائل . فخلال هذا الكتاب سوف أستخدم هذه المراجع بالضبط.

أولاً، تلك المراجع التي يمكن تسميتها بـ "المصادر الأولى "، كـ *"العهد القديم"*، مثلاً. إذ يبدو أن ترجماته، باستثناء بعض التفاصيل، ليست مثار شكوك، ولذلك يمكن الركون إليه بقدر كبير لدى الحديث عن روح الجماعة اليهودية. ويمكن أن نضم إلى هذه الفئة من المراجع كذ لك كلاً من *التلمود* وشروحاته المختلفة *("شولحان عاروخ"، مثلاً)*. أما السؤال عن الترجمات التي يجب اعتمادها هنا فهو أكثر صعوبة، وسوف نعود إليه في حينه.

وتتمثل الفئة الثانية من المراجع في أ عمال المؤلفين اليهود ، أمثال المؤرخ اليهودي الشديد التدقيق **غِرشو ن شوليم** ، أو أقوال مفكرين يهود متنفذين ، أمثال **آحاد هعام** ، أو **م. بوبر** ، وكِتاب مؤسس الصهيونية **هرتزل** ، ومذكرات أحد زعماء هذه الحركة **حاييم وايزمان** ، ورئيس المؤتمر اليهودي العالمي **ناحوم غولدمان** ، وبالطبع الكتاب الكلاسيكي الذي ألَّفه **غريتس** تحت عنوان *"تاريخ اليهود"*.

ويمكن أن نُدرِج في الفئة الثالثة كتابات المؤلفين اليهود الذين يقدمون أنفسهم كيهود، ولكنهم يعارضون النزعة المهيمنة في بعض الأوساط اليهودية. وهذا النموذج يمثله كِتاب "**روسيا واليهود**" الذي أصدره عا م 1923 ستةٌ من اليهود الذين كانوا في المهجر. إنهم لا يتنكرون ليهوديتهم بأي قدْر كان. ولكنّ الكتاب برمَّته مبنيٌّ على يقينٍ بأن على اليهود المقيمين في روسيا أن يدركوا قبل كل شيء أنهم مواطنو روسيا . وتقودهم وجهة النظر هذه إلى استنتاجات جديدة تماماً بخصوص بعض القضايا ، مثل مشاركة اليهود في الإعداد للثورة، وفي تثبيت السلطة السوفيتية، وفي الحرب الأهلية... إلخ، وصولاً إلى النطق بتقييم من فم هؤلاء المؤلفين اليهود للضحايا اليهود في مذابح اليهود إبان الحرب الأهلية . والمثال الآخر هو س .**مارغولينا** التي سبق أن استشهدنا بأقوالها. فقد كتبت، على سبيل المثال:

"إن مسألة دور اليهود وموقعهم في التاريخ السوفيتي هي إحدى أهم المسائل، علماً بأنها، في الوقت نفسه، واحدةٌ من أكثر قضايا زماننا تحريماً".

وثمة كتاب آخر من هذا النوع هو "**التاريخ اليهودي – الدين اليهودي. عبءُ ثلاثة آلاف عام**" بقلم **إسرائيل شاحاك** (صدر باللغة الإنجليزية عام 1994). ويُعتبر مؤلف هذا الكتاب وطنياً يهودياً، ومتحمِّساً في وطنيته لدولة إسرائيل. لقد ولد **شاحاك** في بولندا عام 1933، وتلقى تعليماً دينياً يهودياً، ثم هاجر سنة 1945 إلى إسرائيل[٤] وخدم في جيشها. وانطلاقاً من موقفه الوطني اليهودي تحديداً، يعتقد المؤلف بأن الأيديولوجيا الحاخامية القروسطية التي تهيمن الآن في إسرائيل، حسب رأيه، تُعَدُّ مميتة. ويدعو **شاحاك** إلى:

"البدءِ بتقييم نزيه للماضي اليهودي، والإقرارِ بأن الشوفينية اليهودية والشعور بالتفوق (بأن اليهود "**شعب الله المختار**"، – م) أمران موجودان، وإعادةِ النظر علناً بموقف اليهود من غير اليهود".

وأضع في إطار الفئة الرابعة من هذه المصادر تلك الأقوال التي تتضمنه ا مراجع تاريخية ثبتت موضوعيتها بخصوص مسائل أخرى واسعة الشهرة، وكذلك تأكيدات المؤلفين الذين يحظون بإجماع على حسن سمعتهم، أمثال عالِمَي الاجتماع م. **فيبر**، وف. **زومبرت**. وتنتمي إلى الفئة الخامسة، حسب تقديري، تلك التأكيدات المزودة بإحالات تم التحقق منها بدقة. وأضرب مثالاً على ذلك بكتاب **دوغلاس ريد** "**جدلٌ حول صهيون**". إذ ينقسم هذا الكتاب بدقة إلى قسمين، يتضمن الأول منهما عرضاً لوجهة نظر المؤلف التي تقول بأن سبط اللاويين الصغير يتحكّم بالسلطة في العالم على نحو مدروس، وذلك على امتداد بضعة آلاف من الأعوام. فالعالم تديره حكومة سرية تكون تارة في فلسطين، وتارة أخرى في بلاد فارس، وثالثة في إسبانيا، وأخرى في بولندا. وأداتها، بصفة خاصة، هي **محفل النورانيين** السري الذي قام بالثورة الفرنسية. ويؤكد **دوغلاس ريد** أن هذا الخط ظل مستمراً حتى الخمسينيات من القرن العشرين تقريباً، حين فرغ من تأليف كتابه. أمّا أنا فإنني لا أتصدى لتثبيت هذه الصورة ولا لنقضها. ولكن من الملحوظ أن المؤلف، عندما يتحدث عن نهاية القرن التاسع عشر، أو عن القرن العشرين، يتغير طابع استعراضه بحدة. فهو يورد عدداً كبيراً من الاستشهادات المأخوذة من كتب وجرائد يمكن الرجوع إليها، دون أن يعنيَ ذلك بالضرورة قبولَ الصورة التي ارتسمت أعلاه. لقد كان المؤلف، على ما يبدو، صحفياً كبيراً في القضايا الدولية، فاحتفظ في أرشيفه بقصاصات من الجرائد تتعلق بالموضوع الذي نحن بصدده. لقد حصلتُ على بعض الكتب التي يعتمدها **دوغلاس ريد**، وتثبتُّ من أنها تتفق تماماً مع عرضه لها في متن كتابه. (فبفضل استخدامي لثبْت المراجع التي يتضمنها كتابه تعرفت، مثلاً، على التاريخ المذهل لمحاربة المسيحية في المكسيك خلال عشرينيات القرن العشرين. وقد وضع الكاتب غ. **غرين** حول هذه المسألة بالذات عددا من الكتب الباهرة). فإذا ما ورد في كتابه "**جدل حول صهيون**" نص مأخوذ بين أهلَّة ("...") ومصحوب بإحالة (مثلاً: "نيويورك تايمز" 11 تشرين الأول 1956)، كان من الصعب أن نتصور أن المؤلف اختلقه اختلاقاً. ولكن التوجه العام لدى هذا المؤلف هو بالضبط ما يخفق في إثباته من خلال الأحداث المتعاقبة. فهو يؤكد، مثلاً، أن حكم اليهود للعالم يتحقق عن طريق إخضاع الغرب للاتحاد السوفيتي !

[٤] **لم تكن إسرائيل بعد موجودة كدولة قبل اعتراف الأمم المتحدة بها عام 1948، وكان اليهود يهاجرون إلى دولة فلسطين الواقعة تحت الانتداب البريطاني. – المترجم.**

على أن عددا كبيراً من الوقائع الم لموسة ، المدعمة باستشهادات دقيقة، ينطوي على فائدة جُلَّى. ويمكن قول الشيء نفسه عن كتاب المؤلف الأميركي المعاصر د . **ديوك** "**المسألة اليهودية كما يراها الأمر يكي**". ذلك أن أحكامه بشأن القضايا الروسية كثيراً ما تبعث على الشك . فهو، على سبيل المثال، يعلن ابتداء من المقدمة أن "أول حكومة شيوعية في روسيا لم يكن فيها إلا ثلاثة عشر روسياً مقابل ثلاثمئة يهودي من عددٍ إجماليٍ هو ثلاثمئة وأربعة وثمانون مفوضاً ". فعن أي حكومة وأي مفوضين يتحدث المؤلف؟ لقد كان مجلس مفوضي الشعب (مجلس الوزراء ، – م.) أقل عدداً من ذلك بما لا يقاس، أما المفوضون فكانوا موجودين في كل جيش وفوج وفصيلة. وكان عددهم يقدر بالآلاف. واستناداً إلى مراجع أخرى يتبين أن العدد (384 مفوضاً) مأخوذ عن الصحفي **فيلتون** الذي كان مراسلاً لجريدة " **تايمز**" في روسيا زمن الثورة. ولعل **فيلتون** كان يقصد قائمة محددة من الأسماء التي لو قدِّرَ لنا أن نعرفها لكان في وسعنا أن نحكم على مدى صدق الصورة التي يقدمها. ولكن عدم وجود قائمة بتلك الأسماء يجعل من هذا التأكيد مثالاً نموذجياً للأقوال التي لا يمكن إثباتها أو نفيها، وذلك لأن مغزاها نفسه ليس مفهوماً . ولكن الأسوأ من ذلك هو ما يكتبه **ديوك** حول مسألة أمر يكية صرِفة، عندما يتحدث عن "مئات آلاف الجنود الأ ميركيين" الذين قتل وا في فيتنام . ذلك أ ن الرقم الثابت والمتداول عادة بخصوص القتلى الأمريكيين في فيتنام هو 50 ألفاً. ولئن كان لدى المؤلف أسس للشك في هذا الرقم، فإن من الأهمية بمكان (بالنسبة للأمريكيين بالذات) أن يقدم تلك الأسس التي لا نقع عليها في كتابه. ولكن الكتاب، من جهة أخرى، يتضمن عدداً كبيراً من الاستشهادات المستقاة من كتب محددة أتيح لي أن أحصل على بعض منها، وأن أتحقق من أن اقتباساته منها دقيقة . ولذلك، فأنا أعتقد أن بالإمكان اقتباس استشهادٍ من هذا الكتاب (مصحوب بإحالة دقيقة) لم يكن في وسعي أن أتحقق منه شخصياً . وتعدُّ الانطباعات الشخصية مصدراً آخر من هذا النوع أيضاً. ويمكن العثور على هذه الانطباعات الشخصية في كتاب **دوغلاس ريد.** كما أنها كثيرة على وجه الخصوص في كتاب **شولغين** [°] الذي كان شاهداً على عدد كبير من الأحداث الدراماتيكية في تاريخنا، وكان في الوقت نفسه مراقباً لا يماري. ففي كتابه هذا، المخصص للعلاقات الروسية اليهودية ، يتجلّى ذلك النقص الذي كان منتشراً بين أبناء جيله، فهو لا يدقق بتمحيصٍ ما يسوقه من وقائع، ومثال ذلك تلك القائمة التي يتضمنها كتابه، وفيها الأسماء المستعارة لعدد من رجالات الثورة . ففي عام 1929، وهو العام الذي وضع فيه **شولغين** كتابه، كان يوجد كثير من الفهارس التي يمكنه أن يعرف من خلالها أن اللقب الحقيقي **لزينوفييف** هو **رادوميسلسكي** وليس **آبفيلباوم**، وأن **أوريتسكي** ليس اسماً مستعاراً، كما أن اللقب الحقيقي **لمارطينوف** هو **بيكر** وليس **زيبار**. (مع العلم أن التدقيق الأكثر تروِّياً يثبت تأكيد **شولغين** الأساسي بأن عدداً هائلاً من زعماء البلاشفة ذوي الأصل اليهودي كان يتسمى بأسماء روسية مستعارة). غير أن ذلك لا يجعل انطباعات **شولغين** الشخصية وملاحظاته أقلَّ تشويقاً.

وأخيراً، يمكن أن نصنف في خانة الفئة السادسة تلك المراجع التي هي مصدر ثقة، بكل بساطة، ونعني بها الاستنتاجات العقلية التي يمكن لكل امرئ أن يحكم بنفسه على ما تتحلى به من إقناع.

[°] المقصود هو كتاب: **فاسيلي شولغين**. *ما لا يُعجِبنا فيهم* الذي صدر في باريس عام 1929، ثم صدر عام 1992 في موسكو، بعد انهيار الاتحاد السوفيتي – م.

وهكذا، يمكن رغم كل شيء تجميع كمية كافية من المراجع التي يمكن الاعتماد عليها . **(إننا في كتابنا هذا لن نرفق كل استشهاد بإحالة على المرجع، وذلك تفادياً لإثقال النص بالهوامش . ولكننا نختتم كل فصل من فصول الكتاب بقائمة للأدبيات التي يستطيع المهتمون أن يجدوا فيها الوقائع الواردة في الفصل المعني، بالإضافة إلى أشياء كثيرة بخصوص هذا الموضوع).**

مراجع الفصل الأول :

1- دوستويفسكي ف.م.، يوميات الكاتب للعام 1877.

2- شَرَفَيَيفتِش إ. الرهاب الروسي، موسكو، 1994، المجلد الثاني.

3- Graetz H.Geschichte der Juden , Bd.11

4 – مومزين ت. تاريخ روما. الجزء الثالث.

4- مجلة "الأرشيف الأحمر". الأجزاء 4، 6، 10.

5- مجلة "22"، تل أبيب، 1978، دون ليفين " على شفا الغواية".

6- كوجينوف ف. مجلة " سفياتايا روس"، العدد 3، 2000.

7- Margolina Sonja."Das Ende der Lugen".Berlin ,1992

8- Shahak Israel. "Histoire juive- Religion juive.Le poids de trios millenaires" 1996

9- زينكوفسكي ف.ف. في مواضيع فلسفة التاريخ. خفايا إسرائيل. سان بطرسبورج، 1993.

10- ريد د. جدل حول صهيون. (ترجمة روسية عن الإنكليزية).

11- ديوك د. المسألة اليهودية كما يراها الأمريكي. موسكو 2001.

12- شولغين ف.ف. ما لا يعجبنا فيهم. موسكو، 1992.

الفصل الثاني

العصر القديم Antique

إن تاريخ اليهود ودولة *يهودا* في العصر القديم لا يختلف ظاهرياً بشيء عن تاريخ أي دولة صغيرة في الشرق الأوسط، أو أي من الشعوب الكثيرة التي كانت تقطن حوض البحر الأبيض المتوسط . فقد كانت *يهودا* في وقت ما تقع ضمن منطقة نفوذ مصر . ثم استولى الآشوريون على الجزء الشمالي منها، فيما استولت *مملكة بابل* الجديدة على باقي أراضيها . فكثيراً ما كانت الإمبراطوريات الكبيرة في ذلك الزمن تعالج المشاكل القومية عن طريق إعادة توطين الشعوب التابعة لها (كما كان الحال خلال أربعينيات القرن العشرين في *الاتحاد السوفيتي أو بولندا وتشيكوسلوفاكيا* ، عندما جرى تهجير الألمان من المناطق المكتظة بهم). ذلك أيضاً كان مصير اليهود ("السبي البابلي "). وكانت عمليات إعادة التوطين هذه تساعد على تشكيل شتات كبير العدد . فبعد إخضاع الشرق الأوسط للإمبراطورية الفارسية حصل جزء كبير من اليهود الذين كانوا يرغبون بالعودة إلى وطنهم على إذن بتحقيق تلك الرغبة. وفي أثناء حملته احتل **الإسكندر المقدوني** *يهودا* بوصفها جزءاً من *مملكة فارس* ، وضمها إلى إمبراطوريته . ثم غدت بعد موته موضوع خلافات بالنسبة للمملكتين الهلينيتين، أي **البطالمة** في، **والسلوقيين** في *آسيا*. وقد ترافق تناوب احتلال *يهودا* المتكرر مع عمليات تهجير متتالية، كانت تشمل أعداداً كبيرة من السكان اليهود ، إلى أراضي المنتصرين . إلا أنها أصبحت ، في نهاية المطاف ، جزءاً من الإمبراطورية السلوقية. وقد انتهزتْ *يهودا* ضعفَ هذه الإمبراطورية، واعتمدت على دعم من جانب الرومان الذين كان نفوذهم يتعاظم في مجمل حوض البحر الأبيض المتوسط ، حيث عادت من جديد وتمكنت من الحصول مؤقتاً على استقلالها، فحكمها في البداية كبير الكهنة، ثم الملك. ولكنها، بمرور الزمن، ازدادت خضوعاً لنفوذ *روما* إلى أن أصبحت في العام السادس من القرن الميلادي الأول ولاية رومانية. وقد أدت السيطرة الرومانية إلى انتفاضات كانت تقمع بقسوة (وهو أمر كان يحدث في الولايات الأخرى أيضاً). فبعد انتفاضة أعوام 66 – 70 ميلادية التي قمعها الإمبراطور **فيسبازيانوس** والإمبراطور **تيتوس** تم تدمير الهيكل في أورشليم وإلغاء لقب كبير الكهنة، إلا أن اليهودية كدين في الإمبراطورية لم تتعرض لمضايقات ، وحافظت على سلطة السنهدرين (السندريون، المحكمة الروحية) والبطريرك.

غير أنه وراء هذا الظاهر ، المألوف للغاية، بالنسبة للتاريخ القديم، يختبئ عدد من الفوارق المبدئية . ذلك أن ثمة عاملين يميزان اليهود القدماء Antique تمييزاً جذرياً عن الشعوب الأخرى في حوض البحر الأبيض المتوسط ، الأول: هو دينهم، أي *"العهد القديم "* ، وما ينطوي عليه من تعاليم بخصوص الشعب المختار ، وتلاحمهم الفائق، ونفوذ الشتات اليهودي.

لقد أسس *"العهد القديم"* عقيدة الشعب الذي اختاره الله وأوكل إليه دور قائد البشرية وحاكمها الذي كُتِب على جميع الشعوب الأخرى أن تخدمه، ولعل العالم كله لم يخلق إلا من أجله . ها نحن نلامس هنا اللب الحقيقي للظاهرة التي تهمنا. هذه العقيدة المدهشة التي لم تنشأ في أي مكان آخر، هي التي حددت . على امتداد آلاف

السنين . موقف الجماعة اليهوديةِ من باقي البشرية . ولذلك سنحاول الآن قدْ ر المستطاع أن نرسم صور ة هذه الجماعةا بوساطة عدد من الاستشهادات المأخوذة من *"العهد القديم"*، حتى أننا قد نكون نجازف بإملال القارئ بكثرة هذه الاستشهادات.

" هكذا قال رب الجنود. في تلك الأيام يمسك عشرة رجال من جميع ألسنة الأمم يمسكون بذيل رجل يهودي قائلين نذهب معكم لأننا سمعنا أن الله معكم" *(زكريا 8، 23).*

" وبنو الغريب يبنون أسوارك وملوكهم يخدمونك لأني بغضبي ضربتك و برضواني رحمتك . وتنفتح أبوابك دائماً ، نهاراً وليلاً لا تغلق، ليؤتى إليك بغنى الأمم وتقاد ملوكهم . لأن الأمة والمملكة التي لا تخدمك تبيد وخراباً تخرب الأمم" *(إشعيا 60، 10 – 12).*

" ويكون الملوك حاضنيكِ وسيداتهم مرضعاتكِ . بالوجوه إلى الأرض يسجدون لك ويلحسون غبار رجليكِ فتعلمين أني الرب الذي لا يخزى منتظروه" *(إشعيا 49، 23).*

" لأنك تمتدين إلى اليمين وإلى اليسار ويرث نسلك أمماً ويعمر مدناً خربة" *(إشعيا 54, 3).*

" ويأخذهم شعوب ويأتون بهم إلى موضعهم ويمتلكهم بيت إسرائيل في أرض الرب عبيداً وإماء ويسبون الذين سبوهم ويتسلطون على ظالميهم" *(إشعيا 14، 2).*

" ويقف الأجانب ويرعون غنمكم ويكون بنو الغريب حرّاثيكم وكرّاميكم. أما أنتم فتدعون كهنة الرب تسمون خدام إلهنا. تأكلون ثروة الأمم وعلى مجدهم تتأمرون" *(إشعيا 61، 5 –6).*

لقد كان اليهود ينظرون إلى الشعوب الأخرى بوصفها عَبَدَة آلهة باطلة، وأهلَ غواية خطيرين يستطيعون إبعاد بني إسرائيل عن عبادة الإله الحقيقي. فكانوا يلقنون أبناءهم التعامل مع تلك الشعوب بشكّ ، وعداء، وقسوةٍ لم تكن معهودة حتى في تلك الأزمنة . وكانوا يرسخون معايير مزدوجة تملي التعامل مع الوثنيين بوصفهم كائنات من نوع آخر، لا تنطبق عليهم القوانين الممنوحة لإسرائيل، ومقدَّرٌ على إسرائيل أن تسيطر عليهم ليس فقط بحق القوة، بل وبحكم الانتماء إلى ثقافة أرفع (كما فهم الإغريق، مثلاً، المعارضة بين الهلينيين والبرابرة)، وبمشيئة القوة الأعلى التي لا تحتاج تسويغاً ولا براهين.

" احترز من أن تقطع عهداً مع سكان الأرض فيزنون وراء آلهتهم ويذبحون لآلهتهم فتدعى وتأكل من ذبيحتهم. وتأخذ من بناتهم لبنيك فتزني بناتهم وراء آلهتهم ويجعلن بنيك يزنون وراء آلهتهن " *(الخروج، 15 – 16).*

" وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إلهك نصيباً فلا تستبقِ منها نسمة ما . بل تحرمها تحريماً الحثيين والأموريين والكنعانيين والفرزيين والحوّيين واليبوسيين كما أمرك الرب إلهك . لكي لا يعلموكم أن تعملوا حسب جميع أرجاسهم التي عملوا لآلهتهم فتخطئوا إلى الرب إلهكم" *(التثنية 20، 16 – 18).*

" لأنهم عبيدي الذين أخرجتهم من أرض مصر لا يباعون بيع العبيد . لا تتسلط عليه بعنف بل اخش إلهك. وأما عبيدك وإماؤك الذين يكونون لك فمن الشعوب الذين حولكم. منهم تقتنون عبيداً وإماء. وأيضاً من أبناء المستوطنين النازلين عندكم منهم تقتنون ومن عشائرهم الذين عندكم الذين يلدونهم في أرضكم فيكونون ملكا لكم. وتستملكونهم لأبنائكم من بعدكم ميراث ملك . تستعبدونهم إلى الدهر . وأما أخوتكم بنو إسرائيل فلا يتسلط إنسان على أخيه بعنف" (اللاويون 25، 42 – 46).

" الأجنبيَّ تطالب وأمّا ما كان لك عند أخيك فتبرئه يدك منه" (التثنية 15، 3).

" للأجنبي تقرض بربا ولكن لأخيك لا تقرض بربا..." (التثنية 23، 20).

" وقال لهم موسى هل أبقيتم كل أنثى حية . إن هؤلاء كن لبني إسرائيل حسب كلام بلعام سبب خيانة للرب في أمر فغور فكان الوباء في جماعة الرب. فالآن كل ذكر من الأطفال، وكل امرأة عرفت رجلاً بمضاجعة ذكر اقتلوها". (العدد 31، 15 – 17).

" وأخذنا كل مدنه في ذلك الوقت وحرمنا من كل مدينة الرجال والنساء والأطفال، لم نبقِ شارداً" (التثنية 2، 34).

"وحرموا كل ما في المدينة من رجل وامرأة من طفل وشيخ حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف " (يشوع 6، 21).

" يقول السيد : سأرجع أعداءكم من باشان، سأرجعهم من أعماق البحر، فتنغمسون أرجلكم في دمهم، وتأخذ ألسنة الكلاب نصيبها من الأعداء" (المزمور 68، 23).

أما العامل الثاني فهو *الشتات (الدياسبورا)* الذي يكاد يكون له القِدم الزمني نفسه. فعلى امتداد زمن تاريخي هائل (ابتداء من أواسط الألف الأولى قبل الميلاد وحتى أيامنا) عاش جزء من الشعب اليهودي خارج وطنه، بين شعوب أخرى أبى الاختلاط بها، ولم يفقد ملامحه القومية. هكذا كان، على وجه الخصوص، خلال المرحلة التي يدور الحديث حولها الآن، أي ابتداء من أواسط الألف الأولى قبل ميلاد المسيح وحتى أواسط الألف الأولى الميلادية. "إن الشعب اليهودي منتشر في جميع أصقاع الأرض، ومشتت بين سكان عدد كبير من البلدان ". " ما من مدينة هيللينية واحدة، ولا من شعب بربري إلا ودخلَتْه عادةُ احتفالنا بيوم السبت، والصيام وإشعال الشموع"، – هذا ما يقوله **يوسف فلافيوس**. حقاً، إن شهادات المؤلفين القدماء، ومعطيات الحفريات تبين أن اليهود كانوا منتشرين في شتى أطراف العالم القديم، من *إسبانيا* إلى *الفرات*، ومن *إثيوبيا* إلى *بلاد الغال*، ومن *موريتانيا* إلى *شبه جزيرة القرم* يقول **سترابون:** "من الصعب الإشارة إلى مكان في العالم لم يجد فيه هذا الشعب لنفسه موقعاً ويصبح صاحبه". فبين سكان ثاني أكبر المدن في الإمبراطورية الرومانية، أعني *الإسكندرية*، كان اليهود في وقت ما يكادون يشكلون الأكثرية . ويقدَّر عددهم في الإمبراطورية الرومانية ما بين 5 و7 ملايين نسمة، أي ما بين 10 و13 بالمئة من عدد السكان الإجمالي.

لقد كان اختلاط القوميات سمة مميزة بالنسبة للعالم القديم، وذلك بين المملكتين الآشورية والفارسية، والممالك الهللينية والإمبراطورية الرومانية. غير أن تشرُّد اليهود كان له عدد من الملامح التي جعلت منه ظاهرة فريدة تماماً.

وقد تمثَّل ذلك، قبل كل شيء، في أن قسماً كبيراً من اليهود كان يعيش خارج وطنه التاريخي في *يهودا*. ويعزو المؤرخ السوفيتي س. ي. **لوريه** بداية هذه الظاهرة إلى عصر "السبي البابلي" (586 – 583 ق. م.)، عندما رُحِّل معظم سكان *يهودا* في البداية إلى المناطق الداخلية من بلاد ما بين النهرين، ثم حصلوا بعدئذ على إذن بالعودة إلى وطنهم، بل وحتى إلى زمن أبكر، إذ يقول **لوريه**:

"في عهد السبي البابلي، بل وربما قبل ذلك، كان اليهود في معظمهم شعب شتات. ولم تكن فلسطين إلا مركزاً دينياً لهم، ثم ثقافياً إلى حدٍّ ما".

وكانت *أورشليم* نفسها، بعد السبي، كياناً مصطنعاً للشتات الذي كان مركزه في *بابل*.

ويعبّر ت. **مومزين** عن هذه الفكرة بمزيد من الجلاء قائلاً: "كان تاريخ البلاد اليهودية أيضاً تاريخاً صغيراً للشعب اليهودي، مثلما كان تاريخ أملاك البابوية تاريخاً للكاثوليكية. ولكن سكان فلسطين لم يكونوا يشكلون إلا جزءاً، بل وليس الجزء الأهم، من الشعب اليهودي. (يدور الحديث هنا حول العصر الهلليني). إن الجاليات اليهودية، في *بابل*، *وسورية*، *وآسيا الصغرى*، *ومصر*، كانت أكثر أهمية بكثير من الجاليات اليهودية في *فلسطين* (....) فلم تلعب الجاليات اليهودية الفلسطينية في عهد الإمبراطورية ذلك الدور الذي كان يلعبه الشتات اليهودي الذي كان ظاهرة مميزة للغاية".

أما السمة الثانية التي كانت للشتات اليهودي فتتمثّل في التعاضد، والإحساس بالانتماء إلى تنظيم واحد، وبالتعارض بين اليهود والعالم المحيط بهم في كثير من الأحيان. يقول **فيلون**: "إن عاصمتهم هي المدينة المقدسة *أورشليم*، أمّا كمواطنين فإنهم ينتمون إلى المدينة التي ولدوا وتربوا فيها". فقد كان كل يهودي بلغ العشرين من عمره ملزماً بأن يدفع ضريبة لصالح الهيكل في *أورشليم*، وبأن يحجَّ إليه ولو مرة واحدة في الحياة. وتقدِّم *"أعمال الرسل"* صورة باهرة في هذا الصدد:

" وكان يهود رجال أتقياء من كل أمة تحت السماء ساكنين في أورشليم (...) فرثيون وماديون وعيلاميون والساكنون ما بين النهرين واليهودية وكبدوكية وبنتس وآسيا وفريجية وبمفيلية ومصر ونواحي ليبية التي نحو القيروان والرومانيون المستوطنون يهود ودخلاء، كريتيون وعرب ...". *(أعمال الرسل 2، 5 و2، 9 – 11).*

يورد **فيلون** الرسالة التي بعثها **أغريبا** ملك *يهودا* إلى الإمبراطور **كاليغولا** يرجوه فيها منح عدد من الامتيازات، ويعده مقابل ذلك بالتأييد. ولكن الطريف في الأمر أنه يتصرف في هذه الحال بوصفه ناطقاً باسم الشتات بمجمله. فهو، على سبيل المثال، يعدد الأماكن التي يتمتع فيها اليهود بنفوذ، فيذكر مصر، *وفينيقيا*، *وسوريا*، *وبمفيلية*، *وكيليكيا*، وجزءاً كبيراً من الولايات الأخرى في *آسيا*، وصولاً إلى *فيفينيا*. وفي *أوروبا*: *فيساليا*،

وبيوتيا، ومقدونيا، وأثيكا ، وإيتوليا ، وكورنثوس ، *وبيللوبونس* . وكذلك *يوبيا ، وقبرص ، وكريت* ، وأراضي ما وراء *الفرات*.

ويورد **فلافيوس** القرار الذي يعترف **يوليوس قيصر** فيه بـ **هيركانوس** الثاني وذريته "حكاماً لـ*يهودا* ". على أنه يمكن أن نستخلص من السياق أن الحديث في هذا القرار يدور حول السلطة في إطار يهود الشتات . لقد أثارت الانتفاضات في *يهودا* اضطرابات في الإمبراطورية ال رومانية بأسرها . حتى أ ن **ديون كاسيوس** يؤكد أن المساعدات، إبّان حصار الرومان لمدينة *أورشليم*، لم تكن تأتي إلى المحاصرين من يهود الإمبراطورية فق ط، بل ومن المناطق الواقعة شرقي *الفرات* أيضاً.

لقد سقنا في الفصل السابق استشهاداً من **مومزين** يبين كيف كان موقف الحكام الرومان من اليهود في الأقاليم ينعكس على وضعهم الوظيفي. يقول **شيشرون:** "أنت تعرف يا **ليليوس** ما هي هذه العصابة ، وكم هي متراصّة فيما بينها، ومدى تأثيرها في الاجتماعات . لذلك، فإنني سوف أتحدث بصوت خفيض لكي لا يستطيع سماعي إلا القضاة، لأن ثمة كثيراً من الناس المستعدين لتحريض هذا الحشد ضدي وضدَّ كل شريف، ونحن لا نريد الاستخفاف بذلك...". (ترجمة س. ي. **لوريه**).

هذا الإحساس بالوحدة في الشتات كانت تغذيه الق وى التي منعت الجماعة اليهودية من الذوبان في الوسط القومي والثقافي المحيط، وغذّت عزلتها. وقد قامت بهذا الدور طقوس معقدة ، مدروسة بدقة بالغة ، كان تطبيقها شرطاً ضرورياً للانتماء إلى الدين اليهودي : كالختان، والممنوعات الكثيرة في الطعام، والصيام، والإلزام بالسبت ... إلخ. بل ، وبكل بساطة أيضاً ، أيديولوجيا الاغتراب التي كان *"العهد القديم"* يمدها بقَدْر وافر من الغذاء.

وهكذا يصف سفرا **عزرا ونحميا** الذنب الذي اقترفه من بقي من اليهود في فلسطين ، زمن "السبي البابلي"، عندما تزوجوا بأجنبيات، وأنجبوا أطفالاً من غريبات، كما يصفان التكفير عن هذا الذنب. يقول **عزرا:**

" ولما كملت هذه تَقدَّ م إلي الرؤساء قائلين : لم ينفصل شعب إسرائيل والكهنة واللاويون من ش عوب الأراضي حسب رجاساتهم من الكنعانيين والحثيين والفرزيين واليبوسيين والعمونيين والموآبيين والمصريين والأموريين . لأنهم اتخذوا من بنات هم لأنفسهم ولبنيهم واختلط الزرع المقدس بشعوب الأراضي وكانت يد الرؤساء والولاة في هذه الخيانة أولاً . فلما سمعت بهذا الأمر مزقت ثيابي وردائي ونتفت شعر رأسي وذقني وجلست متحيراً" *(عزرا 9، 1-3).*

وكذلك **نحميا:**

" في تلك الأيام أيضاً رأيت اليهود الذين ساكنوا نساء أشدوديات وعمونيات وموآبيات . ونصف كلام بنيهم باللسان الأشدودي ولم يكونوا يحسنون التكلم باللسان اليهودي بل بلسان شعب وشعب . فخاصمتهم ولعنتهم وضربت منهم أناساً ونتفت شعورهم واستحلفتهم بالله قائلاً لا تعطوا بناتكم لبنيهم ولا تأخذوا من بناتهم لبنيكم ولا لأنفسكم" *(نحميا 13، 23 – 25).*

وقد تم اتخاذ قرار حاسم:

" ... إننا قد خنَّا إلهنا واتخذنا نساء غريبة من شعوب الأرض . ولكن الآن يوجد رجاء لإسرائيل في هذا . فلنقطع الآن عهداً مع إلهنا أن نخرج كل النساء والذين ولدوا منهن حسب مشورة سيدي والذين يخشون وصية إلهنا وليعمل حسب الشريعة" *(عزرا 10، 2- 3).*

" فقام عزرا الكاهن وقال لهم إنكم قد خنتم واتخذتم غريبة لتزيدوا على إثم إسرائيل. فاعترفوا الآن للرب إله آبائكم واعملوا مرضاته وانفصلوا عن شعوب الأرض وعن النساء الغريبة . فأجاب كل الجماعة وقالوا بصوت عظيم كما كلمتنا كذلك نعمل" *(عزرا 10، 10 – 12).*

وفي القرون الميلادية الأولى ظهرت كتابات كثيرة ذات منشأ يهودي كانت موجهة أحياناً إلى القارئ اليهودي الذي استوعب الثقافة الإغريقية. وعُرف جزء من تلك الكتابات فيما بعد باسم "**المنحولات**" (الأبوغريفا).

حتى إن كتاب الأعياد (وهو كتاب يهودي منحول يعود إلى القرن الثاني قبل الميلاد) يهدد بالموت من يتزوج من خارج الطائفة اليهودية. ففيه نقرأ:

" فلتبتعد، يا بني، عن الشعوب الأخرى، لا تأكل معهم، ولا تقتف آثار عاداتهم، ولا تصاحب أحداً منهم. إن أعمالهم نجسة، ودروبهم قذرة".

ونقرأ في "رسالة **أريستيوس** " الصادرة من بيئة يهودية، ما يلي : "إن المشرع، الذي وهبه الله معرفة جميع الأشياء، أحاطنا بسور كتيم وبجدار غرانيتي لكي لا يكون أي شيء مشترك مع أي شعب كان، فنبقى أنقياء روحا وجسداً، وغريبين عن التعاليم الكاذبة الفارغة".

وبمزيد من الجلاء فإن **التلمود** ، الذي وضع في القرون الأولى بعد ميلاد المسيح، يتضمن تحريمات تمنع اليهودي من دعوة غريب إلى بيته، ومن إبداء أي كرم ضيافة له، ومن تأجيره حقله أو حمَّامه... إلخ.

ولكن لعل أغرب سمات الجماعة اليهودية القديمة تتمثل في أن هذا النزوع إلى العزلة كان يتعايش بسلام مع الطموح إلى الاندماج (حتى ولو إلى الاندماج الظاهري)، وإلى الدخول في البيئة الثقافية المحيطة والتأثير على الحياة المحيطة.

وهكذا، كثيراً ما احتل اليهود مناصب مرموقة في الإدارة الذاتية للمدن، وفي إدارة الأموال والجيوش في الدول الهيللينية . وكان كثيرون من المؤلفين اليهود يتكلمون باللغتين اليونانية واللاتينية ، ويخاطبون بهما الجمهور الواسع من غير اليهود . لقد اقتبس اليهود جميع ما للثقافة الإغريقية – اللاتينية من سمات خارجية ، وكثيراً ما كانوا يغيِّرون الأسماء، وذلك وفقاً لمبدأ التناغم أحياناً (مثلاً: إسفير – آستر، مويس – موسى)، وأحياناً بالترجمة (مثلاً: صادوق – يوستوس – العادل ؛ سولومون – إيريني – السلام). ولكن ذلك لم يكن بحال من الأحوال علامة على الاندماج الكامل في الحياة العامة للعالم القديم . وكان اليهود الذين يحتلون مناصب رفيعة يدافعون

بحمية عن مصالح اليهود في مدينتهم أو ولايتهم، بل وفي الولايات الأخرى أحياناً . كما كانت اهتمامات المؤلفين اليهود الذين يكتبون باللغة اليونانية أو اللاتينية تتمحور حول وضع اليهود ودورهم في العالم . وقد سعى كثيرون منهم لإقناع قرائهم بأفضلية القانون اليهودي، وبأن منبع الثقافة القديمة هو شريعة موسى.

كتب **فلافيوس**، مثلاً:

"وعنًّا اقتبس التشريعاتِ أناسٌ آخرون أيضاً ، فكانوا شيئاً فشيئاً يتخذونها قدوة . أول أولئك كان الفلاسفة الإغريق، علماً بأنهم كانوا، على ما يبدو، يلتزمون بقوانينهم في أعمالهم، بينما يزداد ون في فلسفتهم اقتداء به **(موسى)**".

أو **أرسطوبول:**

"وكما هو معلوم، فإن **أفلاطون** اتخذ تشريعاتنا قدوة له ، ويظهر أنه كان يعرفها بالتفصيل . فقد كان شديد التعطش للمعرفة ، شأنه شأن **فيثاغورس** الذي اقتبس كثيراً من عندنا في علمه . وأظن أن **فيثاغورس وسقراط وأفلاطون** عندما درسوا كل شيء، أصبحوا في نهاية المطاف من أتباع هذه التشريعات **(الموسوية)**".

ويؤكد في مكان آخر أن "**هوميروس وهسيود** كانا يحترمان عيد السبت المقدس".

بهذه النزعة نفسها، نزعة تغلغل اليهود في المجتمع، يرتبط أيضا الإقرار في ذلك الوقت بأن ابن المرأة اليهودية من زوج غير يهودي يُعَدّ يهودياً كامل الحقوق. ويبدو أنه لم يستطع أحد أن يفسر كيف تعايش ذلك مع الموقف السلبي من الزواج المختلط الذي أوردنا أمثلة عليه أعلاه.

زِد على ذلك، أن اليهود كانوا يمارسون دعاية مكثفة للغاية من أجل تجنيد أنصار لهم بين السكان المحيطين بهم.

فقد جاء في **الإنجيل:**

"ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المر اؤون لأنكم تطوفون البحر والبر لتكسبوا دخ يلاً واحداً . ومتى حصل تصنعونه ابناً لجهنم أكثر منكم مضاعفاً" *(متى 23، 15).*

ويتحدث **فلافيوس** مراراً كيف كان اليهود في زمن الحروب يرغمون الجيران المغلوبين على اعتناق الدين اليهودي. مثلاً:

" بعد أن استولى **هيركانوس** على مدينتي *أدارا وماريشا* وأخضع لسلطانه جميع **الأدوميين** سمح لهم بالبقاء في البلاد ولكن شريطة أن يلتزموا بالختان، وينظموا حياتهم عموماً على الطريقة اليهودية".

لقد أسدى خدمات جليلة لشعبه بمحاربته *إيطوريا*، بعد أن ضم جزءاً كبيراً من تلك البلاد إلى *يهودا*، وذلك مع إرغام من أراد من الإيطوريين البقاء في منطقته على الالتزام بالختان والعيش وفقا للقوانين اليهودية.

كان اليهود يجتذبون إلى صلواتهم كثيراً من الهللينيين ويدرجونهم، بمعنى ما، في عداد أبناء جلدتهم.

ومن بين هؤلاء الأنصارِ، مثلا، **بوبيا سابينا** زوجةُ الإمبراطور **نيرون**، وأولادُ أعمام الإمبراطور **دوميتيانوس** وأختهُ.

وكانت الكتابات الموجهة للأنصار تؤكد على المغزى "الفلسفي" و"الأخلاقي" للطقوس اليهودية، وتُبعِد إلى المقام الثاني مسألة العبادات الدينية. إذ يبدو أن الأنصار لم يكونوا أعضاء كاملي الحقوق في الجاليات اليهودية، وكانوا معفيين من طقوس كثيرة، فشكلوا فئة من "المتعاطفين" أو الزبائن حول نواة الجماعة اليهودية بحد ذاتها. بل وكان يطلق عليهم اسم خاص هو "مبجِّلو الرب الحقيقي". وكثيراً ما كان المؤلفون اليهود، وهم يخاطبون الأنصار (أو يجندونهم) يقدمون الدين اليهودي على أنه منبع "الديانات الوثنية". ويسمِّي س. ي. **لوريه** ذلك "بضاعة للبيع". وهو يتساءل: ما المغزى الكامن، إذاً، في أولئك الأنصار الذين كانوا عاجزين حتى عن الوعي بأن التوحيد هو أساس الدين اليهودي؟ ويتلخص تفسير **لوريه** في قوله بأن "الشعب الذي يعيش في الشتات لا يحق له أن يأنف من التحالف مع أحد".

وهكذا كان الشتات اليهودي في الزمن القديم ظاهرة متميزة تماماً، على ما يبدو، وتختلف من حيث المبدأ عن الأحياء الإغريقية أو السورية في أي من مدن ذلك الزمان.

بل ولهذا كان يجب أن تلفتَ خصوصيةُ الشتاتِ اليهودي انتباهَ المعاصرين إلى أن اليهود يمارسون نفوذاً كبيراً على حياة المجتمعات التي تحيط بهم. وهكذا في عهد الملك **بطليموس الثالث يورجيتيس** التزم **يوسف بن طوبيا** جباية جميع ضرائب *سورية* التابعة *لمصر*، وذلك لمدة 22 عاماً. وفي أيام حكم البطلمي **فيلوباتور** وأخته **كليوباترا** كانت السلطة العليا في مصر في أيدي اليهود أساساً. فقد تولى قيادة الجيوش، مثلاً، **أوني ودوسيثيوس**. وقامت بنت **بطليموس** السادس **كليوباترا** بتعيين **أنانياس بن أوني، وهاليك** قائدين عسكريين. "ولم تكن تقوم بفعل شيء دون مشورتهما"، كما يقول **فلافيوس**. ويرسم صورة ساطعة ما يسمى بـ "ورق البردي الأوكسيرينغي" الذي يصور الخلافات بين اليهود واليونانيين في الإسكندرية، ووفادة هؤلاء وأولئك إلى **ترايانوس** في روما. فتحت تأثير الميل الواضح من جانب الإمبراطور لصالح اليهود (حتى أنه لم يردّ على سلام اليونانيين) هتف رئيس الوفد اليوناني: يؤلمنا أن مجلس المدينة مليء باليهود".

لقد كان نفوذ اليهود في نمو مستمر في مرحلة تشكيل "الممالك العالمية" التي كانت توحد عدداً كبيراً من القوميات في دولة واحدة. ويعزو **مومزين** ذلك إلى أن مؤسسي هذه الممالك وجدوا في اليهود سندا لهم في قمع الطموحات القومية لدى الشعوب المغلوبة. وقد سمح مؤسس المملكة الفارسية **قورش** لمن يرغب من اليهود بالعودة من بلاد ما بين النهرين إلى فلسطين. واستناداً إلى **يوسف فلافيوس** فإن **الإسكندر المقدوني** حين أسس الإسكندرية ساوى اليهود في الحقوق مع المقدونيين (أي مع الغزاة أنفسهم). وقد حصل اليهود في الإمبراطورية الرومانية على جملة من الامتيازات من **يوليوس قيصر**، ثم ترسخت أيام **أوغسطين** هذه الامتيازات التي يسميها أحد المؤرخين "**ميثاق الحريات العظيم الحقيقي**". فبموجبها تم إعفاء اليهود من الجزية، وسمح لهم بإرسال الضريبة إلى الهيكل في أورشليم (في حين كان نقل الذهب ممنوعاً منعاً باتّاً)، وكانت اجتماعاتهم تخضع لحكم ذاتي لديهم، إذ كان لهم منطقة حكم ذاتي شرعية، علماً بأن القانون الروماني كان يُعَدُّ إحدى الأدوات الأساسية لتوحيد الإمبراطورية. وفي الواقع لم تكن تلك إلا أراضي ملحقة، أي خارج سلطة الدولة.

كما كان نفوذ الجماعة اليهودية الاقتصادي عظيماً. إذ كان التجار اليهود هم الأغنى في الإمبراطورية. فقد تركت في أيديهم تجارة القمح ذات الأهمية الحيوية بالنسبة للدولة بأسرها.

وتجلت قوة الشتات اليهودي وتعاضده من خلال انتفاضتين اندلعتا في الإمبراطورية الرومانية في القرن الثاني الميلادي، الأولى قرابة العام 118 عندما انخرط الإمبراطور **ترايانوس** في حرب ضد **الفرثيين** (البارثيين). وقد شملت هذه الانتفاضة عدداً من الولايات هي *قورينة* (*برقة* حالياً. – م) ومصر *وقبرص وبلاد مابين النهرين* . يقول **مومزين** إن هذه الانتفاضة كانت تهدف إلى "طرد الرومان والهللينيين، مثلما كانت ترمي، على ما يبدو، إلى تأسيس دولة يهودية من نوع خاص ". وإذا ما نظرنا إلى سعة انتشار الاضطرابات فإن تلك الدولة كان يفترض أن تشمل سائر الجزء الشرقي من البحر الأبيض المتوسط . ويتحدث المؤرخون عن أنواع البطش التي تميزت بها هذه الانتفاضة، فيقول **ديون كاسيوس**، على سبيل المثال، إنه في أثناء الا نتفاضة التي قام بها اليهود في *قورينة* لم يكتفوا بقتل جميع الإغريق والرومان (220 ألف شخص)، بل وكانوا يتزينون بأمعاء هؤلاء القتلى، ويغتسلون بدمائهم، ويتغطون بجلودهم. ويقول **أوروشيوس** إنهم بعد أن استولوا على مدينة **سلاميس** في *قبرص* افنوا السكان عن بكرة أبيهم، ثم دمروا المدينة.

وبالطبع، فإن الأرقام التي يوردها المؤلفون القدماء لا تتصف بالدقة عادة . ولا تدل أقوالهم هذه إلا على أن المؤلفين الذين عاشوا في زمن قريب من تلك الأحداث كانوا يرون أن عدد القتلى كبيرٌ جداً، وأن الفتك والبطش يفوقان المألوف.

لقد تم قمع تلك الانتفاضة، غير أن ذلك تطلب استخدام الجيوش التي كانت مخصصة للحرب ضد **الفرثيين**، فوجد **ترايانوس** نفسه مرغماً على وقف تلك الحرب (وحملته إلى الشرق إجمالاً).

أما الانتفاضة الثانية، فقد نشبت قرابة عام 130 ميلادية في فلسطين، أيام الإمبراطور **أدريانوس**. وقد تصدَّر هذه الانتفاضة **الكاهن إليعاز** ر، وقائد وحدات المقاتلين **سيمون** المعروف باسم **بركوخبا** (ابن النجم). ومن المحتمل أن يكون **بركوخبا** هذا قد أعلن نفسه مخلّصا (المسيح المنتظر). وقد تميزت هذه الانتفاضة بالبطش الشديد أيضاً، ولكنها قُمعت. وأقيمت عوضاً عن *أورشليم* مستعمرة رومانية، هي **إيليا كابيتولينا** التي كان ممنوعاً على اليهود دخولها تحت طائلة الموت . كما ألغي اسم *يهودا*، واستعيض عنه باسم *سورية الفلسطينيين*، **أو** *فلسطين*. ويرى بعض المؤرخين أنه جرى التخطيط لكلتا الانتفاضتين بوصفه ما كلاً واحداً، إلا أن تلك الخطة لم يكتب لها النجاح.

لا عجب في أن المؤرخين القدماء كتبوا كثيراً عن اليهود وتاريخهم وعاداتهم وتأثيرهم على الحياة . على أن تحليلاتهم تخلِّف في النفس انطباعاً شديد الغرابة، إذ أنهم يُجمعون على موقف سلبي واحد إزاء "الجماعة اليهودية"، رغم أن الاتهامات المحددة على قدر من الاختلاف يجعل من الصعب التكهن بالسبب المشترك القائم وراء هذا الموقف. وتطالعنا في هذا المجال اختلافات عديمة المعنى تماماً ، ومن ذلك، على سبيل المثال، تأكيد **ديودور** بأن اليهود يعودون بأصلهم إلى جزء من سكان مصر كانوا مصابين بمرض جلدي أدى إلى طردهم من البلاد. وترِد هذه الرواية على لسان **مانيفون** أيضاً.

وينطلق بعض المؤلفين من تقويم سلبي لدين اليهود ، اعتقاداً منهم بأنه دين "معادٍ للبشرية". وإذ يتحدث **تاسيتوس** عن هذا الدين يقول إن اليهود يجلُّون كل ما تحتقره الشعوب الأخرى، ويحتقرون كل ما تقدسه تلك الشعوب.

ويدلي **ديودور** برأي مماثل، إذ يقول:

"إنهم يؤمنون بقوانين الحقد على الإنسانية . فما من شعب بين الشعوب غيرهم حُرِّم عليه الاختلاط مع الآخرين. لقد أعطاهم **موسى** هذه القوانين المشبّعة بالحقد على البشر".

أما **هيكاتيوس الأبدري** الذي عاش في العهد البطلمي الأول في القرن الثالث ق.م. فيقول عن **موسى:**

"وانتقاماً لطرده (من مصر) علّم أبناء جلدته الابتعاد عن الناس وكره الأجانب".

وهو يصف شرائع **موسى** بأنها "معادية للأجانب".

ووضع **أبولوني الرودسي ، معلّم شيشرون** ، كتاباً سجالياً ضد اليهود ، يتهمهم فيه بإنكار الآلهة الإغريقية وبكره البشر ، والابتعاد عن كل من يخالفهم في الإيمان.

وقد اتُّهِم اليهود كذلك بالغربة عن الآخرين ، وبما يظهرون لهم من عداء حتى في الحياة العادية . يقول **جوفينال:**

"إنهم لا يدلّون غريباً على الطريق، ولا يقودون إلى النبع البارد إلا من هو منهم".

ويقول الشاعر **روتيلي ناماتيان:**

" أما قلبهم فهو أشد برودة من دينهم نفسه".

وأخيراً، كثيرا ما تطالعنا المخاوف من أن اليهود يُخضعون حياةَ الشعوب الأخرى لسلطانهم، فيقول **ناماتيان** أيضاً، على سبيل المثال:

"ليت السلاح الذي يحمل الرعب في أيدي **بومبي وتيتوس** لم يُخضِع لنا بلاد *يهود*/ إطلاقاً! فقد أطلق هذه الجرثومة في العالم بعد أن اجتثها من تربتها ، ومنذ ذلك الحين والمنتصر يئنّ تحت طغيان العبد ". (ترجمة **س. ي. لوريه**).

ويبدو أن هذه الفكرة كانت منتشرة، فالقديس أوغسطين، مثلاً، يقتبس من سينكا هذه الكلمات:

"هكذا يفرض المهزومون قوانينهم على المنتصرين".

ثمة ما هو مشترك يمكن تميُّزه في كل هذه الاختلاقات، والمبالغات، والاتهامات الباطلة، والملاحظات اللاهوتية والاجتماعية والسيكولوجية . فهي تصوِّر الجماعة اليهودية ككلٍ واحد متراصّ لا يتجزأ، غريبٍ عن حياة المحيط ، والمجتمع القديم عامة . ويمكننا أن نتصور النفور والتحسس، وأحياناً الرعب الذي استثاره هذا الكيان الغريب، المشتت، والمتراص روحياً ، في الوقت ذاته ، المتغلغلُ في الحياة السياسية والاقتصادية والثقافية ، رغم اعتناقه ديناً شديد العزلة ("حرِّموا على أنفسكم الشعوب الأخرى ")... كيان يجند الأنصار الذين لا يفقهون حتى الركن الأساسي من أركان دينهم، ومع ذلك ينسلخون عن بيئتهم القومية والثقافية، و يكفون عن أن يكونوا هيللينيين، أو رومانيين، أو مصريين.

لقد شهدت مختلف بلدان العالم القديم ، في مختلف مراحل التاريخ القديم ، مصادمات بين السكان المحليين ويهود الشتات . ففي القرن الخامس قبل الميلاد سُجلت مصادمات من هذا النوع في **إيلفنتاين** (جزيرة الفيلة) بجنوب مصر ، وكانت على صلة بالغزو الفارسي والحماية التي قدمها الفرس لليهود . وفي عهد الإمبراطور **كاليغولا** اندلع في الإسكندرية نزاع ضارٍ. وكان **كاليغولا** قد اتخذ موقفاً ضد اليهود الذين لم يرغبوا بالانحناء أمام

تمثاله، ولكن سرعان ما حل م حله **كلاوديوس** الذي ألغى القرا ر. ولقد حكم بالموت على الخصمين الرئيسيين لليهود.

وفي كتابه " ***معاداة السامية في العالم القديم*** " يفسر س. ي. **لوريه** هذا "التنافر"، غيرَ المألوف بالنسبة للعصر القديم بين اليهود وبقية السكان، بكون اليهود يشكلون أمة "متميزة"، غير متمركزة على أرض واحدة، بل تعيش وسط الأمم الأخرى، ولكنها تتمتع، رغم ذلك، بحس الأمة – الدولة الذي لا يتجسد عبر اللغة أو الدولة. وإذا ما أضفنا إلى ذلك أن هذه الأمة أثَّرت على حياة البلدان التي قطنت فيها، وأخضعت لنفسها بعض جوانب حياتها، ودمرت جوانب أخرى، فسوف يقدم لنا هذا تفسيراً جزئياً للأمزجة المعادية لليهود في المجتمع القديم.

وفيما يلي آراء ثلاثة من كبار المؤرخين:

<u>إدوارد ماير</u>:

"لقد جاء إلى العالم مع الجماعة اليهودية تابعُها الأبدي، أي كراهية اليهود (judenhass)، أو ربما، البُغض اليهودي؟ (والترجمتان ممكنتان. – المؤلف). ومن الخطأ جذرياً أن ننظر إلى هذا التابع، على غِرار ما يجري الآن، بوصفه ثمرة العصر الحديث، أو نتاجَ المسيحية. فـ**المزامير** تتحدث عنه طول الوقت. لم يكن رب اليهود، ولا ديانتهم بحد ذاتها، سبب ما لاقوه من الاستهزاء والاحتقار والملاحقات على أيدي الوثنيين، بل يعود ذلك إلى اقتناعهم المتغطرس بتفوقهم الذي جعلوا على أساسه من أنفسهم، بوصفهم المؤمنين الوحيدين بالرب الحقيقي، خصوماً في مواجهة جميع الشعوب الأخرى، ورفضوا أي تماس معها بوصفها شعوباً شريرة، وعدّوا أنفسهم خيراً منها وأرفع مقاماً، وأنهم مخصوصون حكماً بالسيادة عليها. أما من لم يصبح نصيراً لهم عن طريق الإلهام فقد كان يتصور اليهود أشراراً، ومثيرين للاشمئزاز، بقدْر ما كان هو نفسه يبدو لهم كذلك. وكان اليهود يعون هذا التناقض بقدْر كبير من المرارة جعلهم يرون فيه خروجاً على نظام الأشياء الطبيعي، و من هنا تأتي مطالبهم المتكررة بيوم الحساب، وعقاب المذنبين، والدعاء بمجيء يوم **يهوه**. على أن القوة المحركة هنا هي التعطش للثأر، لا السعي لمعرفة أسرار الإله. إن كراهيتهم للوثنيين كانت الجانب الآخر من السعي لإ دخالهم في دينهم. ولذا فإن خيالهم، في ظل العجز القائم، كان يشطح بهم في تصوير لوحة إبادة الوثنيين".

<u>ماكس فيبر:</u>

"إن انتشار "معاداة السامية" الشامل في العصر القديم حقيقة واقعة. ومما لا جدال فيه أيضاً أن هذا الموقف السلبي المتنامي إزاء اليهود كان يتطور بالموازاة مع تصاعد موقف اليهود السلبي إزاء التواصل مع أتباع الديانات الأخرى. ثم إن الموقف السلبي من اليهود في العصر القديم مختلف جذرياً عن "النفور العرقي". وهذا ما يبينه، مثلاً، المدى الهائل الذي بلغته الدعوة لاعتناق اليهودية. وكان موقف اليهود السلبي بالذات هو الذي حدد

كيفية نشوء العلاقات المتبادلة مع الآخرين. فقد عرف العصر القديم كثيراً من عاداتهم غير المألوفة التي تبدو لامعقولة، بل عرف منها ما يكفي ويزيد، ولكن السبب لم يكن كامناً فيها طبعاً. وبالطبع، كان رفض اليهود الشديدُ الخضوعَ لآلهة أي دولة هم ضيوف فيها، يُعَدُّ بمثابة إهانة وكفر. ولكن ذلك أيضاً لم يكن السبب الحاسم. وإذا ما نظرنا إلى جذر المسألة، وجدنا أن المأخذ الحاسم والأخير إنما يتمثل في ما يكنُّه اليهود من "كراهية للبشر"، أي في رفضهم الحياةَ المشتركة، وأيَّ نوع من التقارب والعلاقةِ الودية، حتى ولو في مجال الأعمال. إذ لا يجوز أن نستهين بصدِّهم كلَّ من يقف على أرضية **الفريسيين** عن التعاون مع أتباع الديانات الأخرى صداً بالغ القوة، وهذا جانب لم يكن في مقدور منافسيهم الوثنيين إلا أن يلاحظوا تأثيرها الاقتصادي. إن عزلة اليهود الاجتماعية، هذا "الغيتو" بأعمق معاني الكلمة، كانت قد اختيرت منذ البدء، ونشأت بمبادرتهم الذاتية حصراً، ومضت مع مرور الزمن تتعاظم أكثر فأكثر... وكان إصرارهم على الابتعاد عمَّن هم أنجاس من وجهة نظرهم الدينية، يسير جنباً إلى جنب مع سعيهم المحموم لتهويد الآخرين".

ويعود ***ت. مومزين*** بدايات نفور الشتات اليهودي من بقية أهالي العالم القديم إلى القرن الأول بعد الميلاد . فهو يقول عن ذلك العهد:

"دائماً كان اليهود غرباء، و دائماً أرادوا أن يكونوا كذلك. ولكن مشاعر النفور اشتدت فيهم أنفسهم وضدهم حتى بلغت مداها الأقصى، وراح طرفا هذا التنافر يمتحان منه عواقبه الشنيعة المؤذية. وقد اتسعت المسافة اتساعاً كبيراً بين تهكمات **هوراس** (65– 8 ق.م.) الطفيفة على "يهود الغيتو الروماني اللجوجين" من جهة، وكراهية **تاسيتوس** الأكيدة إزاء وحوش الجنس البشري هؤلاء الذين يرون كل ما هو طاهر دنساً، وكل ما هو دنس طاهراً...

راح عيش اليهود جنباً إلى جنب مع غير اليهود يتحول أكثر فأكثر إلى حتمية لا مفر منها، فيما تتعاظم استحالته باطّراد في ظل الظروف القائمة؛ فـقد كان الاختلاف يحتدم ما بين العقائد والشرائع والأعراف، وكان الاحتقار المتبادل، والكراهية المتبادلة سواء بسواء يؤثران تأثيراً مميتاً على الأخلاق عند الطرفين...

إن هذه الضراوة، وهذه الغطرسة ، وهذه الكراهية، بالشكل الذي تجسدت فيه آنذاك، لم تكن، بالطبع، إلا نباتاً حتمياً لحصاد ربما لا يقلّ عنه حتمية . ولكن الإرث الذي خلَّفته تلك الأزمان، لا يزال يلقي بعبئه الثقيل على البشرية حتى الآن".

ومع أفول العصر القديم عرف نفوذ اليهود تدهوراً حادّاً. ومما لاشك فيه أن تراجع أهمية المدن لعب دوره في هذا التدهور (كان عدد كبير من اليهود من سكان المدن)، وساهم في تقليص دور التجارة والمال (المهنتين اللتين أعطتا اليهودَ ذلك الوزن في المجتمع). غير أن ظهور المسيحية وانتصارها كقوة تنظم الحياة كان السببَ الرئيسَ في ذلك التدهور. وعندما نشأ المجتمع المسيحي غدا من المتعذر أن يشارك المرء في حياته بفعالية، وأن يكون تابعاً في الوقت نفسه لمجتمع آخر، أي للمجتمع اليهودي . ولما كانت الجماعة اليهودية مرغمة على الاختيار، فإنها اختارت العزلة التامة هذه المرة، والانكفاء على الذات في "الغيتو".

ويتطرق **غريتس**، مثلاً، بوضوح كبير إلى دور المسيحية في هذا التغيير الذي طرأ على وضع اليهود . ففي المجلد الأول من كتابه "***تاريخ الشعب اليهودي***"، وفي معرض حديثه عن ظهور المسيحية، كتب يقول:

"لقد قدِّر لهذا السقط الذي يرتدي قناع الموت أن يوقِعَ العديد من الجراح المؤلمة بالجماعة اليهودية".

وقد جرى هذا الانقلاب، حسب رأي **غريتس**، في اللحظة ذاتها التي اقتربت الجماعة اليهودية فيها من تحقيق هدفها، أي من "أن تصبح معلِّماً للبشرية".

يكشف لنا العصر القديم، من خلال علاقاته مع اليهود ، عن سماتٍ تذكرنا أحياناً على نحو عجيب بالعصر الحديث، وحتى بالقرن الأخير أو العقود الأخيرة منه. ولكن ذلك يبدو في بعض الجوانب وكأنه نموذج مصغَّر، "تمرين"، على غرار ما يسبق غالباً حدوث ظاهرة تاريخية كبرى، مثلما كانت انتفاضة عام 1905 "تمريناً" سبق اندلاع ثورتنا عام 1917 في روسيا . وينطبق هذا بالدرجة الأولى على السيادة السياسية الحقيقية . ومع أننا نصادف الكثير من اليهود النافذين قادةً عسكريين ورجالَ مال ، فإن من المتعذر أن نلحظ مثيلا لقمة قيادة الاتحاد السوفيتي اليهودية في العقود الأولى من السلطة الشيوعية ، أو لقمة عالم المال وقيادة وسائل الإعلام الجماهيري في الغرب المعاصر. وما يتذكره المرء بشكل مؤلم على نحو خاص هو قيادة الأعمال الإرهابية ضد الشعوب غير اليهودية. إن شخصيات مثل **روزاليا صموئيلوفنا زيملياتشكا أو مادلين أولبرايت** ، لم تكن موضع وصف من قبل المؤلفين في العصر القديم . أما تلميحات **شيشيرون** إلى النفوذ اليهودي في ندوة رو ما، فيمكننا تماماً أن ننظر إليها بوصفها ضرباً من البلاغة الخطابية. أضف إلى ذلك أن العلاقات المتبادلة مع اليهود كانت موضع نقاش حر، ولم تكن مظاهر الرقابة جلية في هذا المجال، على غرار ما هي عليه في عصرنا اليوم.

غير أن العوامل المبدئية التي تحدد وضع "الجماعة اليهودية" الآن، كانت واضحة في العصر القديم كذلك. إنها ذاك الجمع المحير، كاللغز، بين وصايا **العهد القديم** البالغة الصرامة، ووصايا **التلمود** من جهة، والانخراط النشيط في ثقافة العصر القديم الهيلينية إجمالاً، من جهة أخرى. وكما يقول **مومزين**، فإنه:

"وبصرف النظر عن تشتت قسم كبير من اليهود في مختلف البلدان، وتسرُّب عدد كبير من الغرباء، بل ومن العناصر الهيلينية المدمرة، إلى صفوفهم، فإنهم ظلوا بمجملهم، وفي أعماق وعيهم، على قدر من الوحدة يشبه بعض الشبه ما يمثله الفاتيكان في الوقت الحاضر".

ويتمثل ذلك في العالم المعاصر في وحدة الإيديولوجيا الحاخامية والتلمودية السائدة في إسرائيل من جهة، مع اليهود الذين "تحرروا"، أو "قبلوا الإصلاح" في البلدان الأخرى ، من جهة ثانية . كما يتمثل أيضاً في تلك "الوشيجة العجيبة" التي لاحظها **غريتس** منذ القرن التاسع عشر، وهب بعدُ طرية العود . (انظر الاقتباس في الفصل الأول).

مراجع الفصل الثاني :

1 - مومزين ف. "التاريخ الروماني". المجلد 5.

2 - تاسيتوس، "آنالا"، "التاريخ".

3 - يوسف فلافيوس، "الحرب اليهودية"، "العصر اليهودي القديم".

4 - القديس أوغسطين، "عن مدينة الرب".

5 - جوفينال. "هجائيات".

6 - س. ي. لوريه. "العداء للسامية في العصر القديم". بيتروغراد، 1922.

7 - Leon H.G.The names of Jews in the Ancient Rome, trans.and Proc.Amer.Philol.Assoc.,59 (1928),P216

8 - Josephus Flavius, "Against Apion", Works.v.5.

9 - Les oeuvres de Philon d'Alexandrie, Lion, 1927, v.v. 24, 25, 31.

10 - Dio Cassius,Roman History, London. 1927

11 - Didorus Sicillius, Bibliotheque historique, Paris, 1846.

12 - Eusebius parmplus, Werke, Berlin, 1954, Bd 8.

13 - Charles R. H. (tansl), Book of jubilee.

14 - Reinach Th., texts d'auteeurs gresc et romans relatifs au Judaisme, paris, 1894.

15 - Belich j., Die Bevolkerung griechischromischen Welt, 1866.

16 - Pavan, Die nationalitet der kaufleute im romischen Keiserreich, Breslau, 1909.

17 - Meyer Ed., Geschichte das Altertums, Bd 3, Stutgart, 1901.

18 - Graetz H., Geschichte der Juden, Bd 1.

19 - Weber M. , Gesammelte Aufsatze zur Religionssoziologie, Bd 3, Das Antike judentum , Tubingen, 1923.

20 - معادة السامية. "الموسوعة اليهودية"، إصدار بروكهاوزن وإيفرون. الجزء 2.

21 - الدياسبورا. "الموسوعة اليهودية"، الجزء 3.

الفصل الثالث

القرون الوسطى

إن تاريخ الجماعة اليهودية في القرون الوسطى مليء بالتراجيديّة والتناقضات الدراماتيكية. فكثيراً ما كان اليهود يتعرضون لتقييدات ومضايقات قاسية، ثم تعقبها مراحل يسر، يتمتعون إبانها بالعديد من الامتيازات، ويؤثرون على أهم جوانب حياة غيرهم من الشعوب. إلا أن هذا المراحل كانت تنتهي على الدوام بملاحقات جديدة، وبطرد اليهود كافةً، وأحيانا بالإبادة الجسدية لجاليات عن بكرة أبيها، ولآلاف من البشر.

لن يتسنى لنا فهم صورة حياة الجماعة اليهودية في العصور الوسطى ما لم نأخذ بالحسبان على الدوام خلفية هذه الصورة، أي تلك الملاحقات الدورية القاسية. ولذا سنبدأ من إيراد بعض الأمثلة.

ففي عام 1096، في أثناء التحضير للحملة الصليبية الأولى، كان الهيجان الديني الطاغي آنذاك يعبر عن نفسه بقيام مجموعات كبيرة من حملة الصلبان **(الصليبيين)** باقتحام الأحياء اليهودية ومطالبة اليهود، تحت طائلة القتل، بأن يتنصروا ويرسموا إشارة الصليب. وهذا ما كان يسفر في أغلب الحالات عن عمليات تنكيل بجاليات يهودية بأكملها، وعن انتحار اليهود جماعات أحياناً. ولم تتنصَّر إلا مجموعات قليلة طمعاً بالنجاة. وقد قتل من اليهود في فورمس 800 شخص، وفي ماينتس 1000 شخص. وتعرضت الجالية اليهودية للسحق في كل من ترير، وميتس، وكولونيا. وبلغ إجمالي عدد القتلى منهم ما بين أيار وتموز (مايو ويوليو) 1096 ما بين 4 و8 آلاف شخص. وتكرر الأمر نفسه على نطاق أضيق في أثناء الإعداد للحملة الصليبية الثانية عام 1146 م.

وفي عام 1189 اندلع تمرد في لندن تحول إلى عمليات قتل جماعي لليهود. وامتد ذلك التمرد ليشمل جميع أنحاء إنكلترا، فأبيد السكان اليهود في يورك، مثلاً، عن بكرة أبيهم.

كما تمّ إحراق جميع السكان اليهود تقريباً جرّاء اتهامهم بتدنيس الهبات المقدسة في بيليتس، بالقرب من براندنبورغ.

وفي عام 1251 أسفرت محاولة تنظيم "حملة الرعاة الصليبية" عن انتفاضة شعبية عرفت باسم انتفاضة "**الرعاة**" **(Pastorelli)**. ثم اندلعت انتفاضة الرعاة الثانية في عام 1320م. ولمّا كان الموضوع الدائم لحقد المنتفضين هم اليهود، فإنهم كانوا يتعرضون لإبادة لا تعرف الرحمة. وعندما قامت الانتفاضة الثانية كان اليهود، المطرودون آنذاك من أراضي فرنسا الملكية، يعيشون في الأراضي الإنكليزية حصراً. ولكنهم هنا أيضا أبيدوا بالكامل تقريباً.

كما أدت اتهامات اليهود باختطاف أطفال مسيحيين وقتلهم في روتنغهام (1298م.) إلى قتل اليهود في فرانكونيا، وبافاريا، والنمسا.

وفي الفترة الواقعة ما بين 1348 و1349 اجتاح أوروبا الغربية وباء طاعون "الموت الأسود" المريع، فهلك حوالي ثلث السكان، أي ما هو أكبر بكثير ممن قضوا في الحربين العالميتين الأولى والثانية معاً، من حيث

النسبة إلى عدد السكان الإجمالي. وانتشرت قناعة في أوساط الشعب بأن هذه المصيبة هي نتيجة مؤامرة حاكها يهود راحوا يسممون الآبار بهدف القضاء على المسيحيين كافة . ولقد أسفر ذلك عن انتفاضات وعمليات قتل جماعي لليهود هي الأشد قسوة في القرون الوسطى، فتعرضوا للقتل والإحراق في بيوتهم ومعابدهم، ابتداء من ساحل البحر الأبيض المتوسط حتى شمال ألمانيا . وشهدت كل من فرانكفورت على الماين وماينتس في العام 1349 قتل سكانهما اليهود كافة. وجرت عمليات تنكيل جماعية ضد اليهود في بروكسل (حيث قتل منهم حوالي 600 شخص)، وفي كولونيا وهولندا. ولم يبق في ألمانيا وهولندا إلا عدد من اليهود قليل جداً.

كذلك قتل من اليهود في إشبيليا عام 1491 حوالي 4000 شخص. واجتاحت الانتفاضات المعادية لليهود مدناً أخرى في أسبانيا.

وتندرج في هذه الدائرة من الظواهر أيضاً أعمال التنكيل باليهود التي جرت في أ ثناء الانتفاضات المعادية للبولنديين في أوكرانيا . فقد أبيد في عام 1648، على سبيل المثال، سكان **نيميروف** اليهود على أيدي قوزاق **خميلنيتسكي**، إذ يقول أحد المؤرخين اليهود عن أحداث تلك الفترة إن السكان المحليين سمحوا للقوزاق بدخول المدينة وساعدوهم "انطلاقا من كراهيتهم لليهود". وتذكر "الموسوعة اليهودية" أن مستأجري الأراضي اليهود كانوا يصطدمون مع الفلاح دائماً عند تحصيل الجزية منه (نقداً أو عيناً)، وإرغامه على القيام بأعمال السخرة". وكان أحد مطالب **خميلنيتسكي** في حربه ضد السلطات البولندية يتلخص في حرمان اليهودي من حق تعهد الأراضي وتأجيرها للفلاحين.

وفي أواسط القرن الثامن عشر اجتاحت الجزء الذي كان باقياً من أوكرانيا تحت سلطة بولونيا انتفاضات عرفت باسم حركة **الهايداماك** (وهم القوزاق الأوكرانيون الذين حاربوا البولونيين في القرنين 17 و18. – م)، وراح ضحيتها أيضاً أعداد كبيرة من اليهود . وأشهر ما وقع في تلك الانتفاضات هو، على وجه الخصوص ، مذبحة في **أومان** عام 1768. يصف المؤرخ اليهودي **دوبنوف** هذه المذبحة قائلاً:

"لقد تكاتف البولنديون واليهود، ووقفوا عند سور المدينة جنباً إلى جنب يطلقون النار معاً من المدافع والبنادق على محاصريها، ولكنهم لم يوفقوا في الدفاع عنها. وعندما اقتحمها **الهايداماك** هاجموا اليهود قبل سواهم ... كان جمهور من اليهود يقدر بحوالي ثلاثة آلاف شخص قد التجأ إلى كنيس كبير . فأطلق **الهايداماك** النار من مدفع نحو باب الكنيس حتى فجّروه، فاقتحمه الأشقياء وحولوه إلى مسلخ. وما إن أجهزوا على اليهود حتى شرعوا بقتل البولنديين...".

وتفيد المعطيات التي توردها "الموسوعة اليهودية الموجزة " بأن حوالي عشرين ألف شخص، معظمهم من اليهود، قتلوا في أوكرانيا.

على أن الشكل الآخر من الاضطهاد الذي كُتب على اليهود أن يواجهوه تمثّل في طردهم من دول معينة ، ومن بعض المدن. وفيما يلي قائمة، بعيدة جداً عن الكمال، بعمليات التهجير هذه:

لقد هجِّر اليهود من روما في العصر القديم، أيام **تيبيريوس وكلوديوس**.

وهُجّروا في القرن السادس من مملكة الفرنجة في عهد الملك **داغوبيرت**.

وفي العام 1119 من سانت إدموند (إنكلترا).

وفي العام 1182 من أراضي المملكة الفرنسية.

وفي العام 1239 من بريتاني.

وفي العام 1234 من نيوكاسل.

وفي العام 1236 من ساوثهمبتون.

وفي العام 1249 من فرنسا.

وفي العام 1290 من إنكلترا، في عهد **إدوارد الأول** (ولم يلغَ هذا المرسوم إلا على يد **كرومويل** في القرن السابع عشر).

وفي العام 1306 من فرنسا في عهد **فيليب الجميل**.

وفي العام 1348 من برلين.

وفي العام 1426 من كولونيا.

وفي العام 1450 من بافاريا.

وفي العام 1475 من بامبيرغ.

وفي العام 1499 من أولم، من نورنبيرغ.

وفي العام 1501 من فرنسا في عهد لودفيغ الثاني عشر.

وفي العام 1267 من مورافيا.

وفي العام 1454 من برنو.

وفي الأعوام 1241، 1348، 1618 من فرانكفورت على الماين.

وفي العامين 1439- 1440، من آوغسبورغ.

وفي العام 1438 من ستراسبورغ.

وفي العام 1458 من إيرفورت.

وفي العام 1519 من ريغينسبورغ.

وفي العامين 1455 و1670 من فيينا.

وفي أواخر القرن الخامس عشر من أراضي آل هابسبورغ الموروثة.

وفي أوائل القرن السادس عشر من بروسيا.

وفي العام 1492 من إسبانيا وصقلية.

وفي العام 1496 من البرتغال.

وفي العام 1498 من نافارا.

وفي العام 1510 من نابولي.

وفي العام 1550 من جنوة.

وهُجِّروا مرات عديدة من فينيسيا، كما في عام 1550، مثلاً.

وفي العام 1626 من آخن.

وتورد "الموسوعة اليهودية " الأرقام التالية : طُرِد من إنكلترا في القرن الثالث عشر 16000 يهودي، ومن فرنسا في القرن الرابع عشر 100000 يهودي، ومن إسبانيا في القرن الخامس عشر 200000 يهودي.

لن يكون من الصواب أن نستنتج من هذه الوقائع أن اليهود كانوا مادة لكراهية مجتمع القرون الوسطى كله بلا استثناء . ويؤكد مؤرخو الحوليات ، اليهود منهم والمسيحيون على حد سواء، أن من كان ينكل باليهود ويضطهدهم آنذاك في جميع الأحيان تقريباً هم *الشعب* ، عامة الناس، "السُّوقة"، وأصحاب المراتب الدنيا بين رجال الدين، ثم صغار الإقطاعيين أحياناً. ولكن البابوات والأباطرة والملوك والأساقفة وكبار الإقطاعيين كانوا يحاولون على الدوام حماية اليهود من التعسف. وغالباً ما كانت تجري عمليات التهجير تحت تأثير الاضطرابات الشعبية التي لم يكن بوسع السلطات السيطرة عليها.

وفي القرن الخامس أصدر الإمبراطور **ثيودوسيوس** مرسوماً يمنع تهديم المعابد اليهودية ، بل وحاول أيضاً ترميم كنيس كان قد دُمِّر. ولكن ذلك لم يُجْدِ نفعاً، لأن الأوساط الروحية أعربت عن رأيها بأنه يتعذّر أن يبني المسيحيون كنيساً يهودياً، وذلك لاعتبارات دينية.

يقول مؤرخ الجماعة اليهودية، اليهودي **روث:**

"منذ القديم وحتى العصر الحالي كان أكثر ما يُرمى به اليهود من افتراءات فظة يلاقي الدحض (وحتى التحريم) من قبل مقام البابوية. وكانت الجاليةُ اليهودية في روما الجاليةَ الوحيدةَ التي استمرت في الوجود، تحت رعاية البابوات، منذ المرحلة الكلاسيكية وحتى أيامنا هذه".

وبالفعل ، فقد طالب **غريغوري العظيم** (590 – 604) في حينه ، بأن تكون حقوق اليهود المشروعة مضمونة، فوافقت الكنيسة الكاثوليكية على وجهة النظر هذه. وبدءا من **كاليست** الثاني (1119– 1124) وحتى القرن السادس عشر تتابعت سلسلة قرارات كانت تتوعد المسيحيين بإنزال عقوبة الحُرْم بكل من ينصِّر اليهود بالقوة، أو يمارس العنف والسلب ضدهم، أو يمنعهم من ممارسة شعائرهم الدينية وعباداتهم. ويؤكد مرسوم **البابا غريغوري العاشر** الصادرفي عام 1272، على سبيل المثال، على أن شهادة المسيحي ضد اليهودي تُعَد باطلة ما لم تعززها إفادة شاهد يهودي... وابتداءً من مرسوم **إينّوكينتي الرابع** عام 1247 وحتى مرسوم **كليمنت الثالث عشر** عام 1763 حرَّم البابوات اتهام اليهود بعمليات القتل الطقسية (أي لأسباب دينية تقتضيها طقوس العبادة. – م)، وهددوا بإنزال عقوبة الحرم الكنسي بكل من يخالف ذلك. وأقرّوا بأن من يرميهم باتهامات باطلة يتوجب عدُّه قاتلاً.

وفي أثناء الملاحقات التي جرت أيام الحملة الصليبية الأولى تسنى لأسقفَيْ كولونيا وشبيير إنقاذ العديد من اليهود. وقد أنزل أسقف شبيير عقوبة الإعدام ببضعة مسيحيين شاركوا في عمليات قتل اليهود. ووقف **القديس برنار** (مؤسس دير كليرفو) ضد أعمال التنكيل باليهود في ألمانيا أيام الحملة الصليبية الثانية . وفي أثناء انتفاضة "الرعاة" وجد اليهود ملاذاً آمناً لهم في الأراضي البابوية في آفينيون . كما فرض البابا الحرم الكنسي على من شاركوا في تلك الانتفاضة. وفي عام 1308 قام دوق *برابانت* بالدفاع عن اليهود ، فشتت حشداً من "الرعاة" وقتل الكثيرين منهم. وقد بارك البابا عمله هذا.

تقول "الموسوعة اليهودية الموجزة": " كان اليهود في بلدان أوروبا القرو سطية (...) في معظمهم تحت حماية الملك، وغالباً ما كانوا لا يخضعون لمحاكم السلطات المحلية".

وكان اليهود في العديد من البلدان يتمتعون بإدارة ذاتية ، وكانت لهم محاكمهم الخاصة التي يحق لها فرض أية عقوبات . هكذا كان الوضع مثلاً ، في إسبانيا أيام الحكم الإسلامي . وفي البرتغال خلال القرن الرابع عشر كان للجالية اليهودية رئيس واحد يمثل يهود الدولة كلها . وكان وضع اليهود على مثل هذه الحال في كل من فرنسا وإيطاليا وألمانيا وبولونيا وليتوانيا . وقضى مرسوم الملك **هنري الأول** في إنكلترا (القرن الثاني عشر) بأن يكون جميع اليهود المقيمين في نطاق الدولة كلها تحت حماية الملك ورعايته. وكان واجباً أن تجري محاكمتهم من قبل أبناء عقيدتهم، وأن يقسموا على التوراة . أما ابنه، **هنري الثاني** ، فقد أصدر ما عرف بـ "الميثاق اليهودي". ووَفقا لهذه التشريعات كان لابد، مثلاً، عند التقاضي بين اليهودي والمسيحي من توفر إفاد ة شاهدين: أحدهما يهودي والآخر مسيحي . وفي فرنسا أحدث **لودفيغ التقي**، وليّ عهد **شارل الأكبر**، منصباً خاصاً من أجل حماية اليهود هو "**ماجستير يوديوروم**". وأصدر مرسوماً ملكياً يمنع تنصير العبيد الذين تعود ملكيتهم لليهود.

وفي القرن الثالث عشر أصدر ملك بولندا **بوليسلاف** لائحة تنظم وضع اليهود . وعلى أسس قريبة جداً من هذه اللائحة يقوم الميثاق الذي وضعه دوق النمسا في عام 1244، وكذلك التشريعات التي صدرت في كل من بوهيميا وسيليزيا وليتوانيا. وبموجب هذه القوانين لم يعُدْ من حق المسيحي أن يدّعي على اليهودي في المحكمة ما لم يأتِ بشاهد يهودي . ولا يقع اليهود ضمن دائرة اختصاص المحاكم المحلية ، بل كانوا لا يخضعون إلا للمحكمة الملكية أو الدوقية. وكان المسيحي الذي يقتل يهودياً يعاقب بالموت مع مصادرة ممتلكاته كلها. وإذا ما رفع مسيحي يده على يهودي تعرض لقطعها . والمسيحي الذي لا يهبُّ لنجدة اليهودي عند تعرضه لا عتداء يعاقب بدفع غرامة. وكان مكفولاً لليهود حق التجارة بلا رسوم، ومسموحا لعملياتهم الربوية بأن تصل إلى 173 بالمائة. وكان محظوراً أي انتهاك لنشاط اليهود الديني، فمن أهان شعائرهم الدينية فرُضت عليه غرامات مالية، ومن دنس مقابرهم عوقب بالإعدام. ولم يكن مسموحاً اتهام اليهودي بقتل طفل مسيحي إلا إذا توفر ثلاثة شهود يهود وثلاثة شهود مسيحيين . وإذا ما أقرت المحكمة ببراءة يهودي مدّعَى عليه، فإن المدعِي هو من يتحمل العقوبة نفسها التي كانت ستُنزَل بذلك اليهودي لو كان مذنباً . وقد أعلن الملك **سيغزموند الثاني** عام 1551 أن أي يهودي لا يلتزم بـ "الحكم والحظر الذي يفرضه عليه الحاخام ، والمحكمة ، أو سوى ذلك من المراجع اليهودية... فسوف يقطع رأسه".

وبعد أن حطم جمهور من الغوغاء غيتو لليهود في فرانكفورت على الماين عام 1616، أوقعت سلطة الإمبراطور عقوبة الإعدام بزعيم المشاغبين وستة من المحرضين . وفرض الإمبراطور على سكان المدينة المسيحيين غرامة قدرها 175919 فلورين، ووضعَ الغيتو تحت حراسة مباشرة تابعة له، وتدليلاً على ذلك نصب على بوابة الغيتو درعاً تحمل شعار الإمبراطور . وسرعان ما صدر مرسوم إمبراطوري يمنع ملاحقة اليهود في بقية المدن الإمبراطورية.

على أن فترات الاضطهاد هذه كانت تعقبها فتراتٌ يشغل إبانها اليهود الم تمتعون بحماية السلطات وضعاً رفيعاً في المجتمع، ويمارسون تأثيراً كبيراً على حياته. وكانت وفرة المال هي الأساس دائما لمثل هذا النفوذ . فقد كان اليهود في القرنين الحادي عشر والثاني عشر، كما يقول **روث**، المالكين الوحيدين تقريباً لرأس المال. ويشار في معظم الحالات إلى أن الربا هو مصدر رؤوس الأموال اليهودية . واستنادا إلى إ . **شيبر** ، يذكر ل.ن. **غوميليوف** مصدراً آخر هو تجارة العبيد. وهناك بحوث أحدث عهداً تؤكد صحة هذا الرأي ، ومنها على سبيل المثال، كتاب خ. **تريفور– روبر**، الذي جاء فيه أن اليهود ظلّوا المورِّدين الأساسيين للعبيد من أوروبا القرون الوسطى إلى العالم الإسلامي ردحاً طويلاً من الزمن . كما أن الشكلين الأساسيين لنشاط الدولة آنذاك ، أي الحرب والبناء، كانا بالكامل وقفاً على اليهود وحدَهم تقريباً. وقد اعتمدت الحملة الصليبية الأولى بدرجة كبيرة على مساندتهم لها. وموَّل **آهارون** من لينكولن، وهو رجل مال يهودي إنكليزي كبير في القرن الثاني عشر، بناء تسعة أديرة بندكتية، وديركاثوليكي كبير في سانت– ألبانس. وفي عهد **ريتشارد الأول** كان المعاصرون يقارنون قصور اليهود في لندن بالقصور الملكية من حيث الثراء.

وتفيد أخبار معاصري تلك الفترة بأن يهود فرنسا القرن الثاني عشر ، في عهد **فيليب – أوغست**، كانوا على قدْر من الغنى جعلهم يملكون أكثر من نصف باريس . وكان عهد **لودفيغ التقي** عهد ازدهار الجاليات اليهودية في فرنسا. فقد أعفيت هذه الجاليت من الضرائب ، وسمح لأبنائها بامتلاك عبيد مسيحيين . واحتكر اليهود تجارة الخمور واللحوم، ولأجلهم جعلوا البازار يوم الأحد بدلاً من يوم السبت. وكان اليهود في تولوز القرن الثالث عشر على قدم المساواة في الحقوق مع المسيحيين . وسُمِح لهم في فرنسا القرن الرابع عشر بأخذ أي رهن مقابل القروض، باستثناء قِطع الأراضي . ولم يكن يحق لأي قاض إلا من قضاة الملك أن يحاكمهم. وكان حَلْفُهم اليمين في المحكمة يؤخذ به كدليل إثبات. كما حظر **شارل الرابع** لمدة عشر سنوات قبول الشكاوى ضد المرابين اليهود الذين يسيئون استغلال عملهم هذا. وفي عهده سمح لليهود في فرنسا بحبس المدينين، ومعاقبتهم جسدياً، وبيع كل ممتلكاتهم. وكان القانون القديم يحرم على المسيحي أن يرهن نفسه عبداً لليهود مقابل ما يقرضونه من مال. غير أن **شارل السادس** ألغى هذا القانون، ولم يتراجع عن هذا الإلغاء إلا تحت تأثير غضب شعبي شديد.

ومن ناحية أخرى، فإن الشكاوى من استبداد المرابين اليهود تملأ حوليات القرون الوسطى التي تتحدث عن الفوائد السنوية الباهظة التي كان يتقاضاها أولئك المرابون وتصل إلى ثمانين بالمائة، ومائة بالمائة، أو مائة وسبعين بالمائة (وهذا وفقاً للأخبار الرسمية فقط). وفي زمن الحملة الصليبية الثانية كتب **بيتر** من كولونيا : "... ليس بالعمل الزراعي وحده ، ولا بالعمل الشريف والمفيد يملأ اليهود عنابرهم بالثمار، وأقبيتهم بالخمور، ومحفظاتهم بالنقود، وصناديقهم بالذهب والفضة... فللقانون يبيح لهم ألا يعيدوا إلى الكنسية الأشياء التي اقتنوها أو سرقوها منها. وهذا فعل يكلف المسيحي حياته ، بينما يغتني اليهودي منه". ويشكو الناس في فرنسا من أن اليهود الذين وفدوا إلى باريس منذ وقت قريب يمتلكون نصف المدينة. ويقال إن الفلاح هو غالباً من يتوجب عليه أن يقدم محصوله كله فائدةً مئويةً عن القرض. ويفسر مؤرخ حوليات ألماني امتيازات اليهود العديدة بكون طبقة النبلاء مدينة لهم. وتقتبس مقالة من الموسوعة اليهودية هذا المقطع:

"أفلا يضطر المسيحيون الفقراء لأن يلجأوا لليهود الملعونين كل ما يطلبونه تقريباً؟". وذلك لسبب وحيد فقط هو أنهم مدينون لليهود بذاك القدْ ر من الفوائد الربوية ثقيلة الوطأة، و بالفوائد على الفوائد ، حيث أنهم نادرا ما يجرؤون على القول بأن شيئاً ، أو القليل جداً مما يملكون هو لهم ". ويعترض على هذا الرأ ي أحد المعاصرين قائلاً:

"كيف كان باستطاعة اليهود أن يتسببوا بكل هذا القدر من التعاسات والأذى بعملياتهم الربوية والمالية الأخرى لو أن المسيحيين لمُ يعدوهم في ذلك ، ولو أن المسيحيين لم يكونوا بحاجة لهم جراء كسلهم وتبذيرهم وبذخهم المفرط؟". وجاء في "حوليات أعمال **فيليب أوغست** " (القرن الثاني عشر) أن مديونية كثيرين لليهود جعلتهم مضطرين للتخلي لهم عن كل ممتلكاتهم، بل ودخل بعض منهم السجن بسبب هذه الديون.

وغالباً ما كانت جباية الضرائب في أيدي اليهود. وهذا ما كان قاعدة عامة في إسبانيا، في قسميها الإسلامي والمسيحي على حد سواء. فقد كان **الدون مائير** هو خازن المال عند الملك **ألفونسو** (1221– 1284). وفي كاستيليا قام **الدون فرناندو** بتعيين **الدون صموئيل** مسؤولاً عن جباية الضرائب كافة . وشغل هذا المنصب في أشبيليا **يهودا آبرابانيل**. كما أحدث **ألفونسو الحادي عشر** في العام 1332 نظام إدارة للأموال كان بالكامل في أيدي اليهود. وفي العام 1348 أوكل إليهم عملية سك النقود . أما وريثه ، **بيدرو الأول الظالم** ، فقد منح منصب خازن المال **للدون صموئيل غاليفي** الذي كان يجبي الضرائب معتمداً على شبكة قصوره المنتشرة في أرجاء البلاد.

وعلى العموم يمكننا أن ننظر إلى مصير اليهود في إسبانيا بوصفه نموذجاً لحياتهم في أوروبا إبان القرون الوسطى. فقد نشأت المستوطنات اليهودية في إسبانيا في زمن الإمبراطورية الرومانية . وكانت حياة اليهود في مملكة الغوط الغربية مضبوطة بقوانين أكثر صرامة (في القرن السادس). على أن تلك القوانين كانت تهدف عملياً إلى القضاء على اليهود كطائفة دينية . ذلك أن اليهودي الذي لا يعتنق المسيحية هو وأفراد أسرته في غضون عام كان يعاقَب، على سبيل المثال، بمائة جلدة وسلخِ فروة رأسه. فلا عجب، إذن، أن تتحدث الحوليات عن "مؤامرات اليهود ". وعلى أية حال ، فقد اعتمد الفتح العربي لإسبانيا (القرن الثامن) في بداياته على مساندة الجزء اليهودي من السكان. إذ تذكر مادة في "الموسوعة اليهودية" أنه "لمّا كان العرب الفاتحين مضطرين للبحث عن سند لهم، فإنهم وجدوا ضالتهم المنشودة في اليهود ". لقد كان العرب يبقون حاميات يهودية في المدن التي يستولون عليها. وكانت ترابط حامية من هذا النوع في العاصمة توليدو (طليطلة). كما تركز القسم الأساسي من اليهود في الجزء الذي احتله العرب من إسبانيا، حيث كانت الحياة في البداية مواتية لهم. وغالباً ما كانوا يشغلون مناصب رفيعة عند الخلفاء هناك. ومن هذه الشخصيات اليهودية، مثلاً، **حسداي بن شبروت وصموبل غاليفي** . وفي هذه الحقبة من التاريخ عاش الشاعر اليهودي الشهير **يهودا غاليفي** ، وشارح التلمود **ابن ميمون** . ومع ذلك، فقد بدأت ملاحقات اليهود هنا أيضاً، ما أسفر في النتيجة عن انتقال عدد كبير من هم للعيش في الدو يلات الإسبانية التي تمتعوا فيها بادئ الأمر برعاية الملوك الكاثوليك، وكانوا في الكثير من المسائل على مستوى واحد مع النبلاء، كما تمتعوا باستقلال قضائي استمر حتى أواخر القرن الرابع عشر.

تتحدث الأدبيات اليهودية التي تعود إلى تلك الفترة بافتخار عن أن أكثر الناس نفوذاً في الدولة، أي **يوسف عيسيا، وصموئيل بن حو اكر، وصموئيل – بنياس، وموزيس عبوديا ، وصموئيل ليفي**، يتحدرون من نسل **داوود**، وأن **آل داوود** شغلوا في إسبانيا أرقى مكانة في تاريخ النفي كله. وجاء في ما كتب عن رئيس مؤسسة الضرائب **يوسف، ابن أفراييم** ، أنه الأول بين اليهود ، والثاني في المملكة . وكانت حاشيته (كما كانت حاشية اليهود النافذين الآخرين) تتألف من الأعيان الكاستيليين . وفي عهد **هنري الثاني ويوحنا الأول** كان **يوسف بيسوني** مديراً للشؤون المالية، وفي عهد **ياغو الأول** كان **يهودا دي كافاليريا** يشغل هذا المنصب، بينما شغله **يوسف وموسى رافايا** في عهد **بيدرو الثاني**... إلخ.

وفي أواخر القرن الرابع عشر راحت أنواع مختلفة من القيود تحل محل مناخ الرعاية هذا. وابتدأت أيضا **أعمال الترويع**[٦]. فوقعت في بداية الأمر مذبحة إشبيليا عام 1391، حيث قام الشعب الذي أجج أحد الرهبان مشاعره، باقتحام حي اليهود ، ووضعهم أمام خيار وحيد: فإما اعتناق المسيحية أو الموت . وقد انتشرت هذه الأعمال حتى عمَّت إسبانيا بأسرها، بالرغم من الحماية التي قدمها الأعيان لليهود . آنذاك راح التنصر ينتشر بين الجماعة اليهودية على نطاق أوسع فأوسع، وظهرت في الحين ذاته شريحة من معتنقي المسيحية الذين ظلوا على ديانتهم اليهودية سراً، وعرفوا بـ "**المَرّان**"، أو "المرانو". وسرعان ما شغل هؤلاء "المتنصِّرون" مكانة رفيعة في المجتمع. إذ يقول المؤرخ الإسباني **آمادور دي لوس ريوس** إنهم سرعان ما تغلغلوا بفضل الزيجات في "علّية القوم، ومخادعهم، وصالونات الحفلات الملكية، وأجهزة الدولة، والإدارات العليا للشؤون المالية سواء بسواء ". وعلى سبيل المثال ، فإن **شلومو خا- ليفي** الذي اتخذ بعد تنصره اسم **بابلو دي سانتا ماريا** ، أصبح كبير المستشارين، ثم جعله البابا رسولَه على صعيد الدولة كلها . وأصبح في آخر حياته أسقف بوغوس، كما صار أخوه مدعياً عامّاً في بورغوس . وكان أخوه الثاني منفذ وصية الملك **هنريك الثالث** ، بينما صار أخوه الآخر عضواً في المجلس الملكي، أما ابنه الأكبر فصار ممثلاً لمملكة آرغونيا في المجمع الكونستانسي. وما إن جاء القرن الخامس عشر حتى كان الدم اليهودي يجري في عروق العديد من عائلات النبلاء ، بل وحتى في عروق أرفع الأعيان.

كما ولعب اليهود الذين ظلوا على دينهم دوراً هاماً أيضاً. ففي أواخر القرن الخامس عشر، على سبيل المثال، كان **آبرابانيل** و**أبراهام سنيور** يديران الشؤون المالية في المملكة، وهما من أتباع الديانة اليهودية . على أن التزاوج بين علية القوم الإسبان والأوساط العليا من الجالية اليهودية مضى بعيداً إلى درجة أن ابن أخ الملك كان على رأس من طُرِدوا من إسبانيا عام 1492 م.

وقد بلغ النفوذ اليهودي أوجه في عهد **بيدرو الأول الظالم** (القرن الرابع عشر)، حتى سُمِّي بلاطه بـ"البلاط اليهودي". ولكن النفوذ اليهودي راح يترافق تدريجياً بفترات شهدت تدابير ضد اليهود، ومن ثم ملاحقات دموية،

---

[٦] بالروسية "بوغروم Pogrom"، وتعني الهجوم والإغارة بقصد الفتك والتدمير، وترد أيضاً بمعنى المذبحة، وسنستعمل لاحقاً عبارة "أعمال الترويع" ترجمة لها بهذه المعاني جميعاً. – م).

مثل مذبحة إشبيليا عام 1391. وانتهى كل شيء بطرد اليهود الذين ظلوا على دينهم من إسبانيا، وبإقامة محاكم التفتيش (عام 1480) الموجهة أساساً ضد **المَرَّان**.

والمثال النموذجي الآخر هو بولندا، حيث راح اليهود يستوطنون جماعاتٍ قليلة العدد منذ القرن العاشر أو الحادي عشر. ويقول المؤرخ اليهودي **دوبنوف** عن مرحلة متأخرة:

" يُعَدُّ القرن السادس عشر "عصراً ذهبياً"، أو عهد ازدهار لليهود في بولندا التي آلت إليها الريادة في العالم اليهودي بعد أن فقدتها إسبانيا".

فقد اتسعت المستوطنات اليهودية في بولندا على نحو ملحوظ في عهد **كازيمير الأكبر** في القرن الرابع عشر، حيث اكتسب اليهود أثناء حكمه جملة من الامتيازات، منها أن القاضي المحلي لم يكن يحق له النظر في قضايا اليهود إلا بحضور حاخامات الطائفة وعمدائها. واكتسب اليهود الحق بامتلاك الأراضي واستئجار قرى النبلاء. ويعزو البعض وضع اليهود المميز في عهد **كازيمير الأكبر** إلى نفوذ عشيقته اليهودية **إستيركا**. غير أن هذه العشيقة لقيت حتفها إبان حملات التنكيل باليهود التي بدأت في عهد خلفه **لودوفيك**. على أن السلطة الوطيدة التي عرفتها الدولة في عهد **كازيمير** راحت تتواجع أكثر فأكثر على مدى القرنين التاليين. وبحلول القرن السادس عشر الذي يصفه **دوبنوف** ب"العصر الذهبي"، كانت بولندا قد أصبحت جمهورية نبلاء يأتي الملك فيها عن طريق الانتخاب، ولا يملك إلا سلطة إسمية. ووفقاً لما يقوله **دوبنوف** فإن "الملوك البولنديين كانوا يوفرون الرعاية لليهود". ويضيف بمزيد من التفصيل:

"كان اليهود يشكلون في بولندا فئة خاصة يدير حياتها الداخلية ممثلون منتخبون، دنيويون وروحيون. وكانت **القهالات**[٧]، أي مجالس الطائفة، تشرف على شؤون الطائفة".

وكان ثمة إدارة يهودية واحدة تتمثل في "مجلس البلدان الأربعة" **(بوزنان وكراكوف وفولينيا وغاليسيا)** الذي يقوم أساساً بجباية جميع الضرائب من اليهود.

ويرجع تطوير التقاليد التلمودية على يد **موشي بسيرليس وسليمون لوريه** إلى القرن السادس عشر.

وقد أدى ضعف السلطة الملكية واشتداد سلطة صغار الملاكين من النبلاء إلى استرقاق الفلاحين الذين كانوا أحراراً فيما مضى. وكما يقول **شاحاك**، فإن "نظام الرق لم يكن يختلف عن العبودية في شكلها المحض ... ولكن الوضع الأسوأ كان قائماً في المناطق الشرقية من بولندا (بيلوروسيا وأوكرانيا) التي يقطنها ويعمل فيها فلاحون لم يكن قد مضى على استرقاقهم إلا مدة قصيرة".

يتحدث **شاحاك** بالتفصيل عن وضع اليهود الاقتصادي فيقول:

---

[٧] **القهال، في "الموسوعة اليهودية" للدكتور عبد الوهاب المسيري، كلمة عبرية تعني "الجماعة"، وهي تشير إلى الجماعة اليهودية ككل، كما تشير بمعناها الضيق إلى الهيئة أو المجلس الذي كان يدير شؤون التجمعات اليهودية المختلفة. – م.**

"قام النبلاء في كل أنحاء **ريتشي بوسبوليتا** باستخدام اليهود من أجل تقويض نفوذ المدن الملكية، وكان نفوذاً نسبيا للغاية في الأصل حتى ذلك الحين (....). واعتمد معظم الأرستقراطيين سماسرةً لهم من اليهود في المدن، وبذلك خلقوا النزاعات بطريقة مفتعلة.

غير أن الوضع الأسوأ كان قائماً في المناطق الشرقية من بولندا (....)، إذ لم يكن يوجد في هذه الرقعة الشاسعة أي مدن ملكية تقريباً. فقد كان ملاك الأراضي هم من يؤسسون المدن، و لم يكن يسكنها إلا اليهود تقريباً. على أن معظم اليهود كانوا يعيشون خارج المدن، طبعاً، وكانوا في بولندا بأسرها، ولكن في المنطقة الشرقية منها على الأخص، يُستَخدَمون كحكام مباشرين يضطهدون الفلاحين الأرقاء، إذ كانوا يستأجرون قراهم ويتمتعون بسلطة تمنحهم حق التصرف بتلك القرى ومن فيها كما يشاؤون.

وباختصار، فإن اليهود في سائر أنحاء بولندا الخاضعة لسلطة الإقطاعيين (وللكنيسة الإقطاعية التي لم يكن يرتادها إلا النبلاء حصراً) كانوا هم الذين يستغلون الفلاحين استغلالاً مباشراً، وكانوا في الوقت نفسه سكان المدن الوحيدين تقريباً.

كان الفلاحون يتعرضون لاضطهاد شديد تمارسه عليهم سلطة مزدوجة يتولاها أصحاب الأراضي واليهود؛ ويمكننا أن نفترض أن هؤلاء كانوا يطبِّقون القوانين الدينية اليهودية المتعلقة بالوثنيين بكامل وزنها. وكان تطبيق هذه القوانين، كما سنرى في الفصل التالي، يُلغى أو يُخفَّف إذا ما خطر على البال أنه قد يثير عداوة خطيرة تجاه اليهود".

ويمكننا أن ندرج أيضاً في عداد الامتيازات التي كان يتمتع بها اليهود في هذه الفترة أنهم كانوا ينالون في حال تنصرهم لقب النبالة، وغالبا ما يكون من المرتبة العليا. غير أن ذلك كله كان ينتهي بانتفاضات دموية في زمن **خميلنيتسكي** وجماعة **الهايداماك**.

وفي كلتا الحالتين – في إسبانيا وبولونيا – كانت فترات الازدهار والنفوذ تنتهي باضطهادات قاسية.

لماذا، أو على الأقل، كيف، جرى ذلك؟ يمكننا أن نأمل بأن نقترب من جواب على هذا السؤال إذا ما تمعنا بالاتهامات التي كانت توجه لليهود في القرون الوسطى. أمّا في نظرنا فإن بعض هذه الاتهامات يبدو معقولاً، وبعضها الآخر خيالياً، إلا أنها كانت كلها على قدْر واحد من الإقناع في نظر معاصريها، على ما يبدو.

كانت أقوال **لوثر** عن اليهود تمثل روح القرون الوسطى تمثيلاً نموذجياً. لقد ظللْتُ فترة طويلة أقع خلالها أحياناً على اقتباسات من كتابه "**عن اليهود وخدعهم**"، فأنظر إليها بوصفها مقولات تنطلق من روحية حاقدة، معادية لليهود (فهي اقتباسات تفوح منها كراهية كهذه) إلى أن قرأت، أخيراً، هذا الكتاب كاملاً في مجموعة أعمال **لوثر**. إنك تجد هناك، على سبيل المثال، "الوصايا السبع الصحيحة" الموجهة إلى الأمراء الألمان، وفيها يقترح **لوثر** تدمير كل الكنس اليهودية و إغراق أنقاضها بالقطران، وإحراق "الكتب اليهودية"، وإرغام اليهود على ممارسة العمل العضلي حصراً. ويضيف أنه لا يبدي هذه النصائح إلا وفقاً لما فيه من رأفة مسيحية، وإلا فإن بالإمكان طردهم جميعاً من ألمانيا، "مثلما طُردوا من إسبانيا في القرن الخامس عشر، ومن فرنسا في القرن الرابع عشر، ومن إنكلترا في القرن الثالث عشر".

وبكلام أكثر تحديداً ، إننا نجد، قبل كل شيء، اتهامات لليهود بنهب الناس عن طريق الربا ذي الفوائد الفاحشة. ويجب أن نأخذ بعين الاعتبار أن الكنيسة الكاثوليكية في القرون الوسطى كانت تحرِّم على المسيحيين ممارسة الربا تحت طائلة حرمان أفراد الرعية من سر القربان، وتجريد رجال الدين من المرتبة الدينية، وبذلك كان اليهود الوحيدين الذين يحق لهم شرعاً إقراض المال مقابل فائدة مئوية. والشيء الأهم هو أن المال كان متوفراً عندهم. وقد سبق أن أوردنا أعلاه أمثلة عن اتهامهم بفرض فوائد ربوية فاحشة.

وكان اليهود يُتهمون أيضاً ببيع المسيحيين كعبيد للمسلمين. ففي القرن السابع يؤكد مؤرخ الحوليات **لويتبراند**، **وأسقف** *آغوبارد*، *وسينود* **شالون** على *مارنا* عام 630، أن اليهود يقومون بخصي أطفال المسيحيين ثم يبيعونهم للعرب المسلمين. ومن المؤرخين الأحدث عهداً يدلو **تريفور– روبر** بدلوه في ما يتعلق بهذا الجانب من نشاط اليهود الاقتصادي.

ثم تأتي بعد ذلك اتهامات اليهود بمساعدة أعداء الدولة. إذ يقول **روث** ذاته إنه، نظراً لما كان يتعرض له اليهود من أنواع الاضطهاد في إسبانيا، ليس ثمة ما يدعو للدهشة إذا كانوا قد تعاطفوا بحرارة مع الفتح العربي، هذا إذا لم يكونوا قد استدعوا العرب صراحة. وهذا الاحتمال الأخير هو ما يؤكده مؤرخو تلك المرحلة الإسبان. فقد كان المسلمون في أثناء غزوهم إسبانيا يبقون حاميات يهودية في المدن التي يستولون عليها. واتُّهم اليهود أيضاً بأنهم يسّروا للمسلمين في عام 965 عملية دخول توليدو (طليطلة) وشاركوهم في التنكيل بالمسيحيين، أو بأنهم سلموا بوردو لقراصنة الشمال.

وإلى جانب هذه الاتهامات التي يمكننا وصفها بأنها معقولة (بصرف النظر عمّا إذا كانت صحيحة أم لا)، ثمة اتهامات خيالية تماماً لعبت دوراً كبيراً، وبالدرجة الأولى في اتهامهم بمؤامرة ترمي إلى إبادة المسيحيين وذلك بتسميم المياه في آبارهم خلال سنوات "الموت الأسود" (الطاعون). غير أن التهمتين الأكثر تكراراً هما: اختطاف الأطفال المسيحيين وقتلهم بمقتضى أعياد دينية (القتل الطقسي)، والسطو على ***"الهبات المقدسة"*** بهدف تدنيسها. وهاتان التهمتان تبدوان أيضاً غير معقولتين ما دامتا توجهان إلى شعب بكامله. وقد أجريت عدة محاكمات بشأن هذه الاتهامات، غير أن ذلك زاد كثيراً من الأعمال الانتقامية، والاضطرابات الشعبية التي غالبا ما كانت تنتهي بقتل عدد كبير من اليهود.

ومن بين التهم المبكرة بقتل أطفال مسيحيين (وغالباً ما يشار إلى أن ذلك كان يجري عشية *الجمعة الحزينة*، وعلى نحو يشبه صلب المسيح) تهمة تتعلق بقتل القديس **وليم النورويتشي** في إنكلترا عام 1144 م. وقد تردد ذكر تهمة مماثلة عام 1171 في **بلوا**. حتى إن **هوغو اللينكولني** في إنكلترا، الذي أشيع أن اليهود صلبوه في عام 1255، أصبح بطلاً تتغنى به القصائد الشعبية. وثمة أمثلة أخرى، نذكر منها: تهمة بقتل طفل في بيرن عام 1249، وفي ديسينه وفن على الراين في العام ذاته، وكذلك في مدن سويسرية أخرى منها شافهاوزن، وفينتيرتور. وفي إسبانيا عام 1450 أبدى **ايمانويل**، ابن الطبيب **سَلَمون**، رغبته باعتناق المسيحية، ووصف للأسقف بالتفصيل كيف شهد عملية قتل من هذا النوع. ويورد **ليورنتي** في "تاريخ محاكم التفتيش" أربع حوادث أقرت محاكم التفتيش بأنها وقائع قتل طقسي، فقد نظرت محكمة مدينة تريبستا عام 1474 بقضية قتل من هذا النوع لأحد الأطفال. وعرفت ألمانيا في القرن الخامس عشر مثل هذه التهم مراراً.

إن اتهام اليهود بتدنيس "الهبات المقدسة" بدأ بالظهور منذ القرن الثالث عشر . وبسبب هذه الاتهامات تعرض اليهود لملاحقات، على سبيل المثال ، في بساو عام 1478، وفي براندنبورغ في القرن الخامس عشر، وفي كارينتيا عام 1421... إلخ.

وترى الغالبيةُ الساحقة من المؤرخين المعاصرين أن هذه الاتهامات مختلَقة جملة وتفصيلاً . ومما يؤيد هذا الرأي، على أية حال، أن الاعترافات التي كانت تسجَّل في أثناء المحاكمات كانت تُنتزَع عادة تحت تعذيب فظيع لم يكن قادراً على تحمله إلا قلة قليلة من الناس. ولكن المؤرخ المعاصر **إيوزيبو كولومتس**، على سبيل المثال، يشير إلى "بعض الممارسات التجديفية الظلامية" التي كانت تعتَمد بوصفها واحداً من الأسباب التي وصلت بالعلاقات بين اليهود والمسيحيين في إسبانيا إلى حافة الحرب الأهلية . ويرد في كتاب **سَباتيني** *"توركومادا ومحاكم التفتيش"* عرضٌ موجز لأعمال المؤرخ الإسباني **فيديل فيت** المنشورة عام 1877 بناء على وثائق محاكم التفتيش حول القتل الطقسي عام 1491 في إسبانيا . ويرى المؤلف أن الأدلة التي كانت في أيدي محاكم التفتيش لم يتم الحصول عليها بوساطة اللجوء إلى التعذيب ، وإنما عن طريق "الاستدراج والخديعة " وتقاطع الشهادات، وأن إفادات المتهمين الذين استجوبوا في مدن مختلفة تتطابق في التفاصيل . على أن من الصعب توضيح السبب الذي ينبغي بموجبه تسجيل كل هذه القصص على ذمة التزمت الديني لدى الكاثوليك. لقد كان التزمت صفة ملازمة لكلا الجانبين، وكان يمكن أن يؤدي إلى وقوع أكثر أنواع التجاوزات تطرفاً. فلماذا ينبغي علينا أن نفترض أن التزمت الديني لا يمكن أن ينتشر إلا بين المسيحيين؟ ذلك أن هذا التزمت يمكن أن يكون عند الآخرين أيضاً. فالشائعات التي انتشرت حول قيام **الخليستيين**[8] بعمليات قتل طقسي مماثلة وجدت مكاناً لها في الأعمال الأدبية (عند **ميريجكوفسكي**، مثلاً)، ولم تستدعِ اتهام المؤلف بالتزمت.

على أنه من غير المهم ألبتة، فيما يخص أهدافنا في هذا الكتاب، أكانت هذه الاتهامات مبررة ولو في بعض الحالات، أم لم تكن. إنما المهم في نظرنا هو أن تساعدنا على تخيل صورة الجماعة اليهودية كما يراها السكان المحيطون بها . وهنا، كما في العصر القديم، يمكن الخروج من جميع هذه الاتهامات المتنوعة باستنتاج واحد مفاده أن الموقف من الجماعة اليهودية كان يتمثّل في الإحساس بها وكأنها جسم غريب، معاد ، وخطير ، داخل مجتمع القرون الوسطى . ويتوفّر هذا الرأي على جميع المقوّمات. إذ بوسع المرء أن يتصور أن وعي الجماعة اليهودية في القرون الوسطى للحياة من حولها كان يتصف بقدْر كبير من تلك الصفات ذاتها، أي لكان محيطها يبدو لها عالماً غريباً معادياً . فقد كان اليهود يعيشون في أحياء منعزلة تسمى "الغيتو ". وشاع تصورٌ بأنهم حشروا في تلك "الغيتوات" بالقوة. وقد سبق أن أوردنا أعلاه رأياً نقيضاً قدمه **ماكس فيبر** الذي تحظى نظرته تلك بتأييد معظم المؤرخين، ومنهم الأوروبيون ضمناً. ففي إسبانيا، مثلاً، قدم الملك **فرديناند** في القرن الثالث عشر لليهود في إشبيليا ثلاث أبرشيات للعيش في أراضيها . وكان هذا آنذاك امتيازاً بذلوا قصارى جهدهم للحصول عليه. وكقاعدة عامة، كان اليهود يتركزون في الغيتو لكي لا تُخلَّ الصلات مع العالم الذي حولهم بحياتهم

[8] طائفة دينية في روسيا (القرن السابع عشر)، تؤمن بأن الله يمكن أن يتقمص إنساناً ويحِل فيه خلال عمليات اللطم والتهيج التي يقوم بها المؤمنون من هذه الطائفة. – م.

المتصفة بطابعها الخاص، ولكي لا تعيق تطبيق نظام التحريمات والطقوس المعقَّد. يقول أحد زعماء القومية اليهودية، رئيس المنظمة الصهيونية العالمية، **ناحوم غولدمان:**

"تاريخياً، كان الغيتو اختراعاً يهودياً... وما يزال عند اليهود حتى الآن نزوع للسكن في أحياء خاصة بهم، في محيط يسهِّل عليهم العيش ضمن طائفتهم".

لقد تشكلت الأحياء اليهودية، مثلاً ، لسبب هو أن اليهود كانوا يعيشون مجتمعين حول الكنيس . ولكننا نصادف، في وقت لاحق، أوامر من السلطات تملي على اليهود أن يسكنوا في تلك الأحياء حصراً.

إن حياة اليهود برمّتها خاضعة لنظام معقد من التحريمات والقواعد الدينية . فثمة عدد هائل من الأشياء والأعمال التي كانت تُعَدُّ نجاسة وذنوباً. وينطوي العالم الخارجي في نظر اليهودي على مخاطر منتشرة في كل مكان تهدد بانتقال عدوى النجاسة إليه، بينما تساعد الحياة في الغيتو على تفاديها. لقد كانت المحرمات عديدة ومعقدة جداً ، ما يجعل اليهودي مضطراً للجوء إلى الضالعين بمعرفة التلمود من أجل اختيار الطريق الصحيح الآمن في سلوكه وهو اكم واحداً من المحرمات. فقد وصلنا من القرون الوسطى أدب "**الريسبونز**" اليهودي الذي يتألف من أجوبة مشاهير الحاخاما ت عن استفسارات المؤمنين . وتعير هذه الأدبيات أهمية كبيرة لأسئلة من النوع التالي: إذا أحضرَ عمال مسيحيون لسيد يهودي برميلَ خمر، وفي أثناء تحميل البرميل على العربة انتثر شيء من محتواه على يد الحوذي المسيحي، وسالت بضع قطرات عائدةً إلى البرميل، هل يصبح هذا الخمر "حراماً"؟ وكان رأي الحاخام يقول بتحريم ذلك الخمر. وحينئذ لا يتوقف الأمر عند حرمان اليهودي من الحق في شربه، بل ويكون حراماً عليه في بعض الحالات أن ينال منه كسباً، أي أن يتاجر به. ونجد في هذه الأدبيات تأكيداً بأنه حرام على اليهودي أن يدخل في شراكة عمل مع غير اليهودي. وفيما بعد، في القرن العشرين، عند ما راح المؤلفون اليهود يعبرون بصراحة أكبر عن مواقفهم إزاء هذا العالم من الوثنيين، ظهرت جملة من الشهادات التي تتحدث عمّا يثيره هذا العالم من تنفير، بل ومن كراهية (سوف نورد بعضاً منها لاحقاً). إنه لمن الصعب أن يتصور المرء أن تحضَّ الحياةُ في القرون الوسطى على قدر أكبر من التسامح . ولسوف نبحث في الفصل التالي الجانب الأيديولوجي من حياة الجماعة اليهودية الأوروبية في القرون الوسطى بمزيد من التفصيل.

وكما حدث مراراً في تاريخ اليهود ، فإننا أمام سيرورة معقدة يتعذر أن نتبين فيها "البادئين"، أو تقسيمهم إلى "مُحقِّين" و"مذنبين"، أو وصفها كما يقال اليوم، باللجوء إلى ترسيمة "المذنب والضحية". إلا أن في وسعنا أن نتصور هذه السيرورة على نحو أكثر تحديداً.

مراجع الفصل الثالث:

1- Marcus J.R. The Jew in the medieval world. 1975

2- Roth C. The Jews in the middle ages. (Cambridge Medieval History, v.V11).

3- Depping G.B. Die Juden im Mittelalter. Hildesheim. 1974.

4- Abrahams Israel. Jewish life in Middle Age. N.J., 1897.

5- Wilpert Paul (Hrsg). Judentum im Mittelalter. Berlin, 1966

6- Irving A. Agus. Utban Zivilsation in pre-crusade Europe. vv I,II. N.J. 1965.

7- Sabatini Raphael. Torquemada and the Spanish Inquistition. London. 1928.

8- Goldman N. Le paradox juif. paris 1976.

9- Dozy R. Histoire de musulmans d'Europe, Lyde. 1891 t.I-III.

10 - Caro Goerg. Sozial- und Wirtschaftgschichte der Juden im Mittelatter und der Neuen Zeit. Bad I. Frankfurt/M. 1924.

11- Wirth Louis. The Gehtto. Chicago. 1946.

12- Amador de los Rios. Historia social, politica, religiosa de les judaios de Espana y Portugal. Madrid. 1960.

13- Cohn Norman. The pursuit of the Millenium. N.J. 1970.

14- غوميليوف ل. ن. روسيا والسهب العظيم. موسكو. 1989

15- شيبر إ. ظهور الرأسمالية عند يهود أوروبا الغربية. سان بطرسبورغ 1910

16- Trevor- Roper H. The Rise of Christian Europe. London. 1965.

17- Shahak I. مرجع سابق

18- لورينتي. أ. التاريخ الانتقادي لمحاكم التفتيش الاسبانية، المجلد I,II/ موسكو 1936

19- دوبنوف س. م. موجز تاريخ اليهود، موسكو 1969، (عن طبعة 1912)

20- Goldman N. مرجع سابق

21- "الموسوعة اليهودية" المجلدات 11،8،3،2،1، 15

22- "الموسوعة اليهودية الموجزة" القدس. 1976 المجلد 2،1

الفصل الرابـع

اليهوديـة الكلاسيكية

تكونت عند يهود القرون الوسطى منظومةُ من الآراء التي تضبط علاقاتهم مع العالم غير اليهودي، وكذلك سلوكهم في حياتهم الخاصة وداخل الطائفة اليهودية ذاتها . وقد يساعدنا فهم هذه المنظومة على تكوين تصورٍ أكثر عيانية للعلاقات المتبادلة بين الجانبين، اليه ودي وغير اليهودي، في مجتمع القرون الوسطى . ولا بد من الإشارة إلى تعذر الفصل بين المبادئ ذات الطابع الديني وقواعد السلوك المحددة التي تتضمنها المنظومة إياها . على أن القسم الأكبـر منها وارد في التلمود وشروحاته . إذ يقول **شاحاك** إنه إذا كان ثمة متسع كاف أمام الاجتهاد فيما يتعلق بمسائل العقيدة ، فإن الفروض المتعلقة بالتصرفات المحددة مثبتةٌ في التلمود على نحو صارم . هذا مع العلم أن وجهة النظر الكلاسيكية (والأصولية المعاصرة) تتلخص بإعطاء الأولوية للنص التلمودي في حال الاختلاف مع التوراة . ووفقاً للموروث اليهودي فإن **موسى** بلَّغ التوراة (الشريعة التي دُ وِّنت بأمر من الرب) للعبرانيين على جبل سيناء، وزودهم، فضلاً عن ذلك، ببعضِ الشروحات والإضافات التي ينبغي عليهم تناقلها شفوياً . وقد قام الحاخامات، بعد تدمير الهيكل وزوال مركز اليهود الديني ، بتدوين هذا الإرث الشفوي (من القرن الثا ني وحتى القرن السادس بعد الميلاد)، فتم صوغ التلمود من هذه المدونات . ونظراً لكبر حجمه وعدم منهجيته، فقد جرت عدة محاولات لوضع مجموعات من النصوص أكثر منه تماسكاً واتساقاً. ومن هذه المحاولات: قانون **ابن ميمون** في القرن الثاني عشر، وقانون **يعقوب آشير** في القرن الثالث عشر، وقانون **يوسف كارو** المعروف باسم "**شولحان عاروخ** " في القرن السادس عشر . فالتلمود، كما يبدو، يرسم عقائد اليهودية الأصولية أكثر مما ترسمها التوراة، وذلك على الأقل لأنه يقضي بفهم التوراة حسب تفسيرها التلمودي . وفي العصرالحديث يلعب "**شولحان عاروخ**" الدورَ الذي لعبه التلمود في حينه . يقول **غريتس** في هذا الصدد إن " **كارو** (مؤلف " **شولحان عاروخ**") أعطى الدين اليهودي الصيغة التي حافظ عليها بثبات حتى أيامنا هذه".

وترد عند العديد من المؤلفين مقتطفاتٌ من التلمود، ومن "**شولحان عاروخ** "، تتسم بروح عدائية متزمتة إزاء غير اليهود (**الأغيار– " غوييم" أو " عكوم**"). وإليكم بعضَ الأمثلة: "يقال أنتم نعاجي، نعاج رعيتي، أنتم بشر ويسمّونكم بشراً؛ أما العكوم فليسوا كذلك ". "إن مال العكوم ، مثله مثل رزق سائب، لا يخصّ أحداً، ويمتلكه من يأتي أوّلاً". ثمّ : "إن معايشة العكوم كمعايشة البهائم ". و"جميع الشعوب، ما عدا اليهود، جاؤوا من روح خبيثة ويجب أن يسمّ وا بهائم". و"الشمس تضيء الأرض، والمطر يخصبها من أجل اليهود دون سواهم ". و"يجوز لليهودي أن يعصى الشريعة في ما يخص الغريب، كما هو مكتوب : عليك ألا تعصى الشريعة إزاء قريبك، أما الغريب فلا ينطبق عليه هذا ". و"يحرم على اليهود إنقا ذ العكوم من أي خطر يتهدد حياتهم ، لأن إنقاذ العكوم يعني زيادة عدد من هم على شاكلتهم ". و"من أين جاءت كراهية اليهود للشعوب الأخرى جميعاً ؟.. لقد جاءت من جبل سيناء " (هنا تلاعب بالكلام، فأحد معاني كلمة سيناء هو الكراهية، وقد أُنزلت الكراهية وال شريعة معاً على جبل سيناء).

ينفي بعض المؤلفين من ذوي المزاج المنافح عن اليهودية صدقيةَ هذه الاقتباسات . والحق، إن التثبت من صحة هذه المسألة بصفةٍ شخصية أمرٌ مستحيلٌ على الغالبية منا، لأنه يتطلب التمكنَ من الوصول إلى نسخة من التلمود أو من "شولحان عاروخ"، وإتقانَ اللغة التي كتبا بها . وعند الضرورة القصوى يجب أن تكون بين أيدينا ترجمة لهما موثوق بأمانتها . ويؤكد **شاحاك** شائعاتٍ تكررت مراراً، مفادُها أن في التلمود أيضاً جملةً من الأقوال التي تنطوي على إهانة بالغة للمسيح، والمسيحيين، وأتباع الديانات الأخرى؛ وأنه يتضمن، على وجه الخصوص، توصية بإتلاف نسخ الأنجيل كافة إن أمكن . ورداً على ذلك، صدرت في القرون الوسطى دعوات عديدة لإتلاف جميع نسخ التلمود . وعندئذ جرى حذف هذه العبارات من الأدبيات التلمودية، كما يقول **شاحاك**. وابتداء من إصدارات القرن السادس عشر راحت تختفي كلمات مثل "وثني"، و"غير يهودي"، و"غريب"، لتحل محلها كلمات من نوع "سامري"، و"مصري" أو حتى "هندوسي". ولكنْ في الحين ذاته أخذت تنتشر قوائم بمثل هذه "المحذوفات". وقد أعيدت الآن، كما يقول **شاحاك**، العبارات المحذوفة إلى نصوص الأدبيات التي تصدر في إسرائيل باللغة العبرية القديمة. ويورد **شاحاك** أيضا عدداً من الأمثلة التي تلطِّف الترجمةُ الإنكليزية بوساطتها هذا النص، أو تحرِّفه تحريفاً كاملاً.

ومن جهة أخرى، يؤكد عددٌ من الكتاب المتعاطفين مع اليهود أن كل هذه الاستشهادات المقتبسة من الأدبيات التلمودية ما هو إلا تزييف من صنع أعداء ال سامية. وكان **ف. سولوفيوف** أشهر من عبَّر بروح انتقادية عن آرائه في هذا الخصوص، فأفرد لهذه المسألة مقالة بعنوان : ***"التلمود وأحدث السجالات حوله في النمسا وألمانيا"***. ومن الطبيعي أن نبادر أوّلا لتفحص حجج **سولوفيوف** الذي يتناول بإسهاب، في مقالته هذه، كتابَ **يوستوس** *"مرآة اليهودية"*. إذ يتضمن هذا الكتاب قرابة مائة اقتباس من *التلمود* **و** *" شولحان عاروخ "* تتَوِم، حسب رأيه، موقف واضعي هذين المرجعين العدائي إزاء غير اليهود . وعندما صدر هذا الكتاب في ألمانيا، رفعت الطائفة اليهودية هناك دعوى ضد المؤلف بتهمة الافتراء. واستدعت المحكمة الدكتور **إيكّر**، الاختصاصي بالدراسات العبرية، للإدلاء برأيه، كخبير في هذا المجال . فكان لشهادته دورٌ كبيرٌ في تبرئة المؤلف . وفيما بعد نشر **إيكّر** كتاباً بعنوان *"مرآة اليهودية في ضوء الحقيقة"*. وعلى هذا الكتاب يستند **سولوفيوف**. وتتلخص المسألة في أن **إيكّر** يأخذ على **يوستوس** عدم الدقة في الاقتباس، فهو، على سبيل المثال، يجمع بين اقتباسين مختلفين في اقتباس واحد. غير أن **إيكّر** يتوصل إلى استنتاجٍ مؤداه أن **يوستوس**، في جوهر الأمر، ينقل نقلاً صحيحاً روح القواعد الواردة في التلمود . أما **سولوفيوف** فإنه حين يورد ملاحظات **إيكّر** الانتقادية، ويضيف "إن كل ما يقوله الناقد بعد ذلك لا يمنع القارئ المنصف من تكوين رأي صحيح حول كافة البنود "، لا يطلع قارئه على ما يرد عند **إيكّر** بعد ذلك. ويؤكد **سولوفيوف** أن كتاب **يوستوس**، حتى ولو حُذِف منه "كل ما هو مدسوس وخاطئ وغير مطابق"، فسوف يظل "باقياً فيه سبعٌ، أو ثمان من القواعد التي بمستطاع أعداء السامية استخدامها على نحوٍ ما لأغراضهم الخاصة".

وفضلاً عن ذلك يورد **سولوفيوف** عدداً كبيراً من الاقتباسات التلمودية المفعمة بالمشاعر الإنسانية السامية. ولكن نقاد التلمود يؤكدون، هنا تحديداً، على أن القواعد الإنسانية في التلمود تخص اليهود في الأساس، وغالباً ما تترافق بشروحات توضح أن "القريب"، أو حتى "الإنسان" الذي يدور الحديث عنه، هو اليهودي وحسب . أما

الباقون "فمستثنون"، لا تشملهم هذه الأقوال، لأنهم "ليسوا بشراً"... إلخ. وهذا "المعيارالمزدوج" موجود في صيغته هذه منذ كتاب "**العهد القديم**". (وقد أوردنا بضعة أمثلة في الفصل الثاني).

يورِق نقاد التلمود اقتباسات من هذا النوع، حيث أن عدداً من المواضع في التوراة لا بد أن نفْهَم على النحو المذكور تحديداً . ومن الأمثلة هنا، أن ما جاء في سفر اللاويين (19، 13) "***لا تغضب قريبك ولا تسلب . ولا تبت أجرة أجير عندك إلى الغد*** "، لا ينطبق على الغوييم (الأغيار) لأن "الغوييم ليس قريباً ". ويؤكد هؤلاء النقاد أن هذا هو بالضبط معنى القول في أغلب النصوص التلمودية : "افعل الخير ". وهكذا، فإن أدبيات *"الريسبونز"* في بدايات القرون الوسطى تتطرق إلى عادة تقديم الهدايا للفقراء الذين يطوفون في عيد **البوريم** (النصيب) على بيوت الأغنياء لهذه الغاية. وهنا كان الخدم من غير اليهود يتلقون الهدايا أحياناً. ولكن الحاخام **كالونيم** حرّم ذلك وقال إن توزيع الهدايا جُزافاً أسوأ من عدم تقديمها عموماً.

ويختتم **سولوفيوف** مقالته بفكرة أودعها فاه يهودي متخيَّل تقول : "ثمة احد أمرين، إما أن ديانتكم ديانة يستحيل تطبيقها فعلاً، وما هي إلا خيال جامح فارغ؛ وإمّا أنها ممكنة التطبيق، ولكنكم لا تعملون على تطبيقها ، وذلك لنية سيئة تضمرونها . وفي هذه الحال توبوا وأصلحوا أنفسكم، قبل أن تدعوا الآخرين إليكم ". (هذه الفكرة قديمة عند **سولوفيوف** ، إذ سبق وعبر عنها في مقالته *"اليهودية والمسألة المسيحية "*). غير أنه يصعب على المرء أن يصدق بأن في مقدور ترسيمة مقتضبة كهذه أن تَسَعَ الحياةَ كلها . إن المسيحية، بهذه الطريقة، تقترب من تعاليم **ليف تولستوي** بصدد "عدم مواجهة الشر بالقوة ". ولكن **سولوفيوف** نفسه لا يستخدم الترسيمة ذاتها ("أحد أمرين ...") في مؤلَّفه *"ثلاثة أحاديث"* الذي يجادل فيه **تولستوي** ويتطرق إلى الحرب ضد الأتراك؛ بل يصف بتعاطف جلي كيف استخدم الجنود الروس كريات من الرصاص لتشتيت شمل الباش بوزوق الأتراك عندما قام هؤلاء بتدمير إحدى القرى الأرمنية.

ولعل أكثر ما يثير الدهشة هو أن **سولوفيوف** يتملص من مواجهة الموضوع الرئيس، أي من مناقشة صحة هذه الاقتباسات التلمودية أو تلك، وهو المعروف عنه إتقانُه اللغةَالعبرية القديمة (حتى أنه صلى بهذه اللغة وهو يُحتضَر)، وكان بمقدوره أن يدلي برأيه في هذا الموضوع ... ولكنه لا يفعل ، بل يقتصر على مناقشة كتابَي **يوستوس وإيكّر**، ويصرف النظر عن *التلمود*.

يستطيع حتى من لا يتقن اللغة العبرية القديمة، كما يبدو لي ، أن يكوّن رأياً سديداً فيما يتعلق بصحة الكثير من الاقتباسات التلمودية. وأشير، كمثال، إلى مصدر للاقتبلسات من *التلمود* هو كتاب قديم من تأليف **آيزنمنغر** صدر في العام 1700 م. (يقول المؤلف إن إصدار الكتاب ظل ممنوعاً في الإمبراطورية النمساوية طوال أربعين عاماً جرّاء ضغط رجال المال اليهود النافذين . وفي نهاية المطاف تسنّى إصدار الكتاب في بروسيا). ويتضمن هذا الكتاب الآراء الواردة أعلاه بكامل طيفها . إن هذا الكتاب ليس ترجمة للتلمود، بل هو مجموعة مقتطفات تحت عناوين من قبيل: "المسيحية في التلمود"، و"الشعوب الأخرى في التلمود "... إلخ. إلا أن كلَّ رأي من هذه الآراء مسندٌ بإحالة دقيقة، ويرد بالعبرية القديمة على صفحة، وبالترجمة الألمانية على الصفحة المقابلة . أما الأدبيات الموالية لليهودية فتنظر إلى ترجمة **آيزنمنغر** نظرة استخفاف، وتصفها بأنها ترجمة "غير علمية"،

دون أن تتصدّى للمؤلف بأية انتقادات محددة توجهها لكتابه، كأن تؤكد، مثلاً، أن اقتباساً من الاقتباسات ا لتي يتضمنها غير وارد في *التلمود*، أو أن ترجمةً عبارة ما ليست بالترجمة الدقيقة.

ولكنّ ثمة إثباتاً رصيناً لاقتباسات **آيزنمنغر** ، هو كتاب *"من الخرافة إلى الهلاك . معاداة السامية 1700 – 1933"* الذي ألّفه البروفسور الفخري في الجامعة العبرية بالقدس ي. **كاتس**. على أنه يستهل كتابه هذا بمناقشة كتاب **آيزنمنغر** . إذ يعترف هذا المؤلف بدقة الاقتباسات التلمودية الواردة في الكتاب، وإن كان يصف اختيارها بالمتحيز . والأمر الأخير صحيح بالضرورة، فلقد كان **آيزنمنغر** مبشّراً يسعى لإدخال اليهود في الديانة المسيحية، ولذلك فإنه تعمّد أن يختار من الاقتباسات أكثرها تعصباً وتزمتاً، متوخياً أن تنفّر القارئ من اليهودية.

وكتأكيد آخر على صحة اقتباسات **آيزنمنغر** يمكننا الإشارة إلى أن مواضيعها الأساسية تتكرر في كتاب **شاحاك** المسطر من مواقع يهودية وطنية (فالمؤلف تلقى تعليماً دينياً ، ويستشهد بعدد كبير من المراجع). ذلك أنه بعد انهيار المجتمع اليهودي القديم وحتى العام 800 ميلادية، لا توجد، كما يرى **شاحاك** ، مراجع تتناول بالوصف حياة الجماعة اليهودية في أوروبا. وهذه المراجع نادرة جداً حتى في القرن العاشر الميلادي، ناهيك عن أنها لا تقدم صورة، عامة نوعاً ما، إلا بدءاً من القرن الثاني عشر. وقد تشكل آنذاك مرجع الشريعة المسمى بـ *"الهالاخاه"* ، الذي كانت تسترشد به الغالبية الساحقة من التجمعات اليهودية حتى القرن التاسع عشر . ويصف **شاحاك** منظومة القوانين هذه بأنها "اليهودية الكلاسيكية "، ويشير إلى ثلاث سمات أساسية للجاليات اليهودية الأوروبية في الحقبة التي تشكلت فيها هذه الرؤية إلى العالم، وهي:

1) لم يعد ثمة وجود البتة للسكان اليهود الذين يمارسون العمل في الأراضي الزراعية . وبالتالي، فإن أدبيات اليهودية الكلاسيكية مفعمة، كما يقول، بقدْ ر من الكراهية والاحتقار إزاء العمل في الأرض والفلاحين يفوق ما تكنُّه للوثنيين

2) كانت الجاليات اليهودية تعمل لخدمة السلطة، وتنتمي لشريحة السكان ذات الامتيازات ، رغم أن ذلك لا ينفي وجود فقر منتشر وسط اليهود، وحالات اضطهاد ضدهم . ولكن، وبغضّ النظرعن ذلك، فإن "أفقر حِرَفيّ، أو بائع متجوّل، أو مستأجر أرض، أو صاحب دكان يهود ي، كان يعيش حياة أفضل من حياة الفلاح القن بما لا يقارن، وخاصة في البلدان الأوروبية التي كان نظام الرق لا يزال قائماً فيها، جزئياً أو كلياً، حتى القرن التاسع عشر، أي في بروسيا، والنمسا (ضمناً المجر)، وبولونيا، والمناطق البولونية الملحقة بالدولة الروسية".

3) المواجهة الشاملة مع السكان المحيطين بهم (باستثناء الملوك). ويقترح **شاحاك** أيضاً أن نعاين اضطهاد اليهود معاينتنا الحركاتِ الأخرى التي استثارها الاستغلال في أوساط المجتمع الدنيا.

ويمكننا العثور في كتاب **شاحاك** أيضاً على كل القواعد التلمودية آنفة الذكر. وفضلاً عن ذلك، ثمة اقتباسات مأخوذة عن واضع مجموعة القوانين التلمودية الأولى **ابن ميمون** تقضي، على سبيل المثال، بأن لا يعالج طبيب (يهودي) شخصاً وثنياً حتى ولو دفع له أجراً لقاء ذلك. ولكنْ ثمة استثناء واحد هو أنه إذا ما كان رفض المعالجة قد يستثير عداوة الوثنيين، فلا مانع عندئذ من معالجتهم مقابل أجر حصراً (كان **ابن ميمون** نفسه طبيب **السلطان صلاح الدين**). ومن الأمثلة الأخرى التأكيد على أن اليهودي إذا ما أقام علاقة جنسية مع امرأة، حتى ولو كانت طفلة عمرها ثلاث سنوات، فيتوجب عليه قتلها كالحيوان، لأنها كانت سبباً في إقدام اليه ودي

على ارتكاب عمل شائن، أما هو (اليهودي) فيُكتفى بجَلده بالسوط. وكذلك التأكيد بأن جميع من ليسوا يهوداً هم أدوات في يد إبليس، ناهيك عن العبارات المتعلقة باليهود التي تشترط "استثناء الوثنيين والكلاب". ويستوقفنا على وجه الخصوص وصفُ عادة اغتسال الطهارة الشهري الذي يفترض بالمرأة اليهودية القويمة أن تلتزم به، ثم تأتي إلى المنزل وتمارس طقس الجماع مع زوجها . ولكن إذا ما صادفها في الطريق واحد من الكائنات الشيطانية (كلب، خنزير، حمار أو وثني) كان عليها أن تعود أدراجها. ويؤكد **ابن ميمون** أن قسماً من الأتراك، والشماليين الرحَّل، والسود، وكذلك "من يشبهونهم"، ليسوا بكائنات إنسانية، بل هم أقرب إلى البهائم . وهناك أيضاً توصية تقول بأن على اليهودي إذا مرّ أمام مقبرة لغير اليهود أن يلعن أمهات الأموات المدفونين فيها . ويولي **شاحاك** اهتماماً خاصاً لعداء المراجع اليهودية الدائم للمسيحية، فعادة ما يرد اسم المسيح في هذه المراجع متبوعاً بعبارة *"فليَزُلْ اسم النجس"*. ويلخِّص **شاحاك** الموضوع فيقول: "يتعلم اليهودي المؤمن من دروسه الدينية في صباه، أن الوثنيين كالبهائم، وأن من الإثم فعِلَ الخير لهم... إلخ". وهذا كله يتطابق تطابقاً مدهشاً مع شهادات أخرى، منها على سبيل المثال شهادة اليهودي أ. **ألكسييف (شاخنوفيتش)** الذي تنصَّر وأصبح قسيساً. إنه يتحدث عن فترة شبابه فيقول: "قبل أن يخرج الفتى اليهودي من المعهد ويتعرف على المسيحي، يكون قد أصبح عدوّاً له غير قابل للإصلاح". "ويكفي أن يقترب المسيحي من بيت اليهودي حتى يصيح أولاده: آغوي، آغوي (غريب! غريب!)، أي مسيحي. وتضيف زوجته: "آغوي آخيزير"، أي خنزير مسيحي يسأل عنك". "لم نكن نستطيع المرور من أمام كنيسة مسيحية دون الشعور بالتقزز ، وكنا نرى أن من الواجب علينا حتماً أن نبصق عليها ونردد: "ليكن هذا المكان مستباحاً، لأنه نجس".

ويصف **شاحاك** المجتمع اليهودي في القرون الوسطى بأنه "واحد من أكثر المجتمعات انغلاقاً وشمولية (توتاليتارية) في تاريخ البشرية"، وأنه أقيم على خضوع الطائفة (القهال) خضوعاً مطلقاً لقمة الهرم فيها.

وهكذا يبدو مقنِعاً أن أحكاماً كتلك الواردة أعلاه، تعكس روح *التلمود*، وبالتالي الرؤيةَ اليهودية الأصولية للعالم كما كانت عليه في القرون الوسطى . وما كان لروحِ الرعبِ والبغضاءِ والازدراءِ المتغطرس تجاه الشعوب المحيطة إلا أن تتجسد في سلوك يهود القرون الوسطى، وفي كل ثوابت حياتهم.

يحدد **شاحاك** حقبة سيادة اليهودية الكلاسيكية في الجاليات اليهودية فيرى أنها تمتد من القرن التاسع إلى الثورة الفرنسية (وحتى القرن التاسع عشر بالنسبة لأوروبا الشرقية).

واعتماداً على ملاحظات **شاحاك** القائلة بأن يهود أوروبا الشرقية ظلّوا حتى القرن التاسع عشر يعيشون وَفقاً للنمط الذي كان سائداً في القرون الوسطى، بوسعنا أن نتصور على نحو أكثر تحديداً منظومة القيم والتنظيم الاجتماعي عند الجماعة اليهودية في القرون الوسطى . وقد وصلتنا شهادات تفصيلية فيما يتعلق بنمط حياة اليهود في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر في "نطاق الإقامة" الروسي. وأقصد، بالدرجة الأولى، كتاب **ياكوف برافمان** الذي يتفق، في الكثير من الأمور، مع وجهة نظر **شاحاك**، بل ويتممها، ويعيّنها بالملموس. إذ يضمّ هذا الكتاب بين دفّتيه مادة ضخمة من الوقائع. والمؤلف (خلافاً **لشاحاك**) مسيحيٌ (تنصَّر في سن الرابعة والثلاثين على حد قوله). ولكن المرء يشعر في هذا الكتاب بموقفه المتعاطف بحرارة مع التقاليد اليهودية ومصيرِ اليهود، عند وصفه الأعيادَ والعادات اليهودية القومية، مثلاً: قراءة الأسفار الخمسة (*التوراة*)، والاحتفال بعيد رأس السنة

(روش هشانا)، والأعراس ...إلخ . ويرى المؤلف، شأنُ هـ شأنُ **شاحاك** ، أن الأساس الذي يميز بين اليهود والمسيحيين يكمن في الطابع الخاص للتنظيم القهالي، أي "المجتمع الشمولي"، حسب تعبير **شاحاك**، أو "سلطة اليهود على اليهود"، حسب تعبير **برافمان**.

نورد أدناه بعض المعلومات من كتاب **برافمان** عن "واقع اليهود المعيشي الداخلي المغلَق". ونود الإشارة سلفاً إلى موقف **شاحاك** الذي يرى أن نمط حياة اليهود في القرون الوسطى لم يتحدد بناء على تعاليم *التلمود*، بل إنه تكوَّنَ بعد تدوين *التلمود*، وليس قبل القرن الثامن على أية حال. ويعبر **برافمان** عن وجهة نظر مماثلة، فيقول إن بالإمكان العثورَ على تعاليمَ متضاربة في *التلمود*، في حين أنها تتخذ طابعاً دقيقا لا يقبل التأويل في التنظيم القهالي. وعلى سبيل المثال، يتضمن *التلمود* أحكاماً متباينة فيما يتعلق بمسألة هامة هي مدى التزام اليهود بقانون الدولة التي يعيشون فيها : أ) "القانون القيصري ملزم لليهود ". ب) "هذا القرار يخصّ المسائل التي تمس مصالح الملِك الشخصية حصراً. ولا يمكن لقرارات الم حاكم المحلية أن تكون ملزمة لليهود بأي شكل من الأشكال". وأخيراً، ت) "الحاخامات ملوك".

أما قرارات القهالات فتحدد موقفاً دقيقاً جداً من هذه المسألة. وهاكم بضعةَ نماذجَ من هذه القرارات:

يحظر (على اليهودي) التقاضي في محكمة غير يهودية، أو في مؤسسات قضائية غير يهودية . ولا يفقد هذا الحظر مفعوله حتى بالنسبة لتلك المسائل التي تتشابه فيها القوانين غير اليهودية مع القوانين اليهودية، حتى ولو رغب الطرفان بطرح قضيتهما على محكمة غير يهودية. ومن يخرق هذا الحظر فهو آثم، وتصرفه هذا يُعدُّ انتقاصاً من شريعة موسى وذمّاً لها، وتطاولاً عليها كلها.

(عندما تجري انتخابات على أساس قوانين الدولة لاختيار أشخاص يمثلون الطائفة اليهودية لدى جهة قضائية تابعة للدولة، يكون اختيارهم بالاقتراع السري من قبل لجنة مؤلفة من ثلاثين ممثلاً للقهال.

وبعد إجراء هذا الانتخاب التمهيدي غير الرسمي، إذا جاز التعبير، يتحتم على جميع الناخبين، كواجب ملزم، الاقتراع لصالح المرشحين الاثنين اللذين نالا أغلبية الأصوات في الانتخاب التمهيدي).

إن هذه البنود التي وُضِعت لوقاية المحكمة التلمودية من الضعف الذي صار واضحاً أنه نتيجة خطايانا ، إنما أُقِرَّت على أساس شرعي للحيلولة دون أن يصبح أعداؤنا، لا سمح الله، قضاة لنا (لكي لا يرفع اليهود قضاياهم إلى محكمة غير يهودية. – يبدو أن هذا التعليق لبرافمان)، ولإخضاع العاصي عنوة، وإرغام كل يهودي على أن يكون مطيعاً لمحكمة *التلمود* وشريعته.

وأخيراً يختتم القهال أحد قراراته على النحو التالي:

"تحديد مساهمة كل فرد، وتقرير جمع المال دون موافقة المحافظ".

ترسم قرارات القهال الواردة في كتاب **برافمان** شكلاً غير عادي ألبتة لموقف اليهود من ممتلكات السكان المحيطين بهم . وهذا المبدأ العام يسمى *حزقات إيشوب* . وهو يتلخص في أن ممتلكات المسيحي ين المحيطين توزَّع (تبُاع) من قبل القهال لليهود التابعين له. ويتضمن الكتاب العديد من عقود البيع (أو إعادة البيع). إن حق الملكية المكتسب على هذا النحو يسمى *حزاقا* . وقد يكون إنسان ما هو موضوع هذه الملكية أحياناً ، وعندئذ يسمى هذا الحق *ميروبيه*. ومن الأمثلة على إجازة القهال لحق *الحزاقا* ما يلي:

"... تقرر أن يباع للحاخام **ميخيل بن الحاخام إسحاق** حق امتلاك الباحة والمباني العائدة للمسيحي الألماني النجار **يوهان**، والتي بناها في الشارع الجديد مقابل مباني المهندس المعماري **كرامر**.

وفيما يتعلق بالدعوى القائمة بين ممثلي القهال وأبناء المرحوم آري بخصوص حق امتلاك الدكاكين المبنية من الحجر العائدة للقس، فقد قرر ممثلو القهال...

وبقرار مشترك من ممثلي القهال تم بيع **إسحاق ابن الحاخام زيف فولف** حق امتلاك الدكاكين الحجرية الكائنة في البازار الصغير والعائدة لرهبان أخوية **بونيفاسي**".

يترافق منح حق *الحزاقا* لملكية معينة أحيانا بعبارة : "من مركز الأرض وحتى أعلى السماء ". ويقول **برافمان** في كتابه: "إن السكان غير اليهود مع ممتلكاتهم في منطقة القهال يُعَدُّون هنا أرضاً تشكل ما يسمى ملكية دولة، أو مُلكاً عاماً للقهال الذي يبيعها مَقْسَماً مَقْسَماً للسكان اليهود التابعين له ". ويرى **برافمان** أن مصدرَ هذه النظرة هو المبدأ التلمودي الذي يقول:

"إن ممتلكات غير اليهود مثلها مثل صحراء خالية".

ويستشهد **برافمان** "بواحد من كبار العارفين بالشريعة التلمودية "، هو **الحاخام يوسف كلوني** الذي ينظر إلى هذه الأرض على أنها بحيرة مشاعة لا يمكن أن يلقي شباكه فيها إلا اليهودي الذي اكتسب هذا الحق من القهال.

وفي الواقع، فإن من يحصل على حق *الحزاقا* بامتلاك بيت معين مثلاً، يكون حقه حصرياً بالسعي لحيازة هذا البيت، و"بأية وسيلة كانت ". وإلى حين تحقيق ذلك يكون له الحق الحصري باستئجار البيت من مالكه (الذي يَعّدُهُ المجتمع المحيط مالكاً)، والقيام بأية عمليات استثمارية لها علاقة بهذا البيت . أما عبارة: "من مركز الأرض وحتى أعالي السماء " فتعني أنه إذا بنى صاحب البيت طابقاً آخر فوقه فإن حق *الحزاقا* سيشمل هذا البناء الإضافي، الفوقاني أيضاً . وينطبق ذلك تماماً على حق *ميرويه* الذي يعني الحق الاحتكاري لأية صفقات اقتصادية مع إنسان معين (*ميرويه* تعني حرفياً تنحية المالك "الأصلي" عن ممتلكاته). يقول القانون المتعلق بـ *ميرويه*:

"إذا كان عند الإنسان (اليهودي) شخص غير يهودي يستخدمه، فإنه يحظر على اليهود الآخرين إقامةُ علاقة مع هذا الشخص في بعض الحالات، وإلحاقُ الضرر باليهودي. ولكن كل يهودي حرٌّ بالتعامل مع هذا الشخص في حالات أخرى : أي في أن يقرضه مالاً ، أو يرشوه، أو يبتزه، لأن ممتلكات غير اليهودي ، مثلها مثل الممتلكات المشاعة، يمتلكها من يحوز عليها أوّلاً".

لقد كان القهال يضبط تفاصيل حياة الجالية اليهودية التي يرأسها ضبطاً صارماً . (هذا ما يسميه **شاحاك** بـ "المجتمع الشمولي "). وكان ذلك يشمل الفروض الدينية، كالالتزام بعطلة يوم السبت، على سبيل المثال . بل ويخبرنا **شاحاك** أن إدارة الدولة المعنية، كما في إسبانيا وبولونيا والنمسا، مثلاً ، كانت تضطلع أحيانا بمهمة مراقبة تنفيذ ذلك . يقول الحاخام **موشي زوفر** من بريسبورغ (براتيسلافا الآن، وكانت آنذاك تابعة للنمسا): "إذا علمتُ أن تاجراً يهودياً عندي في بريسبورغ تجرأ على فتح حانوته يوم العيد فإنني أرسل دركياً ليقوده إلى السجن".

وكان القهال ينظم أيضاً حق *الحزاقا والميروبيه*، وكذلك العديد من تفاصيل الحياة اليومية، ومنها، مثلاً ، تقرير من يمكن دعوته إلى مأدبة . وحسب ما يذكر **برافمان**، كان القهال يسمح بتوجيه الدعوة لحضور حفل الختان إلى:

"اثنين من الجيران من كلا الجانبين، وثلاثة من الذين يقطنون في الجهة المقابلة من الشارع".

أو:

"إذا ما أقام أحد حفل زفاف ابنه أو ابنته خارج مدينتنا، يمنع منعاً باتاً من أن يدعو إلى العرس أي شخص كان، ويحظر على كل سكان المدينة في مثل هذه الحالات إرسال هدايا الزفاف إلى العريس والعروس".

وأكثر من ذلك ، فإنه يحظر على خدم الكنيس (شاموشيم)، وتحت طائلة التحريم الشرعي (تَحَمُّل اللعنة) توجيه الدعوة لحضور حفل الختان أو الزفاف ما لم تخضع قائمة المدعوين لتدقيق مسبق من قبل كا تب بالعدل (وكيل) في المدينة، وما لم يذيلها بتوقيعه على أنها مُعَدَّة وفق القواعد المبينة أعلاه.

كما أن هناك العديد من الإرشادات المتعلقة بنوعية الضيافة ومن يجوز تقديمها لهم ، وبدعوة الموسيقيين أيضاً...إلخ.

وكان منوطاً بالقهال أن يسمح لهذا اليهودي أو ذاك بالسكن في مدينة ما ، أو أن يمنعه من ذلك . بل وكان بإمكانه أيضاً فرض عقوبة تقضي بمنع اليهودي من مساكنة زوجته (وذلك بمنع الزوجة من اغتسال الطهارة الشهري، لأن هذا المنع يجعل العلاقات الزوجية غير شرعية).

وكان القهال يحدد الضرائب (مثلاً، الرسم المتعلق ببيع اللحم الحلال (حسب الشريعة). وكانت المداخيل الأخرى تأتي من بيع حق *الحزاقا* أو *الميروبيه*. وعلى هذا النحو انحصرت في يد القهال موارد ضخمة كانت تصرف لرشوة الإدارة ومساعدة اليهود الخاضعين للقهال (سنتطرق لهذا الموضوع لاحقاً).

وكانت المحكمة التلمودية، التي تسمى **بيت دين**، تضمن تنفيذ تعليمات القهال . وقد جاء عنها في مرجع القوانين التلمودية ما يلي:

"كل محكمة تلمودية (بيت دين)، حتى ولو لم تكن م أذونة من قبل سلطة أرض إسرائيل، يحق لها الحكم بالإعدام، وفرض غرامات مالية وغيرها من العقوبات، إذا ما لاحظت أن الشعب قد انساق للفجور".

ويمكن لهذه المحكمة إعلان الحِ رم (اللعنة) على المذنب "وطرده من كل إسرائيل "، أي التوجه إلى القهالات الأخرى ومناشدتها أن تعلن على الملأ يوميا أن "خبزه ليس خبزَ يهوديٍ، وخمره خمر عبدة الأصنام، وخضاره مدنسة، وكتبه كتب سَحَرة".

ويلي ذلك النداءات التالية:

"قطِّعوا خيوط ردائه. انزعوا قبضة بابه. لا تشاركوه طعاماً أو شراباً، ولا تختنوا ابنه، ولا تعلِّموا أولاده الشريعة، ولا تدفنوا أموات أسرته، ولا تقبلوه في أي من جمعياتكم خيريةً كانت أو سواها . والكأس التي يتجرع ماءها عليكم غسلها. وعموماً، يجب أن تعاملوه معاملة أي شخص غير يهودي".

وصيغة الحرم نفسها تتضمن النداءات التالية:

"فلتلعنْه شفتا الرب الأعظم، الجبار، القهار . ولتعاجلْه مصائب الرب. ولتمحقْه أيها الخالق وتقضِ عليه؛ أيها الرب الخالق! حطِّمْه أيها الرب الخالق! اقهرْه.

وعلى نحو أدق يلي ذلك ذكر عدد من التدابير الرامية إلى "وضع النير " في رقبة كل يهودي لا ينصاع للمحكمة التلمودية بيت دين، ولا سيما:

"طرد المارق من المجتمع والأخوية طرداً نهائياً.

وإذا كان للعاقّ عقد خطوبة فإن الجانب الآخر يُعفى من الالتزام به.

وإذا كان العاقّ صاحب مهنة فإنه يمنع أن يُعهَد إليه بعمل تحت طائلة الحرم الشديد".

ويسمح بأن ينشر في الكنيس أن العاقّ أكل (تريف) (أي تناول من الطعام ما هو محرم على اليهودي في التلمود)، أو أنه خالف الصيام... إلخ.، وتأييد ذلك بشهادات زور، وتعريضه للعقوبة جراء ذلك.

ومن نافل القول إن مصيبة ستحل بهذا الشخص في ساعة شؤم.

ولتنفيذ هذه التدابير يجري اختيار من يسمى بـ "المتعقِّب السري"، الذي يتحدث عنه النص على النحو التالي:

"على المتعقب السري أن يؤكد بأغلظ الأيمان أنه لن تأخذه شفقة بأي كان على وجه الأرض، بل سوف يساند المحكمة التلمودية بكل الوسائل والسبل الممكنة وَفقاً لما زُوِّد به من تعليمات ". وفضلا عن ذلك يؤكد المتعقب السري بأغلظ الأيمان أنه لن يبوح أبداً لأي كان على وجه الأرض أنه كان متعقباً سرياً في وقت من الأوقات.

وتفيدنا *"الموسوعة اليهودية الموجزة"* بأن شبكة من هذ المحاكم تغطي إسرائيل الآن.

يقول **شاحاك** إن القهال في بولونيا كان يحق له أن يحكم على المجرم بالإعدام، بل وبعقوبة الإعدام الأشدّ تعذيباً، أي بالجَلْد حتى الموت.

ومع أن **شاحاك** يرى في القيصر **نيقولاي الأول** "معادياً للسامية" أصدر جملة من القوانين "ضد اليهود"، فهو يعترف بأن هذا القيصر ، حفاظاً منه على "النظام" في إمبراطوريته، كان يحول دون أن يُعدم يهود بناء على أوامر الحاخامات، في حين كان يعدُّ ذلك أمراً "مسموحاً به" في بولندا حتى العام 1795. ويدين التاريخ اليهودي "الرسمي" هذا القيصر (**نيقولاي الأول**) في أمرين اثنين، هما أن "الحاخام المقدس " حكم، على سبيل المثال، على هرطوق بالإعدام سلقاً بالماء الغالي، وذلك في قرية أوكرانية أواخر العام 1830. ويروي هذه القصة يهودي عاصر تلك الأحداث فيخبرنا، بذهول ورعب، أن محاولة تق ديم رشوة للموظفين لم تحقق هدفها ، فأُنزِل بمنفذّي الإعدام، وبالحاخام نفسه عقاب صارم.

ويصف **برافمان** المجتمع كله بأنه كان تراتبياً إلى أقصى حد، ويقسمه إلى فئتين اثنتين يسميهما "الأشراف" و"العوام".

على أن القرارات والقوانين كافة مشبعة بأقصى حد من الازدراء تجاه "العوام". كما أن فئة "الأشراف" نفسها منظمة تنظيماً تراتبياً. والثروة أساساً هي التي تحدد الانتماء إلى هذه الفئة ومكانة الشخص فيها . وهذا ما يتحدث عنه، على سبيل المثال، القرار التالي:

"إن من يُنتَخبون أعضاء في المجلس العام هم أشخاص يساهمون في نفقات المدينة . ومن بين هؤلاء الأعضاء يُنتخب الممثلون والعُمُد وسواهم من أعضاء إدارة القهال".

كما أننا نقع على جملة من القرارات الخاصة بمنح وضع امتيازي ما لشخص من الأشخاص يسمى "الثري"، أو حتى مقابل مبلغ معين يدفعه الشخص للقهال . بيد أن هناك سبيلاً آخر لتغيير وضع الشخص في النظام التراتبي، هو التفقه ب*التوراة والتلمود* . ففي الكثير من الحالات يكون لـ "تلمود حاخام"، أي للعارف بالتلمود، وضعٌ امتيازي.

ولمّا كانت إدارة القهال تتشكل على أساس الانتخاب، فإن **برافمان** على حق عندما يتحدث عن "جمهورية تلمودية محلية"، إذ إن حق الانتخاب ضيق جداً ، ويقتصر أحياناً على بضع عشرات من الأشخاص ، وَفقاً لما تبينُه جملة من الوثائق. وهذا ما كان في الواقع "جمهورية الأشراف".

يصعب علينا أن نتبين، بناء على مجموعة وثائق **برافمان** ، العلاقة بين مختلف القهالات. ومع ذلك ، فإن بعض الوثائق يتضمن قرارات حول قضايا تمس محافظة بكاملها . والأرجح أنه كانت ثمة حادثة واحدة يمكننا القول إن قهالات روسيا كافة اتخذت إزاءها موقفاً موحداً . والمقصود هو تقرير عن وضع الفلاحين واليهود في بيلوروسيا أعده **دِرجافين** (شاعر ورجل دولة في روسيا أواخر القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر – م.) في عهد القيصر **بافل الأول** والقيصر **ألكسندر الأول** (وذلك قبل أن تكتشف روسيا بمدة وجيزة أن بين رعاياها عدداً كبيراً من اليهود). فقد كتب **هيسّن**، بصدد المقترحات التي قدمها **دِرجافين**، فأشار إلى أن "اجتماعاً طارئاً لممثلي القهالات عقد في مينسك عام 1802". أما **دِرجافين** نفسه فكتب يقول إنه تلقى معلومات تفيد بأن "القهالات كافةً" قد جمعت مليون روبل للتصدي لمقترحاته، بل وهم "عازمون على قتله"، الأمر الذي يدل مرة أخرى على وجود تنظيم ما. ولكن هذا الجانب من نشاط "الجمهورية التلمودية" غير معروف، على ما يبدو.

وينبغي التذكير في الختام بأن القهال، على الرغم من تحكمه بحياة الجالية اليهودية على نحو صارم وتفصيلي، كان حريصاً على سد احتياجات أعضاء تلك الجالية . وتتحدث الوثائق التي جمعها **برافمان** عن قروض كان يقدمها القهال لبعض الأشخاص، وعن دايات (مَن يُشرِفن على توليد النساء) كان يعيلهن، وعن تقديمه مهوراً للعرائس الفقيرات، وعن "افتداء السجناء اليهود" (لعلّهم اليهود الذين كانت تعتقلهم السلطات ، ثم يتم إخلاء سبيلهم بطرق غير قانونية)، وكذلك عن جمع الصدقات للفقراء اليهود في فلسطين. لقد كان هذا مجتمعاً توتاليتارياً بالفعل (كما يصفه **شاحاك**)، بل ومن "نمط أبوي"، إذا كنا نقصد العلاقات بين أعضاء الطائفة حصراً.

ويمكننا الافتراض، استناداً إلى ملاحظات **شاحاك** ، أن كتاب **برافمان** يرسم بالخطوط العريضة لوحة حياة الجماعة اليهودية القروسطية في حقبة سيادة "اليهودية الكلاسيكية". ويتهم **هيسّن** الكتاب بأنه معاد لليهود . بيد أن انطباعاً كهذا لم ينشأ لدي. ومع أن **برافمان** اعتنق المسيحية ، فإنه يصف العديد من خصائص واقع اليهود المعيشي بشعور مشبوب. ولكنْ، بصرف النظر عن ذلك، يبقى هذا الكتاب مفعماً بالاحتجاج ضد سلطة القهال (أو، بتعبير أدق، ضد الزعامة المؤلفة من "الأشراف")، أي ضد "تحكُّم اليهودي باليهودي".

وقد وردت القصة التالية في ترجمة ألمانية ل*لتلمود البابلي* على يد **غولدشميدت:**

"سأل أحد التلاميذ حاخام القهال:

– هل سمعت ماذا يعني "جبل سيناء"؟

فأجابه:

- *إنه الجبل الذي حدثت عليه المعجزة.*
- *عندئذ كان يجب أن يسمى جبل نيزاء.*
- *إنه، على الأرجح، الجبل الذي كان فألَ خير لإسرائيل.*
- *عندئذ كان يجب أن يسمى جبل سيمناء.*

وعندها أرسل الحاخام التلميذَ إلى حاخامات آخرين. فقال له هؤلاء:

- *"ماذا يعني جبل سيناء؟ إنه الجبل الذي ألهمَنا الربُّ عليه كراهية الشعوب الأخرى.*

*وهذا ما قاله أيضاً الحاخام **عوزي بن حَنين**:*

- *إن للجبل خمسة أسماء : صحراء السين حيث ضربت الأمثال؛ وصحراء قادش التي تقدّست فيها إسرائيل؛ وصحراء قدموت التي تبلَّغت فيها إسرائيل الأصول؛ وصحراء باران حيث تكاثروا؛ وصحراء سيناء التي أُنزِلت علينا فيها كراهية شعوب العالم.*
- *ولكن ما اسمه الحقيقي؟*
- *خُرِب.*

*وهو في هذا يتعارض مع الحاخام **آباخو**، لأن **آباخو** قال إن اسمه الحقيقي هو **سيناء**، ولا يسمّى "خُرِب" إلا لأن الخراب (خُرِب) حلَّ بشعوب العالم من خلاله".*

إن سلسلة المواعظ التلمودية هذه، والشروحات على *التلمود* نفسه، وكذلك المعلومات التي وصلتنا عن الحياة الواقعية للجاليات اليهودية (القهالات)، تكوّن منظوراً واحداً يسم الموقف من أتباع الديانات الأخرى، ومن أبناء الشعوب الأخرى أيضاً. فهي تؤكد، على سبيل المثال، أن في العالم سبعة عشر "شعباً"، يسيِّر كلاً منها "ملاكٌ" معين. وهذا "الملاك" هو "رب" الشعب المعني، ولكنه في الوقت نفسه "الشيطان" أو "ملاك الموت". ويسيطر عليهم جميعاً ملاك الموت الرئيس **صمائيل** الذي هو في الوقت نفسه "رب" أبناء **أدوم** (المسيحيين). ويُطلَق على **المسيح** اسم "الميت"، وعلى كساء الكاهن "لباس الموت"...إلخ. وبتعبير آخر، فإن اليهود هم الأحياء الوحيدون وسط عالم الأموات، وهم يعيشون ضمن محيط من الأموات أو الأرواح الخبيثة ("فشعوب العالم" تنحدر من الروح الخبيثة). إن هذه اللوحة تشبه قصة "فيي Vii" عند **غوغول**، حيث **خوما بروت** مطوَّق هو الآخر بقوة شريرة تحاول اختطافه، علماً بأن فروض الشريعة و *التلمود* الصارمة تشكل ما يشبه دائرةً مسحورةً يحاول **خوما بروت** تحصين نفسه بها ضدّ الشر المندفع نحوه. على أن إحساساً بالحياة كهذا ما كان له إلا أن يخلق رد فعل مماثلاً لدى السكان المحيطين باليهود.

ولكن مصير الحِرَفي أو الفلاح كثيراً ما كان في يد المرابي اليهودي. يقول **سباتيني**، مثلاً، إن كلمة "يهودي" تستعمل في البرتغال حتى الوقت الحالي (القرن العشرين) للدلالة على القسوة، فإذا ضرب الولد كلباً يصيح به

والداه : "لا تكن يهودياً !". واحتفظت أعمال كبار الأدباء بهذه المشاعر ذاتها متمثلة ف ي صورة **شايلوك** عند **شكسبير**، و*"يهودي مالطة"* عند **مارلو**. وجملة هذه الأشياء تزيدنا تفهماً لما يكنه السكان الأصليون من مشاع ر العداء إزاء الجاليات اليهودية، ولأنواع التنكيل التي مر ذكرها أعلاه ، أياً كانت الأسباب التي سيقت لتفسيرها في ذلك الزمن خيالية من وجهة نظرنا . لقد نشأ شعور باستحالة التآلف بين الجماعة اليهودية والمجتمع المسيحي . ذلك أن النفور المتبادل كان يدفع إلى مزيد من التباعد بين هذين العالمين . غير أنه كان متعذراً ، في الوقت نفسه، انغلاق أحدهما إزاء الآخر انغلاقاً تاماً، وذلك لكونهما مرتبطين بسلسلة من العلاقا ت المالية والاقتصادية لا انفكاك منها . ولعلّ سيرورة هذا التنابذ والضغينة والانعزال بين الطرفين، كان يزداد شدة على مدى القرون الوسطى كلها، إلى أن بلغ أقصاه عندما أخذ اليهود فجأة يلعبون دوراً متعاظماً في حياة الشعوب الأوروبية.

مراجع الفصل الرابع :

1- Das 40 Jahr der Juden mit Arrest bestrikt gewesen , nunmehro aber durch Autoriaet eines Hohen Reichs-Vicariats relaxirte Johann Andreas Eisenmengers Entdecktes Judenthum. Gedruckt nach Christi Geburt 1700

2- سولوفيوف.ف.س. المؤلفات. سان بطرسبورج. 1911 المجلدان الرابع والسادس.

3- Shahak I. مرجع سابق (الفصل الأول)

4- Katz J. From Prejudice to destruction. Anti-semitism 1700- 1933. Harvard, 1970.

5 - ألكسييف أ. أحاديث مسيحي أورثوذكسي من اليهود مع مت نصرين حديثا من أبناء قومه أخوته . نوفغورود، 1875. 6 - برافمان ياكوف. كتاب القهال، مواد لدراسة واقع اليهود المعاشي. فيلنا، 1869

7 - هيسين يو. تاريخ الشعب اليهودي في روسيا. لينينغراد، 1925، المجلد1

8 - بيت دين. المسوعة اليهودية الموجزة.الفصل 3

9-Der Babylonische Talmud. Nach der ersten zensurfreien Ausg, Goldschmidt, Lazarus. Berlin. 1929

الفصل الخامس

بلاد الخزر

برز دور تجمعات الشتات اليهودي، بوصفه عاملاً مؤثراً على الحضارات الأخرى، منذ العصور القديمة antique. فقد كان لها وجود منذ ذلك الحين في مدى هائل الاتساع شمل بيزنطة، وأوروبا الغربية، والعالم الإسلامي، وأميركا اللاتينية... إلخ (وحتى الصين). وقد عمدنا في عرضنا هذا إلى انتقاء تلك المراحل التي كان لها تأثيرُها على بلادنا ولو بشكل غير مباشر . وسنقدم هنا ملخصاً لآراء المؤرخين الخاصة بهذا المقطع التاريخي الذي له، من وجهة نظرنا، صلة بتاريخنا دونما أدنى شك. أمّا مقدار أهمية هذه الصلة ، وهل اقتصرت على مجرد ملامسة تاريخ روسيا القديمة، أم أنها كانت تشكل في حينه مرحلة من مراحلها المفصلية ؟ فهذه مسائل لا تزال موضع سجال بين المؤرخين. والمرحلة المقصودة هي مرحلة مملكة (خاقانية) **الخزر** الممتدة من القرن السابع وحتى القرن العاشر للميلاد . إذ يصف ل. ن. **غوميليوف** الوضع التاريخي الذي نشأ آنذاك بأنه "تعرجات التاريخ". حقاً، لم يكن لهذا الوضع مثيل في التاريخ، وهو على نحوٍ ما يشذّ عن سياق المشهد العام . غير أنه قد يتكرر، وعندئذ يتحول "التعرج" إلى "سُنّة".

لقد كُتب الكثير عن تاريخ بلاد الخزر . ولمّا كانت أحداث هذا التاريخ قد جرت ضمن حدود روسيا الحالية، فإن القسم الأكبر من المؤلفات التاريخية في هذا الميدان قد كُتب في روسيا . وإذا ما تحدثنا عن الأعمال التي تستعرض هذا الموضوع بشكل عام ، كان علينا أن نشير إلى كتب م. إ. **آرتامونوف** وس.أ. **بلِتنيفا** ول. ن. **غوميليوف**، والعديد غيرهم من المؤلفين. ويشير أغلب الذين كتبوا في هذا الموضوع إلى الطابع التأسيسي لكتاب م. إ. **أرتامونوف** *"تاريخ الخزر"* . فلنبدأ باستعراض الموضوعات الأساسية في هذا الكتاب.

الخزر شعب من الأرومة التركية، ظهرت دولته إلى الوجود في القرن السابع الميلادي، بعد انهيار مملكة (خاقانية) الترك الشرقية . ولكنَّ ذِكر الخزر يرد في المصادر بدءاً من القرن السادس الميلادي . إذ كان إقليم الخزر يتألف آنذاك من السهوب الممتدة من الأورال وحتى دلتا نهر الفولغا، وصولاً إلى القوقاز والساحل الشمالي للبحر الأسود و جزء من شبه جزيرة القرم . وقد تطلع الخزر ذات حين إلى منطقة ما وراء القوقاز . وخاضوا في النصف الأول من القرن الثامن حرباً ضد العرب الذين كانوا على وشك إخضاعهم وإرغام ملكهم على اعتناق الإسلام . بيد أن الفتن التي وقعت داخل العالم الإسلامي (الصراع على الخلافة بين العباسيين والأمويين) حالت دون أن يتمكن العرب من الاحتفاظ بسيادتهم على بلاد الخزر . ونشأ نوع من التوازن، فلا العرب حاولوا بعد ذلك غزو الخزر، ولا الخزر حاولوا غزو ما وراء القوقاز . وكانت هذه الحقبة، على العموم، حقبة استقرار الإسلام (نهاية توسعه).

كانت **إتيل** (آمل)، التي تقع في دلتا نهر الفولغا، عاصمة للخزر في القرن الثامن. وكان سكان البلاد بقسمهم الأعظم آنذاك من الرحَّل الذين شملت مملكتهم كامل سهب منطقة البحر الأسود، وصولاً إلى نهر الدنيبر . على

أن العاملين في الأرض (الزرّاع) كانوا يشغلون مكانة هامة، وهم سكان **تام ان**، والمناطق الدنيا لنهري **كوبان والدون**، وشواطئ **بحر آزوف**، والأرض الواقعة بين نهر **دونيتس والدون الأوسط**.

كانت المراكز المأهولة في بلاد الخزر، وخاصة إتيل، قواعد ملائمة لتنقل القوافل التجارية بين الشرق الأقصى والعالم العربي – الفارسي ومنه إلى أوروبا. وشهدت بلاد الخزر، بدءاً من القرن السادس، هجرة يهودية كثيفة، تَمثّل مهمازُها الأول في حدث عجيب، هو ثورة هائلة عمت إيران، وكانت ذات طابع "شيوعي" راديكالي. إنها الحركة "المزدكية" (أتباع مزدك) التي دعت لمشاعية الممتلكات والنساء. وقد أيد الملك **قباد** الأول في وقت من الأوقات تعاليم هذه الحركة التي لم تُهزم إلا في عهد خلفه **كسرى الأول**. على أن الجالية اليهودية في إيران (وكانت من أكثر الجاليات اليهودية نفوذاً في العالم) والت المزدكيين، وهذا ما أدّ ى، بعد هزيمة الحركة، إلى تعرض يهود إيران للاضطهاد على قدم المساواة مع غيرهم من الم زدكيين. وعلى هذا الأساس تم إعدام زعيم اليهود الروحي في إيران آنذاك **ماتر زوطرا**، وفرَّ العديد منهم إلى القوقاز، نحو المناطق التي كانت تعود للخزر في ذلك الزمان. وفيما بعد تبعت موجةَ الهجرة الأولى هذه هجراتٌ أخرى سببها اضطهاد اليهود في بيزنطة أيام **هرقل** في القرن السابع، **وليون إيسافر** في القرن الثامن. وربما كانت هناك أسباب اقتصادية أيضاً.

لقد وقع انقلاب في بلاد الخزر ، عند نهاية القرن الثامن ومطلع القرن التاسع ، كان من نتائجه أن غدت اليهودية "دين الدولة"، دون أن يعني ذلك أن السكان جميعهم قد اعتنقوا هذا الدين . بل على العكس من ذلك، حافظت غالبية السكان المحليين على دياناتها السابقة . أما السلطة فقد انتقلت إلى أيدي فئة تتألف من أحفاد اليهود الذين هاجروا إلى بلاد الخزر ، ومن أعيان الخزر الذين اعتنقوا اليهودية (ومن أبناء الزيجات المختلطة، على ما يبدو). في البداية كان من اعتنق اليهودية **هو البيك**، أو الملك **عُباديا**، وبطانته. وبعد ذلك "راح يتقاطر إليه، كما يقول أحد المؤرخين العرب، يهود من مختلف البلدان الإسلامية ومن الروم "، (أي من بيزنطة). ويقول مصدر خزري إنه "أصلح وضع المملكة ورسخ العقيدة كما ينبغي، ووَ فقاً للأصول. وشيد دُوراً للاجتماع وأخرى للتعليم، وجمع الحكماء من بني إسرائيل، وأعطاهم ذهباً وفضة، فشرحوا له 24 سفراً من *الكتاب المقدس، والميشناه، والتلمود*، وكتب صلوات الأعياد". ونشأ نظام للإدارة كان يسمى أحياناً "ازدواجية السلطة". فكان على رأس السلطة اسمياً خاقانٌ يدين باليهودية، و هو ينحدر من أصل **آشينا** (الذئب) التركي العريق. ولكنه كان ذا سلطة رمزية، يظهر على الشعب مرة واحدة في العام . أما واقعياً فكانت البلاد تحت حكم ملك (بيك) من أصل يهودي تتوارث ذريته من بعده هذا اللقب ابناً عن أب.

استقر نظام السلطة هذا بعد حروب أهلية استمرت بضعة عقود من الزمن. ويقول **قسطنطين باغريانورودني** عن هذه الحقبة: "عندما انفصلوا عن سلطتهم واستعرت الحرب فيما بينهم ، كان النصر حليف الفريق الأول ، فتم القضاء على البعض منهم (المنتفضين)، وهرب البعض الآخر واستوطن مع التُرك (الهنغار) في أرض البشنق الحالية". وقد قتل في هذا الصراع، على ما يبدو، **عُباديا** بالذات وولداه **حزقيا ومَناشيا**. فانتقلت السلطة إلى **حانوقا** شقيقِ **عُباديا**.

صارت الضرائب التجارية جزءاً من ميزانية بلاد الخزر تتزايد أهميته باستمرار . وكانت مرتبات الجند المرتزقة الذين هم عماد السلطة تدفع من هذه الأموال . لقد تشكل الجيش أساساً من المحاربين الترك ، وكان على رأسه

قائد يهودي. وكان المقاتلون يتعرضون لعقوبة الإعدام إذا ما هُزِموا، أما قائدهم فكان يعاقب بمصادرة ممتلكاته . على أن هذا الجيش المرتزق تحديداً هو الذي ضمن النصر في الحرب الأهلية . لقد "شكّلت الحكومة اليهودية جيشاً من المرتزقة وصارت مستقلة عن الشعب ". و"تم القضاء على قسم كبير من سكان المملكة الخزر ". ثم ترسخت أقدام السلطة الجديدة عند منتصف القرن التاسع.

امتدت سلطة مملكة الخزر في القرن التاسع لتشمل السهوب الأوروبية الشرقية والمناطق الشمالية المجاورة التي تشغلها الأقوام السلافية (الصقالبة). وتخبرنا *"قصة الحوليات"* سنة 884 م.، بأن أقوام *البوليان والسيفيريان والفياتيتش والرودوميتش* كانوا يدفعون الجزية للخزر . وفي النصف الأول من القرن العاشر ألحق رجل البلاط الخزري **بيساخ**، كما يذكر أحد المصادر اليهودية ، هزيمة نكراء بجيش الروس ، وشن حرباً على الأمير الروسي **هيلغا (أوليغ)**، وأرغم الروس على القتال ضد بيزنطة . وجاء في المرجع المشار إليه أعلاه : "وعندها أصبح الروس خاضعين لسلطة الخزر". ويقول **أرتامونوف** إن "القتال ضد بيزنطة " يعني الحملة التي شنّها **إيغور** على القسطنطينية وانتهت إلى الفشل . غير أنه ينفي "خضوع الروس للخزر "، ويرى أن المقصود هو تحالف يحمي مؤخرة جيوش الروس في أثناء الحملة.

إن تاريخ مملكة الخزر يتقاطع مع تاريخ بلادنا في هذا المشهد . وهنا يتخذ ل . ن. **غوميليوف** (تلميذ **آرتامونوف** سابقاً) موقفاً هو الأكثر راديكالية، إذ يرى في حملة **بيساخ** بداية لخضوع روسيا القديمة للخزر زمناً طويلاً. وانطلاقاً من أن مملكة الخزر خاضت في القرن العاشر ضدّ بيزنطة صراعاً على النفوذ في أوروبا الشرقية، فإن **غوميليوف** ينظر إلى حملات **أوليغ وإيغور** على القسطنطينية بوصفها نتيجةً لتحالف أشمل ، ذي طابع أوروبي عام ، بين الفايكنغ والجاليات اليهودية. ذلك أن حملات الفايكنغ على أوروبا الغربية وعلى الشرق سواء بسواء، كان يموّلها التجار اليهود، حسب رأيه . وكان الفايكنغ يبيعون العبيد الأسرى لهؤلاء التجار تحديداً . يقول **غوميليوف**:

"يومها صارت إمارة الفارياغ (الاسكندنافيين . – م.) المعزولة في كييف تابعةً لجالية اليهود الخزر التي استخدمت الروس والسلاف (الصقالبة) في الحروب ضد المسيحيين والمسلمين الشيعة.

على أن الأسطول الروسي كان منذ مطلع القرن العاشر يقوم بعمليات في بحر قزوين ضد أعداء ملك الخزر. ومن الجلي أن أمراء كييف صاروا آنذاك يقدمون "الجزية دماً" لملك الخزر".

وعلى سبيل المثال ، يورد **غوميليوف** الحجة التالية : كانت الدراهم العربية هي العملة التي استعملها الخزر . وبعد العام 900 ظهرت الدراهم العربية في دفائن الأرض الروسية، علماً بأن هذه الدراهم لم تكن غنيمة حرب، لأن المدونات التاريخية لا تتحدث عن أيِّ انتصارات.

كانت هذه الدراهم ثمناً لدماء العماليق الروس . الصقالبة التي سُفكت في سبيل . مصالح الغرباء.

وقد حدث انقلاب في العلاقات بين روسيا وبلاد الخزر بعد مقتل **إيغور** على أيدي الصقالبة، عندما وصل إلى السلطة في العام 944 صقالبةٌ ، أو اسكندنافيون تصقلبوا ، هم من حاشية **أولغا** البسكوفية. وتشير هذه الفرضية إلى مرحلة بالغة الأهمية من السيادة الخزرية على روسيا القديمة سبقت وقوع هذا الانقلاب . إذ إن انتشار المسيحية في روسيا لم يعد إلى سابق عهده من القوة (وعودته تعني اشتداد نفوذ بيزنطة) إلا بعد مقتل

إيغور. ولم يتمكن ملك الخزر **يوسف** من اتخاذ أية تدابير رداً على هذا الانقلاب، لأن جملة من مظاهر التأزم – من الصين وحتى فرنسا – أنزلت ضربة قوية بتجارة الخزر، وقوَّ ضت أساس ح كمهم. وفي العام 957 تنصَّرت **أولغا** في القسطنطينية، ما كان يعني انتقالاً صريحاً بروسيا إلى جانب بينزطة ضد الخزر. وفي العام 964 بدأ **سفياتوسلاف** أعماله الحربية ضد الخزر . وربما كان التحالف مع بيزنطة قد ساعد في تحييد الأعداء الدائمين، أي البشنق، خلال هذه الفترة. وبينما كان الجيش الخزري ينتظر في السهوب تقدم **سفياتوسلاف** نحو نهر *أوكا*، فقطع الأشجار اللازمة لبناء المراكب التي مخر بها الروس نهر **الفولغا**، واقتحموا عاصمة بلاد الخزر إتيل (آمل) عام 965 م.

أوقع الروس بسيادة الخزر السياسية ضربة قاصمة، ولكن بلادهم ظلت، على ما يبدو، خصماً خطيراً لروسيا مدة طويلة. وقام **فلاديمير**، ابن **سفياتوسلاف**، بحملة على الخزر، وفرض عليهم الإتاوة فـي العام 985، حسب رأي **أرتامونوف**. وفي الجيل التالي، في النصف الأول من القرن التاسع، حارب **ياروسلاف الحكيم**، وهو **ابن فلاديمير**، ضد أخيه **مستيسلاف** الذي اعتمد على جيش يتألف من الخزر والكاشاك (الكاسوغ في المدونات الروسية القديمة . – م.). ولكن الطائفة اليهودية التي كا ن لها نفوذ اقتصادي قوي في كييف حافظت على وجودها بعد ذلك مدة قرن ونصف القرن، وفقاً لما يخبرنا **غوميليوف**. بل وراح نفوذها يتزايد عندما رفدها العديد من اليهود ذوي الأصل الغربي الذين انضموا إليها قادمين من ألمانيا عبر بولونيا. فقد كانت تجارة العبيد النشطة في أيدي أبناء هذه الطائفة. إذ كان البولوفيون يشنون غارات على العبيد فستولون عليهم ويأسرونهم، ثم يبيعونهم إلى دار الخلافة المصرية عبر شبه ج زيرة القرم، حيث كانت توجد طائفة يهودية قوية أخرى في خيرسونس (كورسوني). وفي هذا الوقت بالذات قتل القديس **يفسترات** الذي رسّمته الكنيسة الأرثوذكسية شهيداً. وكما يقول **غومِيليوف:** "فقد انتقلت التجارة والحِرَف في كييف إلى أيدي اليهود بالتدريج، لأن كلاً منهم كان يحظى بمساعدة طائفته، في حين كان التجار والحِرَفيون الروس يعملون كل بمفرده دون معين أو شفيع".

ولمّا اندلعت الاضطرابات وأعمال الشغب في كييف، بعد وفاة الأمير **سفياتوسلاف الثاني** عام 1113، قام الناس بادئ الأمر بأعمال نهب طالت بيوت بطانة الأمير، ثم المستوطنة اليهودية . ويرسم **تاتيشيف** (مؤرخ روسي. – م) صورة مشابهة، فضلاً عن مدونة **إيباتييف** التي تقول إن بيوت اليهود قد نهبت . وفي هذه الأثناء استجاب **فلاديمير مونوماخ** لطلب **البويَّار** (كبار ملاك الأراضي في روسيا القديمة والقرون الوسطى، وكانوا من علّيّة الطبقة السائدة . – م) فاعتلى عرش الإمارة، وقام بإجلاء جميع اليهود من الأراضي الروسية . وفي حال عودتهم كان القانون يرفض أن يضمن لهم حق الحياة أو الممتلكات.

وقد أيد ف . ف. **كوجينوف** هذه اللوحة التي تصور خضوع روسيا القديمة الطويل لبلاد الخزر اليهودية وللنفوذ الاقتصادي اليهودي، مستنداً في ذلك إلى أدلة من نوع آخر تماماً، تتعلق بتاريخ ملاحم روسيا القديمة وأدبها.

وهو حين يحلل مضمون القصائد الروسية الملحمية **(بيلينا)** ومدى انتشارها، يتوصل إلى استنتاج مفاده أن هذه الملاحم لا تعكس التصدي لسيطرة المغول (التي تعود لعهد القديس **فلاديمير**)، ولا الكفاح ضد السهب (البولوفيين والبشنق)، وإنما تصور الكفاح ضد سيطرة الخزر. والبرهان الأكثر بلاغة هنا هو ملحمة "**إيليا**

موراميتس واليهودي". وهناك حجر أساس آخر لما يقدمه **كوجينوف** من حجج هو العودة إلى ملحمة **هيلاريون كييفسكي** *" كلمة عن الشريعة والغبطة "*. إن هذا العمل الأدبي الذي يُرَجَّحُ أنه من أقدم نتاجات الأدب الروسي، يمثّل عملاً مذهلاً بٌقوته، ويُعَدّ شيئاً يشبه اللغز حقاً. إذ تتمثل روح الحماسة التي يزخر بها في المواجهة بين *العهد القديم والعهد الجديد*، بين اليهودية والمسيحية. إنها غبطة العهد الجديد التي تلغي شريعة العهد القديم. أما لماذا كان من شأن هذه المشكلة تحديداً أن تغدو على هذا القدْ ر من الأهمية الملحَّ ة في كييف القرن ا لحادي عشر، فأمر غير مفهوم حقّاً. وبالرغم من ندرة ما كتب عن هذا الموضوع عموماً ، فإن ما كان يُطْرَحُ من تفسير في العادة مفادُ ه أن المواجهة بين *العهدين القديم والجديد* في *"كلمة عن الشريعة والغبط ة"* ليس إلا كناية عن المواجهة بين القسطنطينية قديمةِ العهد بالمسيحية من جانب، وروسيا ال متنصّرة حديثاً من جانب آخر؛ وتعبيراً رمزياً عن كفاح روسيا في سبيل استقلالها الروحي عن الكنيسة اليونانية . غير أن ما ليس مفهوماً ألبتة هو ما الذي كان يحمل **هيلاريون** على أن يلجأ إلى هذه اللغة المجازية المعقدة، ولماذا لم يكن بمقدوره التعبير عن فكرته بكلمات أكثر مباشرة (عادة ما يفترض الباحثون أنه كان يعتمد على دعم الأمير **ياروسلاف الحكيم**). أما **كوجينوف** فيقترح حلاً أكثر بساطة، هو: ليس ثمة أية لغة مجازية معقدة، والحديث يدور هنا حول موقف روسيا التي اعتنقت دين العهد الجديد ، وحول *تصديها* بالمعنى الحرفي للكلمة، لقوةٍ ما تستند إلى العهد القديم . وهذه القوة هي *الخزر* الذين كان لهم حتى وقت غير بعيد حاميتهم في كييف، وجالية يهودية جبارة اقتصاديا في هذه المدينة آنذاك. وهذا ما يجد له **كوجينوف** تأكيداً في الدعاء التالي:

"اللهم لا تعرِّضْنا لخطر الإغواء، ولا تسلمْنا لأيدي الغرباء، واحمِ مدينتك من مغبَّة الأَسْرِ إلى أبد الآبدين".

ويلفت **كوجينوف** الانتباه إلى أن م . ن. **تيخوميروف** ، وهو أحد أكبر المؤرخين الروس، قد فهم "كلمة" **هيلاريون** على أنها تعبير عن المواجهة بين روسيا وبلاد الخزر . وهو في كتابه *"الفلسفة في روسيا القديمة "* يعترض هذا المؤرخ بحزم على تأويل "الكلمة" على أنها سجالٌ مُقنَّعٌ مع بطركية القسطنطينية. كما أنه يورد عدداً من الشواهد التي تؤكد على دور الكنيسة الروسية بوصفها خليفة لهذه البطركية، ووريثة لها تستمد أصولها م ن بيزنطة. وبعد ذلك يورد هذا الاقتباس من *"الكلمة":*

"لقد جفت بحيرة الشريعة (شريعة موسى . – م)، أما نبع الإنجيل فقد فاض، وغمر الأرض وانساب حتى وصل إلينا"... ويقول **تيخوميروف:**

"وفي قول **هيلاريون** هذا يتلخص التع ارض بين مملكة الخزر وروسيا كييف . فالبحيرة التي جفت هي مملكة الخزر، والنبع الذي فاض هو الأرض الروسية".

وتعليقاً على قول **هيلاريون:** *"توهج ضياء الشمس فأدبر نور القمر ... ودفّأت حرارةُ الشمسِ الأرضَ فاختفى بردُ الليل"*، يشير **تيخوميروف** إلى أن "تلميحات **هيلاريون** كانت مفهومة لأبناء زمانه، مثلها في ذلك مثل م ا يقصده ببرد الليل وحرارة الشمس ... فقوله هذا إيماءةٌ إلى أن **ياروسلاف** الذي استند إلى روسيا المسيحية قد انتصرعلى **مستيسلاف** الذي اعتمد على مساعدة البشنق والخزرالذين كانت الديانة اليهودية منتشرة بينهم".

ونظراً لشح المصادر التي وصلت إلينا من تلك الحقبة، قبل ألف عام مضت، فإن تفسيرها تعسفيٌ بالضرورة . إنه تفسير له طابع "روايات" ووقائع تؤكد ها. لقد عرضتُ "رواية" واحدة من هذا النوع ، هي رواية "نير الخزر"، إذا جاز التعبير. ومن المفهوم، طبعاً، أنها رواية لا إجماع عليها . فمقالة ف.ف. **كوجنيكوف** التي نستشهد بها ، على سبيل المثال، تورد اقتباسات عن مؤلفين يعترضون على هذا المنظور.

لقد ارتبط تاريخ مملكة ا لخزر بمصير بلاد نا، على هذا النحو أو ذاك ، ولو في ما يتعلق بأوجه الشبه بين الاتحاد السوفيتي في العقود الأولى بعد الثورة وبلاد الخزر القديمة . فتسلُّط القيادة اليهودية على السكان الأصليين، على غرار ما كان الوضع عليه في بلاد الخزر، هو بالضبط التهمة التي رُميَ ب ها النظام الشيوعي من قبل أعدائه. (من دواعي الأسف أن هذه المقارنات كانت تتم بطريقة فجة وشديدة التحيز). وعلى أي حال، ظل موضوع الخزر في الاتحاد السوفيتي موضوعاً "غير مريح" زمناً طويلاً، إن لم يكن موضوعاً خطيراً بالمعنى المباشر. وعلى سبيل المثال، فقد حدثني ل . ن. **غوميليوف** بأن كتاب **م. إ. أرتامونوف** الذي عدنا إليه غير مرة، تعذر نشره مدة تجاوزت عشر سنوات (وقد أتيح نشر عرض موجز له قبل 25 سنة من نشر نصه الكامل). ويصور هذا الكتاب مملكة الخزر لأول مرة بوصفها واحدة من "الدول العظمى" في أوروبا الشرقية في القرنين 9 – 10 الميلاديين. كما أن *"كلمة"* **هيلاريون** كانت طيلة فترة النظام الشيوعي كتاباً "غير مريح"، بسبب تطرقها لـ "المشكلة" الخزرية، أو بسبب توجهها المناهض لليهودية صراحةً . وقد صدرت، على سبيل المثال، طبعة من *"عيون الأدب في روسيا القديمة"* في عدة أجزاء، تستهلها مقالة تقديم للأكاديمي **ليخاتشوف** بعنوان *"تأثير الأدب القديم"*، يشير فيها إلى *"كلمة"* **هيلاريون** بوصفها واحدة من "من بواكير الأدب الروسي " الأكثر أهمية. ولكن *"الكلمة"* ذاتها لم تنشر في هذه الطبعة، بل ولم يُعَدْ إصدارُها عموماً منذ العام 1917 حتى أواسط الثمانينات، على ما أعتقد. وأذكر أنني شخصياً اطّلعت على هذا العمل من خلال إصدار بعنوان مرموز، هو *"تراث* **هيلاريون كييفسكي** *الفلسفي"* (وهو عنوان يجعل من الصعب علينا أن نخمن أن الحديث يدور عن نشر هذا المرجع). وفيما بعد أقرَّ الفيلسوف المعروف أ . **غوليغا** بأنه علم بوجود " **الكلمة** " من ألماني مختص بالشؤون السلافية، واطَّلع عليها لأول مرة في ترجمتها الألمانية ! وأذكر أن إذاعة *"الحريَّة"* اتهمت ف. ف. **كوجينوف** في الثمانينات بـ "معاداة السامية" بسبب مقالته المكرسة لتحليل *"الكلمة"* مجرد تحليل نقدي من زاوية فلسفية أدبية . هكذا، إذن، تتشابك في تاريخنا قرون مختلفة وألفْيات مختلفة.

مراجع الفصل الخامس :

1- أرتامونوف م.ن. تاريخ الخزر، لينينغراد، 1962، طبعة جديدة : سان بطرسبورج، 2001.

2- أرتامونوف م.ن. صور من تاريخ الخزر القديم. لينينغراد، 1938.

3- غوميليوف ل.ن. روسيا القديمة والسهب الكبير. موسكو، 1989.

4- كوجينوف ف.ف. مخفر العماليق. موسكو، 1989.

5- كوجينوف ف.ف. إبداع هيلاريون والواقع التاريخي لعصره: التقويم الأدبي لمحبي الكتاب. موسكو، 1989، الإصدار 26.

6 – تيخوميروف م. ن. الثقافة الروسية ما بين القرنين العاشر والثامن عشر، موسكو، 1968.

7 – ليخاتشوف د. س. عظمة الثقافة القديمة : آثار أدب روسيا القديمة. القرن 11 – أوائل القرن 12، موسكو، 1978.

8 – بلِتنيوفا س. الخزر. موسكو، 1986.

9 – بلِتنيفا س. الرحل في القرون الوسطى. بحث عن سنن التاريخ. موسكو، 1982.

الفصل السادس

دور اليهود في تطور الرأسمالية

كانت نشأة الرأسمالية المعاصرة (وخاصة دور اليهود فيها) مادة لدراسة مسهبة قام بها **فيرنر زومبَرت** في مؤلفاته. وهو ينطلق من أن الرأسمالية تفترض وجود رأس المال، وأن رأس المال، في العصور الوسطى المتأخرة وبداية العصر الحديث، كان في أيدي اليهود إلى حد كبير . ويورد **زومبَرت** شهادات العديد من المرجعيات المرموقة.

إن **كروموبل، وكولبر، ومحافظ آنتفيربن**، وعُمدة مدينة **بوردو**، ومجلس شيوخ **فينيسيا**... يتفقون جميعاً على أن لدى اليهود ثروات كبيرة، وأن اجتذاب اليهود يحفّز نمو الاقتصاد في مرحلة الرأسمالية الناشئة ، بينما يساعد إبعادهم على انحطاط ذلك النمو. أمّا طرد اليهود من شبه جزيرة البيرنيه (إيبيريا) فقد وصفه معاصرو تلك الفترة بأنه "نضوب لرؤوس الأموال". وكثيراً ما يردد معاصرونا القول إن "اليهود يأتون بالمال إلى البلد "، والمال هو ما كان المقدمة الأولى لتطور الرأسمالية.

وبالفعل، فقد كانت ثروات اليهود، كما يرى **زومبرت**، ضخمة على نحوٍ استثنائي، وأكبرَ بكثير مما يعتقد البعض عادة. لقد أوردنا في إحدى الفقرات أعلاه جملة من الشهادات التي تطرقت إلى حقبة العصور الوسطى، ولكنها تنطبق أيضاً على زمن أقرب إلينا. ففي القرنين الـ 17 والـ 18 كان اليهود الهولنديون، المتحدرون أساساً من شبه جزيرة البيرنيه (إيبيريا)، مشهورين بثروتهم. وكان البارون **بيلمونتي**، والسيد **دي بينتو**، والسيد **داكوستا** جميعاً يوضعون في مصاف أغنى التجار ورجال المال في هولندا . كانوا يملكون في لاهاي وأمستردام أفخم القصور التي تذهل المخيلة، ولا سيّما عند مقارنتها بمنازل الهولنديين المقتّرين. وفي فرنسا كان يقال : "ثري كيهودي". ويورد **زومبَرت** مادة غنية، خصوصاً فيما يتعلق بألمانيا . فعلى سبيل المثال، كانت نسبة اليهود بين أغنياء مدينة فرانكفوت على الماين (الذين يربو دخل الواحد منهم على 15000 فلورين) هي: 7،5 % عام 1593، و17،5 % عام 1607، و20 % عام 1618.

ولكن أفكار **زومبرت** الأكثر أصالة هي تلك التي تتناول الطابع الذي اتصف به تطور الرأسمالية في أوروبا الغربية جرَّاء مساهمة اليهود فيه. فهو يرى أن اليهود أوجدوا المقدمات اللازمة لتطور رأسمالية من طراز حديث عن طريق تدمير أسس المجتمع "التقليدي" البطريركية (الأبوية). وتبعاً لتزايد دورهم في الحياة الاقتصادية كان يتزايد عدد ما يتسببون به من شكاوى ضدّهم تأتي من جميع الجهات . كما كانت تكال لهم التهم بأنهم "يحرمون سكان البلاد من لقمة العيش ". إن تلك الشكاوى منهم كانت نمطية، على قالَب واحد، وكثيرة كثرة مذهلة، سواء في إنكلترا، أو فرنسا، أو ألمانيا، أو السويد، أو بولونيا... وقد كان اليهود يتّهَمون "بالغش" عادة. ولكن المقصود من ذلك، بشكل أساسي، ليس انتهاك القوانين الرسمية، بل تدمير العادات ، ومعايير الأخلاق المرعية في مجال التجارة، أي تدمير التقاليد المترسخة في المجتمع المسيحي.

وهنا لابد من عرض موجز لآراء **زومبرت** العامة بخصوص تطور الرأسمالية . ذلك أن مفهوم الرأسمالية هو ، في الحقيقة، مفهوم مطّ اط جداً . ويؤكد عدد من المؤرخين البارزين – أمثال **إدوارد ماير ، وماكس فيبر ، وم.إ. روستوفتسيف** – أن العناصر الأساسية التي تشكل الرأسمالية (أي رأس المال، والعمال المأجورين، والسوق، والإنتاج من أجل البيع ... إلخ.) كانت موجودة في مختلف المجتمعات، من بابل إلى اليونان القديمة وروما ... إلخ. وأن هذه العناصر استطاعت، من حيث المبدأ، خلق تشكيلات على قدْ ر كبير من التنوع، بـاستثناء أوروبا الغربية والولايات المتحدة الأميركية، حيث نجم عنها مجتمع ما، متميز تماماً ، لا يشبه بشيء أي مجتمع آخر في التاريخ. وها هو **زومبرت** ينكبّ على دراسة أصل هذا المجتمع وتحليله، فيقسم تطور الرأسمالية إلى طورين يسميهما : "الرأسمالية المبكرة "، و"الرأسماليةِ العالية التطور ". وقد انصبّ اهتمامه على الطور الثاني من هذه الرأسمالية، الطور الذي يعتقد بأن اليهود لعبوا دوراً حاسماً في تطوره باتجاه معين جداً . وقد أخذت هذه الرأسمالية (الثانية) بالسيادة بدءاً من القرن التاسع عشر، علماً بأن سماتها المحددة ابتدأت في التك ون قبل ذلك ببضعة قرون.

ويرى **زومبَرت** أن جوهر "الرأسمالية العالية التطور " يكمن في أن الإنسان يفقد دوره كهدف للعملية الاقتصادية، وكـ "معيار لجميع الأشياء". ففيها تتكوّن "شخصيات" جديدة هي التروستات والمنشآت، تكون السيادة في الحياة الاقتصادية عائدة لها ولعلاقاتها ومصالحها، وليس لعلاقات البشر الحقيقيين ومصالحهم . فعلى سبيل المثال، كان صاحب المشروع (رب العمل) في طور الرأسمالية المبكرة يضع نُصْب عينيه أهدافاً حياتية محددة تماماً، كالإثراء، واقتناء مزرعة ومنزل... إلخ. وبعد أن يحقق هذه الأهداف يغادر ميدان الاقتصاد والأ عمال، بل إن هذا السلوك هو ما كان الجميع يع دُّونه سلوكاً "طبيعياً" و"عاقلاً". أما في ظل الرأسمالية العالية التطور فإن الهدف الوحيد هو ريعية المنشأة ومدخولها. على أن هذه الأهداف لا تعرف حدّاً، فتغدو العملية بلا نهاية . ويورد **زومبرت** آراء بالغة الدلالة أدلى به ا كبار أصحاب المشاريع (**كارنِغي**، و**راتيناو** وغيرهما)، تبين كيف أن منطق الإنتاج نفسه أرغمهم على المُضيّ في توسيع عملياتهم دون توقّف، ولو أن ذلك لم يكن ضمن خططهم، ولم تقرره اهتماماتهم الشخصية.

إن السرعة المتزايدة التي تشهدها تغيرات الحياة الاقتصادية تبلغ في طور الرأسمالية العاليةِ التطورِ حدّاً يجعل التقاليد التي ينتهكها كل تغير محدد من هذه التغيرات عاجزةً عن اللحاق بها ، واستعادةِ الحياة من جديد . والحصيلة أن كل ما هو عضوي، وطبيعي النمو، وقائم على أساس التجربة البشرية يغدو غريباً على المشروع الرأسمالي. ذلك أن هذا المشروع ينبني على نحو عقلاني محض . إنه آلية مصطنعة. وهذا ما يتحقق على نحو ملموس بفضل السيرورة التي يسميها **زومبرت** سيرورة *"إخضا ع الحياة الاقتصادية لل معاملات التجارية "*. إن الكمبيالة، والأوراق المالية، والبورصة، تضفي على الرأسمالية العالية التطور طابَ عاً لا اسمَ له, ولا ملامحَ. وإذا كان القرض، على سبيل المثال، يتصف فيما مضى بطابع العلاقة بين شخصين محددين، وينطوي على مشاعر الامتنان، ناهيك عن الجانب المالي، فهو في صيغة الكمبيالة ينفصل عن العلاقات الإنسانية، ويفقد طابعه الشخصي بالكامل. أما البورصة، أو "سوق الأوراق المالية"، فتُخضِعُ مجمل الحياة الاقتصادية، على الصعيدين القومي والعالمي، لهذه الروحية.

شهدت القرون الوسطى ظهور رؤية نظرية معينة إلى العالم تمكنت من المحافظة على وجودها في ظل الرأسمالية الباكرة. وقد استمدت هذه الرؤية نموذجها من الزراعة، فانطلقت من تصورها لـ "القِطاع" الذي كان يحق للإنسان أن "يعيل نفسه" منه. وقد يتجسد هذا القطاع في مجال عمل محدد كالمجال الذي حافظت عليه، مثلاً، طوائف الحِرَف والورشات. ولذا، فإن جميع الأساليب التي تهدف إلى تحقيق الربح على حساب الآخر – التطاول على "قِطاعه" – كانت تعدّ غير جائزة أخلاقياً. ومنها على سبيل المثال، الترويج، أو المنافسة عبر تخفيض الأسعار، وخاصة البيع بسعر أدنى من التكلفة بغية السيطرة على السوق. وغالباً ما كان يُرفض استعمال الآلات لأنها قد تحرم الكثيرين من عملهم. لقد كانت جميع أشكال هذا السلوك تعد "غير مسيحية". أما الأساس في ذلك فهو التصور عن "السعر المنصف"، الذي من شأنه أن يتيح للمنتج فرصة المحافظة على مستوى الحياة الذي ترسخ تقليدياً. أما الطمع بالمزيد عن طريق رفع الأسعار أو مضاعفة حجم العمل، فكان يعدّ فعلاً لا أخلاقياً، وسخيفاً. كان وقت العمل محدداً، والأعياد كثيرة (ثلث السنة تقريباً). ولم يكن الناس على عجلة من أمرهم، بل كان التمهل والأناة من سمات الإنسان التقليدية، فكان يقال إن الكسالى هم الذين يستعجلون ويلِجُّون.

إن الرأسمالية العالية التطور تدمر هذه السمات "البطريركية". وأكثر من ذلك، إن نقيضَ كل سمة من هذه السمات تقريبا يندرج في عداد أهم المزايا التي تطبع الرأسمالية وتضمن إنتاجيتها الأسطورية، أي المنافسة بلا قيود، وحرية التجارة، والترويج، ومبدأ "الوقتُ مالٌ"... ومقابل هذه الإنتاجية يتوجب دفع الثمن، وهو أن الإنسان يغدو خاضعاً لمصالح "المؤسسات" ومنطق تطورها، فيفقد الشعور بقيمته ومغزى حياته. ويقدم **زومبَرت** معادلته على النحو التالي: "إن الرأسمالية هي تجريد العالم من عيانيته، واختزالُه في مبدأ مجرَّد هو المال؛ إنها تدمير للعيانية والتنوع". فالرأسمالية تسعى للحصول على مردودية لم يكن بوسع الناس في القرون السابقة أن يحلموا بها، وتستبدل الآلةَ بعمل الإنسان الحي. ولكنها بالمقابل تكيِّف المجتمع الإنساني مع الآلة، وتجعله ممسطراً (موحد المواصفات) ومُمَكْنناً.

يؤكد **زومبَرت** أن اليهود هم الذين أدخلوا إلى الحياة الاقتصادية هذه السماتِ الجديدةَ تحديداً. ويحلل بالتفصيل تلك الشكاوى التي تتردد بحقهم.

ذلك أن الجميع يشتكون بالطريقة ذاتها، فيكرِّرون القول إن اليهود يخالفون تحديد مناطق التجارة وَفق طوائف الحِرَف. تلي ذلك شكاوى من تخفيض الأسعار المصطنع (التجارة ولو بخسارة من أجل السيطرة على السوق، إغراق السوق). ويحتجون، أخيراً، على أن اليهود يغرون الزبائن، ويصطادونهم من الشارع، ويزينون واجهات متاجرهم. كل ذلك كان يُعدُّ آنذاك أمراً منافياً للاستقامة. وقد خلق ذلك، في الوقت نفسه، أسس المنافسة الحرة، والدعاية، و"الاحتكاك بالمستهلك"، أي السمات الأساسية للاقتصاد الرأسمالي الحديث. ويورد **زومبرت** العديد من الأمثلة على إعلانات التجار اليهود الدعائية، الأمر الذي كان في ذلك الوقت بدعةً جديدة، وتحدياً للمعايير الأخلاقية. ومنذ أوائل القرن التاسع عشر كان المبدأ القائل بأن (دورة رأس المال السريعة مع دخل أقل، خيرٌ من دورته البطيئة ولو كان دخلها أكبر) يعدُّ "مبدأً يهودياً". وشاع رأي يقول إن المسيحيين ليس بوسعهم تطبيق هذا المبدأ، علماً بأنه يشكل الأساس الاقتصادي لوتيرة الحياة المتصاعدة على الدوام، التي تسم عصرنا بميسمها.

ويعتقد **زومبرت** أن اليهود أرسوا أيضاً الأساس اللازم لإخضاع الحياة الاقتصادية للمعاملات التجارية، ويرى في ذلك إحدى السمات الأساسية للرأسمالية العالية التطور . فهم الذين اخترعوا الكمبيالة والبورصة . ويعزو **زومبرت** إدخال الكمبيالة في الحياة الاقتصادية إلى ضرورة السرية ، وإغفالِ الاسم في معاملات اليهود المالية، لأنهم كثيراً ما كانوا يتعرضون للاضطهاد . وبالفعل، فقد حُظر على اليهود عند طردهم من البرتغال وإسبانيا أن يحملوا معهم الذهب والفضة والمال، ولكنْ سرعان ما صار هؤلاء القادمون من شبه جزيرة البيرنيه (إيبريا) من أوائل أثرياء أوروبا . وكان **سيمون روبين** أول من أعطى كمبيالة معروفة في التاريخ، على حد قول **زومبرت** ، وذلك في العام 1207. ولكن ما يفوق ذلك أهمية بكثير هو أن العمل بالكمبيالات في العديد من المدن (فينيسيا في القرن السادس عشر مثلاً) كان متركزاً في أيدي اليهود بالكامل.

يورد **زومبَرت** كثيراً من الشواهد على الدور البارز الذي لعبه اليهود في بورصات هولاندا ولندن وألمانيا (إذ كان في برلين، أوائل القرن التاسع عشر، مثلاً، يهوديان اثنان من أربعة رؤساء للبورصة، وعشرة من 32 عُمدة، ناهيك عن اليهود الذين تنصَّروا)، بل إن أول وأبلغ وصف للبورصة يعود لرجل المال اليهودي في فرنسا (القرن الثامن عشر) **إسحاق بينتو**.

وأخيراً ، فإن اليهود ، بحكم علاقاتهم العالمية، ساعدوا على تجريد الحياة الاقتصادية من طابَعها القومي، فصارت مصالح الأفراد ومصالح الدول على حد سواء، تخضع لمصالح البيوتات المصرفية الدولية . والمثال النموذجي لمثل هذا البيت المصرفي الدولي هو البنك الذي أسسه **آمشيل روتشيلد** . ففي القرن التاسع عشر ترأس أولاد **روتشيلد** بنوكاً في كبريات المدن الأوروبية: **ناتان** في لندن، **وجيمس** في باريس، **وسَلَمون** في فيينا، **وكارل** في نابولي، **وآنسيلم** في فرانكفورت.

لقد ساعد تشتت اليهود، طبعاً، على إضفاء طابع عالمي على نشاطهم الاقتصادي. فعزلتهم داخل البلد الذي يعيشون فيه جعلت معايير المجتمع "التقليدي" الأخلاقية هناك غريبة عليهم وغير مفهومة بالنسبة لهم، وسهّلت عليهم تدميرها. كما إن انفصالهم عن "عيانية" حياة البلد القومية دفعهم إلى تطوير الاقتصاد في اتجاه لا يستند إلى التقاليد، وإلى إضفاء طابع "الآلية المصطنعة " على المشروع الاقتصادي. ولكن **زومبرت** يعدُّ جميع هذه الأسباب غير أساسية، ويرى أن السبب الرئيس، الذي جعلهم يُحققون عملية تشكل مجمل السمات التي تطبع اقتصاد الرأسمالية العالية التطور، إنما يكمن في ديانتهم.

كانت انعزالية اليهود بحد ذاتها، حسبما يرى **زومبرت** ، مرتبطة طبعاً بالموقف الذي اتخذته إزاءهم الشعوبُ المحيطة بهم، ولكنها لم تكن نتيجة لهذا الموقف، بل كانت سبباً له. ويورد أمثلة من مراحل عدة كان وضع اليهود خلالها مريحاً جداً (وقد سقنا أمثلة من هذا النوع في الفصول السابقة). ولكن ذلك لم يقلل بأي قدْر من عزلة الجاليات اليهودية . ففي إسبانيا العربية، على سبيل المثال، تقبّل المسيحيون بشكل قوي جداً مؤثرات الإسلام والثقافة الإسلامية، أما اليهود فكانوا متراصّين قومياً على نحوٍ لافت . وقد عبر عن أمزجة هذه البيئة ابنها الشرعي **يهودا غاليفي** الذي يُعَدّ أحد أشدِّ الشعراء اليهود الغُلاة في تعصبهم القومي.

ويرى **زومبرت** أن الرِّبا لعب دوراً مميزاً في تطور الرأسمالية . ويقول: "لقد انبثق روح الرأسمالية الأساسي من الربا". حقاً، إن الربا يستبعد أي عنصر ملموس . وفيه ينطبع النشاط النوعي، الاقتصادي كله، بطابَع الاتجار.

على أن الربا ليس عملاً بدنياً، ولا روحياً، قائماً من تلقاء ذاته، بل هو عمل يتمثّل مغزاه في نتيجته النهائية، أي في المال . ويجري التجسيد الهائل لروحية المراباة في البورصة بوصفها قلْبَ الاقتصاد الرأسمالي . إذ تصبح البورصة سبباً، والاقتصاد الواقعي نتيجةً. إن الفاعلية العالية للبورصة هي ما ينتج عنه مضاعفة الإنتاج، وهبوط أسعار الأسهم، والتدهور، والبطالة . ويكتسب هذا الوضع، في أيامنا هذه، طابعاً جامعاً، إذ غالباً ما يُطلَقُ على الاقتصاد العالمي المعاصر تعبير "اقتصاد الكازينو "، لأن المال المستثمر في المضاربات أكثرُ من المال الموظف في الاقتصاد الحقيقي.

وما يؤكد هذه النظرة إلى دور الربا هو الموقف المتميز الذي وقفته منه الكنيسة الكاثوليكية . فقد كافحته بضراوة، وكأنها كانت تستشرف فيه ما يهدم المجتمع الذي كانت هي (الكنيسة) أساسه، فلم يقتصر الأمر على وجود محكمة خاصة تهتم بأمور الربا، بل وكان يُقضى على رجل الدين بحرمانه من الرتبة الكنسية، وعلى ابن الرعية بمنعه من حضور القربان، إذا ما ثبت اقترافه ذنب التعامل بالربا . وكانت ثمة جملة كاملة من القواعد لمكافحة أشكال الربا المقنّعة . ومنها، مثلاً ، وجوب تسديد الدَين بعد انقضاء عام كامل بالتكام والكمال، وذلك لكي لا يسدد المدين من محصوله عندما تكون قيمته أكبر ؛ وكذلك يحظر على المدين أن يقدم للدائن أية خدمات (على شكل فائدة مبطّنة)...إلخ.

عندما كانت الرأسمالية الغربية في طور النشوء، كانت صورة اليهودي تتماهى مع صورة المرابي (عند **شكسبير وبوشكِن**، مثلاً).

ويرى **زومبَرت** أيضا أن ممارسة اليهود الربا، تلك الممارسة التي لعبت دوراً شديد الأهمية في طبيعة تأثيرهم على تطور الرأسمالية، لا يمكن إرجاعها إلى عوامل خارجية أساساً . (يتلخص التفسير الدارج في أن كنيسة القرون الوسطى حرّمت على المسيحيين إقراض المال بفائدة، وفي الحين ذاته كان العديد من مجالات العمل مغلقاً أمام اليهود).

لا يرى **زومبرت** في مجمل الأسباب التي يغلب عليها الطابع الخارجي أسباباً حاسمة، بل يعدها ثانوية ؛ أما أساس موقف اليهود الخاص من الحياة الاقتصادية في عزوه إلى ديانتهم على نحو ما هي مثبتة في *التوراة* و*التلمود*.

إذ تولي *التوراة* مكانة خاصة للربا، فقد جاء في وعود **يهوه** للشعب المختار : "*يباركك الرب إلهك كما قال لك فتقرض أمماً كثيرة وأنت لا تقترض وتتسلط عليهم وهم عليك لا يتسلطون*" (التثنية 15، 6).

كان التسليف في قديم الزمان يُعَدُّ عملاً منزّهاً عن الغرض عند الجميع. ولكن *التوراة* تقصر هذا المطلب على جماعتها حصراً، إذ أنها تبيح أخذ الفائدة من الغرباء . بيد أن جواز الفائدة على القرض الممنوح لأبناء دين آخر تحوَّل أواخرَ القرون الوسطى إلى إلزام، كما يرى **زومبرت** (ما يسمى بالوصية 798 في **شولحان عاروخ**). ويشير **شاحاك** إلى أن القرض بلا فائدة يعادل الهدية، بمقتضى نصوص **الهالاخاه**، ويوصَى به لليهود أبناء دينهم، ويقابَل بالشجب إذا ما أعطي لغيرهم. يقول (**شاحاك**):

"إن الكثير (وليس الجميع) من المرجعيات الحاخامية – ومنهم **ابن ميمون** – يرون أن طلبَ فائدة ربوية بأعلى نسبة ممكنة من المستدين غير اليهودي، أمرٌ إلزامي".

ويتبين من سفر **نحميا** (5، 4 – 8) وجود فئة نافذة من المرابين آنذاك. ولكن من الطببعي أن عمل الربا هذا لم يأخذ مداه الحقيقي إلا في الدياسبورا (الشتات اليهودي). ويفرد *التلمود* مكانة استثنائية لتقنية المراباة، فلا تحتل فيه مكانةً أكبر منها إلا دراسة *التوراة*، كما يقول **زومبرت**. وابتداء من زمن الحروب الصليبية غدت المراباة، حسب وجهة نظره، شغل اليهود الأساسي.

تتدرج المراباة في عداد آثام البشر الشائعة، شأنها في ذلك عموماً شأن ما ينساق إليه الإنسان، تحقيقاً لمنفعته الخاصة، من مخالفة المعايير الأخلاقية المتواضَع عليه ا. ويقول **زومبرت** إن معبد دلفي في اليونان القديمة، وأديرة القرون الوسطى، كانت تمارس المراباة أيضاً. ويورد العديد من شهادات أبناء تلك الأزمنة على تصرفات التجار المسيحيين غير الحميدة. ولذلك فإن النجاح الفعلي غير مشروط هنا بوجود الذات (الفاعل) المستعدة للإقدام على مثل هذه التصرفات، بل بإمكانية تحقيق هذا النجاح. ويعزو **زومبرت** النجاح الذي أصابه اليهود إلى أن مخالفة معايير أخلاقيات العمل لم تكن بالشيء الذي يؤبه له أو تدور أحايثهم حوله بتاتاً. فالمسألة تتمثل، من وجهة نظرهم، في الأخلاقيات "العقلانية"، "العملية"، و"الحق الحقيقي" الذي يُخضع النشاط الاقتصادي لأولوية "الشغل"، والدخل. ولذلك فإن النجاح في هذا المجال لم يكن في أوساطهم من نصيب الضعفاء الذين يتراجعون أمام الإغراءات، بل من نصيب الأقوياء المفعمين حماسة وإيماناً بمبادئ قديمة تقدسها مرجعياتهم.

وقد كان المقصود، في اعتقاد **زومبرت**، هو تصادم منظومتين من المعايير الأخلاقية والحقوقية تقعان على طرفي نقيض. فقد كان القانون الروماني أو الجرماني ينظر إلى جميع الالتزامات بوصفها التزامات شخصية الطابَع حصراً، ويرى أن السعر يتحدد انطلاقاً من مقولة "عدالة السعر" التي لها طابع شخصي أيضاً. أما في *التلمود* فإن التعهد مفهوم متجرد عن الإنسان، ويمكن انتقاله إلى شخص آخر، ويصبح لحامل التعهد حق استرجاعه حين الطلب. وإذا كان ثمة وجود لمفهوم "عدالة السعر" هناك، فهو يقتصر على أعضاء الجماعة. أمّا في التعامل مع الغرباء فيسقط المفهوم الخاص بـ "عدالة السعر"، ويكون السعر هو ما يمكن الحصول عليه في الواقع. ويورد **زومبرت** واحداً من الأمثلة التي تبين تعارض هاتين المنظومتين الأخلاقيتين، ألا وهو الموقفَ من المُلكية. لقد كان القانون الروماني، وقوانين ال عديد من الشعوب في القرون الوسطى، ينظر إلى الملكية بوصفها مسألة شخصية أكثر مما هي عليه الآن بكثير، وكانت تُعَدُّ "استمراراً للإنسان" أكثر مما تعدّ كذلك الآن. وفي هذا الصدد فإن التجريد من الملكية يُعد أمراً مخالفاً للطبيعة، يعمل القانون عادة على الحيلولة دونه. أما في *التلمود* فالموقف على العكس من ذلك تماماً. أي أنه، بمقتضى القانون الجرماني في القرون الوسطى، إذا باع السارق ما سرقه توجب إعادة المسروق إلى صاحبه الأول دون مقابل، في حين أن *التلمود* يعدّ المسروق ملكاً لمن اشتراه من السارق، وليس بمقدور صاحبه الأصلي استرداده إلا بدفع فدية. وهذا يعني أن الحالة الأولى تفترض وجود علاقةٍ ما بين المالك والشيء لا تنتفي بدعوى أن أحداً ما دفع لقاءه مبلغاً من المال (يمكننا مقارنة ذلك بالموقف من طفل مختطَف)، أما في الحالة الثانية فيحسم الموقف بدفع ثمن الشيء من جديد.

ويشير **غريتس** أيضاً إلى التباين الجذري بين الأخلاقيات الاقتصادية عند ال يهود ومثيلاتها في المجتمع المسيحي، فيقول في كتابه *"تاريخ اليهود"* عن اليهود البولونديين:

"كان لزاماً على العالَم غيرِ اليهودي أن يقتنع، لسوء حظه، بأفضلية شريعة اليهود البولونديين التلمودية".

وينبغي الاعتراف بأن هذا القانون قد انتصر فعلاً على النطاق العالمي؛ فـ "المجتمع الصناعي" الذي انتشر الآن في العالم بأسره عملياً، يقوم على أساس هذه الأخلاقيات الاقتصادية التلمودية تحديداً، كما يؤكد **زومبرت.**

شعرت شرائحُ عريضة من السكان بالصلة القائمة بين توطد النمط الجديد للمجتمع من جهة ، والنفوذ اليهودي من جهة ثانية . وقد سارت هذه العملية بمجملها على نحو مؤلم جداً، ولاقت مقاومة واسعة من قبل الشعب . والمثال المعروف للجميع هو الحركة التي تزعمها **سافانارولا** في فلورنسا . على أن الأمر لم يقتصر يومها – أواخر القرن الخامس عشر – على هذه الحركة وحدها، بل عمت إيطاليا بأسرها حركات من هذا النوع. وظهر في كل المدن الكبرى تقريبا (جنوة، بادوا، لوكي، بولونيا، كريمون، فلورنسا) دعاة يحتجون ضد عملية تفكك ثوابت المجتمع القديم التي عمت البلاد. وقد حمل هؤلاء حشوداً من الناس على السير وراءهم . وكانت المطالب التي طرحتها هذه الحركات شديدة التجانس ، إذ كانت تنطوي بشكل دائم ، تقريباً، على المطالبة بتحريم الربا ذي الفائدة العالية (التي وصلت إلى 100 بالمئة)، وبسن قوانين تقيِّد حرية المرابين اليهود، أو حتى تطالب بطرد اليهود. يقول **س. روث،** المتخصص بالتاريخ اليهودي، إنه ما من مدينة كبيرة واحدة في إيطاليا خلت آنذاك، على ما يبدو، من تحركات معادية لليهود. وطرح الراهب **فارافا انترمينزس** فكرة الرهن الذي يقوم على التبرعات ويمنح قروضاً بفائدة دنيا هي 5 بالمئة، بل وحتى بلا مقابل . وسُمّي هذا النوع من الرهن **مونتي دي بييتا** . وقد خاض صراعاً محموماً في هذا السبيل راهب آخر ، هو **برناردينو دا فيلترو** ، الذي طالب بأن توضع فكرة هذا الرهن حيِّز التطبيق، فاصطدم بمقاومة ضارية من قبل كبار الأثرياء . لقد كان يُطردُ من بعض المدن، وينتصر في بعضها الآخر، وخاصة في فلو رنسا التي أُتُّخذ في العام 1487، وبتأثير منه، قرار بتأسيس بنك من هذا النوع فيها . ولكن اليهود توصلوا مع **لورينتسو ميديتشي** ، حسبما يرى بعض معاصريه، إلى إلغاء هذا القرار وإبعاد **دا فيلترو** مقابل رشوة مقدارها 20000 غولدن. وقد قام **سافانارولا** فيما بعد بعمل مماثل، ولكن نجاحه لم يعمِّر طويلاً أيضاً. ومن الطريف أن نشير هنا إلى أن إطاحة **سافانارولا** وإعدامه كانا من عمل يدي **البابا الكسندر بورجيا السادس** المتحدِّر من أصل يهود إسبان متنصِّرين. بل وكان أعداؤه يتهمونه بأنه من "**المرّان**"، أي ممن تنصروا تقية، وظل على ديانته اليهودية في السر . (جاء هذا الاتهام من قبل البابا ال تالي **يوليوس الثاني،** وورد في مدونات **سيغيزموند تاتسيو** للعام 1492).

وهكذا راحت تقتحم العالم قوتان – هما الرأسمالية والنفوذ اليهودي – وتحطمان ما تواجهانه في طريقهما من مقاومة.

مراجع الفصل السادس :

1 – زومبَرت ف. البورجوازي. موسكو 1994

2 – Sombart w. Die Juden und das Wirtschaftleben. Munchen u. Leipzig, 1928

3 – Neuman M. Geschichte des Wuchers in Deutchland. Halle, 1865

4 – Graets H. Geschichte der Juden, Bd, 10

5 – Roth c. The Jews in the Renaissance. N.j.1959

6 – فيلاري. سافانارولا وعصره. سان بطرسبورج، 1913

الفصل السابع

الانعتاق والنضال من أجل المساواة في الحقوق

شهد القرنان الـ 18 والـ 19 انعطافة حادة في وضع يهود أوروبا . وقد تمثلت هذه الانعطافة ، على وجه التحديد، بظهور حركة تتنامى سريعاً وسط اليهود، وتهدف إلى إخراجهم من عزلتهم وتقبُّلِ ما لدى الشعوب التي يعيشون بين ظهرانيها من ثقافة ونمط حياة. وأكسب هذا التيارُ الجالياتِ اليهوديةَ في أوروبا طابَعاً جديداً كل الجدة. وبالتوازي مع ذلك اشتد النضال في سبيل مساواتهم أمام القانون . وقد ظفروا بهذه المساواة حقاً خلال القرن التاسع عشر في معظم البلدان الأوروبية.

غالباً ما يطلق في أوساط الشعوب الأوروبية تعبير "**الانعتاق**" على تبني اليهود لنمط حياة هذه الشعوب . ويسمى هذا التيار في الأوساط اليهودية "**هَسْكَلاه**"، كما يُسمّى أنصاره "**مَسْكِليم**".

ما من شك في أن هذا الانقلاب كان مرتبطاً بتزايد نفوذ اليهود الاقتصادي. فقد راح رجال الأعمال اليهود منذ القرن السادس عشر، وعلى نحو منهجي منذ القرن السابع عشر، ينشطون في مجال من مجالات الأ عمال جديد عليهم تماماً هو مستعمرات البلدان الأوروبية . وسرعان ما أصبح اليهود فئة مسيطرة في **البرازيل**، حيث أحكموا قبضتهم على مزارع قصب السكر التي كانت عماد الاقتصاد في هذا البلد . وكذلك الأمر في **جامايكا** حيث باتوا في وضع المسيطر. فكان التجار المسيحيون يتذمرون من أن اليهود يزيحونهم من مواقعهم . وقد جاء في مقالة في الموسوعة اليهودية أن "**المرّان**" في المستعمرات ساعدوا، أكثر ما ساعدوا، في تطويرالتجارة ، وأن نشاطهم شمل المنطقة الزراعية وامتد إلى كامل المجالات الدولية... وفي حالات كثيرة للغاية كان **المرّان** يتناسون السيادة الإسبانية، فينزعون القناع عن وجوههم ، ويعودون إلى يهوديتهم علناً . وقد جاء في تقرير ديوان التفتيش من أميركا الجنوبية في العام 1636 أنهم "أصبحوا يسيطرون على التجارة كلها في المملكة : بدءاً من الديباج وحتى الجنفاص الخشن، ومن الألماس حتى الكَراوية... كل شيء يمر عبر أياديهم". وقد شنت **هولندا** في القرن السابع عشر حرباً على **البرتغال** من أجل السيطرة على **البرازيل**. فاعتمد الهولنديون في ذلك على دعم اليهود المحليين . وبعد أن استولوا على *ريسيف* "أصبح عدد اليه ود في *ريسيف* يفوق عدد المسيحيين مرتين ". "لقد كان اليهود يديرون تجارة ضخمة، ويمتلكون مصانع السكر والمباني. كما كان **غاسبر دياس بيريرا** يعد الثري الأكبر ". ولكن الغلبة كانت للبرتغاليين في نهاية المطاف، فانقلب الأمر وبالاً على اليهود . وعندئذ انتقل مركز ثقل الجالي ة اليهودية إلى أميركا الشمالية التي ازداد نفوذهم قوة فيها. وتسترعي الانتباه في هذا المجال قصة استيطان الجالية اليهودية في **نيويورك** (كانت آنذاك مستعمرة هولندية). ففي عام 1635 وصلت إلى *هدسون* سفينة تقلُّ يهوداً نازحين من البرازيل. ولم يشأ المحافظ **ستيوفيساند** في البداية السماح لهم بالاستيطان في المستعمرة ، ولكنه تلقّى من شركة الهند الغربية أمراً تحضه فيه على الاستجابة لطلبهم "نظراً لرؤوس أموالهم الضخمة المودعة في الشركة". كما أن أولى محاولات اليهود للحصول على حق المواطنة في **ماساشوسيتس (آرون لوبيز** عام 1762) وفي **نيويورك (إسحاق إيلزِر** عام 1763)، اصطدمت هي الأخرى بمقاومة من هذا القبيل . ونجمت

الإشكالات آنذاك عن صيغة اليمين القانونية التي أقرّت رسمياً ، وتتضمن عبارة "وَفقاً للدين المسيحي الحقيقي...". وفي نهاية المطاف أُدخِلت على نص القسم تعديلات جعلت اليهود يقبلون.

تزايد النفوذ المالي اليهودي في القرنين الـ 17 والـ 18 حتى غدا عاملاً هاماً في السياسة الأوروبية . فقد كان اليهود يمولون، وعلى نطاق واسع، ملوك العديد من الدول الأوروبية آنذاك (وخاصة الألمان)، وبذلك يوفرون لهم الفرصة لممارسة سياستهم بقدْر أكبر من الاستقلالية عن النبلاء وسكان المدن، وبالتالي الفرصة لتشديد نزعات الحكم المطلق . وكان دور اليهود قوياً على نحو خاص في تمويل الجيوش، عبر تزويدها بالأسلحة، والذخائر، والمواد التموينية . وكان "الأمير واليهودي" (Furst und Jud) يمثلان التحالف النموذجي الشائع في الدويلات الألمانية، علماً بأن الطرف الثاني ("اليهودي") كان يمسك مالية الدولة بيديه . وهكذا ظلّ **آل أوبنهايمر**، مثلاً، مصرِفيين في بلاط القصر الإمبراطوري بفيينا على مدى أكثر من مائة عام . وفي بروسيا كان الأمير الأعظم **فريدريك ويلهليم** يستفيد من خِدْمات رجال المال **هومبيرتس، وفايت، وريس، وآرون، ويروند وولف** . أما ابنه **فريدريك الأول** فقد عهد بالشؤون المالية إلى **ليبمان،** كما أن **فردريك الأعظم** عهد بها إلى **يفرايم.**

كان من الطبيعي أن يزداد تعاظم ارتباط اليهود الأثر ياء بحياة البلد الذي يعيشون فيه . وكان الكثير من الأمور يتوقف عليهم، إذ كانو ذوي علاقات ونفوذ. ولم يكن من النادر أن يلجأ النبلاء بالشكوى إليهم . فثمة إذن جملة من العوامل التي حملتهم على الخروج من عزلتهم، وذلك على صعيدي الحياة السياسية والثقافية أيضاً.

ظهر في المجتمع الأوروبي بدءاً من أواسط القرن الثامن عشر ، وبالتزامن مع التحركات المنطلقة من البيئة اليهودية، تيارٌ آخر أخذ على عاتقه إعادة النظر بوضع اليهود جذرياً . وكان مركز هذا التيار موجوداً في ألمانيا التي كان يقطنها القسم الأعظم من يهود أوروبا الغربية آنذاك . وراحت الكتب تصدر الواحد بعد الآخر، ويتوالى إخراج المسرحيات التي تسعى لإثبات عبث ية الخرافات المعادية لليهود، وللبرهان على سمو مبادئ اليهود الأخلاقية، وتفوقهم – في كثير من الأحيان – على المسيحيين في هذا المجال.

وكان **لِسِّنغ** الشخصية الأبرز في هذا التيار . فعندما كان **لسِّنغ** لا يزال كاتباً ناشئاً، في الثالثة والعشرين من عمره، وضع مسرحية سمّاها *"اليهود"* . وتتحدث هذه المسرحية عن رحّ الة خلّص أحد البارونات من أيدي قطاع الطرق. غير أن صاحب الحانة المريبة هناك يطلق شائعة تقول إن قطّاع الطرق هؤلاء هم من اليهود، بل وزعم أن الناس رأوا لحاهم التي تدلّ على يهوديتهم . ولكن هذا الرحالة ينتشل في اللحظة ذاتها لحية زائفة من جيب صاحب الحانة، وبذلك يفضح أمرَه وأمر صديق له بوصفهما قطاع الطرق المزعومين وعند ذلك يعرض البارون على الرحالة نصف ثروته ويد كريمته. إلا أن الرحالة يقول له إن "رب آبائه قد أعطاه ما يكفي من المال "، وأنه يهودي. وهنا يهتف البارون قائلاً : "آه، ليت كلَّ اليهود مثلك !". ويرد الرحالة : "آه، ليت كلَّ المسيحيين مثلك !".

كان هذا العمل الأدبي نموذجاً شائعاً، إذ نرى الموقف ذاته يتكرر في صيغ عديدة . فقد راحت الصحف تتحدث عن أعمال البرّ النبيلة عند اليهود. وبلغت مسرحية **لِسِّنغ** الشهيرة *"ناتان الحكيم"* الأوج في هذا المجال. إذ تدور أحداث هذه المسرحية في بلاط السلطان **صلاح الدين** ، حيث يلتقي ممثلو الديانات السماوية الثلاث : اليهودية والمسيحية والإسلام . إن الهدف الظاهر الذي يرمي إليه المؤلف هو الترويج للتسامح الديني ، والسعي للبرهان على أن بمقدور الإنسان البحث عن الرب بالسير في أي من هذه الدروب الثلاثة، وبالقدْر نفسه من النجاح .

ولكن يتبيّن أن الأقل قدرة على ذلك هم المسيحيون ، إذ إن المسرحية تصور بطريرك القدس متزمتاً وحاقداً على نحو لافت . أما أكثر الثلاثة عمقاً وحكمة فهو بطل المسرحية **ناتان الحكيم** الذي نراه، على سبيل المثال، يصرف النظر عن أن المسيحيين قتلوا أولاده السبعة ، ويخلع الهدايا على جميع المسيحيين الذين يحجُّون إلى مهد السيد المسيح (وهذا غلوٌّ في المبالغة ظاهر للعيان). وتتمثل ذِروة المسرحية في سرد **ناتان** الحكاية الشهيرة عن الخواتم الثلاثة . إذ تقضي التقاليد في إحدى العائلات بأن تتوارث الأجيال، أباً عن جدّ، خاتماً قديماً . وذات مرة لم يشأ الأب أن يكدِّر أحداً من أبنائه الثلاثة فطلب صنع نسختين مطابقتين عن الخاتم الأصل، وبذلك ترك لكل من أبنائه خاتماً واحداً . على أن الأبناء ما زالوا حتى الآن يتجادلون : مَن منهم يحمل الخاتم الأصل؟.. يبدو ، للوهلة الأولى، أن مغزى الحكاية يكمن في الدعوة إلى التسامح الديني، وأن الخواتم ترمز إلى اليهودية والإسلام والمسيحية . ولكننا نستطيع أن نلحظ المعنى الكامن بين سطور هذه الحكاية ، وهو أنه ما من خاتم حقيقي بالفعل بين الثلاثة إلا واحد فقط، هو الخاتم الأقدم الذي يرمز إلى الديانة اليهودية بجلاء.

و كان **موزيس مندلسون**، من الجانب اليهودي، الشخصيةَ التي تتمتع بالقدْر نفسه من النفوذ في هذا التيار . وهو صديق مقرّب من **لسِّنغ** وتِرب من أترابه صوّره تحت اسم **ناتان الحكيم** . كان **مندلسون** فتى في الرابعة عشرة من عمره عندما ترك المدرسة الدينية اليهودية و سافر إلى برلين . وبناء على نصيحة مرشده الحاخام **هيرشل فرنكيل** شرع **مندلسون** بتعلم اللغة الألمانية، الأمر الذي كان نادراً بين اليهود آنذاك . ثم أقام **مندلسون** علاقات مع رجالات التنوير ، أمثال رئيس أكاديمية برلين **موبيرتويه ولسِّنغ** . واستهل نشاطه بكتابة المقالات ونشرها .

وقد تزعّم **مندلسون** تلك الحركة التي أسّسها هو في الوسط اليهودي، وكانت تضع نُصب عينيها هدفاً يتمثّل في الاندماج بالثقافة الأوروبية ، والظفرِ بالمساواة في الحقوق في المجتمع الأوروبي . على أن الخطوة الأولى على هذا الطريق تجسدت في إتقان اللغة الألمانية وتبني نمط الحياة الألماني . وقد روج **مندلسون** لفكرة جريئة تقول إن التقاليد اليهودية القديمة لا تتناقض مع أفكار التنوير ، بل يمكن أن تتآلف معها . ثمّ ترأّس جمعية *"اليهود الطليعيين"* التي جعلت من هذه الفكرة عماداً لها . وكان هؤلاء يرون أن الاندماج المثالي يتحقّق عندما يصبح اليهود مثلهم مثل غيرهم من الألمان، لا يختلفون عنهم، فيصيرون "ألماناً يدينون بـ "شريعة موسى". وطبيعي أن **مندلسون** كان عدواً لكل مخططات العودة إلى فلسطين، فهو يحذّر من تمويل أية مشاريع من هذا القبيل، ويحاول إقناع الآخرين بأن الذهب وحده لا يمكن أن يضمن العودة . وبرؤية مستقبلية باهرة كتب يقول : "يبدو لي أن مشروعاً كهذا لن يكون قابلاً للتنفيذ إلا إذا انجرّت الدول الأوروبية العظمى إلى حرب شاملة".

لقد حظي **مندلسون** بدعم حارّ في أوساط التنويريين الألمان . وبالرغم من أنه لم يتعلم اللغة الألمانية في طفولته، واعترف شخصياً بأن مادة النحو كانت عسيرة عليه دائماً ، فقد عمل ناقداً في مسائل الأدب الألماني على صفحات مجلتَي **لسِّنغ ونيكولاي**. وساند **لِسِّنغ** في نضاله من أجل التسامح الديني والاعتراف بما للدين اليهودي من مزايا روحية سامية. غير أن ثمة فروقاً بين موقفيهما تظل جوهرية، ذلك أن **لِسِّنغ** يحذّر ، مثلاً ، في حواريته الماسونية *"إرنست وفالْك"* من خرافات الوطنية . ويؤكد في *"تربية الجنس البشري "* أن الله ربّى اليهود ليكونوا هم المربين للبشرية في المستقبل. أما **مندلسون** فينبري وطنياً يهودياً شديد الحمية، ويسارع فوراً إلى الرد

على أي اتهامات تصدر بحق اليهود (مثلاً، ردُّه على كرّاس حول ممارسة اليهود الربا في الإلزاس الفرنسية). فقد كتب يقول إنه إذا كان لا بد من الاختيار بين أن ينال اليهود المساواة في الحقوق أو أن يقطعوا صلتهم بالتقاليد الدينية، فإن عليهم، ولو آسفين، أن يرفضوا المساواة في الحقوق . وبينما كان **لسِّنغ** يدعو إلى المساواة بين الأديان نجده ينشر في مجلته مقالات معادية للمسيحية . أما **مندلسون** فيتحدث دائماً عن اليهودية بإعجاب، بينما يتحدث عن المسيحية باستهتار أحياناً. فهو يتصدى، على سبيل المثال، لقسيس يقول إن معجزات المسيح حقيقية، وحجته – غير الموفقة – أن معاصري المسيح كانوا شهوداً عليها. وفي تصديه ذاك يضرب **مندلسون** مثلاً بيهودي محتال كان يدّعي القدرة على صنع المعجزات ثمّ افتُضِح أمره ، وكان يقبع في السجن آنذاك . وطبعاً، صفق له أنصار التنوير الغيورون إعجاباً ببراعته في "الإجهاز على القس".

لم يكن **لسِّنغ** إلا الممثل الأكثر سطوعاً لهذا الاتجاه. على أن **مونتسكيو** يقول في *"روح القوانين"* إن موقف المسيحيين من اليهود سيبقى عارَ هذا العصر إلى الأبد. أما **ميرابو** الذي جاء إلى بروسيا بمهمة سرّيّة ، إمّا حكومية أو ماسونية، فكتب أهجية بعنوان *"عن* **موزيس مندلسون** *وتغيير وضع اليهود "*. ونشر الموظف البروسي الكبير **كريغسرات فون دوم** كتاباً دعا فيه لمنح اليهود المساواة في الحقوق . وعندما رفع الإمبراطور **يوسف الثاني** بعض القيود عن اليهود، بجَّله **كلوبشتوك**، الشاعر الشهير آنذاك، بقصيدة عدَّ فيها تصرفه هذا نبراساً لغيره من الأمراء . وأعلنت الأكاديميات عن مسابقات لكتابة مواضيع عن انعتاق اليهود . كما ظهرت أعمال من الاتجاه المعاكس أثارت بدورها اعتراضات من الجانب الألماني ومن الجانب اليهودي سواء بسواء . وصدر الكثير من الكراريس ، منها ما هو "مع اليهود"، ومنها ما هو "ضد اليهود". وكل هذه الأدبيات كانت "تتدفق كالشلال"، كما يقول **غريتس**.

ولكن ما التفسير، إذاً، لاجتذاب المسألة اليهودية مثلَ هذا الاهتمام غير العادي في تلك الفترة بالتحديد؟ ممّا لا شك فيه أن اليهود المنعزلين داخل "الغيتو" كانوا في وضع غريب يهين الكرامة الإنسانية بنظر الأوربيين المحيطين بهم، الأمر الذي كان يثير استنكارهم الطبيعي جدا . كما أن روح التنوير والمجتمع البورجوازي الجديد التي كانت تتغلغل في كل مكان حطمت ثوابت نمط الحياة التراتبي القديم، وأرغمت المرء على النظر إلى جميع الناس بمنظار واحد؛ الأمر الذي كان لا بد أن يلعب دوراً في هذه المسألة.

على أن المذهل في الأمر هو أن القسم الأكبر من الفلاحين الألمان، والعديد من سكان المدن، كانوا ما يزالون أقناناً في ذلك الوقت بالذات . غير أن وضعهم هذا لم يستدعِ ذاك "الشلال" الذي تحدث عنه **غريتس**. علماً بأنهم يدينون بالدين نفسه، ويتكلمون اللغة ذاتها، وكانوا في العديد من المواقف أكثر من اليهود قرباً للمنورين الألمان (وللفرنسيين أيضاً)، وبالتالي كان ينبغي أن تحظى حياتهم الشاقة بفهم أكثر وضوحا ورهافة . إلا أنه، فضلاً عن الأسباب العامة المذكورة أعلاه، كان ثمة، إذاً، أسباب فاعلة أخرى، هي التي حددت من يكون موضوعَ التعاطف. وأحد هذه الأسباب واضحٌ للعيان: إنه نفوذ اليهود المتعاظم القوة في مجال أموال البلاد واقتصادها؛ وسعيهم لتوطيد هذا النفوذ بحصولهم على الحقوق نفسها التي يتمتع بها باقي السكان . لقد كانت قدراتهم عظيمة حقاً. يقول **ميرابو** في كتابه *"المَلكية البروسية"* :

"إن التجار وأصحاب الفبارك الذين ينفردون بامتلاك ثروات كبيرة في الأقاليم الألمانية هم اليهود . بل وبينهم من يملك الملايين".

ويؤكد **غريتس** أن ثروات اليهود في برلين فاقت كثيراً ثروات سكان المدينة المسيحيين . ولذلك فلا د اعي للاستغراب إذا ما كان **ميرابو** الذي زار بروسيا لفترة قصيرة، قد تجاوب، بذاك القدْر من الرهافة، مع مسألة حق اليهود في المساواة. لقد كان مديناً للمرابين اليهود دائماً. وكذلك الأمر بالنسبة **لليسّنغ** الذي ما إن كتب مسرحية *"اليهود"*، حتى حصل على عمل يعود عليه بدخل وفير في مجال لم يكن يعدُّ على قدر كبير من النظافة ، إذ كان يتّصل بصك النقود، ويديره المصرفي **يفرايم**. وعندما كتب **لسّنغ** مسرحيته *"ناتان الحكيم"* حصل على سُلفة من تاجر يهودي من مدينة هامبورغ هو **موزيس فيسيلي**. وتمكننا هذه الخطوط العريضة من أن نتصور الوضع على نطاق أوسع. إذ لما لم يكن "أصحاب المهن الحرة"، كالكتَّاب والصحفيين والممثلين، على قدْ ر من اليسر المادي، فإن الدعم المالي كان يعني الكثير جدًا بالنسبة لهم. بل إن أمراء الاقطاعيات كانوا أيضاً سريعي التأثر بمثل هذه الدواعي . ففي مطلع القرن التاسع عشر دفع **آمشيل روتشيلد**، وهو مصرفي من فرانكفورت على الماين، مبلغ 400000 غولدن **للدوق الأعظم دالبرت** مقابل أن يمنح يهود فرانكفورت حقوقاً على قدم المساواة مع بقية السكان.

وبإمكاننا أيضا أن نرى سبباً آخر يستدعي كل هذه الحركة . فحينما تظهر إيديولوجيا معادية للإيديولوجيا التقليدية، وتسعى لتفكيكها، وإرساء فهم للحياة لا ينطلق من جذور الشعب التاريخية (وإنما يقوم على أساس المنطق والعقل كما في مرحلة الأنوار، مثلاً)، يكون من الطبيعي أن تبحث هذه الإيديولوجيا عن حليف لها داخل رؤية للعالم لا يربطها بهذه الجذور رابط من أي نوع، بل تكون في حالة عداء معها على ا لأرجح. وقد وجدت الإيديولوجيا المعنية هذا الحليف في الديانة اليهودية وفي تقاليد اليهود . وهكذا، ظهر في زمن **الثورة البيوريتانية** في إنكلترا نزوعٌ مبهمٌ، إيديولوجيٌ محضٌ، نحو اليهودية؛ لأن اليهود كانوا قد طردوا من إنكلترا في القرن الثامن عشر . وكان **كروموبل** يحلم باندماج العهدين القديم والجديد، واندماج الشعب اليهودي المختار مع الجماعة **البيوريتانية**. ولقد أعلن الداعية البوريتاني **ناتانئيل هوميزيسوس** أنه يتمنى أن يخدم إسرائيل كعبد . وكان أعضاء التيار المتطرف آنذاك، الليفيليريون (أي دعاة المساواة . – م) يهوداً. كما أن ضباط **كروموبل** اقترحوا عليه تشكيل مجلس دولة يتألف من 70 عضواً محاكاة **للسنهدرين (السنيدريون)**. وجرى طرح مشروع على البرلمان لجعل العطلة الأسبوعية يوم السبت، بدلاً من يوم الأحد. أما **هاريسون**، العضو المعمداني (من طائفة المعمدانيين) في البرلمان، فطالب مع مجموعته بتطبيق شريعة موسى في إنكلترا.

إذا كان هذا التيار في إنكلترا القرن السابع عشر غير مرتبط بمصالح اليهود الواقعية (إذ رفض **كروموبل** محاولة مصرفيّ ٍ يهودي من أمستردام ، هو **موناسيا إسرائيل**، طلب تهجير مجموعة كبيرة من اليهود إلى إنكلترا)، فإن الحافزَين كليهما (اهتمام غير اليهود بالعهد القديم، ومصالح اليهود الواقعية) كانا يفعلان فعلهما في الوقت نفسه في أوروبا القرن الثامن عشر (وخاصة في ألمانيا). ورأى الأوروبيون "ذوو التفكير الحر" في اليهود حليفاً لهم في نضالهم ضد "خرافات المجتمع القديم"، و"ظلامية المسيحية"، و"استبداد القساوسة". وبدأت في ألمانيا "حقبة الصالونات"، فتحولت منازل الأثرياء اليهود إلى مراكزَ تجتذب ممثلي الأرستقراطية ، والكتّاب،

والفلاسفة ، والممثلين المفعمين بأفكار التنوير . وكان صالونا **هنريتا هرتس وراحيل ليفينا** في برلين أكثر الصالونات نفوذاً . فيما أصابت صالونات **دوروتيا فايت، وماريانا ماير** وغيرهما قدراً أقل من النجاح . وكان يتردد على هذه الصالونات أرستقراطيون، وأفراد من الأسرة المالكة (بينهم الأمير ولي العهد نفسه) ورجالات دولة، ودبلوماسيون، وعلماء، وكتّ اب، وفلاسفة ، ومنهم : **شليرماخر، وفوكه، وشاميسو ، وشليغل ، وألكسندر وويله يلم هومبولدت** . وعلى غرار ذلك كان في فيينا صالون **فانّا إيتسغ** ابنة المصرفي **إيتسغ** وزوجة **ناتان آرونشتاين** الذي رقِّي إلى بارون. وقد التقى عندها في أثناء مؤتمر فيينا دبلوماسيون من البلدان كافة . ونشأ في هذه ا لصالونات مختبر يصنع الرأي العام ، فكان بوسع مَنْ هو "مِنَ الجماعة" أن يأمل بتأييد حارّ من قبل الصحافة. وكان يزوَّ د برسائل توصية عندما يسافر إلى مدينة أخرى . وفي هذه الصالونات كان يجري إرساء أسس السمعة، وتدبير فرص النجاح، والترقي في العمل . ومنها انطلق، مثلاً ، مجد الشابين **هاينه وبيرنه**. وفي نهاية "حقبة الصالونات" كتب **بيرنه** يقول:

"من المذهل حقاً أنه ما من أحد هنا يشرع أبواب بيته أمام الآخرين، سوى اليهود أو اليهود المتنصِّ رين. فالمسيحيون لا يفعلون ذلك لأن الأثرياء بينهم قلة. والموظفون لا يملكون ما يكفي من المال لهذا الغرض".

ولم يتمثل نجاح هذا النشاط في نيل اليهود حقوقَ هم السياسية بقدْ ر ما تمثل في تزايد تأثيرهم على حياة المجتمع الثقافية وإيديولوجيته تزايداً سريعاً. فأخذت المدارس والجامعات الألمانية تفتح أبوابها أمام اليهود، وظهر أدب يهودي (مكتوب للقارئ اليهودي) باللغة الألمانية . ومن دلائل نفوذ اليهود في المجتمع الألماني المثقف، مثلاً، أن الممثل الشهير **آليك** بدأ عرض مسرحية *"تاجر البندقية"* في العام 1788 باستهلال أكد فيه للنظارة أن الممثلين لا يريدون إطلاقاً تقديم غذاء للخرافات القديمة. وكتب **فيختة** في العام 1793 يقول:

"أعلمُ أن التهجم على الأخلاق والدين، وليس على الأمة اليهو دية، يُعدّ أمراً جائزاً في كثير من الأوساط العلمية".

وفي واقع الحال، باتت الآراء السلبية بشأن اليهود محفوفة بالمخاطر آنذاك، ففي العام 1803 نشر **ويلهيلم غراتيناور** كراساً بعنوان *" ضد اليهود . كلمة تحذير لكل مواطنينا المسيحيين "*، عبّ رَ فيه عن معارضته منْ حَ اليهود المساواةَ في الحقوق . فظهرت، طبعاً ، بضعة اعتراضات . وكتب مستشار الدولة إلى رئيس الوزراء يقول إنه يرى أن كراس **غراتيناور** ما كان ينبغي نشره . وفي أيلول / سبتمبر 1803 أصدر الملك **فريديرك ويلهيلم** مرسوماً يحظر مناقشة المسألة اليهودية في الصحافة. وبذلك حُرِم **غراتيناور** من إمكانية الرد على ما تعرَّ ض له من تهجمات. ولم يسفر عن أية نتيجة كلُ ما قدمه من التماسات للسماح له بنشر رده . وكتب رئيس الوزراء إلى المستشار قائلاً إن مقالة **غراتيناور** كانت، في تقديره، مثيرة للاشمئزاز . وفي العام 1804 صُرِف **غراتيناور** من المحكمة التي كان موظفاً فيها . وبقي مع أسرته الكبيرة دون أية موارد للعيش . وبالتزامن مع ذلك أقام دائنوه جميعاً دعاوى قضائية عليه. وتتويجاً لهذه القصة تعرض لضرب مبرح في الشارع...

كانت قضية منح اليهود المساواة في الحقوق السياسية تتقدم ببطء أكبر . فقد أقر البرلمان الإنكليزي في العام 1753 قانوناً يجيز لليهود (أي لمعتنقي الديانة اليهودية) التجنس واكتساب حق المواطنة الإنكليزية . ولكن هذا القرار أثار احتجاجات عديدة وعاصفة . وخَشية أن تسفر ا لانتخابات المقبلة عن نتائج سيئة ، مررت الحكومة

عبر البرلمان مشروع قانون جديد يلغي القانون الذي كا ن أُقِرَّ قبل فترة وجيزة . ومن الطبيعي أن الثورة الفرنسية، ومبادئها في المساواة والإخاء، أحيت لدى اليهود الأمل بنيل المساواة أمام القانون . وكان عدد اليهود في الأقاليم الفرنسية الأساسية قليلاً (حوالي 10 آلاف يهودي)، بينما كان يعيش في منطقتي *الإلزاس ولوتارينغيا* المتاخمتين لألمانيا حوالي أربعين آلف يهودي. وقد توجه اليهود إلى الجمعية الوطنية بالتماس لمنحهم المساواة في الحقوق، فاصطدم بمقاومة نوَّ ابِ هاتين المنطقتين الذين كانت توصيات ناخبيهم تطالبهم بالنضال ضد هذا الإجراء . واستؤنفت المداولات عدة مرات، وكانت عاصفة جداً . وتتحدث مادة في *"الموسوعة اليهودية "* عن توصيات خاصة من مدن *الإلزاس ولوتارينغيا* . فلقد تضمنت توصية مواطني *ميتس* شكاوى من "الأذى الناجم عن اليهود "، وطالبت *ستراسبورغ* بسن قواعد خاصة لضبط تجارة اليهود، مثلما طالبت *هاغن* بقوانين ضد المرابين اليهود . وطالبت *نانسي ونومني ودبيس وميركور* بالحد من عدد اليهود في المنطقة ... إلخ. وفي العام 1789 سقط قرار منح اليهود المساواة في الحقوق بفارق صوت واحد . وقال الأباتي **موري** أثناء المداولات : "إن اليهود بشرٌ ، إذاً، فهم أخوتنا. فلنمنحهم الرعاية كبشر عموماً، لا كفرنسيين". ونوقشت المسألة مرة أخرى في العام 1790، فرُفِضَ أيضا منح اليهود المساواة في الحقوق . والجدير بالذكر هنا أن نادي اليعاقبة والكومونة أيَّ دا منح اليهود هذه الحقوق. وقد أعلن ذلك بمرسو م بتاريخ 27 أيلول / سبتمبر 1791، وإن كان مرسوم آخر أَقَرَّ في الوقت نفسه يقضي بإعادة النظر بالديون المستحقة للمرابين اليهود . وبقى الوضع على ما كان عليه في ظل دستور حكومة القناصل ، وبداية عهد الإمبراطورية . وامتدت حركة الانعتاق في أثناء حروب الثورة و **نابليون** إلى الأراضي الأخرى التي استولت عليها فرنسا، أو كانت تحت نفوذها . وشملت ألمانيا كلها، وأُقِرَّ قانون انعتاق اليهود، وخاصة في بروسيا ، في العام 1812. ولقد أيد المستشار القوي النفوذ **غاردنبرغ** فكرة منح اليهود المساواة في الحقوق.

إن تغيرات عاصفة كهذه تثير، كما هو الأمر دائماً ، ردَّ فعل فكرياً وسياسياً على حد سواء . وعلى سبيل المثال، كتب **فيختة** في العام 1793 يقول:

"ها هي دولة جبارة، عدائية الميول، تُحكِم قبضتَ ها على بلدان أوروبا كلِّها تقريباً . إنها في حالة حرب مع جميع الدول الأخرى، وتضطهد المواطنين في بعض تلك الدول اضطهاداً فظيعاً... إنها حكومة قائمة على الكراهية إزاء الجنس البشري كله".

وبموازاة رد الفعل الإيديولوجي هذا على الانعتاق، نجد موقف **نابليون** العملي والبراغماتي، فقد عقد عام 1806 اجتماعاً لمجلس الدولة لمناقشة وضع اليهود في فرنسا، وذلك بناء على الشكاوى من أن المرابين والسماسرة اليهود في *الإلزاس* قد وضعوا أيديهم على كامل الأراضي والمواشي تقريباً (حتى **غريتس** لا يستبعد أن "بعض المرابين اليهود قد تكون بدرت منهم فظاظة كبيرة"). قال **نابليون** في المجلس:

"ليس بوسع الحكومة الفرنسية أن تقف غير مبالية بكون أمة لا تتورع عن ارتكاب كافة السفالات، قد أصبحت تسود بلا منازع على دائرتي *الإلزاس* الرائعتين... لقد حوَّل اليهود قرى بأكملها إلى ملكية خاصة لهم، فقد حلوا محل الإقطاعيين ... وهم يجازفون بأن يقضي عليهم يوماً سكانُ *الإلزاس* الغاضبون كما سبق وحصل مراراً، وبذنبٍ منهم في جميع الأحيان تقريباً.

إنه لخطرٌ إبقاء مفتاحي *الإلزاس وستراسبورغ* في أيدي أمة الجواسيس التي لا يربطها أي رابط بهذا البلد.

إنهم أمة داخل أمة ... واليهود ليسوا من تلك الفئة نفسها التي ينتمي إليها البروتستانت والكاثوليك . يجب أن يكونوا خاضعين للقانون السياسي، لا للقانون المدني، نظراً لأنهم ليسوا مواطنين".

وكانت النتيجة أن قيدت حقوق اليهود في فرنسا بالقانون الصادر بتاريخ 30 أيار / مايو 1806م. فاليهود الذين لم يكونوا يعيشون في دائرتي *الرين الأعلى والرين الأدنى* لم يكن بإمكانهم الانتقال للعيش فيهما . وكان بإمكانهم الاستيطان في الدوائر الأخرى فقط، في حال امتلاكهم أرضاً وممارستهم العمل الزراعي. وقد حُرِموا من حق دفع البدل الذي يعفيهم من ا لتجنيد العسكري . وجاء في المادة رقم 18: "يسري مفعول هذا المرسوم في غضون عشر سنوات ، إذ أننا نأمل ألا يكون هناك فرق بين اليهود وغيرهم من المواطنين عند انقضاء هذه المدة. ولكنْ، إذا خاب أملنا فسوف يُمدَّد مفعول المرسوم المدة التي نراها ضرورية ". ولقد أدت الهزيمة التي مُنِيَ بها **نابليون** إلى التراجع عن الحقوق التي منحت لليهود في كل البلدان الأخرى تقريباً. غير أن ذلك كان محاولة للنضال ضد الاتجاه العام لسير التاريخ . ومع كل ثورة (1830و1848) كانت تتزايد حقوق اليهود، ذلك أنهم أيدوا هذه الثورات بقوة . لقد مُنحوا المساواة في الحقوق في *إنكلترا والبرتغال* عام 1825، وفي *بلجيكا* عام 1830، وفي *كندا* عام 1832. وفي *ألمانيا* أقر البرلمان الثوري في *فرانكفورت* قانون الانعتاق في عام 1848 (وعُمِّم في العام نفسه ل يشمل *كاساو وهانوفر* . وفي عام 1861 شمل *فيورتمبرغ*، وعام 1862 *بادن*، وعام 1868*سكسونيا* . ومع قيام الإمبراطورية الألمانية عام 1870 طُبِّق في أراضيها كافة). وفي *الدانمارك* منح اليهود المساواة في الحقوق عام 1849، وفي *النرويج* عام 1851، وفي *السويد وسويسرا* عام 1865، وفي *إسبانيا* عام 1858، وفي *النمسا – هنغاريا* عام 1867، وفي *إيطاليا* عام 1870، وفي *بلغاريا* 1878، وفي *تركيا* عام 1908، وفي *روسيا* في شباط / فبراير 1917.

إن الانعتاق اليهودي ظاهرة تاريخية مدهشة . فخلال فترة تاريخية قصيرة جداً (لا تزيد عن قرن واحد)، تبنت شريحة كبيرة من يهود *أوروبا* نمط حياة السكان الأوروبيين المحيطين بها ، بعد أن تخلت عن نمط حياتها الذي يبدو وكأنه وُضِع خصيصاً من أجل عزل اليهود عن الشعوب الأخرى . ويتكوّن لدى المرء انطباع بأن التاريخ شدّد الضغط على نابض الاغتراب من حول اليهود لكي يجعل هذا النابض يستقيم بمزيد من القوة . كان ذلك لحظة انعطاف حاد في تاريخ العلاقات بين اليه ود والشعوب الأخرى. فهل يمكن أن نعزو تفسير هذا الانقلاب المفاجئ كله إلى ما أشرنا إليه في مستهل هذه الفقرة من نفوذ اقتصادي، وعلاقات اقتصادية أكثر متانة ؟ إننا على شك في ذلك! فالانعتاق لم يكن ضرورياً جداً لأثرياء اليهود، وخاصة لمن كان الأكثر ثراء بينهم . فقد أقيم حفل استقبال في بلاط *فيينا* ، على سبيل المثال، لمؤسس بيت **روتشيلد** المصرفي، **آمشيل روتشيلد** ، فأكّد هذا في أثناء ذلك على ولائه لكل الطقوس القومية المتشددة، وهذا ما أثار بعض الفضول ، بل والاحترام أيضاً . إن الذين ربحوا من الانعتاق هم، على الأرجح، اليهود الفقراء، أمثال **مندلسون**.

أرسى **غيرشوم شوليم** ، الباحث الدقيق في ميدان حياة اليهود الروحية، الأساس لدراسة جانب آخر من هذه الحركة هو الجانب الديني الروحي . وكان هذا الباحث على صلة بإحدى الحركات الدينية في ذاك الوقت، هي حركة ما يسمى *"الشباتية"*. ففي عام 1665 أعلن يهودي من آسيا الصغرى، اسمه **شبتاي تسفي**، أنه المخلِّص

المنتظر، فأصاب نجاحاً كبيراً، وأثار حركة معتبرة لم تقتصر على *الإمبراطورية العثمانية*، بل وتعدتها إلى *أوروبا*. وقد باع آنذاك كثيرون من يهود *أمستردام وهامبورغ* ممتلكاتهم ليسافروا إلى الشرق، ويلتحقوا بالمخلِّص المنتظر الجديد. وكانت قد انتشرت توقعات شتى مرتبطة بالعام 1666. ولكن كان ثمة تيارٌ تنبأ، استناداً إلى الكتابات الزوهارية (*الزوهار*، كتاب القبالاهالأساسي. م)، بظهور المخلِّص المنتظر في العام 1648، أي زمن نجاحات **شبّتاي تسفي**. كان ذلك زمن البحث والتطلعات الدينية الكبرى في *ألمانيا*، وكانت حرب الثلاثين عاماً قد وضعت أوزارها للتو. وكانت الثورة قد اندلعت في *إنكلترا*، والانشقاق في *روسيا* قد نضج. كانت التيارات الصوفية في مختلف البلدان يتأثر بعضها ببعض. آنذاك كتب **أولدنبرغ**، سكرتير الجمعية الملكية في *لندن*، إلى **سبينوزا** يقول: "الجميع هنا يتحدثون عن احتمال عودة اليهود إلى وطنهم... وإذا ما تحققت هذه الآمال فإن ذلك سيحدث انقلاباً". وعلى موجة هذا الاضطراب سافر **شَبّتاي** إلى *تركيا* بغية استمالة السلطان إلى دينه. ولكن السلطات التركية ألقت القبض عليه وزجت به في السجن، فحمله ذلك في المحصلة على إعلان تبرُّئه من تطلعاته. وانتقل فاعتنق الدين الإسلامي، واتخذ لنفسه اسم **محمد أفندي**. فأعطى **ناتان الغزاوي**، التلمودي الشاب المعروف آنذاك، اتجاهاً جديداً لهذا التيار برمّته. إذ طرح مفهوماً غيبياً يرى أن المخلّص المنتظر سوف يجترح، قبل انتصاره النهائي، أصعب مآثره بالنزول إلى مملكة الشر والدنس لكي يحرر "القبس الرباني" المأسور هناك. وكان من اجترح هذه المأثرة، حسب رأيه، هو **شبّتاي تسفي** الذي لم يدحض بفعلته هذه أن الرب قد اصطفاه، بل أثبت هذا الاصطفاء. وكانت الاستنتاجات الأكثر راديكالية لهذا التيار تكمن في أن جميع اليهود يجب أن يصبحوا مرانيين. وعليهم جميعاً النزول إلى الدرك الأسفل من الشر لكي يقهروه من الداخل. وكان من أتباع هذه التعاليم يهودي من *سالونيك* اسمه **ياكوف فرانك**، انتقل للعيش في بقعة من *بولونيا* كانت تابعة لـ*الإمبراطورية النمساوية*، وهو مؤسس طائفة "**الفرانكيين**". (كان اليهود القادمون من *سالونيك* يُعرفون في *تركيا* بالفرانكيين، وبالتالي فإن اسمه يعني "**ياكوف الفرانكي**"). واقتداء **بتسفي** اعتنق **فرانك** الكاثوليكية مع مجموعة كبيرة من الأتباع الذين حصلوا جميعاً على لقب النبالة البولونية من مرتبة رفيعة. ومن تعاليمه أن *التوراة* القديمة ملغاة الآن، والخطيئة قد تكون مقدسة، وأن قول *الميشناه* بوجوب تبجيل الرب حتى "بالشهوات الذميمة" قول يكتسب معنى جديداً. وعلى كل امرئ أن يأخذ على عاتقه ذنب المرانية، فالقلب واللسان لا ينبغي أن يقولا كلاماً واحداً. ومن تعاليم **فرانك** قوله: مثلما خدع جدُّنا **يعقوب** أباه فتخفّى في جلد حيوان، يجب علينا نحن أيضاً أن نتخفّى في ثوب المسيحية لنكون أكثر نجاحاً في خداعنا.

يتوافق ما تسميه تعاليم الشباتيين "هاوية الشر والدنس" تمام التوافق مع تصور اليهودية الأصولية عن العالم المحيط والشعوب التي تستوطنه. وعندئذ يخيَّل أن "الغوص في الهاوية" مماثل للانعتاق، ولنبوءة الانعتاق الروحية. أو بالعكس، يبدو الانعتاق تجسيداً عملياً للرؤية الصوفية.

ويعبِّر **غيرشوم شوليم** عن فكرة قريبة من هذه، فيرى أن *الشباتية* لعبت دوراً كبيراً في التحضير لإصلاح اليهودية وتثقيفها بأفكار التنوير في القرن التاسع عشر. يقول **شوليم:**

"والآن (أواخر القرن الـ 18، والقرن الـ 19)، ما كان ينبغي للتطلع نحو التثوير أن يبحث عن مَخرِج في ممارسة "الخطيئة المقدسة"، بل كان بوسعه إيجاد هذا المخرج في إعادة بناء الحياة".

إن **فرانك** نفسه ليس مشهوراً إلا كنبي أو إيديولوجي وحسب . فبعد أن ا عتنق الكاثوليكية ، واصل الدعوة لتعاليمه، وكان له مريدون يتمسكون بمذهبه سراً ، مع أنهم كانوا ينتمون إلى اليهودية الأصولية . وكانت تعاليمه مزيجاً من الصوفية اليهودية ومن العدمية، أي من تنبؤات، ونداءات إلى التدمير والانحدار إلى الهاوية على نحو لا مزيد لانحدار بع ده. ومن تعاليمه أن طريقَي الصعود والهبوط يلتقيان، والقداسة والإثم لا يفترقان (وقد تجلّى ذلك بصفة خاصة في خرق الثوابت الجنسية). ومع أنه كان يواظب شخصياً على حضور القداس، فقد افتُضِحت تعاليمه، وحُكم عليه بالحبس في قلعة *تشِنستوخوف*. ولم يحرره من السجن إلا الحرب. وبعد أن أعيد تقسيم *بولونيا* مرة أخرى انتقل **فرانك** ليقيم في ضيعة *أوفنباخ* في *النمسا*. وقد توفي عام 1788 بعد أن قال قُبَيل وفاته: "لقد أتيت لأحرِّر العالم من كل الشرائع والوصايا. يجب أن يصار إلى تدمير كل شيء لكي يظهر الرب".

وقد شارك الجيلُ الشاب من أتباع **فرانك** في حركة الانعتاق . ويشكِّل ذلك، كما يقول الباحثون، صعوبة شديدة عند دراسة التيار بمجمله . إذ لمّا كان هؤلاء يتطلعون لأن يكونوا "متنورين" أوروبيين حقيقيين (بمعنى الكلمة المتعارف عليه آنذاك)، فإنهم لم يقتصروا على السعي بشتى ا لأشكال لإخفاء أصولهم الفرانكية ، بل وأتلفوا جملة من وثائقهم خجلاً من راديكاليتها الصوفية.

لقد أعاد **شوليم** كتابة سيرة **موزيس دوبروشكا** ، أحد المتحدرين من الوسط الفرانكي، بحذافيرها . ولد هذا الشخص عام 1753 من أبوين لهما علاقة بالوسط الفرانكي (بل وكانا من الأتباع المباشرين لهذه الفرقة). وكان، في جميع الأحوال، واحداً من أقرباء **فرانك**. وقد تنصَّر في عام 1775 مع عدد من أخوته وأخواته (ربما تحت تأثير الأفكار الفرانكية). وعندها اتخذ لنفسه اسماً آخر هو "**فرانتس توماس شينفيلد** " (وزوجته **إيلكا** – صار اسمها **ويلهلمينا**). ويبدو أن تنصره لم يخلّ بعلاقاته ال وطيدة مع ا لفرانكيين . وقد لعب دوراً بارزاً في التوريدات للجيش النمساوي، الأمر الذي يدل على ثروته المعتبرة . وكان والده ميسوراً أيضاً ، إذ كان يملك بالاشتراك مع **فرانك** و**بوبر** و**هينيغسبرغ** احتكار تجارة التبغ في النمسا. وشهدت فترة ما بعد التنصر نشاطاً حثيثاً **لشينفيلد – دوبروشكا** في محفل *"الأخوة الآسيويون"* الماسوني الذي كان واسع الانتشار حينذاك . ويبدو أن الفضل يعود إليه في فتح أبواب هذا المحفل أمام اليهود (كانت أبواب الماسونية الألمانية في تلك الفترة، كما في الماضي، مغلقة أمام اليهود). وكانت المشاركة في المحافل الماسونية في تلك الأيام مرحلة هامة تسبق الانخراط في الأوساط الأوروبية "المتنورة". وكان **هيرشفيلد** هو الوجه الناشط الآخر في ذلك المحفل . ومن ناحية أخرى، فقد تبنى المحفل تحت تأثيرهما بعض الرموز اليهودية، كالنجمة السداسية والشمعدان سباعي الرؤوس.

وهنا وقع مشهد لا يزال لغزاً حتى الآن. فقد توفي **فرانك** في عام 1788. وانتشرت في أوساط مناصريه شائعة تقول إن **دوبروشكا** سيكون وريثه . إلا أنه ليس واضحاً إن كان هذا المنصب قد عُرِض عليه ورفضه ، أم أنه سعى للوصول إليه ولم يفزْ به. وفي جميع الأحوال، فقد طرأ تغير راديكالي على مصيره، إذ إنه سافر بعد ذلك إلى فرنسا ، واتخذ لنفسه اسماً جديداً مرة أخرى، هو **يونيوس فراي** . وهناك يَنذر نفسه للأفكار الثورية (وللمضاربات المالية أيضاً)، ويُشرع باب البذخ على مصراعيه، وتتزوج أخته من **شابو** ، أقربِ المقرَّبين من **دانتون**. ولكن عندما حلّت الهزيمة بحلقة **دانتون**، قُتِل معه **دوبروشكا** أيضاً، إذ لقي حتفه تحت المقصلة عام 1794. وتحاشياً لسوء الفهم، ينبغي أن نشير إلى أن **دوبروشكا** كان اليهودي الوحيد الذي عُرِف عنه أنه لعب

دوراً نشطاً في الثورة الفرنسية   . غير أن في وسعنا أن نتتبّع الخيط الرمزي الناظم الدقيق   : فمن اليهودية الكلاسيكية، إلى *الشباتية*، فإيديولوجيا الأنوار الأوروبية، ثم الثورة الفرنسية أخيراً.

مراجع الفصل السابع

1- Roth C. The Jews in Renaissance.N.J, 1959

2 - Sombart W. مرجع سابق ورد في الفصل السادس.

3 - Graetz H. Geschichte der Juden. Bd.II

4 - Berne L. Brief, 1927

5 - Bartels A. Lessing und die Juden. Leipzig. 1922

6 -Bartels A. Geschichte der deutschen Literatur. Bd. II. Leipzig 1905

7-Fichte Johann Gottlib. Beitrag zur Berichtung der Urteile des Publikums uber Franzosische Revolution. Leipzig, 1922

8 -Perry Thomas w. Puplic Opinion , propaganda and politics in Eighteenth century England, Mass, 1966

9 -Scholem Gerschom. Die Judische Mystik in ihrer Hauptstrumungen. Zurich, 1957.

10 - Gerschon Scholem. Du Frankism au Jacobinism. Paris, 1981

11 -Mandel Arthur. Le Messie Militant, Milano, 1989

12 – أمريكا. الموسوعة اليهودية. سان بطرسبورج، 1911، الجزء 2

13 – العداء للسامية. المصدر السابق، الجزء 2

14 – الماسونية. المصدر السابق، الجزء 10

15 – شبتاي تسفي والحركة الشباتية. المصدر السابق، الجزء 13

16 – بروسيا. المصدر السابق، الجزء 13

الفصل الثامن

عصر الاندماج الذهبي

(من حروب نابليون وحتى الحرب العالمية الأولى)

كان القرن التاسع عشر (أو بالأحرى المرحلة التي يشير إليها عنوان هذا الفصل) مرحلة الانخراط الكثيف ليهود أوروبا الغربية (وأوروبا الشرقية نهاية القرن) في الثقافة الأوروبية. إنه حقبة استيعاب نمط الحياة الأوروبي من قبل أغلبية اليهود الساحقة، وانخراطهم الذي لم يكدِّ رْه أصلاًأي شيء بعدُ في جميع مناحي نشاط المجتمع الأوروبي تقريباً ، وتأثيرهم عليها تأثيراً متزايداً . وخُيِّل أن عزلة اليهود في المجتمع الأوربي قد شارفت على نهايتها، رغم أن نُذُرَ الصعوبات الكامنة في صلب هذه العملية كانت تلوح في الأفق منذ ذلك الحين.

ويمكننا، بالرغم من ذلك، أن نشير إلى بضعة مجالات أخذ التأثير اليهودي يصبح فيها فعّالاً وملحوظاً. ومن المهم، على وجه الخصوص، أن مجالين جديدين انضافا إلى المجال الت قليدي لتوظيف الجهود اليهودية ، هما الفن (ولا سيّما الأدب)، والصحافة. وبفضل ذلك لم يعد التأثير اليهودي خارجياً ، بل انتقل مركز الثقل فيه إلى الإيديولوجيا، فغدت النقطة التي يظهر فيها ذلك التأثير تتمثل في الجانب الروحي من حياة الشعوب الأوروبية، أكثر مما في الجانب المادي منها.

ونستطيع أن نحكم على مدى مشاركة اليهود في الفن الأوروبي الغربي من خلال استعراض أسماء شهيرة معروفة للجميع، ومنها، على سبيل المثال، الموسيقيون **مايربر، ومندلسون، ومالر**. وبأسلوب أكثر سهولة ويسراً على الفهم ذاع في أوروبا كلها اسم **أوفّينباخ** (الذي يكتب له **غاليفي** حوارات أوبريتاته الصغيرة). وحظيت الفنانتان الكبيرتان **سارا برنار، وراشيل** بشهرة عالمية. ولكنْ، لعل أكبر تأثير لليهود إنما تجلّى في الأدب، حيث تمثّل المشهد الأكثر سطوعاً في مشاركتهم في تيار الأدب الألماني الذي تشكل في عشرينيات (القرن التاسع عشر) وعُرِف باسم "*ألمانيا الفتاة*". يقول المؤرخ الأدبي **بارتِلس** عن هذا التيار إن:

"إن "*ألمانيا الفتاة*"، في جوهر الأمر، منتوج برليني – يهودي ظهر في صالون **راحيل ليفين** ". وكان **هنريش هاينه، ولودفيغ بيرنه (ليوب باروخ)** من أبرز شخصيات هذا التيار.

وقد تجسدت في **هاينه** على أسطع وجه تلك التناقضات التي قُدِّر للكتاب ا لأوروبيين اليهود أن يصطدموا بها. فهو، من ناحية ، كان مضطراً أن يبدع ويبلغ مجده في إطار الفن القومي الألماني بوصفه شاعراً ألمانياً يكتب باللغة الألمانية. وما كان لموهبته الساطعة أن تتجلّى إلا في هذا الشكل . ذلك أن موهبته لا ريب فيها ، إذ ليس عبثاً أن قام بترجمته كل **من ليرمنتوف وتيوتشيف** (شاعران روسيان كبيران من القرن التاسع عشر . – م).

وكان، من ناحية ثانية، نتاجَ العالم الروحي اليهودي، إذ إن التقاليد اليهودية لم تعِقْهُ وحسب عن أن يصبح معبراً عن أحاسيس الألمان، بل وصدته عن ذلك أيضاً. ولمّا كان لا يتمتع بالمشاعر العفوية التي تكشف أمامه جمال الطبيعة ولغة الألمان وثقافتهم، فقد كان مرغماً على تلقيها والإحساس بها عبرالآخرين. يقول **هاينه** في رسالة إلى صديقه **موزير**: "ليس بوسعي أن أعبِّر إلا عن تلقي الناس الآخرين لما هو جميل ". ولهذا السبب كانت أشعاره

تفتقر للتلقائية، وكانت محاكاة لأشعار الآخرين في كثير من الأحيان . وحتى قصيدته الشهيرة *"لوريليا"*، بحبكتها وصورها وإيقاعها ، تكاد تكون نسخة طبق الأصل عن قصيدة **برينتانو** . وهذه الأسباب نفسها هي ما جعل الهجاء الذي يتحوّل عنده إلى سُباب، كثيراً ما يكون قليل الحشمة، يحتل مكاناً بارزاً في أشعار **هاينه**. على أن السُباب عنصر غريب عن الشعر تماماً. وما ملحمتا **هاينه** *"آتاترول"*، و*"ألمانيا . حكاية شتوية"* وغيرهما إلا هجاء موزون ومقفّى. وكان **هاينه** أول من أدخل هذا الأسلوب الهجائي إلى الشعر.

كان **هاينه** مفطوراً على مشاعر قومية يهودية عنيفة، ولكنه كان في الوقت نفسه لا يستطيع تجسيد موهبته الساطعة إلا بوصفه شاعراً قومياً ألمانياً. وهذا ما ولَّد في نفسه ازدواجية ونزاعاً. ولقد انعكس ذلك كله على طبعه المشبوب النزق، وكان منبعاً للشعور بالكراهية التي ازداد تعاظمها فيه.

هناك موضوعان للكراهية أضنيا **هاينه** طول حياته، وهما: الألمان والمسيحية. كان يتمرن على ابتداع ألقاب للألمان أشد ما تكون تنغيصاً لهم، وتلتصق بهم مثل بصقة، كقوله: "شعب الخدم"، أو "شعب البودِل" (شعب من كلاب البودل). وعلى سبيل المثال، فقد كتب يقول:

"إن سكان *غوتنغن* ينقسمون إلى طلاب، وأساتذة، ومنافقين محدودي الأفق، وبهائم . ولكنهم جميعاً لا يختلف بعضهم عن بعض إلا قليلاً".

إلا أن هذا ليس إلا طريقة أخرى للقول إن الألمان بهائم . فأين الألمعية ، حقاً ، في هذا القول؟ يختتم **هاينه** ملحمته *"ألمانيا . حكاية شتوية"*، وهي أحد أعماله الأخيرة، بالقول إن إلهة مدينة *هامبورغ* تعرض عليه أن تكشف له مستقبل ألمانيا، ولكنها تقرأ له الفأل في نونية (مِبْوَلَة) الليل بدلاً من أن تفعل ذلك في فنجان القهوة. ولمّا كان **هاينه** لا يطيق حتى "رائحة المستقبل الألماني" فإنه يفرّ هارباً. وقد عبر غير مرة عن فكرة مفادها أن تعاساته كلها ناجمة عن النجاح الذي يحرزه كفاح ألمانيا للتحرر من **نابوليون**. كما أن معركة **واترلو** في نظره كارثة تاريخية على صعيد العالم بأسره . وهو يعبر عن أسفه لهزيمة **نابليون** بالقول: "ليتهم، بدلاً من ذلك، أشبعونا ضرباً". وفي رسالة إلى صديقه **سيوته** يقول:

"كل ما هو ألماني يثير اشمئزازي، وأنت – للأسف – ألماني. كل ما هو ألماني يفعل فيَّ فعل التقيؤ . اللغة الألمانية مقيتة على أذنيَّ. أشعاري مقيتة عليَّ لأنها مكتوبة باللغة الألمانية . وحتى كتابة هذه الرسالة أمر ثقيل الوطأة عليَّ، لأن كتابة الأحرف الألمانية تؤثر تأثيراً أليماً على أعصابي".

لقد تنصّر **هاينه** "لكي يحصل على بطاقة دخول إلى الثقافة الأوروبية"، على حد قوله، وهذا ما جعل وضعه يزداد ازدواجية. وفي رسالة إلى صديقه **موزير** كتب يقول: "أؤكد لك أنني ما كنت لأتنصَّر لو أن القانون لم يكن يعاقب على سرقة الملاعق الفضية". وقد سجل في يومياته هذه الأبيات:

" *وأنت حبوت نحو الصليب الذي كنتَ تزدريه،*

الصليب الذي كنت قبل بضعة أسابيعَ فقط

تأمل بتمريغه في الوحل".

إن مسرحيته التراجيدية الأولى *"المنصور"* كانت، على حد قوله شخصياً، غير موفقة، حيث أنها مشبعة تماماً بكراهية المسيحيين. وقد انتهت أول محاولة لتمثيلها على المسرح بفضيحة . يقول في رسالة إلى **موزير** :

"يضطهدني المسيحيون واليهود في آن واحد... أمّا اليهود، فلأنني لا أدافع عن حقهم بالمساواة في *بادن وناساو* وغيرهما من الأماكن النائية. آه، يا لقِصَر النظر ! ذلك أن الدفاع عن **قرطاج** لا يكون إلا على أبواب **روما..!**".

فمن هي "**روما**" هذه التي يريد **هاينه** حماية "**قرطاج**" منها؟ يورد المؤرخ **تريتشكه** قول **هاينه:**

"ثمة ضروب من الأفكار / الحشرات التي تنبعث منها رائحة النتن طويلاً بعد سحقها. كذلك هي المسيحية. فقد تم سحق هذه البقة الروحية قبل 1800 عام (صلب المسيح؟!)، ولكنها لا تزال حتى الآن تسمم الهواء الذي نتنفسه، نحن اليهود".

كانت مشاعر **هاينه** القومية اليهودية طول حياته تعصف جامحة، وبقدر من الوفرة لا يترك مجالاً للشك في أن بعض تهجماته التحقيرية ضد اليهودية لم تكن صادقة (وكانت توازنها حتماً تهجمات من وزن ها ضد المسيحية، من قبيل: "الحاخام والكبوتشي كلاهما كريه الرائحة"). ومما كتبه، مثلاً:

"موسى، أيها الحاخام موشيه، أيها المناضل العظيم ضد العبودية، هَب لي من لَدُنْكَ مساميرَ ومطرقة لأستطيع تثبيت آذان عبيدنا المرتاحين في جبّاتهم السوداء – الحمراء – الذهبية على أبواب مدينة *براندبرغ*".

وكان يؤكد أنه لو لم يبق على وجه الأرض إلا يهودي واحد، لتوجَّب على كل شخص أن يرى سعادته هي في السفر مدة مائة ساعة لا لشيء إلا لكي يصافحه.

ويكتب لصديق له قائلاً: "إن حبي للروح الحاخامية الصارمة، المتسقة حتى النهاية، يكمن مستتراً في داخلي منذ سنوات عديدة".

وقبل وفاته بمدة قصيرة قال **هاينه:** "لقد عدتُ إلى **يهوه**".

وتصف *"الموسوعة اليهودية الموجزة"* **هاينه** على النحو التالي: "إن أقل ما تمثله مؤلفاته هو تجسيد الطبع، أو الروح القومي الألماني". من العسير أن يعترض المرء بشيء على هذا القول، ولكننا نصطدم بلغز يطالعنا فيما بعد عدداً كبيراً من المرات، بحيث أنه الآن لم يعد يبدو لغزاً، وهو: كيف، وبأية وسائل وقوى تيسَّر تصويرُ الأسود على أنه أبيض؟ أي كيف تيسَّر إقناعُ الألمان، بل والبشرية بأسرها، بأن **هاينه** العدوَ لكل ما كان عزيزاً (عن صواب أو خطأ) على الوعي القومي الألماني... **هاينه** الذي يكره – كما يقول هو بالذات – كل ما هو ألماني... كان شاعراً عظيماً، و*ألمانياً* تحديداً، أيضاً؟

لقد طوى النسيانُ **بيرنه** الآن تقريباً، ولكن اسمه كان يتردد على ألسنة الناس آنذاك على قدم المساواة مع اسم **هاينه** (وكانا عدوين لدودين، يتبادلان الشتائم بغضب شديد، لا يترك أحد منهما ستراً على صاحبه، فينشر على الملأ تفاصيلَ ذميمة من حياة خصمه الشخصية). وفيما عدا بعض الفروق الطفيفة، كان **بيرنه** تضنيه المسائل نفسها التي أضنت **هاينه**. وقد كتب عنه **فولفانغ مينتسل**، أحد أعضاء *"ألمانيا الفتاة"*، يقول:

"إنه لأمرٌ مبررٌ عنده كل ما هو عنصر تفسيخ لألمانيا بالفعل. يقول لنا إنه يبغي التأسيس، بينما هو يقوم بهدم كل شيء. وهو يعتقد أن هذا ما سيُعنى به الفرنسيون. وما من حاجة إلا لهدم هذا الجدار، وجعل كل ما هو ألماني مقيتاً، محتقراً وسخيفاً، في نظر الألمان، وكل ما هو فرنسي مرغوباً لديهم؛ وأن نقدم العون بكل ما نستطيع من أجل أن يغدوَ الفرنسيون سادة ألمانيا، في البداية عن طريق التآخي، ثم بالغزو".

وفعلاً، عاش **بيرنه** حياته كلَّها يكره **غوته**. وقد كتب يقول : "منذ بدأت أعي نفسي وأنا أكره **غوته**". وهو يستشهد برسالة يزعم أنها وصلته، وجاء فيها:

"هذا الـ **غوته** ورمٌ سرطاني على جسد ألمانيا، والأسوأ من هذا كله أن الجميع يرون في مرضه أوج الصحة".

يعلِّق **بيرنه** على ذلك بالقول:

"كم هو صحيح هذا (...)! **فغوته** ملكٌ على شعبه أجمع، وإذا ما أطحتَه هان عليك تدنُّ أمر الشعب".

وهو، من ناحية أخرى، يُشاطر القراء أفكارهم، فيقول:

"اليهود السيئون ليسوا أكثر سوءاً من المسيحيين السيئين (...). بل إن لديهم ميزة، هي أنهم أكثر ذكاء منهم (...). وسواء أكان فيهم دم أم لا، فليس فيهم مصل الحلزون. ومختصر القول أنهم ليسوا منافقين . آه، الويل للمنافقين...".

ويتحدث **بيرنه** في إحدى رسائله عما كابده أيام فتوّته، وأثر أشد التأثير في حياته، على ما يبدو. ذلك أنه عندما احتل الفرنسيون *ألمانيا* كان عليه مغادرة موطنه *فرانكفورت* إلى أي مكان آخر، وأن يحصل على جواز سفر من أجل ذلك. فقد كتب الضابط الفرنسي بعد أن ألقى نظرة إليه: "*يهودي من فرانكفورت*". يقول **بيرنه:**

"توقف الدم في عروقي (...) وأقسمت عندئذ في سري : انتظروا..! سأصدر لكم جوازت سفر ذات يوم، بل لكم وللآخرين جميعاً! أَفلم أبرَّ بقسمي حقاً، حقاً؟".

و يقول في مكان آخر : "لا تنسوا شيئاً! لا تغفروا شيئاً! ولا لأي صلح يضع حداً لهذه البغضاء! أفكارنا كلها مع رفات آبائنا. إننا لن نعيش إلا في المستقبل، ولن نموت إلا من أجل المستقبل".

إنه لذو دلالة وعبرة تقييم نشاط **هاينه وبيرنه** على لسان **غريتس** في كتابه "*تاريخ اليهود*". فهو يشبّههما في طرح أفكارهما بقيصرين يرميان قطع النقود الذهبية حفناتٍ حفناتٍ.

"لقد أنشأا للألمان لغة بديعة، لغة إلهام حكيمة ورهيفة، وفتحا أمامهم معبد الحرية".

وهذا بعد **غوته وشيللر** والرومنسيين! بل ويزيد، إذ يصف *اتجاه* نشاطهما فيقول:

"حقاً، لقد قطعا مع اليهودية ظاهرياً (أي تنصّرا. – المؤلف)، ولكن ليس إلا كمقاتلين اتخذا من سلاح العدو ورايته وسيلة لدحره وتدميره بمزيد من الثقة".

فمن كان هذا العدو: أهو الشعب الألماني أم المسيحية؟

لقد تمخضت مرحلة *"ألمانيا الفتاة"* عن أشهر الأسماء بين الكتاب الأوروبيين اليهود على مدى القرن التاسع عشر برمّته. إلا أن التأثير اليهودي ذاته في الأدب لم يضعف على مدى العقود التالية، بل وازداد اتساعاً تعمقاً. على أن **بارتِلس**، مؤلف *"تاريخ الأدب الألماني"* الذي استشهدنا به أعلاه، يعزو إلى التأثير اليهودي خلقَ *"الصناعة الأدبية"* التي تُعنى حصراً بالنجاح المالي وعدد النسخ، وتراهن على الذائقة المتدنية عند أوساط واسعة من الشريحتين "العليا والوسطى بين العامة"، فيقول:

"إن مَن جلب إلينا هذه الصناعة، وهنا لا مجال للشك، هو اليهوديةُ المعاصرةُ التي بسطت سيطرتها على المسرح الألماني، وسيطرت أيضاً على الصحافة إلى حد كبير، وأنشأت في الأدب حزباً شديد البأس يتعذر الكفاح ضده تماماً".

لقد برزالنفوذ اليهودي في الصحافة إبان هذه المرحلة بالذات، ثم مارس فيما بعد أيضاً (بل وما زال يمارس حتى الآن) تأثيراً قوياً على الحياة. على أن المستشار الاقتصادي لحزب المحافظين الألماني **باول بانغ** كتب حول هذا الموضوع (ولكن بعد انقضاء الحرب العالمية) تحت اسم مستعار هو "**مايستر**". إذ يتكشَّف هذا التأثير على نحو ساطع منذ حقبة حروب **نابليون**، عندما ظهرت في ألمانيا المهزومة مجموعة كاملة من الصحفيين والناشرين اليهود. والمثال النموذجي على ذلك هو صحيفة *"تلغراف"* التي كان يصدرها في العام 1805 **لانغه (دافيدسون)**، الذي كان أحد أصدقاء **لِسِّنغ** المقربين يوماً. ثم أصدر فيما بعد صحيفتي *"هيرولد الألماني"* و*"تلغراف الجديد"*. وقد كان الجنرالات ورجال الدولة الألمان، وحتى البلاط الملكي والملكة ضمناً، عُرضةً للسخرية على صفحات هذه الجرائد التي تميزت بتوجه ثابتٍ الولاء لفرنسا إلى درجة أن *"تلغراف"* كانت تُعَدُّ لسان الحال شبه الرسمي لفرنسا.

أما المجموعة الثانية من الصحفيين اليهود الألمان، وعلى رأسها **شاؤول أشير وإدوارد إيتسِغ**، فقد اشتهرت بكفاحها ضد الأدباء الرومنسيين الألمان **آرنيم**، **وبرينتانو**، **وكلايست**. إذ كانت تنعتهم بالرجعيين والظلاميين، والمشبوهين من وجهة نظر السلطات الفرنسية. بل وأطلقت إشاعة تقول إن **كلايست** مختل العقل. وياللنزق الكبير الذي يصف به **غريتس** هذه المرحلة، بعد مضي سنوات عديدة، عندما يتحدث عن هؤلاء الـ ...(يستخدم هنا مصطلحاً تحقيرياً كوصف العرب بـ "الأعاريب".– م) **آرنيم وبرينتانو وفوكيه !** فهنا يتضح مدى استيائه من موقفهم المتعاطف مع ألمانيا القرون الوسطى، والمسيحية، والكنيسة.

إليكم قصة ظهور *"فرانكفورتر تسايتونغ"* (صحيفة فرانكفورت)، إحدى أكبر الصحف الألمانية نفوذاً. ففي الخمسينات من القرن الـ 19 شرع المصرفي **روزنتال** بإصدار صحيفة *"نشرة الأعمال"*. وسرعان ما حولها مصرفيٌّ آخر هو **ليوبولد (ليوب) زونيمان** إلى *"جريدة الأعمال الفرانكفورتية"*. وبدءاً من العام 1866 أصبح اسمها *"جريدة فرانكفورت"*. أما جريدة *"برلينر تاغيبلات"* التي لا تقل نفوذاً، فقد أسسها السيد **روبين موزيس** عام 1871. وتأسست صحيفة *"برلينر تسايتونغ"*، لسان حال الحزب الديمقراطي، عام 1877 على يد السيد **أولشتاين**، وهو رجل أعمال يهودي أثرى من التجارة، ثم أسس فيما بعد شركة *"أولشتاين برس"* التي كانت تملك عشرات الصحف السياسية والإعلانية والترفيهية.

لقد تحدثنا حتى الآن عن ألمانيا أساساً. إلا أن مؤسس وكالة *"رويتر"* نفسها، التي ترتبط في أذهاننا ببريطانيا، كان يهودياً أيضاً من مواليد ألمانيا، كنيته **يوسافات**، ثم تنصَّر بعد أن بلغ سن الرشد. وفي العام 1855 اشترى **يوسف موزيس ليفي** صحيفة *"ديلي تلغراف"*، إحدى أكثر صحف انكلترا تأثيراً. ثم انتقلت ملكيتها إلى ابنه، **ولقبه لوسون**، الذي عُرِف فيما بعد **بالبارون بيرنهام** حتى العام 1928. وابتداء من العام 1904 أصدر **ر. د. لومنفيلد** صحيفة *"ديلي إكسبرس"*. وفي إيطاليا كان اليهودي **تريفيس** رئيس تحرير صحيفة الحزب الاشتراكي الرئيسية *"آفانتي"* حتى العام 1912 (ونتيجة للصراع الضاري داخل الحزب في الفترة 1912 – 1914 استولى **موسوليني** على هذا المنصب، ولكن **تريفيس** أزاحه منه مرة أخرى في العام 1914). وفي الولايات المتحدة كانت الصحافة خاضعة للنفوذ اليهودي أكثر مما في أوروبا. فعلى سبيل المثال، كان اليهودي الهنغاري **بوليتسر** الذي جاء إلى أميركا وهو لا يعرف كلمة إنكليزية واحدة، أحد أبرز أرباب الصحف، ومؤسس

"الصحافة الصفراء" . (والآن يطلق اسمه على واحدة من أرفع الجوائز الأدبية مكانة). وكان **آدولف أوخس** يمتلك صحيفة *"نيويورك تايمز"* منذ عام 1896، و*"فيلادلفيا تايمز"* منذ عام 1901.

لقد خبر العالم كله تأثير أولئك الإيديولوجيين، أمثال **ماركس وفرويد** . وأصبح العديد من اليهود معروفين في ميادين العلم ، كالفيزيائي **هيرتس** ، مثلاً ، الذي برهن بالتجربة وجود الموجات الكهرطيسية، وكذلك عدد من الرياضيين، ومنهم **ياكوبي، وكانتور، وكرونيكر**... إلخ.

وقد تنامى نفوذ اليهود الاقتصادي بالتوازي مع نفوذهم الإيديول وجي. إذ يورد **زومبَرت** الأرقام التالية المتعلقة بألمانيا . ففي السبعينات من القرن التاسع عشر، في حقبة إنشاء العديد من الشركات المساهمة، كان عدد الشركات اليهودية 16 من أصل 25 شركة كبرى. وكان اليهود يشكلون نسبة الثلث أو الربع بين المؤسسين في بعض الشركات . وفي العام 1911 شكل اليهود نسبة الثُمن من مدراء الشركات الكبرى، ونسبة الثلث من أعضاء مجالس الرقابة . هذا في حين كانت نسبة اليه ود أقل من 1% من عدد سكان البلاد . ووَفقاً للمعطيات المتعلقة بالمداخيل المحسوبة على أساس الضرائب المقتطعة، كانت مداخيل اليهود أكبر من مداخيل المسيحيين بمرات ثلاث أو أربع تقريباً.

ولا عجب أن يكون نفوذ اليهود الكبير على نحو خاص في المجال المالي قد ازداد تعاظماً . إذ كان البنك المركزي الألماني – *رايخسبنك*– مشروعاً خاصاً، لا يخضع للرقابة إلا من طرف وزارة المالية . وكان قد تأسس عام 1873 على يد 15 شخصاً بينهم 11 يهودياً، وهم بالاسم: **بيرِند، وماير، وبلايخرِدر، وهيلبكه، ومندلسون، وأوبينهايم، وبلاوت، وروتشيلد، وشتيرن، وفارشافير، وتسفيهِر**.

وبالطبع، كانت مجريات هذه الأمور جميعها مرتبطة بالزيادة الحادة لعدد اليهود داخل الفئات المتعلمة في المجتمع. إذ يخبرنا **زومبرت** نفسه، على سبيل المثال، بأنه من بين كل عشرة آلاف من السكان كان يداوم في الصفوف العليا من المدارس الثانوية 61 تلميذاً مسيحياً ، و385 تلميذاً يهودياً (إحصاءات بروسيا). يقول **زومبرت:**

"إن مساهمتهم الفعلية في حياتنا الروحية والثقافية تتناسب مع هذه الأرقام . ومن نافل القول إن سوقنا الفنية والأدبية والموسيقية، ومسرحنا، إذا لم تكن حتى الآن في أيديهم بالكامل، فهي تحت تأثيرهم الملموس، بل يمكننا القول بجرأة: إنها تحت تأثيرهم الحاسم".

إن وزن اليهود الهائل في الثقافة والصحافة والاقتصاد قد انعكس، طبعاً ، على وضعهم العام وتأثيرهم على باقي مناحي الحياة. ويظهر الدليل على ذلك، مثلاً ، في الاحتفال المهيب الذي أقيم عام 1905 بذكرى مرور 250 عاماً على توطُّن اليهود في الولايات المتحدة. فقد توجه الرئيس **تيودور روزفلت** إلى لجنة تنظيم الاحتفال برسالة قال فيها:

"أعتقد أن في الإمكان القول بثقة إن عدداً قليلا جداً من القوميات في بلادنا، وربما ما من قومية أخرى (غير اليهود. – م)، كان له ذلك التأثير القوي بشكل مباشر أو غير مباشر على تشكيل نمط الحياة الأميركي".

يقول **وايزمان** في مذكراته إن مجلس وزراء إيطاليا قبيل الحرب العالمية الأولى كان يضم أربعة وزراء من اليهود هم **لوزاتّي** (رئيس الوزراء)، **وأوتولونغي، وسونّينو، وتيتاني**. ناهيك عن أن عمدة روما كان يهودياً.

أما الجانب الآخر ، وليس الجانب المهيب ظاهرياً ، من جوانب هذا النفوذ ، وهو جانب مستور عادة، فيمكننا اكتشافه، مثلاً، في مذكرات دبلوماسي ألماني كبير كان سفيراً لألمانيا في إنكلترا خلال الفترة التي سبقت الحرب العالمية الأولى، هو **فون إيكّاردشتيت** الذي يتحدث عن تقربه من عميد آل **روتشيلد**، البارون **ألفريد روتشيلد** . وكان هذا البارون شديد العداء لـ "الموسكوفيين" بسبب "تعامل السلطات الروسية الهمجي مع اليهود".

"حين يتطرق الحديث إلى العمل على تعطيل الدسائس السرية للدبلوماسية الروسية، كان **ألفريد روتشيلد** ، بكل نفوذه الكبير ، دائم الاستعداد لتقديم الخِدمات".

ويقول المؤلف إن اليابان، على وجه الخصوص، كانت مترددة جداً قبل أن تدخل الحرب ضد روسيا ، وذلك بسبب ضعفها مالياً . وقد فضلت الحكومة الإنكليزية الحفاظ على الحياد ، ولم تؤيد تقديم قروض كبيرة لليابان . وعندئذ قام **إيكّاردشتيت** بترتيب لقاء جمع بين السفير الياباني في لندن الكونت **هاياشي** و**روتشيلد** الذي أكد للكونت تعاطفه مع قضية اليابان، وأن الحكومة اليابانية تستطيع التعويل على دعم بيت **روتشيلد** . وهذا ما لعب، برأي المؤلف، دوراً حاسماً في اتخاذ اليابان قرارها بشن الحرب.

ويمكننا أن نتصور تأثير اليهود على سياسة الولايات المتحدة الأميركية من خلال مشهد أشرنا إليه عَرَضاً في الفصل الأول من هذا الكتاب . ففي العام 1910 شنت الصحافة الأميركية حملة ضارية ضد الحكومة الروسية التي قيدت دخول المواطنين الأميركيين اليهود إلى روسيا . (علماً بأن الصحافة في ذاك الوقت كانت تكتب عن وضع اليهود المدقع في روسيا، وبالتالي لم يكن مفهوماً سبب سعي اليهود للسفر إليها). ورداً على ذلك طالبت الصحافة بفسخ معاهدة التجارة الروسية – الأميركية. وفي مطلع العام 1911 زار الرئيسَ الأميركي **تافت** وفدٌ من أصحاب النفوذ اليهود على رأسهم كبير رجال المال **ياكوف شيف** مدير بنك *"كون، ليب وشركاهما"* . وأبلغ الرئيسُ **تافت** الوفدَ أن الحكومة الروسية، وفقا لمعلومات السفير الأميركي في روسيا، تحد من دخول اليهود إليها، نظراً لأن المسألة تتعلق، في جزئها الأعظم ، بأولئك اليهود الذين هاجروا مؤخراً من روسيا، ويريدون الآن العودة إليها كمواطنين أميركيين لكي لا تعود تشملهم قيود "نطاق الإقامة " الخاصة باليهود الروس . وأعرب الرئيس عن رأيه بأن لكل بلد الحقَّ في صياغة ما يناسبه من سياسة تتعلق بالهجرة إليه . وهنا استاء **شيف** ، ورفض مصافحة الرئيس عند الوداع. وعند خروجه هتف قائلاً: "**إنها الحرب إذ** اً". ولقد تطلب الانتصار في هذه الحرب مدة عشرة أشهر . ففي أواخر العام 1911 اقترح أعضاء مجلسَيْ الكونغرس الأميركي على الرئيس فسخ المعاهدة الروسية – الأميركية، فأذعن لهم. وفي العام التالي قلدت المنظمة الماسونية اليهودية (أو المبنية وفق النمط الماسوني) جمعية *"بناي – بريت"* في الولايات المتحدة الأميركية الرئيسَ **تافت** ميداليةً بوصفه "الشخص الذي عمل في العام الفائت أكثر من الجميع لخير اليه ود". ومع ذلك فإن **تافت** لم ينتَخب لولاية ثانية في أثناء الانتخابات التي جرت في العام 1913.

وقد اتسم الوضع في **إنكلترا** بجدال طويل حول مشكلة انتخاب اليهود إلى البرلمان . وامتدّ هذا الجدال من العام 1829 حتى العام 1858، وكانت رحاه تدور حول رفض اليهود النطق بالقسم الذي يتضمن عبارة "وَفقاً للدين المسيحيِّ الحقِّ". وكانت النتيجة أن عُدِّل نص القسم حتى أصبح مقبولاً لليهود أيضاً ، واحتل **البارون روتشيلد** مقعداً في البرلمان.

وكان دور اليهود قوياً عل وجه التحديد بين قادة السياسة في معظم الدول الأوروبية . ففي **ألمانيا** كان عدد من اليهود بين قادة الحركة الليبرالية التي بدأت بثورة 1848. وقد شارك **غابرئيل ريسّر** ، على سبيل المثال، في "البرلمان التمهيدي "، وفي "الجمعية التأسيسية "، ثم في برلمان إيرفورت فيما بعد . وكان **لودفيغ بامبيرغر** أحد مؤسسي الحزب الليبرالي، ثم شكل فيما بعد مع **إدوارد لاسكر** الحزب التقدمي . كما كان **هنريك فريدبيرغ** سنوات عديدة وزيراً في حكومة القيصر، وكان **رودولف فريدنتال** أحد مؤسسي حزب المحافظين الأحرار في بروسيا.

ومارس **دزرائيلي**، الذي نصّره والده في شبابه، تأثيراً هائلاً على الحياة السياسية في **إنكلترا**. وتبوّأ غير مرة منصب رئيس الوزراء ووزيرالمالية . كما ظل فترة طويلة على رأس حزب المحافظين وحركة *"إنكلترا الفتاة"*. وقد كرمته الملكة في أواخر حياته بلقب "**لورد بيكونسفيلد** ". وكان **لوزاتّي** رئيساً للوزراء في إيطاليا وفي فرنسا تولّى **كريميه** منصب وزير مراراً، وكان في الوقت ذاته شخصية قومية يهودية كبيرة، وأسّس *"الاتحاد اليهودي العام"*. وعندما كان **كريميه** وزيراً للداخلية الفرنسية مَنَحَ الجنسية الفرنسية لليهود الذين كانوا يعيشون في الجزائر، في حين لم يحصل العرب على تلك الجنسية . وقد غدا ذلك عاملاً جوهرياً في إيقاع شقاق بين الجزائر وفرنسا أدى في القرن العشرين إلى حرب دموية انتهت بانفصال الجزائر.

وأيدت البلدان الأوروبية الكبرى منح المساواة في الحقوق ليهود الدول الأخرى، ففي مؤتمر برلين عام 1878، على سبيل المثال، اقترحت فرنسا وألمانيا شرطاً للاعتراف باستقلال صربيا وبلغاريا ورومانيا هو الإقرار بـ "حريةالمعتقد". وطلب **دزرائيلي** باسم إنكلترا تعميم هذا المبدأ على جميع أجزاء الإمبراطورية العثمانية "التي تطلب العون من الدول العظمى". ويتضح من السياق أن المقصود هو حقوق اليهود تحديداً . وقال **الأمير غورتشاكوف** (وزير خارجية روسيا الشهير ما بين عامي 1856و 1882. – م) معترضاً: "إن اليهود في صربيا ورومانيا، كما في روسيا، يشكلون خطراً ، لأنهم لا يشبهون يهود باريس ولندن وبرلين وفيينا، وسوف تنجم عن مساواتهم في الحقوق آثار تلحق الضرر بالبلاد". ومع ذلك أقر مؤتمر برلين مطالب فرنسا وألمانيا.

ولكنْ، كيف سارت العلاقات بين اليهود وباقي الشعوب التي عاشوا بين ظهرانيها في هذا القرن الذي انفتحت فيه كل سبل الحياة أمامهم ؟ لقد عبر كثيرون عن أملهم بأن "المسألة اليهودية " لم يعد لها وجود، وأن اندماج اليهود كان يتحقق، أو أنه سيتحقق بالكامل في القريب العاجل.

وبالفعل، فقد تزايد عدد الزيجات المختلطة، فبلغ عدد زيجات اليهود المختلطة في بروسيا نسبة 10 % عام 1880، و13% في العام 1890، و20% في العام 1913 قياساً إلى عدد الزيجات اليهودية الصرف . وكذلك يخبرنا **زومبَرت** ، في كتابه حول مستقبل اليهود، بأن الزيجات المختلطة بلغت في العامين 1905 – 1906 نسبة 22% من عد د الزيجات اليهودية . وظهر إلى الوجود ما يسمى بالتيار "الإصلاحي" في اليهودية ، وهو التيار الذي عرّف الانتماء لليهودية بأنه انتماء إلى دين، وليس إلى أمة. كما أعلن هؤلاء أن اليهود في هذا البلد أو ذاك هم مواطنون "على ديانة موسى ". وفي مؤتمر فرانكفورت الذي عقده حا خامات هذا التيار تقرر أن اليهودي يحق له الزواج من مسيحية تعترف بالتوحيد . واعتنق كثير من اليهود الدين المسيحي . وفي فيينا عام 1868، على سبيل المثال، سُجلت واقعتا تنصُّ ر بين اليهود، وفي العام 1875 سجلت 65 واقعة، وفي العام

1885 سجلت 255 واقعة، وفي العام 1904 سجلت 617 واقعة. وتم الاعتراف في بعض مناطق النمسا-هنغاريا باللغة العبرية (الإيديش) لغة رسمية.

غير أنه كان بوسع المرء أن يجد أيضاً مؤشرات تدل على أن الوضع لم يكن هنيّاً إلى هذا الحد . فقد خصص المؤرخ الألماني المعروف **تريتشكه** فصلاً كاملاً من كتابه *"تاريخ ألمانيا في القرن التاسع عشر "* للنفوذ اليهودي بعد أن تحررت ألمانيا من **نابليون**. ويتحدث المؤلف في هذا الفصل عن "مواهب يهودية نضجت باكراً ، وتربعت على قمة الصحافة اليومية":

"كانوا يتباهون بانعزاليتهم اليهودية، ويتنطعون في الحين ذاته لدور القادة للرأي العام الألماني.

وكان العمل التدميري والمغيظ الذي مارسته اليهودية الراديكالية أكثر خطراً، لأن الألمان ظلوا ردحاً طويلاً من الزمن حائرين أمام روح هذه القوة الأدبية الجديدة . فكانوا يسلّمون تسليماً أعمى بأن التنوير الألماني هو ما كان في واقع الأمر كراهيةً يهوديةً للمسيحيةِ، وكسموبوليتيةً يهوديةً".

ولعلّ الكلام عن *التسلط اليهودي في مجال الصحافة* أخذ يتردد لأول مرة بعد الانقلابات الثورية التي وقعت عام 1848 ومسّت أوروبا بأسرها تقريباً . وهكذا يتحدث **ف. إيبيلنغ** في كتابه *"عن الأدب والتاريخ"* بخصوص الصحافة في فيينا، فيقول:

"كان التسلط اليهودي واضحاً للعيان . إذ إنني التقيت 80 أديباً، فكان 57 منهم من "جماعتنا" (أي يهوداً. – م). ولكن هكذا كانت الحياة السياسية في أوروبا بأسرها عام 1848".

وتشكلت في ألمانيا حركة عريضة تحت شعارات النضال ضد "التسلط اليهودي" في ميداني الصحافة والمال . فكتب **تريتشكه** يقول:

"لقد نجحت الدعاية الحالية في فهم مزاج المجتمع الذي يرى في اليهود مصدر بؤسنا القومي".

و كانت هذه الحركة ، تحديداً، هي التي أسمت نفسها "معادية للسامية "، ولعلّ هذا المصطلح ظهر أول ما ظهر إلى الوجود آنذاك . لقد كانت هذه الحركة مؤثرة، وحظيت بمساندة نشطة حتى من قبل واعظ البلاط **شتيكر**. ثم تأسست "الرابطة المعادية للسامية" التي جمعت 250 ألف توقيع على عريضة رُفِعت إلى الرايخستاغ (البرلمان) تطالب فيها بفرض قيود معينة على اليهود . غير أن البرلمان لم يوافق على هذا المطلب . وكتب **ف. مارّ** ، أحد منظّري تلك الفترة، كراساً بعنوان *"انتصار اليهود على الجرمان "* أكد فيه أن الجماعة اليهودية قد استولت على العالم، بل ويحظّر على المغلوبين أن يتكلموا عن ذلك. وأضاف قائلاً إن البلد الوحيد الذي لم يهزم بعد ولا يزال يناضل هو روسيا، ولكنّ تَناسب القوى هناك في وضع يجعل النتيجة محسومة سلفاً . إنهم سوف يزجون بكل القوى ضد روسيا، وسيجعلون منها نقطة ارتكاز **أرخميدس** لكي يقلبوا العالم.

ظلّت الاضطرابات الشعبية المعادية لليهود تندلع في **إنكلترا** حتى مطلع القرن العشرين . ففي العام 1911، على سبيل المثال ، اجتاحت هذه الاضطرابات كل أنحاء **ويلز** ، حيث جرى تحطيم العديد من منشآت اليهود ومتاجرهم.

وفي فرنسا صدرت عامي 1881 – 1882 مجلتان هما *"المعادي لليهود "*، و*"المعادي للسامية "*. وقال **برودون** عن ثورة 1848: "لقد بدّلْنا اليهود ". وقد تسببت *"قضية* **دريفوس**" باندلاع موجة من مشاعر العداء

الضاري للسامية في فرنسا. ففي العام 1894 أدين ضابط يهودي في الأركان العامة الفرنسية، اسمه **دريفوس**، بتهمة نقل أسرار عسكرية لألمانيا . وتلا ذلك فيما بعد احتجاجات واتهامات تقول إن القضية مفبركة . وانقسم الرأي العام . فتعالت الاتهامات بمعاداة الوطنية والرغبة بإهانة الجيش ، من جانب؛ واتهامات بالنزعة العسك رية والرجعية ومعاداة السامية، من جانب آخر . وتحول موضوع إدانة **دريفوس** أو براءته إلى مادة للصراع الحزبي. ثم انتصر "الدريفوسيون" في نهاية المطاف، إذ تم العفو عن **دريفوس** أوّلاً، ثم رُدَّ له الاعتبار فيما بعد، ومُنح وساماً ورتبة مقدم. وأسفر ذلك في المحصلة عن سقوط شريحة كاملة عن قمة الهرم السياسي . ولا ينبغي معاينة هذا الانقلاب بمعزل عن "قضية" سبقته وهزت فرنسا أيضاً ، هي قضية "بناما". إذ كانت الشركة المساهمة التي تولّت شقّ قناة بناما قد باعت أسهماً لقاء مبالغ ضخمة بلا ضمان، وعملت للحصول على دعم الحكومة عن طريق الرشوة. وعندما افتُضِح الأمر ، تبين أن وزراء ونواباً في البرلمان وجزءاً كبيراً من الصحافة تلقوا رشاوى . وكان من بين المبادرين إلى فضح هذه العملية الصحفي **دريمون**، صاحب جريدة *"الكلمة الحرة"* التي شن على صفحاتها أيضاً حملة ضارية مناهضة لليهود . و**دريمون** هذا هو نفسه مؤلف كتاب *"فرنسا اليهودية"* (1886). وقد تبين أن المسؤولين الرئيسيين عن عملية النصب تلك ، هم: **البارون ريناخ** (أصله من هامبورغ)، و**إميل آرتون (آهارون)** الذي كان **إسحاق بلانك** مساعداً له. واتضح كذلك أن الشركة "سحبت" من جيوب الناس ما يربو على 1300 مليون فرنك خلال ثمانية أ عوام، فكان الإفلاس والخراب من نصيب نصف مليون شخص . وقد أفلت المذنبون الرئيسيون من العقاب (وتوفي **البارون ريناخ** فجأة في ظروف غامضة)، غير أن شريحة كاملة من الشخصيات السياسية المتورطة بالفساد اضطرت لاعتزال السياسة . ولكن الانتصار في *"قضية* **دريفوس**" أسفر عن عودة معظم أولئك الذين كان **كليمنصو** أكثرهم شهرة.

بيد أن الآراء التي تتنسَّم روح *التلمود* كانت تصدر أحياناً من الجانب اليهودي ، فتلغي كل منجزات *"عصر الاندماج"*. ولعلّ واحداً من أكثر الأمثلة تطرفاً يتجسد في مقالة كتبها الصهيوني **كليوتسيل**، ونُشرت في مجلة *"يانوس"* قبل فترة وجيزة من اندلاع الحرب العالمية الأولى. وجاء فيها:

"إن معاداة السامية، أو كراهية اليهود، تقابلها من الجانب اليهودي كراهية عظيمة لكل ما هو غير يهودي . فكل من ليس يهودياً، كما نعرف، نحن اليهود، هو معاد للسامية في مكان ما من خبايا نفسه، ويجب أن يكون كذلك؛ وكل يهودي يكره أيضاً، في أعمق مرتكزات كيانه، كل ما ليس يهودياً".

وقد وجدت هذه البغضاء "اليهودية العظيمة" تجليها العبقري في الأدب ذات مرة ، في شخصية *"شايلوك"* عند **شكسبير**. فنحن نرى الشيء الرئيسَ عبر كل ما هنالك من مبالغة تناسب طبيعة الكوميديا : نرى أمامنا يهودياً، وأكثر من ذلك، يهودياً حاقداً.

وطبيعي أنه قد لا يكون وُجِد أبداً يهوديٌ يتعطّش لقطعة لحم من صدر **أنطونيو**. وأكيد أنه ما من يهودي تتملكه اليوم أفكار نيرونية من نمط : "ليت كل ما ليس يهودياً يمثُل أمامنا ضحية، ثم يعطوننا السكين ". وأكيد أيضاً أن كثيراً من محاولا ت "التقارب" و"الاندماج" قد قوبل من جانبنا بقدْر كبير من الجدية، مثله مثل الأفكار اليهودية المأساوية من الجانب الآخر . ولكنْ، بصرف عن ذلك كله ، فإن كلمة "يهودي" لا توحي بالأمان لأي شخص غير يهودي، مثلها في ذلك مثل كلمة "الغير" في نظر أي يهودي. على أن هذا ليس إ هانة، وإنما هو

دليل أكيد على الفرقة. فلنكن نزيهين: إن غير اليهود، مهما كان تقديرنا عالياً لغير اليهودي كشخص بحد ذاته ، ومهما كانت صداقتنا معه ، فإن كلاً منّا (ومن ذا الذي يستطيع الاعتراض هنا ؟) يضعهم – ككتلة صمّاء، كروح، كمجال للنشاط ، وكوحدة ثقافية – في مرتبة أدنى من اليهود ! أعتقد أن بالإمكان إقامة البرهان على أن ثمة بين اليهود حركة تمثّل انعكاساً مرآتياً لمعاداة السامية. وهذا ما أسميه بـ *"الكراهية اليهودية العظيمة"* .

لست مخوَّلاً كي أتحدث نيابة عن اليهود . فلعلّني لم أتبادل كلمة واحدة حول هذه المواضيع مع أي يهو دي كان. غير أن هذا التجنب للموضوع غالباً ما يكون ذا طابع حقوقي . ففي واقع الأمر ليس ثمة ما هو حيٌ فيَّ كثقتي هذه بأنه إن كان هناك من شيء يوحد يهود العالم كله فما هو إلا هذه الكراهية العظيمة الرفيعة.

أعتقد أن عليّ أن أتفا دى الإشارة إلى المسوغات العلمية ، ما هو منها تاريخي أو سيكولوجي ، على سبيل المثال. فأنا أحس هذه الكراهية، هذه الكراهية إزاء شيء ما عديم الملامح، تتعذر الإحاطة به، أحسها كجزء من فطرتي، نضج في داخلي، وعليّ أن ألقي مسؤولية تطوره ونموه على قانونٍ ما من قوانين الطبيعة . إذ يخيّل إلي أن ذلك هو نواة الكائن البشري، أي أن يدرك المرء طبيعته ويدافع عنها.

يعدّوننا خطراً على ألمانيا . وإننا لكذلك، بالطبع، ولكن هذا صحيح بقدْ ر ما هو صحيح أن الروح الألماني يمثّل خطراً على الروح اليهودي . ولكنْ، أيعقل أن نُطالَب بالقضاء على أنفسنا انتحاراً ؟ إن اليهود الأقوياء خطر على كل ما هو غير يهودي، هذه حقيقة، وما من أحد يستطيع أن يشك فيها . وجميع المحاولات التي تبذلها أوساط يهودية معينة لإثبات العكس ما هي إلا محاولات جبانة بقدْر ما هي مضحكة ! ولكن ما يبدو أكثر غرابة بعدُ هو أن يطالبنا غير اليهود ، مطالبةً جديةً تماماً ، بالتخلي عن كراهيتنا الطبيعية، ثم ينتظرون منا ضبط النفس والتواضع والاستكانة".

إن قول **كليوتسيل** هذا لا يعدو كونه رأي شخص بمفرده، طبعاً . غير أنه يثير الاهتمام بوصفه التجلي الأقصى لخيبة الأمل بطريق الاندماج . وقد تجلى هذا المزاج العقلي ذاته على نطاق أوسع كثيراً في الحر كة الصهيونية التي سعت لإقامة دولتها، الدولة اليهودية . إذ بالرغم من أن فكرة العودة إلى فلسطين كانت شائعة دائماً في الديانة اليهودية، فإن **تيودور هرتزل (بنيامين زيف)** الذي كان ينتمي تحديداً إلى نمط اليهودي المندمج، وكان صحفياً في فيينا، هو مَن أسس هذه الحركة ا لعالمية الجديدة. ذلك أن **هرتزل** كان مراسلاً في باريس لصحيفة *"نويه فراي بريسي "* النمساوية أيام السجالات التي دارت حول *"قضية* **دريفوس** "، فأحدث ما شاهده انقلاباً في رؤيته للعالم. إنه يحاجج في كتابه البرنامجي *"الدولة اليهودية"* ليبرهن أن اليهود لن يتسنى لهم أبداً أن يصبحوا جزءاً عضويا من المجتمع الأوروبي، وأن المخرج السليم الوحيد أمامهم هوأن يقيموا دولتهم الخاصة بهم، وأن يعيشوا كباقي الشعوب. يقول **هرتزل:**

"ما من أحد ينكر وضع اليهود البائس . إنهم يتعرضون للاضطهاد بهذا القدْر أو ذاك في جميع البلدان التي يعيشون فيها بأعداد معتبرة.

وجميع الشعوب التي نعيش بين ظهرانيها، مجتمعةً كانت أومنفردةً، أعداء للسامية سافرون أو مستترون.

إن العداء لنا يستيقظ كل مرة من جديد بعد فترات قصيرة من التسامح.

فمن ناحية، تجري عملية تحويلنا إلى بروليتاريين وثوريين، حيث نقدم ضباط الصف لجميع أحزاب الانقلابات، ومن ناحية أخرى، في الأعلى، تتزايد قوتنا المالية الهائلة.

فليعطونا السيادة على حيّز معين فوق سطح الأرض يكون كافياً لتلبية مطالب شعبنا العادلة ، وعندها نتكفل نحن بكل ما عدا ذلك".

وقد رأى **هرتزل** أن المكان الملائم لهذه الدولة هو **فلسطين**، ولكنه كان ينظر إلى *الأرجنتين* أو *أوغندا* كمكان محتمل بديل. وحظيت هذه الحركة بدعم واسع، وأضحت حركة عالمية. فانعقد المؤتمر الصهيوني العالمي الأول في العام 1897 في *بازل*، والثاني عام 1898 في *بازل* أيضاً. وحين اندلعت الحرب العالمية الأولى كان قد انعقد 11 مؤتمراً من هذا النوع. وفي عام 1897 تم تأسيس *المنظمة الصهيونية العالمية*. على أن أهداف هذه الحركة عرفت منذ البداية صياغات مختلفة. فها هو منظِّرُ الصهيونية النافذ **آحاد هاعام (غينسبرغ)** يقول:

"أيعقل أننا كابدنا كل ما كابدناه ... لا لشيء إلا لنؤسس في نهاية المطاف دولة ضئيلة الحجم ؟ (...) لا بد من إقامة مركز روحي في صهيون من شأنه أن يوحد شعب الشتات بوشائج روحية . ولتحقيق ذلك يكفي أن ينتقل إلى فلسطين للعيش فيها جزء طفيف من الشعب اليهودي، ولو لم يزِد على واحد بالمائة منه...

... إن الكتلة اليهودية مكتوب عليها أن تظلّ في الشتات، ويجب على النخبة المختارة وحدها أن تؤسس في فلسطين مركزاً ثقافياً يشع منه نور الإبداع اليهودي الجديد".

حقاً، لقد بقي الجانب الواقعي من البرنامج الصهيوني غامضاً جداً. فإذا كان المقصود هو تقديم مساعدة لليهود الذين يعانون أشدّ الأوضاع قسوة، فإن الهجرة إلى الولايات المتحدة، مثلاً، كانت توفر مخرجاً أكثر واقعية بكثير. أما إذا كان المقصود هو تجميع قسم كبير من الشعب اليهودي في فلسطين على أساس "تنفيذ وصايا العهد"، فهذا يعني برنامجاً دينياً يرتبط بظهور المخلّص المنتظر. بل ولقد كان (ولا يزال) من الصعب على المرء أن يتصور كيف يمكن تنفيذ هذا البرنامج. فما من شك في أن فلسطين ما كان بوسعها أن تعيل هذا العدد من البشر، وهو أمر واضح الآن أيضاً. وللحقيقة، فقد ورد في بعض الوثائق الصهيونية آنذاك كلام عن فلسطين وبعض البلدان المجاورة (تركيا الآسيوية، مثلاً). وعلى أي حال، فإنه يتعذر على الفهم كيف كان لهم أن يعيشوا، أي المهاجرين اليهود، مسترشدين بمبادئ اليهودية . ذلك أن المستوطنات في فلسطين، على سبيل المثال، حافظت على وجودها فترة طويلة بفضل تبرعات **روتشيلد**، عميد البيت المصرفي المعروف. ولكن ماذا كان سيفعل هو بالذات في دولة تأسست على مبادئ اليهودية؟ وذلك، مثلاً، بسبب الوصية التي تقول:

" لا تتقاضَوا فوائد عمّا تُقرضونه لإخوتكم من بني إسرائيل، سواء كانت القروض فضة، أو أطعمة أو أي شيء آخر. أمّا الأجنبي فأقرضوه ربياً" (التثنية 23، 19).

ولكنْ، أياً كانت الأهداف السياسية التي استرشد بها الزعماء، فإن مشاركة عشرات أو مئات من الآلاف من عامة اليهود في هذه الحركة كانت تعني، من وجهة نظرهم، الإقرار بأن تيار الانعتاق والاندماج الهائل قد أخفق بمجمله، وذلك بغضِّ النظر عما حققه من نجاحات باهرة. لقد أثار تيار الصهيونية الذي أرساه **هرتزل** فورة هائلة من المشاعر والأفكار في الوسط اليهودي، ولكن لم يكن له سوى صدى عملي ضعيف للغاية في المرحلة موضعِ بحثنا الآن، لأن عدد المهاجرين إلى فلسطين، حتى بداية الحرب العالمية الأولى، لم يتجاوز بضع

عشرات من الآلاف. هذا في حين اجتاحت يهودَ أوروبا الشرقية في القرن التاسع عشر حركة أقوى بما لا يقاس، هي حركة الهجرة إلى البلدان الرأسمالية الأكثر تطوراً ، أي إلى ألمانيا وإنكلترا ، وبالدرجة الأولى إلى أمريكا الشمالية. فقد توجه 80 % من المهاجرين إلى أميركا، وكان معظمهم من روسيا . وارتفع عدد السكان اليهود في أمريكا الشمالية من ثلاثة آلاف إلى مليونين في غضون هذا القرن (التاسع عشر) فقط. وهكذا أخذت تتكون هناك قوة هائلة لعبت فيما بعد (وما زالت تلعب حتى الآن) دوراً حاسماً على صعيد العالم بأسره.

على أن معظم اليهود الذين استوطنوا في أميركا قَدِمَوا من مناطق كانوا يعيشون فيها ضمن تنظيم القهال . غير أن من المشكوك فيه أن يكون هذا التنظيم بقي قائماً بعد الهجرة إلى ما وراء المحيط ، مثلما يصعب، من ناحية أخرى، على المرء أن يتصور أن التقاليد التي رسّختها قرون من الحياة داخل هذا النظام قد كفت عن الوجود بالكامل. فلقد نشأ، بالفعل، في أمريكا عدد من المنظمات اليهودية، على غرار **اللجنة اليهودية الأميركية** التي تأسست في العام 1906 بزعامة **ياكوف شيف** الذي كان يملك واحداً من أكبر البنوك الأميركية هو بنك *"كون، ليب وشركاهما"* . وتجمَّعَ عدد كبير من المهاجرين اليهود في منظمات تسمى *"أخويات"* . إلا أن حقيقة ما كانته هذه المنظمات ليست واضحة تمام الوضوح. لقد كانت تتألف من *"محافل"* و*"مجامع"* تذكرنا بالتنظيم **الماسوني**. بيد أن هناك من يؤكد أحياناً بأن هذا الشبه لا يعدو كونه ظاهرياً محضاً، وربما كان الأمر يعكس تقليداً آخر. وتورد *"الموسوعة اليهودية"* المعطيات التالية عن هذه الأخويات:

الأخوية	عام التأسيس	عدد الأعضاء عام 1907	عدد المحافل
– بريت أبراهام (مستقلة)	1887	104796	446
– بريت أبراهام	1859	55957	331
– بناي بريت	1843	21500	420
– أبناء بنيامين	1877	20336	150
– أبناء يهودا	1890	19000	118
– آغوات إسرائيل	1893	16963	132
– أبناء إسرائيل الأحرار	1849	10920	105

وفيما بعد حظيت *"بناي بريت"* بالنفوذ الأكبر بين هذه الأخويات، وقد تأسست بتاريخ 13 تشرين الأول عام 1843 في نيويورك على يد بضعة مهاجرين يهود من ألمانيا . وكانت تسمى في البداية *"بوندس برودير"* ، أي *"اتحاد الأخوّة"* . وقد عكست هذه التسمية الألمانية أصل مؤسسيها . ثم اتخذت فيما بعد اسم *"بناي بريت"* الذي يعني *"اتحاد العهد"* . وجاء في كتاب مكرس لهذه الأخوية صدر في فترة متأخرة: "نظراً لأن اليهود الذين ولدوا في الولايات المتحدة الأميركية باتوا متأمركين فوق الحد ، وليسوا يهوداً بالقدْر الكافي، فإن الجالية اليهودية كانت عاجزة عن إدماجهم . وهذا ما أدى في نهاية المطاف إلى تأسيس *"بناي بريت"* . ولما كانت الجالية اليهودية الأميركية غير قادرة على حل هذه المشكلة القائمة، فإن الجالية اليهودية الألمانية أنشأت البنى الضرورية لتحل محل المركزية التي كانت حتى ذلك الحين في أيدي القهال والكنيس بين يهود نيويورك".

مراجع الفصل الثامن :

1 – Graetz H. Geschichte der Juden, Bd. II

2 – Bartels A. مرجع سابق ورد في الفصل السادس

3 – Heinrich Heine. Werke. Dresden, 1906

4 – Heines Letzte Gedichte und Gedanken, herausgegeben von Strodtmann, 1869

5 –Berne L. Brliner Brief. 1927

6 – Berne L. Briefwechsel mit Henriette Herz. 1905

7 – Steig R. Heinrich von Kleists Brliner Kampfe, Brlin, 1901

8 – Meister A. Die Presse als Machtmittel Judas. Vunchen. 1930

9 – Treitschke. Deutsche Geschichte im 19. Jahrhundert. 3 Teil. Leipzig, 1889

10 – Ebeling W. Zur Geschichte und Literatur. Belin, 1867

11 – Sombart w. Die Juden und das wirtischaftsleben. 12 – Sombart W. Die Zukunft der Juden. Leipzig, 1912

13 – Kurschner Joseph. Semi- Kurschner, Berlin, 1901

14 – Blokosly S.The distorted image. N-J, 1975

15 – Cheskel Zwi Klotzel. "Das grosse Hassen". " Journal " Janus". 1914, no 2

16 – Lebenserinnerungen und Denkwurdigekeiten von Hern Freihem v. Eskardstein. Bad. II. Leipzig. 1921

17 – Frank W. nationalismus und Demokratie in Frankreich der dritten Republik. 1933 Hamburg

18 – 1896 هرتزل ت. الدولة اليهودية. سان بطرسبورغ،

19 – " الموسوعة اليهودية". المجلد 3، المواد " العداء للسامية"،"الاندماج" "آحاد هعام"(غينتسبيرغ). المجلد 14، "الصهيونية".

20 – Dash Moore Deborah. B`nai B`rith and the challenge of ethnic leadership.N. J. 1981

الفصل التاسع

دورهم في تطور الحركة الاشتراكية

إن التناقض التناحري بين الرأسمالية والاشتراكية موضعُ تشديد واستعراض إلى درجة ترغِم على إثارة الشك : أليس هذا التناقض قناعاً يخفي وراءه وحدة داخلية بين طرفيه ؟ أليست الرأسمالية والاشتراكية سبيلين يؤديان إلى هدف واحد هو بناء المجتمع الصناعي، أو "الحضارة التكنولوجية "؟ إن هاتين الظاهرتين متشابهتان جداً ، وذلك على الأقل من وجهة نظر الموضوع الذي يعنينا هنا . فإذا كان اليهود ، وفقاً **لزومبَرت** ، قد لعبوا دوراً هاما في وضع الصيغة الرأسمالية للمجتمع الصناعي المعاصر ، فإن دورهم في بناء إيديولوجيا الاشتراكية وتنظيم الحركة الاشتراكية يبدو جلياً للجميع.

على أن الرأسمالية والاشتراكية لم تتجليا بادئ ذي بدء، على صعيد الأيديولوجيا، في شكل تناقضات تناحرية . بل بـالعكس، إذ إن التعاليم الاشتراكية الأولى التي ظهرت في القرن التاسع عشر يمكن ال نظر إليها بوصفها الصيغة الراديكالية لأيديولوجيا الرأسمالية. وقد لعب اليهود في الوقت نفسه دوراً بالغ الأهمية في تطويرها . ونعني بذلك *السانسيمونية*.

لم تكن أيديولوجيا مجتمع الرأسمالية المتطورة الجاري بناؤه والأيديولوجيا الاشتراكية قد افترقتا بعدُ في نظرية **سان سيمون** ، ولم تقفا بعدُ كنزعتين متناقضتين، ولهذا غالباً ما يصعب التمييز بينهما في إطارهذه النظرية . وأساس ذلك يقوم على الإحساس بحلول حقبة جديدة ما، غير عادية أبداً ،هي *"العصر الصناعي"*. وهنا تحتل الصدارةَ مسألةُ التنظيم . فمنظمو المجتمع، ولا سيّما منظمو الاقتصاد فيه، يجب أن يصبحوا القادة الحقيقيين للدولة ، ويجب أن تخضع الحياة لهم . ذلك أن فكرة الحرية "الغامضة والميتافيزيقية " مناقضة لتطور الحضارة وتنظيم المجتمع تنظيماً مبرمجاً. فالمجتمع آلة حقيقية، وينبغي تشييده بطريقة عقلانية، على أساس خطة علمية . وينبغي إعادة بناء الحياة كلها على نحو يخدم هدفاً واحداً هو مضاعفة الفعالية الاقتصادية. على أن ذلك يتطلب وضع دين ملائم أيضاً، "تماماً مثلما يعلِّمون في المدرسة **العادية** بناء الجسور أو الطرق ". ويجب بلوغ مستوى من الكمال في التحكم بإدارة سيكولوجية الجماهير يماثل مستوى حل مسألة هـ ندسية في الرياضيات . كما ينبغي إعطاء الملكية صيغةً من شأنها أن تكون أكثر ملاءمة لتطور الاقتصاد المركزي، والموجَّ هـ من قبل الدولة (وهذا هو في الحقيقة العنصر الوحيد في تعاليم **سان سيمون** الذي يجعل من تلك التعاليم "سلفاً للاشتراكية العلمية "). وقد عمَّم تلاميذ **سان سيمون** هذه الفكرة، فيما بعد، على العائلة أيضاً.

كانت *السانسيمونية* أول تيار في أوروبا تتحد فيه *الخلاصية* (فكرة الخلاص المسيانية) السياسية والحلم بحلول "العهد الجديد "، مع نفوذ يهودي قوي . لقد ماهى **سان سيمون** بالذات بين انتصار تعاليمه المقبل وبين فكرة "*ملكوت المخَلِّص*" اليهودية، ذلك الانقلاب الذي تنبأ به **العهد القديم** وترقَّبه اليهود.

لقد لعب اليهود دوراً بارزاً بين أتباع **سان سيمون** الذي حظي بدعم مالي من قبل عدد من رجال المال اليهود. وكان بين أقرب أعوانه عدد من اليهود، هم: رجل المال **أوليند رودريغس** وأخوه الأصغر **يفغيني، وإميل**

وإسحاق بريبرا، وديه تال ، والشاعر **ليون غاليفي، وموبس رينوده، وفيليسن دافيد** . وقد شاعت نكتة عن صاحب أعمالٍ مُضاربٍ في بورصة باريس نصحه بعضهم باتخاذ شريك يهودي له بغية ضمان النجاح في عمله (لمسة دالّة لتوصيف الأوساط المالية آنذاك)، فردَّ على النصيحة بالقول: "عندي اثنان من أنصار سان سيمون**!**". حتى أن التهمة القائلة إن "الاشتراكيةَ مؤامرةٌ يهوديةٌ هدفها تدمير المجتمع المسيحي "، والتي كثيراً ما ترددت لاحقاً في الأوساط اليمينية، كانت قد طرحت لأول مرة – على ما يبدو – بسبب *السانسيمونية* (في عمل الشاعر البولوني **كراسينسكي** *"الكوميديا الإلحادية"*).

وبعد وفاة **سان سيمون** ازداد النفوذ اليهودي قوةً بين أنصاره . فقد كان هؤلاء السانسيمونيون (حتى غير اليهود منهم) يترددون على الكنيس اليهودي في باريس . وكتب **رودريغس** يقول إن لقاءه ب**سان سيمون جعل** المؤالفة بين اليهودية والمسيحية أمراً ممكناً . وقال في تأبين **سان سيمون** : "سيكون **موسى** في المستقبل صانعَ طقوس عبادة ، **ويسوع المسيح** صانعَ عقيدة، أما **سان سيمون** فسيكون صانعَ دين، وسيكون هو البابا ". وقد وصل السانسيمونيون في بحوثهم الخلاصية إلى قناعة بأن *المخلِّص* يجب أن يولد، وأن أمه ستكون يهودية . وأصدروا نداء بعنوان *"إلى النساء اليهوديات "* ، جاء فيه : "إن عِرقكن هو الوشيجة السياسية والاقتصادية بين البشر ". حتى أن بعضهم توجه إلى الشرق الأوسط للبحث عن والدة *المخلِّص* الجديد. صحيح أنهم لم يعثروا على *المخلِّص*، ولكنهم وضعوا خطة لشق قناة السويس وتم تنفيذها فيها بعد.

ومما يبعث على الاستغراب هو أن المرء يجد في *السانسيمونية* نفسها منابع إيديولوجيا الرأس مالية المالية ، وإيديولوجيا الاشتراكية على حد سواء . لقد غدا قسمٌ من تلاميذ **سان سيمون** زعماء الحركة الثورية في فرنسا ، فيما غدا القسم الآخر منهم مؤسسين لبنوك وسكك حديدية (وليس في فرنسا فقط). ويتحدر هؤلاء جميعاً من بيئة علماء ومهندسين محترفين تكونت في باريس حول المدرستين *البوليتكنيكية والطبيعية* . وفيما بعد أصبح **بازار ، وبيوشيه، وسيركله** قادة جمعيات سرية، وثوريين محترفين . وأصبح **آنفانتين** منظم بناء سكة الحديد بين باريس وليون، وأصبح **الأخوان بريبرا** منظمَي بناء سكك الحديد في النمسا وسويسرا وإسبانيا وروسيا . فيما انتهج **تالبو** نهجهم أيضاً , ولكن في إيطاليا . واستُدعيَ آخرون من أتباع **سان سيمون** للعمل كمهندسين . وأسس *السانسيمونيون* عدداً من كبريات البنوك الفرنسية . وعلى العموم فإن مؤسسي الاشتراكية في القرن التاسع عشر قدموا الكثير للتطور الرأسمالي في أوروبا ، ولإضفاء طابع *"الرأسمالية المالية"* عليه. وقد لعب دوراً بيّناً في هذا الاتجاه في ألمانيا، على سبيل المثال ، كل من غ. **ميفيسن، وآ. أوبينهايم** اللذان كانا واقعين تحت تأثير **سان سيمون.**

ومن ناحية أخر ى، ظهرت لأول مرة في مؤلفات **سان سيمون** مفاهيم من نوع : البورجوازية، والبرولتاريا، والصراع الطبقي، وتنظيم العمل.

على أن الحركة الاشتراكية أخذت مداها الحقيقي في ألمانيا، طبعاً . وتقف عند منابع هذه الحركة شخصيةٌ ملتبسةٌ هي شخصية **موزيس** (أو **موريتس**) **هِس**. إنه رجل علَّم نفسه بنفسه ، نشأ في بيئة يهودية أصولية ، ويعطي في الظاهر انطباعاً بأنه فاشل. ذلك أنه لم يؤسس مجموعة أو حزباً ، بل ولم يجد حوله ولو عدداً يذكر من الأتباع. ورغم ذلك فقد كان له تأثير هائل على الخطوات الأولى للحركة الاشتراكية في ألمانيا . فهو صاحب

مجموعة من الم فاهيم التي رست فيما بعد في أساس الإيديولوجيا الاشتراكية الناشئة، وإن كان أولئك الذين ألهمتهم أفكاره (بالدرجة الأولى **ماركس وإنجلز**) حاولوا تصويره كشخصية شبه كوميدية لا تستحق منهم موقفاً جدياً.

إن **هس** هو صاحب الفكرة القائلة بأن مستقبل أوروبا سيقرره الاتحاد بين ألمانيا بوصفها حاضنة الفلسفة الهيغلية، وفرنسا كحاضنة للاشتراكية الثورية، وإنكلترا كحاضنة للاقتصاد السياسي الجديد . (للمقارنة، انظر : *"مصادر الماركسية الثلاثة"*). وهو مَن طرح، منذ ثلاثينات القرن التاسع عشر ، فكرة تقول بأن الحياة كلها يقررها التطور الصناعي الذي يؤدي إلى إفقار الكادحين إفقاراً متصاعد الوتائر ، وإلى كارثة اجتماعية . ولقد طور فكرة اغتراب العمل في صيغة النقود ، وإليه يعود انتقاد حقوق الإنسان كحقوق بورجوازية . وفي معرض نقده ل **فايتلنغ** كان يحاجج ليثبت أن الاشتراكية لا يمكن أن تتحقق بوصفها احتجاجاً على أش كال الحرمان المادي فقط ، وإنما يجب أن تتأسس على منطق الفكر ، على العلم. ثم إنه ، أخيراً ، صاحب الرأي القائل بأن الشيوعية هي التطبيق الواقعي لإلحاد **فويرباخ**. وهو بالذات من فتح أمام **باكونين** عالم هذه التصورات الشيوعية الجديدة . ولما كان **ماركس** قد توصل إلى هذه الآراء متأخراً عنه بضع سنوات، وبحكم معرفته **هس** معرفة قريبة، فإن من المستحيل أن يكون توصل إليها دونما تأثير منه. يقول **باكونين** (في رسالة إلى **غليوم** في آذار 1869):

"إن **موريتس هس** مثقف مثل **ماركس**، ولكنه عملي (؟) أكثر منه، وهو الذي صنعه بمعنى من المعاني".

و كتب **هس** عن **إنجلز** يقول:

"لقد غادرني شيوعياً مفرطاً في المغالاة... هكذا أنا أزرع الخراب".

(رسالة إلى **آويرباخ** بتاريخ 6/19/ 1843)

ولكن *المحيِّر* في **هس** هو أنه كان في الوقت نفسه صهيونياً راسخ القناعة ، وداعيةً للأفكار القومية اليهودية لا يكلّ. والمدهش أن ذلك لم يكن نتيجة أزم ةٍ، أو تبدلٍ في آرائه ؛ كلا ، فقد كان ذلك *يجري في وقت واحد* بالضبط، وعلى امتداد حياته كلها.

كتب **هس** يقول في أول عمل له بعنوان *"التاريخ المقدس للجنس البشري"*:

"كان مكتوباً على هذا الشعب (اليهود) منذ الأزل أن يسيطر على العالم ليس بقوة عضلاته ، كما فعلت روما الوثنية، بل بسموّ روحه الداخلي. لقد طاف العالمَ الذي يسيطر عليه، كما تطوف ا لروح. ولم يتمكن أعداؤه من القضاء عليه، لأن القبض على الروح ضربٌ من المحال . فقد تغلغلَ هذا الروح في ثنايا العالم، وثمة الآن إحساس بالحنين إلى نظام يليق **بالأم** المغرقة في القِدم . ولسوف يظه ر هذا النظام الجديد، ستعود الشريعة القديمة إلى الظهور من جديد في هيئة وضّاءة".

يرى **هس** أن اليهودية هي محرك التقدم الغربي المعاصر ، وأن روسيا هي عدوُّ ه الرئيس ويقول إن اليهودية أمةٌ وليست ديناً. ويتنبأ بأن معظم يهود الغرب سيبقون في أماكنهم حتى ب عد قيام الدولة القومية اليهودية ، بينما سيهاجر للاستيطان فيها يهود من "الدول الشرقية الهمجية " أساساً. وفي كتابه *"روما وأورشليم"* الذي صدر بعد ذلك بوقت طويل، يقول **هس**:

"الصدارة للصراع العرقي، أمّا الصراع الطبقي فثانوي". ويضيف:

"إن كل من ينكر القومية اليهودية ليس مرتداً ومارقاً بالمعني الديني وحسب، بل وهو أيضاً خائنٌ لشعبه وعائلته. وإذا ما تبين أن انعتاق اليهود لا يتوافق والقومية اليهودية، فإن على اليهودي أن يضحِّ ي بهذا الانعتاق. يجب على كل يهودي أن يكون وطنياً يهودياً قبل كل شيء".

وفي الحين ذاته شارك **هس** في أعمال الأممية الأولى، داعياً إلى التضامن الأممي بين العمال، والنضال الطبقي، بل وانتقد *برنامج إيرفورت* للديمقراطية الاشتراكية الألمانية على ما يفوح به من رائحة قومية.

وأخيراً، وفي مقالة له بعنوان *"جوهر النقد"*، يطرح **هس** فكرة تتصف بالمزيد من التعقيد:

"إن اليهود الذين كان عليهم أن ينفّذوا في زمن التاريخ الطبيعي للعالم مهمة تَحَوُّلِ الإنسان إلى حيوان برِّ ي، قد نفذوها بإتقان".

إن الشكل الذي لعبت الحركة الاشتراكية الألمانية من خلاله دوراً تاريخياً عالمياً هو شكل جاءها على يدي شخصيتين اثنتين، هما **ماركس** (الذي لم يكن اسمه الحقيقي **كارل**، بل **مَردخاي) ولاسال**. وكلاهما كانا واقعين تحت تأثير قوي من جانب الاقتصادي الإنكليزي ذي الأصل اليهودي **ريكاردو** الذي لم يكن اشتراكياً، ولكنه وضع "نظرية قيمة العمل" التي أرست أساساً لعدد من التيارات الاشتراكية. وقد كان **ماركس ولاسال** على عداوة فيما بينهما، وكان **ماركس** يحب في مراسلاته تسمية **لاسال** بـ "اليهودي التافه". فيما كان **لاسال**، من جهته، يردد، قاصداً **ماركس** على ما يبدو، أن اليهود يجب إبقاؤهم بعيداً عن الديمقراطية الاشتراكية. إلا أن **لاسال** كان في شبابه قومياً يهودياً متشدداً، يحلم أن يكون على رأس شعبه، وأن يقوده نحو التحرر عبر *"سفك الدم المسيحي"*. على أن مشاعر كهذه لا يمكن التخلص منها بسهولة.

أما وصْفُ **ماركس** والمحيطين به على لسان **باكونين** (في مخطوط له بعنوان *"علاقاتي مع ماركس")* فقد جاء على النحو التالي:

"هو نفسه يهودي، وله من حوله، سواء في لندن أم في فرنسا، وخاصة في ألمانيا، شلّة كاملة من يهود تافهين، مثقفين بهذا القدْر أو ذاك، ودساسين، وحركيين ومضاربين، كجميع اليهود في كل مكان، وعملاء تجاريين أو مصرفيين، وكتّاب اجتماعيين، وأدعياء سياسة، ومراسلي صحف من جميع الاتجاهات والتلاوين ... إنهم باختصار من سماسرة الأدب، إضافة إلى كونهم من سماسرة البورصة الذين يضعون قدماً في عالم المصارف وأخرى في الحركة الاشتراكية، ويتربعون على عرش الصحافة الألمانية اليومية. لقد وضعوا أيديهم على جميع الجرائد، ولكُم أن تتصوروا أي أدب كريه ينتج عن ذلك كله. وهكذا، فإن مجمل هذا العالَم اليهودي الذي يؤلّف طائفة استغلالية مغلقة، وشعباً مصّاص دماء، وطفيليات عجفاء لا تشبع، منظمةً على نحو من التلاحم والتكاتف لا يتخطّى جميع الحدود القائمة بين الدول وحسب، بل وجميع الاختلافات القائمة في المؤسسات السياسية؛ هذا العالَم اليهودي يقوم الآن في معظمه على خدمة **ماركس** من جهة، **وروتشيلد** من جهة ثانية. وإنني لعلى قناعة بأن آل **روتشيلد**، من ناحية، يقدّرون خدمات **ماركس**، فيما يشعر **ماركس**، من ناحية أخرى، بانشداد غريزي واحترام عميق لآل **روتشيلد**".

إن هذا، بالطبع، رأيُ عدوٍّ وشخصٍ متحيز إلى أقصى حدّ. غير أن في وسعنا أن نستقي، وعلى نحو غير متوقع، معلومات أكثر موضوعية عن مشاعر **ماركس** القومية من مذكرات الأمير **هلودفيغ هوغينلوي**. فهو يتحدث عن مقابلة له مع الصحفي الفرنسي الشهير **مكسيم دو كام** قائلاً:

"على أننا في أثناء حديثنا تطرقنا إلى اليهود، فقال إنه تعرف إلى **ماركس**، وزعم أن هذا أعرب له عن فكرة فحواها أن الأممية وحزبها لا يعترفان بالشعوب كل على حِدة، وإنما بالإنسانية فقط. وردَّ عليه **دو كام** بأن القومية، وإن كانت شيئاً ثانوياً، إلا أنها عند الارتقاء بها إلى درجة المبدأ، لعبت دوراً غير قليل الشأن في إنجاز قضايا هامة. فاعترض **ماركس** بحمية قائلاً: "كيف تريدون أن نكون وطنيين ما دام لم يكن لنا وطن منذ أيام **تيتوس!**". وقد خرج **دو كام** بانطباع مفاده أن هذا هو سبب نشوء الأممية التي تدين بظهورها لليهود".

لقد ترك **ماركس ولاسال** إرثهما، بهذا الشكل أو ذاك، لليهود على وجه الحصر تقريباً. ونصادف أيضاً شخصية محيرة أخرى هي شخصية المليونير اليهودي **باول (بينخوس) زينغر** (كانت آلات الخياطة من ماركة **زينغر** لا تزال تستخدم عند معظم الأسر في بلادنا حتى بعد الثورة بوقت طويل) الذي كان له في الوقت نفسه أيادٍ بيضاء على الديمقراطية الاشتراكية يفتتح مؤتمراتها الحزبية، ويمثّل حزباً في *الرايخستاغ* (البرلمان الألماني)، علاوة على أنه كان رئيس الجالية الدينية اليهودية.

لقد تأسس أول تجمع عمالي اشتراكي ألماني (*"الأخوية العمالية"*) في العام 1848 على يد **بوترميلش** الذي اتخذ اسماً له (**ستيفان بورن**). وفيما بعد أسس **لاسال** *"الاتحاد العمالي الألماني"* الذي أصبح **زينغر** رئيساً له بعد وفاة **لاسال**. وكان اليهودي **كارل هوخبير** هو من بدأ بإصدار أول جريدة ديمقراطية اشتراكية باللغة الألمانية. فأضحت جريدة *"فورفيرتس"* لسان حال الديمقراطية الاشتراكية المركزي. وقد تولّى رئاسة هذه الجريدة على التوالي كل من **برنشتاين**، ثم **كارل ليبكنخت** (والده الثوري المعروف **ف. ليبكنخت** كان ألمانياً، وأمُّه ابنة سمسار في البورصة من بولونيا اسمه **باراديز**) **وكورت آيسنر**. وقد حدث خلال الحرب العالمية الأولى انشقاق في الديمقراطية الاشتراكية الألمانية صار على إثره اليهودي النمساوي **شتامبفير** محرراً لهذه الصحيفة، ثم خلَّفه فيما بعد **كوتنير**. وكانت الأمور تسير على هذا النحو أيضاً في الصحف الأخرى الناطقة باسم الديمقراطية الاشتراكية الألمانية. فقد كان **كاوتسكي** يحرر *"دي تسوكونفت"* و*"دي نوي تسايت"*. أما صحيفة *"دي سوسيالستيش موناتسخيفت"* فقد كان يمولها المليونير الكبير **آرونس**، ويحررها **بلوخ**.

وكان الوضع مماثلاً في ميدان النظرية. فعندما قام **برنشتاين** بتحريف الماركسية عارضه **كاوتسكي**. وفي كتابه *"الاشتراكية البروليتارية"* يتحدث **زومبرت** عن دور اليهود في قيادة الديمقراطية الاشتراكية الألمانية، ويورد الأسماء التالية من بين قادتها: **زينغر، وأوستادتهاغن، وشونبانك،** وآرونس، **بارفوس (غيلفاند)، ور. لوكسمبورغ، وكاوتسكي، وهازه، وك. ليبكنخت، وبرونشتاين، وبراون،** و**فرانك، وفورم، وك. تسيتكين، وغيلفيردنغ، وليفي، وكون**... ويرسم **روبير ميخِلس** صورة مماثلة في كتابه *"سوسيولوجيا الأحزاب"* فيورد هذه الأسماء نفسها تقريباً. ويضيف أنه كان على رأس المنظمات المحلية شخصيات يهودية على وجه الحصر تقريباً.

وفي كتابه المشار إليه أعلاه يقول **زومبرت**:

"يبدو أن من كان يترأّس الديمقراطية الاشتراكية النمساوية، ولا يزال، هم اليهود فقط".

أما **ميخِلس** فيورد أسماء يهود كانوا ضمن قياد ة الديمقراطية الاشتراكية النمساوية، أم ثال : **فكتور آدلر، وإيلينبوغن، وآوستِرلِتس، وفريتس آدلر، وأوتو باور، وماكس آدلر، وهرتس، وتيريزا شليزنغر** ... وآخرين كثيرين. وفي مذكراته يتحدث **هيندريك دي مان** ، وهو شخصية بارزة في الحركة الديمقراطية الاشتراكية الدولية، عن أوضاع الحزب الديمقراطي الاشتراكي النمساوي – الهنغاري فيقول:

"ورغم كل الاحترام الذي كانوا يكنّونه للقدرات والمناقب الفذّة لدى "أبي الحزب" **فكتور آدلر** ، فقد كانوا يأخذون عليه ميله إلى تفضيل اليهود لشَغل المناصب القريبة منه.

وقصة **فكتور آدلر** هذه لم تكن الوحيدة من نوعها، فقد تكرر الشيء نفسه وفي شكل أكثر اكتمالاً مع ابنه **فريدريك** الذي كان بين عامي 1933 و1940، وه و سكرتير للأممية الثانية ، محاطاً في النهاية بموظفين من اليهود حصراً . كما أن سياسة **ليون بلوم** غير الموفقة في انتقاء الكوادر للحزب الاشتراكي الفرنسي الذي كان يتولّى زعامته، كان ولا يزال لها حتى اليوم، في تقديري، عواقب أشدّ سوءاً".

ووفقاً **لزومبَرت** ، فإنه كان بين الشخصيات القيادية أيام ***كومونة باريس*** عدد من اليهود هم : **ليون فرانكل، وسيمون ماير، وداكوستا، وإيسودورا دي فرانسوا، وغاستون كريميه.**

وفي إمريكا كان **دانييل دي ليون** هو من أسس الحزب الاشتراكي عام 1877. وعندما انقسمت *فيدرالية العمل الأمريكية* في العام 1905 إلى كتلتين، يمينية ويسارية، تزعّم الأولى **صموئيل هومبيرس**، والثانية **فوستر**.

وفي إنكلترا كان بين قادة *الجمعية الاشتراكية الفابية* كل من **ليونارد وولف وهارولد لاسكي.**

ويقول **ميخِلس** إن المؤتمر التنظيمي لـ "*حزب العمال*" الفرنسي عام 1879 كان متعذراً انعقاده لولا المساعدة المالية من طرف **كريميه**. كما أن الفضل في إصدار صحيفة *"لومانيتيه"* عام 1904 يعود إلى المساهمة المالية التي قدمها المصرفيون اليهود . ويُعطي **ميخِلس** مكانة خاصة بين زعماء الحزب الاشتراكي الفرنسي اليهود الأكثر نفوذاً لكل من **ميليران** (ولكنْ يبدو أنه من أبوين أحدهما يهودي) و**ليون بلوم** الذي سبق أن مرّ ذكره أعلاه.

ووَفقاً لهذا المؤلف نفسه فإن الوضع في البلدان الأخرى لم يكن مختلفاً من حيث الجوهر . ففي الولايات المتحدة الأميركية كا ن بين قادة الحزب الاشتراكي شخصيات يهودية مثل **هيلكويست** ، و**سيمونس، ووترمان** . وفي هولاندا كان هناك **هنري بولياك** ، **وفاينكوب، وميندلس** . وكان في إيطاليا كل من **لوزاتّي، وتريفيس** ، **وموديلياني، ولامبروزو**. ويضيف **ميخِلس:**

"كانت قيادة الأحزاب في كثير من البلدان، كروسيا ورومانيا، وخاصة في بولونيا وهنغاريا، تنحصر في أيدي اليهود دونما استثناء تقريباً، وهو ما يتضح في المؤتمرات الدولية منذ أول نظرة".

ويؤكد المؤلف أن الأمر كان على هذا النحو بالذات في أوساط الفوضويين أيضاً . وتجدر الإشارة إلى أن **ميخِلس** كان اشتراكياً، بل وفقد كرسيه الجامعي بسبب مداخلاته الاشتراكية . ولكنه كان ليناً، وشديد الحذر في التعبير عن آرائه بخصوص اليهود . فهو، على سبيل المثال ، يهنئ الديمقراطية الاشتراكية الألمانية بنجاحها في

التغلب على خطر معاداة السامية التي كان **دوهرينغ** ممثلها الرئيسي (وفي تلك الفترة بالذات صدر كتاب **ف. إنغلس** *"ضدّ دوهرينغ"*). ومع ذلك فإن **ميخِلس** لا يستطيع أن يتمالك نفسه عن إبداء الملاحظة التالية:

"إن الخاصية المشتركة بين اليهود، المتمثلة في قابليتهم على التكيف والحركية الروحية، لا يمكن أن تفسِّر كثافة النفوذ اليهودي الكمي والنوعي في الحركة العمالية".

وهكذا يتضح أن قيادة الأحزاب الثورية في القرن العشرين، قرن الهزات الثورية، كانت تتألف في معظمها من اليهود.

إن أوّل ما يتبادر إلى الذهن هو السؤال التالي: ألا يجوز أن يكون اليهود الذين شاركوا في الحركة الاشتراكية أمميين وملاحدة قطعوا مع جذورهم القومية، وأن أصلهم اليهودي لم يؤثر على هذه الحركة بأي شكل من الأشكال؟ ولكن يمكننا التثبت، على أقل تقدير، من أن الوضع في كثير من الحالات لم يكن على هذا النحو، إذ أننا نصادف حتى في هذا الكتاب أمثلة تدل على أن أشخاصاً قياديين بارزين في الحركة الاشتراكية كانوا في الوقت نفسه يهوداً ذوي تفكير قومي جليّ. وأكبر مثال على ذلك هو **موزيس هس**. ولئن كانت المعلومات عن **ماركس ولاسال** قليلة في هذا الصدد، فإن ثمة أدلة مباشرة على وجود بعض العناصر القومية في نظراتهما العقائدية. وقد أسس **كريميه** في البداية *"الاتحاد الإسرائيلي العالميّ"*، ثم ساعد في تنظيم *حزب العمال الفرنسي*. وإذا كان **بِرنشتاين** أحد زعماء الديمقراطية الاشتراكية الألمانية، فإنه هاجر في آخر حياته إلى فلسطين. أما **حاييم جيتلوفسكي**، أحد مؤسسي حزب الاشتراكيين الثوريين الروس ومحرر صحيفته *"العامل الروسي"*، فهو في الوقت نفسه مؤلف كراس *"يهودي إلى اليهود"*، الذي دعا فيه اليهودي للعودة إلى شعبه. أمّا **كاوتسكي**، في سجاله مع **تروتسكي** في كتاب *"من الديمقراطية إلى عبودية الدولة"*، فيحذّر من أن أحد أفظع الأخطار الناجمة عن الإرهاب الأحمر قد يتمثّل في القيام بـ*"بوغروم"* (مذابح) ضد اليهود والبلاشفة" (اليهود في المقام الأول!).

نستطيع أن نسوق كثيراً من هذه الأمثلة، غير أنها لا تفعل إلا **تسويغ** طرح السؤال الأساسي: ما هي صفة تأثير اليهود على تطور الحركة الاشتراكية؟ ولا تقدم أدنى عون **للإجابة** عليه. على أن اللافت للنظر هو أن اليهود الذين كان ارتباطهم بالتقاليد وبالانتماء إلى الحياة المحيطة بهم ضعيفاً، كان يهون عليهم أن يصبحوا دعاة لتدميرهذه الحياة. فلمّا كانت تلك التقاليد لا تلهمهم الحب، ولا تبعث فيهم الشفقة، كان يسهل عليهم الوصول إلى الاقتناع بأنها لا تصلح لشيء إلا لتدميرها بالكامل. وكثيراً ما كان ذلك يختلط بذكريات ضيمٍ وإهاناتٍ من الماضي، وأحياناً بحقد صريح يعود إلى ما ظل باقياً من آثار عدم المساواة في الحقوق. وهكذا كان اليهود يؤجّجون النزعة الراديكالية والثورية في الحركة الاشتراكية.

وقد أشار مراقبون كثيرون إلى وجود صلة أكثر عمقاً بين التصورات الدينية اليهودية وإيديولوجيا الاشتراكية. ذلك أن الإيمان بانقلاب تاريخي وكوني هائل سيحطم العالم القديم الظالم؛ والإيمان بالمسيح المخلّص الذي سيعيد "للشعب المختار" حقه الريادي في العالم، ويقيم نظاماً جديداً يتصف بالكمال، ويجد حلاً لجميع المسائل التي تعذب البشرية ... ذلك كله قريبٌ من روح التعاليم التي تبشر بثورة عالمية مرتقبة، وبانتصار البروليتاريا، وبالنظام الجديد الذي سيجد حلاً لتناقضات المجتمع البشري، بل ولتناقضات الإنسان مع الطبيعة أيضاً. ونحن نرى أن أتباع **سان سيمون**، على سبيل المثال، قد طبقوا بالفعل نوعاً من التوليف بين *الخلاصية اليهودية*

والاشتراكية. وقد تتبع الفيلسوف واللاهوتي الروسي **س. بولغاكوف** في عدد من أعماله الممتعة ما لإيديولوجيا *الخلاصية اليهودية* من دور مركزي في الماركسية. يقول، مثلاً:

"فالاشتراكية المعاصرة، بهذا المعنى، تمثل إحياءً للتعاليم الخلاصية، فيما يُعَدّ **كارل ماركس ولاسال** معاً أحدث نموذجين لنظرية قيامة العالم التي تتنبأ بملكوت الخلاص".

ويجد **بولغاكوف** نقاط تماثل بين أدبيات ما يسمى بـ "قيامة العالم اليهودية" و"الاشتراكية العلمية"، فهما كلتاهما تنطلقان من تصور مشترك ما للسيرورة التاريخية . على أن الأعمال التي تدور حول قيام ة العالم تصف في العادة أحداثاً سبق أن وقعت، ولكنها تُنسب لمؤلف قديم ما (آدم، نوح، باروخ...) وتروَى على أنها نبوءة . غيرأنها تتضمن جزئياً تنبؤاً بالمستقبل أيضاً ، بالمعنى المألوف . وترتكز هذه الأدبيات، حسب رأي **بولغاكوف** ، على تصور نظري مجرّد جداً يقول بأن التاريخ قدَر محتوم وسننه في متناول مدارك البشر . رغم أن التعبير عن ذلك يأتي عبر لغة غير مألوفة لدينا : عبر رموز الوحوش الأسطورية، والعصور، وأسرار الأرقام . إلا أن هذا الطريق يمنح إمكانية للتنبؤ بمستقبل يجري تصويره على شكل كارثة هائلة، وهلاكٍ لأ عداء إسرائيل ، وقضاءٍ على جبابرة هذا العالم ... إلخ. ولكن النهاية تتكلل ب اعتلاء المخلِّصِ العرشَ في أورشليم ، وبعصر من الازدهار المادي العم يم. ويقارن **بولغاكوف** بين لوحة تغيُّر العصور المحتوم وصراع القوى التاريخية التي يُرمز لها بوحوش القيامة، من جهة، وإيديولوجيا "قوانين التاريخ" والتقدم التاريخي، من جهة أخرى . أما الكارثة المحدقة فيقارنها بالثورة الاشتراكية. إن ملكوت *المخلِّص* يقابله حلول النظام الاشتراكي أو الشيوعي . وبالفعل، فإن تنبؤات من قبيل:

"وستعطي الأرض ثمارها 10000 مرة، ويكون على كل دالية 1000غصن ، وعلى كل غصن 1000 عنقود، وعلى كل عنقود 1000 حبة، وتعطي كل حبة جرّة من الخمر "، لهي من طينة تنبؤات **تروتسكي** (في مقاله *"الأدب والثورة"*) التي يبشِّر فيها بمجتمع شيوعي في المستقبل "يرتقي فيه متوسّط مستوى الإنسان إلى مستوى **أرسطو، وغوته، وماركس**".

وتجد هذه الملاحظات تأكيداً لها من جهة غير متوقعة. ذلك أن **أ. لانداوِر**، أحد قا دة انتفاضة ميونيخ في العام 1919، كان قبل ذلك يدعو تحديداً إلى هذا التصور الذي يقول بأن الانقلاب الاشتراكي سيجسد في الواقع أفكار الإيمان اليهودي بـ*المخلّص*.

ولكنها معروفة أيضاً تلك الاعتراضات التي تصدت لطرح هذه الآراء بطري قة شديدة المباشرة . فقد كان **سان سيمون** نفسه، وليس أتباع **سان سيمون** اليهود وحدهم، يشعر بصلة تعاليمه بـ *الخلاصية اليهودية* ، ويعلن ذلك صراحة. ولا يقتصر الأمر على أن **سان سيمون** لم يكن يهودياً ، بل وكان من أصل ارستقراطي عريق . وكما كان شأنهم في حال "الرأسمالية العالية التطور"، لعب اليهود دوراً هائلاً في إنشاء الحركة الاشتراكية ، ولكن كان إلى جانبهم أشخاص غير يهود، مؤثرون جداً، أمثال **إنغِلز، وبليخانوف**.

مراجع الفصل التاسع :

1 – Talmon J. L.Political Messianism, the Romantic Phase. London, 1960

2 – Hayk F.A. The Counter-Revolution of Science. Glenkoe, Illinois, 1952

3 – Hess Moses. Philosophische und sozialistische Schriffen. Berlin, 1961

4 – Hess M. Judische Schriffen. Harsg. T. Zlotisti. Berlin, 1905

5 – Cornu August. Moses Hess et la gauch hegelienne. Paris, 1934

6 – لاسال ف. يوميات. بيتروغراد، 1919

7 – Sombart W. der Proletarische Sozialismus.Jena, 1924

8 – Michels Robert. Zur Soziologie des Parteiwesens. 1925

9 – Man Hendrich de. Gegen den Storm. Stuttgart, 1953

10 – Premantle Anne. This Little band of prophets.New-York, 1960

11 – روسيا واليهود. برلين، 1923 (أعيد نشره : باريس، 1978)

12 – ستيكلوف يو. ميخائيل ألكسندروفِتش باكونين. موسكو – لينينغراد، 1927، المجلد 3

13 – سان سيمون. المؤلفات. سان بطرسبورغ، 1912

14 – بولغاكوف س. " مدينتان " القيامة والاشتراكية. 1911 موسكو.

15 – زينوفييف غ. تاريخ الحزب الشيوعي الروسي (البلشفي). لينينغراد 1924

16 – الاشتراكية // الموسوعة اليهودية. المجلد 13، مادة"الاشتراكية"

17 – جيتلوفسكي // الموسوعة اليهوديةالموجزة. المجلد 2

الفصل العاشر

في روسيا قبل الثورة

1 . المال والصحافة

كان يعيش في روسيا عند قيام ثورة 1917 ما يقارب ستة ملايين من اليهود، أي أكبر مجموعة يهودية ضمن حدود دولة واحدة، وحوالي نصف عدد الشعب اليهودي في ذاك الوقت . وقد لعب هذا الواقع ، وما زال يلعب حتى الآن، دوراً هائلاً في تاريخ روسيا.

وكانت الكتلة الأساسية من يهود روسيا فـي القرن التاسع عشر تعيش ضمن ما عُرِف بـ "نطاق الإقامة"، أي في الأقاليم التي ألحقت بروسيا نتيجة "تقسيمات بولونيا" التي كانوا يعيشون فيها منذ بضعة قرون . ثم أضيف إلى تلك الأقاليم 15 محافظة روسية (تقع، وَفقاً للتقسيمات الإدارية الحالية، في بيلوروسيا، و أوكرانيا، ومولدافيا، وروسيا)، يقول **شولغين** إن مساحة أراضيها "تفوق مساحة أية دولة أوروبية ". ولم يكن يتمتع بحق العيش خارج "نطاق الإقامة " إلا بعض اليهود (أو بتعبير أدق : أشخاص يدينون باليهودية) من ذوي التعليم العالي، وتجّ ار الفئة الأولى...إلخ. وكانت هذه الحقوق تتسع تار ة (لتشمل، مثلاً، أولئك الذين كانوا يعملون عندهم)، وتارة تعود إلى حجمها الأول.

وكان القسم الأساسي من السكان اليهود في روسيا منظماً ضمن جاليات دينية (قهال) ترزح تحت قيادة صارمة مؤلفة من كبار الأثرياء والحاخامات . وكان نمط حياتها متوافقاً في الأساس مع نظام الجاليات اليهودية إبان القرون الوسطى . وقد وصفه **برافمان** (وهو يهودي تنصّر) في *"كتاب القهال"* الذي ظل المعسكر الليبرالي فترة طويلة يرى فيه "افتراء معادياً للسامية". ولكن موضوعاته قريبة جداً من تلك التي يتطرق إليها **شاحاك**، مثلاً، عندما يتحدث عن "النمط الشمولي (التوتاليتاري) "للجاليات اليهودية في القرون الوسطى (إذ ظلّ أغلبية يهود روسيا حتى القرن التاسع عشر يعيشون وَفقاً لتقاليد القرون الوسطى). وهذا يعني، على الأرجح، أن الوقائع التي يسردها الكتاب مطابقة للواقع. وقد تناولنا بالوصف، في الفصل الرابع، هذا النمط من الحياة كما يرتسم في كتاب **برافمان** وآراء **شاحاك**.

لم تكن سياسة الحكومة الروسية في القرن التاسع عشر إزاء اليهود تتسم بالاتساق، إذ كانت مبادئها تنتقل من النقيض إلى النقيض . فتارة كانت الحكومة تحاول الاعتماد على القهالات وإداراتها (توخياً لـ "دعم التقاليد الشعبية")، وطوراً تسعى لتلقين اليهود أسلوب الحياة السائد في بقية البلاد (توخياً لـ "تعميم التعليم ").

وقد تجسّد تأثير اليهود على حياة روسيا في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، كما على حياة غيرها من البلدان، أوّل ما تجسّد من خلال دورهم في الاقتصاد، وفي مجال المال أساساً.

ويخيّل إلي أن كتاب **أ. ب. سوبوتين** *"في نطاق إقامة اليهود "* يمكن أن يقدم تصوراً موضوعياً عن الوضع الاقتصادي لليهود في مناطق نطاق الإقامة . إذ ينطلق هذا الكتاب، من ناحية، من مواقع ليبرالية، ويهدف، كما يقول مؤلفه، إلى دحض التأكيدات القائلة بأن اليهود يستغ لون باقي السكان، و هم أغنى منهم . وهو يتضمن، من ناحية أخرى، كثيراً من الوقائع الملموسة . فالمؤلف يخبرنا، على سبيل المثال، بأن اليهود كانوا يشكلون في

محافظة **مينسك** 90% من تجار الفئتين الأولى والثانية عام 1876، و98% عام 1880، و83% عام 1884، و88% عام 1886 (صدر الكتاب عام 1888). وبلغت نسبتهم بين التجار إجمالاً 87%، وبين أصحاب الحانات 95%. ولم يكن خارج أيدي اليهود إلا 4 حوانيت من بين 1297 حانوت لبيع التبغ . وكانت حصتهم في الدورة التجارية (البيع والشراء) 91%.

وكانت نسبة اليهود في محافظة *فيلنا* (*فيلنوس*) إلى عدد السكان 15%، في حين بلغت بين التجار 81%. وبينما ازداد عدد التجار اليهود خلال 25 عاما بنسبة 13 %، تناقص عدد التجار غير اليهود بنسبة 46%.

وفي محافظة *كوفنو* (*كاوناس*) كانت نسبة اليهود 20% من عدد السكان، وبين تجار الفئة الأولى والثانية 81%، وبين أصحاب الخمّارات 75%. كما كانت حصتهم من مجمل الدورة التجارية 95،5%.

وفي محافظة *فولين* كان عدد اليهود حوالي 7/1 من عدد السكان، وبين التجار 91%، وحصتهم في الدورة التجارية 74%، وفي تجارة التبغ 94%.

وفي *كييف* كانت نسبة اليهود 10% من السكان، وبين تجار الفئتين الأولى والثانية 43%، وحصتهم من مجمل الدورة التجارية 45%. ومن بين 259 متجرا لبيع الخمور بالجملة لم يكن غير اليهود يملكون إلا 12 متجراً. ومن بين 5134 خمّارة كان اليهود يملكون 5004، أي 97%.

ومن ناحية أخرى، يقول **دوستويفسكي** في مقالاته عن *"المسألة اليهودية"* :

"يشير خصومنا إلى أن اليهود فقراء، بل وفقراء أينما كانوا ، وخاصة في روسيا، وما الأغنياء بين اليهود إلا حفنة من علّيّة القوم هم أصحاب البنوك وقياصرة البورصة، أما الآخرون فإن ما يقارب تسعة أعشارهم متسولون بالمعنى الحرفي للكلمة ، يركضون وراء لقمة العيش، يعرضون خدماتهم، ويبحثون عن مكان يحصلون فيه على كوبيك لسد الرمق. نعم، قد يكون هذا صحيحاً، ولكن ماذا يعني... ما دامت الشريحة العليا من اليهود، بالمقابل، تُحكِم قبضتها على البشرية بمزيد من الشدة والقسوة، وتسعى لأن تخلع على العالم شكلها ومضمونها".

و يؤكد **زومبرت** هذه الفكرة بمثال من ألمانيا التي يقول إن اليهود ، كقاعدة عامة ، يعيشون فيها قبل أن يصبحوا أغنياء أفقر مما يعيش السكان المسيحيون المحيطون بهم، وذلك لأنهم يطلقون القسم الأكبر من رؤوس الأموال المتوفرة لديهم في الاستثمار ولا يبقون لأنفسهم إلا القليل لسدّ الحاجات الضرورية الأساسية.

غير أن كبار المصرفيين اليهود و "قياصرة البورصة " (كما سماهم **دوستويفسكي**) لم يكونوا مقيدين بـ "نطاق الإقامة"، وكان تأثيرهم كبيراً على حياة روسيا بأسرها.

وفي روسيا ، كما في كل مكان، كان نفوذ اليهود قوياً في المجال المصرفي على نحو خاص . فمنذ القرن التاسع عشر كانت بنوك **رافالوفيتش ويفروس** في الجنوب، و **فرينكِل** في وارسو تتمتع بنفوذ كبير . إذ يقول **فيتّه** إن الوزير **فيشنِغرادسكي** كان "بمثابة وكيل مفوض بأعمال **بليوخ** في *بطرسبورغ* ". كما كان بيت "ي. إ. **غينسبورغ**" المصرفي مسيطراً على العديد من مجالات الحياة. فقد ساهم في العام 1869 في بنك التسليف في *بطرسبورغ* (كان أ. إ. **زاك** المدير المحاسب لدى **غينسبورغ**). وجاء في السيرة التي كتبها **سليوزبِرغ** أن بيت **غينسبورغ** كان "على علاقات ودية وثيقة مع بنك **فاربورغ** (في *هامبورغ*) وبنك **مندلسون وبليخرِدر** (في *برلين*)... وكان هناك أواصر قربى تربط بين **غينسبورغ** وبين المصرفيين **فاربورغ، وهيرش**، و**غريتفيلد** (في

بودابست)، و**أشكينازي** (في *أوديسا*)، و**روزنبرغ** و**برودسكي** (في كييف). وفي العام 1879 حصل **غينسبورغ** على ترخيص للعمل باستخراج الذهب في *سيبيريا*، فأقام منشآت في منطقة *زابايكاليه* (*ما وراء البايكال*) و*ياقوتيا*. وتركز نشاطه في *"جمعية لينا"* التي انضمّ إليها بيت "**ي. م. ماير**"، وبدءا من العام 1880 عائلتا **رافالوفيتش** و**يفروس**. وفي العام 1896 تأسست شركة مساهمة اسمها *"جمعية لينا لاستخراج الذهب"* شارك فيها **غينتس** و**ماير**. وبدءاً من العام 1906 شارك فيها رأس المال الإنكليزي عبر شركة *"ل. هيرش وشركاه"* لأعمال البورصة. وفي العام 1908 تأسست شركة *"لينا غولدفيلدس"* بمدرائها **غينسبورغ، وبويانوفسكي**، و**ماير**، و**شامبانر**. واحتجاجاً على ظروف العمل القاسية اندلعت في مشاريع *لينا* التابعة ل **غينسبورغ** تحديداً اضطرابات عمالية فقمعت في العام 1912 بإطلاق النار على المشاركين فيها (عُرِفت بـ*"إعدامات لينا"*).

وقد أسس **آل غينسبورغ** عصبة عائلية شديدة البأس، لعبت على مدى بضعة أجيال دور القيادة في شؤون روسيا المالية (واقتصادها إجمالاً). وكان **آل بولياكوف** عصبة أخرى من هذا النوع. حيث أثرى مؤسس العصبة **صموئيل بولياكوف** من أعمال بناء سكك الحديد التي موَّلتها خزينة الدولة بشروط ميسرة (حصل **بولياكوف** على قرض بقيمة ثمانية ملايين روبل لمدِّ سكة حديد خاركوف - آزوف). وأصبح ولداه **ياكوف** و**لازار** أكبر المصرفيين، فأسَّسا *بنك الدون* العقاري، و*بنك بطرسبورغ – آزوف*. وكانت *"شركة الائتمان والتجارة والصناعة في بلاد فارس"* في أيدي عائلة **بولياكوف**. أمّا مدراؤها فهم **دروري، ورافالوفيتش**، **وستيفانيتسا**، **ولانداو**، و**روبنشتاين**. وكان **لازار بولياكوف** رئيس *بنك بطرسبورغ – موسكو*، والمؤسس والمتصرف الفعلي في *بنك موسكو التجاري الدولي*، و*بنك ياروسلافل – كوستروما*، و*البنك الصناعي لجنوب روسيا*، وغيرها من البنوك. وكان **ياكوف بولياكوف** يقوم بعملياته المصرفية في الجنوب عن طريق *بنك آزوف – الدون*، وفي العاصمة عن طريق *بنك بطرسبورغ – آزوف*.

وقد تأسس في *أوديسا* عام 1910 بنك *"أ. م. برودسكي"*، وفي العام 1911 تأسس *"بنك أوديسا التجاري"* برأسمال قدره ثلاثة ملايين روبل، وكان مؤسسه **ل. أ. برودسكي** الذي كان يمثّل بنك *"أ. م. برودسكي"*.

يقول أحد موظفي المصارف في مذكراته المنشورة عام 1915في مجلة *"العاديات اليهودية"* (المجلد الثامن): "كان يجري تحول كامل في المتحدرين من نطاق الإقامة: فقد تحول الملتزم (التحصيل دار) إلى مصرفي، والمقاول إلى صاحب مشروع كبير (...)، وتشكلت كتيبة من سماسرة البورصة الذين يقومون بدورات مالية وهمية ضخمة. ونشأت في *بطرسبورج* نواة ثقافية جديدة للسكان اليهود، نشأت جالية جديدة منضبطة حلت محل سابقتها".

وقد تجسَّد ثقل دور الرأسمال اليهودي بالدرجة الأولى من خلال تأثيره على الصحافة قبل الثورة. فكانت صحيفة *"ريتش"* اليومية المنبرَ الرسمي الناطقَ باسم الحزب الدستوري – الديمقراطي (الكاديت)، يحررها **ميليوكوف** ومساعده **إ. ف. هيسن**. ونقرأ عند **طيركوفا– ويليامز** في مذكراتها أن **هيسن** وأ. إ. **كامينكا** اشتركا في تحصيل تمويل للجريدة من *بنك آزوف – الدون* الذي كان يديره شخص آخر من عائلة **كامينكا** أيضاً. وكان المساهم الرئيس في هذه الجريدة، **يو .ب. باك**، الذي أثرى من وراء توريدات سكك الحديد وعقد اتفاقية مع بيت *"ل. وي. ميتسيل وشركاهما"* التجاري تعطي هذا البيت حق الإعلان في جريدة *"ريتش"*. أما المطبوعة "الشعبية"

الأخرى لحزب (الكاديت) أيضاً فهي جريدة *"سوفريمينويه صلوفو"* التي كانت تنشر المواد نفسها، فتباع بسعر أرخص وتطبع بأعداد كبيرة . وكانت في آن معاً رديفاً مالياً لصحيفة *"ريتش"* يمولها المصرفي **غ. د. ليسين** بالاشتراك (وهذا مألوف جداً) مع ب . ب. **ريابوشينسكي** . وكان ناشر ها الحقيقي **يو . ب. باك** إياه، وناشرها الرسمي **إ. م. هانفمان**، وكذلك **ف. أ. بولياكوف** الشريك في ملكية بيت *"ل. وي. ميتسيل وشركاهما"* وزوجته ف. **ن. بولياكوفا**.

ويحدثنا المؤرخ الماركسي م. ن. **بوكروفسكي** فيقول:

"أعرف أن جريدة الكاديت *"نوف"* التي تصدر في موسكو، كانت تتلقى منذ العام 1907 إعانات مالية من جهة نقابية ما (سنديكات) تابعة للبرجوازية اليهودية الكبيرة التي كان يهمها التأكيد قبل كل شيء على الجانب القومي من القضية . وعندما وجدت هذه الجهة أن الجريدة لا تدافع عن اليهود حق الدفاع جاءت إلى كاتبنا البلشفي م. غ. **لونيتس (م. غريغوريفسكي)** واقترحت عليه أن يكون محرر الجريدة ، فتعجّب كثيراً وقال : كيف يكون ذلك ما دامت جريدتكم كاديتية وأنا بلشفي ؟ فجاءه الرد : الأمر سِيّان. فنحن نعتقد أن موقفك من المسألة القومية أكثر وضوحاً . وهكذا ، فإن صحيفة الكاديت هذه كانت تصدر فعلياً على نفقة نقابة (سينديكات) البرجوازية اليهودية التي لم تكن، كما ترون، مكترثة ببرنامج الكاديت".

وكانت تصدر مجموعة من الجرائد الموجّهة للفئات المدينية القليلة التعليم. ويتمثّل النموذج بين هذه الجرائد في صحيفة *"كوبيكا"* التي اتُهمتْ غير مرة بـ "اللامبدئية" و"انعدام الفكر ". وقد شاعت نكتة تقول إن موقفها السياسي تلخصه عبارة واحدة : "نحن نتاجر يا عمّ !". وكانت هذه الجريدة وعدة صحف أخرى من هذا النوع (*"جورنال – كوبيكا"*، *"ليستوك – كوبيكا"*، وجريدة *"بطرسبورغ – كوبيكا"* وغيرها) تصدر عن دار *"كوبيكا"* التي أسسها م . ب. **غوروديتسكي** ، وأ. ي. **كوغا ن**، وب. أ. **كاتلوفكِر** عام 1897. وكانت هذه المجموعة من الصحف تطبع أكبر عدد من النسخ في روسيا، ويقف وراء كواليسها كل من م . م. **غاكيبوش – غوريلوف** ، وب. أ. **كاتلوفكِر**.

وفضلاً عن ذلك ، كان ثمة نوع من المطبوعات التي تعلن أنها مستقلة . فصحيفة *"بيرجوفيي فيدومستي"* (*بيانات البورصة*) كان يملكها شخص لا يجيد اللغة الروسية ، هو س. م. **بروبِّر** الذي جاء إلى روسيا بلا مال ، ثم أصبح مستشاراً علنياً في مجلس الدوما والتجارة في مدينة *بطرسبورغ*. وصحيفة *"دِنْ"* (النهار) ذاتِ المسحة الاشتراكية الخفيفة تأسست بدعم من غ. د. **ليسين**. وكان م. أو. **ألبرت** يمول صحيفة *"روسيا"* التي استمرت في الصدور أقل من ثلاث سنوات، ثم أغلقتها السلطات بسبب مقالة هجائية كتبها أ . م. **أمفيتياتروف** بعنوان *"عائلة أوبمانوف"* (عائلة النصّابين–. م) عرَّض فيها بالأسرة القيصرية ، وأثارت ضجة كبيرة . وقد خسر **ألبرت** شخصياً 200 ألف روبل في هذه الجريدة.

وشغلت صحيفة *"نوفويه فريميا"* (العصر الجديد) مكانة خاصة في الصحافة الروسية بفضل توجهها "المعادي لليبرالية". وقد كان **م. أو. مينشيكوف** ، على وجه الخصوص، ينشر فيها بانتظام *"رسائل إلى الأقرباء"* تنطوي على عداء استثنائي لليهود (وهو ما أُعدِم بسببه عام 1918). وتولّى أ. س. **سوفورين** نشرها بدءاً من العام 1878. وبعد وفاته انتقلت أسهم الشركة الوصية على الجريدة إلى أيدي رجال المال اليهود . وهذا ما يتحدث

عنه بالتفصيل مرجع ضعيف الصدقية هو **سيمانوفيتش** سكرتير **راسبوتين** ، إلا أن مذكرات العديد من شخصيات تلك الفترة تؤكد الواقعة بحد ذاتها . وقد نوقش هذا الموضوع في كتاب ت . **آرونسون** *"روسيا عشية الثورة"* .

ثمة حادثة معروفة وقعت في مجلس دوما الدولة عند مناقشة موضوع يتعلق بنطاق الإقامة، حين أشار **بوريشكيفتش** إلى شرفة الصحفيين (في المجلس) قائلاً : "ها هو نطاق الإقامة !"، فانفجرت القاعة ك لها بالضحك. لقد روى لي هذه الحادثة بضعة أشخاص من الجيل ال قديم. وفي تلك الفترة كانت تنشر قوائم طويلة بأسماء مراسلي الصحف الروسية اليهود المعتمدين لدى مجلس الدوما. ومن الصعب تحديد مدى مشاركة اليهود (في الصحافة الروسية) بالاحتكام إلى هذه القوائم، لأنها لا تتضمن إلا أسماء الصحفيين اليهود . ولكن ما يخلق انطباعاً غريباً هو بعض المفارقات، مثل : صحيفة *"روس"* (روسيا) يمثلها **آبيليفيتش شلوما ميندلفيتش** و**ستيمبو أفرام لا زاريفيتش** ؛ وصحيفة *"روسكي غولَصْ"* (الصوت الروسي) يمثلها **ستولكيند أبرام يانكيلفيتش** (أسماء يهودية صِرْف. – م) وقِسْ على ذلك في أغلب الحالات. ويبدو **أن طيركوفا – ويليامز** كانت تقصد مثل هذه الأحاديث عندما قالت في مذكراتها إنها كانت تعرف بين الصحفيين المعتمدين لدى مجلس الدوما عدداً من الصحفيين الروس . وتتذكر منهم **أركاداكسكي** *(روسكيي فيدومستي ")*– البيانات الروسية – **وسكفرتْسوف** *("كولوكول")* – الجرس – و**بيلينكو** *("نوفويه فريميا")*– العصر الجديد.

وختاماً كان ثمة عامل آخر يتوقف عليه الدعم المالي للصحافة آنذاك، مثلما هو الحال الآن، ألا وهو نشر الإعلانات . وكان البيت التجاري *"ل. و إ. ميتسيل وشركاهما "* ، الذي تأسس عام 1878، يُعدُّ أكبر مؤسسة للإعلان في روسيا آنذاك. ونحو العام 1914 كان قد أحكم قبضته على أكثر من نصف مجمل مؤسسات النشر في مدن روسيا والخارج. وفي مطلع القرن العشرين كان يشرف على أعمال هذا البيت كل من ف . أ. **بولياكوف** (المدير – المتصرف للشركة)، وي.ب. **إبشتاين** عضو إدارة *بنك آزوف – الدون* . وقد قَدَّرتْ مصادرُ يمينية الوضعَ على النحو التالي : "لا يمكن الحصول على إعلانات من هذه الشركة إلا لصحيفة "تقدمية " الاتجاه، تحافظ على صبغتها هذه بصرامة ... وأصبحت تداولات الشركة التي يتحكم بأمورها متصرفان هما السيد **بولياكوف** والسيد **أبشتاين**، تفوق عشرة ملايين روبل ". وعلى سبيل المثال، عقدت الصحيفة اليمينية *"روسكويه تشتينيه"* (قراءات روسية) اتفاقية مع البيت التجاري *"ل. وي. ميتسيل وشركاهما "* كان يجب أن تتلقى منه بموجبها 30 ألف روبل سنوياً. غير أن هذه الاتفاقية فسخت بعد مُضي أقل من سنة . هذا في حين كان للبيت المذكور نفسه اتفاقيات دائمة مع صحيفتي الكاديت *"ريتش"* و*"روسكيي فيدومستي"* يؤمِّن لهما الجزء الأكبر من مداخيلهما. فقد التزمت هذه الشركة بتقديم 330 روبلاً لصحيفة *"ريتش"* عن كل عدد مقابل شرط وحيد هو ألا تغير الجريدة اتجاهها، وأن تُبقي على قائمة موظفيها من غير تغي ير . وفي العام 1912 تم عقد اتفاقية جديدة ضمنت الشركة بموجبها دخلاً للصحيفة بمقدار 155 ألف روبل عام 1912، و170 ألف روبل عا م 1913، و185 ألف روبل عام 1914. وفي الوقت نفسه كانت الصحافة "التقدمية" تسيء إلى سمعة الصحافة اليمينية معيبة عليها تلقيها أحياناً إعانات من الحكومة أقل بكثير ، وألصقت بها وصمة "الزاحفة".

على أن إعانات الحكومة لم تكن كافية إطلاقاً لاجتذاب صحفيين مؤهل ين، أو حتى أقلام نشطة ، إلى الصحافة اليمينية. إن ما أتيح لي الاطلاع عليه من أعداد صحيفتي *"زيمشّينا"* أو *"روسكويه زناميا"* (اليمينيتين) يعطي صورة عن مستواهما المتدنّي جداً . فالعدو الرئيسي على صفحاتهما هو "اليهودي"، بل وهما تتناولان كل شيء بأسخف الطرق وأكثرها سذاجة، من قبيل : "يوجد في موسكو كثير من الصيدليات اليهودية "...إلخ. وأنا ، على الأقل، لم أرَ محاولات للإحاطة بوضع روسيا الذي كان مأساوياً بجلاء منذ ذ لك الحين . (وأستثني من ذلك ما نشرته صحيفة *"زناميا"* من مقالات **روزانوف** التي لا يمكن نعتها بالسذاجة إطلاقاً).

إن **دوستويفسكي** الذي لم يكن يراوغ أبداً، وكان دائماً يقول بأقصى الحدّة ما يفكر به، كتب يقول:

"ها أنتم تشكون من اليهود في محافظة **تشرنيغوف** ، في حين أصبح عن دنا هنا في مجال الأدب كثرة من المطبوعات والصحف والمجلات التي يصدرها يهودٌ (يتزايد عددهم في الأدب باطّراد) بأموال يهودية ، وما من شيء روسي فيها إلا الاسم الروسي الذي يوقِّع به الجريدة أو المجلة محررون يستأجرهم اليهود . وهذا كل ما هو روسي فيها. أظنّ أن هذا ليس إلا البداية فقط، وأن اليهود سيستولون بعدُ على دائرة نشاط في ميدان الأدب أكبر بكثير مما هي الآن، على أنني لا أتطرق إلى الحياة، إلى مظاهر حياتنا اليومية، ذلك أن اليهودي يتمدد بسرعة مرعبة".

كتب **دوستويفسكي** هذه الرسالة بتاريخ 28 شباط / فبراير 1878. وإذا ما حذفنا منها لفظة "يهودي" (في النص الروسي "جِيْد"، وهو المرادف التحقيري الشائع لكلمة "يهودي". – م) التي غدت شتيمة الآن، حصلنا على وصف انفعالي لتلك النزعة التي تشير إليها الوقائع كما هي . حقاً، لقد كان هذا المفكر العميق ، المرهَف سبّاقاً عشرات السنين إلى تحسس تلك النزعة التي كانت في طور الصيرورة يومها. تلكم هي فرادة العقول العظيمة ؛ أما إحصاء نسبة مدراء البنوك أو ناشري الجرائد وفقاً لانتمائهم القومي، فأمر يستطيع القيام به كل واحد منا.

وفي القرن العشرين يصيغ **روزانوف** الموضوع بمزيد من الصرامة، فيقول:

"إن الأدب كلّه (الآن) تحت "الاحتلال" اليهودي. فمحفظة النقود لا تكفيهم، وها قد جاؤوا "في طلب الروح الروسية"...".

2 – المواجهة

ما هو الشكل الذي اتخذه تأثير رأس المال اليهودي على الصحافة الروسية ؟ من الطبيعي هنا أن نقارن بين واقعتين: 1) كون الجزء الأعظم من الصحافة "معارضاً" (*"نوفويه فريميا"* وبضعة جرائد يمينية أخرى تنتمي إلى عداد الاستثناءات القليلة). والحقيقة أن مفهوم "التقدمية" كان يتضمن مفهوم "المعارضة"، أي العداء للنظام القائم في روسيا آنذاك ، سواء بمبادئه، أو بمعظم تجلياته المتفرقة . 2) كون احتجاجات اليهود على أوضاعهم في روسيا تتعالى بلا انقطاع . على أن هذه الاحتجاجات الضارية لم تكن تصدر عن اليهود في روسيا وحدها، بل كانت تتردد أصداؤها في العالم كله. ويكفي أن نورد مثالاً واحداً فقط : إن العلاقات المالية بين الحكومة الروسية والبنوك الأجنبية كانت تترافق، على الدوام تقريباً، بنداءات ومطالب تدعو الحكومة الروسية لتغيير أوضاع اليهود القائمة في روسيا . وفي عدد من الحالات كان المصرفيون اليهود يرفضون اتفاقيات مربحة لهم، وذلك كإشارة

احتجاج على أوضاع اليهود في روسيا . وثمة عدة أخبار من مراسلين روس منشورة في مجلة *"الأرشيف الأحمر"*، مثلاً. فعندما كان الوزير الروسي **فيتّه** يفاوض في أميركا عام 1905 لعقد اتفاقية سلام مع اليابان زاره، كما يقول في مذكراته، "وفد من كبار أغنياء اليهود " وعلى رأسه **ي. شيف** ("زعيم عالم المال اليهودي في أميركا")، فطالبه بتغيير أوضاع اليهود في روسيا، وهدَّ ده **شيف** بالثورة إذا ما رُفض هذا الطلب . على أن هذا النوع من الاحتجاجات والمطالب كان على قدْر من الكثرة يتيح لنا أن نرى فيه تعبيراً عن وجهة نظر يتشاطرها الجزء الأعظم من يهود العالم، ومن يهود روسيا خاصة . وقد ترسخت وجهة النظر هذه على نطاق أوسع في "الرأي العام" العالمي بمجمله. ولو سألت شخصاً متوسط التعليم في أي بلد من بلدان العالم حتى في هذه الأيام لقال لك إن اليهود كانوا "مضطهَدين" في روسيا قبل الثورة.

فما هي، إذن، العوامل الأساسية في حياة تلك المرحلة التي استدعت هذه الاحتجاجات الضارية ؟ إنها تكمن، بالدرجة الأولى، في وضع يهود روسيا غير المتكافئ في الحقوق من الناحية القانونية ، فكل الاحتجاجات كانت تطالب بـ "المساواة في الحقوق". لقد تلخصت القيود الأساسية على أتباع الدين اليهودي بقيدين اثنين : منعهم من العيش خارج "نطاق الإقامة" (ما عدا الاستثناءات المذكورة أعلاه)، و"معيار النسبة" الذي كان يحدد عدد المقاعد الممنوحة للطلاب اليهود في مدارس الدولة وجامعاتها.

وكانت هذه الحصة من المقاعد تقوم على الافتراض بأن نسبة اليهود في المؤسسات التعليمية التابعة للدولة لا ينبغي أن تتجاوز نسبتهم إلى سكان روسيا . وفي عهد وزير المعارف **ديليانوف** عام 1887 حددت هذه الحصة للمدارس الثانوية ومؤسسات التعليم العالي ضمن "نطاق الإقامة" بعشرة في المئة، وخارجه بخمسة في المئة، وفي العاصمتين (موسكو وبطرسبورغ) بثلاثة في المئة . غير أن **ديليانوف** عاد في العام 1888 وأفرغ هذا الإجراء من مفعوله إلى حد كبير ، حين سمح بقبول "المتفوقين" بدون قيود، وجعل في عداد هؤلاء كل من كان معدله لا يقل عن 3,5 درجات (من أصل خمس درجات. – م). وقد أعيد العمل بالقواعد السابقة في عهد الوزير **بوغولوبوف** الذي اغتيل عام 1899على يد أحد الإرهابيين.

و كان ثمة قيود أخرى بالإضافة إلى هذين القيدين الأساسيين ، هما : منع شراء الأراضي، أو الاستيطان (مجدداً) في المناطق الزراعية، ومنعهم من أن يكونوا موظفين عند الدولة ، أو ضباطاً في الجيش. وكان هناك "معيار النسبة" للمحامين اليهود ("الوكلاء المحلفين"). وفي جميع هذه الحالات كان المقصود باليهود أتباع الدين اليهودي.

ويلاحظ **شولغين** ، بصدد هذه القيود ، أنها لم تكن تجسيداً لمبدأ ما موجَّه ٍ ضد اليهود حصراً ، وأن البنية الاجتماعية لروسيا عموماً لم تكن قائمة على مبدأ المساواة أمام القانون . وذلك، قبل كل شيء، أن الفلاحين– وهم الجزء الأكبر من السكان – كان لهم بعد تحريرهم قوانينهم الخاصة بهم : محاكم محلية، قوانين تتعلق بالمشاعة، والجماعة ...إلخ. وكان ذلك يظهر على نحو أكثر جلاءً في ظل نظام القنانة . وعن ذلك يقول دوستويفسكي:

"عندما كان اليهودي "يعاني في اختياره الحر لمكان العيش "، كان ثلاثة وعشرون مليوناً من "جمهورالكادحين الروس" (يضع دوستويفسكي تعابيرخصومه بين مزدوجين) يعانون من نظام القنانة ما هو بالطبع أشد وطأة من

"اختيار مكان العيش". فهل أشفقَ عليهم اليهود آنذاك؟ لا أظن. وسوف تجدون الجواب الشافي على هذا السؤال في الأطراف الغربية من روسيا وفي جنوبها".

بل وكانت حقوق أبناء طائفة *"ستاري أوبرياد"* [٩] تُنْتهَك بقسوة بالغة، إذ كانت زيجاتهم، على سبيل المثال، تعدُّ باطلة، وأولادهم غير شرعيين. كما كان "معيار النسبة" يطبق في روسيا الغربية على البولونيين أيضاً. وكانت شعوب كثيرة في وضع مختلف عن وضع الروس (لا يمكن أن نقول جازمين إنه كان وضعاً أفضل أو أسوأ)، فكان ممنوعاً تجنيدهم في الجيش، مثلاً.

ولم يحدث إلا في نهاية القرن العشرين أن راح كثير من المفكرين المرموقين (**فون هايك**، مثلاً) يعيرون انتباههم إلى أن القانون لا يزيد على أن يضفي *الصفة الرسمية* على ما أقرته الحياة من مبادئ. وقبل ذلك بمئة عام كانت تسود قناعة لا يتطرّق إليها الشك بأن هناك قوانينَ مجردة يجب أن يكون الناس جميعاً متساوين أمامها، وأن الحياة ينبغي أن تكون خاضعة لهذا المبدأ. وكان **سطوليبين** (وزير للداخلية في العهد القيصري. – م) ممن عملوا على تغيير بنيةِ المجتمع الروسي في هذا الاتجاه، فاقترح على **القيصر نيقولاي الثاني**، في جملة ما اقترح، إلغاء كل القيود المتعلقة باليهود، ولكن القيصر رفض ذلك.

ثمة ظرف لعب دوراً هاماً في ما يتعلق بوضع اليهود القائم آنذاك أشار إليه **دوستويفسكي** حين قال:

"أمّا أنا فأعرف أمراً واحداً على الأقل، هو أنه لا يوجد في العالم كله، على ما أظن، شعب آخر (غير اليهود. – م) كثير الشكوى إلى هذا الحد من مصيره، الشكوى كلَّ دقيقة، وفي كل خطوة يخطوها وكلمة يتلفظ بها، من إذلاله وعذابه وآلامه. حتى لتظن أنهم ليسوا هم المسيطرين في أوروبا، وليسوا من يتحكم بالبورصات هناك، وليت الأمر يقف عند هذا الحد، بل ويتحكمون بسياسة الدول وشؤونها الداخلية وأخلاقياتها".

وبالفعل كان بوسع المرء، مثلاً، أن يسمع في المؤتمرات الصهيونية تصريحات من قبيل: إن اليهود "أفقر شعب في العالم، لا نستثني حتى الإسكيموس". (فأين هو **روتشيلد** الإسكيموسي يا تُرى؟ – المؤلف).

فلنورد، إذاً، رأي الجانب اليهودي. إن **حاييم وايزمان**، الذي صار فيما بعد أحد زعماء الصهيونية وأول رئيس لدولة إسرائيل، يتحدث في مذكراته عن فترة صباه التي قضاها في روسيا (فهو مولود هناك في محلة تدعى **موتيلي** بالقرب من **بينسك**). يقول **وايزمان** إن "معيار النسبة" كان يسمح آنذاك بأن يكون عدد اليهود بين مجموع طلاب البلاد 10 %، الأمر الذي يبدو منصفاً في الظاهر، لأن اليهود كانوا لا يشكلون إلا 4 % فقط من عدد سكان روسيا آنذاك. ولكن القوانين الروسية، كما يستدرك، تنطوي على الخداع دائماً. ذلك أن تجمعات اليهود كانت تتركز في إطار نطاق الإقامة، وفي بلدات وقرى كثيراً ما كانت نسبتهم فيها تراوح بين 30 و80 %. وفضلاً عن ذلك، كانوا يتصفون بطموح لا يقهر نحو التعليم. غير أن عدد غير اليهود الذين كانوا يتقدمون لامتحانات القبول (في الجامعات– م) كان قليلاً نسبياً، ومع ذلك لم يكن يسمح لليهود إلا بنسبة 10% من هذا العدد القليل. إن هذا الكتاب، الذي يتحدث فيه **وايزمن** مراراً عن روسيا بروح الحقد، يعبّر تعبيراً ساطعاً عن سخط هذا الفتى اليهودي. بيد أن وجهة نظر السلطات الروسية يمكن تفهمها أيضاً. فلنفترض أن اليهود كانوا يشكلون في قريته **موتيلي** تلك 80 % من عدد السكان. إلا أن الحديث هنا يدور حصراً حول المؤسسات

[٩] أي "الشعائر القديمة"، وهم أنصار القواعد الكنسية القديمة وقد ظهرت فرقهم بعد انشقاق الكنيسة الروسية في القرن السابع عشر – م.

التعليمية التابعة للدولة (ذلك أن "*معيار النسبة*" لم يكن مأخوذاً به في المؤسسات التعليمية الخاصة). فما الذي يحول دون تقاسم عادل لفرص التعليم القائم على أموال جميع سكان روسيا ؟ ولمَ لا يقوم أثرياء اليهود، أمثال **برودسكي أو بولياكوف** ، بفتح مدارس بدلاً من تقديم الأموال للأحزاب الثورية والصحافة المعارضة ؟ إن التقييم هنا يتوقف إلى حد كبير على الجهة التي تبُدي وجهة نظرها في الموضوع.

وكان ثمة أيضاً ظاهرة أخرى في الحياة الروسية آنذاك تنفِّر اليهود في روسيا، بل وفي العالم بأسره ، من نظام الدولة الروسية، من سلطة الدولة ، بل ومن روسيا عموماً في أحيان كثيرة . وهذه الظاهرة هي ما كان يسمى بـ *"بوغروم"* (مذبحة،أعمال عنف ، أعمال ترويع). على أن ظهور كلمة ***"بوغروم"*** هذه بحد ذاتها لا علاقة له باليهود البتة، وكانت تستعمل، على سبيل المثال ، عند الحديث عن "أعمال العنف فـي قصورالإقطاعيين". غير أنها غيرت وجهة استعمالها بالتدريج، حتى انحصرت تداعياتها الآن بأعمال العنف التي تستهدف اليهود وحدهم. فاستقرت هذه الكلمة في الاستعمال بوصفها تهمة نمطية ضد روسيا القيصرية قبل الثورة : "هناك جرت *"بوغرومات"* ضد اليهود ". ورغم الكلام الكثير ا لذي قيل مطلع القرن في المؤتمرات الصهيونية، مثلاً ، عن " *بوغرومات* في رومانيا "، و"*بوغرومات* في إنكلترا " (وخاصة في ويلز)، فقد بقيت التهمة، في النهاية، لصيقة بروسيا وحدَها.

على أن الإنصاف يقتضي، طبعاً، أن نقيس أعمال العنف الجماعية كافة بمقياس واحد : سواءٌ في ذلك تلك الأعمال التي كانت تستهدف الإقطاعيين، أو اليهود، أو الصدامات الأرمنية – الأذربيجانية... غير أن الأعمال التي كان ضحاياها من اليهود قد انعكست في الصحافة (وفي الوعي فيما بعد) على نحو خاص.

وقد أخذت الصحافة، منذ مطلع ثمانينات القرن التاسع عشر، تتحدث عن اض طرابات شعبية من هذا النوع كانت تجري في القرى الواقعة ضمن "نطاق الإقامة ". وشغلت أصداء تلك الاضطرابات حيِّزاً كبيراً في كتابات الأديب **إيفان أكساكوف** . فهو يقول إن الصحافة الليبرالية تُجمِ ع على وصف أعمال الشغب هذه بأنها "تنكيل باليهود". ويصحح قائلاً، إن "أعمال التنكيل تحديداً لم تقع أصلاً ". وبالرغم من أن الفلاحين كان بحوزتهم فؤوس وأمخال، فإن عدد اليهود الذين تأذوا جرَّ اء الضرب لم يتجاوز عددَ أمثالهم من الروس . وكان الفلاحون وهم يغيرون على ممتلكات اليهود في العام 1881 كثيراً ما يصرخون "هذه دماؤنا ". ولم تقع أعمال نهب تقريباً. بل كان الفلاحون أحياناً يمزقون أوراق النقود التي تقع في أيديهم . ويعزو **أكساكوف** أعمال الشغب إلى أسباب اقتصادية حصراً ، تتمثل في الوضع الصعب الذي كان يعاني منه الفلاحون، بل وحتى العديد من الإقطاعيين في المنطقة الجنوبية الغربية من البلاد. ووفقاً لقواعد التنظيم القهالي، فإن القهال كان يوزع حقوق القيام بالأعمال في هذا المكان أو ذاك بصرامة حديدية بين اليهود الذين يعيشون فيه . (وقد أوردنا في الفصل الرابع تفاصيلَ حول هذا الموضوع). ولذلك لم يكن بإمكان الفلاح أو الإقطاعي الصغير أن يتعامل مع سمسار أو مرابٍ آخر... بل كان مرغماً على قبول الشروط التي فرضها القهال . ويورد **أكساكوف** رسالة إقطاعي تعرض للحُرم (للّعنة) والمقاطعة التامة، ولم يستطع الفكاك من هذا العقاب إلا بعد أن ناشد حاخاماً رفيع المقام في *غاليسيا*.

كانت قوات الجيش هي التي تخمد أعمال الشغب . وفي أثناء أعمال من هذا النوع اندلعت في محافظة *يكاترينا* عام 1883، كما يقول **أكساكوف** ، تعالت صرخات من وسط الجمهور اليهودي *تقول : "**وماذا، هل***

غلبتمونا؟ لقد نتفتم ريشنا، ولكننا أخرجنا روحكم !". وتصف *"الموسوعة اليهودية"* أيضاً هذه المصادمات بأنها "عمليات تنكيل ". وجاء فيها أن أغلبية المطبوعات الصادرة آنذاك تعتقد أن أعمال التنكيل جرت على أرضية اقتصادية. (على أن البارون **غينسبورغ** قدم للسلطات مذكرة مغفلة التوقيع تؤكد أن أعمال العنف كانت مدبّرة)، وتشير إلى وقوع ضحيتين بين اليهود ، وتقول إن "الجنود أطلقوا النار وأوقعوا عدداً من القتلى بين ا لفلاحين". وفي وقت لاحق كتب **روزانوف** عن أعمال عنف من هذا النوع، فقال:

"إن *البوغروم* هو اختلاج تشنجي يسببه الألم . فالعنكبوت يمتص دم الذبابة . فيما الذبابة تطنّ ، ويختلج جناحاها بتشنج، فيصيبان العنكبوت، ويمزقان خيوط الشبكة منهَكين وفي مكان واحد فقط . غير أن أرجل الذبابة تكون قد وقعت في الأنشوطة.

والعنكبوت يعرف ذلك... فالصياح ضد أعمال العنف تعبير بلاغي عن عذاب مَن هو سيد الموقف".

ويبدو أن *البوغروم* الذي وقع في مدينة *كيشينوف* عام 1903 كان له أساس "معيشي" أيضاً. فقد اتصف اليوم الأول بطابع أعمال شغب عادية مماثلة، وجرى خلاله تحطيم عدد من حوانيت اليهود وبيوتهم . غير أن الشرطة قامت باعتقالات كثيرة ، فهدأت أعمال الشغب بحلول المساء . ولكن الاضطرابات اتسعت في اليوم التالي. إذ بدأت الصدامات بين مجموعات من اليهود والمسيحيين كانت مسلحة بكل ما وقعت عليه اليد . ولم يتسنَّ للشرطة إخماد أعمال الشغب (رغم محاولاتها)، فاتخذت الاضطرابات طابعاً أكثر عدوانية، وجرى تحطيم مئات كثيرة من بيوت اليهود، وسقط بين الناس ضحايا يرجَّح أن عددهم بلغ 45 قتيلاً من اليهود و 4 قتلى من المسيحيين. ويعادل هذا الرقم الآن تقريباً عدد ضحايا أعمال الشغب في إحدى المبار يات الكبيرة بكرة القدم . إلا أن **وايزمن** يقول في مذكراته، مثلاً:

"لقد اتفق **هرتسل** على عقد لقاء في *بطرسبورغ* مع **فون بلوفيه** ، وهو الرجل الذي تلطّخت يداه بدماء آلاف الضحايا اليهود... وجاء **هرتسل** إلى روسيا ليلتقي جزّار *كيشينيوف*".

ثم استدعيت قوات من الجيش، فخمد *البوغروم* قبل حلول المساء . ووقعت عمليات اعتقال كثيرة، وأجريت محاكمات أنزلت عقوبة الأشغال الشاقة وغيرها بمن ثبتت إدانته بأعمال قتل وعنف . ولكن الصحافة (والصحافة الأجنبية أيضاً) ناقشت فيما بعد موضوعاً آخر بالأساس، هو اتهام الحكومة الروسية ***بتدبير*** أعمال العنف . ويستعرض **ألكساندر صولجِينيتسِن** ما نُشر بصدد *بوغروم كيشينيوف* (على أكثر من 15 صفحة)، حيث يظهر في كثير من الحالات غياب الدليل على صحة هذه التهم . ولكن الحجة الرئيسة ترِد ، كما يبدو لي، على لسان **شولغين** (يتفق معه في ذلك **صولجِينيتسِن**). فبعد ثورة شباط / فبراير وقعت أرشيفات العهد القيصري كلها في أيدي أعداء الحكومة، وتشكلت لجنة لكشف فظائع النظام القيصري (ولجنة خاصة بشأن أعمال العنف تضم في عضويتها شخصيات يهودية بارزة)، ولكننا لم نشهد نشر أية وثائق تدل على أن السلطات هي التي نظمت أعمال العنف.

أما الصحافة فقد قامت بعملها في العا لم كله (وللمقارنة، انظر تصريح **وايزمن** أعلاه)، ولعلّ **بلوفيه** قد دفع حياته ثمناً للوهم الذي خلقته. وأعتقد أن نشر أية وقائع لم يعد الآن مفيداً، نظراً لأن الخرافة التي تم خلقها تشكل جزءاً أكثر رسوخاً في الوعي الجماهيري من الوقائع التي تتناقض مع هذه الخرافة.

ومع ذلك فإن أعمال العنف هذه، منذ ثمانينات القرن التاسع عشر وحتى مطلع القرن العشرين، لا تقارن البتة بالصدامات الضارية التي دارت رحاها قبل ذلك بفترة غير بعيدة، أيام جماعة ا **لهايداماك** (القوزاق الأوكرانيين) **وبوغدان خمِلنيتسكي**... إلخ، على تلك الأراضي (الأوكرانية) إياها أيام كانت تابعة لبولونيا ، وعندما أباد القوزاق قرى يهودية عن بكرة أبيها (وردّ عليهم البولونيون بالضراوة نفسها، فعاقبوا كثيرين من المتمردين الأوكرانيين بالإعدام على الخوازيق، وبالموت حرقاً بالنار).

أما أعمال العنف التي وقعت أيام ثورة 1905 – 1906 فكانت تتصف بطابع مغاير بعض الشيء، إذ نشهد خلالها وقوع صدامات بين مجموعات منظمة لدى كلا الطرفين، وكثيراً ما كانت تلك الجماعات مزوّدة بأسلحة نارية. ويعرض **شولغين** صورة لهذه الصدامات أقرب إلى الحقيقة، إذ إنه كان شاهد عيان على بعض منها . وهو يرى أن ما سمي بـ *"بوغروم ضد اليهود"* كان جزءاً من الصراع الثوري آنذاك . وهو يورد جملة من الشهادات (وخاصة من مدينة *كييف* التي كان مقيماً فيها) تفيد بأن بيان (مانيفست) 27 تشرين الأول / أكتوبر 1905 شكّل دفعاً للنشاط الثوري تجلى في الاستيلاء على المباني الحكومية ، وتحطيم رموز الملَكية، وتمزيق صور القيصر وعلم الدولة الرسمي. وكان يتصدر قيادة هذه الأعمال في المدن الواقعة داخل "نطاق الإقامة" أشخاص بينهم العديد من اليهود. ويورد **مينشيكوف** هذا الاقتباس من صحافة تلك الأيام:

"كان يسير وسط الحشود اليهودية المقهقهةِ في *أوديسا* كلبٌ يكلِّل التاجُ القيصريُّ رأسَه، والعلم القومي الروسي مربوط بذيله".

وردّاً على ذلك وقعت، حسب وجهة النظر هذه، "أعمال العنف" التي كانت موجهة ضد اليهود الموجودين في "نطاق الإقامة". ويُعزى إلى ذلك أيضاً سببُ وقوع أعمال مشابهة في كل من *كييف وأوديسا ونيجِنِسْك* . أما في *تومْسْك*، مثلاً، حيث كان عدد اليهود قليلاً جداً، فقد هاجمت جمهرة من الناس اجتماعاً حاشداً للثوريين دون أن يحمل ذلك أي طابع معادٍ لليهود. وكما يقول **شولغين:**

"لم تكن أعمال العنف (*بوغروم*) تستهدف اليهود دون سواهم ، بل طالت جميع من رأت فيهم عفويةُ الطبع الروسي – وهي في نوبة تشنج من نوبات حب البقاء – مسبباً للموجة الثورية**!**

على أن هذه القلاقل العفوية هي التي أوقفت "ثورة 1905" آنذاك، كما يرى **شولغين**. ويقدم **صولجِينيتسِن** وصفاً تفصيلياً لهذه الأحداث استناداً إلى العديد من الاقتباسات، ويكرس فصلاً كاملاً من كتابه لهذا الموضوع . إن استعراض هذا الفصل يقدم، برأيي، شهادة دامغة على أحداث تلك الفترة ، بوصفها صداماً مسلحاً بين تيارين، علماً بأن اليهود كانوا يشغلون موقعاً بارزاً في قيادة التيار الثوري . ولعل أولوية الركون إلى وجهة النظر هذه تعود للقيصر **نيقولاي الثاني** الذي كتب في رسالة (يستشهد بها **شولغين**) ما يلي:

"لقد استاء الشعب من وقاحة الثوريين والاشتراكيين وجرأتهم، ولمّا كان تسعة أعشارهم من اليهود فقد انصب غيظه كله على هؤلاء... من هنا جاءت أعمال العنف ضد اليهود".

ومن اللافت أن **وايزمن** أيضاً يعود بذكرياته إلى تلك الفترة، ويقول:

"وهكذا اندلعت في "نطاق الإقامة" بأسره حربٌ أهليةٌ مشوهةٌ بين اليهود والسلطات الروسية...".

ولكن **وايزمن** يرى ذلك من منظوره الخاص، فيقول:

"كان الجانب الأول يحاول الحفاظ على النظام، بينما كان الثاني يشجع على أعمال الشغب".

وعندما كانت تتصادم جماعتان، وتقوم إحداهما بتمزيق العلم ال روسي، فمن المعقول تماماً أن رجال الشرطة والجيش لم يكونوا يبدون تعاطفاً مع هذه الجماعة، بل ومن المشكوك فيه أنهم كانوا يهبّون لنجدتها عندما تبدأ الكفّة بالميل لصالح الجماعة الأخرى. على أن تقارير النواب الذين حققوا في أعمال الشغب تتحدث بموضوعية عن "تقاعس من جانب الشرطة والعسكر هو أقرب إلى التغاضي ". إلا أن الجيش كان في نهاية المطاف يعيد فرض النظام بسرعة لا تقل كثيراً عن سرعة أي إدارة أخرى لاستعادة النظام في بلادها.

لم تكن روسيا القيصرية قبل الثورة قد هضمت بعدُ المبادئ الأوروبية الغربية مئة بالمئة، أي : إذا قتلوا والدك، أو اغتصبوا ابنتك، أو أنزلوا بك الخراب عن طريق الاحتيال... فعليك بالمحكمة... اطرق بابها (ولم يكن واضحاً البتة أن أفضل طريق لروسيا هو أن تستأصل من جسمها كل جذور "المجتمع التقليدي "). لقد غدا مستحيلاً أن تقوم فيها الآن حركات شعبية بحجم حركة **بوغاتشوف** (زعيم أكبر انتفاضة فلاحية روسية في القرن الثامن عشر . – م)، ولم تكن الاضطرابات الشعبية التي وقعت عامي 1905 و1906 إلا صورة باهتة عن انتفاضة **بوغاتشوف**، بالغتِ الصحافة الروسية والغربية، على ما يبدو ، مبالغة فظيعة في الحديث عن مداها . فحتى *"الموسوعة اليهودية"* تقدر عدد مجمل ضحايا تلك الفترة بـ 810 أشخاص فقط. ولكن **شولغين** يورد خبراً من صحيفة ***"Berliner Tageblat"*** عن الصدامات الثورية التي وقعت في كييف خلال تشرين الأول / أكتوبر 1905، جاء فيه:

"إن الفظائع التي تحدثت عنها الصحف ليست شيئاً يذكر مقارنة بالواقع . فقد أبيدت آلاف مؤلفة (abertausende) من اليهود في جنوب روسيا...".

وكان ثمة أيضاً عامل آخر يؤلِّب دوماً اليهود الروس (بل والأجانب أيضاً) على السلطة الروسية . وتمثّلت الذروة في قضية **بيليس** المشهورة. فقد كانت تظهر بين وقت وآخر اتهامات بـ "عمليات قتل شعائري يقوم بها اليهود". على أن تقديم القرابين والأضاحي البشرية عموماً بذريعة دينية أمر م ألوف منذ قديم الزمان (وإلا لما صادفنا ذلك). وبالعودة إلى الأدب الملحمي الإغريقي القديم نجد القائد الإغريقي **أغاممنون** يقدم في بداية حملته على *طروادة* ابنته **إيجينيا** قرباناً للإلهة **أرتيميدس**. ويصف **بلوتارك** حتى في *"الأزمنة التاريخية"* أيام الحروب الإغريقية – الفارسية، كيف قامت جماعة من الإغريق بتحريض من الكهنة بتقديم عدد من الأسرى الفرس قرباناً للإله "**ديونيسوس** آكل البشر ". وكان **الأسيتيك** (في القارة الأميركية . – م)، قبل أن يغزوهم الإسبان، يقدمون بانتظام قرابين هائلة (من حيث عدد الأضاحي). وكان الأوروبيون شهوداً على تقديم الأضاحي البشرية في إفريقيا حتى في القرن التاسع عشر. وإذا كان المسيحيون الأوائل قد اتُّهِموا بقتل الأطفال، فإن المسيحيين أيضاً وجّهوا التهمة نفسها إلى بعض الجماعات التي انشقت عنهم. وفي روسيا صدرت غيرَ مرة اتهامات بارتكاب مثل هذه الجرائم ضمن طائفة **الخليستيين** (طائفة دينية هرطقية روسية . –م). وتتلخص هذه التهمة في وجود طقسٍ ("الولادة "؟) كان ينقلب في بعض الحالات إلى سِ فاح جماعي ("حب المسيح ")، فأول امرأة تحبل كانت تسمى"والدة الرب"، وإذا ما وضعت طفلاً ذكراً كانوا يسمونه الـ "مُسيِّح" (المسيح الصغير)، ثم يقتلونه ويأكلونه في اجتماع شعائري . إلا أن السلطات، على حد علمي، لم تتمكن من البرهان مرة واحدة على أن هذه الجريمة قد

ارتكبت بالفعل . أما الاتهامات التي توجه لليهود بارتكاب أعمال القتل الشعائري فتعود إلى القرون الأولى من عمر المسيحية. وكانت هذه الاتهامات تقترن عادة بعيد الفصح . وقد واجهوا هذه التهمة أكثر من مرة في بلدان مختلفة من أوروبا الغربية خلال القرون الوسطى، بل وحتى في القرن التاسع عشر، وإن كان ذلك قد أصبح أكثر ندرة. أما السجل الكامل للمحاكمات التي جرت في روسيا بهذا الصدد فقد كتبه بهدوء **ف. إ. دال** الشهير بجمعه *"قاموس اللغة الروسية "* و*"أمثال الشعب الروسي "* . ويصف **دال** عشرين قضية تدور حول هذه الاتهامات التي نظرت فيها المحاكم الروسية إبان القرن التاسع عشر . ويعرض في الختام بمزيد من التفصيل *"قضية فِليجسك"* التي استمر التحقيق فيها 12 عاماً، من 1823 وحتى 1835، والمتعلقة بقتل الطفل **فيودَر يميليانوف** وله من العمر ثلاث سنوات ونصف السنة. واتضح من معاينة جثته التي عُثِر عليها في غابة أن جروحه من نوع شديد الخصوصية يجعل احتمال عدِّ هذه الجريمة "قتلاً لأسباب عادية " أمراً با طلاً تماماً. وقررت المحكمة المحلية (عام 1824) أن الطفل "قد يكون مقتولاً بأيدي اليهود "، ولكنْ، نظراً "لعدم توفر الأدلة الكافية تُرفع الشبهة عن اليهود "، والإبقاء على اثنين منهم "قيد الاتهام ". بيد أنه في العام 1825، وبناء على التماس قدم **للقيصر الكسندر الأول**، أعيد تحريك الدعوى مرة أخرى، وتم تشكيل لجنة تحقيق جديدة. وفي العام 1829 جرّمت اللجنة اليهوديين المحتجزَ ين. وانضم حاكم المقاطعة إلى رأي اللجنة أيضاً. ولما أحيلت القضية إلى مجلس الشيوخ تعادلت الأصوات، فأحيلت إلى مجلس الدولة . وقد نصّ قرار هذا المجلس على "كفّ ا لتحقيق والمحاكمة ، وإطلاق سراح المتهمَ ين لعدم ثبوت الجريمة ". أما **دال** نفسه فيرى أن جرائم القتل *الشعائري* كانت ترتكب، ولكنه يصر على عدم نسبتها إلى جميع اليهود، وإنما إلى طائفة ما (لا نعرف لماذا يسميها "**الحاسيدية**"، علماً بأن الحاسيديين ما كانوا يُعَدّون "طائفة " إلا من وجهة نظر الحاخامية الأصولية)، ولا يوضِّح لماذا تُلصَق هذه الاتهامات بهم حصراً. وقد رُفِعت قضايا أخرى فيما بعد بشأن جرائم قتل *شعائري*.

وتندرج قضية "**بيليس** " ضمن هذه السلسلة من القضايا . على أنه كان حرياً بها أن تسمى *"قضية* **يوشينسكي**"، ما دام مدار القضية هو قتل صبي في كييف يبلغ من العمر 12 عاما اسمه **أندريه يوشينسكي** ، وقد عثر على جثته في العام 1911 وفيها 47 جرحاً (13 منها على صدغه الأيمن فقط) من نوع مميز تماماً يوضح أن القصد منها هو جعل الضحية ينزف أكبر كمية من دمه وهو بعدُ على قيد الحياة . وحين أخذ التحقيق ينظر باحتمال أن تكون هذه الجريمة *قتلاً شعائرياً* على أيدي يهود، تم اعتقال **بيليس** . وقد استمر التحقيق عامين، واكتنفته جملة من الملابسات . أما الرواية الأكثر شيوعاً ، والتي طرحتها الصحافة بمواجهة رواية التحقيق، فتتلخص بأن الحديث يدورحول *تشابه* مع جريمة *قتل شعائري* ارتكبتها **فيرا تشيبرياك** . وكانت **تشبيرياك** هذه متهمة بموت طفليها في ظروف غامضة . وقد صرحت بأن **مارغولين** ، محامي **بيليس**، عرض عليها أن يدفع لها 40 ألف روبل حال اعترافها بعملية القتل . ولكن **مارغولين** نفى ذلك . وبعد مُضيٍّ بعض الوقت يصبح أحد المحققين (واسمه **كراسوفسكي**) عضواً في هيئة محامي الدفاع...

وثارت ضجة حول هذه "القضية" في العالم كله . وراحت الصحافة الليبرالية (أي الصحافة كلها تقريباً) تؤكد أن التحقيق تعرَّض لضغط من جهات "عليا". وأعلن المؤتمر الصهيوني الحادي عشر : "إننا، سعياً منا لكسب تضامن جميع البشرالطيبين، نطالب العالم المثقف كله بأن يقف معنا في النضال ضد الهمجية الظلامية، وأن

يقدِّم لنا العون في الدفاع عن كرامة شعبنا الإنسانية المنتهكة وشرفه المهان ". وكان **شولغين** من بين "اليمينيين" الذين وقفوا ضد مجرد رفع الدعوى أصلاً، فكتب يقول : "أنتم من تقدمون قرباناً بشرياً! لقد وقفتم من **بيليس** موقف من ينظر إلى أرنب يوضع على المشرحة . فحذارِ ! إن ثمة معابدَ لا يمكن هدمها دون عقاب ". لقد كان **شولغين** يرى أن اتهام اليهود بارتكاب جرائم *قتل شعائري* هو وسيلة للثأر منه م. ولست أدري كيف يمكن الدفاع عن هذا الرأي بمزيد من التفصيل. فمَن الذي كان يثأر ما دامت السلطات في جميع العصور، كقاعدة عامة، لم تكن تؤيد هذه الاتهامات؟ (وحجته هو بالذات: لو أن المحاكمة "مدبّرة" لكشف الأرشيف عن ذلك بعد ثورة شباط / فبراير). ومن ناحية أخرى ، أكد وزير الخارجية **سازانوف** للسفراء الأجانب أن **بيليس** سيبرّأ. وهذا أيضاً فعل قامت به السلطات . ومن الأسماء المعروفة التي أيدت رواية القتل اليهودي *الشعائري* كل من **روزانوف وفلورينسكي** (الذي لم يضع اسمه تحت ما نشره). وقد جرت المحاكمة في العام 1913 واستمرت شهراً واحداً. وقرر المحلفون أن *القتل الشعائري* قد وقع فعلاً. أمّا إدانة **بيليس** فقد اختلفت الآراء حولها. يقول **مينشيكوف** إن أصوات المحلفين انقسمت إلى 6 ضد 6. بينما تقول *"الموسوعة اليهودية الموجزة"* إن **بيليس** قد برِّئ بالإجماع. ولكنه، في جميع الأحوال، قد برِّئ بمقتضى قوانين تلك الفترة.

على أن الإحاطة بكل مواد القضية تتطلب، كما يقول **شولغين**، هدر العمر كله. ولكن يبدو لي أن الحديث عن وقوع حادثة القتل أو عدم وقوعها، وعمّا إذا كان **بيليس** مذنبا أم بريئاً، أمر عديم الأهمية ، سواءٌ بالنسبة لتاريخ العلاقات الروسية – اليهودية، أو للتاريخ عموماً . وعلى النحو ذاته ، فإن الحديث عمّا إذا كانت جرائم القتل *الشعائري* قد ارتكبت بين **الخليستيين** أم لا، ليس بالمسألة التي تهمّ التاريخ الروسي . وقد وصف **ميريجكوفسكي**، مثلاً، (في رواية *"بطرس وألكسي"*) جريمة من هذا النوع بالضبط ، دون أن يستدعي ذلك أية احتجاجات، سواءٌ في روسيا أو في الخارج. صحيح أن أحداث هذه الرواية تعود إلى عهد **بطرس الأكبر** . ولكن رد الفعل على *"قضية بيليس"* يتيح لنا أن نتصور هول العويل الذي كان سيتعالى لو جازف أحد يوماً ووصف في رواية أدبية جريمة *قتل شعائري* ارتكبت في محيط يهودي، حتى ولو وقعت تلك الجريمة في القرون الوسطى . بينما عُدّ ما أثارته "القضية" المعنية من صدى في روسيا والعا لم حدثاً تاريخياً هاماً. بل وكانت قد أجريت قبل ذلك بوقت قصير محاكمة لما عُرِف بـ *"قضية موتان"* التي اتُّهِمَ فيها وثنيون من القومية **الماريّة** * بتقديم أُضحيات بشرية، ولكن ذلك لم يخلّف صدى يمكن أن يقارن بصدى القضية المذكورة آنفاً ، ولم يهتم أي من السفراء بالاستفسار عن نتيجة القضية. ثم إن كتاب **دال** الذي أشرنا إليه أعلاه كانت له أيضاً قصة من قصص المغامرات، إذ سرق "مجهولون" مخطوطة الكتاب من المطبعة، وأتلفوا النص المنضد . أما كتابه الآخر، *"بحث في هرطقة الخصيان"*، فقد كان في كاتالوج عادي، وكان بإمكان الراغب أن يقتنيه مقابل 200 روبل فضة. ولقد فُصل **روزانوف** من *"الجمعية الدينية الفلسفية"* النخبوية عندما كتب أن جرائم القتل *الشعائري* لا تتناقض مع روح *العهد القديم والتلمود*. ولكنه عاد فحلّ هناك ، في تلك الجمعية، ضيفاً مكرّماً عندما نشر آراء عن المسيحية لا تقل تنفيراً. بل ولم يشفع له ما كتبه سابقاً عن اليهودية من مقالات مفعمة بالإعجاب، مثلما لم يكن يشفع فيما بعد للضحايا ما يذكرونه من مآثرهم الثورية أمام المحققين السوفييت الذين كانوا يردون عليهم قائلين : "ليس هذا ما نحاكمكم عليه "). وكانت تتعالى حول *"قضية بيليس"* تصريحات خيالية تماماً . وعلى سبيل المثال، قال أحد

الكتاب (**س. ك. يفرون**) إنه "يقسم بالرب القدير" على أن جرائم القتل *الشعائري* لا وجود لها بين اليهود . واستند آخرون إلى أن "الحاخامات جميعهم دون استثناء" ينفون إمكانية القيام بقتل *شعائري*، ولذلك فإن التحقيق موجَّه، على حد زعمهم، ضد "جميع اليهود" (بل وهو، فضلاً عن ذلك، إهانة للدول الأجنبية التي يشغل اليهود فيها مناصب رفيعة – وهذا بمثابة وشاية لتلك الدول ضد روسيا). ولكن مَن ذا مِن الروس يخاطر بأن يصرح (أو يقسم بالرب القدير) أن جرائم القتل *الشعائري* لا تقع بين **الخليستيين** ؟ وإلا كان ذلك يعني وج ود منظمة تعرف "كل شيء عن كل شخص". وبالطبع، لا وجود لمثل هذه المنظمة. وكان يتكرر التعبير في جميع الاحتجاجات عن الاستياء من أن "هذه الاتهامات" توجَّه في "القرن العشرين التقدمي". ولكن ما هوَ إلا عام واحد فقط حتى انقضَّت البلدان الأكثر تقدمية بعضُها على بعض، ومضت تُعمِل آلة التدمير فيما بينها على مدى أربع سنوات ، وتستخدم الغازات السامة. وبعد قرابة ثلاثين عاماً من ذلك اخترع أحد أكثر البلدان تقدمية في العالم غرفَ الغاز وآلات الخنق بالغازأيضاً، بينما اخترع بلد آخر، لا يقل عنه تقدمية، القنبلة الذرية وألقاها على مدينة مسالمة . وما كان ذلك جريمة قتل طفل واحد، بل كان عدد "الضحايا" يقدَّر بالملايين. وهكذا يتضح أنْ لا علاقة للتقدم بهذه الأمور.

بل وما زالت تجري في روسيا دائماً وحتى اليوم جرائم قتل *شعائري*، فتارة يُقتل الرهبان الثلاثة في **أوبتينا بوستينيا**، وتارة أخرى يُقتل قسيس في **سيبيريا**... والأنكى من ذلك أن القتلة أنفسهم يعترفون بأنهم اقترفوا فِعلتهم تلك بدافع انفعالات غيبية . لقد تأتت أهمية *"قضية بيليس"* من كونها تسببت بتحريم مناقشة موضوع القتل *الشعائري*، وتقبّلت الأوساط الليبرالية هذا التحريم وأيدته بحرارة فائقة . وهذا يعني أن القضية (كعامل سياسي ذي وزن) إنما خلقتها الصحافة المعارضة.

وتمثّلت النتيجة بالنسبة لروسيا في أن الطفل المغدور طواه النسيان خل ف هذا الصراخ الذي عم العالم كله ، وأُلقيَ بالضحية بعيداً كشيء لا يثير اهتمام أحد . وانتهى الأمر بالمحكمة إلى تبرئة **بيليس**، فجُمعت له تبرعات مالية من جميع أنحاء العالم، ثم سافر إلى أمريكا. إلا أن جثة الطفل القتيل بقيت ولم تسافر . وإذا لم يكن **بيليس** هو من قتله، فإن السؤال يظل قا ئماً: من القاتل، إذن؟ إذا كانت **تشيبرياك** هي الفاعل، كان يجب أن تُحاكم ... ولكن ذلك لم يكن يهمّ أحد اً. ولقد سلَّم "الرأي العام" الروسي بأن مصير **يوشينسكي** شيء تافه مقارنة بمصير **بيليس**، وأن الحديث هنا يدور حول شخصيتين مختلفتين في الصفات والنوع، ويظهر ذلك من خلال جريمة قتل طفل يسهل فهمها على أي إنسان . وكما كتب **روزانوف**: "إنهم لا يكتفون ببيع راياتهم فقط ، ولا تاريخهم فقط ، بل ... ويبيعون الدم أيضاً ، دم صبي محدد تماماً ". لقد تم اختراع تسمية جديدة تماماً لتهمة اليهود بالقتل *الشعائري* هي *"الوشاية الدموية"*. ولم يخترعوا مثل هذا المصطلح عند اتهام **الخليستيين أو الماريين** . ويتكرر الأمر نفسه عندما تسمى خسائر البولونيين والبيلاروس أو الصرب في الحرب العالمية الثانية مجرد خسائر، أما خسائر اليهود فهي *"هولوكست"* (محرقة)، أي أنها شيء مختلف في الجوهر.

تلك كانت الاتهامات الثلاثة التي جعلت اليهود في روسيا والعالم يقفون ضد نمط الحياة الروسي آنذاك، وهي: "إن اليهود لا يتمتعون في روسيا بالمساواة في الحقوق "، و"إن الحكومة الروسية تنظم أعمال العنف (*بوغروم*) ضد اليهود"، و" الوشاية الدموية".

يعود **شولغين** بذاكرته إلى الوراء فيقول:

"إن من يتذكر البيئة السياسية اليهودية في ذلك الزمن يتذكر غضبها أيضاً . لقد كان كل شيء يغلي بالحقد . الحقد على مَن؟ الحقد على الحكومة، الحقد على كل ما ومن كان يقف وراء هذه الحكومة، أو كانت تحميه هذه الحكومة".

ويؤكد هذه الحالةَ النفسية مرجعٌ مختلف تماماً ، هو أحد زعماء الصهيونية ، **حاييم وايزمن** ، الذي يقول في مذكراته إنه، يوم كان مقيماً في إنكلترا أثناء الحرب العالمية الأولى، عبَّر عن حقده على رو سيا فاستغرب جليسُه كيف يستطيع إنسان يتعاطف مع إنكلترا أن يقف هذا الموقف من روسيا التي تبذل في الوقت نفسه قُصارى جهدها من أجل النصر . وردَّ **وايزمن** عليه، كما جاء في مذكراته ، بأن "كل انتصار روسي هو كابوس بالنسبة لليهود".

ولكنْ من الواضح تماماً أن هذا "الحقد على الحكومة وكل ما تحميه"، الحقد الذي يتذكره **شولغين،** ليست من اختراع اليهود . فقد كتب **بيتشورِن** (بطل رواية **ميخائيل ليرمَنتَف** "*بطل من زماننا* ". – م) قبل أن يكون ثمة أدنى إمكانية للحديث عن أي نفوذ لليهود:

ما أ حلى أن تكره الوطن!

وأن تتعطش انتظاراً لدماره.

وقد تمكن **بوشكين** أيضاً من الإحساس بهذا المزاج :

لقد نورتَ عقلك بالمعارف،

ورأيتَ نور الحقيقة الصافي

وأحببتَ الشعوب الغريبة حباً رقيقاً

وكرهتَ شعبك بحكمةٍ .

كما أن **دوستويفسكي** لفت الانتباه غيرَ مرة في "*يوميات كاتب* " إلى موقف الأسياد المتعالي الذي يحتقر الشعب احتقاراً انقلب كراهيةً لروسيا ولكل ما هو روسي (بما في ذلك الحكومة أيضاً).

ويرجع أصل هذا التقليد إلى أ رستقراطيين، أمثال **تشا دايف، وباكونِن ، وغيرتسِن .** غير أن هؤلاء كانوا من أتباع **فولتير، وروسو** اللذين لا علاقة لهما بالتقاليد اليهودية.

وكتب **روزانوف** عام 1914 مقالة بعنوان "*في تأبين محبي السلافية* "، يصف فيها موقف التيار الليبرالي منهم:

"لم يكن ثمة أي "جدال" ولم يحصل ... كان ثمة تنكيل واضطهاد؛ كانت صفعة ترسخت على مدى سبعين عاماً، وكان بصاقٌ ، ورذاذُ وحلٍ لزجٍ يتطاير من تحت عجلات عربة مهيبة يجلس فيها أضراب **كراييفسكي ونيكراسوف وبلاغوسفيتلوف وشيلغونوف وسكابيتشسكي وتشرنيشيفسكي وبيساريف** ... يلطِّخ أناساً انكمشوا على أنفسهم في زاوية ما، لا يسمعهم أو يفهمهم أو ينتقدهم أحد. تلك هي القضية إذاً، وفيها يكمن جذر الافتراق (...) الذي وسم بميسمه مسار التاريخ الروسي على مدى سبعين عاماً ... كانت القضية تتعلق بوطننا الذي أوعز لفيفٌ كامل من الكتاب المشهورين بأن ننظر إليه كألدّ عدوٍّ لتنوير ٍ وثقافةٍ ما، وكانت القضية تتعلق

بالمسيحية والكنيسة اللتين أشار علينا هؤلاء بأن نفهمهما كجدار من الظلامية والعتمة الحالكة والجهل ... كجدار، هو في حقيقته غلطةُ تاريخ، خرافةٌ، رواسبُ، "أي ما ليس له من وجود".

ولنلاحظ أن هذ هالقائمة لـ "مشاهير الكتاب" ("الجالسين في العربة") لا تتضمّن اسم يهودي واحد، وهذا يَرِدُ عند **روزانوف** الذي كان في ذلك الحين ذا حساسية غير ليبرالية إطلاقاً إزاء النفوذ اليهودي (أما بخصوص المسيحيـة والكنيسة فقد كان بإمكانه شخصياً أن يجد لنفسه متسعاً في هذه "العربة" بالقرب من "مقعد الحوذي").غير أن **روزانوف** يلتزم الحقيقة التاريخية عندما يكتب عن "جذر الافتراق"، وعن أصل هذا الجذر.

3 – الانتلجينسيا الروسية واليهود

وفي الوقت نفسه كان اليهود يوسِّعون دائرة انخراطهم في المجتمع الروسي المتعلم، ويؤثِّرون فيه على تطور الثقافة الروسية. فما من أحد إلا ويعرف الرسام **ليفيتان**، والنحات **أنتوكولسكي**، والأخوين الموسيقيين **روبنشتاين** اللذين أسسا الكونسرفاتوار في كلٍّ من *موسكو وبطرسبورغ*، وجامِعَ الفولكور الروسي **شاين**، وغيرهم كثيرين.

لقد أثار **غيرشينزون** قدْراً كبيراً من الجدل حين أصدر مجموعة شعرية تحت عنوان *"معالم"*، وكان من بين مؤلفيها السبعةِ ثلاثةُ يهود، هم **غيرشينزون** نفسه، **وإزغويف (لانده)، وفرانك**.

إذ كانت تتبلورآنذاك آراء مختلفة حول دور اليهود في حياة روسيا الثقافية.

وكان **روزانوف** كثيرَ التفكير بدور اليهود والدين اليهودي، فكتب عنهما الكثير. وقد انطبع موقفه من اليهودية التاريخية برمتها بـ "طابع الحب – الكراهية"، كما درج الحديث عن ذلك فيما بعد . فمن ناحية، عدّ **روزانوف** اليهودية ديناً مثالياً "حقيقياً"، دينَ خصوبة، وعشيرة، وعائلة، وامتلاءِ حياة، مثلما عدّ القهال شكلا أمثل للجماعة . أما المسيحية فقد بدت **لروزانوف** ، على مدى نشاطه الأدبي كله، نوعاً من نقيض الموضوع antithesis الهدّامة، ديناً يرفع العزوبية والعذرية إلى مصاف المثال، وأخيراً غايته الموت . وهو يسمي نفسه نقيضَ المسيحي، المسيحَ الدجّال. حتى إن يومياته في السنة الأخيرة من حياته تتضمن فصلاً بعنوان "أنتقلُ إلى الجماعة اليهودية".

ومن ناحية أخرى، كان **روزانوف** يشير طوال الوقت (ربما باستثناء السنة الأخيرة من حياته، بل وجزئياً فقط) إلى ما للنفوذ اليهودي من طابع اجتماعي خطير، ولا سيّما على روسيا. فقد كتب يقول:

لمَ أنتم تلحّفون على روحي، وعلى روح كل كاتب، بأن عليه *أن يكره القيصر*.

تلحّفون بملل كبنات آوى اللاتي يعوين عند الباب . فلأننا لا أريدكم ، أنا لا أريدكم . لا أريد اليهودي **أُولْ دي أور**، ولا الشاعر **بوغوراز** . إنني روسي . فدعوني وشأني . دعونا نحن الروس، ولا تقتربوا منا خلسة وأنتم توشوشون: *"أنت إنسان مثقف وكاتب*، ويجب عليك أن تكره هذه الحكومة الخسيسة".

إن في هذا القول نزوعاً نحو الاستقلال بغية ألا يذعن للتيار العام:

"بإمكان اليهود أن يكونوا مغتبطين لأن **فلاديمِر سولوفيوف** هرول جارياً وراءهم، ولكن **روزانوف** لن يهرول وراءهم (فقد جرّبوا "تلطيخه").

غير أن **روزانوف** كان لديه أفكار لا يكفّ عن طرحها:

"لقد سمّدكم، وأخصبكم . تقدَّم وقال لكم إن ما تفكرون به ويشغل بالكم سهل المنال ... حتى غدوتم لا تلاحظون الآن أنكم لم تعودوا "ذاتاً" و"**أنا**"، وإنما "لهُ". أنتم التربة التي زرعها اليهودي، والتي يحرثها اليهودي".

"وستهلِكون. فـ "بعد مئة عام" لن يكون هناك روسي + يهودي، بل فقط يهودي + روسي هالِك بالقرب منه".

"حقولنا ليست من تراب، بل هي من بشر ". وذلكم هو السبب في أننا لا نحرث ... جرّاء نبوءة سابقة لا نحرث. لقد أُعِدَّت لنا أخصب تربة، إنها الإنسان، الشعوب".

"وهذا هو بالضبط سرُّهمُ الذي أخشاه ، وأصرخ، وأقول لأحبَّتي الروس : " إياكم ! لا تخالطوا اليهود . وإلا هلَكتم أجميعن".

"انتظروا. فبعد 150 أو 200 من السنين سيفرقع سوط الناظر اليهودي فوق حقول روسيا".

وستكون تحت هذا السوط ظهورُ العبيد الروس المحنيّة.

" ليس ثمة في زماننا هذا خطران على روسيا. ثمة خطر واحد. إنه اليهود".

"وإذا ما أخذت الثورة تنتصر عموماً ... فإن أولئك اليهود سيخلعون عن وجوههم قناع "التعاطف مع الشعب الروسي"... وسرعان ما سيخنقون ، *كل الجزء الروسي من الثورة، وكل قادة ال ثورة الروس* ، كما خنقوا (وباللباقة الثورية إياها) كلاً من **غابون** (رجل دين من قادة جماعة المئة السود الرجعية . . م) و**خروستاليوف**، وذلك لكي يدخلوا من "باب القلعة التي تم الاستيلاء عليها " وحدَهم، دون سواهم، بالطبع!.. سيدخلون وصيحاتهم تتعالى : "إفرحْ أيها الشعب الروسي ... لقد وهبناك الحرية ! فاشكرنا و***انحن*** ***لنا*** !.. غدا تبدأ السعادة ...". أمّا اليوم فعلينا أن ننجز عملاً صغيراً: أن نكمل خنق هذه الشرطة في الأقاليم ، والمسؤولين الصغار في أقسام الشرطة، ومديري المجالس المحلية النبلاء في الأقضية، وسننصِّب مكانهم أناساً سُمراً، سودَ الشعور من بين الطلاب، تكون لهم (بحلول ذلك الوقت) أسماء روسية، بل ويكونون متنصرين أيضاً...".

(ثمة في المقطع الأخير بعض الغموض . إذ نستنتج من تعليقات الناشر أن هذا النص مكتوب في العام 1913، بينما لقي **نوسار – خروستاليوف** حتفه على أيدي البلاشفة عام 1919، فهل تعني كلمة "الخنْق" هنا نهاية النجاح السياسي؟ أمّا **غابون** فكان في ذلك الوقت قد "أُعدم" على يد **روتنبرغ**).

في العام 1897 سجل **تشيخوف** في دفتر يومياته التأملات التالية (نشرت أول مرة عام1980):

"إن كُتاباً من أمثال **ن.س. ليسكوف** و**س. ف. مكسيموف** لا يمكن أن يكون لهم نصيب من النجاح في أوساط النقد الأدبي، لأن جميع نقادنا تقريباً من اليهود الجهلاء، الغرباء عن الحياة الروسية الأصيلة، عن روحها وشكلها وفكاهتها التي تظل عصية على أفهامهم تماماً . وهم لا يرون في الإنسان الروسي إلا أجنبياً مملاً، لا أكثر ولا أقلّ. إن **أوستروفسكي** لم يحظَ بالنجاح أبداً عند جمهور *بطرسبورغ* الذي يخضع في معظمُه لأحكام هؤلاء النقاد؛ وحتى **غوغَل** لم يعد يضحك هذا الجمهور".

وكتب أ. **بيلي** يقول:

"إننا مهدَّدون بخطر "الثقافة المعلبَّة"، أي بخطر المعمل الأممي الخاص بصنع العباقرة، يهددنا إنتاج الأفكار في المعامل...

ففي أحشاء جميع هذه المؤسسات تترعرع رقابة مريعة: فلا يترجم وينشر ويروَّج إلا ما يطيب لملوك البورصة الأدبية...

فمَنْ هم، من هم أولئك الذين يقومون بعملية الخَصي؟ إنه لغريب وفظيع أن نقول ذلك، ولكننا مضطَّرون.

إنهم أناس وافدون: منقطعو الصلة على نحو طبيعي بلالأمة التي يعيشون بين ظهرانيها ... حيث يصبح هؤلاء المتسلّطون على الثقافة القومية زعماء ثقافة تلك الأمة . وهم، بالطبع، لا يفهمون أعماق روح الشعب في تجلِّيه الصوتي واللوني واللفظي (...).

... فلتنظروا إلى قائمة أسماء العاملين في صحف روسيا ومجلاتها: من هم النقاد الموسيقون والأدبيون فيها ؟ تجدوا أن الأسماء يهوديةٌ بالكامل تقريباً... إن مجمل جماعة النقاد اليهود غرباء تماماً عن الفن الروسي، يكتبون بلهجة "الإسبرانتو " الضيقة، ويمارسون الإرهاب حيال أية محاولة لتعميق اللغة الروسية وإثرائها ... إن تبعية الكاتب هذه للنقد اليهودي، أو المتهوِّد، تحاط بصمت مطبق؛ ذلك أن الناشر اليهودي يهدد الكاتب بالجوع، من ناحية، فيما يهدد الناقد اليهودي بإهانة كل من يرفع صوته دفاعاً عن حق الأدب الروسي في أن يكون روسياً، وروسياً حصراً، من ناحية أخرى".

وقد احتفظت دُور الأرشيف برسالة كتبها **كوبرين** (يُعَدُّ عدم نشرها عندنا قبل تسعينات القرن العشرين أمراً بالغ الدلالة)، تتعلق بحادثة مدوِّية ردّاً على مقال غير محتشم كتبه الأديب **تشيريكوف** عن إبداع **شولوم– آش.** فانهالت سهام الصحافة كلها بشتى تلاوينها على **تشيريكوف**. يقول **كوبرين:**

"نحن جميعاً، أفاضلَ الناس في روسيا (وأضع نفسي في أقصى نهاية ذيل القائمة)، نركض منذ زمن بعيد تحت سوط الضوضاء اليهودية، والهستيرية اليهودية ، والحساسية المفرطة اليهودية، والتعطش اليهودي للسيطرة، والتلاحم اليهودي المغرِق في القِدم الذي يجعل هذا الشعب المختار متجبّراً وقوياً، كأنه سِربٌ من ذباب الخيل يستطيع أن يقتل حصاناً في مستنقع. والفظيع هو أننا جميعاً ندرك ذلك، إلا أن الأفظع من ذلك بمئة مرة هو أننا لا نزيد على أن نتهامس به في أشدّ اللقاءات حميمية، بينما لا نجرؤ ابداً على النطق به جَهاراً . بوسعك أن تشتم القيصر ، بل والربَّ كذلك ، في الصحافة خطياً ومجازياً، ولكن جرِّب أن تفعل ذلك بحق يهودي ! أوووه! عندها سيدوّي الزعيق والعويل بين جميع هؤلاء الصيادلة وأطباء الأسنان والمحامين والدكاترة، وسيتعالى الدويُّ على نحو خاص بين الكتّلب الروس، ذلك أنه، كما قال كاتب لا بأس به أبداً هو **كوبرين**، ما من يهودي يولد على وجه الأرض إلا وله رسالة مقررة سلفاً، هي أن يكون كاتباً روسياً".

ويتابع المؤلف قائلاً:

"ولهذا تحديداً فإن هذا اليهودي، التائهَ الأبدي، يحتقر كل ما هو دنيوي احتقاراً عميقاً، ولكنه احتقارٌ لاواع تقريباً ، غريزيٌ، يمدّه به إرثٌ عمرُه خمسة آلاف عام، عفويٌ، في الدم ... ولهذا تحديداً يقضي على الغابات بوحشية، لهذا هو لا مبال بالطبيعة، والتاريخ، ولغة الآخرين".

غير أن **كوبرين** يختم رسالته راجياً إبقاءها طي الكتمان، ويخبرنا أنه رفض أن يدافع عن **تشيريكوف**.

على أن ثمة قوى جذبٍ ما خفيةٌ كانت تربط الإنتلجينسيا التقدمية آنذاك باليهود . فقد أسس **مكسيم غوركي** ، على سبيل المثال، *"الجمعية الروسية لدراسة حياة اليهود"* من أجل مكافحة رواسب الخرافات الباقية حول اليهود .

وكانت تصدر كتاب أبحاث دورياً بعنوان *"الدرع"* للدفاع عن اليهود، يحرره كل من **ليونيد أندرييف، وصولوغوب، وغوركي**. وفيه كتب **ميريجكوفسكي:**

"ما الذي يريده اليهود منّا؟ أهو الاستياء الأخلاقي؟ أهو الاعتراف بأن معاداة السامية أمر شائن مرذول؟ إلا أن هذا الاعتراف قد وقع منذ زمن بعيد . وهذا الاستياء على قدْر من القوة والبساطة يجعل الكلام عنه بهدوء وعقلانية أمراً مستحيلاً. ليس بوسعنا إلا أن نشارك اليهود الصراخ، وها نحن نصرخ".

أما **الأب سيرغي بولغاكوف** فيقول عن الحركة الصهيونية:

"ثمة رموز مقدسة وأفكار عالمية تبعث الرعشة في أعمق أوتار القلب : إذ تتصف بهذه الأهمية، مثلاً ، مدينة *تسارغراد* (*القسطنطينية*) المسيحية، والصليب فوق كنيسة القديسة **صوفيا**، أو تخليص *مهد المسيح* من أيدي الكفار. وينبغي أن تتصف بمثل هذه الأهمية أيضاً، بالنسبة للقلب اليهودي والمسيحي (وأشدِّد ثلاثاً على هذه الـ "و")، قضية *فلسطين* وإقامة *إسرائيل* على الأرض التي منحها الرب إيّاها ووعدها بها".

ويقول **ف. إ. إيفانوف:**

"يُخَيّل إلي أن اليهود هم مختبرونا الذين جاؤوا في النبوءة، وهم أشبه بالممتحنين التاريخيين العالميين للشعوب المسيحية بخصوص محبة **المسيح** وإخلاصنا له".

يبدو هذا التيار مذهلاً على نحو خاص إذا ما قارنّاه بالموقف من الفلاحين الذين كانوا الموضوع المألوف يوماً لعطف الليبراليين والديم قراطيين الروس. فمنذ ثمانينيات القرن التاسع عشر كتب **إ. أكساكوف** يقول إن الصحافة الليبرالية تلعن "الكولاك" على الدوام، في حين لا تنبس أبداً بكلمة عن اليهودي المرابي أو بائع الخمر.

إن ما اتسم به التيار التقدمي في روسيا من انشداد عجيب نحو اليهود كأمة، وحب حارٍ دائم تجاههم، قد تجلّى على أسطع وجه عند **غوركي**، بدءاً من أوائل قصصه *"خرافة عن يهودي "* (1896)، و*"قابن وأرتيوم "* (1898)، ومقالتيه *"بوغروم"* و*"عن اليهود "*. وفي العام 1899 تصدى **غوركي** لموقف مجلة *"نوفويه فريميا "* (العصر الجديد)، حين تبنّى في رسالة مفتوحة إلى **سوفورين** مصطلح **بيساريف** "أدب فانكا". ومقابل ذلك تولّى المحامي **أُو. غروزنبيرغ** (محامي **بيليس** فيما بعد) مسألة الدفاع عن **غوركي** عندما اتُّهِم في العام 1905 بتوزيع أدبيات تحرِّض على إطاحة النظام القائم . وعندما سافر **غوركي** في العام 1906 إلى أمريكا أقام له اليهود الأميركيون حفلاً مهيباً لم ينعم بمثله من قبلُ إلا **غاريبالدي**، كما جاء في الصحف آنذاك . وكتب **غوركي** مقالاً في صحيفة اليهود الأميركيين *"فورفيرْتس"* تحت عنوان *"حول البوند"* جاء فيها:

"اليهود هم الناس الذين يرفعون عالياً شعلة متقدة ينيرون بها طريق البشرية".

وكان **غوركي** المبادر لإصدار صحيفة ***"نوفايا جيزْن"*** (الحياة الجديدة) التي موّلها **أ. ف. ماركس، وب. أ. غوردون**، وي.**ك. غروبيه** (كل بـ 150 ألف روبل). وكان محررها ن . ن. **سوخانوف (هيمّير)**، والعاملون الرئيسيون فيها : **لوزوفسكي (دريدزو)، وستيكلوف (ناخَمْكِس)** وغيرهما. (هذه المعلومات يوردها **سوخ انوف)**. أما مدير تحرير الجريدة فكان **سَلَمون زالتسمان**. (جميعهم يهود. – م)

و قد نشر **غوركي**، بالاشتراك **مع أندرييف وصولوغوب** ، *"استمارة عن معاداة السامية "* (لاستطلاع الرأي.– م) ضمّنها جوابه على النحو التالي:

"إن المسألة اليهودية في روسيا هي، من حيث أهميتها الاجتما عية، مسألتنا الروسية الأولى بخصوص حسن تنظيم حياة روسيا". (وهو في هذا يتطابق جزئياً مع وجهة نظر **روزانوف**).

وفي تموز/ يوليو من العام 1917 كتب **غوركي** في *"الحياة الجديدة"* ما يلي:

"ثمة بعدُ آلاف الأدلة على أن المعادلة بين اليهودي والبلشفي ("يهودي – بلشفي") معادلة غبية مبعثها غريزة حيوانية عند العصابيين من مواطني روسيا . وأنا، بالطبع، لن أنشغل بإيراد هذه الأدلة، لأن الشرفاء في غنى عنها، وغير الشرفاء صُمٌّ إزاءها".

هنا تتكشف الأسس العاطفية العميقة لموقف **غوركي** برمته من هذه المسألة. ذلك أن بعض الحقائق الأساسية واضحة بالنسبة له لا تحتاج إلى براهين، أي لا تحتاج إلى نقاش : فهل كان بطلاه المحبوبان **تشيلكاش** و**مالفا** شريفين؟ ("في نظره، كما في نظر الناس الشرفاء الآخرين"، وهذه مقولة غريبة على لسان **غوركي**). إن كثيراً من آراء **غوركي** هذه لا تتسع لها أطر هذ الفصل لسبب يتعلق بالتسلسل الزم ني حصراً ، وسنعود إليها لاحقاً . إذ توجد أمثلة من نوع هذا الغرام المشبوب عند الإنسان ***بشعبه*** ... ولكن هل يعرف التاريخ مثيلاً لغرام كهذا بشعب آخر؟

لقد أشار **روزانوف** إلى شيء ما (وإن لم يشر إلى كل شيء على الأرجح) بشأن هذه "القربى الروحية " المحيِّرة، حين قال:

"ليست الروح الروسية من يتكلم ! وفي الحقيقة فإن من يتكلم ليس **مكسيم غوركي** أبداً. إنه هنا **غوركي** المغشوش، المبدول . ذلك أن ا لأمة العبقرية في خلق الأشياء الم غشوشة واحدة لا ثاني لها . إن من يتكلم هو "محلّة" باريس التي يعيش فيها "روسٌ من أتباع شريعة **موسى**".

مراجع الفصل العاشر :

1 – دوستويفسكي ف. م. يوميات كاتب. المؤلفات في 30 مجلدا. المجلد 25، موسكو 1983

2 – بوخانوف ب. الصحافة البرجوازية والراسمال الكبير. أواخر القرم التاسع عشر– 1914، موسكو 1984

3 – أنانيتش ب. البيوت المصرية في روسيا 1816 – 1914، لينينغراد 1991

4 – أنانيتش ب. روسيا والراسمال الأجنبي (1897 – 1914) موسكو 1970

5 – "الأرشيف الأحمر". المجلد 4 للعام 1923، المجلد 6 للعام 1924، المجلد 10 للعام 1925

6 – سوبوتين أ. في نطاق إقامة اليهود. سان بطرسبورج، 1888

7 – تيركوفا– ويليامز أ. على طريق الحرية. نيويورك 1952

8 – أكساكوف إ. س. المؤلفات، سان بطرسبورج1900، الجلد 3

9– بوكروفسكي م.ن. لمحات من تاريخ الحركة الثورية في روسيا القرنين 19 – 20. موسكو 1924

10– آرونسون غ. روسيا عشية الثورة. مدريد 1986

11– شولغين ف.ف. ما الذي لا يعجبنا فيهم؟ سان بطرسبورج 1992

12 – روزانوف ف. ف. أوراق متساقطة. المجموعة 1 و2 سان بطرسبورج 1912 – 1925

13 – الكونت فيتّه س. يو. مذكرات. لينينغراد 1924

14 – .Sombart W(طبع بأمر من وزارة الداخلية)

15 – Von Hayek F. Law. Legislation and Liberty. V. 3. Chicago 1979

16 – أكساكوف إ.س. المؤلفات، المجلد 3، سان بطرسبورج 1905

17 – Weizmann Ch. Trial and error. N.J. 1949

18 – سولجنتسين أ. 200 عام سوية. موسكو 2001

19–- بلوتارك. وصف مقارن. فيمستوكل. 13

20 – روزانوف ف.ف. المؤلفات. العابر. موسكو 1994، عن الكتابة والكتاب، موسكو 1995

21 – القيامة في عصرنا. موسكو 2000، الأوراق الأخيرة. موسكو 200، – ساخرنا. موسكو 2001

22 – منشيكوف م. أو. رسائل إلى الأمة الروسية. موسكو 1999

23 – كوزمينسكي وتوراو. عمليات الترويع في كييف وأوديسا في تقريري النائبين توراو وكوزمينسكي. سان بطرسبورج 1907

24 – دال ف. إ. تحريات عن قتل أطفال مسيحيين على أيدي اليهود واستعمال دمائهم، 1844

25 – تشيخوف أ. ب. المؤلفات في 30 مجلدا. المجلد 17، موسكو 1980

26– بيلي أ. الثقافة المعلبة. مجلة "فيسي " (الميزان) 1909، أيلول / سبتمبر

27 – كوبرين أ. إ. انظر : تشيريكوف ي. على طريق الحياة والإبداع. مجلة "ناش سمفريمنيك"(معاصرنا) 1991 العدد 9

28 – سيمانوفيتش أ. راسبوتين واليهود. ريغا (بلا تاريخ)

29 – سوخانوف ن.ن. مذكرات عن الثورة. النجلد 1، الكتابان 1 –2 موسكو 1991

31– خفايا إسرائيل. "المسألةاليهودية " في الفكر الروسي الديني أواخر القرن التاسع عشر – النصف الأول من القرن العشرين. سان بطرسبورج 1993

31 – آغورسكي م. شكلوفسكايا م. مكسيم غوركي 1868 – 1936 (من التراث الأدبي). القدس 1936

الفصل الحادي عشر

في ثورة 1917 الروسية

1 – التحضير للثورة

اقتصرت مشاركة اليهود مشاركة فعالة في الثورة الروسية، على الأ قلية الناشطة سياسياً من مجمل سكان روسيا اليهود . وهذا أمر طبيعي، فهكذا كان حال الشعوب جميعاً ، يتساوى في ذلك الروس والجورجيون . إن مشاركة اليهود في الثورة الروسية أمر معروف على نطاق واسع، وغالباً ما يكون موضوعاً للنقاش . ولكن النقاش، في معظمه، يختزل إلى واحد من غُلويِّن . فإما أننا نجد من يؤكد أن هذه المشاركة عامل ثانوي، غير مهم من حيث المبدأ، لا معنى (ولا وجوب) لمناقشته؛ بزعم أن عدد اليهود الذين شاركوا في الثورة لم يكن كبيراً ، بل وأن هؤلاء لم يكونوا يهوداً، وإنما كانوا أمميين انقطعوا عن جذورهم القومية؛ وأن مناقشة هذه المسألة، عموماً ، هي "معاداة للسامية". أو إننا، على العكس من ذلك، نجد من يفسر مشاركة اليهود في الثورة على أنها العامل **الحاسم** فيها، وسببها **الرئيس**، أو حتى **الوحيد**.

إن محاولة إعادة رسم اللوحة الحقيقية التي لا تنزع نحو هذا الغلوّ أو ذاك، محاولةٌ لا تحظى إلا بالقليل من التفهم. وهذا ما عانى منه مؤلف هذا الكتاب شخصياً. فقد وضعت كتاباً قبل 25 سنة وتم توزيعه بجهود خاصة (عبر منشورات "ساميزدات" الممنوعة يومذاك)، حاولت أن أصوغ فيه وجهة نظري بدقة ، وهي: "إن الفكرة القائلة بأن الثورة من صنع اليهود حصراً ما هي إلا سخافة لم تُخترع، على الأرجح، إلا ليكون دحضها بعد ذلك أسهل من اختراعها ". ولكنني ما زلت حتى الآن، وبعد مرور ربع قرن، أصادف من يؤكد بأني أعتبر الثورة "مؤامرة يهودية".

سأحاول مرة أخرى جمع ما أعرفه من وقائع أساسية تشخص مشاركة اليهود في الإعداد للثورة الروسية والقيام بها وترسيخها . إن هذا المسار حساس ومعقد جداً ، ويبدو لي أن الإحاطة به اعتماداً على توصيف واحد أمر متعذر.

إن وجود الحركة الثورية و "العملية الثورية " في روسيا بحد ذاته ليس مرتبطاً بالنفوذ اليهودي بأي شكل من الأشكال. لقد كان **غيرتسِن وباكونِن وتشرنِشيفسكي ولافروف وبيساريف وميخائيلوفسكي** منظّرين كباراً ألهبوا قلوب الشبيبة الثورية . ولم يكن بين هؤلاء المنظّرين يهود . أما انعطاف الثوريين نحو الإرهاب فيبتدئ مع **فيرا زاسوليتش.** وكان **جِليابوف وميخائيلوف** بمثابة الروح للإرهابيين.

غير أن الجدول اليهودي راح يصب في هذا التيار الثوري شيئاً فشيئاً. فقد شغل **زايتسِف** ذو الأصل اليهودي مكانة بارزة بين كوكبة "رجال الستينيات " (من القرن 19. – م) الذين كان **تشرنشيفسكي ودوبرولوبوف** الأكثر نفوذاً بينهم. (يتحدث **تيخوميروف** في مذكراته عن **زايتسِف** فيقول إنه من أصول يهودية ، وكان يكره روسيا كرهاً

نادر المثال). وفي تلك الفترة أيضاً أظهر **مارك ناتانسون** مواهبه لأول مرة، حيث لعب فيما بعد دوراً كبيراً في الحركة الثورية . وحين كان في مقام الأباء المبجلين غدا واحداً (باسم مستعار هو **بوبروف**) من زعماء الاشتراكيين الثوريين اليساريين الذين ما إن وقعت القطيعة بي نهم وبين البلاشفة حتى أسس مجموعة تؤيد البلاشفة . ويمكن للأرقام التالية أن تلقي ضوءاً على مدى مشاركة اليهود في الحركة الثورية في مرحلتها الابتدائية. يتألف كتاب **فولك** *"الشعبيون الثوريون في السبعينيات "* (القرن التاسع عشر) من جزئين، وهو كتاب كبير الحجم يتضمن الكثير من المعطيات الدقيقة . إذ يصف الجزء الأول من هذا الكتاب أحداث النصف الأول من عقد السبعينيات، بينما يصف جزؤه الثاني أحداث النصف الثاني من هذا العقد . ويتضمن الكتاب بجزئيه قائمة بالأسماء التي يرد ذكرها فيه . وإذا ما أخذنا من هذه القائمة جميع من لهم علاقة، بهذ ا الشكل أو ذاك، بالعملية الثورية (من إرهابـيين ودعاة وموزعي منشورات ...إلخ) تبيّن لنا أن اليهود يشكلون بينهم في المرحلة الأولى نسبة 4 – 5 بالمئة، وفي المرحلة الثانية حوالي 10 بالمئة. وفي كتابه *"الأرض والحرية في السبعينيات"* يورد **أبتيكمان** (شخصية معروفة ضمن جما عة "**حرية الشعب** ") أسماء أعضاء "الحلقة الأساسية " في منظمة *"الأرض والحرية"* . وتضم هذه الحلقة 25 عضواً ، منهم أربعة يهود، كما يبدو واضحاً ، هم **مارك وأولغا ناتانسون، وزوندليفيتش، وأبتيكمان** . وفي العام 1877 كان "المجلس الموسع " لمنظمة *"الأرض والحرية "* يتألف من 17 شخصاً بينهم ثلاثة يهود . وكان عدد مؤسسي منظمة *"إعادة توزيع الأرض"* *18* شخصا بينهم 3 يهود أيضاً.

على أن هذا الجدول الصغير، الذي ما انفك يزداد اتساعاً ، جاء برديف بشري متميز تم اماً. ذلك أن التناقض الرئيس الذي كان يضني الشبيبة الثورية آنذاك يتلخص بما يلي: كانوا جميعاً، بالطبع، من *"الشعبيين"* المستعدين للتضحية بكل شيء، حتى بحياتهم، من أجل الشعب . ولكن ما إن احتكّوا بهذا الشعب في مرحلة *"النزول إلى الشعب"* حتى تبين لهم أن أفكارهم ومبادئهم تتنافى مع قناعات هذا الشعب . كان يكفي أن يشرعوا بالتحريض ضد القيصر أو الرب حتى يقبض عليهم (الشعب)، ويقتادهم إلى مراكز الشرطة مقيدين . وكان رجال الشرطة يحاولون أحياناً إطلاق سراحهم لعدم رغبتهم بالتورط مع هؤلاء "الأولاد أبناء السادة "، إلا أن الفلاحين كانوا يطالبون بتصريح يثبت أنهم سلّموا المحرضين للشرطة، ما كان يثير الاستياء منهم، والتعسف انتق اماً منهم في أحيان كثيرة. كان الموقف مدهشاً إلى درجة لا تدع مجالاً للشكوك.

كان أمام الثوريين ثلاث ة طرق، وفقاً لما جاء في وصف بليغ قدمه **تيخوميروف** بناء على انطباعاته الشخصية. كان بإمكانهم أن يطبقوا في الحياة مبدأهم الخاص القاضي بأن *"الشعب يعرف الحقيقة "*، أو على الأقل، أن يعترفوا بأن للشعب الحق في أن يعيش وفقاً لقناعاته . وكان على من يختار وجهة النظر هذه أن يغادروا الحركة الثورية فلا نعود نعلم عنهم شيئاً في تاريخ هذه الحركة . ويتلخص الطريق الثاني بـ "تنوير " الشعب، أي تغيير قناعاته عن طريق الدعاية . وكان من يختار هذا الطريق يمضي إلى الريف ممرّضاً أو معلماً...إلخ. ولكن البيئة الريفية (بما فيها من أمراض وفقر وسوء تغذية) كانت تترك لديهم، في أغلب الحالات، انطباعاً يحمل بعضهم على الفِرار من الريف ، فيما كانت هذه الحياة تجذب البعض الآخر، فتحجب همومُ

الفلاحين المحيطين بهم أهداف الثورة عن أعينهم . وكانت الحركة الثورية تخسر هؤلاء أيضاً . وأخيراً يظلّ الطريق الثالث، أي القيام بالثورة بالرغم من إرادة الشعب، إما بأيدي هذا الشعب بعد خداعه، وإما بدونه، أي بالإرهاب. وكان يجري عن وعي تام إعداد الأدبيات التحريضية على درجات ، فمنها ما يمكن إطلاع الشعب عليه ، ومنها ما لا يطّلع عليه إلا المعلمون ، والمهندسون الزراعيون ، والممرّضون (التحريض ضد القيصر والرب)، أي ما "ليس لائقاً" إطلاع الشعب عليه . بل وكانوا يوزّعون منشورات رسمية مزوّرة تحمل اسم القيصر وتدعو إلى تقاسم الأراضي، أو إلى الانتفاضة. ولمّا لم يثبت هذا الطريق جدواه أيضاً، لم يبقَ أمامهم إلا طريق الإرهاب، مع إدراكهم المر أن هذا الإرهاب يمارَس خلافاً لرغبات ومبادئ الشعب الذي يعبدون.

وعندها ظهر شباب لا وجود عندهم البتة لجميع "عُقد النقص" هذه، إذا ما تحدثنا بلغة عصرنا . فلم تكن تربط هؤلاء بالشعب أيةُ مشاعر إيجابية، وتعلّموا النظر إليه منذ الطفولة بوصفه بيئة غريبة عدائية، و "موضوعاً" لنشاطهم. وكان من السهل على هؤلاء استيعاب خُطاطة تجريدية ، وتركيز قواهم كلها على تنفيذها . وقد صوّرت لنا مذكرات **أبتيكمان**، على سبيل المثال، التقبّل الحسيّ للعالم لدى هذا النمط الجديد من الثوريين. يقول:

"لم أكن أعرف الشعب، لأنني ولدت في المدينة، ولم أرَ الريف تقريباً ، ناهيك عن أني كنت غريباً بدمي عن هذا الشعب. وكانت معرفتي بالتاريخ الروسي ضعيفة أيضاً. وأعترف بأنني لم أكن أحب هذا التاريخ . فقد بدا لي مملاً للغاية . وأنا، التواق للمعرفة والمجتهد الذي قرأ الكثير الكثير عن تاريخ الغرب، ولا سيّما تاريخ الحركات الثورية في الغرب، لم أكن قد قرأت شيئاً من التاريخ الروسي . وكان يخيّل إليّ أن هذا التاريخ عاجز عن أن يقول شيئاً، سواءٌ لعقلي، أو لقلبي".

من الطبيعي أن **أبتيكمان** لا يكتب ذلك إلا ليقول إنه أدرك غلطته. أما كيف صحح تلك الغلطة ، فذلك، على ما يبدو، حامل الدلالة الأقوى:

"كنتَ تجد على طاولتي كلاً من **صولوفيوف** ، **وكوستوماروف** ، **وبيليايف** ، **وآريستوف** ، **وخلِبنيكوف** ، **وشابوف** ، **وموردوفتسِف** ، **وأنطونوفيتش** وغيرهم... وكنت أقرأهم من الجِلد إلى الجِلد... وبحلول ربيع العام 1874 كنت جاهزاً تماماً (!)".

يتضح من مذكرات **أبتيكمان** أن الأمر كله لم يتطلب منه سوى بضعة أشهر ! ولا يخبرنا إن كان، في هذه العُجالة الاضطرارية، قد أحب التاريخ الروسي أم لا. كما أنه لا يطلعنا على ما فهم منه . ولكننا نعرف فيما بعد أنه انطلق إلى الشعب لكي يدعوه إلى الاشتراكية . ولقد اكتشف، متأسفاً، أن هذه الدعاية لا تلقى القبول إطلاقاً، فتوصل إلى استنتاج يقول : "... بهذه الطريقة *لن ننتصر على الشعب* ...". أما معاصرو **أبتيكمان** الروس فلا نعثر لديهم على مثل هذا التجاوز الكامل لعواطف الشعبيين، ولا القدرة على الوقوف الواعي في موقع الطرف المعادي (يجب *الانتصار* على الشعب).

إبان فورة الأهواء الشعبية ، في الستينيات ، كتب **زايتسِف** يقول إن "الشعب غبي وبليد"، ولا يجدر بنا "أن نجعل منه تمثالا "، على غرارما يفعل الديمقراطيون، بل يجب "العمل ضده بحزم ". أي ها هو الدافع ذاته، م رة أخرى، للنضال ضد الشعب... لإخضاعه.

وها هو ثوري آخر، هو **ديتش،** يقول في مذكراته إن العديد من الثوريين اليهود جاؤوا من أماكن نائية مهملة، حتى إنهم لم يكونوا يتكلمون اللغة الروسية في طفولتهم. ومن هؤلاء، على سبيل المثال ، **غيسي غِلفمان** قبل أن تحمل صرّتها وتمضي إلى المدينة "لدراسة علوم الأغيار". وبناء على أقوال **إ. شاحاك وألكسييف** ، وعلى مقاطع من كتاب **برافمان** التي أوردناها في الفصل الرابع، مثلاً ، يمكننا أن نتصور الأفكار التي كان يتشبَّع بها منذ الطفولة هؤلاء الفتيان الذين تربوا في قرى تتحكم بها القهالات.

قد يبدو أمراً مدهشاً كيف أن هؤلاء الشبان الغرباء عن الحياة الروسية منذ الطفولة ، الذين لا يعرفون الشعب البتة، سرعان ما غدوا زعماء الحركة الثورية . ولكن ذلك أمرٌ مفهوم في الواقع، فهم بالضبط من كان بمقدورهم تحرير الحركة من عبء التصورات القديمة عن "خدمة الشعب"، وتلقيحها بنظرة معاكسة، هي وجوب "الانتصار" على الشعب، و"العمل ضده بحزم". وهذا ما أطلق القوى من عقالها لممارسة النشاط العملي الثوري.

ثمة واقعة لفتت الانتباه منذ مطلع ثمانينيات القرن التاسع عشر، وهي وجود عدد ملحوظ من اليهود بين قيادات الإرهابيين . ولقد تجلى ذلك على وجه الخصوص في أعمال الشغب الشعبية ضد اليهود التي أثارها اغتيال القيصر **الكسندر الثاني** في العام 1881. بيد أن النفوذ اليهودي كان لا يزال ضعيفا في أوساط الثوريين، وهذا ما يستدل عليه من "المنشور رقم 6" لمنظمة *"حرية الشعب"* الذي رحب بهذه الاضطرابات كونها موجهة ضد المستغِلين (الأمر الذي حاولوا مراراً تبريره فيما بعد).

كان العام 1881 عام أزمة في تاريخ الحركة الثورية الروسية . فاغتيال القيصر **الكسندر الثاني** ارتد ضربةً قاسيةً، مادياً ومعنوياً، على الحركة الثورية إجمالاً . لقد زجت المنظمة بكل قواها في عملية الاغتيال هذه ، ما أسفر في النتيجة عن اعتقال جميع الثورين البارزين تقريباً . ومن ناحية أخرى ، فإن اغتيال القيصر الذي حرر الفلاحين، وطبّق الإصلاحات، وغيَّر حياة روسيا بمجملها ، نفَّر الكثيرين من الثورة . ثم بدأ البحث عن أفكار جديدة وطرق جديدة في حلقة الثوريين الذين نجوا من الاعت قال، وكانوا كلهم تقريباً في المهجر . وقد استمرت "مرحلة الكمون الثوري" هذه، المفصلية في تطور روسيا اللاحق، مدة 15 – 20 عاماً، إلى أن خرجت الحركة الثورية منها بوجه جديد.

على أن النفوذ اليهودي الذي كان العنصر الغالب الآن في قيادة الحركة، أضحى إحدى أوضح السمات الجديدة لهذه الحركة.

وقد تضمنّ تقرير أعدّته إدارة الشرطة عام 1889 عن الثوريين في المهجر قائمةً تضم أسماء 146 ثورياً، بينهم ما لا يقلّ عن 50 يهودياً، أي حوالي الثلث (نشرت هذه الوثيقة بعد الثورة).

وسرعان ما أخذت الحركة الثورية تستجمع قواها عند نهاية القرن . فقد كان حزب *الاشتراكيين الثوريين* آنذاك يشكل الكتلة الأبرز فيها . ومن الصعب أن نستعيد عملية نشوء هذا الحزب بالتفصيل، فقد نشأ ، وفقاً لبعض المعلومات، من اندماج ثلاث منظمات ، هي *"اتحاد الخارج"، و"الحزب العمالي لتحرير روسيا سياسياً "* الذي كان ينشط في غرب روسيا، و*"اتحاد الاشتراكيين الثوريين"* في الشمال . وكان **رابوبورت وحاييم جيتلوفسكي** هما مَن أسس المنظمة الأولى، **وغيرشوني (غيرش إسحاق إيتسكوف)** من أسس المنظمة الثانية، و**آرغونوف** (الروسي الوحيد بينهم) من أسس المنظمة الثالثة . ويبدو أن اليهود أساساً هم من كانوا على رأس قيادة حزب *الاشتراكيين الثوريين*. يقول **سبيريدوفيتش** في مذكراته، وهو عقيد في الجندرمة:

"إن دهاقنة هذا *"الحزب الروسي الناروني "* هم: **غوتس، ومينور، وغيرشوني، وروبانوفيتش، وناتانسون وآزِف**". (جميعهم يهود. . م).

ولم يستطع ذكر أحد من الروس إلا **تشيرنوف** . ونقتطف من مذكراته تلك هذه الصور الجديرة بالاهتمام ، والأكثر تفصيلاً:

"كانت لجنتهم في *كييف* مؤلفة آنذاك من اليهود. وكان المثقفون الشباب اليهود هم أنصار الحزب في *كييف* . وما يعكس نفوذ **غيرشوني** بينهم هو أنهم جميعاً مصابون بهذيان الإرهاب...

إن "**فيودَر** " يهودي، رفض الإفصاح عن اسمه ، وأبرز بطاقة هوية مزورة . لقد كان نموذجاً طريفاً للثوري العقائدي المحترف الجوّال . كان متعصباً في إيمانه بقضيته . وحده الوسط اليهودي كان يقدم أمثال هؤلاء الحزبيين المحترفين".

كانت *"المنظمة المقاتلة "* بمثابة الروح من حزب *الاشتراكيين الثوريين* . لقد أسسها، وقادها **غيرشوني** من 1901 وحتى 1902 ضمناً . ثم توالى على قيادتها كل من **آزِف** من 1903 وحتى 1906، **وزيلبيربيرغ** من 1906 وحتى عام 1907، وفي هذا العام ترأسها **نيكيتنكو**، غير أنه اعتقل بعد شهرين. وفي العام 1908 حُلَّت هذه المنظمة نظراً لافتضاح نشاط **آزِف**.

على أن دور **آزِف** لافت للأنظار بقوة. فقد تم تنفيذ أشهر عمليتين إرهابيتين تحت قيادته، وهما اغتيال الوزير **بليفيه** ، واغتيال محافظ موسكو العام الأمير العظيم **سيرغي ألكساندروفيتش** . وكان مشهوراً عن كليهما أنهما معاديان للسامية . وقد نُسب للوزير **بليفيه** (وهذا أمر مشكوك بصحته) أنه كان وراء تنظيم أعمال العنف (*بوغروم*) التي وقعت في *كيشنييوف* ، وحتى وراء مخطط دفع جميع اليهود إلى الغيتو (وهذا ادّعاء خيالي تماماً). أما الأمير العظيم **سيرغي ألكساندروفيتش** فقد استأنف من جديد تطبيق القيود المفروضة على اليهود بعد أن كان سلفه قد ألغاها . وفي هذا الصدد يتذكر الم سؤولان عن **آزِف** في قسم الشرطة، وهما **زوباتوف وراتايف**، أنه كان يرتعد حقداً وهو يتحدث عن **بليفيه**. وبعد مقتل **بليفيه** أقامت قيادة الحزب في سويسرا مأدبة تعالت فيها هتافات من قبيل "هذا جزاؤه على كيشينيوف". ومن ناحية أخرى كانت تربط **آزِف بغيرشوني** علاقات خاصة غامضة، فقد أعطى عنه إفادات كاذبة ليقلل من دوره، وهدد بأنه لن يتعاون لاحقاً مع الشرطة إذا ما

مُسَّ **غيرشوني** بأذى. وقد سلّم **آزِف** أعضاء منظمة **آرغونوف** المؤلفة من الروس (فتم اعتقال **آرغونوف** ، **وكولوسوف** ،، **وبارانوف** ، وفتاة هي **تشيرنوفا**). وأخيراً، فقد كانت قصة افتضاح **آزِف** مدهشة حقاً. فعندما أقام **بورتسِف** الأدلة على تعاونه مع الشرطة استدعيَ **آزيف** للمثول أمام المحكمة الحزبية . ولمّا أنكرَ، تأجلت المحاكمة إلى اليوم التالي، فتمكن **آزِف** من الرحيل في أثناء الليل آمناً مطمئناً، علماً بأن *الاشتراكيين الثوريين* كانوا ينفذون عمليات القتل، دون أية محاكمة، بحق من يرتكب ضد الحزب جرائم أقلَّ شأناً من هذه بكثير . فقد قاموا، على سبيل المثال، بضبط **تاتاروف**، المشتبَه بخيانته، في منزل والديه وأردوه قتيلاً على مرأى منهما دون أية محاكمة . وقد أقام **آزِف** بعد ذلك في ألمانيا . وقام **بورتسيف** بالتحري عنه فعثر عليه وأجرى مقابلة معه ، ولكن الآخرين يدّعون أنهم كانوا يجهلون مكان إقامته . ومن الصعب أن نجد تفسيراً لذلك كله سوى أن قيادة الحزب كانت، وقبل مدة طويلة من افتضاح الأمر، على علم بالدور المزدوج الذي كان يلعبه **آزِف**، وأنها أجازت ذلك الدور لاعتبارات ما. وفي ضوء ما عرضناه أعلاه، فإن هذه الاعتبارات كانت، على الأرجح ، تتعلق بالتوجه القومي **لآزِف** وقيادة الحزب.

وفيما بعد، في أثناء انتخابات المجالس البلدية (مجالس دوما المدن) التي أجريت صيف العام 1917، كان *الاشتراكيون الثوريون* يتفوقون في الجمعية التأسيسية تفوقاً جلياً على سواهم من الأحزاب من حيث عدد الأصوات. ولذلك فهم يستحقون أن نتوقف عندهم بمزيد من الاهتمام.

هاكم عرضاً موجزاً لتاريخ حزب *الاشتراكيين الثوريين* مقتبَساً من كتاب للباحث الأمريكي **رادكاي**.

يقول المؤلف إن مجموعتين ث وريتين اندمجتا أواخر العام 1901، هما "المجموعة الشمالية " و"المجموعة الجنوبية"، وكانتا تحت قيادة **آزِف وغيرشوني**، فكان ذلك إيذاناً بميلاد الحزب . وسرعان ما برز بين قادته **م. غوتس وتشيرنوف**. وكانت صحيفة *"روسيا الثورية"* لسان حاله، ورئيس تحريرها **غوتس**. ويضيف مؤلف الكتاب المشار إليه أعلاه : "وقد تحدث **غيرشوني** عن أشخاص يقدمون عشرات آلاف الروبلات للحزب ، ولكنهم لا يرغبون في أن يكونوا أعضاء فيه. كما تلقى الحزب أيضاً دعماً مهمّاً من الولايات المتحدة الأميركية التي كانت توجد في مدنها المركزية ، *كنيويورك وشيكاغو وبوسطن* ، جالياتٌ يهودية كبيرة شديدة العداء للنظام القيصري ". ونحو خريف العام 1906 كان الحزب يضم حوالي 50 ألف عضو ، و300 ألف متعاطف . وكانت *"المنظمة المقاتلة"* التي أسسها **غيرشوني** مستقلة عن قيادة الحزب في اختيار أعضائها، واختيار ضحاياها أيضاً . وتفيد الإحصائيات أن العمليات الإرهابية التي قامت بها كانت 4 في العام 1902، و6 في العام 1904، و51 في 1905، و78 في 1906، و62 في 1907، و3 في العام 1908. وقد تولّى **آزِف** قيادة هذه المنظمة أطول فترة، قياساً بغيره. وكانت عملية اغتيال وزير الداخلية **بليفيه** هي العملية الأكثر إثارة . ويؤكد **نيقولايفسكي** أن **آزِف** كان يسعى لقتل **بليفيه** لأسباب شخصية معينة، وذلك فضلاً عن أنه كان يعدّه معادياً للسامية.

وقد أصرّ **تشيرنوف** في المهجر على أن تلتزم قيادة الحزب في روسيا بمبدأ "الجوقة " – مثل **مارتوف (تسيدرباوم)** و**دان (غورفيتش) وتسيريتيلي** عند *المناشفة* ، **وبابل وليبكنخت وكاوتسكي** عند *الاشتراكيين*

الديمقراطيين الألمان، **وباور وريِنّر وآدلر** عند *الاشتراكيين الديمقراطيين* النمساويين. وكان يجب أن تتألف هذه "الجوقة" عند *الاشتراكيين الثوريين* منه هو **(تشيرنوف)** و**غيرشوني وم. غوتس.**

وفي أثناء الحرب انضمّ إلى "أنصار **تسيمرفالد** " قسم من *الاشتراكيين الثوريين* ، هم : **مستيسلافسكي** في *بطرسبورغ*، **وشتيرنبِرغ** في *موسكو* ، **وكوغان – برنشتاين، وكاتشينسكي وتشايكن** في *أوكرانيا* . وبرز من حزب " *الثوريون الاشتراكيون اليساريون* " في المهجر : **بوبروف (ناتانسون)، وكامكوف (كاتس)، ودالين (ليفنسون).** وقد التحقت **يفغينيا راتنر** بهؤلاء دون أن يعرف بذلك صديقها **تشيرنوف**. وكان من بين **التسيمرفالديين** كل من **تشرنوف وألكسندروفيتش** . ويقول المؤلف عن **ناتانسون** إنه "الوحيد من جيل الشعبيين الأول الذي لم يغير عقيدته حتى العام 1917. وربما يعود سبب ذلك إلى العنصر القومي الشديد في كراهيته للنظام القيصري".

ويرسم المؤلف لمرحلة ما بعد الثورة صورة مشابهة . إذ من الطبيعي أن وتيرة نشاط الحزب ازدادت قوة في العام 1917، فكان على رأس سوفيت *بيتروغراد* **أ. غوتس** (شقيق م . غوتس الذي كان قد توفي قبل هذا التاريخ)، ونائباه **بولضيرِف، وليفشيتس.** وقد تلقت **بريشكو – بريشكوفسكايا** آنذاك مليونين ومئة ألف روبل من مصادر أميركية . وفي شهر أيار / مايو انعقد المؤتمر الثالث حيث "فقد **تشيرنوف** – كما يقول المؤلف – كل تطلعاته للقيادة ، واستسلم أمام سلطة أ . **غوتس** . ولم يشهد المؤتمر فضائح ولا صراعاً مكشوفاً، واقتصر الأمر على أن تربعت الشخصية الأقوى في مقعد السائق". وجرى انتخاب لجنة مركزية مؤلفة من 20 عضواً كان بينهم 8 يهود (يستدل على ذلك من أسمائهم). وفي صيف العام 1917 فاز *الاشتراكيون الثوريون* برئاسة مجالس المدن في معظم المدن الكبرى، ولا سيّما **(شنايدر)** في *بطرسبورغ*، و**(مينور)** في *موسكو*. أما في المؤتمر السابع الذي انعقد في آب/أغسطس 1917 فقد اندلع الصراع لأول مرة بين "الدفاعيين" وأنصار إنهاء الحرب بأسرع ما يمكن، فقدمت القيادة قراراً صاغه زعيم التيار الأول **روزنبلوم**، وزعيم التيار الثاني **شتاينبرغ**.

ظهرت الاشتراكية الديمقراطية على مسرح التاريخ الروسي إلى جانب الاشتراكيين الثوريين في وقت واحد تقريباً. وكان **بليخانوفً وأكسلرودً وديتش** قد أسسوا في العام 1883 أول منظمة ماركسية هي مجموعة *"تحرير العمل"* . وكان الحزب *الاشتراكي الديمقراطي لمملكة بولندا* أول حزب اشتراكي ديمقراطي في الإمبراطورية الروسية. وقد تأسس هذا الحزب عام 1893 على أيدي **روزا لوكسمبورغ وليو إيوهيشيس (طيشكو).** أما ثاني تلك الأحزاب فهو حزب *"البوند"* (الاتحاد اليهودي العام في ليتوانيا وبولندا وروسيا) الذي تأسس عام 1897. وقد برز من بين صفوفه كثير من زعماء الاشتراكية الديمقراطية، أشهرهم **مارتوف (تسيديرباوم)** الذي سعى في أول كتاب له إلى إثبات أن *البروليتاريا اليهودية لاينبغي أن تُقدِم خلال نضالها على الاتحاد مع البروليتاريا الروسية لأن هذه ستخونها حتماً* . وظلّ *"البوند"* بعد ذلك مدّة طويلة استمرّت حتى العام 1917 يلعب دور الخزان الذي كانت جميع تيارات الديمقراطية الاشتراكية تستمدّ منه شخصياتها القيادية. غير أن شخصياته الأكثر شباباً أخذت تغلب عليها القناعة بأن الانكفاء داخل تنظيم قومي صِرف ليس بالسياسة الصائبة . وقد تحدث **غ. زينوفيف (رادوميسْلِسكي)** في كتابه *"تاريخ الحزب الشيوعي "* عن دور *"البوند"* في إنشاء حزب *العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي* قائلاً:

"... كانت حركة العمال اليهود في النصف الثاني من التسعينيات على درجة كبيرة من الأهمية، وكان دور *"البوند"* في الحزب شديد الأهمية . إذ يكفي أن نقول إن *"البوند"* كان المنظم الأساسي لأول مؤتمر لحزبنا في العام 1898. ولم يكن من قبيل المصادفة أبداً أن يعقد هذا المؤتمر في **مينسك**، المدينة التي تقع ضمن "نطاق الإقامة" اليهودي، في ساحة نشاط *"البوند"*.

ولم يحضر المؤتمر الأول لحزب *العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي* إلا تسعة مندوبين ، هم : **آرون كريمر، وأبرام موتنيك، وشايا كاتس ، وبوروخ أيدلمان، ونيقولاي أبراموفيتش بانّ وفسكي ، وفيغدورتشيك، ورادتشينكو، وتوتشابسكي، وبيتروسيفتِش**، فانتخبوا لجنة مركزية مؤلفة من **كريمر، ورادتشينكو، وأيدلمان**.

وعندما طالب *"البوند"* في المؤتمر الثاني بأن يكون له داخل الحزب وضع استثنائي بالكامل، وقوبلت هذه المطالب بالرفض، هتف **ليبر**، ممثل *"البوند"*، قائلاً: "لا يستطيع أن يتكلم على هذا النحو إلا من يتنكّر للقربى **!**"، قاصداً بذلك، على ما يبدو ، دور *"البوند"* في تأسيس حزب *العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي* . وسرعان ما ترددت احتجاجات وتأكيدات بأن أفضال *"البوند"* لن تُنسى أبداً. إن كل من تعلم في مدرسة سوفيتية يعرف أسماء زعماء الاشتراكية الديمقراطية : **مارتوف (تسيد يرباوم)، وآكسيلرود ، ودان (غوريفتش)، وليبر (غولدمان)، ومارطينوف (بيكّر)، وروزانوف (غولدِنداخ)، وتروتسكي (برونشتاين)، وزينوفييف (رادوميسْلِسكي)، وكامينيف (روزينفيلد)، وأبراموفيتش، وإرليخ**... إلخ...إلخ. أما **بليخانوف** فكان ينتمي إلى الأقلية القومية (روسي. – م). وكانت هيئة تحرير جريدة *"إيسكرا"* عام 1900 تتألف من **بليخانوف** ، و**أكسيلرود، وزاسوليتش، وديتش، ومارتوف، ولينِن** . وبعد انشقاق الحزب إلى *بلاشفة ومناشفة* كان النفوذ اليهودي و سط *المناشفة* ملحوظاً على نحو خاص. وقد نشر **ستالين** مقالة في جريدة *"بروليتاري باكو"*، بمناسبة المؤتمر الخامس للحزب، جاء فيها:

"إن تشكيلة المؤتمر من وجهة نظر الانتماء القومي ليست بالأمر الأقل إثارة للاهتمام . فقد بّينت الإحصائيات أن أغلبية كتلة *المناشفة* تتألف من اليهود ، ثم الجورجيين ، ويليهم بعد ذلك الروس . في حين يشكل الروس الغالبية العظمى من كتلة *البلاشفة*".

ويفسر **ستالين** ذلك بكون *المناشفة* يمثلون مصالح البورجوازية الصغيرة التي يغلب فيها اليهود.

وكتب **لينين**، في الفترة نفسها تقريباً، يقول إن "عدد أعضاء حزبنا يربو الآن على **المئة ألف**، منهم 31000 عضو كانوا مُمَثلين في المؤتمر التوحيدي، و 26000 من الاشتراكيين الديم قراطيين البولنديين، وحوالي 14000 من اللاتفيين، و 33000 من اليهود".

(33000 اشتراكي ديمقراطي يهودي – يبدو أن هؤلاء هم *"البوند"* بعد أن أعيدت عضويته مجدداً في حزب *العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي* . أمّا عدد اليهود بين "البولونيين" فأمر تثبته، على الأقل، واقعة أن **روزا لوكسمبورغ وليو إيوهيشيس** كانا مسؤولي التنظيم في الحزب. أما الـ 31000 من *"المتحدين"* فهم على الأرجح *البلاشفة والمناشفة* السابقون الذين اتحدوا في المؤتمر الخامس، وهم الذين تحدث عنهم **ستالين** في مقالته المذكورة أعلاه. ومن الواضح أن الروس لم يكونوا أكثر من أقلية ضئيلة).

ومما يؤكد صحة وجهة نظر **ستالين** هذه، هو أن *المناشفة* (كما عُلم فيما بعد) عمدوا عند اتحادهم مع *البلاشفة* (في الكونفرنس الذي عقد في جنيف عام 1903) إلى إنشاء *مكتب ظلٍّ سياسي* يتألف من **أكسيلرود**، **ومارتوف**، **ودان، وتروتسكي، وبوتريسوف**. هذا ما يخبرنا به **إسحاق دويتشر** كاتب سيرة **تروتسكي**. ويقول الباحث في تاريخ *المناشفة* **زيفا غاليلي**: "كان العنصر الغالب بين *المناشفة* ينتمي إلى أقليتين قوميتين في روسيا هما **اليهود والجورجيون**"، وكان "اليهود الماركسيون يتحدرون من شرائح يهودية ميسورة مُتَرَوِّسَة في *بطرسبورغ*، فانضمّ إليهم فيما بعد اليهود الآخرون القادمون من بلدات "نطاق الإقامة". وترتسم صورة مشابهة لهذه الصورة بناء على معطيات ما بعد الثورة. فقد عقد *المناشفة* أول كونفرنس لهم بعد الثورة في أيار /مايو 1917، وانتخب لعضوية اللجنة التنظيمية للحزب **خينتشوك، وأيسوف، وروما‌نوف**، **وزاريتسكايا، ويرمانسكي**، **وأكسيلرود، ويرمولايف، وغارفي، وغوريف، وسميرنوف، ودان، ويجوف (تسيديرباوم، شقيق مارتوف)، وباتورسكي، وبانين، ويودين، وبوغدانوف، وكروخمال**، أي أن اليهود كانوا هم الغالبية، كما يبدو.

كما أننا نكتشف حضوراً يهودياً ملحوظاً في تيار ضعيف التأثير كتيار **الفوضوية**. صحيح أن **باكونين** هو مؤسس هذا التيار برمته، وأن **كروبوتكِن** غدا الشخصية البارزة في هذا التيار فيما بعد ، ولكن مع اقتراب ثورة 1905، وازدياد نشاط هذه الحركة ، راح اليهود يشاركون فيها مشاركة متصاعدة. فقد صدر كتاب يضم جميع وثائق الفوضويين المشهورة، واستهله مُعِدُّه بمقالة افتتاحية وصف فيها الوضع خلال مرحلة ثورة (1905) قائلاً: "كانت غالبية الفوضويين من اليهود (وفقاً لبعض التقديرات بلغت نسبتهم 50 بالمئة)، وكانت نسبة الروس 41 بالمئة تقريباً، ونسبة الأوكرانيين 35 بالمئة تقريبا". (هذه الأرقام تقريبية ، ولذلك نرى أن الرقم الإجمالي يزيد عن 100 بالمئة**!**). وقد تأسست في باريس عام 1903 مجموعة للنشر باسم *"**أنارخيا**"* (الفوضوية) تتألف، كما يقول الكتاب المذكور أعلاه، من **ب. يا. إنغلسون، وم. ل. إ. غولدسميث، وروشين (ن. س. غروسمان)، وم.إ.ر. داينوف، وش.خ. كاغانوفيتش، وس.م. روما نوف** وآخرين. ويُذكَر أن أول عملية إرهابية قام بها الفوضويون في القرن العشرين هي التي نفذها **نيسان فارير** في عام 1904. وتتضمّن وثائق الفوضويين نعوات ، أو إشارات أخرى، تُذكَر فيها أسماء الإرهابيين القتلى أو المعدومين . وقائمة الأسماء الكاملة هي : **نيسان فارير، وآرون يلين (غلينكه)، وبافل غولمان، وم. شبيندلر (موشيه غروندر)، وف. زوبار، وت. إ. بيزضيرِف، وبينيش، وروزنبليوم**. وتشير الوثيقة إلى أسماء ثلاثة يهود آخرين (هم **أوسيب ليفين** البالغ من العمر 16 عاماً، واثنان آخران) رفضوا صلاة الحاخام قبيل إعدامهم . وقد وقع انشقاق في صفوف الفوضويين بعد أن اندلعت الحرب، فتزعّم **كروبوتكين** جناح *"الدفاعيين"*، بينما تزعّم **غروسمان وغي (غولبيرغ) وشابيرو** جناح *"الأمميين"*. وانقسمت الحركة مرة أخرى بعد ثورة شباط 1917، فأيد **كروبوتكين** السوفيتات والمشاركة فيها، وعارضه في ذلك **غايتسمان (حاييم لوندنسكي)** الذي عبر عن معارضته بالقول : "لا تتسلق لتحكم !". وكانت بعض منشورات الفوضويين تصدر بلغة الإيديش (وأحياناً كان يترجمها فيما بعد الفوضويون أنفسهم، أو الشرطة بعد أن تقع في أيديها**)**.

غير أنه، وبغضّ النظر عن مشاركة اليهود الكبيرة في حركة الفوضويين، لم يلاحظ أي توجه قومي في نشاط هذا الحزب (وذلك بخلاف ما كان عليه الأمر عند الاشتراكيين الثوريين). وكانت منظمات الفوضويين أيام ثورة 1905 تقوم بأكبر نشاطاتها في "نطاق الإقامة"، وبتاضل ضد اليهود الميسورين أساساً . وهكذا قاموا بتنفيذ أول عملية إرهابية لهم خلال القرن العشرين في العام 1904 عندما أقدم **نيسان فاربر** على قتل **أفرام كاغان** في كنيس بمدينة *بيلوستوك*. وفي العام 1905 ألقى **ب. فريدمان** قنبلة على كنيس في *بيلوستوك* مستهدفاً لقاء عقده عدد من اليهود الميسورين (ربما لمناقشة مسائل التسريح التعسفي). على أن تأثير نشاط الفوضويين على الصعيد الروسي العام لم يتعدَّ إحداث خلخلة في نمط الحياة آنذاك.

كان *الاشتراكيون الثوريون ، والاشتراكيون الديمقراطيون، والفوضويون* هم الأحزاب التي تصف نفسها بـ " *الثورية* ". أما *"الكاديت"* فاكتفى بتسمية نفسه حزبا *معارضًا* ، ولكنه في جوهر الأمر كان حزباً ثورياً يهدف إلى تغيير نظام الحكم . ويبين المؤرخ **غيريه** بمنتهى الوضوح دورهم هذا في مجلس دوما الدولة الأولى . فقد كان **ميليوكوف** الزعيم الرسمي للحزب . ولكن **طيركوفا – وليامز** تقول في مذكراتها إن "**ميليوكوف** كان محاطاً بالمعجبين، وبالمعجبات على وجه الخصوص، من ذوي العيون السود الذين ك ان شديد الحساسية تجاههم . غير أنه لم يكن هو قائد الأوركسترا ، بل الأرجح أن الأوركسترا هي التي كانت تقوده ". ومن المدهش أن **مينشيكوف** أيضاً يستخدم التشبيه ذاته بخصوص **ميليوكوف :** "قائد أوركسترا خُلّبي ". على أن **هيسِّن** هو من كان المحرر الفعلي لجريدة *"ريتش"* ، لسانِ حا ل *الكاديت* الرسمي (سبق أن تحدثنا عن المصادر المالي ة لهذه الجريدة في الفصل العاشر). ونذكر من بين اليهود الذين كانوا أعضاء في اللجنة المركزية لحزب *الكاديت* : **فينافر ، وهيسّن ، وايزغويف (لانده)، وكامينكا، وماندلشتام ، وبيتراجيتسكي** . وفضلاً عن هؤلاء يذكر **مينشيكوف** من "زعماء الكاديت" كلاً من **غانايزر، وغانفمان، وغريفيه، وإيولّوس، وغوريفيتش، وروزنبيرغ، وشتيلمان، وفريدمان.**

بيد أن هذه الوقائع تظلّ شديدة العرج، ما لم نُشِر إلى أن إقطاعيين ، ونبلاء من أصول عريقة ، وأساتذة جامعات معروفين (كان *الكاديت* يوصف بأنه "حزب أساتذة ") كانوا يشغلون مكانة بالغة الأهمية في قياد ة *الكاديت*. وتعدد **طيركوفا – وليامز** منهم : **شاخوفسكي، ودولغوروكي، وراديتشِف، وموخانوف، وسفيتشِن، وبيترونكيفيتش.** ومن الأساتذة: **مورومتسيف، وميليوكوف** . وتعبر **طيركوفا** عن ذهولها قائلة : "ثم ينصّ برنامج الحزب على نزع ملكية الإقطاعييِن بالقوة؟". لقد كان هذا الطريق يفوح برائحة السلطة . أجل، بل وفجأة تدفّقت الأموال على الحزب. وتستغرب قائلة إن مرتبها، هي شخصياً، تضاعف أربع مرات في غضون عام واحد!

لن تكتمل اللوحة ما لم نشر إلى أن **غالبيرن** كان، بدءاً من العام 1916 (وخاصة في أثناء ثورة شباط / فبراير)، زعيم *الماسونية الروسية* (سكرتير محفل *"الشرق العظيم لشعوب روسيا "*). وبعد ثورة شباط / فبراير منح منصب مدير أعمال (رئيس ديوان) *الحكومة المؤقتة* . أما موقف الماسونية الروسية فيحدده أحد أعضائها النشطاء على النحو التالي:

"تتصف المنظمة بطابع ثوري على وجه التحديد، وتسعى لتحقيق انقلاب بالعنف".

يخيّل إليّ أن الأرقام لا توضح إلا القليل في مثل هذه الحالات، ومع ذلك فسوف نورد بعضاً منها. إذ يؤكد م.ن. **بوكروفسكي** أن "اليهود، وفقاً لمعطيات مختلف المؤتمرات، يشكلون ما بين الربع والثلث من الشريحة التنظيمية في جميع الأحزاب الثورية". ويقول **لارين (لوريه)** إن اليهود يشكلون حوالي الربع بين المعتقلين والمنفيين.

وتلبية لطلب الكونت **إيغناتيف** يقدم قائد الدائرة العسكرية في سيبيريا، الجنرال **سوخوتِن**، المعلومات التالية عن الأشخاص الذين كانوا بتاريخ الأول من كانون الثاني /يناير عام 1905 تحت المراقبة العلنية من قبل الشرطة في سيبيريا: الروس 42 بالمئة، اليهود 37 بالمئة، البولونيون 14 بالمئة.

أمّا **رافيس** العضو في حزب *البوند*، و*البلشفي* فيما بعد، فيورد في كتابه *"تاريخ الحركة العمالية اليهودية"* الأرقام التالية نقلاً عن الباحث الإنكليزي **رابوبورت**: خلال الفترة الممتدة من آذار /مارس 1903 حتى تشرين الثاني/نوفمبر 1904 مرّ عبر سجن ألكساندروف 384 معتقلاً سياسياً، بينهم 53,9 % من اليهود، و 26,4 % من الروس، و10,4% من البولنديين. وبلغت نسبة اليهوديات بين النساء 64,3 %.

تتقارب جميع هذه الأرقام فيما بينها، ويبدو أنها تقدم صورة صادقة عن الأعضاء الذين كانوا ناشطين في الأحزاب الثورية. ولكن الوضع في القيادة كان مختلفاً عن ذلك، كما رأينا. أما سياسة هذه الأحزاب (السرية أساساً) فكانت بعيدة عن أن تقررها الأعراف الديمقراطية. وكمثال على ذلك، نقفز عقداً من الزمن نحو الأمام ونلقي نظرة إلى المؤتمر السابع لحزب *البلاشفة* الذي عقد في العام 1918. فقد كان هذا المؤتمر استثنائياً بسبب خطر انقسام الحزب نتيجة التوقيع على *صلح بريست* (الذي وُصِف بالسري). وأقرّ المؤتمر توصية تقضي بإبقاء القرارات المتخذة سرّيّة طي الكتمان، بل وشدد رئيس المؤتمر على أنه "لا يحق لأي عضو من أعضاء المؤتمر أن يعطي أية معلومات مهما كانت لأي شخص كان". وهذا يعني أن تلك الشريحة من الحزب التي اجتمعت آنذاك في موسكو اتخذت قرارات راديكالية للغاية (نعيد إلى الأذهان أن المؤتمر، بناء على توصية تقدم بها **لينين**، وافق على تفويض اللجنة المركزية "بإعلان الحرب على أي دولة إمبريالية وعلى العالم بأسره عندما تجد /اللجنة المركزية/ أن اللحظة مواتية")، وأخفت ذلك عن باقي أعضاء الحزب.

إن الأرقام المجرّدة قد ترسم صورة زائفة، فلنأخذ وجهة نظر مراقب لمّاح (ولا يميل للتنظير) هو **شولغين**، حين يتحدث عمّا كانت تتمتع به *"حركة التحرر"* عام 1905 من "طاقة وقدرة على نشر السموم" قائلاً:

"... لقد أعطى اليهود لهذه الحركة عمودَها الفقري وهيكلَها العظمي".

كان **بوغروف**، قاتل **سطوليبِن**، يهودياً، بل وقال قبيل قيامه بعملية الاغتيال في حديث مع **لازاريف** – أحد شخصيات الاشتراكيين الثوريين – "إنني يهودي، فلتسمحوا لي أن أذكِّركم بأننا ما زلنا حتى الآن نعيش تحت سيادة زعماء *المائة السود*". إن جميع هذه التفاصيل تتضافر لتشكّل لغزاً. ذلك أن **سطوليبِن** بالذات هو من اقترح إلغاء جميع القيود التي كانت مفروضة على اليهود. صحيح أن نصّ اقتراحاته التي رفضها القيصر **نيقولاي الثاني** لم ينشر إلا بعد الثورة، غير أن من الصعب على المرء أن يتصور أن موقف **سطوليبِن** العام لم يكن

معروفاً في الوسط اليهودي . بل وتلك كانت الروحية الإجمالية التي حكمت إصلاحات **سطوليبِن**. فكيف نفهم، إذاً، الدافع إلى اغتياله على يد **بوغروف؟**

2 – الثورة

وها قد قامت الثورة، فتراجعت المشاكل كافة أمام مسألة السلطة.

من الطريف أن نذكر أن *الحكومة المؤقتة* لم يكن فيها ، على ما يبدو، أي يهودي، رغ م تعديلها وتقليبها مراراً كثيرة. على أن سلطة تلك *الحكومة* كانت وهمية للغاية . وإنه ليصعب أن نقول مَ ن الذي كان يمتلك السلطة مباشرة بعد ثورة شباط /فبراير، بل وهل كان ثمة مَن يمتلكها أصلاً . ولكن الأقرب إلى ذلك كانت رئاسة سوفيت *بطرسبورغ* لمندوبي العمال والجنود ، هذا الكيان السياسي الغريب الذي لم ينتخبه أحد، بل شكّل "نفسه بنفسه". ويصف **سوخانوف (غيمِّر)** في مذكراته عمليةَ قيام هذا الكيان بالتفصيل . ويبدو أن أول "تبادل للآراء" جرى في شقة ن.د. **صوكولوف** يوم 25 شباط/ فبراير. وعلى كل حال، فإن **سوخانوف** يبدأ قصته من هذا "الاجتماع". فهو يتذكر قائلاً إنهم اجتمعوا مصادفة، منهم من عرّج على الشقة ليستعلم عن الأخبار، ومنهم من تم الاتصال به هاتفياً. ولكن يتضح من المذكرات التي نشرت فيما بعد أن الاجتماع عقد عبر الخط الماسوني . وبعد ذلك، بتاريخ 27 شباط / فبراير، عقد في قصر *تافريا* اجتماع *اللجنة التنفيذية المؤقتة لسوفيت العمال والجنود* . وكانت هذه اللجنة تتألف من : **بوغدانوف، وغفوزدِف، وكابيلينسكي، وغرينيفِتش (شيختر)، وسكوبيلِف، وتشخييدزه، وفرانكوروسكي، وصوكولوف، وإيرليخ**. وقد شُكلت *اللجنة التنفيذية الدائمة* من بين أعضاء هذه اللجنة، وبطريقة الإكمال (من غير انتخاب). وفي اليوم التالي فقط (28 شباط / فبراير) ضُم إليها **ستالين**، و**رافيس** (الذي سرعان ما حل **ليبر** محله). وعلى هذا المنوال سارت الأمور فيما بعد . ويوضح **سوخانوف** الصورة فيقول إن "*اللجنة التنفيذية* كانت تفتح أبوابها لمن كانت لهم أفضال جلية على الحركة من بين الوافدين". وهكذا جاء **لارين (لوريه)** يوم 15 آذار/ مارس، ثم تبعه **أوريتسكي**، وبعد ذلك بأسبوعين جاء **مارتوف**. وقد عاد **تسيريتلي وغوتس** من المنفى يوم 19 من الشهر، وعاد **دان** يوم 28، و**كامكوف (كاتس)** يوم 31. وأخيراً عاد **لينين** يوم 3 نيسان/ إبريل ومعه جميع صحابة *"عربة القطار"*.

يجدر بنا أن نتذكر أن **تشخييدزه** كان رئيس سوفيت *بيتروغراد*، وهو **ماسوني**، وأن الماسونية الروسية كانت تحت قيادة **غالبيرن** الذي يقول في مذكراته : "لقد توليت شخصياً المفاوضات الأساسية مع سوفيت العمال والجنود، أي مع **تشخييدزه**". ولقد ساعدت علاقتنا "الأخوية" في هذا الأمر كثيراً. وغالباً ما كان يقول لي: "ما لك تتردد، فكلُّ جماعتنا يرون أن هذا غير صحيح ، ويجب تصحيحه و تسييره حسب طريقتنا ". كانت صحيفة *"إزفيستيا"* (الأخبار) لسانَ حال السوفيت، وكان محررها **ستيكلوف (ناخاميكس)** أحد أكثر الشخصيات نفوذاً آنذاك. وعندما جرى اللقاء الأول بين ممثلي *الحكومة المؤقتة* وممثلي *السوفيت*، مثَّلَ *السوفيت* ثلاثةُ أشخاص بينهم **ستيكلوف وسوخانوف**.

وقال **بليخانوف**، حين عاد من المهجر ، إن الثوريين الروس قد تغيروا حسبما يلاحظ : فقد كانوا فيما مضى شقراً، زرق العيون، بينما هم الآن "رفاق سُمرٌ كلهم، ويتكلمون بلكنة جنوبية ". لعلّ **بليخانوف** كان يظن أن له الحق بمثل هذا المزاح لكونه متزوجاً من يهودية هي **روزا بونغارد**. فلا داعي للعجب من خسارته كلَّ ما كان له من نفوذ ! على أن في وسعنا أن نتأكّد من صحة ملاحظات **بليخانوف** بالعودة إلى قوائم أسماء الثوريين المهاجرين الذين عادوا إلى روسيا من سويسرا عبر ألمانيا في آذار /مارس 1917. وقد نشر **بورتسيف** هذه القوائم فيما بعد . إذ تتألف القائمة رقم 1 من 29 شخصاً، بينهم 20 يهودياً دون أدنى شك . وفي القائمة رقم 2 كانت النسب كما يلي : الاشتراكيون الديمقراطيون 63 شخصاً، بينهم 38 يهودياً ؛ الاشتراكيون الثوريون 17 شخصاً، بينهم 10 يهود ؛ الاشتراكيون الديمقراطيون لمملكة بولندا وليتوانيا 3 أشخاص، بينهم يهوديان؛ الحزب الاشتراكي البولوني 3 أشخاص، بينهم يهوديان . أما بالنسبة لل *بوند* ، *وبوعالي صهيون* ، والاشتراكيين الصهاينة فكانت النسبة 100 بالمئة. هذا، ناهيك عن 10 يهود من أصل 18 شخصاً "برّياً" (لا تنظيم لهم).

يقول **شولغين** عن ثورة شباط / فبراير 1917:

"إن التاريخ (إذا لم يُطمَس، ولم يُسحَق ، ولم يزوَّر) سوف يتحدث عن هذه العملية ذات يوم . أمّا الشهود الأحياء، شهود العيان، فقد بقي لديهم انطباع لا يمّحي عن تلك المرحلة، هو : "يهود وجورجيون – جورجيون ويهود".

وثمة مشهد دراماتيكي يعبر خير تعبير عن الوضع الذي كان قائماً في الأوساط "الديمقراطية الثورية ". فقد رفضت *اللجنة التنفيذية لنقابة السكك الحديدية في عموم روسيا* الاعتراف بالحكومة المؤقتة، وطالبت بأن تتفق الأحزاب الاشتراكية كافة، وإلا فإنها ستلجأ إلى الإضراب . فعقد ما سمي بـ "اجتماع في *اللجنة التنفيذية لسكك الحديد في عموم روسيا* "، وشارك فيه (وَفقاً لمحاضر اللجنة المركزية): **دان (غورفيتش)، وإرليخ** عن المناشفة الدفاعيين، و **مارتوف (تسيديرباوم) ومارطينوف (بيكّر)** عن المناشفة الأمميين ، و**غايدلمان وياكوبي** عن الاشتراكيين الثوريين اليمينيين ، و**كوليغايف ومالكين** عن الاشتراكيين الثوريين اليساريين، والمنشفي **فاينشتاين** عن لجنة إنقاذ الوطن والثورة ، و**كامينيف (روزنفيلد) وصوكولونيكوف (بريليانت) وريازانوف (غولدنداخ)** عن البلاشفة. وكان ممثَّلاً في الاجتماع أيضا *سوفيت عموم روسيا لنواب الفلاحين* ، *واتحاد مستخدمي مؤسسات الدولة* (لم يرد ذكر أسماء هؤلاء الممثلين). أولئك هم الأشخاص الذين قرروا مصير روسيا، إذاً . وقد اتضح فيما بعد أن ممثلي البلاشفة لم يكونوا مفوضين بعقد أية اتفاقية ، بل ما طلوا من أجل إطالة أمد المفاوضات ، وذلك بهدف إعطاء السلطة الجديدة فرصة تعزيز وضعها . وقال **لينين** في اجتماع اللجنة المركزية بتاريخ الأول(14) من تشرين الثاني /نوفمبر إن "المفاوضات كان ينبغي أن تكون بمثابة غطاء دبلوماسي للتحركات العسكرية ". على أن هذا كان جلياً حتى في أثناء المفاوضات، غير أنه . لسبب ما . كان من المناسب للمجتمعين أن يتظاهروا بأنهم لا يفهمون الوضع، فشاركوا جميعاً بتمثيل هذه المهزلة".

وبالتوازي مع تنامي قوة البلاشفة، كان نفوذ اليهود يتسرب إليهم من عند المناشفة . ولذا فإن ما سبق وكتبه **ستالين** عن المؤتمر الخامس لحزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي لم يعد يعكس واقع الحال مطلقاً .

وليس مهمّاً البتة أكان زعيم البلاشفة يهودياً بنسبة النصف أو الربع. وأهم من ذلك بكثير كيف كان هو شخصياً يشعر بنفسه. فقد تطرق **لينين** شخصياً إلى هذا الموضوع ذات مرة، حين قال في حديث له مع **غوركي**: "آه، ما أندر" ما يكون الإنسان الروسي ذكياً !"، "والذكي الروسي يكون على الدوام تقريباً إما يهودياً، أو شخصاً تجري في عروقه دماء يهودية".

يتعذّرعلى المرء أن يتصور أن **لينين** – رغم كل ما عُرِف عنه من تواضع – يستثني نفسه من عداد أ ولئك "الأذكياء" الذين تحدث عنهم. والمؤشر الأكثر أهمية أيضاً هو أنه كافح طوال حياته من أجل الوصول، ووصل، إلى مركز القيادة في وسطٍ أكثريته من اليهود. أما في المواقف البالغة الحساسية فكان يعتمد على اليهود بشكل حصري تقريباً. وعلى هذا الأساس أصبح عضو "لجنة الطوارئ" (جهاز الاستخبارات) **بيلينكي** (اليهودي) رئيساً لحرس **لينين** بعد الثورة. كما لم يكلف **لينين** إلا اليهود تقريباً بتولي عملية حساسة كالعلاقة المالية مع الألمان في عام 1917. وقد شارك في تلك العملية: **بارفوس (غيلفاند)، وغانيتسكي (فيورستنبرغ)، وأوريتسكي، ورادِك (سوبِلزون)، وسومينسون**. ومن المشاركين الآخرين (الذين كانت أسماؤهم معروفة) **فوروفسكي (أورلوفسكي)** وكان على ما يبدو بولندياً، **وكوزلوفسكي** الذي قد يكون الروسي الوحيد بينهم.

وعلى العموم، كانت قيادة *البلاشفة* حتى أكتوبر، تتألف من اليهود إلى حد كبير. فالمكتب السياسي (وهو النموذج الأول للمكتب السياسي المقبل) الذي تشكّل من أجل التحضير للانتفاضة، مثلاً، كان مؤلفاً من: **لينين، وزينوفيف، وكامينيف، وتروتسكي، وستالين، وصوكولنيكوف (بريليانت)، وبوبنوف**، أي أن الأكثرية كانت من اليهود، ولم يكن هناك إلا روسي واحد هو **بوبنوف**.

وفي المرحلة التي أعقبت وقوع انقلاب أكتوبرمباشرة لم تكن السلطة في أيدي السوفيتات طبعاً، ولا في أيدي الحزب، ولا حتى في أيدي اللجنة المركزية، وإنما في أيدي ثلاثة أشخاص هم **لينين، وسفِردلوف، وتروتسكي**. وقد جمع **سفيردلوف**، قبل **بريجنيف** بوقت طويل، في شخصه وحده منصب رئيس الدولة (رئيس اللجنة التنفيذية المركزية لعموم روسيا)، ومنصب سكرتير اللجنة المركزية للحزب (السكرتير الوحيد آنذاك). وكان **تروتسكي** على رأس الجيش. بينما كانت ا لقيادة في *بيتروغراد* **لزينوفييف**، وفي موسكو **لكامينيف**. وأشرف **راديك** على السياسة الخارجية، **وزينوفيف** على الكومنترن، **وستيكلوف** على الصحافة. وتولّى رئاسة منظمة الشبيبة **(الكمْسَمول)** في البداية **أوسكار ريفكين**، ثم حل محله **لازار شاتسكين** (جميعهم يهود، باستثناء **لينِن**. – م).

والأكثر من ذلك إثارة للدهشة هو أن زوجات جميع القادة غير اليهود كن يهوديات. فكانت **سونيا موشكات** زوجة **دزيرجينسكي**، وإحدى زوجتي **بوخارين** لقبُها **غورفيتش**، والثانية **لوريه**، وكانت **مارشاك** زوجة **ريباكوف**، **وجيمتشوجينا (بيرل كاربوفسكايا)** زوجة **مولوتوف**، **وغوربمان** زوجة **فوروشيلوف**، **وماركوس** زوجة **كيروف**، **ويفغينيا سولومونوفا نوتكينا** زوجة **يجوف**، **وكوغان** زوجة **كويبيشِف**، **وخازان** زوجة **أندرييف** (مع العلم أن كثيرين من هؤلاء كانوا متزوجين أكثر من مرة، وربما كانت لهم زوجات أخريات غير المذكورات هنا).

ويلفت الانتباه أن مَن كان في تلك الفترة غير يهودي، أو لم يكن بين أسلافه ولو بعض اليهود، كان يتوجب أن تكون زوجته يهودية لكي ينضم إلى الشريحة العليا لشخصيات السلطة ويغدو من جماعة هذا الوسط. ولم

يكن الاستثناء ممكناً إلا لجورجي مثل **ستالين**، بينما لم يكن ذلك مسموحاً لروسي. وقد استمرت الأمور على هذا الحال وصولاً إلى الماريشال **جوكوف** (زوجته الأولى يهودية) **وبريجنيف** أيضاً.

والواقع المذهل الذي يتعذر إغفاله هو مشاركة اليهود الكثيفة في *لجنة الطوارئ* (جهاز الاستخبارات)، ذلك أن أية مذكرات تقرأها عن تلك الفترة تطالعك بأسماء اليهود العاملين في هذه اللجنة . ففي *أوديسا* كان **غوروجانِن (كوديمسكي)، وغريشِن (كلوفغانت)، وروفر** . وفي *كييف* كان **ريموفر، وروزانوف (روزنبلات) وصوكولوف (شوستاك) وبوفشتاين** . وفي *خاركوف* **أبوغوف، وداغين، وداغانسكي، ومازو ، وأوستروفسكي، وبورتوغيس، وشاروف (شافير) فيلدمان، وإيسيل مانكِن** . وفي مدينة *نيقولايف* كان **آليخين (سمولياروف)، وفاينشتاين، وسبيكتور** . وفي *أوكرانيا والقِرِم* كان **غاي (شتوكلياند)، ودميتريف (بلوتكين)، وغوفليتش (غوفبيندر)، وزيليكمان** . بل وخارج "*نطاق الإقامة*" السابق كانت في مدينة *تفير* **ريفيكا بال يستينسكايا** . وفي *الأورال* **غولدمان** . وفي *سيمبيرسْك* **بيلسكي (ليفين)**. وفي *سَمارا* كان **فيزل ، ورايخمان** . وفي *ساراتوف* **ديتش** . وفي *كورسْك* **فولكوف (فاينر)، وكامينسكي** . وفي *بيرم وفياتكا* كان **بيرمان** . وفي *بسكوف ونوفغورود* كان **باسوف** . وفي *فورونيج* كان **رابوبورت** . وفي *آرخانغلِسْك* كان **كاتسنلسون** . بل وحتى في *سيبيريا* كان **باك** ، **ويوجني** والأخوان **بيرمان** . وفي *تركستان* كان **غيرجوت، وديمنتمان ، وكابلان، وسلوتسكي** . وفي *سمرقند* كان **باوكر** . وفي *الشرق الأقصى* **ليتفين** . وعند إعدام ضباط جيش **فرانغيل** المستسلمين كانت **زيملياتشكا (زلاكيند) وبيلا كون**. أمّا العاصمتان *بيتروغراد وموسكو*، فكان في الأولى: **أوريتسكي** (رئيساً لـ **لجنة الطوارئ**)، **وفايزاغر**، وفي الثانية: **ليبليفسكي، وميسنغ، وغيندين،ورابوبورت**. وفي القسم الخاص لدى *اللجنة الاستثنائية لعموم روسيا* كان **آرغونوف، وأليبفسكي، وباوكر**. وفي القسم السري كان **غينكينت** إلخ، إلخ... وفي قمة الهرم كان **فيلدمان** رئيساً لقسم التحقيق في *لجنة الطوارئ* ، **وتريليسّر** رئيساً للقسم الخارجي . وكان ضمن أعضاء هيئة اللجنة **يغودا، وأوريتسكي، وزاكس** (من الاشتراكيين الثوريين اليساريين). وفي حديث له عن كتاب مكرس لمرحلة الحرب الأهلية (لم أتمكن من الحصول عليه) يقول **ميلغونوف** (الذي يلتزم بالمعايير الليبرالية التزاماً كاملاً) :"إن هذا الكتاب يتخذ في سطوره الختامية طابع العداء الصريح للسامية، ما يسمح بالحديث عن تحيزه . لقد اعتدنا بشكل ما على ألا نثق بالأدبيات التي تخطها أقلام أشخاص عاجزين عن التسامي فوق مألوف الغرائز الحيوانية عند الشوفينية الضيقة . ولكن المعلومات المستمدة من مصادر مختلفة تؤكد الكثير مما يتحدث عنه هذا الكتاب ". ويبدو أن **ميلغونوف** على حق ! ذلك أن أي توصيف للإرهاب في تلك الفترة ، إذا لم يتعرض لمعالجة خاصة، "سيتصف بطابع معاد للسامية " (وفق تعبير اللغة الليبرالية). وهذا ما ينطبق تماماً على كتاب **ميلغونوف** ذاته أيضاً.

ويورد **شولغين** قائمة بأسماء الأشخاص الذين شغلوا مناصب قيادية في *لجنة الطوارئ* بمدينة *كييف* ، فمن بين 24 اسماً ثمة 4 أو 5 من الروس، والباقون يهود. يقول:

"ولكن، حتى ولو لم تكن لجان الطوارئ المحلية هذه تضم في عضويتها يهودياً واحداً، فإن جميع أعمال التنكيل تظل ، رغم ذلك، فعلاً يقف وراءه اليهود . والسبب هو أن *الحزب الشيوعي* الذي جرى ذلك كله باسمه، كان تحت قيادة اليهود على نطاق روسيا عامة".

ومع ذلك، يبقى أمامنا واقع مشاركة اليهود مشاركة *شخصية* كبيرة جداً في تنفيذ أعمال الإرهاب . فمن *الخطير* أن تتخذ أقلية ضئيلة في البلاد موقفاً حاسماً يؤيد طرفاً دون آخر في الحرب الأهلية ، وأن تستحمّ في دماء السكان الأصليين بهذا القدْ ر من الولع . إذ لتحقيق هدف كهذا يمكن العثور في أي بلد على منفِّذين من السكان الأساسيين . على أن الناقد م . **بيراخ** يتناول رواية تاريخية من فترة ما قبل الثورة، ويقدم تحليلاً لها ف ي مجلة تصدر الآن في إسرائيل باللغة الروسية، فيُ نحِ ي باللائمة على مؤلف هذه الرواية لأنه لم يصور "نطاق الإقامة" و"معيار النسبة "، إذ بدون ذلك لن يكون مفهوماً ، حسب رأيه، "من أين جاء القوميساريون (المفوضون) القساة، أصحاب السترات الجلدية ومسدسات الماوزر المدلاة على جنوبهم، والذين يلثغون بحرف الراء " (إشارة إلى لكنتهم اليهودية . – م). وقوله هذا يعني أنه يعيد أسباب الظاهرة موضع النقاش إلى الكراهية التي تثيرها القيود المفروضة على اليهود في روسيا ما قبل الثورة . وإذا كان الأمر كذلك فإنه يكشف عن خاصيات الطبع اليهودي، لأن "نطاق الإقامة "، أو "معيار النسبة " في ما يتعلق بالحصول على التعليم، لا يمكن مقارنتهما لا بالنير التتري، ولا بالغزو البولندي في زمن *الفتنة*[١٠]. وعلاوة على ذلك كان وضع اليهود يتحسن باستمرار . فقد رُفعت القيود في زمن الحرب عن أفراد الأسر اليهودية التي استُ دعيَ أبناؤها إلى الجيش. أما بعد ثورة شباط / فبراير عام 1917 فقد حصل اليهود على جميع أنواع الحقوق.

ويعبر **مارتوف** في مذكراته عن فكرة مشابهة . فهو يتحدر من أسرة **تسيديرباوم** الميسورة في مدينة *أوديسا* . وعندما كان له من العمر ثلاث سنوات وقعت في المدينة أعمال عنف (*بوغروم*)، ولكن تم إيقافها قبل أن تصل إلى دارهم. ويعود **مارتوف** بذاكرته إلى هذه الحادثة، فيقول:

"هل كنت سأغدو ما غدوته لو لم يسارع الواقع الروسي ويترك على روحي الغضة اليافعة بصماته الخشنة، ويحفظ بحرص، تحت سقف الشفقة المرتعشة في قلبي الطفل، هذا الحقد المنقذ".

هاهنا ينكشف الغطاء قليلا عن عامل جديد تماماً. فقد كنا على الدوام نعتقد أن "حب الشعب" هو الذي يحرك الثوريين، كيفما تباين فهمُ هذا الحب؛ وأخيراً ، طموحهم لتحقيق الأوتوبيا الاشتراكية في الحياة . وإذا به يتبين أن "الحقد المنقذ " كان أيضاً أحد المحفزات . فهل يقتصر ذلك على **م ارتوف** دون سواه؟ واضح أنه كانت هناك

---

[١٠] **يُطلَق مصطلح " *الفتنة* " على مرحلة الاضطرابات التي عرفها التاريخ الروسي أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر، أي بعد وفاة إيفان الرهيب (الرابع). إذ سرعان ما توفي أيضاً خَلَفُه فيودور الضعيف، فقام البويار (الوجهاء) بانتخاب بوريس غودونوف قيصراً . وعندها عم الاستياء البلاد، وتردد أن الابن الآخر لـ إيفان الرهيب – دميتري – لا يزال حياً . فاستغل البولونيون الوضع، وجاؤوا بشخص ادّعوا أنه دميتر ي ذاك، وعرف بـ دميتري الدعيِّ (الكذّاب)، ونصّبوه قيصراً. ثم ظهر دميتري دعيٌّ آخر عرف باسم "لص توشينو". وبعد غودونوف تم انتخاب شولسكي قيصراً ... وامتدت هذه المرحلة منذ عام 1584 إلى عام 1613 عندما اعتلى ميخائيل فيودَرَفِتش رومانَف عرش روسيا . وقد استمرت سلالة رومانَف في حكم روسيا القيصرية حتى سقوطها أمام الثورة الشيوعية عام 1917. – م.**

أسباب زيّنت له مشاركته الشخصية المباشرة في *لجنة الطوارئ*، وفي إعدام الأسرة القيصرية، واضطهاد الكنيسة الأرثوذكسية، بالرغم من مخاطر زرع العداوة إلى الأبد بين شعبه وكتلة السكان الأساسية.

يقول **دوستويفسكي** في *"يوميات كاتب"* :

"... كانت تدور في خَ لَدي أحياناً فكرة خيالية : ماذا لو كان عدد الروس، وليس اليهود، في روسيا ثلاثة ملاين، وكان عدد اليهود ثمانين مليوناً . إلامَ كان انقلب الروس عندهم، وكيف كانوا سيهزأون بهم ؟ هل كانوا أتاحوا لهم حرية مساواة أنفسهم بهم في الحقوق؟ هل كانوا سمحوا لهم بالصلاة بينهم بحرية؟ أما كانوا جعلوا منهم عبيدا تماماً؟ والأسوأ من ذلك: أما كانوا سلخوا جلودهم سلخاً؟ أما كانوا أفنوهم عن بكرة أبيهم، حتى آخِر نَفَسٍ، كما كانوا يفعلون مع الشعوب الأخرى في قديم الزمان، في تاريخهم الغابر؟".

ومهما يكن الأمر محزناً، فإن فكرة **دوستويفسكي** "الخيالية" قد تحققت تقريباً في الواقع: صحيح أنها لم تتحقق لأن عدد اليهود والروس قد تغير، بل لأن ميزان قوى الطرفين بدا في لحظة من اللحظات وكأن اليهود يفوقون الروس عدداً ببضع عشرات المرات. ولا يجوز القول إن النتيجة لم تكن تشبه بالمرة نظيرتها ال تي جالت في وهم **دوستويفسكي**.

يتوجه **شولغين** إلى اليهود قائلاً:

"كنتم تشتكون من أن أعمال الـ *"بوغروم"* كانت تقع ضد اليهود في عهد "السلطة الروسية التاريخية"؛ إلا أن تلك الأعمال ليست إلا ألعاب أطفال مقارنة بـ *الدمار الروسي الشامل* الذي تسببتم به على مدى أحد عشر عام اً من تحكمكم الكلي بالسلطة".

ومما لاشك فيه أن هذا "الدمار الذي عم روسيا بأسرها" لم يكن من فعل أيد يهودية حصراً، بل من فعل السلطة الشيوعية، ولكنَّ هذا لا يلغي السؤال المطروح، وهو : لماذا شاركت القوى اليهودية في التدمير بتلك الحمية وروحية المقامرة"؟ إن مرحلة "الشيوعية الحربية" بكاملها تتألف من تتالٍ لا انقطاع فيه لانتفاضات فلاحية واجهتها السلطة المركزية بالقمع. ويُفسَّرُ هذا الأمرُ عادة على أنه "صراع من أجل الخبز"، وأسلوب بالغ القسوة لتطبيق "نظام إلزامية تسليم المواد الغذائية للدولة". ولكن دراسة الحالات الملموسة لا تؤكد صحة هذا التصور. ففي عدد هائل من الحالات كانت السلطات تشن حرباً حقيقية على الفلاحين. لقد كان الأمر نوعاً من استحالة التلاقي... لم يكن ذلك إجراء اقتصادياً، بل كان على الأرجح أشبه بالحروب الدينية التي عانت منها أوروبا الغربية في ما مضى. ففي محافظة *فورونيج*، على سبيل المثال، كان المواطن **مارغولين** مسؤولاً عن تطبيق "إلزامية تسليم المواد الغذائية". وعن ذلك يقول شاهد عيان:

"عند وصوله إلى قرية أو مركزِ ناحية، كان يجمع الفلاحين ويعلن على نحو مهيب : "لقد أتيتُ لكم بالموت، أيها الأنذال. انظروا، إن لدى كل واحد من جنودي مائة وعشرين ميتة من الرصاص لكم، أيها الأوغاد "...إلخ. بعد ذلك تبدأ الأوامر بتسليم الحصة المقررة من المواد الغذائية، ثم يأتي ضرب الناس بالسياط وحبسهم في السقيفات الباردة...إلخ.".

أي أن الموت كان يحتلّ المقام الأول، وبعد ذلك فقط تأتي إلزامية تسليم المواد الغذائية، كديكور.

أما قصة "القضاء على النظام القوزاقي " فمعروفة بمزيد من التفاصيل . والمقصود بذلك هو مجموعة التدابير الموجهة ضد قوزاق حوض الدون في الفترة التي خُيِّل أن السلطة الشيوعية استقرت إبانها في هذه المنطقة (أواخر 1918 – أوائل 1919). وقد نوقشت هذ ه التدابير قبل تنفيذها في ما بقي محفوظاً من رسائل متبادلة بين **سفيردلوف وأ.أ. فرينكِل** . ورغم أن **فرينكل** هذا كان أحد أعضاء *"مكتب الدون"* (الذي كان **صيرتسوف** رئيسه)، فإنه هو بالذات من كان يراسل **سفيردلوف**، وهو أيضاً من وقّع عدداً من القرارات المتعلقة بالقوزاق . إذ يبدو أنه كان موضع ثقة ما لدى **سفيردلوف**. يطرح **فرينكل** المسألة على النحو التالي:

"إن أمامنا عملاً كبيراً جداً وصعباً بخصوص القضاء على الكولاك بين القوزاق بوصفهم شريحة تشكل نواة الثورة المضادة، وذلك بواسطة جملة متكاملة من التدابير التي تتعلق بالمسألة الزراعية بصرفةٍ رئيسة".

وقد أسفر ذلك في كانون الثاني / يناير عام 1919 عن قيام *المكتب التنظيمي* لدى *اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الروسي – البلشفي* (وهو أحد الأجهزة القيادية في الحزب إلى جانب *المكتب السياسي*) الذي كان يترأسه **سفيردلوف**، بإقرار *"رسالة داخلية حول الموقف من القوزاق"* تبدأ على النحو التالي:

"1– شنُّ إرهاب جماعي ضد أغنياء القوزاق، وبعد إبادتهم عن بكرة أبيهم، شنُّ إرهاب جماعي لا رحمة فيه ضد جميع القوزاق الذين شاركوا أية مشاركة كانت، مباشرة أو غير مباشرة، في الصراع ضد السلطة السوفيتية.

وهذه التدابير هي التي نُفِّذت : إذ بقيت حتى أيامنا جملة من البلاغات عن عمليات إعدام جماعية في قرى القوزاق. ففي شباط / فبراير صدرت "تعليمات المجلس الثوري العسكري لدى الجبهة الجنوبية لتطبيق توجيهات اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الروسي – البلشفي بخصوص مكافحة الثورة المضادة في منطقة الدون "، وتتضمن تلك التعليمات ما يلي:

"... اكتشاف وتنفيذ الإعدام حالاً بـ :

آ– جميع القوزاق، من غير استثناء ، الذين كانوا يشغلون مناصب وظيفية سواءٌ عن طريق الانتخاب أو التعيين...

ب – جميع القوزاق الأغنياء من غير استثناء".

التوقيع: المجلس الثوري العسكري لدى الجبهة الجنوبية – إ. **خودوروفسكي** ، ف. **غيتيس** ، أ. **كوليغايف** . رئيس ديوان المجلس الثوري العسكري لدى الجبهة الجنوبية ف. **بليات**.

وفي نداء يحمل التواقيع إياها جاء ما يلي:

"لا بد من معسكرات اعتقال لاستئصال العنصر القوزاقي بالكامل من منطقة الدون".

ولقد جرى تطبيق هذه التدابير كلها بحميّة، وتدل على ذلك شهادات كثيرة . وجرت عمليات إعدام جماعية . وفي محصلة عملية "القضاء على النظام القوزاقي" تقلص عدد قوزاق الدو ن من 4,5 ملايين إلى مليوني نسمة .

وهذا ما أدّى (في آذار /مارس 1919) إلى اندلاع انتفاضة *الدون الأعلى* التي تضمّن أمرُ المجلس الثوري العسكري لدى الجيش الثامن بالتصدي لها ما يلي:

"... يجب القضاء على كل من له أية علاقة كانت بالانتفاضة وبالتحريض على السلطة السوفيتية ، دون التوقف أمام نسبة من نقضي عليهم بين سكان القرى القوزاقية ". (بل حتى ودون تقييدات تخصّ الجنس أو العمر! – المؤلف). التوقيع: المجلس الثوري العسكري لدى الجيش الثامن، إ. **ياكير**، يا. **فيستنيك**.

3 – مسألة السلطة

حاول كثيرون أن يصوروا نفوذ اليهود (حتى إن **شولغين** تحدث عن "سلطتهم الكاملة") بعد ثورة أكتوبر في صيغة عددية، استناداً إلى هذه أو تلك من الإحصائيات . وعلى سبيل المثال، يورد البعض قوائمَ تخلّفُ لدى المرء انطباعاً بأن السلطة كانت تتركز في أيدي اليهود بنسبة مئة بالمئة تقريباً . ولكنني أظن أن ذلك يتوقف إلى حدّ كبير على اختيار الهيئة التي نورد قائمة بأسماء أعضائها . فمثلاً، أول مجلس لمفوضي الشعب (الحكومة، مجلس الوزراء)، وكان يتألّف من : **لينين، وتروتسكي، وريكوف، وميليوتين، ونوغين، ولوموف، وستالين، وشليابنيكوف، وتيودورفيتش، وغليب – آفيلوف، وأنطونوف – أوفسيينكو، وكريلينكو، وديبينكو، ولوناتشارسكي**، إنما يقدم لنا بتركيبته هذه صورة مغايرة . ولا بد أن نأخذ بعين الاعتبار أن مجلس مفوضي الشعب هو جهاز تنفيذي . (بل وحتى **تروتسكي** قال : "سيكون من الأفضل بكثير لو أن أول حكومة ثورية سوفيتية لا تضم يهودياً واحداً". علماً بأنه كان من المتعذر، كما يبدو، أن تسير الأمور من دونه هو بالذات). وإضافة إلى ذلك، مثلاً ، فإن **تروتسكي**، الذي كان يتوجّب عليه الاهتمام بالشؤون الخارجية (كوزير للخارجية) في أول تشكيلة لمجلس مفوضي الشعب، يقول في مذكراته عن تلك الفترة : "لقد وهبت كل قواي للانقلاب (هنا ولاحقاً كلمة "انقلاب" تعني "الثورة". – م)، تاركاً هموم وزارة الخارجية للرفيقين **مالكين** و**زالكيند**".

كانت السلطة الفعلية محصورة (وذلك ما كان حتى *البلاشفة* المستاؤون يتحدثون عنه في المؤتمرات) في أيدي **لينين، وتروتسكي، وسفيردلوف** . وفي تأبين **سفيردلوف** قال عنه **لينين** إنه كان يبت بكثير من المسائل منفرداً، دون العودة إلى أحد . أمّا إذا ما تحدثنا عن جهاز ما ، فإن *المكتب السياسي* كان هو السلطة . ولعلّ جنينه الأول يتمثل في اللجنة التي شُكلت في أثناء اجتماع عقد في بيت **سوخانوف** قبيل وقوع الانقلاب . وكانت تتألف، كما سبق وأشرنا، من **لينين، وزينوفييف، وكامينيف، وتروتسكي، وستالين، وصوكولنيكوف، وبوبنوف** . على أنه لم يجرِ انتخاب *مكتب سياسي* في المؤتمر السادس، ولكن كان ثمة مكتب اللجنة المركزية بعضوية كل من **لينين، وستالين، وتروتسكي، وسفيردلوف** . كما لم يجرِ انتخاب *مكتب سياسي* في المؤتمر السابع (الاستثنائي) أيضاً . ولكن المؤتمر الثامن أعاد إحياء *المكتب السياسي* بعضوية كل من **لينين، وكامينيف، وكريستينيسكي، وتروتسكي، وستالين** . وغاب *المكتب السياسي* في المؤتمر التاسع، ثم كان يتألف فيما بعد على النحو التالي:

في المؤتمر العاشـر – **لينين، تروتسكي، زينوفييف، ستالين، كامينيف.**

في المؤتمر الحادي عشر – **لينين، تروتسكي، زينوفييف، كامينيف، ريكوف، تومسكي.**

في المؤتمر الثاني عشر – **لينين، كامينيف، تروتسكي، ستالين، زينوفييف، ريكوف، تومسكي، بوخارين.**

في المؤتمر الثالث عشر – **كامينيف، تروتسكي، ستالين، زينوفييف، ريكوف، تومسكي، بوخارين.**

واستمر ذلك حتى عام 1924، ليشمل مجمل مرحلة الثورة وتوطد أركانها . كان عدد أعضاء المكتب السياسي ما بين 5 و7 أشخاص، منهم **لينين** "الذي عرّف نفسه شخصياً بأنه "إنسان فيه مزيج من دم يهودي ")، وكذلك اثنان أو ثلاثة من اليهود . وكان ذلك يعني، وفقاً للمصطلحات المعاصرة "الحزمة المسيطرة " (ولنتذكر أيضا زوجتي **بوخارين وريكوف** اليهوديتين). والحديث هنا لا يدور البتة عن مؤامرة محبوكة . ولكن أياً كانت القوى التي أنشأت تلك "الوشيجة البديعة " التي تحدث عنها **غريتس** (في الاقتبـاس الذي أوردناه في الفصل الأول)، فإن غالبية أعضاء *المكتب السياسي*، أياً كانت تركيبته، كانوا خاضعين لتأثير تلك القوى . وهذا ما كان يعدُّه المعاصرون تجسيداً لـ "السلطة الكاملة" اليهودية آنذاك.

غير أن انطباعات واحد من المعاصرين أكثر فائدة، في مثل هذه المسائل الدقيقة، من القوائم والإحصائيات. إذ يقول **شولغين**، مثلاً، في حديثه عن فترة الحرب الأهلية:

"لقد كان اليهود في معسكر الحمر موجودين بكثرة حتى من حيث العدد ، وهذا مهم بحد ذاته، ولكنهم كانوا، علاوة على ذلك، يتولّون مناصب قيادية عليا، وهذا أكثر أهمية بعدُ".

ويتحدث **شولغين** عن "واقعة كانت بارزة بجلاء تام"، من وجهة نظره، وتشكل "جوهر القضية"، فيقول:

"كان اليهود القوة التنظيمية والموجِهة في معسكر الجيش الأحمر".

وكمثال يشير **شولغين** إلى الجيش الأبيض الذي يقرُّ الجميع بأن الضباط كانوا القوة القيادية فيه . على أن كثيرين من ضباطه السابقين حاربوا في صفوف الجيش الأحمر. يقول **شولغين:**

"غير أنه لا يخطر على بال أحد أن قيادة *الحزب الشيوعي* كانت بأيدي الضباط ؛ وبالعكس، فإن الجميع يقولون بثقة إن قيادة حركة البيض كان يتولاها الضباط. فلماذا؟ ذلك لأن الضباط الروس في المعسكر الأحمر كان لهم نصيب "البهائم"، بينما كانوا "أصحاب الصدارة" في معسكر البيض.

وعلى هذا النحو تماماً كان اليهود هم أصحاب الصدارة في معسكر الحمر".

ويبدو أن هذه المشكلة كانت محسوسة في معسكر *البلاشفة* أيضاً. فقد تذكر **تروتسكي**، مثلاً، في اجتماع *اللجنة المركزية* عام 1923 أن **لينين**، ما إن تم الاستيلاء على السلطة، حتى قال له وهو مستلقٍ على الأرض : "أيها الرفيق **تروتسكي**، سنجعلك مفوّض الشعب للشؤون الداخلية (وزيراً للداخلية. – م) لتقوم بقمع البورجوازية وطبقة النبلاء". ولكنه رفض، قائلاً: "لا يجوز أن نضع هذه الورقة الرابحة في أيدي أعدائنا".

كذلك رفض **تروتسكي** اقتراحاً بأن يكون النائب الوحيد **للينين**: "لكي لا نعطي أعداءنا حُ جَّة للقول بأن روسيا يحكمها اليهود".

يقول الباحث الأميركي المختص بالشؤون السوفيتية ر. **بايبس:**

"كان **تروتسكي** اليهودي الوحيد في مجلس مفوضي الشعب . ويبدو أن *البلاشفة* كانوا يتخوفون من أن يُتهموا بأنهم "حزب يهودي" شكَّل حكومةً لخدمة مصالح "اليهودية العالمية".

وفي كلمة ألقاها **تروتسكي** في اجتماع اللجنة المركزية المذكور أعلاه قال:

"إنكم تذكرون كم لحق بنا من أذى في أثناء الحرب الأهلية لأن يهودياً كان على رأس الجيش الأحمر".

(إذا كان هذا ما يعتقده **تروتسكي** حقّاً، فمن غير المفهوم عندئذ لماذا عيَّن **سكليانسكي** (اليهودي. – م) نائباً له في *المجلس الثوري العسكري* وفي *مفوضية الشعب للقوات البحرية* . وليت أن **سكليانسكي** كان خبيراً عسكرياً لا غنى عنه، غير أنه كان رجلاً لم يكمل دراسة الطب**!)**.

يخيّل إليّ أن كتاب *"روسيا واليهود"*، الصادر في برلين عام 1923، يقدم شهادة رصينة عن دور ا ليهود في الحركة الثورية برمّتها، قبل عام 1917 وبعده. ويتألف هذا الكتاب من مجموعة من المقالات كتبها ستة يهود لم يتخلوا إطلاقا عن قوميتهم، بل كان هاجسهم هو مستقبل العلاقات بين شعبهم وغيره من شعوب روسيا . جاء في ذلك الكتاب:

"ومما لا يرقى إليه الشك أبداً أن عدد اليهود الذين انخرطوا في حزب *البلاشفة*، وكذلك في جميع الأحزاب الأخرى (*المناشفة، الثوريون الاشتراكيون*... إلخ.) التي أسهمت بقسط كبير في ما يسمى بتعميق الثورة ، هو عددٌ لا يتناسب، لا من حيث الكم ولا من حيث الدور الذي أنيط بهم كقياديين، مع نس بة اليهود إلى إجمالي سكان روسيا. وهذه واقعة لا مراء فيها، ينبغي تفسيرها، ولكن من العبث نفيها ". **(ليفِن)**

"إن اليهودي موجود الآن في جميع الزوايا، وعلى جميع مستويات السلطة . والإنسان الروسي يراه على رأس إدارة موسكو عاصمة العرش القيصري الأولى ، وعلى رأس عاصمة *النيفا* (*بطرسبورغ*. – م)، وعلى رأس الجيش الذي هو الآلية الأمثل للإبادة الذاتية . وهو يرى أن شارع القديس **فلاديمير** غدا الآن يحمل اسم **ناخيمسون** المجيد، وشارع **ليتْني** التاريخي صار اسمه شارع **فولودارسكي**، أمّا مدينة *بافلوفسك* فغدت مدينة *صلوتسك*. ويرى الروسيُ الآن اليهوديَ قاضياً وجلاداً". **(بيكرمان)**

"كانت صفوف الاشتراكيين مكتظة باليهود. وعندما شاء طالَعُ الدولة الروسية أن تعصف بأقدارها – إذا جاز التعبير – الثورةُ ومعها الاشتراكية كتجلٍ ، ونتيجةٍ، وعاملٍ للانهيار على مستوى ا لدولة عامة ، والانحلال على مستوى الشعب بأسره... آنذاك وجد أولئك اليهود أنفسهم بكامل أعدادهم وطاقتهم يمتطون ظهر موجة الانحلال الأولى". **(لانداو)**

"لقد سلّح اليهوديُّ الأفواجَ الحمراء، وبقساوةٍ لا مثيل لها حافظ على وحدة هذه الأفواج التي ذادت بالسيف والنار عن "مكتسبات الثورة". وبأمرٍ من هذا اليهودي نفسه زُجَّ بالآلاف من الشيوخ والنساء الروس في السجون لتكون حياتهم رهينة ترغم الضباط الروس على التزام جانب الحمر وإطلاق النار على أخوتهم...". **(بيكرمان)**

وفي زمن أقرب إلينا تقول **س. مارغولينا**، وهي من مهاجري "الموجة الثالثة":

"إن مسألة دور اليهود ووضعهم في التاريخ السوفيتي تندرج في عداد المسائل الأكثر أهمية ، وفي آن معاً الأكثر تحريماً في عصرنا... ثمة مسألة مميزة ولم يتطرق إليها البحث تقريباً ، هي تلك المتعلقة بعمل اليهود في أجهزة القمع: *لجنة الطوارئ* (الاستخبارات)، *الإدارة السياسية الحكومية* (أمن الدولة)، *ومفوضية الشعب للشؤون الداخلية* (وزارة الداخلية)... إذ إن فظائع الثورة والحرب الأهلية، شأنها شأن ما تلاها من عمليات قمع، إنما ارتبطت وثيق الارتباط بصورة القوميسار اليهودي، شئنا ذلك أم أبيناه".

ومرة أخرى نعود إلى كتاب *"روسيا واليهود"*:

"... يشارك اليهود في هذه الفتنة أنشطَ مشاركةٍ بصفتهم بلاشفة ، وبصفتهم مناشفة، وبصفتهم مستقلين، وبجميع الصفات الأخرى. أمّا اليهود كلهم جملةً، ونظراً لأنهم لا يصنعون الثورة، فإنهم يعوّ لون عليها ويماهون أنفسهم معها إلى درجة الاستعداد الدائم لإعلان اليهودي المناهض للثورة عدوّاً للشعب". **(بيكرمان)**

كانت العلاقة – التي أشرنا إليها في الاقتباس الأخير – بين اليهود والثورة، علاقة تناظرية. أي أنه إذا كان اليهود يعدّون اليهودي المناهض للثورة عدوّاً لشعبه، فإن السلطة الجديدة كانت تعدّ من يناهض اليهود عدواً لها أيضاً. فقد نشرت صحيفة *"إزفيستيا "* ، لسان حال اللجنة المركزية التنفيذية لعموم روسيا، بتاريخ 27 حزيران / يونيو 1918 بلاغاً "من مجلس مفوضي الشعب" جاء فيه:

"إن مجلس مفوضي الشعب يَعُدّ الحركة المعادية للسامية وأعمال *البوغروم* ضد اليهود هلاكاً (!. – المؤلف) لقضية الثورة... إن من يقومون بأعمال *البوغروم*، ومن يحرضون عليها، يتوجب وضعهم خارج القانون".

لعلّ القانون الذي يقضي بوضع كائن من كان خارج القانون، هو قانون فريد في التاريخ.

نصت المادة 83 من قانون العقوبات الذي أقر عام 1922 على أن:

"إثارة النعرات القومية في حالات بالغة الوطأة، تصل عقوبتها إلى الإعدام رمياً بالرصاص".

وثمة شهادة أخرى تعود للخبير المعروف في مجال الحركة التعاونية الزراعية ، والذي كان نائباً في الجمعية التأسيسية س. س. **ماسلوف**، ثمّ هاجر (أو نُفي؟) في مطلع العشرينات، فوصف ما عاشه في روسيا السوفيتية قبل ذلك:

"إن العبارة الشائعة، "السلطة اليهودية "، التي كثيراً ما تتردد في روسيا ، وخاصة في أوكراينا وفي "نطاق الإقامة" السابق، لا تعني تعريفاً شائناً للسلطة، بل هي تعريف موضوعي تماماً لتركيبة هذه السلطة ولسياستها.

وعندما يصف الفلاح الأوكرايني تسخيره في العمل والنقل بأنه "ضريبة للسيد اليهودي "، فهو لا يعبر إلا عن قناعته الصادقة بأن هذه الضريبة فرضها اليهود حقاً.

إن وصف السلطة بـ "اليهودية " ينطوي على معنى مزدوج . ذلك أ ن السلطة السوفيتية ، أولاً: تتجاوب مع رغبات اليهود ومصالحهم، وثانياً: هي في أيدي اليهود فعلاً. والحقيقة اليومية المألوفة التي تعبرعن المعنى الأول لوصف السلطة تتلخص بالمشهد التالي : عندما يقترب يهودي من مجموعة أشخاص (غير يهود) وهم يتحدثون على سجيتهم عن الأنظمة السوفيتية، فإنهم في جميع الحالات تق ريباً ، حتى ولو كانوا يعرفون هذا اليهودي شخصياً، يقطعون الحديث فجأة، وينتقلون به إلى مجال آخر".

وفي زمن صدور كتاب س . س. **ماسلوف** (عام 1922)، نشرت جريدة *"المنبر اليهودي"* في المهجر مقالة كتبتها ي. **كوسكوفا** (التي كانت في البداية من المشاركين في "حركة التحرر "، ثم حاولت تنظيم *لجنة لمساعدة الجياع* في روسيا أطلقت الصحافة البلشفية عليها اسماً ساخراً هو "**بروكوكيش** "، ثم أُبعدت من الاتحاد السوفيتي). في تلك المقالة الموسومة بـ " *من هم وما العمل؟* " تنقل **كوسكوفا** انطباعاتها عن العلاقات الروسية – اليهودية في روسيا السوفيتية. تقول هذه المرأة، الطبيبة، اليهودية:

"لقد أفسد الإداريون البلاشفة اليهود عليَّ علاقاتي الرائعة مع السكان المحليين... فأصبح هؤلاء السكان يقفون مني الآن موقفاً شنيعاً، وأنا شخصياً في مزاج شنيع".

أو ما تقوله إحدى المعلمات:

"تصوروا أن الأطفال لا يطيقونني، وهم يصرخون بأعلى صوتهم أنني أعلِّم في مدرسة يهودية . لماذا المدرسة يهودية؟ لأنهم منعوا فيها تدريس مادة الديانة، وطردوا القس.

- ولكن ما علاقتي أنا بهذا؟ ألم يأتِ الأمر من اللجنة الشعبية للتعليم (وزارة التربية)؟
- لأن اللجنة الشعبية للتعليم كلها من اليهود، فاليهود هم الذين عينوكِ".

وتستشهد **كوسكوفا** ببيان صادر عن الإدارة السياسية (لعلّ المقصود هو اللجنة الشعبية للتعليم ؟) يبين سبب "هذه الكثرة من اليهود". يقول البيان:

"عندما استدعت الحاجة أن يكون للبروليتاريا الروسية مثقفوها وأنصاف مثقفيها، وكوادرها الإدارية والتقنية ، لم يكن مستغرباً أن يهبّ اليهود ذوو الميول المعارضة لمدِّ يد العون لها... إن وجود اليهود في المناصب الإدارية في روسيا الجديدة أمر طبيعي وضروري تماماً ، سواءٌ أ كانت روسيا هذه *كاديتية* ، أو اشتراكية ثورية، أو بروليتارية".

ولكن ربما كان أولئك اليهود الذين شغلوا مواقع قيادية في الحركة الاشتراكية وفي الثورة يشكلون بين عموم اليهود أقلية منقطعة عن جذورها القومية؟ وربما كانت مواقفُهم وليدة تعرضهم للشجب من قبل اليهود المخلصين لتقاليدهم القومية؟ حقاً، كانت تتعالى أصوات من هذا القبيل، وعلى غرار ذلك يأتي، مثلاً ، مغزى كتاب *"روسيا*

واليهود" الذي سبق واقتبسنا منه (والذي لم يكتفِ مؤلفوه باتخاذ موقف المنظّ رين في هذه المسألة، بل إن أحدهم – **بسمانيك** – كان يتعاون، مثلاً ، مع حكومة **دينيكين وفرانغِل، أي** مع أعداء الثورة). وفي هذا الكتاب تحديداً يؤكد لنا المؤلفون أنهم قوبلوا بالعداوة والنبذ من قبل كتلة اليهود الأساسية. ومما كتبته الصحافة اليهودية عنهم:

"ثمة عناصر يهودية لا يمكن أخذهم بالحسبان . إنهم نفايات الجماعة اليهودية الذين عقدوا أواصر قربى مع **فرانغِل** وساروا مع جيشه حتى نهاية طريقه الطويل...".

وتتحدث مقالة **م. بيكرمان** عن وليمة لشخصيات اجتم اعية روسية – يهودية في المهجر ألقى فيها يهودي متأمرك كلمة، فقال:

"ما من داع لأن يشكو اليهود من روسيا، فقد كنا على الدوام نحتفي بمناسبات وصول يهودي بارز إلى السلطة في فرنسا أو إنكلترا... وهاهي روسيا الآن يكاد يكون نصف وزرائها من اليهود".

وتلي ذلك قصة عن يهودي مرموق (يسميه المؤلف *"الغراب الأبيض"*)، اقترح على مرجع روحي يهودي رفيع المستوى تنظيم احتجاج على إعدامات رجال الدين الأرثوذكس في الاتحاد ال سوفيتي. وبعد أن فكر هذا المرجع بالأمر ردَّ بالقول إن ذلك سيعني أننا نناضل ضد *البلاشفة*، الأمر الذي لا يراه ممكناً ، وذلك لأن سقوط السلطة السوفيتية من شأنه أن يؤدي إلى عمليات *بوغروم* ضد اليهود، وبذلك تكون يداه ملطختين بالدم اليهودي . ويستنتج المؤلف ما يلي:

"إن الرأي العام اليهودي في كل أنحاء العالم أدار ظهره لروسيا، واستدار ناحية *البلاشفة*.

فاليهودي الفرنسي، أو الإنكليزي، أو الأميركي ليس ملزماً حتى بأن يفكر كيف ينبغي أن تخرج روسيا من الهاوية التي أوقعها فيها التمرد الذي سمي ثورة . ولا يعود يهمّ اليهودي فيما يتعلق بروسيا وقضايا الروس سوى أمر واحد فقط ، وهو أن سلطة *البلاشفة* القائمة سلطة خيِّرة لكونها لا تسمح بأعمال *بوغروم* ضد اليه ود، وأنها مهددة بـ "الرجعية" المستعدة لإبادة اليهود".

ونجد تأكيداً لهذه الفكرة الأخيرة في مرجع غير متوقع . إذ يقول **كاوتسكي** في سجاله مع **تروتسكي** حول الإرهاب في روسيا (وهذا في حقيقة الأمر ردٌ على مقالة **لينين** *"الثورة البروليتارية والمرتد* **كاوتسكي**"):

"إن ما نتخوف منه ليس الديكتاتورية، بل هو على الأرجح شيء أسوأ منها بكثير . فأغلب الظن أن الحكومة الجديدة سوف تكون ضعيفة للغاية، وبالتالي فإنها لن تتمكن، حتى ولو أرادت، من مواجهة أعمال *البوغروم* ضد اليهود و*البلاشفة*.

... ولذلك فإننا مضطرون للدفاع عنها (عن البلشفية. – المؤلف) بوصفها أهون الشرين".

(علماً بأن عنوان الكتاب نفسه يصف الوضع في روسيا بأنه "عبودية حكومية").

وهذا يعني، إذاً، أن الموقف من السلطة الشيوعية "كسلطة تحمي اليهود من أعمال *البوغروم*" يأتي في المقام الأول عند **كاوتسكي،** رغم كل الخلافات الحزبية القائمة.

ويتطرق كتاب *"روسيا واليهود"* غيرَ مرة إلى العلاقة بين الجزء النشيط سياسياً من اليهود وبقية الجمهور اليهودي :

"لم تكن القضية هنا في ذلك الكم الهائل من الحزبيين النشطاء، الاشتراكيين والثوريين، الذين انصبّوا فيها **(**في الثورة. – المؤلف**)**، بل تكمن في ذلك التعاطف الواسع ا لذي أُستُقبلت به، ورافقها إلى حدّ ما فيما بعد أيضاً ... من الواضح أن ثمة أسباباً قوية كانت تدفع اليهود في هذا الاتجاه". **(لانداو)**

"لم يكن كثيراً عددُ الأسر اليهودية البورجوازية أو البورجوازية الصغيرة التي لم يكن ينظر فيها الآباء والأمهات بعين الرضى، أو الاعتزاز أحياناً، وبلا اكتراث في أسوأ الحالات، إلى أولادهم وهم يُدمَ غون بدمغات رائجة تعود لواحدة من الأيديولوجيات الثورية الاشتراكية". **(لانداو)**

ويصوغ **شولغين** الفكرة ذاتها على نحو آخر:

"... ليس من الإنصاف الاعتقاد بأن الشيوعيين اليهود المعاصرين ولدوا من زبد البح ر كما **فينيرا** (إلهة الحب). كلا، إنهم الوليد المريع للحقد اليهودي الجماعي الذي سيطر على قسم كبير من اليهود الروس عامي 1905 – 1906".

وهذا الشعور نفسه هو ما تتضح به ذكريات أحد مؤسسي الحركة الصهيونية، **حاييم وايزمان** . فهو يكرر القول مراراً: "مع كراهيتي لروسيا"، كمن يتحدث عن أمر مفروغ منه.

وفي حديثه عن فترة لاحقة (1919) يورد **شولغين** مثالاً على التأييد اليهودي الواسع للبلشفية، فيقول:

"... قُدِرَ لي أن أراقب في *أوديسّا* عمل اليهود ضد *جيش المتطوعين* (جيش البيض . – م)... كان ذلك أيام التدخل الفرنسي. لقد كان طنين أمِّنا *أوديسّا* (كما يسميها اليهود . – م) المعادي للبيض، العاملَ الأهم في تفسخ الجيش الفرنسي المرابط في المدينة".

وقد نشرت مجلة *"الأرشيف الأحمر"* السوفيتية وثائق تثبت صحة ملاحظات **شولغين**. وبناء على الوشايات التي تلقاها **مورغولين**، رفيق وزير خارجية الإدارة الأوكرانية، ترتسم الصورة التالية. كان العقيد **فرايدِنبرغ** رئيساً لأركان قوات الاحتلال الفرنسية . وهو من كان يجُري المفاوضات مع الإدارة الأوكرانية معوِّ لاً على الاشتراكيين الفدراليين. وكان الجنرالان القائدان **فرانشي دي إسبيري بيرتيلو، وأنسيلما** ينظران إلى جميع الأمور بمنظار ه إذ كانت سياسته تتلخص في الحط من قدر جيش المتطوعين. وتحت تأثيره أُغلِقت جريدة **شولغين** *"روسيا"*، وسُمح بتأسيس جريدة *"نوفي شلياخي"* (الطريق الجديد) المقتدرة مالياً. واتبع **فرايدينبرغ** سياسة تعوق التجنيد في جيش المتطوعين الذي كان يصف هذا العقيد بأنه *"عبقري قيادة الحلفاء الشرير"*. وفي الحين ذاته كانت المكائد تدبر ضد *جيش المتطوعين* من قبل *مجلس اتحاد الدولة* الذي كان **مارغوليس** رئيسه الفعلي.

يعبر القرار الذي اتخذه المؤتمر الصهيوني المنعقد في *بتروغراد* بعد ثورة شباط / فبراير أبلغ تعبير عن الموقف الذي اتخذه اليهود المتعصبون قومياً إزاء الثورة. لقد شدد هذا القرار على أن مرشحي اليهود إلى الجمعية التأسيسية يجب أن يمروا عبر قوا ئم يهودية إذا ما كان ذلك ممكناً ، أمّا إذا ما تعذّر ذلك فإنه يكون على

الصهاينة الالتزام بدعم أحزاب "ليست أكثر يمينية من الاشتراكيين الشعبيين ". على أن *"الاشتراكيين الشعبيين"* كانوا يمثلون ائتلافاً منَ الثوريين الاشتراكيين أكثر اعتدالاً. وعلى هذا النحو توجّب على الصهاينة أن لا يصوتوا إلا لصالح الأحزاب الاشتراكية الثورية.

بالطبع، لم يكن الزمن الذي أعقب الثورة مجرد مرحلة "سلطة يهودية "، وذلك على الأقل لأن مثل هذا المنظور لم يكن مطروحاً ، لا سيّما ونحن نعرف الآن أن من المتعذر القيام بانقلاب راديكالي (بل وعلى هذا القدْر من الراديكالية !) بدون منظور محكَم الصياغة. على أن ما طُرح كان منظوراً آخر تماماً ، هو المنظور الشيوعي – الأممي . إذ من المستحيل أن يكون عشرات آلاف من ا ليهود الشيوعيين في حقيقتهم *"مرّانيين"* يعتنقون في السر مذهباً آخر، دون أن يزل لسان أحد منهم يوماً أبداً، لا آنذاك ولا فيما بعد.

غير أنه لا مفر من الوقائع. وتدل هذه الوقائع على وجود "عامل يهودي" ذي أهمية استثنائية في الثورة.

من المرجح أن "جميع" الثوريين، أو "جميعهم تقريباً" كانوا، على الأقل في مرحلة معينة من مراحل الثورة، من اليهود. إلا أن البلاد انقسمت بعد ثورة أكتوبر إلى معسكرين : "مع الثورة " و"ضدالثورة" (الانتفاضات الفلاحية، الحرب الأهلية، الهجرة). وقد رأينا أن معسكر من كانوا "مع الثورة" لم يكن برمته مؤلفاً من اليهود دون سواهم . ولكنْ ربما لم يكن لهم وجود في معسكر من كانوا "ضد الثورة"؟ إلا أن الجزم بهذا مستحيل أيضاً . طبعاً، إن كثيرين من اليهود الذين كان لهم صلة بثورة شباط / فبراير لم يكونوا موضع ترحيب بعد ثورة أكتوبر . فراحوا يقومون بأعمالٍ ما في مناطق حكومات البيض، ولكنهم، في نهاية المطاف ، اختاروا الهجرة. وكان عدد هؤلاء كبيراً. أمّا المناضلون الحازمون بين اليهود ضد الثورة فلم يكونوا إلا استثناءات معدودة، أمثال **كانيغيسّر** الذي اغتال **أوريتسكي**، و**كابلان** التي أطلقت النار على **لينين**. ومن بين هذه الاستثناءات أيضاً كان الأشخاص الستة الذين ألفوا كتاب "**روسيا واليهود**"، وسجلوا موقفهم كـ "**منبوذين**" من الوسط اليهودي. يقول **شولغين:**

"لم ينضم إلى البيض من بين اليهود إلا مجموعة ضئيلة العدد للغاية، وإن كان **فينافير** قد زار شخصياً مدينة *يكاترينبورغ*، أي كان في ضيافة **دينيكين** إذا جاز التعبير. وحضر إلى هناك رفقة **ميليوكوف**. ولكن هذا، وذاك، كانا منتوفي الريش على نحو أسوأ من النسر ذي الرأسين (شعار روسيا القيصرية .– م) أيام **كيرينسكي**. ويمكن القول إنهما معاً لم يكن لهما وزن يذكر ... بالنسبة **لفينافير** لأن – وبالتحديد لأن – اليهود لم تسر أمورهم كما ينبغي في حركة البيض ... وقد فُسِّر ذلك بأن *جيش المتطوعين* كان معادياً للسامية لدرجة يستحيل معها التنفس... وهذا صحيح جزئياً . ولكنْ جزئيا فقط. فمما لا شك فيه أن اليهود لو اندفعوا إلى جيش البيض بتلك الحمية التي عملوا بها من أجل الجيش الأحمر، لما كان عداءٌ للسامية في معسكر البيض".

ونقع على هذه الفكرة أيضاً في كتاب *"روسيا واليهود":*

"إن معاداة السامية كانت ستختنق لا محالة في أي جيش إذا ما كان فيه كثرة من الجنود اليهود". **(لينسكي)**

وعلى هذا النحو يناقش **شولغين** موقفين متطرفين، هما:

" 1–) كل اليهود شيوعيون.

2-) ليس كل اليهود شيوعيين، ولكنَّ كل الشيوعيين يهود ". ويصل إلى استنتاج يعتقد أنه "قريب جداً من الحقيقة"، وهو:

3-) ليس كل اليهود شيوعيين، وليس كل الشيوعيين يهوداً، ولكن اليهود لهم نفوذ في *الحزب الشيوعي* يتناسب عكسا مع عددهم في روسيا".

وهذا صحيح، بلا ريب، ولكنه كما أتصور، ليس إلا جزءاً من ظاهرة أعم تتلخص في ما يلي. عاشت روسيا مطلع القرن العشرين أزمة هزت أركانها. وهذه الأزمة على ارتباط بالثورة بدءاً من العام 1905. وإذا جاز لنا استخدام مقولات مثل "طبقة النبلاء"، و"طبقة الفلاحين" يتضح عندئذ أن "اليهود" تحديداً، "اليهود" بالإجمال، كانوا إبان هذه الأزمة في الجانب الثوري – الشيوعي دونما شك، سواءٌ بمعنى المشاركة (التي لا تتناسب البتة مع عددهم) في الثورة والسلطة الشيوعية، أم بمعنى المشاركة الضئيلة (غير المتناسبة أيضا مع عددهم) في النضال ضد هذه القوى. وبالطبع، لم يشارك عملياً أي منهم في نضال الفلاحين، والقليلون جداً منهم شاركوا في جيوش البيض. ولكن هل بالإمكان أن نعتبر **فينافير، ومارتوف، وأبراموفيتش، وميليكوف** طبعاً، مناضلين ضد الثورة؟ لقد كانوا بالضبط مشاركين نشيطين فيها، ولكن في طور معين – مرحلة شباط / فبراير. أما عند الانتقال إلى طور أكتوبر فقد جرى تبديل شخوص المسرحية، وأضحى هؤلاء "خارج اللعبة"، في المهجر. بل أن **فينافير** كرس السنوات الأخيرة من حياته "للنضال ضد الشيوعية" (وإن كان نضالا في الجرائد)، وأصدر في باريس جريدة *"المنبر اليهودي"*. وكما تقول إحدى صحف المهجر التي يقتبس منها **شولغين**، فإنه "قام في السنوات الأخيرة من حياته بمشاركة نشيطة في حكومة فلسطين".

وفي هذه الأزمة التي شطرت روسيا آنذاك، من المشكوك فيه أن يكون من المناسب طرح هذا السؤال: من كان على حق؟ إنها أشبه بظاهرة عفوية. ولكنَّ ما يؤيد أن "اليهود" جملةً كانوا في جانب واحد، هو الإحصائيات الرقمية، وملاحظات اليهود كما الروس، والمثقفين كما الموجيك الأوكرانيين، وكتب المهاجرين البيض كما بيانات الإدارة السياسية لمجلس مفوضي الشعب. ولم يكونوا في "جانب واحد" وحسب، بل وكانوا القوة القيادية لهذا "الجانب" وركيزته أيضاً.

لقد أوردنا كثيراً من الشهادات (وكان بالإمكان أن نورد أكثر من ذلك بكثير) على عدائية اليهود "لروسيا التاريخية"، الأمر الذي تجلى في الثورة أيضاً. ومما لا ريب فيه أن تقاليد الموقف العدائي قد أرساها الروس، بل أرساها في البداية الأرستقراطيون الروس. ولكن الجماعة اليهودية تلقفت هذا التقليد برمته تقريباً (وإن مع بعض التلاوين). ومن المجازفة هنا أن نتخذ قرارات معدة سلفاً في ما يتعلق بما كان "السبب"، وما كان "النتيجة". (هذا إذا كان بالإمكان عموماً تقسيم التاريخ إلى سلسلة "أسباب" و"نتائج"). وثمة وجهة نظر تحظى بقبول عام مفادها أن "عدم المساواة في الحقوق"، و"أعمال الترويع ضد اليهود"، و"نميمة الدم"... إلخ، قد خلقت عدائية "اليهودية" لروسيا، وسببت اندغامها بالحركة الثورية، و "الوصول إلى السلطة" بعد الثورة. ولكن هل لنا أن نختبر وجهة النظر هذه؟ كيف يمكننا الاقتناع بأن وجهة النظر المعاكسة ليست صحيحة، أي بأن هذه الروح العدائية بالتحديد وإرادة التسلط، كانتا هما الأسبق، ونتيجة لذلك فحسب أثار "تقييد حرية التنقل" وكل ما سواه، ردَّ الفعل العنيف

هذا؟ لقد تحمل الناس اضطهادات على يد التنظيم القهالي لا تفوقها قسوة، فالوزراء الروس لم يسلقوا اليهود في الماء الغالي! ونحن لم نرَ غوغاء من طائفة *"ستاري أوبرياد"* تجمح نحو *لجنة الطوارئ* أو *الحزب الشيوعي*. يبدو لي أن من المتعذر الإجابة على هذا السؤال قبل التمعن الحصيف بتاريخنا الحديث ، ومقارنته مع حالات مماثلة عند شعوب أخرى، ولكن دون أن نتخذ من كليشيه ذهنية معدَّة على عجلٍ عقيدةً إيمانيةً.

مراجع الفصل الحادي عشر:

1 – تيخوميروف ل. البدايات والنهايات. ليبراليون وإرهابيون. موسكو 1890

2 – فولك س.س.الشعبية الثورية في سبعينات القرن 19، المجلدان 1 و2، موسكو،1964

3 – أبتيكمان أو. ف. "الأرض والحرية " في السبعينات. روستوف على الدون.

4 – يوميات لم تنشر لتيخوميروف. الأرشيف الأحمر. المجلد 29، 1928

5 – زايتسيف ف.ل. المؤلفات المختارة. المجلد 1، موسكو، 1934

6 – ديتش ل. دور اليهود في الحركة الثورية الروسية. موسكو- لينينغراد، 1926

7 – سجل أحداث الحركة الاشتراكية في روسيا. 1878 – 1887، موسكو، 1907

8 – سبيريدوفيتش. يوميات شرطي. خاركوف، 1930

9 – Nikolajevski B.Asef the Spy. N- Y 1934

10 – Radkey Oliver R.The Agrarian Foes of Bolshevism.N-Y-L, 1958

11 - مارتوف يو. يوميات ديمقراطي اشتراكي. موسكو، 1924

12 – شابيرو ل. الحزب الشيوعي السوفيتي. Firenze، 1975

13 – زينوفييف غ. تاريخ الحزب الشيوعي الروسي (البلاشفة)، لينينغراد، 1924

14 – غاليفي زيفا. زعماء المناشفة في الثورة الروسية. موسكو، 1993

15 – ستالين إ. ف. المؤلفات. المجلد 2، موسكو، 1946

16 – لينين ف . الاقتباس وارد في كتاب سيلينتسكي "السياسة القومية للحزب الشيوعي السوفيتي "، واشنطن، 1990بالرجوع إلى الطبعة الرابعة من مؤلفات لينين الكاملة، المجلد 2، ص 168

17- Deutscher. The Prophet armed. Trotsky 1879- 1921, N-Y-L, 1958

18 - الفوضويون. وثائق ومواد. 1883 – 1913، موسكو، 1998، المجلد 1

19 – غيريه ر. مجلس دوما الدولة الروسي الأول. موسكو، 1906

20 – تيركوفا- ويليامز أ. مرجع سابق (ورد في الفصل العاشر).

21 – مينشيكوف م. ن. رسائل إلى الأمة الروسية. موسكو، 1999

22 – مينشيكوف م.ن. رسائل إلى الأقرباء عام 1907

23 – ستارتسيف ف. إ. الماسونيون الروس في القر ن العشرين . مجلة " قضايا التاريخ " 1989، العدد 6، مجلة "تاريخ الاتحاد السوفيتي"، 1989، العدد 6، و1991 العدد 1

24 – شولغين ف.ف. مرجع سابق ورد في الفصل الأول.

25 – بيراخ مارك. وقائع أم انتقاء نماذج؟ مجلة "نحن والزمن.."، إسرائيل، شباط /فبراير 1976

26 – دوستويفسكي ف. م. مرجع سابق ورد في الفصل الأول

27 – صحيفة "روسيا الأدبية"، 1990، العدد 2

28 – لارين يو. اليهود ومعاداة السامية في الاتحاد السوفيتي. موسكو – لينيغراد، 1929

29 – مجلة "الأرشيف الأحمر"، 1929، العدد 1، المجلد 32

30 – رافيس م. لمحات من تاريخ الحركة العمالية اليهودية.

31 – Rappoport Angelo S. The Pioneers of the Russian Revolution. L. 1918

32 – المؤتمر الثاني للحزب الديمقراطي الاشتراكي الروسي . المحاضر . موسكو ، 195933 – مراسلات ستوليبين ونيقولاي رومانوف "الأرشيف الأحمر"، 1924، المجلد 5

34 – لازاريف إيغور . اغتيال ستوليبين. نيويورك، 1986

35 – محاضر اللجنة المركزية لحزب العمال الديمقراطي ا لاشتراكي الروسي . آب/ أغسطس 1917– شباط / فبراير 1918، موسكو، 1958

36 – شولغين ف.ف. مرحع سابق ورد في الفصل العاشر.

37 – دوستويفسكي ف. م. مرجع سابق ورد في الفصل الأول.

38 – " روسيا الأدبية ". العام 1990، العدد 2

39 – الريف الروسي كما تراه اللجنة الاستثنائية لعموم روسيا ، ومفوضية الشعب للشؤون الداخلية ، وإدارة الدولة السياسية الخاصة. المجلد 1، 1918 – 1922، موسكو، 1998

40 – انطونوفشينا. الانتفاضة الفلاحية في محافظة تمبوف 1919– 1921 تمبوف، 1994

41 – ميرونوف فيليب. الدون الهادئ 1917 – 1921، موسكو، 1997

42 – بوغاي ن . القوزاق ممثلو الشعب الروسي . // الشعب الروسي . مصائر تاريخية في القرن 20، موسكو، 1993

43 – المؤتمر الثاني لعموم روسيا لمجالس نواب العمال والجنود. موسكو، 1997

44 – محاضر مؤتمرات حزب العمال الديمقراطي الاشتراكي الروسي – الحزب الشيوعي لعموم روسيا (البلاشفة).

45 – تروتسكي. انظر "قضايا تاريخ الحزب الشيوعي السوفيتي"، 1990، العدد 5

46 – بايلس و. الثورة الروسية. موسكو 1994، المجلد 2

47 – روسيا واليهود. مرجع سابق ورد في الفصل الأول

48 – Margolina Sonja. مرجع سابق ورد في الفصل الأول.

48 – ماسلوف س. س. روسيا بعد أربعة أعوام من الثورة. المجلدان 1و 2، باريس 1922/

49 – كاوتسكي ك. من الديمقراطية إلى عبودية الدولة. برلين 1921

50 –.Weizmann ch مرجع سابق ورد في الفصل العاشر.

51 – "الأرشيف الأحمر". المجلد 19، 1926

52 – ماساة الريف السوفيتي. المجلد 1، أيار / مايو 1927 – تشرين الثاني / نوفمبر 1928

53 – زاسلافسكي ك. أ. امبراطورية ستالين: قاموس سيرة موسوعي. موسكو، 2000

54 – من كان يشرف على مفوضية الشعب للشؤون الداخلية ؟ دليل مرجعي . 1954 – 1941، موسكو، 1999

55 – ميلغونوف س.ب. الإرهاب الأحمر في روسيا 1918 – 1923، موسكو، 1990

الفصل الثاني عشر

الغرب بين الحربين العالميتين

(من الحرب العالمية الأولى إلى الحرب العالمية الثانية)

1. بعد الحرب

شهد نفوذ اليهود في العالم تزايدا شديداً ، وعلى نحو غريب ، في فترات الحروب العالمية . وقد سبق أن أشرنا إلى حروب **نابليون** التي جلبت لليهود حق ا لمساواة في أوروبا الغربية كلها ، وتزامنت مع ظهور الصحافة اليهودية (بل ومع ظهور اليهود الذين اشتدت قوتهم اقتصادياً، وجنوا ثروات طائلة من تمويل كلا الطرفين . وإلى هذه الفترة يعود صعود بيت **روتشيلد)**. وفيما بعد نصادف هذه الظاهرة نفسها إبان الحرب العالمية الثانية . ولكن دعونا ننظر الآن إلى الحرب العالمية الأولى.

يمكننا أن نتتبع هذه الظاهرة ، موضعَ اهتمامنا، أوضح ما يكون التتبع، من خلال تمثلها في ألمانيا، حيث تطلبت الحرب حشد الجهود الاقتصادية، وضبط الاقتصاد. فجريدة "**برلينر تاغيبلات** " التي أسسها ناشر يهودي في القرن التاسع عشر، كانت قد وعدت ، في أول مقالة برنامجية لها منذ عام 1912، بالدفاع عن المصالح اليهودية، وكتبت تقول:

"إن إدارة ألمانيا اليوم إدارةً حسنةً تعني معرفة الحساب، وهذا ما أتقنه أولاد **سام** دائماً. ونحن الآن بحاجة، في المواقع الحاسمة بالنسبة لمصيرنا، لأناس يتقنون الحساب ، وإعدادَ التوقعات في مجال الثروات المادية . فهل هو أمر سيء إلى هذا الحد أن نأتي بهؤلاء من بيئة العرق اليهودي؟ أليس دليلاً على رهافة الحس الرائعة عند **ويلهيلم** أنه دائماً ، في اللحظة الحرجة، يستدعي إلى قصره أولئك المدراء **: بالّين ، وسيمون ، وغولدبيرغر ، وغيرمان، وأرنولد، وراتيناو، وشرواباخ، وفريدليندر – فولد؟**".

فمع بداية الحرب أوكِلت مهمة تعبئة الحياة الاقتصادية للأغراض الحربية لاثنين من الدكتاتوريين الاقتصاديين، هما **راتيناو وبالّين**. فقد ترأس **بالّين** شركة المشتريات المركزية، بينما ترأس **راتيناو** قسم التخطيط الاستراتيجي في وزارة الحربية . وتم تنظيم شبكة من "الشركات العسكرية " التي قامت على أساس المب ادرة الخاصة، ولكنها كانت تعمل بدعم من الدولة. لقد كانت حياة ألمانيا الاقتصادية في أيديهما عملياً. إذ كان على رأس هذا النظام بمجمله **راتيناو** الذي وصفته الصحافة بـ "رئيس الأركان العامة خلف خط الجبهة "، وهو الشخصية التي أظهرت بكل سطوع طابعَ النفوذ اليهودي في ألمانيا قبل الحرب العالمية الأولى ، وأثناءها ، وبعدها . على أن **راتيناو** ، وهو ابن أحد كبار الصناعيين في ألمانيا قبل الحرب، ألّف في شبابه كتاباً (*"انطباعات"* 1902) جاء فيه:

"اسمع يا إسرائيل ! يقول محبو اليهود إن المسألة اليهودية لا وجود لها . ولكن يكفي أن يمرّ المرء في شارع **تيرغارت شتراسه** ظهر يوم من أيام الأحد، أو أن يلقي نظرة على ردهة المسرح عند المساء . يا له من أمر غريب ! إننا نرى في لب الحياة الألمانية عِرقاً شديد التميز والغرابة ... فسوف تلحظ وسط رمال **براندنبورغ** "أورطة من الآسيويين". إلا أن البهجة البادية على هؤلاء الناس لا تدع مجالاً لأن يظهرللعيان ما يحملونه فوق أكتافهم من كراهية قديمة لا تعرف الكلل . وهؤلاء الذين يرتبطون أوثق ارتباط فيما بينهم ، وينكفئون عن العالم الخارجي في عزلة صارمة ، لا يمثّلون عضواً حياً من الشعب الألماني، بل كياناً متميزاً، غريباً عن جسم هذا الشعب".

ورث **راتيناو** ثروة أبيه، وصار واحداً من كبار رجال الصناعة والمال في ألمانيا. وفي العام 1909 كتب في جريدة *"نوي فراي بريسه"* الصادرة في فيينا:

"ثمة 300 شخص، يعرف بعضهم بعضاً معرفة شخصية، هم الذين يقررون مصائر القارة".

وكتب مرة أخرى يقول:

"إن الأوساط المالية الدولية النافذة التي تخفي سلطتها على العالم منذ زمن بعيد آن لها الآن أن تعلن عن تلك السلطة صراحةً".

وبعد أن وضعت الحرب أوزارها يسترجع **راتيناو** انطباعاته عن بدايتها، فيورد حديثاً يدور بينه وبين صديق له على النحو التالي:

" قلت: . لن يأتي أبداً يوم يمرّ فيه الزعيم الألماني على صهوة جواد أبيض عبر بوابة *براندنبورغ*، بوصفه قاهر العالم، وإلا فإن التاريخ العالمي سيكون قد فقد مغزاه في ذلك اليوم".

ومع ذلك، فقد عُهدَ إلى **راتيناو** بمنصب الحاكم الاقتصادي لألمانيا، فتقلّده. ويرى **فون هايك** ، الاقتصاديُّ المعروف الحائز على جائزة **نوبل** ، أن الأساس لوصول الاشتراكيين القوميين (النازيين) إلى السلطة قد أُرسيَ "في مكاتب **راتيناو**" تحديداً، وذلك لأن إشاعة البيروقراطية والمركزية في الاقتصاد ، ابتداء من أيام الحرب ، أدت – بحلول العام 1933– إلى استحالة قيادة اقتصاد ألمانيا بغيرالدكتاتورية. ولكن **راتيناو** كان يروّج من خلال عدد كبير من المطبوعات أيضاً لأفكار توحيد نمط الاقتصاد ومركزته. يقول **هايك:**

"ولعلّه (أي **راتناو**) أثَّر أكثر من أي شخص آخر على آراء معاصريه. وفيما بعد شكَّل عددٌ من أقرب موظفيه نواةَ الجهاز الذي طبق خطة **غيرنغ** الرباعية".

كانت "الشركات العسكرية "، حسبما يرد في المذكرات عن تلك المرحلة ، مكتظةً باليهود . ويورد كتاب **هايك** المكرس لهذه المسألة أمثلة من هذا النوع (ولكنها قد تكون متطرفة إلى الحد الأقصى). وهاكم تشكيلة قيادة شركة الإمداد بالمنسوجات : **كون، تسايتلين، غيرشفيلد، ساميليفيتش، غيللر، أيسنر** ، **زوميرفيلد** ، **فايتولبيرغ، سيمون، بلاتنير، سيمون** (واحد آخر !)، **فيلنير** . وفي شركة التعدين الحربية المساهمة كانت نسبة الألمان 13 بالمئة، واليهود 87 بالمئة، وفي شركة الإمداد بالمنتجات الجلدية كان الألمان 2 بالمئة واليهود 98 بالمئة. كانت

هذه الشركات، والمؤسسات التابعة لها، تدفع فوائدَ لم يسبق لها نظير من قبل : 300 بالمئة، 400 بالمئة، 700 بالمئة، وحتى 900 بالمئة. وكانت المضاربات لبضعة أيام توفر فرصة لربح الملايين . وهكذا تكونت ثروات تقدّر بمئات الملايين . وقد جرت محاكمات طول فترة الحرب، كما بعد انتهائها، بخصوص قضايا حول تقديم بضائع مغشوشة، ومضاربات، وإساءة استغلال الوضع الوظيفي، وكانت ك فة الأسماء اليهودية راجحة في كل ذلك بجلاء . كما تعرض للمحاكمة عدة مرات **غيلفاند – بارفوس** الذي كان داعية لنظرية *"الثورة الدائمة"*، وشارك في الثورة الروسية عام 1905، ولكنه كان في الوقت نفسه مليونيراً يضارب في البورصة جنباً إلى جنب مع شريكه الدائم **شكليارتس**. وبعد الحرب، عندما كان الديمقراطيون الاشتراكيون رفاق **بارفوس** الحزبيون في سدة السلطة، أدلى وزير الشؤون الدينية **هينيش** بتصريح لصحيفة "**8 أور ابيندبلات**" حول فضيحة جديد ة، قال فيه:

"قد تكون عمليات **بارفوس** تنطوي حقاً على شيء من المجازفة، وهذا ما لا أعلمه، ولكن لا تنسوا م ن فضلكم أن **بارفوس** ليس مواطناً ألمانياً مستقيماً، ولا يمكن – بحكم مجمل الحياة التي عاشها – أن يكون كذلك. وما من شك في أن الدم الذي يجري في عروقه خليط فريد من الدم اليهودي، والروسي (؟ – إ. ش)، والتتري (؟؟ – إ. ش). ومثل هذا الشخص له الحق في أن يحاكَم وَفق قوانين جوهره هو، وحياته التي عاشها".

(و**هينيش** هذا – وزير الشؤون الدينية ! – كان رئيس تحرير مجلة *"غلوكه"* التي كان يصدرها **بارفوس وشكليارتس**).

وعندما قامت ألمانيا باحتلال أوكرا ينا في العام 1918 أبلغ سكرتير الدولة **بوشه – هادينهاوزن** لجنة الرايخستاغ (البرلمان) أن شراء الحبوب (أي عملياً مصادرة الحبوب) في أوكرانيا سيعهد به إلى "اليهود الذين يعرفون الأوضاع المحلية جيداً". وفي النمسا – هنغاريا أيضاً أُنشئت للغرض ذاته "شركة لاستيراد الحبوب". وكانت قيادتها تتألف من : **كون** (رئيساً)، و**رايف وفيرفيل** (نائبين للرئيس)، و**فيشل**، **وغيبيان**، **وغيهوررزام**، **وغورفيتس، وغيرمان، وليفي، وسويكا، وفيريهايمر**.

ويمكن أن نرى لوحة مماثلة في بلدان المعسكر المضاد، وبالدرجة الأولى فيما يتعلق بإدارة الاقتصاد المركزة. ففي الولايات المتحدة الأميركية،على سبيل المثال، نرى **برنارد باروخ** (نظير **راتيناو** الألماني) دكتاتوراً اقتصادياً. وبالرغم من أنه كان في البداية مضارباً في البورصة، فقد ترأس المجمع العسكري – الاقتصادي (war industry board) أثناء الحرب.

وقد وصف **باروخ** طبيعة عمل هذا المجمع على أنه صوغ "الأولويات"، فمثلاً: "هل ترسَل القطارات إلى الجنرال **بيرشينغ** (إلى الجيش)، أم إلى *تشيلي* من أجل نقل نترات البوتاسيوم الضرورية لصنع الذخائر لقوات **بيرشينغ**".

لقد اتهمه خصومه بإقامة دكتاتورية اقتصادية، ونعتوه بأنه "رئيس فوق العادة".

و سعى **باروخ** بعد الحرب لترسيخ تجربة المجمع العسكري – الصناعي، فأكد على:

"ضرورة ضبط الأسعار، بل ورأسِ المال، والقوة العاملة، والإنتاج أيضاً. وهذا ما لا يمكن بلوغه من دون قدْر من الهيبة، والرقابة، والتحكم بالصناعة، يكفي لتنظيمها، وتوجيهها كمنظومة كلية واحدة.

لا بدّ من طريقة جديدة تماماً تجعل المصانع والخامات كافة، وكلَ رب عمل وعامل جزءاً من جيش صناعي عملاق واحد".

وقد روّج **باروخ** في الثلاثينيات لوضع خطط من أجل تعبئة الاقتصاد الأميركي استعداداً لحرب قادمة كان يعدّ انخراط الولايات الأميركية فيها أمراً لا بد منه . (كتب يقول إنه بكل بساطة كان مهووساً بهذه الفكرة). أمّا فكرة الحياد فقال بصددها: "لا أعرف حيواناً من هذا القبيل". وكان يتذرع في هذا الشأن بأن **هتلر** يستخدم خبرة المجمع العسكري – الاقتصادي بالتوازي تماماً مع ما قاله **هايك** عن تأثير **راتيناو** على خطة **غيرنغ** الرباعية.

وفي ميدان المال لعب **باول فاربورغ** (صنو الألماني **بالّين**) دوراً مماثلاً. علماً بأنه كان حتى عام 1914 واحداً من مالكي البيت المصرفي العائد **لآل فاربورغ**، والذي كان أخوته على رأسه . (وبتكليف من الحكومة الألمانية قام أحد هؤلاء الأخوة بمحاولة في *ستوكهولم* للاتصال بالسياسي الروسي **بروتوبوبوف** في مسعى فاشل لجس النبض حول إمكانية عقد سلام منفرد مع روسيا).

بل وهاكم مثالاً يتعلق بالسياسة على مستوى عال . فقد قام الملياردير الإنكليزي **هنري فورد** في العام 1917 بزيارة إلى أوروبا، على أمل التوصل إلى معاهدة سلام. وفيما بعد كتب يقول:

"كلَّ مرة كنت أحاول فيها الوصول إلى وزير أو ملك، كان يعترض طريقي عند الباب سكرتير يهودي . ولم أتمكن من الوصول إلى أصحاب العقد والحل إلا بعد موافقة هؤلاء (السكرتيريين). ولذلك توصلت إلى استنتاج بأن السلطة في أوروبا تعود لهم تحديداً".

وبالفعل، كان **فيليب ساسون،** في فترات مختلفة ، سكرتير **لويد جورج** ، وكان **إيدفين صموئيل مونتهيو** سكرتير **آسكويت، وماندل** سكرتير **كليمنصو، وهوغو أوبندورفير** سكرتير **لوبيه.**

ويلفت **دوغلاس ريد** الانتباه إلى دور النفوذ اليهودي المتصاعد في السياسة العالمية، ويورد الحادثة التالية مثالاً على ذلك. ففي مطلع العام 1918 نُقلت مجموعة كبيرة من القوات الإنكليزية إلى فلسطين ، بغية تطهيرها بالكامل من الأترا ك، بالرغم من أنه كان متوقعاً بشكل طبيعي أن يشن الألمان هجوماً حاسماً على الجبهة الغربية يستخدمون فيه القوات التي تحررت من أعباء الجبهة الشرقية . ومن الواضح أن هذا القرار كان موضع جدال كبير، وقد اتُّخذ تحت ضغط قوي . كما تطلَّب تنفيذه صرف بضعة سياسيين وقادة عسكريين من الخدمة. وبالفعل، فقد بدأ الهجوم الألماني بعد أسبوعين من شروع الإنكليز بهجومهم في فلسطين، فاضطر الإنكليز لإعادة قواتهم إلى أوروبا، وحلت بهم هزيمة نكراء.

انتهت الحرب بعقد **معاهدة فرساي** وَفق الشروط التي صاغها مؤتمر السلام الذي شارك فيه ممثلو المنظمة الصهيونية العالمية ومجموعات يهودية مستقلة نافذة . وكانت إنكلترا ، قبل ذلك الحين ، قد تعهدت في ما يسمى *"إعلان بلفور"* بإقامة "وطن قومي" لليهود في فلسطين. وكان هذا "الإعلان" من الناحية الشكلية مجرَّد رسالة من

وزير خارجية إنكلترا آنذاك **بلفور** إلى اللورد **روتشيلد**. (كما أن مفهوم "الوطن القومي" ملتبس جداً). غير أن هذا الإعلان عُدّ فيما بعد بمثابة الوثيقة الأساسية التي أدت إلى قيام دولة إسرائيل.

كانت مفاوضات السلام أشد إيلاماً لألمانيا، إذ لم تكن تلك بالنسبة لها مفاوضات، بل إملاء شروط . وكان على رأس الوفد الألماني **بروكد ورف– رانتساو**، وهو ألماني، بل وكونْت (كان قبل ذلك سفير بلاده في *الدانمارك*، وعن طريقه جرى تمويل *البلاشفة*). إلا أن رئيس الوفد الاقتصادي كان **ميلخيور**، اليهودي الذي كان رئيساً للجنة الاقتصادية في أوكرانيا المحتلة سابقاً). وكان الوفد الاقتصادي يضم أيضاً كلاً من **فاربورغ، وناتان، وفاسيرمان، وسولومونسون**.

ولمّا تقرر في مؤتمر السلام مصيرُ *بولونيا* التي أعيد إحياؤها من جديد، أصرت البلدان المنتصرة الرئيسة، تحت تأثير المجموعات اليهودية النافذة (الأمريكية أساساً)، على أن تلتزم *بولونيا* بتعهدات يرغب بها اليهود البولونيون. وقد اعترض الوفد البولوني على إعطاء تعهدات من هذا القبيل، على افتراض أنها ستنجم عمّا سيمنحه دستور *بولونيا* الجديدة من ضمانات عامة للمواطنين كافة. غير أن البلدان المنتصرة أصرت على إعطاء ضمانات خاصة، ولجأت إلى المماطلة في حل مسألة الحدود الغربية ل*بولونيا* كأداة ضغط عليها. وكان الحديث يدور أحياناً حول الأقليات القومية عموماً، ولكن المشاركين ركّزوا بشكل واضح على اليهود تحديداً. ووجّه **بلفور** رسالة (بتاريخ 25 حزيران / يونيو 1919) إلى رئيس الوزراء البولوني **باديريفسكي** تحمل طابع الإنذار، متذرِّعاً بالرأي العام في *إنكلترا* وفي الإمبراطورية (وخاصة *كندا*). فأُدرج في النص النهائي لإعلان تشكيل الدولة البولونية بيانٌ عن حماية حقوق اليهود. ولكن المنظمات اليهودية (الأميركية على وجه الخصوص) طالبت بإجراء تحقيق حول الوضع الفعلي لليهود في *بولونيا*، ولا سيّما فيما يتعلق بالشائعات عن أعمال *البوغروم*. وأكد **هيبسون**، السفير الأميركي في *بولونيا*، أن المسألة تقتصر على حوادثَ محلية ضئيلة الأهمية. كما أن وزير الخارجية **لانسينغ** كان يرى أيضاً أن حجم هذه الحوادث مبالغ فيه بشدة من قبل الصحافة الأميركية، ورتب لقاء بين **هيبسون** وممثلَين عن المنظمات اليهودية الأميركية، هما **برانديس وفرانكفورتر**، فهدداه بأن مجلس الشيوخ لن يقر تعيينه سفيراً بعد الآن. إلا أن مجلس الشيوخ أقر تعيينه، بينما أوعز إليه **لانسينغ** بأن يكف من الآن فصاعداً عن نشرتقاريره عن وضع اليهود في *بولونيا*. وبمناسبة هذه الأحداث أوفِدت إلى *بولونيا* لجنة من *أمريكا* برئاسة موظف مقرب من الرئيس **ويلسون** وممثل بارز لليهود الأمريكيين هو **غ. مورغينتاو** (السفير الأمريكي في *تركيا* سابقاً). وفي الوقت نفسه أُوفِد من *إنكلترا* بمهمة مماثلة السير **ستيوارت صموئيل**، شقيق السياسي النافذ السير **هربرت صموئيل**، الذي وصفوه ل**وايزمن** يوماً بأنه "يهودي في الحكومة".

وفي عام 1920 ذكرت الصحف البولونية، بصدد الحرب ضد *روسيا السوفيتية*، أن السكان اليهود استقبلوا الجيش الأحمر استقبال الظافرين عند هجومه على *بولونيا*، بينما راحوا يطلقون النار على القطعات البولونية المنسحبة. ورداً على هذه التصرفات، أصدرت وزارة الحربية أمراً بتاريخ 6 آب / أغسطس عام 1920 يقضي بسحب الجنود اليهود من القطعات العسكرية، على ألا تزيد نسبتهم فيها عن 2 بالمئة، وبتجميعهم في قطعات التعمير الثانوية.

كانت *ألمانيا* "الجزء المريض " من *أوروبا* بعد الحرب . وقد أدّى التوتر الذي خلفته الحرب ، وشروطُ *معاهدة فرساي* القاسية إلى انخفاض حادّ في مستوى المعيشة . إذ هبط الإنتاج من عام 1913 حتى العام 1919، وفقاً لجميع المؤشرات تقريباً ، إلى حوالي النصف (استخراج الفحم الحجري ، وفلزات الحديد، وإنتاج حديد الصب ، والفولاذ...إلخ). وبحلول العام 1923 انخفض الإنتا ج مرة أخرى إلى أقل من النصف . وازداد عدد الإصابات بمرض السل مرتين ونصف المرة . على أن التضخم الذي سرعان ما أدى إلى فقدان المارك قيمت ه بالكامل (خلال عامي 1921- 1922انخفضت قيمته أكثر من 1000 ضعف)، وتزايدَ عددِ العاطلين عن العمل مهّدا الطريق للهزات الثورية. وكانت البداية "ثورة نوفمبر " 1918 التي ألغت نظام الحكم الملكي . ولم تكن هذه الثورة نتيجة الاستيلاء الثوري على السلطة، بل نتيجة الضغط الذي مارسته دول *الائتلاف* (*أنطانطا*)، ونتيجة الإضرابات، وبعض القلاقل في الجيش.

فقد انتقلت السلطة إلى أيدي الديمقراطيين الاشتراكيي ن (9 تشرين الثاني / نوفمبر 1918). ولمّا كان نفوذ اليهود في الديمقراطية الاشتراكية الألمانية قوياً جداً، كما سبق وذكرنا (في الفصل التاسع)، فقد ظهر ذلك جلياً الآن في الوضع الألماني عامة . إذ كانت السلطة خلال الأيام الأولى في أيدي "مفوضَين" اثنين (أي مفوضين عماليين) هما **إيبرت وهازه** . (نذكّر القارئ بأن اسم **هازه** مر معنا في الفصل التاسع ، ضمن قائمة نواب الرايخستاغ عن الحزب الديمقراطي الاشتراكي الذين ينتمون في الحين ذاته إلى الديانة اليهودية). ثم قام مجلس "المفوضين" الشعبيين الذي تأسس بتاريخ 12 تشرين الثاني / نوفمبر 1918 بدور الحكومة العليا، وكان يتألف من ستة أشخاص هم : **إيبرت** مسؤولاً عن الشؤون الداخلية والحربية، **وهازه** مسؤولاً عن الشؤون الخارجية، **وشايديمان** مسؤولاً عن الشؤون المالية، **وديتمان** مسؤولاً عن إلغاء التعبئة (أي عن تسريح الجيش)، و**لاندسبرغ** مسؤولاً عن الصحافة والإعلا م، **وبارت** مسؤولاً عن السياسة الاجتماعية . (سبق أن طالعَنا اسم **لاندسبرغ** في الفصل التاسع بين الديمقراطيين الاشتراكيين النافذين المنتمين إلى الديانة اليهودية). وكان **إيبرت وهازه** يشغلان معاً منصب الرئاسة بالتكافؤ . وكان يخضع لهذه المجموعة الوزراء ، وسكرتيرو الدولة الذين أجريتْ بينهم تعديلات طفيفة اقتصرت على تعيين **شيفّر** سكرتيرَ دولة لشؤون الخزينة، **وفورم** (مرّ ذِكرُه في الفصل التاسع) وزيراً جديداً للتموين، وكذلك تغيير وزير الاقتصاد . وفي وقت لاحق عُيِّن **هوغو برايس** (ابن تاجر يهودي) سكرتيرَ دولة لهدف محدد هو إعداد الدستور الجديد. وقد أُجريَ دراسة حول مرشحين اثنين لهذا المنصب ، هما **برايس وماكس فيبر**، إلا أن الاختيار رسا على **برايس**، فأصبح هو المُعِّ الرئيس للدستور الذي سعى من خلاله إلى التخلي عن التقسيم التقليدي ل*ألمانيا* إلى مقاطعات (أراض)، وتقسيمَها إلى دوائر على النمط ا لفرنسي. ولم يرغمه على التخلي عن هذه الخطة إلا المقاومة الشديدة (وخاصة مداخلات **ماكس فيبر**).

وبعد إقرار الدستور انتخب **إيبرت** رئيساً، وتم تشكيل حكومة برئاسة **شايديمان**، شغل فيها **شيفّر** منصبي نائب رئيس الوزراء وزير المالية، وعُيِّن **برايس** وزيراً للداخلية، و**لاندسبرغ** وزيراً للعدل.

ولكنْ، وعلى غرار ما جرى في *روسيا* ، يمكن أن نفترض أن المجلس المركزي لجمهورية *ألمانيا الاشتراكية* ، الذي انتخبه مؤتمر سوفيتات عموم *ألمانيا* ، لعب دوراً لا يقل عن دور الحكومة . وكان **كوين (رايس)** رئيساً لهذا المجلس.

وما إن قامت ثورة نوفمبر حتى راح جناح الديمقراطية الاشتراكية اليساري يتنامى بـقوّة. ففي 11 تشرين الثاني / نوفمبر 1918 تأسس *"اتحاد سبارتاكوس "* ، وكان على رأسه **كارل ليبكنيخت، وروزا لوكسمبورغ** ، **ول. إيوهيشيس، وب. ليفي** ، وكذلك بعض الألمان، مثل **ف. ميرينغ، وف. بيك** . وفي 29 كانون الأول / ديسمبر طرأ تحول على هذا الاتحاد ، فصار اسمه *"الحزب الشيوعي الألماني"* . وكانت حركة *"السبارتاكيين"* موجودة قبل التأسيس الرسمي *"للاتحاد"* (مجموعة **سبارتاك** موجودة منذ العام 1916). وكان الدعم الذي لقيته حركة *السبارتاكيين* من *روسيا* أحد الأسباب التي أدت إلى قطع العلاقات الدبلوماسية ا لسوفيتية – الألمانية ، وإبعادِ السفير السوفيتي **إيوفه** . وقد حضر **كارل راديك** مؤتمر تأسيس *الحزب الشيوعي الألماني* ، فعبر عن أمله بأن تكون *برلين* المكان الذي سيَعقِ فيه السوفيت الدولي لنواب العمال اجتماعه قريباً ، وبأن "يقاتل العمال الروس جنباً إلى جنب مع العمال الأ لمان على *الراين*، والعمال الألمان جنباً إلى جنب مع العمال الروس في *الأورال*". إن ثورة نوفمبر هي التي حررت **راديك** من سجنه في ألمانيا التي أوفِد إليها بعد ثورة أكتوبر عام 1917، وكانت الحكومة الألمانية قد اتهمته آنذاك بمساندة النشاط الثوري بدعم من سفير *روسيا السوفيتية* **إيوفه**.

وقد حاول *السبارتاكيون*، في الأيام الأولى من عام 1919، الاستيلاء على السلطة في *برلين*، ولكنهم دُحروا على يد القوات التي بقيت موالية للحكومة، بل وقُتِل **كارل ليبكنيخت، وروزا لوكسمبورغ** ، **ول. إيوهشيس** . وبعد ذلك تولّى **ب. ليفي** رئاسة *الحزب الشيوعي الألماني*.

وفي العاشر من كانون الثاني / يناير 1919 أُعلِن عن قيام **جمهورية** *بريمِن السوفيتية* التي صمدت حوالي الشهر.

وسرعان ما نشبت الأزمة في *ميونيخ*، بعد سحق محاولات الاستيلاء على السلطة في كل من *برلين وبريمِن* . لقد أدى انهيار *ألمانيا* العسكري إلى استيلاء الجنود والعم ال على السلطة فيها . وتولّى **كورت آيسنر** (وهو ابن تاجر يهودي) رئاسة الحكومة لبعض الوقت، وكان **يافّه ولانداور** أكثر الموظَّفين قرباً إليه. على أن السلطة كانت، من الناحية الشكلية ، تابعة لمجلس المقاطعة (*لاندتاغ*) الذي تحظى الأ حزاب البورجوازية بالأغلبية فيه . غير أن الأحداث التي وقعت بعد ذلك يكتنفها غموض شديد. إذ لقيَ **آيسنر** مصرعه على يد الكونت **آركو** ، وفي الوقت نفسه أُلحِقت الهزيمة بمجلس المقاطعة (يبدو أن الأمر كان مدبّراً سلفاً). وفي شباط / فبراير 1919 أُعلِن عن قيام **جمهورية** *بافاريا السوفيتية* ، فوجّه **لينين** إلى هذه الجمهورية أسئلة تمثل خطوطاً عريضة لبرنامج عمل واضح: "ما هي التدابير التي اتخذتموها ضد جلادي **شايديمان** وشركاه البورجوازيين ؟ هل سلّحتم العمال، ونزعتم سلاح البورجوازية؟ هل أخذتم رهائن من أوساط البورجوازية؟". وقد بقيت **جمهورية** *بافاريا* بالذات في ذاكرة العديد من الألمان، كمثال على أكبر مساهمة قيادية لليهود في الثورة . وفي بيان لها قالت الحكومة التي فرَّ ت من *ميونيخ* إلى *بامبيرغ*: "يجتاح *ميونيخ* إرهاب روسي أَطلقت له العنان عناصرُ غريبةٌ ". أما الأشخاص الأساسيون

فهم : الاشتراكيان الليبراليان **لانداور** و**ميوزام** (الذي انصرف في شبا به عن اليهودية)، والشيوعيون **ليفين، وليفينيه، وتولّير، وأكسيلرو**د الذي وصل من موسكو مؤخراً، كمراسل لوكالة الأنباء الروسية . ويبدو أن البحّار **إيغلهوفر** كان الألماني الوحيد بين من لعبوا الأدوار الأولى هناك.

وعلى غرار ما فعلت قواتُ الجيش في *ميونيخ*، سحقت أيضاً محاولة القيام بثورة شيوعية في *برلين*.

وبمناسبة الذكرى العاشرة لهذه المعارك الثورية ، أي في العام 1929، صدر في *برلين*، عن دار نشر يسارية بجلاء ، قد تكون شيوعية ، كتابٌ بعنوان *"التاريخ المصوَّر لثورة نوفمبر الألمانية "*. وهو كتاب شيِّق للغاية، إذ فضلاً عن وصف هذه ا لأحداث المثيرة نجد فيه صوراً للحشود الثورية ووجوه قادتها . غير أن بضع شخصيات خُصّت بصور كبيرة، مميزة ، تحتل الواحدة منها صفحة كاملة . فمن هم أولئك ؟.. إنهم **كارل ماركس، وكارل ليبكنيخت، وروزا لوكسمبورغ، وليو إيوه يشيس، وإيوهين ليفينيه.**

تلك هي، على ما يبدو، صورة الحركة الثورية في ألمانيا تلك الحقبة.

إن مؤتمر *الحزب الديمقراطي الاشتراكي المستقل* (أي الأكثر راديكالية)، الذي انعقد في تشرين الأول / أكتوبر 1920، يعكس روح الحركة الثورية الألمانية في تلك المرحلة. فقد ألقى **زينوفيف**، زعيم *الكومنترن* آنذاك، كلمة في المؤتمر استغر قت بضع ساعات ، هاجم فيها الديمقراطيين الاشتراكيين "اليمينيين"، وتنبأ قائلا : "إن *ألمانيا* ستشهد الآن ظهور حزب شيوعي موحد كبير ، سيكون من أعظم أحداث زماننا ". وقد عارضه كل من **هيلفردينغ ومارتوف** اللذان احتجّا في كلمتيهما أمام المؤتمر على "دكتاتورية موسكو"، ولكن تأييد المندوبين لهما كان أقل بكثير . وأعرب معظم المندوبين في المؤتمر عن تأييدهم للاندماج بالحزب الشيوعي ، فتشكل *الحزب الشيوعي الألماني الموحد* الذي التحق به نصف أعضاء *الحزب الديمقراطي الاشتراكي "المستقل"*، وأصبح جزءاً من *الكومنتيرن*. وغدا **باول ليفي** (عن *الحزب الشيوعي*) **وارنست ديميغ** (عن *"المستقلين"*) قائدين متكافئين لهذا الحزب الجديد . إن هذا الوصف الذي نقدمه هنا مقتبس من كتاب ، صدر بعد الحرب العالمية الثانية ، لمؤرخٍ ألماني حذرٍ إلى أقصى الحدود في موضوع النفوذ اليهودي. ومع ذلك، يتضح من الكتاب المذكور أنه بينما كان يتقرر مصير هذا الحزب الألماني المؤثر، تعالت أصوات أناس عديدين ، كان **ديميغ** بينهم الوحيد الذي له كنية ألمانية (غير يهودية).

على أن هذا الطيف من الأسماء اليهودية يطالعنا في مناطق مختلفة من ألمانيا . ففي *بروسيا* كان **هيرش** رئيساً للحكومة ووزيرا للداخلية، وفي *سكسونيا* كان **غرادناور** (الموظف سابقاً في شركة **بارفوس – شكليارتس)** رئيساً للوزراء، كما كان **راينيكه – بلوخ** رئيساً للحكومة في *ميكلينبورغ*. حتى إن شخصاً مثل **توماس مان** الذي أصبح كاتباً تقدمياً متشدداً (فيما بعد) سجل في يومياته عام 1919 ما يلي:

"إننا نتحدث عن نمط اليهودي الر وسي الذي يتزعم حركة عالمية، عن هذا الخليط من الراديكالية الذهنية اليهودية والأحلام السلافية – المسيحية الذي ينطوي على خطر الانفجار . فينبغي على العالم الذي لا يزال

يحتفظ بغريزة البقاء أن يهبَّ للنضال ضد هذا النمط البشري بكل ما أؤتي من طاقة، ووَ فقاً لما تقتضيه القوانين زمن الحرب".

وكتب **تشرشل** آنذاك يقول:

"إن هذا التيار لم يظهر وسط اليهود الآن، بل منذ أيام **سبارتاك – وايسهاويت** (إن كون **تشرشل** نفسه ينسب **وايسهاويت** إلى اليهود يبيّن مدى الذهول الذي أصاب كثيرين وقتها بسبب الظهور المفاجئ لل نفوذ اليهودي في الأحزاب الثورية. – إ. **ش**) وصولاً إلى **كارل ماركس**، وفيما بعد إلى **تروتسكي** (*روسيا*)، **وبيللا كون** (*هنغاريا*)، **وروزا لوكسمبورغ** (*ألمانيا*)، **وإيمّا غولدمان** (*الولايات المتحدة الأمريكية*)... إن هذه العصابة من أنذال سراديب النضال السري في *أوروبا وأميركا* قد أمسكت بتلابيب الشعب الروسي، وأ صبحت الحاكم بلا منازع في هذا البلد المترامي الأطراف".

قام العسكريون في عام 1920 بمحاولة لإسقاط حكومة الديمقراطيين الاشتراكيين (تمرد **كابّ**)، ولكن هذه المحاولة قمعت أيضاً . وكردٍّ فعل على تلك المحاولة ، تشكّل الجيش الأحمر لمنطقة *الرور* ، وبلغ تعداد أفراده حوالي مئة ألف شخص . وقد فرض سيطرته على الجزء الأكبر من هذه المنطقة ، واستمر ذلك قرابة عشرين يوماً. وعند غروب هذه المرحلة من الثورات والانقلابات جاءت محاولة الاستيلاء على السلطة في *ميونيخ*، وهي المحاولة التي شارك فيها **هتلر** (عام 1923). وفي العام نفسه احتلت *فرنسا وبلجيكا* منطقة *الراين* . وقد أدى اندلاع الاشتباكات هناك، والتضخم الهائل، والنزعة الانفصالية، إلى دفع *ألمانيا* مرة أخرى إلى حافة الحرب الأهلية ، على غرار ما جرى في عامي 1918 – 1919. وظهرت إلى الوجود مجموعات شيوعية واشتراكية قومية (نازية) مسلحة. وفي هذا الوضع المتوتر لم يكن أي من الأطراف مستعداً للتخلي عن الاستعانة بالمشاعر المعادية لليهود التي يبدو أنها كانت منتشرة على نطاق واسع . إذ تقول ممثلة التيار اليساري المتطرف في الديمقراطية الاشتراكية، **روف فيشر** (اليهودية):

"إن من يدعو إلى النضال ضد الرأسمال اليهودي هو مناضل عل ى الجبهة الطبقية، حتى ولو كان شخصياً لا يعي ذلك. أطيحوا الرأسماليين اليهود، علّقوهم على عواميد الإنارة! ولكن، ألَمْ تنسوا **ستينِّس وكليكنِر**؟").

وفي عام 1925 نشرت جريدة الحزب الشيوعي *"روته فانه "* مقالات لكل من **تروتسكي** ، **وزينوفيف** ، **وستالين، وبوخارين** تتناول "الوضع الثوري" في *ألمانيا* . ومما قاله **ستالين**، على وجه الخصوص:

"إن الثورة الشيوعية في *ألمانيا* هي الآن الحدث العالمي الأعظم. وسيكون لانتصار الثورة في *ألمانيا* من الأهمية ، بالنسبة لبروليتاريا *أوروبا وأميركا* ، أكثر مما للثورة الروسية . وما من شك في أن انتصار البروليتاريا الألمانية سوف ينقل مركز ثقل الثورة العالمية من موسكو إلى *برلين*".

وبالعودة إلى الثورة الشيوعية الألمانية التي لم يكتب لها النجاح، يمكننا مقارنتها، كـ "شكل" من أشكال الثورة، بثورتنا، والتثبت، بشكل خاص، من أن مشاركة اليهود هناك لم تكن أقل ممّا كانت عليه عندنا، في *روسيا* . ولئن كانت هذه الثورة قد أخفقت فإن ذلك لا يعود، بأي حال من الأحوال، إلى قلّة ما سُخّر لها من طاقات يهودية .

إن المنسيين الآن، والذين غالباً ما لقوا حتفهم على أيدي رفاقهم الشيوعيين بالذات ، **أركادي ماسلوف، ووروف فيشر، وفيرنر شوليم، وأرتور روزنبوغ، وهاينتس نايمان، وإيفين كاتس** والكثيرين غيرهم، ممن عُدّوا آنذاك بين زعماء الثورة البارزين، كانوا سيخدمون هذه الثورة بإخلاص ، لو توفَّرت لها ظروف ملائمة، على غرار ما جرى في *روسيا* . وهذا كله يجعلنا نتمعن مرة أخرى بالفكرة القائلة إن اليهود في روسيا اندفعوا نحو الثورة لأنهم كانوا مضطهدين في ظل النظام السابق . ذلك أن *ألمانيا* آنذاك كانت تعد مثالاً لاندماج اليهود الندّي في حياة البلد الذي يعيشون في كنفه.

وفي العشرينات إياها انتهت نجاحات **فالتر راتيناو** السياسية الشخصية المحيرة، بل وانتهت حياته أيضاً . وقبل ذلك، وأثنا ء الحرب، في عام 1918، عندما كان **ك. راديك** معتقلاً بتهمة الإعداد للثورة، زاره **راتيناو** في السجن عدة مرات وأجرى معه أحاديث مطولة . على أن **راديك** يتحدث عن هذه الواقعة، ولكنه – للأسف – لا يأتي على ذكر مضمون تلك الأحاديث . لقد كان **راتيناو** مهتماً بالموقف من *جمهورية ميونيخ السوفيتية* التي لم تعمِّر طويلاً ، إذ كان يعدُّها خطوة في الاتجاه الصحيح نحو بناء اقتصاد مركزي وموجَّه. وهو الآن يدخل الحكومة، أوَّلاً كوزير لإعادة الإعمار، ثم في العام 1922 كوزير للخارجية . غير أنه أيد ما يسمى بـ "السياسة الواقعية" في ما يتعلق بدفع *ألمانيا* غرامات حربية مهولة تمتد لبضعة عقود من السنين (خطابُه، مثلاً، في مؤتمر *الحزب الديمقراطي الألماني* الذي انعقد في 12 – 14 تشرين الثاني / نوفمبر 1921). وبذلك أصبح، في نظر اليمينيين، النموذج المثالي *"للبلوتوقراطي*[11] *اليهودي الذي يبيع ألمانيا"* . وفي نهاية المطا ف لقيَ **راتيناو** مصرعه عام 1922 على يد إرهابي يُظَنّ أنه ينتمي إلى منظمة *"كونسول"* القومية السرية المتطرفة.

وبالطبع، فإن تركيز هذه السلطات الكبيرة في أيدي اليهود، ولا سيما في هذه اللحظة البالغة الإيلام لـ *ألمانيا* ، قد أثر تأثيراً قوياً على مجمل الحياة فيها . فعندما كان **هيرش**، على سبيل المثال، رئيساً لوزراء *بروسيا* سُمح لمئات آلاف من اليهود بالانتقال إلى هناك من *بولونيا* و*غاليسيا* والمناطق الشرقية التي ألحقت بـ *بولونيا* ، وذلك في وقت كانت فيه *ألمانيا* كلها تعاني من المجاعة، وكان العديدُ من الألمان بلا مأوى، وبلا عمل.

وما هي إلا بضع سنوات حتى احتل اليهود في الحياة الاقتصادية والثقافية وضعاً أرفع بكثير من ذي قبل . فنُشر في عام 1921 كرَّاس صغير بعنوان *"النفوذ اليهودي في ألمانيا"* يعتمد، كما يؤكد مؤلفه ، على أرقام الإحصائيات الرسمية، ومعطيات الصحافة . وفيه يورد المؤلف أرقاماً بليغة جداً ، منها، مثلاً، الأرقام التالية عن التوزع حسب المهن لكل ألف شخص:

المهن	بين الألمان	بين اليهود
العمال الزراعيون	111	1,1
أصحاب الفبارك	32	52
العمال	138	34

[11] فضلنا الإبقا على كلمة(بلوتوقراط) التي تتطلب ترجمتها عدداً من الكلمات: الرجل الواسع السطوة، نفوذاً وسلطة، بفضل ثروته. – م.

أصحاب المنشآت التجارية	9،7	133

أما الوضع، بالنسبة لظروف السكن، فكان على النحو التالي:

عدد الغرف في الشقة	**النسبة المئوية بين عموم السكان**	**النسبة المئوية بين اليهود**
1	8،7	4
2	37،7	11،5
3 –4	38،8	25،5
5 – 7	12،6	50،4
8 وما وفوق	2،2	9،1

وقد تضاعفت مرتين النسبة المئوية للمدراء والأعضاء المراقبين في مجالس الشركات المس اهمة مطلع القرن، وهذه النسبة أشار إليها **زومبرت** (انظر الفصل السابع). فكانت نسبة اليهود بين المحامين تشكل 43 بالمئة، وبين كبار موظفي العدلية 78،7 بالمئة، فيما كان عدد الأطباء اليهود في *ميونيخ* 644 من أصل 1098، وفي *هامبورغ* 412 من أصل 734، وفي *كنِيغسبيرغ* (مقاطعة *كالينِنغراد* الروسية حالياً. – م) 159 من أصل 284 طبيباً.

ومع بداية الحرب كان عدد اليهود بين أساتذة الجامعات والمعاهد 937 أستاذاً، في حين كا ن ينبغي أن يكون عددهم 31 أستاذاً ، لو كان هناك احتكام إلى عددهم قياساً إلى عدد السكان الإجمالي . وكان عدد طلاب الجامعات بين كل مئة ألف من الذكور:

العام	**بين الألمان**	**بين اليهود**
1915	74	556
1916	81	587
1917	111	662

وبين كل مئة ألف طفل:

المدارس	ألمان	يهود
في المدارس الشعبية (الابتدائية)	92,7	41،9
في المدارس الثانوية	4،6	25،2

وبناء على حسابات المؤلف ، فإن الألمان لم يكونوا يملكون ملكية كاملة إلا 5 بالمئة فقط من مجمل الصحف، في حين كان 35 بالمئة من الصحف تحت إشراف اليهود ، و60 بالمئة خاضعاً للنفوذ اليهودي (من حيث تركيبة العاملين والإعلانات). ومن بين 806 أعضاء في اتحاد الناشرين الألمان، أي من بين أكثر الناشرين نفوذاً في *ألمانيا* ، كان هناك 365 يهودياً . ومن 3241 مجلة كانت تصدر في العام 1921 كانت حصة اليهود 1154 مجلة.

وفي قيادة *الحزب الديمقراطي الاشتراكي* (الأكثر اعتدالا) كانت نسبة اليهود 18 بالمئة، وفي قيادة *الحزب "المستقل"* (المنشق عنه، والأكثر راديكالية) 65 بالمئة، وفي قيادة الشيوعيين 87 بالمئة. وعندما تم ، على سبيل المثال ، تشكيل لجنة من المراقبين على وزارة الحربية في إطار تجريدها من الروح العسكرية المتطرفة، كان في اللجنة سبعة يهود من أصل ثمانية أعضاء، وهم : **غولدشميدت ، وكيزفانت، وليفه، وشليزنغر، وفارشينسكي، وتسوكيت، ويرون، ورييناوم.**

إن تأثير اليهود على الحياة بهذا القدْر من القوة المتعاظمة كان يتصاعد على نحو غريب جنباً إلى جنب مع انتشار الأمزجة القومية المتعصبة، ومع شعور الألمان بالغربة بين اليهود . وقد وجد ذلك أسطع تعبير عنه في كتاب القومي اليهودي المعروف **ياكوف كلاتسكين** *"مسائل اليهودية المعاصرة"* الذي صدر في ألمانيا أواخر العشرينات (وقد أتيح لي الاطلاع عليه في طبعته الثالثة لعام 1930). وفي وقت لاحق عاد هذا المؤلف وعرض الأفكار نفسها في كراس تتصدره مقدمة تمجيدية بقلم **إنشتاين** . ويرى المؤلف أن هدف اليهود جميعاً يكمن في الانعزال عن بقية شعوب العالم . أما السبيل إلى ذلك فيراه في "تعزيز الغيتو الروحي، والجدران المتحركة للدولة اليهودية "، ولـ "خيام إسرائيل "، أي القيام (على أساس ديني) بتربية سيكولوجيا الاغتراب، وعدم الاندماج مع الشعوب الأخرى. وجاء في الكتاب المذكور:

"قال حكماؤنا: [إن التشرد بالنسبة لشعوب العالم الأخرى ليس شتاتاً (جالوتاً). ولكن التشرد بالنسبة لإسرائيل، الذي لا يأكل خبز الآخرين ولا يشرب خمرهم، يصبح (جالوتاً) بحق]".

"إن الجدار الوطيد الذي شيدناه كان يفصلنا عن شعب البلاد، وخلف الجدار كانت تعيش دولة يهودية مصغّرة". وعلى هذه الحال يجب أن تبقى الأمور، كما يرى **ياكوف كلاتسكين.**

"إننا غرباء في كل مكان بين الأمم الأصلية، ونريد أن نتمسك بغربتنا دون كلل".

"أيمكننا أن نسمي بلدان شتاتنا وطناً ونحن نحلم ونسعى إلى الخلاص من التشرد ؟ ما هذا الوطن العجيب ، المحبوب على نحو عجيب، الذي نسميه جالوتاً (الشتات) ونسعى للخلاص منه**!**".

"إنه "بلد أغراب"، "وطن قسري".

"علينا أن نكرر دائماً: [إن بينكم وبيننا هوةً فاغرة شدقها لا يمكن تخطيها، فروحكم غريبة علينا، وغريبة علينا خرافاتكم وأساطيركم، وتراثكم القومي، وعاداتكم وتقاليدكم، ومقدساتكم القومية والدينية]. [غريبة علينا أعيادكم القومية، أفراح حياتكم القومية وأتراحها، تاريخ انتصاراتكم وهزائمكم، أناشيدكم الوطنية وأغانيكم الحربية، مطامحكم وآمالكم القومية. إن حدودكم القومية لا تجزِّئ شعبنا، ونزاعاتكم الحدودية ليست نزاعاتنا. ففوقها تمتد وحدتنا بالرغم من كل عُرى الوصل وأسباب الفصل في وطنيتكم]".

ويعلن مؤلف الكتاب: "إن اليهود الذين قضوا أبطالاً وهم يقاتلون في صفوف جيوش الشعب المحيط بهم، ورجالات الثقافة... كل أولئك خونة لقضية اليهود القومية، أضاعوا مواهبهم وأعمارهم سُدى".

ويضيف المؤلف جاعلاً الأسلاف قدوة:

"إن سياسة آبائنا التلمودية لم تعرف وطنية أخرى غير الوطنية اليهودية. لقد كانوا يحزنون لانتصارات الشعب السيد عليهم، إذا ما كانت تلك الانتصارات تجلب المصائب لشعوب بلاد أخرى. وكانت عواطفهم تميل إلى البلدان والشعوب وَفقاً لمصالح اليهود حصراً. وغالباً ما كانت تلك العواطف لا تميل إلى البلاد التي يعيشون فيها، وإنما إلى البلاد التي يعيش فيها أبناء قومهم إذا كان وضع اليهود في تلك البلاد أفضل".

حتّى إن هذا الكلام ليس دعوة إلى الحياد السلبي، بل هو نداء إلى القتال، وفي المقام الأول ضد المسيحيين:

"أين تتعالى الآن أصوات اليهود ضد أكبر زيف في التاريخ؟ وهل يجرؤ اليهود على طرح هذا النداء على البشرية: اسحقوا الحشرة!".

وهو يدعو اليهود إلى:

"مطالبة مضطهدكم بأن يعترف بعجزه الداخلي، أي باختصار، *باستسلامه الروحي* أمام اليهود".

بل وهو ينظر أيضاً إلى الحياة كلها بوصفها حرباً:

"إن وجودنا الجالوتي (في الشتات) هو، بمعنى ما، حالة حرب دائمة".

"إنها حالة معركة لا هوادة فيها مع العالم الغريب الذي يحيط بنا ويسعى إلى ابتلاعنا".

ينبغي أن نتصور وضع *ألمانيا* في ذلك الوقت: الهزيمة، المهانة القومية، المجاعة، البطالة، المرض (كانت النسبة المئوية لمرضى السل، مثلاً، أو وَفيات الأطفال، أكثر ببضع مرات مما هي عليه في فرنسا). لقد كان كثيرون من الألمان يحتفظون بذكريات "الحرب البطولية" التي خاضوها في صراعهم مع العالم بأسره، بوصفها العزاء الوحيد لهم في هذه الظروف. (لن نناقش هنا هل كان ذلك "صحيحا" أم لا). غير أنه كان هناك أيضاً، وفي الوقت نفسه، حركةٌ نافذة "معادية للنزعة العسكرية"، كاتحاد *"الوطن الجديد"* الذي أعيدت تسميته فيما بعد ليصبح *"رابطة حقوق الإنسان"*، وكان في قيادته كل من **إنشتاين، وبرنشتاين، وياكوبسون** ناشر مجلة *"فيلتبيونه"*، والصحفي **توخولسكي، وكورت آيسنر، وهنريك مان، وكا تي كولفيتس، وماكس ديسوار** المقرب من **راتيناو**... وآخرون. وكانت هذه المنظمة تدعو كل ألماني لأن يدرك في أعماق روحه ذنْب الألمان تجاه فرنسا. فكان هذا التيار عُرضة لأن يكتسيَ بسهولة بالغة بصبغة معاداة الألمان (مثلاً، عندما اتهمت مجلة *"فيلتبيونه"* الحكومة بأن الجيش يعيد تسلُّحه سراً، وهو بذلك ينتهك *اتفاقية فرساي*). ولكنْ، غالباً ما كانت تتكشّف تحت ستار معاداة النزعة العسكرية *رغبةٌ* صريحةٌ بالاستهزاء، على طريقة **هاينه وبيرنه**، من "الألمان البلداء". وعلى

سبيل المثال، كانت صحيفة *"برلينر تاغيبلات"* التي أسسها **موسّي** (أتينا على ذكر هذه الصحيفة مراراً) تنشر على نحو منتظم في ملحقها *"أولْك"* مقالات هجائية بقلم المحرر **توخولسكي** (الليبرالي المتطرف الذي أعلن أنه "يخرج" من اليهودية)، باسمٍ مستعار هو **تيودور تيغِر** ، يستهزئ فيها بالضباط ويزدريهم، وصولاً إلى الدعوة "لتجريدهم من رتبهم!". وبلغ به الأمر حداً جعل وزير الحربية الديمقراطي الاشتراكي **نوسكه** مرغماً على اللجوء إلى القضاء. إلا أن لسان حال *الحزب الديمقراطي الاشتراكي "فورفيرست"* (ومحررها **كوتّنر**) لم تساند رفيقها في الحزب **نوسكه**، بل ساندت **توخولسكي**.

نشرت مجلة تصدر في إسرائيل باللغة الروسية تأ ملات الفيلسوف الإسرائيلي المعروف **شموئيل بيرغمان** ، وجاء فيها:

"إن دورنا في الدياسبورا (الشتات) هو دور الطفيليات . ولنأخذ مثلاً أولئك اليهود الذين عاشوا وأبدعوا في *ألمانيا* عشية الحرب العالمية الأولى وبعيدها مباشرة . لعلّه كان لهم، بل لا شك في أنه كان لهم، دور م حفّز ما في الثقافة الألمانية . ولكنْ، إذا ما تكلمنا عن تعبير الأمة عن ذاتها، الأمة اليهودية، وعن إسهامها في الثقافة العالمية، فـإن النتيجة الإجمالية لنشاطهم كانت، كما يبدو لي، سلبية . ويبدو أنه يمكن قول الشيء نفسه بخصوص دورنا في *أمريكا* اليوم، وإن كنت غير خبير في هذا المجال.

من الصعب أن تشرح ذلك كله لإنسان لم يعش في تلك الحقبة . فثمة مجلات، مثل *"تاغيبوخ"* العائدة إلى **شفارتسشيلد**، و*"فيلتبيونه"* العائدة إلى **ز. ياكوبسون**، كان اليهود يمارسون على صفحاتها بانتظامٍ حقنَ "العدمية والعُصاب في دم الشعب الألماني . أجل، لقد أتقن اليهود التنبه إلى الكثير من الأشياء . ونظراً لانعدام روح المسؤولية لديهم كان بوسعهم أن يبيحوا لأنفسهم السخرية من أية جوانب سلبية في الحياة الألمانية، ومن سِ لْك الضباط الألمان، والبورجوازية الألمانية، ونمط الحياة الأسرية . كان بمقدورهم أن ينشروا على الملأ ما هو منفرِّ من طباع الألمان . لقد بدأ ذلك كله منذ زمن بعيد، منذ أيام **هاينه** . وذات مرة كتب **أفيناريوس** (محرر مجلة *"كونستفورت"* التي لعبت دوراً كبيراً في صيرورة *كافكا* كاتباً) يقول: "إن اليهود هم إداريو الأدب الألماني ". وكان هذا حقيقة... زِد على ذلك، إذا ما تكلمنا عن اليهود الألمان والتشيك آنذاك، أن "دورهم" شجعهم على الإحساس بالتفوق والغطرسة إزاء الشعب ا لذي من حولهم ؛ بينما لم يكن لهذا الإحساس أي أساس إطلاقاً ، فقد كانوا في واقع الأمر مدينين بوجودهم نفسه لما قام به هذا الشعب من عمل بدني وروحي. ومن المثير للفضول أن *ألمانيا* شهدت أيضاً في تلك الفترة نشوء وتطور أدب ألماني صِ رف لم يكن اليهود يقرؤونه بالمرة . وكان هذا الأدب يتحدث عن حياة الفلاحين التي لم تكن تهم اليهود البتة. وعلى هذا النحو كان ثمة ما يمكن اعتباره أدبين ألمانيين: ذاك الذي يهم اليهود، وذاك الذي يتجاهلونه . أما أن يمتلك اليهود في ذلك الوقت العديد من كبريات الجرائد ودور النشر، وبذلك يتحكمون إلى درجة معينة بتطور الأدب الألماني ، فقد كان ظاهرة غير صحية ، وخطيرة".

ويتوصل المؤلف إلى استنتاج شديد الصرامة ، إذ يقول: "... وعلى العموم ، فإن إسهام اليهود كان له تأثير عدمي (كما في الأدب الأميركي اليوم، حسب ظني) وكان فيه شيءٌ ما طفيليٌ يتعذر التقاطه".

وحقاً، فإن ذلك يبدأ من **هاينه** الذي كان من جملة ما كتبه على سبيل المثال:

الحمار الكبير الذي كان لي والداً
كان من بلدة وسْط ألمانيا،
وأمي الحنون كذلك أرضعتنا
حليب حمير من الألمان.

راحوا يوحون للألمان أنهم قطيعٌ من الحمير خطيرٌ على الجيران ، لأنهم قادرون، بحكم بلادتهم، أن يدوسوا البشر الطبيعيين . بهذه الأوصاف كانوا يقذفون مَن هو أكثر الشعوب الأوروبية الغربية نبوغاً ، ذلك الشعب المقاتل، القوي الشكيمة، الأبيٌّ إلى حد تعظيم الذات. ومن الجلي الآن، بل ومنذ ذلك الحين كان بوسع المرء أن يتنبّأ به من غير ما عناء، أن هذا النهج من السلوك ما كان يمكن إلا أن يفضيَ إلى إحدى نهايتين : فإما أن يقصم ظهر الألمان نهائياً ، وإما أن يدفعهم نحو المقاومة في محاولة جنونية، قانطة . وقد تحقق الحل الثاني، وكان ذلك، على ما يبدو لي ، واحداً من العوامل الجوهرية، وإن لم يكن العامل الوحيد، التي أنجبت الاشتراكية القومية (النازية) الألمانية.

وقد أضيفت إلى هذه المشاعر فضائح مالية لا تنتهي، وكانت كفّة الأسماء اليهودية فيها هي الراجحة أيضاً . إذ ضجت *ألمانيا* كلها بقضية السمسار **يوليوس بارمات** ، التي نظرت فيها المحكمة عام 1925، حتى صار اسمه مضرِب الأمثال . وأصدر **راديك** ، مثلاً ، كراساً بعنوان *"الديمقراطية الاشتراكية البارماتية "* كتب فيه عن "السماسرة البولونيين – اليهود – الهولنديين – الألمان" الذين كانوا ، على حد قوله، وثيقي الارتباط على نحو خاص بالديمقراطية الاشتراكية، في حين كان **شتريزيمان** يعتمد على الاتحاد الاحتكاري التابع لـ "اليهودي الروسي **ليتفين**".

وبالطبع، فإن جميع البلدان التي ألحِقت بها الهزيمة في الحرب العالمية الأولى ، وليس *ألمانيا* وحدها، عاشت في سنوات ما بعد الحرب زمناً شديد الصعوبة، مليئاً بالخراب والانتفاضات . إذ أُعلن عام 1919 عن قيام ***جمهورية هنغاريا السوفيتية*** في المجر ، التي ظهرت إلى الوجود من حطام الإمبراطورية النمساوية – المجرية. وقد أشير أكثر من مرة إلى مشاركة اليهود المدهشة (من حيث عدم تناسبها مع مجمل عدد السكان) في قيادة تلك الجمهورية. يقول أو.إ. **ليفين:**

"اعتماداً على المعطيات التي يقدِّمها عالِم الاجتماع الهنغاري المعروف **أوسكار ياسّي** اليهودي الأصل (ولم يفارق الدين اليهودي رسمياً، إ ذا لم أكن مخطئاً) الذي شغل منصب وزير الأقليات القومية في الحكومة الثورية الأولى قبل الحكومة البلشفية، إبّان ما يسمى مرحلة **كاروليا** الموافقة عندنا لمرحلة الحكومة المؤقتة ، فإن عدد اليهود القادة في الحركة البلشفية وصل إلى 95 بالمئة. وتحاشياً لسوء الفهم ، يحسُن بنا أن نضيف أيضاً أن **ياسّي** ليس من *"المائة السود"* [١٢] إطلاقاً، بل هو ينتمي إلى مجموعة راديكالية جداً، وناضل طول حياته في سبيل

---

[١٢] تعود تسمية "المائة السود" إلى جماعة كان يقودها **كوزما مينِن** دفاعاً عن الدين المسيحي في روسيا عصر "الفتنة"(1584- 1613). وفي سنوات الثورة الروسية الأولى (1905-1907) تشكل تحت راية "المائة السود " عدد من الأحزاب والمنظمات المتفرقة، الكبيرة والصغيرة، المؤيدة للحكم القيصري، شارك فيها أصحاب مراتب دينية عالية، و تعاطف معها أعلام كبار، مثل : العالم الشهير **دميتري ميديلييف** ، والرسام **فيكتَر فاسنيتسوف** ، والفيلسوف **ف. ف. روزانوف**، وزوجة **دوستويِفسكي** وابنته... وقد اتهمت تلك الجماعات بارتكاب عدد من عمليات الاغتيال السياسي يعدُّها الشيوعيون من

حق الانتخاب للجميع، والإصلاح الزراعي، وطالب بالقضاء على الملكيات الكبيرة للأرض، وبحق المساواة بين القوميات، وإقامةِ نظام ديمقراطي، وهو مضطر الآن، في ظل حكومة **هورتي** الرجعية، للعيش في المهجر".

على أن ثمة معلومات إضافية يتضم نها كتاب **زومبرت** الذي سبق ذكره . إذ يستند **زومبرت** إلى بحث كتبه تلميذ له باللغة المجرية اعتماداً على وثائق تلك الفترة. يقول **زومبرت:**

" في هنغاريا عام 1919 كان كل القادة الأساسيين يهوداً : **بيللا كون ، بوغاني ، صموئيلي ، كورفين – كلاين، كونفي، لوكاتش.** ومن بين 33 مفوضاً شعبياً عضواً في المجلس الحاكم كان ثمة 24 يهودياً، فيما شغل التسعة الآخرون غيرُ اليهود مواقع أقل تأثيراً (كانوا مفوضين لشؤون الأقلية الأوكرانية أو الألمانية...إلخ.".

ثم يورد المؤلف معطيات تفصيلية نكتفي باقتطاف بعض الأمثلة النموذجية منها:

"مفوضية الشعب للشؤون الحربية : من أصل سبعة مفوضين هناك ستة من اليهود ، ومن أصل 52 رئيس قسم هناك 39 يهودياً. مفوضية الشعب للشؤون الداخلية : كلا المفوضَين ونائباهما من اليهود . مفوضية الشعب للمالية : المفوضون الثلاثة وكل نوابهم من اليهود . مفوضية الشعب للتعليم : المفوضون الخمسة يهود ، ومن بين27 رئيس قسم هناك 21 يهودياً. مفوضية الشعب للزراعة : مفوض واحد يهودي (طبيب)، واثنان مسيحيان (راعٍ وبنّاء). مجلس الاقتصاد الوطني: أربعة مفوضين يهود، واثنان مسيحيان (عاملان).

وفي عام 1922أجرى **وايزمن** مفاوضات مع وزير الخارجية الإيطالي **السنيور شانتسير** "الذي ربما كان من أصل يهودي"، (وكان **لوزاتي** رئيس الوزراء آنذاك يهوديا أيضاً). وهاكم مشهداً دراماتيكياً للغاية من حياة إيطاليا بعد الحرب يقدمه ر. **ميخِلس.**

في عام 1920 نشأ وضعٌ حرج ، يعيد إلى الأذهان الوضع قبيل الثورة . فقد كان العمال يستولون على المصانع ، ويحتلونها مدة شهر أحياناً، وكانت تتشكل فصائل عمالية مسلحة . آنذاك تمكنت الحكومة من عقد لقاء بين أرباب العمل والعمال على المستوى الوطني ، فتسنّى تفادي الأزمة. ولكنْ، مَن اجتمع مع من ؟ لقد مثّل أربابَ العمل سكرتيرُ اتحاد أرباب العمل **أوليفتي** اليهودي، فيما مثّل العما ل **تيراتشينو** من *تورين*، **وبرونو ليفي** من *جَنوة*، والاثنان يهوديان . وهذا في إيطاليا التي لم يكن بين سكانها آنذاك، وعددهم 39،5 مليون نسمة ، إلا 50 ألف يهودي فقط.

2 – نحو الحرب الثانية

في إنكلترا، وتطويراً للتقليد الذي ابتدأ مع **دزرائيلي** ، شرغل اليهود مناصب رفيعة في الدولة . وعلى سبيل المثال، فإن ابن **يوسف آيزيك** ... الفيكونت، البارون، اللورد، الماركيز **ريدينغ** كان كبيرَ القضاة، ونائبَ ملك *الهند* ووزيراً للخارجية. ولم يكن **هربرت صموئيل** زعيماً للحزب الليبرالي وحسب، بل وكان أيضاً المفوضَ السامي في *فلسطين* التي تحوَّلت بعد الح رب إلى "منطقة تحت الانتداب " الإنكليزي. وقد ظلَّ يشغل هذا المنصب من العام 1920 حتى العام 1925. وفي عام 1914، عندما سعى **وايزمن** لعقد صلات مع الحكومة البريطانية

أكثر القوى الرجعية ظلامية ... عشيةَ ثورة 1917 أقنع بعض المقربين من العرش القيصرَ **نيقولاي الثاني** بخطورة هذه الجماعات التي يعميها التعصب القومي، فأدار إليها ظهره. أمّا الثورة الشيوعية فقد منعت تلك الجماعات من العمل وقضت عليها دونما رجمة. – م.

حول استيطان اليهود في *فلسطين*، قيل له: "إن لديكم يهودياً في الحكومة"، وأشاروا إلى **هربرت صموئيل** . وخلال فترة إدارة **صموئيل** في *فلسطين* تضاعف عدد سكانها اليهود مرتين . وكان **ستيوارت**، شقيق **هربرت صموئيل** ، كما سبق أن ذكرنا أعلاه، قد أُوفِدِ إلى *بولونيا* لكي يتأكد من أن اليهود لا يتعرضون هناك لمضايقات.

وكانت قد بدأت منذ العام 1920 صدامات ضارية بين المستوطنين اليهود وسكان *فلسطين* الأصليين شارك فيها آنذاك فصيل نظَّمه **جابوتينسكي** الذي حُكِم عليه جرّاء ذلك بالسجن مدة 15 سنة. ولكن سرعان ما أصدر **صموئيل** عفواً عن **جابوتينسكي**، بيد أن الأخير رفض العفو لأنه يشمل عرباً كانوا قد أدينوا أيضاً . وعندئذ أعيد النظر بالحكم الصادر بحقه ، ثم أُلغيَ. ومن الطريف أن **وايزمن** في حديثه عن هذه الصدامات يصفها دونما تردد بأنها *"بوغروم"* ، وكذلك صدامات العام 1929. ويتحدث **وايزمن** عن "عملية *بوغروم* في القدس ". وهو يتحدث، فيما يتعلق بـ *روسيا* ، عن وقوع "أعمال *بوغروم* أودت بحياة الآلاف"، في حين أن عدد الضحايا في أضخم الصدامات هناك لم يتعدّ بضع عشرات من القتلى . وهذا يعني أن **وايزمن** يقترح عملياً اعتبار أعمال *البوغروم* في *روسيا* ما بين عامي 1902 و1906 نظيراً للصدامات العربية- اليهودية المتأخرة (وإن كانت هذه في شكل أضعف بكثير).

لقد شهدت الولايات المتحدة الأميركية قصة دراماتيكية كان بطلها شخصاً واسع الشهرة . والمقصود هو **هنري فورد** ، أحد أكبر رجالات الصناعة في الولايات المتحدة الأميركية أوائل القرن العشرين . لقد كان شخصاً واسع الاهتمامات والأهواء، فحاول تحقيق السلام في فترة الحرب العالمية الأولى، وكانت لديه أفكاره الاقتصادية . وقد دعا **فورد** إلى فكرة "التعاون الطبقي" في ظل الرأسمالية، وإلى فكرة "الرأسمالية الشعبية". وفي الحقيقة جاء نجاحه في صناعة السيارات التي تحمل اسمه تجسيداً لتلك الأفكار ذاتها . وكان مبدؤه يتلخص بإنتاج (وبيع) عدد كبير من السيارات بأسعار مقبولة، "بحيث يكون بوسع كل مزارع امتلاك سيارته الخاصة". كما أن العمال في مصانعه كانوا يتقاضون أجوراً أعلى (على الأقل، هذا ما كان يؤكده هو)، واستفادوا من جملة امتيازات اجتماعية . وكان شراؤه صحيفةً في موطنه الأصلي، مدينة *ديربورن*، بالقرب من *ديترويت* ، حيث كان مركز مصانعه ، أحدَ جوانب نشاطه المتعدد الوجوه . وكانت صحيفة *"مستقل من ديربورن "* هذه (ولعل اسمها ينطوي على تورية ما) تتناول مختلف قضايا الحياة الاجتماعية المعاصرة ، وخاصة في الولايات المتحدة الأميركية . وقد نشرت هذه الصحيفة، على وجه الخصوص، في الفترة الواقعة ما بين 1920 و1922، جملةً من المقالات المكرسة لتأثير اليهود على شتى جوانب الحي اة الأميركية . وفيما بعد نشر **فورد** كتاباً حول موضوع *"اليهودية العالمية "* (وصنّف هذا الموضوع كـ *"بحث في المسألة اليهودية"*)، ومجموعة كبيرة من المواد تحت عنوان *"النشاط اليهودي في أميركا"* .

وصاغ المبدأ التالي:

"إننا لا نناضل ضد الناس، بل ضد المبادئ، المبادئ الباطلة، التي تستنزف قوى الشعب الحيوية المعنوية . إذ إن هذه المبادئ تنبع من مصدر يسهل كشفه، وتنتشر بأساليبَ يهون التدليل عليها ، ويمكن وضعُ حدّ ٍ لها عبر إماطة اللثام عنها . فعندما يعرف الناس طبيعة ومنبع المؤثرات التي تسيط ر عليهم يكون ذلك كافياً بحد ذاته".

ومما كتبه **فورد** :

"في سياق الردّ على القول بأن اليهود ينشطون ككلّ ٍ واحد، يجيبون بأن المستر **كاهان** واحد من أكبر المحافظين النافذين . **وروزا باستور ستوكيس وموريس هيلكويست** راديكاليان، وأن الزعيم النقابي **صموئيل هومبريس** ذو ميول محافظة، وخصمه ذو النفوذ الكبير **سيدني هيلمان** راديكالي. وفيما يتعلق "بالوسط الليبرالي" فإنه هو وشخصياته من أمثال **براندسمان، وماك، وفيلكس ، وفرانكوفورتر** ، يقدم اللوحة ذاتها . إلا أن ذلك يعني بكل بساطة أن تلاوين الحياة الاجتماعية الأميركية كافة ترزح تحت تأثير اليهود**!**".

ويحدثنا **فورد** عن تجربته الشخصية فيقول:

"كانت كتاباتي هذه تتعرّض لمنع منظَّم منذ لحظة ظهورها في الصحافة . فقد كان البريد ، والبرق، والدعاوة الشفهية تعمل كلها في اتجاه واحد هو الصراخ بصدد كل مقالة من مقالاتي واصفين إياها بالتحريض . كان يمكن أن يُخَيّلَ ، للوهلة الأولى ، أن في هذه المقالات تهجماً على شعب لا حول له ولا طَول ، ويستحق الرثاء، إلى أن أصبح واضحاً في نهاية المطاف أن صراخ الاستغاثة هذا ممهور بخاتَم أُولي الأمر. إذ كان الدليل على ذلك ظاهراً بجلاء من خلال الموارد المالية لأولئك الذين يحتجون، وعددِ أعضاء الاتحادات التي طالبني رؤساؤها غاضبين بأن أتبرَّأ من كل ما نشرتُه في الصحافة . على أن فكرة المقاطعة هي ما كانت تخفيه في أعماقها هذه الضجة كلها. فالتهديد بالمقاطعة هو السبب في أن تخفق في *أميركا* حتى الآن جميع المحاولات الرامية إلى تعرية المسألة اليهودية بأكثر الطرق براءة".

كان المصير نفسه بانتظار **فورد** شخصياً أيضاً. فقد اضطُر في العام 1927 للتبرؤ من آرائه **(**في رسالة إلى زعيم اليهود الأميركيين **مارشال)**، بل وحتى لإحراق كتابه أمام الملأ.

كثيراً ما كانت الأعمال التي نشرها **فورد** ساذجةً وضعيفةَ الحُجَّة. فهو، على سبيل المثال، يعير أهمية كبيرة جداً لـ *"بروتوكولات حكماء صهيون"*، ولفكرة *المؤامرة* عموماً. وهذا ليس بالأمر الغريب . إذ يرى **فورد** أن النفوذ اليهودي في *الولايات المتحدة الأميركية* بدأ يتجلى منذ زمن الحرب الأهلية، أي منذ أن وُلِد هو شخصياً على وجه التقريب. إن المجتمع غير قادر خلال هذه الفترة القصيرة على أن يعيَ كل تعقيدات الوضع الذي اصطدم به**:** فالمؤلفون لا يعكسون إلا شعوراً مشوَّشاً بالخطر، وهم مستعدون للاكتفاء بتفسيرات سطحية نسبياً . غير أن مصير **فورد** نفسه كان الدليل الأشدّ نصاعة بما لا يقاس، إذ ما أعظم القوة التي كان لا بد من وجودها لكسر جبروت إمبراطوريته الصناعية**؟**

بعد نهاية الحرب العالمية الأولى ظهرت في العالم كله حركاتٌ معاديةٌ لليبرالية تطرح فكرة الدولة القومية والتعاونية في مواجهة مفهوم الدولة الديمقراطية البرلمانية . وبعد أن وصلت الحركة الفاشية إلى السلطة في إيطاليا عام 1922 صارت هذه القوى جميعها تسمى بالفاشية . وقد وصلت هذه القوى إلى السلطة في عدد من البلدان: *إيطاليا، هنغاريا، رومانيا، النمسا، ألمانيا، إسبانيا، البرتغال* . إلا أن تيار الاشتراكية القومية الألمانية كان القوة الفعلية الوحيدة القادرة على أن ترسِّخ أقدامها على النطاق العالمي. ورغم أنه اقتبس كثيراً من التيارات الفاشية الأخرى، وكانت تجمعه معها قواسم مشتركة كثيرة، فقد كان ، على ما أظنّ ، ظاهرة فريدة تماماً ، لا يمكن فهمها إلا بالرجوع إلى خصوصيات الأيديولوجيا الألمانية ، والوضعِ في *ألمانيا* بعد الحرب العالمية الأولى . لقد أثار ظهور هذه القوة التاريخية الجديدة مخاوفَ لدى الديمقراطيات الغربية **(***فرنسا، إنكلترا ، الولايات المتحدة*

الأميركية)، ولدى *الاتحاد السوفيتي* على حدٍّ سواء. وعندها جرت محاولة لتوحيد الجهود في الكفاح ضد النفوذ الفاشي الذي كان آخذاً بالتوسع . على أن هذه الم حاولة التي لم يكتَب لها النجاح آنذ اك، قد تحققت لفترة من الزمن، من عام 1941 إلى 1945. وفي إطار هذه السياسة تحديداً انضم *الاتحاد السوفيتي* عام 1934 إلى *عُصبة الأمم*، وراح يروّج هناك على الدوام "لسياسة الأمن الدولي".

وقد شارك في أعمال *عُصبة الأمم* آنذاك **ناحوم غولدمان** (وإن كان من الصعب أن نفهم من هي الدولة التي كان يمثلها في ذلك الوقت؟). وهو يقول في مذكراته عن تلك المرحلة:

"قبل اندلاع الحرب كان معظم الدبلوماسيين السوفيت يهوداً".

وبمزيد من التحديد يضيف:

"زار **ليتفينوف** (وزير الخارجية السوفيتية يومها . – م) ذات مرة *جنيف* مع 14موفداً كان من بينهم 11 يهودياً. فسألت الوزير : ما حاجتكم إلى كل هذا الكنيس؟ (يستخدم **غولدمان** مصطلحاً يهودياً آخر لا أعرفه ، يعني جالية دينية يهودية)".

فردَّ **ليتفينوف** بأن اليهود يتقنون لغات أجنبية (ولكن المثقفين الروس الذين بقوا آنذاك على قيد الحياة يتقنون تلك اللغات؟)".

هذه الحادثة لم تكن الوحيدة من نوعها. فعندما نشبت الحرب الأهلية في *إسبانيا*، على سبيل المثال، كان دعم *الاتحاد السوفيتي* للمعسكر الجمهوري، المعادي لـ **فرانكو**، تحت إشراف قادة من أصل يهودي حصراً . فقد كان س. ب. **أوريتسكي** في تلك الفترة رئيساً ل لاستخبارات العسكرية، وكان الجنرال **شتيرن** (الملقَّب **كليبر**) كبير المستشارين العسكريين، وكان الجنرال **سموشكيفيتش** في الطيران خصيصاً، كما كان **صلوتسكي** (باسمٍ مستعار هو **ماركوس**) مسؤولاً عن عمليات التطهير، وخاصة القضاء على *الحزب الشيوعي* في *كاتالونيا*. وكان سفير *الاتحاد السوفيتي* في *إسباني هو* **روزنبيرغ، مثلما كان أورلوف (فيلدبين)** عميلاً مقيماً ، وكان **ماتي زالكا (فرانكل)** آمراً للفوج الأممي الثاني عشر يعمل تحت اسم **لوكاتش**؛ وكان **إرنبورغ وكولتسوف (فريدلياند)** من كبار رجال الدعاية. وباستثناء **أنطونوف – أوفسيينكو** الذي كان قنصلاً فـي *برشلونة*، لا أعرف في *إسبانيا* أثناء الحرب الأهلية، اسمَ رجل سوفيتي مؤثر واحد إلا وكان يهودياً.

لقد تبنّى المؤتمر السابع لل*كومنترن* في العام 1935 سياسة "الجبهة الشعبية"، فاقتضى ذلك تخلياً عن النظر إلى الاشتراكيين الديمقراطيين غير الشيوعيين وكأنهم "اشتراكيون فاشيون" وعدوٌّ أساسي. وعندئذ انتصرت "الجبهة الشعبية" في فرنسا عام 1936. وتولّى رئاسة الحكومة **ليون بلوم**، وهو نفسه من أتينا على ذكره (انظر الفصل التاسع) في إشارة إلى تحيّزه المتمثل في تنصيب أبناء جِلدته أساساً في المواقع القيادية للحزب الذي يقوده (وإن كان **بيرديايف** يصفه، في مقالة كتبها بعد الحرب العالمية الثانية، بأنه "واحد من أكثر رجالات *فرنسا* شرفاً، ومثالية، وثقافة"). وعلى أية حال ، فإن سياسة "الجبهة الشعبية" لم تحظَ بالنجاح، ولم تعمِّر حكومتها في *فرنسا* إلا مدة تقل عن سنتين.

أخذ وضع اليهود في *ألمانيا* يتغير نحو الأسوأ بعد وصول **هتلر** إلى السلطة، وذلك لأن مبدأ معاداة اليهود كان يلعب دوراً أساسياً في إيديولوجيته . وسرعان ما نظم المؤتمرُ اليهودي الأميركي، عقب وصول **هتلر** إلى

السلطة، عملية مقاطعة للبضائع الألمانية، بينما دعا المؤتمر اليهودي العالمي إلى مقاومة *ألمانيا* بكل الوسائل، ما دعا الصحف الأميركية إلى القول : "لقد أعلنت *يهودا* الحرب على *ألمانيا* ". وأقرت *ألمانيا* قوانين *نورنبيرغ* الشهيرة التي سدت أمام اليهود (مع بعض الاستثناءات) فرص الوصول إلى عدد من المهن، كأن يكونوا ضباطاً، أو أساتذة في الجامعات والمعا هد العليا، أو أطباء... إلخ. فأدى ذلك إلى هجرة واسعة، ولا سيّما بين المثقفين اليهود أساساً. غير أن الوضع، كما يبدو، لم يكن قد اتخذ طابعاً دراماتيكياً بعدُ. وقد كتب مؤرخ ألماني، نراه شديد الحذر في مثل هذه الحالات، لأنه معاصر لنا، يقول:

"بعد صدور قوانين *نورنبيرغ* عاش اليهود بضع سنوات هادئة نسبياً. لقد كانت هجرتهم تلاقي التشجيع، فيما شقّ عدد كبير ممن بقي منهم (في *ألمانيا* .– م) سبلاً متنوعة في الحيا ة تتمتع بقدرة مدهشة على البقاء ... ففي الاقتصاد لم يتغير وضع اليهود تقريباً ، وفي القوانين المتعلقة بالحياة الاقتصادية غالباً ما كان ت تظهر تواقيع رجال المصارف اليهود إلى جانب توقيع **أدولف هتلر**".

إلا أن التحول الكبير حدث في أعقاب ما يسمى بـ *"ليلة الكريستال"* التي تسبّب بوقوعها قيام اليهودي البولوني **غرينشبان** في العام 1938 باغتيال **فون رات**، السكرتير الثالث للسفارة الألمانية في *باريس*. على أن هذه الحادثة لم تكن الأولى . ففي العام 1936 لقيَ زعيم منظمة فاشية أجنبية في *النمسا* مصرعه على يد **دافيد فرانكفورتر**. لقد كان الوضع يومها شبيهاً بالوضع في *الولايات المتحدة الأميركية* في أيامنا بعد العمليات الإرهابية يوم 11 أيلول / سبتمبر 2001، حيث كان على الدولة أن تجد ردّاً على أعمال إرهابية تستهدف مواطنيها. وقد ردّت *ألمانيا* الهتلرية بتنظيم عملية *"ليلة الكريستال"* التي جرى خلالها تحطيم عدد كبير من متاجر اليهود، وإحراق بعض الكُنُس . وقد تعرض اليهود للتنكيل ، فقتل بضع عشرات منهم ، وطال الاعتقال عشرات آلاف اليهود، ثمّ أُخليَ سبيلهم في أغلب الحالات بعد تقديم تعهد بمغادرة *ألمانيا*. زِدْ على ذلك أن **هتلر** قال في كلمة له أمام *الرايخستاغ* بعد عامين من ذلك، أي بتاريخ 30 كانون الثاني / يناير 1939، إن الرأسمال المالي اليهودي إذا ما أشعل حرباً عالمية فستكون النتيجة "إبادة العرق اليهودي في *أوروبا* ". ولمّا كانت الحرب قد اندلعت، ووجّه **هتلر** الاتهام غير مرة إلى الرأسمال المالي اليهودي بأنه هو "من أشعل الحرب"، فإن كثيرين يرون في عبارة **هتلر** هذه إشارة إلى وجود خطة لديه منذ ذلك الحين *"لحل المسألة اليهودية حلاً نهائياً"* يتلخّص بتصفية سكان *أوروبا* اليهود جسدياً.

في العام 1939 اندلعت الحرب بين *ألمانيا* من جهة، وتحالف *إنكلترا، وفرنسا، وبولونيا*، من جهة أخرى . وفي العام 1941 انجرّ إلى هذه الحرب كل من *الاتحاد السوفيتي، والولايات المتحدة الأميركية، واليابان*. وبذلك غدت حرباً عالمية حقاً.

لقد تعرض اليهود أثناء الحرب لملاحقات قاسية من قبل النظام الاشتراكي القومي (النازي). وما من شكّ في أن الإبادة طالت عدداً كبيراً من اليهود. وأنا شخصياً على ثقة من ذلك، ليس بناء على المراجع المتوفرة بقدْر ما هو استناداً إلى القصص التي سمعتها في أعقاب نهاية الحرب . فقد روى لنا سكان مختلف المناطق السوفيتية التي كانت محتلة، ممن لا توجد أية أسس للشك بأنهم يبالغون، أن السلطات الألمانية أعلنت عن تنظيم قوائم بأسماء اليهود، وأن مجموعات معينة كانت تقوم بترحيلهم. ثم لم يعُد أحد يسمع عنهم شيئاً. وبعد الحرب سميت

إبادة مجموعات كبيرة من يه ود *أوروبا الشرقية* بـ *"الهولوكست"* (وهو مصطلح تصعب ترجمته، ويبدو أنه من أصل إغريقي قديم، ويعني على وجه التقريب "الموت حرقاً"). كما ويُستعمل أحياناً مصطلح "**الكارثة**". وقد خُصّ هذا الموضوع بمكتبة كاملة . على أنه لا يُنكَر على الشعوب الأخرى أنها تعرّ ضت في تلك الفترة للكارثة أيضاً ، ولكن هذه الكلمة تكتب عندئذ، وعلى نحو ذي دلالة، بالحرف الصغير . وهذا التشديد على العذابات التي عاناها اليهود تحديداً، بوصفها ظاهرة من نوع خاص تماماً، إنما يمثّل مساساً ما بالشعور الأخلاقي . إذ هيهات أيضاً أن يكون ما تكبَّده البولونيون، والصرب، والبيلوروس من خسائر قابلاً للإحصاء الدقيق، وذلك يعني أن تلك الخسائر كانت كارثة قومية بالنسبة لهذه الشعوب أيضاً . ومع أن عدد اليهود الذي لقوا حتفهم كان يُذكَر في البداية كرقم "تقريبي"، إلا أنه استقر فيما بعد ليشار في معظم الأ حوال إلى أنه "ستة ملايين ". ورغم أن محاولات بعض الباحثين الرامية إلى مناقشةَ هذا الرقم لقيت مقاومةً ضاريةً، فثمة جملة من الحُ جج التي تؤيد هذا المسعى "الهرطقي ". إذ يتضح، انطلاقاً من اعتبارات عامة ، كما يخيّل إليّ ، أن ما يزعمه المنتصرون في الحرب من حقائقَ من هذا القبيل يكون تقديره مضاعفاً عدة مرات دائماً . لقد كان جميع من يمسكون بزمام السلطة في المرحلة الأولى التي أعقبت نهاية الحرب، أصحاب مصلحة في تهويل وصف فظائع *ألمانيا الهتلرية* ضد اليهود بأكبر قدر ممكن من البلاغة. ويأتي في طليعة الجميع اليهودُ أنفسهم الذين سعوا دائماً للظهور بمظهر من هو موضع "ملاحقة أبدية ظالمة "، ولذلك فإن الردّ بالقول : "إذاً، فأنت تؤيد آراء **هتلر** "، ما يزال حتى أيامنا هذه الاعتراض الأكثر فعالية ضد محاولة تقويم دورهم تقويماً واقعياً . كذلك كان في وسع السلطة الشيوعية في *الاتحاد السوفيتي* أن تشير إلى فظائعَ لا تحصى ارتكبها النظام الهتلري الذي أنقذت العالم منه، وذلك لكي ترغم من يحتجون ضد إقامة هذه السلطة (الشيوعية) في *أوروبا الشرقية* على التزام الصمت . وأخيراً ، هناك الديمقراطيات الغربية التي كانت صحافتها خاضعة لأقوى نفوذ يهودي. وهكذا، ما كان لأحد في تلك السنوات أن يجرؤ على الاعتراض.

لذا، فإن من العسير للغاية أن توحي بالثقة تلك الأرقام "الدقيقة" عن "كارثة" اليهود، وإن كان مما لاشك فيه أن كارثة هائلة قد ألمّت بهم يومها (كما بالعديد من شعوب *أوروبا*). ويرجَّح أن تكون كارثة يهود *أوروبا الشرقية* شبيهة، من حيث اتساع مداها، بمصائب القرون الوس طى التي حلت باليهود في فترات "الموت الأسود "، أو انتفاضة "الرعاة". وأقول صادقاً إنني لا أفهم موقف أولئك الذين يجادلون في صحة هذا الرقم الذي أضفيت عليه صفة "القداسة"، وهو ستة ملايين يهودي أبيدوا على أيدي النازيين . فبعضهم ينفي وجود غرف الغاز، ولكنْ – حقيقةً – بماذا تَفْضُلُها رصاصةٌ تطُلَق على الرأس من الخلف؟ و ثمة آخرون يشكّكون بالرقم "ستة ملايين" بحدّ ذاته، ويؤكدون أن خسائر الشعوب الأخرى كثيراً ما كانت لا تقلّ مأساوية عن خسائر اليهود . على أن هذا التأكيد يبدو لنا محتملاً للأسباب التي تحدثنا عنها . ولكنْ، تُرى، ماذا لو تبين أن عدد القتلى *لم يتعدّ* المليونين، هل يلغي ذلك حدة المسألة؟ وفي جميع الأحوال، فإن شجاعة هذه المجموعة الصغيرة الملاحَقَة في كل العالم تبعث على الاحترام. إذ من الجليّ سلفاً أن هؤلاء المشككين ليسوا جميعاً ألماناً يحاولون نسيانَ مشهد مقيت من تاريخهم، والبرهانَ على أن الحرب كانت "حرباً عادية". فقد كان بين أوائل هؤلاء فرنسي اسمه **راسينيه**، قاتل في

صفوف المقاومة، ووجد نفسه جرّاء ذلك في معسكر اعتقال ألماني . ثم إن هؤلاء يناضلون، على كل حال، في سبيل الخلاص من الممنوعات المتراكمة، ومن أجل حرية البحث العلمي، وحرية الفكر الإنساني عامة.

من الطبيعي أن المأساة التي وقعت كان لها تأثيرعلى علاقة اليهود بالشعوب الأخرى، وسيبقى هذا التأثير حاضراً لزمن طويل.

يصعب علينا أن نتخيل تلك المعاناة المؤلمة والمضنية التي تثيرها في النفسِ اليهوديةِ ذكرياتُ المأساة التي اندلعت أيام الحرب . والتلميح إلى هذه المعاناة خيط ناظم لما كان ينشر في المجلة اليهودية غير المرخصة (*ساميزدات*) بعنوان *"اليهود في الاتحاد السوفيتي"* . وبالرغم من صدور أعداد كثيرة من تلك المجلة ، فإن إجراءات ما ، على ما يبدو ، لا تزال تُتَّخذ لكي تبقى هذه المجلة محصورة التد اول ضمن دائرة محدودة جداً من القراء . وعلى أية حال، فقد أتيح لنا الاطلاع على عددين فقط، نُشر في أحدهما (العدد 15، تموز – أيلول 1977) جزء من ترجمة عمل م . **إيلْنينْس** بعنوان : *"مشحونون بالغضب "* (البداية في الأعداد 9 – 13). وفيه يدور الحديث حول تأسيس منظمة *"دي.آي.إن" (دِينْ)* في *أوروبا الغربية* عام 1945 بهدف الانتقام من الألمان على الجرائم التي ارتكبوها بحق اليهود . وكان لدى هذه المنظمة عملاء في الإدارات العسكريةالتابعة لجميع الدول التي احتلت ألمانيا. فكان هؤلاء يزوِّدون المنظمة بالمعلومات ، والوثائق المزورة ، والملابس العسكرية. وكانت أول عملية قامت بها *(دين)* قد استهدفت منظمةً سرّيّة من المراهقين الألمان الذين أخفوا أسلحة في غابة، وكانوا يجتمعون في الليالي حول نار في تلك الغابة ومعهم الراية . وقد قتلوا خلال تلك العملية 140مراهقاً بالبنادق الرشاشة، والقنابل اليدوية. "... علامَ؟ سؤال يجب أن يوجَّه إلى أحد آخر غيرنا". ويلي ذلك وصف لعدد من هذه العمليات. "وقد أخذوا معهم **شفارتس**، ثم تركوه في الطريق مذبوحاً ...". "واستجوبوا **فيتسيل** مدة يومين ثم قتلوه غرقا"... إلخ. "كانوا يأتون بشكل سافر تماماً إلى بيت الشخص الذي يريدون القبض عليه ، أو يذهبون إلى مكان عمله، أو يوقفونه في الشارع هكذا بكل بساطة . وكان قائد المجموعة يُبرِز بِطاقتَه (وهي بطاقة مزوّرة زوّ ده بها عملاؤه في قوات الاحتلال)، ويبلغون الشخص أنه مدعو إلى المقرّ لإجراء تحقيق روتيني . وغالباً ما كان هذا كافياً. وإذا ما مانع الشخص كانو ا يضربونه على رأسه ويحشرونه في سيارة ". كانوا يَعِدون الألمان المختطفين بالإبقاء على حياتهم إذا ما وشوا بغيرهم من النازيين المتخفّين، ويهددون الشخص بأنه "إذا ما كذب فإن الموت تحت التعذيب بانتظاره ". وفي جميع الأحوال كانوا يقتلونه . لم يكن ذلك بالطبع ي تّفق مع قواعد لعبة الـ (كروكيت)، إلا أنهم أيضاً لم يكونوا يلعبون". "كانت طريقة القتل تتوقف على الظروف، ولكنها في الأغلب الأعمّ كانت القتل خنقا ". "حقاً، لقد علّموهم ، وكانوا في وقت من الأوقات مؤمنين بأن الذنْب لا يكون إلا م حدّداً، بين شخص وشخص . ولكنّ السنين علمتهم حقيقة أخرى ، ودماء ستة ملايين يهودي كانت تصرخ كاشفة عن واقع آخر ". "إن مئات الآلاف من الألمان شاركوا مشاركة مباشرة في إبادة يهود *أوروبا* . ذلك ما اقترفته أيدي شعب بأكمله، ولذلك كان يجب أن يكون ا لثأر معادلاً لحجم الشر المقترف ". "إذاً، راحوا يقتلون الألمان دون أن يعرفوا ما هو ذنبهم المحدد، كل ما كانوا يعرفونه هو أن هؤلاء البشر حملوا الموت والتعذيب للشعب اليهودي ". "وهم الآن يتذكرون ذلك بوصفه كان "أول مواسم الصيد ". لقد تعقبوا وقتلوا أكثر من مئة شخص . ولم ينجُ أحد ممن وقع في أيدي منظمة *"دين"* . وقد تسللوا ذات مرة، وهم في ملابس عسكرية مسروقة وبحوزتهم وثائق مزورة ، إلى

معسكر يُحتجَز فيه ضباط سابقون من قوات الـ *"إس. إس."* النازية، ووضعوا لغماً تحت البرّاكة. "فانهمرت أشلاء أجساد ساكني البراكة كالمطر على المعسكر كله ". إلا أنهم أحسّوا، في نهاية المطاف ، أن الأثر الذي تركه عملهم هذا لم يكن كافياً. "إن ما قام به الألمان بحق اليهود، كيهود، يقوم به هؤلاء اليهود من منظمة *"دين"* بحق الألمان، ولن يتركوا أسرة ألمانية واحدة سليمة من الأذى . وفي أواخر عام 1945 شرعوا بالعمل على وضع خطة *"توخشيت ألِف"* – الخطة ألِف– التي قرروا بموجبها قتل مليون ألماني".

ومن المؤسف أن نقرأ بعد هذا الكلام عبارة : "البقية في العدد القادم ". على أن هذا العدد ليس في متناول أيدينا. وهيهات، على كل حال ، أن يكون ضرورياً لنا. ومع ذلك، فإننا نأمل أ لا يكونوا قد قتلوا مليون ألماني ، غير أن هوّة الكراهية وانتصارها على المشاعر الإنسانية بيِّنة من تلقاء ذاتها. والقضية ليست في تصرفات هؤلاء المجانين البؤساء الذين أنجبهم كابوس نادراً ما تقوى على تحمُّ له النفس. غير أن ثمة من ألّف كتاباً عن ذلك، وضمّنه عبارات تبريرية ، ترجمنا بعضاً منها أعلاه. وثمة من رأى عام 1977 ضرورة تدعو إلى ترجمة هذا الكتاب، وإلى إطلاع "اليهود في *الاتحاد السوفيتي*" عليه.

وقد تجسدت هذه المشاعر عينها في ما اقتُرِحَ من خطط بشأن *ألمانيا* في فترة الحرب . ففي العام 1941 صدر في *الولايات المتحدة الأمريكية* كتاب ت. **كاوفمان** *"ألمانيا يجب أن تهلك"*، وفيه يقترح المؤلّف خطة لجعل الشعب الألماني كله عقيماً (غير قادر على الإنجاب). وفي أثناء الحرب قام **مورغينتاو** الابن، المستشار المقرَّب من **روزفلت**، بإعداد خطة تقضي بتقسيم *ألمانيا*، والقضاء على أية صناعة كبيرة فيها، بما في ذلك مناجم الفحم والمعادن، وتضييق فرص التعليم أمام الألمان، وتحويل *ألمانيا* إلى بلد زراعي أساساً ، يمدّ البلدان الأخرى بالعمال الزراعيين، وتقليص عدد السكان، وقيام قوات الاحتلال بفرض رقابة على الصحافة هناك . وقد حظيت هذه الخطة، على ما يبدو، بموافقة **روزفلت وتشرشل** في البداية، إلا أنها لم تطبَّق بعد الحرب، لأن الألمان غدوا ضروريين كحلفاء في"الحرب الباردة" التي بدأت آنذاك. ومع ذلك، فإن **مورغينتاو** نشر خطته في كراس مستقل (ومن غرائب الأمور أن هذه الخطة تتطابق في تفاصيلها مع ما يجري الآن في *روسيا*).

وإني لأضع في خانة المعاناة المؤلمة ذاتها تلك التأكيدات التي تكررت مراراً بأن شعوبا عديدة تتحمل هي الأخرى وزراً في عمليات إبادة اليهود الجماعية ، لأنها لم تعِ مجمل مأساوية ما جرى . أو النظرية التي تعدّ المحرقة – *"الهولكوست"* – من عواقب "معاداة السامية" المتنامية منذ زمن بعيد، وترى أن "معاداة السامية" نابعة من المسيحية التي حمّلتِ اليهود مسؤولية صلب **المسيح**. غير أن البولونيين لم يؤكدوا أن البشرية بأسرها مذنبة في ما لاقوه من عمليات إبادة جماعية على أيدي النازيين، وفي أن **هتلر** أعلن "نهاية الدولة البولونية إلى الأبد ". على أن هذه المشاعر، أياً كان مبعثها، تأخذ تعيش حياتها الخاصة فيما بعد.

إذ لا يستطيع شعب، له قضية مع الألمان، أن ينطلق من عقيدة معينة في تعامله معهم، ثم من عقيدة أخرى في تعامله مع العرب أو الروس. وإلا قد يكون بوسع أي "عدوّ"، أو حتى كل مَ ن "يعترض الطريق" أن يستدعي ردّ فعل كهذا، ولكن في صيغة أقل حدة.

وبهذا الشأن كتب الفيلسوف اليهودي الشهير **مارتن بوبر** في وقت لاحق يقول : "يتلخص الأثر الأشد وطأة من آثار الاشتراكية القومية (النازية) في كونها أصابت شعوباً أخرى بعدوى فلسفتها في العنف . وهذا الانتصار لـ "ما دون الإنساني" (Untermenshliches) على الإنساني لم يؤثر في شعب من الشعوب بالعمق الذي أثّر به في الشعب اليهودي...

لقد وعينا هذه المصيبة عندما شنت مجموعة مسلحة من اليهود هجوماً على قرية عربية. كان ذلك ذنْبًا ، كان ذنباً يهودياً ضد **الروح**. وتبين أن إيماننا بـ **الروح** كان غير كاف للصمود في وجه انتشار هذه التعاليم الشيطانية المشينة بين شعبنا بالذات".

مراجع الفصل الثاني عشر:

1 – Rathenau Walter. Impressionen. Leipzig 1902

2 – Arnim Otto. Die Juden in Kriegsgsellscaften. Munchen 1921

3 – Bosl-Franz-Hofman. Biographisches Worterbuch zur deutschen Gescichte.Munchen 1974

4 – Kom D.wer ist wer im Judentum.Munchen 1996

5 – Winger S. Grosse Judische Nationalbiographie. Ceranti 1925 - 1927

6 – كوماي د. مقامات الناس في تاريخ اليهود. لندن – موسكو، 1974، 1995

7 – Hayek F.A. the road to Serfdom. London 1943

8 – Baruch B. American Industry in the War. N-Y, 1941

9 – Baruch B. The Public Years. N-Y, 1960

10 – درابكين يا. س. ثورة نوفمبر في ألمانيا. موسكو، 1967

11 – Lehman H. Die Weimarer Republik. Munchen 1960

12 – Illustierte Geschichte der Deutschen Revolution 1918 – 1928, Berlin 1929

13 – Nolte Ernst. Der europaische Burgerkrieg 1917- 1945.Berlin 1987

14 – Revlution und Raterepublic in Munchen 1918-1919 in Augenzeugenberichten. Dusseldorf 1969

15 – Muller- Meiningen. Aus Bayerns schwersten Tagen. Berlin – Leipzig 1924

16 – Funck Bernhard. Der Judische einfluss in Deutschland. Munchen 1921

17 - Klatzkin Jakob. Probleme des modernen Judentums. Berlin 1930 (III Afl)

18 - Lungren – Nielsen K. The Polich Problem at the Paris peace Conference. Odnesee 1979

19 – شموئيل هوغو بيرغمان. التركيبة الاسرائيلية بين الانسانية والدين.// "22". تل أبيب، 1978

20 - ليفين أو. إ. في مجموعة "روسيا واليهود"، مرجع سابق (ورد في الفصل الأول).

21 - Sombart W. der Proletarische Sozializmus. (مرجع سابق ورد في الفصل التاسع).

22 - Weizman Ch. Trial and error. (مرجع سابق ورد في الفصل العاشر).

23 – Michels Robert. Sosialismus und Faschismus als politische Stromungen in Italien. Munchen 1925, Bd 2.

24 - ريد د. جدل حول صهيون. مرجع سابق ورد في الفصل الأول.

25 – Ford H. The International Jew. 1922

26 - Goldman N. (مرجع سابق ورد في الفصل الثالث).

27 - Reitlingen G. The Final Solution L. 1971

28 - Thion S. Verite historique ou verite politique. Le dossier de L`affaire Faurisson. Paris 1971

29 - Jewish Resistance in Nazi- Occupyed Europe. L. 1947

30 – إيلنيس م. "الحقد سقّاهم" // اليهود في الاتحاد السوفيتي (ساميزدات) الأعداد 9 -13، 15 -16 للعام 1977

31 - Kaufmann T. Germany Must Perish. N-Y. 1941

32 – Morgenthau H. Germany is our problem. N-Y.- L. 1945

33 – الفكرة الروسية واليهود , موسكو، دار " ناؤوكا " 1994

34 – Katz J. From Prejudice to Destruction. (مرجع سابق ورد في الفصل الرابع)

35 – Kohn H. Martin Buber. Koln 1965

الفصل الثالث عشر

في ظل النظام الشيوعي

1 . بناء الاشتراكية في بلد واحد

تشهد بلادنا الآن عملية إلغاء مُحْكَمةً لما تختزنه الذاكرة عن العلاقة الوثيقة بين الشيوعية واليهود ، علماً بأنه ما من أحد حاول إخفاء هذه العلاقة بأي قدْ ر كان، بل ظل يجري التأ كيد عليها فترةً طويلةً من الزمن . والمثال التالي يمكن أن تجده في أي من دواوين **مارغَريتا آليغِر** الشعرية:

نحن نبكي كثيراً، وكثيراً ما نـئِنّ

غير أن شعبنا، الذي اجتاز النار، نقيٌّ.

فليس عبثاً أن كلمة "يهودي"

مرادفةٌدائماً لكلمة "شيوعي" العظيمة المقدسة.

وبالرغم من أن هذه الأبيات تعاني من عرج نحْوي، فإن المزاج الذي تعبر عنه محددٌ بوضوح، إذ إن معادلة "بَلْشفي = يهودي" لم تكن تعتبر، في الوسط اليهودي تحديداً ، معادلةً "غبية" (كما قال **غوركي** ذات حين). لقد سبق وأوردنا في الفصل الحادي عشر من هذا الكتاب لوائح بأسماء أعضاء المكتب السياسي توفر الأساس للكلام عن دور اليهود القيادي في الحزب، وبالتالي في البلاد كلها . ولكن بعض التغيرات طرأت فيما بعد بشأن هذا المؤشر تحديداً، أي بشأن تمثيل اليهود في أعلى مستويات السلطة . ففي المؤتمر الرابع عشر، عام 1926، لم يكن في المكتب السياسي (المؤلف من تسعة أشخاص) سوى يهوديين هما **تروتسكي وزينوفييف** . وفي المؤتمر الخامس عشر (1927) لم يكن في المكتب السياسي أي يهودي ! وكان يتألف من **بوخارين، وفوروشيلوف، وكالينين، وكويبيشيف، ومولوتوف، وريكوف، ورودزوتاك، وستالين، وتومسكي**. وكذلك الأمر تماماً في المؤتمر السادس عشر (1930)، حيث لم يكن بين أعضاء المكتب السياسي يهودي واحد. ولكن فيما بعد صعد يهوديان جديدان من عداد مؤيدي **ستالين، هما كاغانوفيتش ومِخليس**. غير أن اليهود لم يبلغوا أبداً ، من حيث العدد، ذلك الوزن الذي كان لهم في السنوات الأولى بعد الثورة . ويعود سبب هذا المسار إلى الصراع الذي دار داخل الحزب، وإلى ظهور المعارضات التي كانت تدافع عن برامجها في المؤتمرات الحزبية.

وهنا تجلى ملمحٌ هامٌ جداً، وهو أن اليهود لم يتحركوا كقوة موحَّدة منسقة، بل كانت القوى اليهودية مبعثرة بين الكتل المتصارعة (ولكنهم في المقابل حافظوا على نفوذهم أياً كانت الكتلة المنتصرة). ومن الجلي كل الجلاء أن **تروتسكي وزينوفييف ورادِك** ، لو شكلوا بعد وفاة لينين جبهةً واحدةً، لكانوا أخضعوا الحزب لهم . ووَفقاً لرأي نظرية "السلطة اليهودية " فإن الانشقاق الذي وقع بين **تروتسكي وزينوفييف** في المؤتمر الثالث عشر كان

انتحارياً. وهذا ما يبين طابَع عمل "الجماعة اليهودية" في بلدنا ، وبالتالي خلال التاريخ كله على الأرجح . ولكن هذا لا ينفي حضور اليهود، ولا أهميتهم بالنسبة لمصائر الشعوب الأخرى. غير أن النظرية التي كثيراً ما يتكرر الحديث عنها ، والقائلة بوجود "مؤامرة عالمية " تدار من مركز واحد ("حكماء صهيون "، مثلاً)، هي نظريةٌ لا تنسجم مع الوقائع، ناهيك عن أنها تبدو ، وبقدْر كبير من الوضوح، فخاً منصوباً على درب أولئك الذين يحاولون استكناه الدور اليهودي.

إننا نميل إلى تصور أي جماعة تتمتع بوحدة عضوية ما، على غرار ما نتصور الإنسان الذي يصوغ أهدافه ويجد طرقاً لتحقيقها، وتخضع أعضاؤه لهذه الأهداف والدوافع الصادرة عن الدماغ (وربما عن الروح). غير أن بوسعنا، حتى لو اقتصرنا على المماثَلات البيولوجية ، سرد أمثلة أخرى على عضوياتٍ جدّ قادرة على الحياة. وعلى سبيل المثال، فإن الهِدرة (حيوان مائي متعدد الرؤوس . – م) لا تتمتع بدماغ ولا بنخاع شوكي، وخلاياها العصبية متوزعة في جسمها كله بهذا القدْر أو ذاك من التساوي . ولكنها قادرة على قذف السم نحو فريستها ، والقبضِ عليها ، وابتلاعها ، وهضمها ، وعلى ثني جسمها فـي الاتجاه الضروري . وإذا ما قمنا بتقطيعها إلى عدة أجزاء، فإن كل جزء منها يعود عضوية كاملة (هدرة) من جديد.

وإذا ما عدنا إلى تاريخنا ، يمكننا أن نلاحظ أن وزن اليهود في الحياة آنذاك لم يتدنَّ مطلقاً ، بالرغم من تفتُّت قواهم جرّاء الصراع بين الكتل، وتضاؤل مشاركتهم في قيادة الحزب العليا . ولقد أدى الصراع بين المعارضات في نهاية المطاف إلى أن الحزب (جزءه الأكثر فاعلية) رصّ صفوفه حول برنامج واحد، هو التجميع القسري للأملاك في الريف (الحملة التي قامت بها السلطة الشيوعية لتعميم النظام التعاوني الجماعي في الزراعة .. م)، وتوظيف مردود هذه العملية لنشر التصنيع . لقد قدمنا، في كتاب آخر لنا ، تعليلاً لوجهة النظر التي تقول إن التجميع القسري كان اللحظة الأكثر راديكالية وحسماً في التاريخ الروسي خلال القرن العشرين . ولقد لعبت القوى اليهودية في هذا الحدث المفصلي دوراً لا يقل عن دورها في الحرب الأهلية. على أن التجميع القسري كان ، على كل حال ، خاتمة الحرب الأهلية التي لم يتمكن الحزب الشيوعي من الانتصار فيها على الريف ، فاضطر إلى التراجع وانتهاج سياسة *"النيب"* (السياسة الاقتصادية الجديدة).

كان التجميع القسري عملية تحطيم هائلة للبنية الاجتماعية التي بقيت سليمة في *روسيا* من زمن ما قبل الثورة. ولم يكن من باب العبث أن يعرِّف **ستالين** هذه العملية بقوله إنها "الثورة الثانية"، "الثورة من فوق ". فقد تم في غضون بضع سنوات تدمير نمط الحياة الذي دام قروناً في الريف (كان الريف لا يزال يشكل 80 بالمئة من سكان *روسيا* عام 1929). وهذا النمط هو الاقتصاد القائم على العمل الفردي الأُسَري. ولقد تم إنجاز عملية التحطيم هذه باستخدام هائل للعنف . وليس ثمة ما يثير الاستغراب في أن الفلاحين ناضلوا ضد ذلك بكل ما تيسر لهم ، واندلعت آلاف الانتفاضات التي استُخدِمَ الجيش في قمعها . كما أعيد العمل بإجراءات زمن الحرب الأهلية ، وكان أعضاء المكتب السياسي يتلقون التقارير من جهاز "الإدارة الحكومية السياسية الخاصة " بشكل منتظم . وعندما أشرفت عملية التجميع القسري للأملاك في الريف على نهايتها كانت قد أسفرت في عام

1933عن مجاعة هائلة تعادل باتساع نطاق ها مجاعة عام 1923(ومثل هذا لم يحدث في روسيا منذ زمن *الفتنة*). وما يزال المؤرخون عاجزين حتى الآن عن تحديد عدد ضحايا هذه المجاعة ، فيما تراوح الأرقام التي يوردونها بين ثلاثة ملايين وسبعة ملايين إنسان.

لقد شارك الحزب كله، طبعاً، في تنفيذ عملية التجميع القسري ، وخاصة مستوياته العليا : **ستالين، ومولوتوف** وغيرهما. ولكن عدد الأسماء اليهودية في هذه العملية يبعث على الذهول . إذ كان **ياكوفليف (إنشتاين)** أحد منظمي عملية التجميع القسري الرئيسيين، فهو مفوض الشعب للزراعة في *الاتحاد السوفيتي* ، ومسؤول القسم الزراعي في اللجنة المركزية، ورئيس اللجنة التابعة للمكتب السياسي الخاصة بإعداد القرار المتعلق بوتائر عملية التجميع. وكان **كامِنسكي** رئيساً لمركز الكولخوزات، ثم خلَّفه **بيلِنسكي** في هذا المنصب . وكان **خينتشوك** رئيساً لمركز الاتحاد، ثم خلَّفه **زيلِنسكي** الذي كان **كيسين** نائباً له. وكان **كالمانوفيتش** رئيساً لتروست الحبوب . وكان **روزيت** رئيس القسم الزراعي لدى هيئة التفتيش والرقابة العمالية الفلاحية. وكذلك كانت تُوفد إلى المناطق الهامة لجان خاصة من المكتب السياسي، منها لجنةٌ برئاسة **مولوتوف** إلى *أوكرانيا* ، وأخرى برئاسة **كاغانوفيتش** إلى *شمال القوقاز* . وفي سياق "مكافحة التخريب" جرى اعتقال 15 ألف شخص في منطقة *كوبان* (أقليم *كراسنودار* حالياً، ومن مدنه منتجع *سوتشي* الشهير . . م) خلال هذه الفترة . وأصدر **مولوتوف** في *أوكرانيا* ومعه سكرتير اللجنة المركزية للحزب هناك، **خاتايفيتش** ، "أمراً" طالَبا فيه بـ "قمع العناصر الإجرامية في إدارة الكولخوزات والتنكيل بهم بلا رحمة ". وقبل ذلك عمل **خاتايفيتش** في تطبيق التجميع القسري في *منطقة الفولغا* ، يوم كان سكرتيراً للحزب في منطقة *وسط الفولغا* . ومرة أخرى توجه **كاغانوفيتش** بمهمة إلى *أوكرانيا*، ومن هناك أرسل برقية إلى **ستالين** يبلغه فيه باعتقال مدراء ثلاثة كولخوزات. (على البرقية حاشية بخط **ستالين** تقول: "حسنا **!**"). ومن *أوديسا* يبرق **كاغانوفيتش** (مع **باليتسكي**، رئيس الإدارة الحكومية السياسية الخاصة في *أوكرانيا*) بأن من الضروري ترحيل 500 أسرة من *أوديسا* إلى منطقة الشمال . وفي *كازاخستان* تولَّى تطبيقَ التجميع القسري **شايا غولوشكين** (سابقاً، منظم عملية اغتيال القيصر **نيقولاي الثاني** وأفراد أسرته). وكانت النتيجة أن تم القضاء على المواشي بالكامل تقريباً ، وفرَّ الكازاخيون الرحَّل إلى *الصين*، أو لاقوا حتفهم. وكانت حملة التجميع القسري في عموم البلاد تلقى الدعم "النظري" من قبل مجلة " *على الجبهة الزراعية* " التي كان **كريتسمان** رئيس تحريرها . وبالإمكان إيراد العديد من أسماء أشخاص أقل أهمية ممن سبق ذكرهم، مثل **أنتسيلوفيتش** ، و**فولف، ونوسينوف، ورايتر**... وكان هؤلاء كلهم قد شاركوا في تخطيط عملية التجميع القسري وتنفيذ ها. كما أن تواقيعهم تذيِّل القرارات التي أعطت صياغة محددة للتدابير التي اتخذت في مناطق معينة ، وفي مراحل معينة . وأسماء هؤلاء موجودة ضمن قوائم المشاركين في الاجتماعات التي خططت لهذه التدابير . ومن الطبيعي أن **مولوتوف، وأندرييف، وجدانوف، وأورجينيكدزه، وكالينين** قد شاركوا أيضاً مشاركة نشطة (على مستويات قيادية) في تطبيق التجميع القسري... أما القيادة الأعلى فكانت بيد **ستالين**. غير أن هؤلاء لم يكونوا ينتمون إلى أقلية إثنية ضئيلة الشأن (عددياً).

لقد تسنّى للحزب، في سياق عملية التجميع القسري ، تحقيقُ ما لم يتمكن من تحقيقه في الحرب الأهلية، أي القضاء على الفلاحين "كطبقة". إذ من الواضح أن تلك المهمة كانت صعبة تكتنفها المجازفة . ولم يكن عبثاً أن الحزب ظل يتردد، وعلى مدى ست سنوات (من المؤتمر الثالث عشر وحتى المؤتمر الرابع عشر)، قبل أن يُقْدِم على تطبيقها . ولكنه طبقها على وقع قمع إرهابي هائل سُ مِّي *"نزع ملكية الكولاك"*. فقد كانت حملة اعتقالات الفلاحين، وإرسالهم إلى معسكرات الاعتقال، ونفيهم إلى الشمال ، تسير بوصفها عملية ممركزة تخطط في اللجنة المركزية للحزب . وبناء على التقارير الرسمية وحدها يمكننا التثبت من نفي حوالي مليوني شخص (لقد تحدث **ستالين** أمام **تشرشل** عن عشرة ملايين من الكولاك). على أن تنفيذ كامل هذا الجزء من عملية التجميع القسري وقع على عاتق جهاز "الإدارة الحكومية السياسية الخاصة". ولعلنا واجدون هنا أيضا حشداً من الأسماء اليهودية أكبر مما كان في *"لجنة الطوارئ"* إبان الحرب الأهلية.

كان **يغودا** (يهودا) هو المشر ف الفعلي على عمل "الإدارة الحكومية السياسية الخاصة " في ظل رئيسها المريض **مينجينسكي**. وكان معسكر "بيلومورقنال" الأكثر شهرة من بين معسكرات الاعتقال المخصصة لاحتجاز الفلاحين المعتقلين. وهذا المعسكر هو مشروع شق قنا ة تربط بين البحر الأبيض وبحر البلطيق . وبإنجاز العمل في هذا المشروع مُ نِح وسامُ **لينين** (أرفع مكافأة آنذاك) للأشخاص (اليهود . – م) التالية أسماؤهم : **يغودا** ، **وكوغان، وبيرمان، وفيرين، وجوك، وفرنكيل، وفيرجبيتسكي** (على أن اسم **فيرجبيتسكي** أضيف لغايات تربوية، إذ كان "مهندساً مخرِّباً" خضع لإعادة تربية في المعسكر).

لم يكن من قبيل المصادفة أن ترد في *"الموسوعة اليهودية الموجزة"* التي صدرت في القدس بعد الحرب، مادّة *"معسكرات الاعتقال "* مشفوعة بصفة *"الألمانية"* بأحرف صغيرة، وذلك لكي لا يتذكر المرء معتقلات *"بيلومور قنال"* وكل *"الإدارة العامة لمعسكرات الاعتقال" (غولاغ)*.

كان لـ *"الإدارة الحكومية السياسية الخاصة "* أقسامٌ اقتصادية ، فضلاً عن أنها كانت توفد ممثلين مفوضين لمساندة عملية التجميع القسري . وعلى سبيل المثال، فقد وقَّع التعليمات المتعلقة بعملية التجميع في *حوض الفولغا* (دائرة *الفولغا الوسطى*) كل من سكرتير اللجنة الحزبية في الدائرة **خاتايفيتش**، والممثل المفوض لـ *"الإدارة الحكومية السياسية الخاصة"* **باك**، ومدير القسم الاقتصادي **برايفشنيغر** . وكان **بلات** رئيساً للقسم الاقتصادي في أوكراينا، و**بيلِنكي** ممثلاً مفوَّضاً في *آسيا الوسطى* ، **وكاروتسكي** في *كازاخستان*، **ورابوبورت** في *القرم، والأورال، وستالينغراد*. وشغل كل من (اليهود): **فاينشتاين ، وفايزاغر، وفولكوف (فاينر)،وغينكِن، وديتش، ويرشوف (لوريا)، وسلوتسكي، وتيزنبرغ** مناصب قيادية مختلفة في القسم الاقتصادي التابع للإدارة المذكورة . كما كان **فيلمان** مساعداً لرئيس ذلك القسم. أما أسماء الأشخاص الذين شغلوا مناصب في هذه الإدارة وكانت لهم علاقة غير مباشرة بالريف فهم : نائبا الرئيس **تريليسر وميسنغ** ، ونائبا مدير "معتقَل غولاغ" **بيرمان وبلينير** ، ومدير القسم الخاص في الإدارة **ليبليفسكي** ، ورئيس قسم العمليات السري في الإدارة الممثل المفوض **ديتش** ، ونائب مدير القسم الخاص **زالين** (الذي عيِّن فيما بعد رئيساً لمفوضية الشعب للشؤون الداخلية في كازاخستان)، ومدير

معسكرات الاعتقال ذات الأهمية الخاصة (وكذلك مشروع شق قنا ة بين نهري فولغا – موسكو) **كوغان** ...إلخ..إلخ. ويمكننا مواصلة سرد هذه القائمة الطويلة (من أسماء اليهود . – م)، إذ يكفي أن نتصفح وثائق تلك الفترة التي تنشر الآن بغزارة . فقد نشرت جمعية "*ميموريال*" مؤخراً دليلاً قيّماً بعنوان *"من قاد مفوضية الشعب للشؤون الداخلية 1934 – 1941"*، يرد فيه عرض موجز لسيرة حياة كل من مسؤولي هذه المفوضية من مختلف المستويات، مع الإشارة إلى أصولهم القومية . ويتضمن هذا ا لدليل أيضاً لائحة بالتركيبة القومية لـ "قمة القيادة". وبالرغم من أن الفترة التي يستعرضها الكراس (من عام 1934) تأتي متأخرة بعض الشيء عن مرحلة التجميع القسري، فإن المعلومات الخاصة بالفترة 1934 – 1936 يفترض ألا تختلف جوهرياً عما كان في السنوات السابقة، ذلك أن عملية تطهير"الأجهزة" لم تكن قد بدأت بعد. ونرى هنا ما يلي:

أواخر العام 1935 الروس 31،25 بالمئة، اليهود 38،54 بالمئة

أوائل العام 1936 الروس 30.00 بالمئة، اليهود 39،09 بالمئة

علماً بأن ذلك يقتصر، كما يتضح من نص الوثيقة، على تحديد قومية الأشخاص وفقاً لذكرها فـي الاستمارات الرسمية.

ولا بد من الإشارة أيضاً إلى أن عملية التجميع القسري تزامنت مع فترة التشديد الجديد لحملة اضطهاد الأديان، وخاصة الكنيسة الأرثوذكسية. حتى أن المكتب السياسي أصدر قراراً يقضي بالتلازم الزمني بين إغلاق الكنائس في القرى وتنظيم الكولخوزات. وقد تولى قيادة الحملة المناهضة للدين **ياروسلافسكي (غوبلمان)**، رئيس *"اتحاد الملاحدة المتشددين"*، وتم الإعلان عن *"الخطة الخمسية الإلحادية"* التي كان يجب أن تفضي إلى "عدم ذكر اسم الرب في بلادنا ". (وهذا ما تجدر مقارنته بفترة العشرينات ، عندما تولّى **تروتسكي**، ومساعدُهالمقرب **شبيتسبرغ**، قيادة الكفاح ضد الكنيسة الأرثوذكسية). وعندما زار **غوركي** ألمانيا في العام 1922 أجرى **شولوم – آش** مقابلة معه، وكان قلقاً جرَّاء ما يشاع عن "تعاظم معاداة السامية" في روسيا، فقال:

"يرى اليهود، كافة وبلا استثناء، أنه ستقع مصيبة عظمى من شأنها أن ت ؤدي إلى مذبحة فظيعة، فيما لو انتقلت السلطة، لا سمح الله، إلى أيد أخرى. ذلك أن نار معاداة السامية مضطرمة في روسيا كما لم تكن في أي وقت من الأوقات، ويكفي فقط أن تهتز القلعة البَلْشَفية ليسقط جميع يهود روسيا ضحايا لهذه النار".

وقد وافقه **غوركي** على هذا الرأي، وأضاف أن من العبث أن يشارك البلاشفة اليهود في تدنيس المقدسات الروسية:

"إن **الموجيك** الروسي مكّار ومتكتم . فهو يتصنَّع أمامك ابتسامة وديعة في الوهلة الأولى، ولكنه يُخفي في أعماق نفسه كراهية لليهودي الذي تطاول على مقدساته ... كان ينبغي على البلاشفة اليهود أن يت ركوا هذه

الأعمال للبلاشفة الروس ... فمن أجل مستقبل اليهود في روسيا يجب تحذير البلاشفة اليهود ، والقولُ لهم: ابقوا بعيدين عن مقدسات الشعب الروسي! فأنتم مؤهلون للقيام بأعمال أخرى أكثر أهمية".

ويضيف **شولوم – آش:**

"لقد لفتُّ انتباهه إلى أن البلاشفة اليهود لا تأخذ هم شفقة بالمقدسات الروسية ، ولا بالمقدسات اليهودية أيضاً ". فقال إنه يعلم ذلك، ويرى أن "مكافحة اللغة العبرية القديمة، والكُنس، ولا سيّما مسرح *"غابيما"* العبري القديم، أفضل مسرح في روسيا (!) (علامة التعجب للمؤلف. – م) ما هي إلا ضرب من البلاهة والهمجية".

(لم يقدِّم **غوركي** هنا نصائحَ من قبيل أن يُترَك ذلك للبلاشفة الروس).

ويرى **غوركي** أن السبب الثاني لمعاداة السامية هو ما يكنُّ ه الروس من حسَدٍ لليهود الذين يفوقونهم موهبة وأهلية للعمل:

"إن روسيا لا يمكن أن تبعث من جديد من دون اليهود، لأنهم القوة الأكثر موهبة ونشاطاً وطاقة".

إذا كان المقصود بـ "بعث روسيا من جديد " تعزيزَ السلطة الشيوعية (بما في ذلك التجميع القسري) فهذه ملاحظة تؤكدها الوقائع، إذ إن ما أسداه اليهود للسلطة الشيوعية من دعم ضروريّ ٍ ضرورةَ الحياة نفسها ، لأبعدُ بكثير من مجرد مشاركتهم في مفوضية الشعب للشؤون الد اخلية. لقد كان الدعم الإيديولوجي دعماً متعدد الجوانب، وعلى قدْر لا يقل أهمية. ولنأخذِ الأدب مثالاً حيث ظهر خلال العشرينات والثلاثينات أدب كامل يروِّ ج لما تقوم به السلطة، ويسعى لخلق جوّ ٍ روحي متوافق مع ذلك . فالتجميع القسري، ونزع ملكية الكولاك ، مثلاً، إنما مهَّد لهما تيارٌ أدبي عمل على غرس الكراهية حيال الريف والفلاح، بزعم أن ذلك كله يمثّل صورة *"روسيا القديمة"، و"راسيوشكا"* (الصيغة التحقيرية من كلمة *روسيا* . – م). وهذا التيار الأدبي الذي خدم السلطة كان بعيداً عن أن يتألف من اليهود وحدهم، كما أن اليهود لم يكونوا الوحيدين الذين خدموا في *"لجنة الطوارئ"*، وفي مفوضية الشعب للشؤون الداخلية . ولكنَّ ما يثير الدهشة في هذه الحالة أيضاً هو النسبة المختلَّة عددياً لصالح الأسماء اليهودية، وما اتصف به اندفاعهم من حمية صادقة العاطفة ظاهرياً للعمل في هذا الحقل . إن أولئك الذين كا نوا معروفين قبل الثورة، مثل **باسترناك وماندلشتام** ، غدوا من "أهل البيت " في صالونات علّيّة القوم السوفيتية – اليهودية. أما ممثلو الأدب الروسي فكان لهم مصير آخر. فقد كان **ماياكوفسكي** يتحرَّق شوقاً للسير في الطريق ذاته ، إلا أنه لم يُطِق صبراً . وتغرَّب **غوركي** في المهجر عشر سنوات، ثم عاد (الأمر الذي أعتقدُ أنه يُعْزَى، ولو جزئياً، إلى كراهيته المَرَضية للريف والفلاح. ثم إن عودته تزامنت مع "التجميع القسري"). كذلك عبّر **يسينِن** آنذاك، في ملاحمه عام 1918، عن شعور القيادات الشيوعية العليا، أولئك الذين "اقتحموا السماء"، وأعادوا بناء العالم : بناءَ منطقِ ("ديالكتيك ")، بل و عِلمَ جمال (استطيقا) العنف والإبادة . غير أن الجانب الاجتماعي من شعره، بعد هذه المرحلة المعزولة، كان كله أنينَ ألمٍ لا ينقطع . وكيفما فسَّرنا أسباب موت **يسينِن** ، يظل واضحاً أنه كان عاجزاً عن أن يبقى في تلك الحي اة (فقد رُفِع ضده، مثلاً ،عدد من الدعاوى

القضائية، ربما ثماني، بعضها بتهمة "معاداة السامية " التي كانت عقوبتها في تلك الأيام الإعدام رمياً بالرصاص). أما **أخماتوفا، وتسفيتايفا**، ومن باب أَوْلى **غومِليوف** و**كلويِف**، فلم يصيروا "شعراء سلطة". ولكن جيلاً جديداً دخل مجال الأدب بعد الثورة. وظل **بولغاكوف وبلاتونوف** من بين أبناء ذلك الجيل ملاحقين مدى حياتهما (وإلى حدّ بعيد من قبل أشخاص يهود)، **وبافل فاسيلييف** الذي كان مصيره الإعدام . ولئن كان **شولوخوف** يحظى بعطف السلطة، إلا أن روايته *"الدون الهادئ"* لا يمكن بحال من الأحوال وصفُ ها بالعمل الأدبي الموالي للسوفيت. أما لماذا طبعوها (مع كامل الحقوق) فهذا، كما يبدو لي، *"أحجية* **شولوخوف***"* حقاً.

وعلى الجانب الآخر كان ثمة سيل عارم من الأسماء اليهودية متباينةِ المستوى من حيث المواهب وحتى القدرات، وكان هؤلاء يخدمون السلطة بغيرة وحماسة. ومنهم مثلاً: **جاك آلتاوزن، وأليغِر، وبابل، وباغريتسكي، وبيزيمنسكي، وبيل – بيلوتسيركوفسكي، وغروسمان، ودانِن، وإيلف، وإسباخ، وكافيرِن، وكازاكيفيتش، وكيرسانوف، وكرون، ومندلشتام، وباسترناك، وريباكوف، وسفيتلوف، وسيريبرياكوف، وسيلفينسكي، وصلافِن، وأوتكِن، وشاتروف، وشينِن، وياسينسكي**. ولفترةٍ طويلة كان **آفِربوخ** "مفوضهم السياسي ". ومن المدهش هنا كيف يتآلف الحب الصادق للسلطة وما صنعته يداها مع الشعور القومي الشديد . على أن هذا الحب وهذا الشعورلا يتآلفان وحسب، وإنما يتوحدان . (أبيات الشعر العائدة ل. **أليغِر** التي أوردناها أعلاه ، وزيارة الحاخام المؤثرة عند المسؤول السياسي **بابل**، وأنشودة **أوتكِن** *"موتِل الأمغر"* ... إلخ). ولعلنا نجد التعبير الأجلى عن هذا التوحد عند واحد من أكثرهؤلاء موهبة ، وهو **باغريتسكي** الذي أحسّ، وبرهافة تبزُّ رهافة الآخرين، روحَ نشوةِ ما كانوا يأملون أنه يجري، أي إعادة تفصيل العالم كله وفق إرادة أصحاب السطوة في الحياة الجديدة، والتغير التام للإستطيقا والأخلاق من أجل ذلك:

إذا قال لك: "اكذب!" فلتكذب،

وإذا قال لك: "اقتل !" فلتقتل.

والجميع يعرفون أبياته هذه:

كان الوسخ يمتصّ عظامهمُ الغضة،

والخنادق تنغلق فوقهم،

وكان التوقيع على حكم الإعدام يتلوّى

نافورةَ دم من رأس اخترقه الرصاص.

من الطبيعي أن أية سلطة (ولا سيّما سلطة بهذا الجبروت !) تجتذب حشود العامة المستعدين لخدمتها (بعضهم خوفاً، وبعضهم من كل ضميره). ولقد كان بين هذه الحشود كثيرون من الروس، وخاصة أولئك الذين خلقوا هذه الإستطيقا الجديدة للتدمير والإعدام رمياً بالرصاص. وها هو **ماياكوفسكي** يقول:

ما إن تقبضوا *على رجل من الحرس الأبيض حتى تعدموه!*

أما رافائيل فقد نسيتموه، ونسيتم راستريللي...

وبنوع من العيّ ينتقل الإعدام إلى اللوحات والمباني. وكان هناك أبيات شعر لأحدهم تقول إن "الإنسان مولود للإعدام رمياً بالرصاص"، ولكنها أبيات طواها النسيان. أما **بَغريتسكي** فقد شغل بحقٍ مكانة الأديب الكلاسيكي في هذا التيار . فهو في آخر ملحمة كتبها قبل وفاته، بعنوان *"شباط"*، يتحدث عن اغتصاب فتاة روسية . وفيها تأكيد قوي على الشعور القومي لدى "البطل الغنائي":

" كبريائي اليهودي كان يصدح

مثل وتر مشدود حتى النهاية...

ثم بعد ذلك فقط:

فانطرحتُ.

دون أن أخلع جزمتي، أو أنزع القِراب...".

على أنه ليس صحيحاً على الإطلاق أن ملحمة مكتوبة بهذه الحماسة كانت "شعراً غنائياً محضاً" لا يعبر إلا عن انفعالات مؤلفه. ومن الجلي أنها وصف رمزي لما كان يجري في البلاد، كما يتصوره الشاعر.

واللافت أن الكتاب الذي صدر فيما بعد (1973) يتضمن ذكريات عدد من معاصري الشاعر تتمثل هذه الروحَ على نحو يزداد جلاء كلما كانت أقرب زمنياً إلى تلك الأحداث. يقول أ. **آداليس** (عام 1935):

"نحن ننتمي إلى جيل لم يكن مضطراً لمعاناة الخيبة . حقاً لقد غدونا "المتحكِّمين" و"المنتصرين" و"المالكين" لسدس الكرة الأرضية ... وقد كان **إدوارد بَغريتسكي** ينتمي لجيل المنتصرين وطبقتهم. وكل ما أنجزوه يخصه أيضاً".

ويقول **بابل:**

"أجدني أفكر بأن فردوس المستقبل، الفردوسَ الشيوعي، سيكون مؤلفاً من **أوديسيين** (أبناء مدينة *أوديسا* . م) يشبهون **بَغريتسكي**".

حقاً، كان الأوديسيون يشكلون الجزء الأكبر من هذا التيار . وقد سبق لي أن لفتُّ الانتباه ، في واحد من مؤلفاتي القديمة، إلى أنَّ كتب **إيلف وبيتروف** التي حظيَت بتلك الشعبية الهائلة، كانت سخريتها أبعد ما تكون عن البراءة . ونقول، إذا ما تكلمنا بلغة شيوعية ، إن هذه الكتب "كانت تلبّي حاجة اجتماعية "، أو إنها، بمصطلحات أكثر حداثة، نزعت الصفة الإنسانية عن ممثلي فئات المجتمع "القديمة" والدخيلة، من نبلاء وضباط سابقين ورجال دين؛ أي أنها صورتهم على نحو يجعل " تصفيتَهم" لا تحرّك أي مشاعر إنسانية . وبعد مدة من الزمن صدر كتاب علمت منه أن تخميناتي كان لها ما يؤكدها بقوة. يقول **بيتروف**، مثلاً:

"كنت أُجري تحقيقات، نظراً لعدم وجود محققين قضائيين . وكانت القضايا تحال فوراً إلى المحكمة العسكرية . لم يكن ثمة قوانين، وكانت الأحكام تطلق ببساطة: "باسم الثورة...".

على أن نطق هاتين الكلمتين، كما يذكّرنا مؤلف الكتاب، كان يعني الإعدام رمياً بالرصاص.

ويتذكّر **سلافين**، وهو كاتب من "التيار" نفسه، صديقَه **إيلف** فيقول إن **إيلف** أهدى صديقه كتاباً مذيَّلاً بكلمات الإهداء التالية: "إلى الرائد في أمن الدولة من الرقيب في الأدب الرفيع".

ولكنّ كل ما قيل أعلاه لا يتعدّى مجال الأدب حصراً . في حين كان ثمة " تيارات " مماثلة، سواء في الصحافة (**إهرنبورغ، وزاسلافسكي، وغروسمان، وتشاكوفسكي، والأخوان فريدلاند : كولتسوف ويفريموف**)، أو في فن السينما الذي وصفه **لينين** بأنه "الفن الأشد أهمية بالنسبة لنا من بين جميع الفنون " (**زارخي، وكابلر، وكارمن، وروم**)، بل وفي كثير من المجالات الأخرى.

2- في بلد الاشتراكية

ثمة تصور عن مصير اليهود في بلادنا إبان الثورة وبعدها واسعُ الانتشار ، ويكاد يكون موضع إجماع عام . ويمكن أن نقع على هـ ذا التصور في أعمال أشهر المتخصصين الغربيين بالشؤون السوفيتية، وفي الصحافة والبرامج الإذاعية الغربية، وفي وسائل إعلامنا أيضاً . ويجري التعبير عن هذا التصور في معظم الأحيان وكأنه معروفٌ للجميع، ثابتُ البرهان، غنيٌ عن أية حجج. وهو يقوم على الأركان التالية:

1- كان اليهود في روسيا قبل الثورة مهانين ومظلومين، مقيدين بـ " نطاق الإقامة "، و"قانون النسبة "، ومهددين دائماً بأعمال العنف (*بوغروم*).

2- حررت الثورة اليهود ومنحتهم المساواة في الحقوق، فشاركوا مشاركة فعالة في العمل على صعيد الدولة والثقافة.

3- وبدءاً من أواخر الثلاثينات أخذت النزعات الأممية في سياسة الحزب والدولة السوفيتية تتراجع تدريجياً أمام النزعات الروسية القومية المتعصبة . ويعزى ذلك إلى وصول **ستالين** إلى السلطة . فتغيَّر وضع اليهود

أيضاً، إذ راحوا يتعرضون لعملية إبعاد من مواقعَ عديدة في جهاز الحزب والدولة . وبعد نهاية الحرب أخذت السلطة تنتهج سياسة معادية للسامية بشكل سافر، بلغت أوجَ ها في *"قضية الأطباء"*. وأُعدّت ترتيبات لترحيل اليهود جميعاً إلى *سيبيريا*، ولم يحُل دون ذلك إلا سبب واحد هو وفاة **ستالين**.

4 – بعد وفاة **ستالين** انتقلت السلطات إلى انتهاج سياسة أكثر حذراً، ولكنها منهجية في معاداة السامية . واستمرت هذه السياسة حتى انهيار النظام الشيوعي. وكان اليهود آنذاك الأمة الأكثر عُرضة للتمييز في الاتحاد السوفيتي، فلم تتطور ثقافتهم القومية، وكانوا دائماً عُرضة للتمييز في أماكن عملهم، وازدادت العراقيل التي كانت تواجه أولادهم في الطريق إلى التعليم العالي، وتقلصت هجرة اليهود على نحو تعسفي.

لقد رأينا أن البندين الأولين بعيدان غاية البعد عن لوحة التاريخ الموضوعية. أمّا البندان الأخيران فهما أيضاً مثال باهر على مهارة اليهود في فرض وجهة نظرهم، وتلقينها للآخرين، مهما تضاربت مع الحقائق.

وفي ما يتعلق بالفترة التي تناولناها من قبل (بداية الثلاثينات)، فإن الوقائع التي أوردناها تتحدث عن نفسها بنفسها. ومع أن الجدل حول آجال تطبيق عملية التجميع القسري الشاملة، دار على أعلى مستوى، بين **ستالين ومولوتوف وكويبيشيف من جانب، وبوخارين وريكوف وتومسك** ي من جانب آخر، فإن نهج التطور المتّبع آنذاك كان واضح الانسجام مع ميول اليهود، وإلا لَ ما شاركوا تلك المشاركة النشطة في تطبيقه، بل إن السلطة أيضاً ما كانت لتدع ممثلي أقلية مستاءة، أو حتى غير متعاطفة، يشغلون مثل هذه المناصب الهامة.

كان من المحتمل، طبعاً ، أن تبرز بعض الأسئلة بعد ذلك بقليل، في النصف الثاني من الثلاثينات، عندما تتالت أثناء المحاكمات الاستعراضية أسماء معروفة لقادة الحزب من اليهود، الواحد بعد الآخر : **زينوفييف، وكامينيف، وراديك، وروزنغولتس، وياغودا**... كان بالإمكان أن تبرز الأسئلة، ولكن ما يثير الاستغ راب أنها لم تبرز. وهذا غريب جداً إذا ما أخذنا بعين الاعتبار تحسس اليهود الدائم، وميلهم لأن يروا في كل شيء اضطهاداً لهم. وعلى سبيل المثال، ظهرت في روسيا أواخر ثمانينات القرن العشرين جمعية *"الذاكرة"* (*بامِت*). من الصعب الآن أن نتذكر تلك الضجة التي بدأت آنذاك ف ي العالم كله لفضح "تصاعد العداء للسامية " و"خطر أعمال الترويع". بل وقد صدر أيضاً قرار خاص عن المجلس الأوروبي يطالب بحظر جمعية *"الذاكرة"*. وذلك مع العلم بأن هذه الجمعية لم تمارس أي تأثير على الحياة (باستثناء أنها قدمت ذريعة لإثارة هذه الضجة). وهذا أمر في غاية الوضوح الآن، بعد مُضيّ عشر سنوات، بل وكان من السهولة بمكان تبيُّ ن الحقيقة آنئذ، فيما لو توفرت الرغبة. وفي الثلاثينات، تم إعدام كل أعضاء المكتب السياسي اليهود (باستثناء **تروتسكي** الذي نجا مؤقتاً)، وكان ثمة ما ينبغي التمعن فيه !.. هذا في حين لا أعلم ، أنا على سبيل المثال، بتوجيه أية اتهامات إلى قيادة الاتحاد السوفيتي بـ "معادة السامية ". (وذلك إذا لم نأخذ بالحسبان أن **تروتسكي** اتّهم **ستالين** بالعداء للسامية، ومعه **بوخارين** ! هذا الأممي الذي طالما سعى للنأي بنفسه عن جذوره القومية ! لقد كان الاتهام محاولة جلية لاستخدام أي سلاح ممكن في الصراع الدائر).

ومن الواضح أنه كانت ثمة أسباب ما، وعلى وجه الخصوص ، وراء عدم طرح هذا السؤال الموجع . ويرجع السبب في ذلك، طبعاً ، إلى الدور الأساس الذي لعبه الشعور العام بالرضا لدى اليهود السوفيت عن وضعهم الاجتماعي الذي صار، بطريقة ما، معروفاً في العالم كله. وقد انعكس هذا الشعور بجلاء ساطع في كتاب الكاتب اليهودي الألماني **فيختفانغر** *"موسكو 1937"*. وكان هذا الكتاب بمجمله دفاعاً عن نظام الاتحاد السوفيتي آنذاك ومديحاً له، وكذلك عن مسألة المحاكمات الاستعراضية التي كانت تثير قلق الغرب.

يتضمن هذا الكتاب ع ناوين فرعية يبرز على الهوامش منها : *"رضا اليهود "، "حل المسألة اليهودية "، "الفلاحون اليهود"، "المثقفون اليهود الشباب"، "الروح القومية اليهودية في الاتحاد السوفيتي".*

وفي الباب الأخير من هذا الكتاب يخبرنا المؤلف بما يلي:

"تتميز الروح القومية عند اليهود السوفيت بإلهام يقظٍ من نوع ما . ولقد كان مؤشراً إجماع اليهود الذين قابلوني على تأكيد اتفاقهم التام مع نظام الدولة الجديد".

ويتضمن الكتاب فصلاً كاملاً بعنوان *"القومية والأممية"*، ولكنه في الأساس مكرس للمسألة ذاتها.

والسبب الآخر هو القوة المتعاظمة لألمانيا الهتلرية . فقد كانت دعاية الاتحاد السوفيتي كلها تبث كراهية متأججة إزاء الفاشية، متضامنة في هذا مع موقف المؤتمر اليهودي العالمي (الذي دعا، كما سبق وأشرنا أعلاه، إلى النضال ضد ألمانيا).

وأخيراً، فإن المشهد التالي يعدُّ مؤشراً هاما: كانت *" وكالة الأنباء اليهودية "* تعمل في الاتحاد السوفيتي، إبان العشرينات والثلاثينات "بشكل مستقل عن وكالة *"تاس"* الرسمية، وكانت تبث أخبارها عن الاتحاد السوفيتي إلى العالم كله. وفي مقابلة أجرتها هذه الوكالة مع **ستالين** عام 1931 حول "معاداة السامية"، هذه المسألة النابضة بالحياة أبداً، قال:

"إن الشوفينية القومية والعرقية هي من مخلفات طباع الكراهية للإنسان التي تسِ م مرحلة أكل لحوم البشر . ومعاداة السامية، بوصفها شكلاً متطرفاً من أشكال الشوفينية العرقية، هي أكثر مخلفات مرحلة أكل لحوم البشر خطراً... إن القانون في الاتحاد السوفيتي يفرض عقوبة بالغة الص رامة على من يعادي السامية بوصف ذلك ظاهرة عميقة العداء للنظام السوفيتي. ونشطاء معاداة السامية جزاؤهم في الاتحاد السوفيتي عقوبة الإعدام".

ليس ثمة، من حيث المبدأ، أي جديد في هذ القول، إذ يقتصر على تكرار الموقف المألوف ل لتضامن بين السلطة السوفيتية واليهود . (ربما باستثناء المقارنة الغريبة بعض الشيء : معاداة السامية – أكل حوم البشر . أيعقل أن ثمة من يفترض أن أعداء السامية كانوا يأكلون اليهود؟). ومن اللافت أن هذه المقابلة لم تنشَر آنذاك في الصحافة السوفيتية، ولو أنها، ولسبب ما، نُشرت في صحيفة *"برافدا"* بعد خمس سنوات من ذلك، في العام

1936. وفي العام نفسه نقرأ في تقرير **مولوتوف** حول الدستور الجديد، بتاريخ 30 تشرين الثاني / نوفمبر، ما يلي:

"مهما قال أكلة لحوم البشر المعاصرون من مُعادي السامية الفاشيست، فإن مشاعرنا الأخوية نحو الشعب اليهودي يحددها كونه أنجب **كارل ماركس** المبدع العبقري لفكرة التحرير الشيوعي للإنسانية، والذي كان على دراية علمية بأرفع منجزات الثقافة الألمانية، وثقافةِ الشعوب الأخرى؛ وكون الشعب اليهودي قد أعطى، على قدم المساواة مع أكثر الأمم رقياً ، العديد من رجالات العلم والتقنية والفن، أعطى العديد من أبطال النض ال الثوري ضد اضطهاد الكادحين في بلادنا، وقدم ويقدم المزيد من القادة والمنظِّ مين الجدد الرائعين الموهوبين في كافة فروع بناء الاشتراكية، وفي الذود عنها".

إن تكرار مصطلح "أكْل لحوم البشر " غير المألوف تحديداً يعطينا المبرر للافتراض بأن هذين التصرفين : نشر تصريح قديم لـ **ستالين**، والالتفاتة المفاجئة إليه في كلمة **مولوتوف**، قد جاءا عمداً في العام نفسه . وكانا معاً ضمانة من القيادة الشيوعية التي كان عليها تهدئة الشكوك التي أثارها عدد اليهود الكبير بين ضحايا التطهيرات آنذاك . ويبدو أن هذه التطمينات كانت من الكثرة بما يكفي . وهنا نقع على سمة خاصة من سمات التضامن اليهودي العالمي: إن مصالح بعض الأفراد (وأحياناً مصالح عددٍ منهم كبيرٍ جداً) تُقدَّم بسهولة ضحية لمصلحة "الجماعة". وعلى الشاكلة نفسها لم يكن الفتى اليهودي **غرينشبان** الذي قام في باريس بقتل الدبلوماسي الألماني **فون رات** (ولا من كان يقف وراء مثل هذه الاغتيالات) مهتما كثيراً بما سيكون عليه انعكاس ذلك على اليهود الذين يعيشون في ألمانيا. ثم إننا سنصادف هذه الظاهرة لاحقاً.

لقد استمرت الصلة بين الحزب الشيوعي واليهود عبر سبل دقيقة من هذا النوع. وقد تجسدت في الحياة فعلاً . وإليكم، على سبيل المثال، كيف يصف ر . **كونكويست** (هذا النصير المتطرف والمخلص لآراء الليبرالية !) قيادة مفوضية الشعب للشؤون الداخلية عام 1937 في كتابه المعروف *"الإرهاب الكبير"*، قائلاً: كان **ياغودا (يهودا)** مفوض الشعب للشؤون الداخلية ونائبه **آغرانوف (سورنزون)**، **وبيرمان** رئيس *الإدارة العامة لمعسكرات الاعتقال*، **وميرونوف (كاغان)** رئيس القسم الاقتصادي ، **وباوكر** رئيس قسم العمليات، **وغاي (شتوكلاند)** رئيس القسم الخاص، و**صلوتسكي** رئيس القسم الخارجي (نائباه: ب. **بيرمان**، و**شبيغلغلاس**)، **وشانين** رئيس قسم النقل.

وكانت توجد في الجيش مجموعة مؤثرة من ا ليهود، فمن بين الجنرالات الذين عيِّ نوا مجدداً كان **ياكير، وفيلدمان، ود.شميت** . وكان **سموشكيفيتش** قائد القوى الجوية، **وغامارنيك** مدير الإدارة السياسية للجيش الأحمر، ثم شغل هذا المنصب **مِخليس** (وقبل **غامارنيك** شغله **سيرغ ي إيفانوفيتش غوسيف = ياكوف دافيدوفيتش درابكين**).

وكان وزن اليهود في المستويات العليا لجهاز الدولة كبيراً جداً. ففي عِداد مفوَّضي الشعب أواسط الثلاثينات كان كل من : م. **روخيموفيتش** (للصناعة الحربية)، ول.م. **كاغانوفيتش** (للمواصلات)، وم.م. **كاغانوفيتش**

(لصناعة الط اﺋرات)، و**روزنغولدتس** (للتجارة الخارجية)، و**غلينينسكي** (للصناعات الغذائية)، **وبيرمان** (للاتصالات)، و**خاليبسكي** (للاتصالات)، و**فايتسر** (للتجارة الداخلية)، و**آنتسيلوفيتش** (لصناعة الأخشاب)، **وزيلينسكي** (رئيس مركز الاتحاد)... إلخ. وترأس السياسة السوفيتية الخارجية **ليتفينوف (فالاخ)**. وكانت الغالبية الساحقة من السفراء في الدول الهامة من اليهود.

أذكر جيداً أجواء الروح القومية اليهودية المنتشية ظفَ راً أواخر الثلاثينات ، عندما كانت تقام الاحتفالات الصاخبة كل عام للإعلان عن فوز المغنين السوفيت في المسابقات الدولية . وكان هؤلاء جميعاً ، بلا استثناء تقريباً ، من اليهود . (هل صمد الكثيرون من هم لامتحانات الزمن؟ من يعرف أو يتذكر الآن أولئك الذين كانوا موضع تمجيد في تلك الفترة ، أمثال **بوسيا غولدشتاين، وليزا غيليلس، وميشا فيختنغولتس** ...إلخ؟). وفي كل مكان كانت تصدح أغنيات الموسيقار **دونايفسكي** الأوسع شعبية في البلاد، حتى إن أحد ألحانه صار موسيقا الشارة (اللحن المميز) للإذاعة السوفيتية. (أذكر حديث واحد من معارف **شوستاكوفيتش** (الروسي. . م)، قال: تعرّف **شوستاكوفيتش** على امرأة، وقال لها إنه موسيقار . عندئذ هتفت باحترام : "إذاً، قد تكون على معرفة بـ **دونايفسكي !**"). وكان المسرح اليهودي على درجة كبيرة من الشعبية بحيث كان يتردد عليه حتى من لا يفهم كلمة واحدة من لغة *الإيديش*، وغالباً ما كان ذلك بهدف واحد هو التعرف على شخصية نافذة . وكانت الصحف لا تني تخبرنا بمهابة عن الانتصارات التي يحرزها باستمرار أفضل لاعب شطرنج في العالم – **بوتفينّيك**. إن أشهر مطربي مسرح *البولشوي*، وأكثر من تطبع نتاجاتهم من الكتاب والشعراء، والصحافيين كانوا يهوداً.

كان اليهود آنذاك ركيزة السلطة والجزء الأكثر امتيازاً وحظوة في المجتمع السوفيتي.ومع ذلك تقلص قليلاً عدد الأسماء اليهودية في قيادة الاتحاد السوفيتي (أعضاء اللجنة المركزية، ومفوضي الشعب). وعلى سبيل المثال، فقد أعدم في سنوات ما قبل الحرب العالمية الثانية معظم مفوضي الشعب أواسط الثلاثينات الذين وردت أسماؤهم أعلاه. ومع ذلك بقي عدد أعضاء اللجنة المركزية المنتخبين في المؤتمر السابع عشر (عام 1934)، وفي المؤتمر الثامن عشر (1939) هو نفسه تقريباً، وعدد اليهود بينهم نفسه تقريباً . ونرى بين مفوضي الشعب، ومن هم في هذا المستوى (رؤساء اللجان في مجلس مفوضي الشعب) خلال الفترة 1939– 1940 (أكثر من أربعين شخصاً)، كلاً من ل .م. **كاغانوفيتش ، وجيمتشوجينا ، ودوكلسكي ، وغينسبورغ** ، و**زمليانشكا (زالكيند)**، و**مخليس ،وبيريا** . وللمقارنة، نشير إلى أن هـ لم يكن بين أولئك إلا أرمنيّ‍ْن فقط ، هما **ميكويان** ، و**تيفوسيان** ، وجورجي واحد هو **ستالين**. فلا مجال للحديث عن أي نوع من التمييز ضد اليهود، بل وما من أحد كان يقول بذلك آنذاك. إن النظام الإرهابي الذي توطد في البلاد والحزب طال اليهود كما طال غيرهم . وجرت اعتقالات واسعة في قيادة مفوضية الشعب للشؤون الداخلية التي كان فيها العديد من اليهود، فكان عدد المعتقلين بينهم كبيراً. ولكنني آنذاك لم أسمع أحداً يشكو من أن هذه الاعتقالات اتصفت بخصوصية مناهضة لليهود، بل وفيما بعد لم أصادف ذلك في الأدب.

ومنذ بداية الحرب تطا بقت مصالح اليهودية العالمية ومصالح السلطة الشيوعية في الاتحاد السوفيتي إلى درجة يستحيل معها تحديد مَن كان يخدم مَن . ففي العام 1941 تشكلت *اللجنة اليهودية ضد الفاشية* التي انضمت إليها شخصيات ثقافية يهودية معروفة آنذاك في الاتحاد السوفيتي : كالممثل ومدير المسرح اليهودي **ميخوئلس (فوفسي)**، والكاتب **كفيتكو**، والشاعر **فيفر**، وغيرهم. ومن المرجح أن المكتب السياسي وهيئة الدعاية والتحريض وجدا في هذه اللجنة أداة للتأثير السوفيتي على الغرب، وخاصة على أميركا . ومن المحتمل أن بعض أعضاء هذ هاللجنة كانوا ينظرون إلى السلطة الشيوعية ك أداة لتحقيق أهداف يهودية قومية معينة . ولكن ما الأهمية التي اتصف بها ذلك؟ لقد كان هؤلاء وأولئك بحاجة آنذاك (أثناء الحرب) إلى القيام بالعمل ذاته . وكانت الوحدة عظيمة إلى حد أن السكرتيرين المسؤولين اللذين خلّف أحدهما الآخر في *اللجنة اليهودية ضد الفاشية* ، **إنشتاين وفيفر**، وكذلك **خيفيتس** (نائب **فيفر**) كانوا من العاملين في مفوضية الشعب للشؤون الداخلية، وهذا لم يتضارب مع مشاعرهم القومية (نشر **فيفر**، مثلاً، أيام الحرب قصيدته الأكثر قوميةً بعنوان *"أنا يهودي"*). وأقامت اللجنة اتصالات مع المنظمات اليهودية الأميركية : كالقسم اليهو دي للأخوية العمالية الدولية، واللجنة الأميركية للكتاب والفنانين والعلماء اليهود، والمجلس اليهودي لمساعدة روسيا. وباسم هذه المنظمات تلقى **ميخوئلس وفيفر** دعوات لزيارة الولايات المتحدة الأميركية كممثلَ يْن للجنة اليهودية ضد الفاشية . واللمسة الخاصة التي تسم هذه الزيارة (عام 1943) هي (كما يحدثنا واحد من مسؤولي الاستخبارات السوفيتية هو **سودوبلاتوف**) أن **بيريا** استقبل **ميخوئلس وفيفر** قبل سفرهما ، وأوعز لهما "بإقناع الرأي العام الأميركي بأن معاداة السامية في الاتحاد السوفيتي قد قُضي عليها بالكامل نتيجة لسياسة **ستالين** القومية". "ووفر **خيفيتس** (عميل سوفيتي في *سان فرانسيسكو*) التغطية الحركية لزيارة **ميخوئلس** وتأمين اتصالاته مع الجاليات اليهودية ". "ويفيد تقريرهما (عميلي الاستخبارات السوفيتية. – المؤلف) بأن **أوبنهايمر وإنشتاين** تأثرا تأثراًعميقاً لكون العيش الآمن الرغيد مضموناً لليهود في الاتحاد السوفيتي". وسرعان ما تسنى إقناع **أوبنهايمر** "بأن يقبل في العمل خبراء معروفين بقناعاتهم اليسارية كان عملاؤنا السريون مكلفين التحرك باتجاههم". وهكذا ساعدَنا **أوبنهايمر** ، **وفيرمي**، **وسيلّلار**د في زرع مراجع استخباراتية مأمونة". (الاقتباسات من كتاب **سودوبلاتوف**).

وفضلاً عن ذلك، التقى ممثلا *"اللجنة اليهودية ضد الفاشية "* مع رئيس المنظمة الصهيونية العالمية، **وايزمن** رئيس دولة *إسرائيل* فيما بعد، ورئيس المؤتمر اليهودي العالمي **غولدمان** ، **والحاخام فايس** ، ومع **إنشتاين،** وكثيرون غيرهم من الشخصيات اليهودية البارزة.

3 . الفراق

بعد أن وضعت الحرب أوزارها أخذ يتكشف شيئا فشيئا أن اليهودية العالمية والسلطة الشيوعية في الاتحاد السوفيتي ليستا بالشيء نفسه، وأن مصالحهما قد تفترق في بعض الأمور . وراح يتضح وجود بعض التباينات بدءاً من العام 1948، عندما ظهرت دولة *إسرائيل* إلى الوجود. فقد اندرج قيام هذه الدولة بحد ذاته، بوضوح، في سياق المصالح المشتركة . ولمّا جاء الإعلان عن قيام هذه الدولة في مجلس الأمن الدولي، لم يكتفِ الاتحاد

السوفيتي بعدم استخدام حق النقض "الفيتو"، بل وأيّد هذا القرار بـقوّة. وقال **غروميكو**، المندوب السوفيتي لدى الأمم المتحدة:

"إن التضحيات الجسيمة التي تكبّدها الشعب اليهودي نتيجة عسف الهتلريين في أوروبا، تزيد التأكيد على ضرورةَ أن يكون لليهود دولتهم الخاصة بهم، وعلى عدالةَ المطالبة بإنشاء دولة يهودية مستقلة في فلسطين".

لقد أمل القيِّمون على السياسة السوفيتية بأن يكسبوا في شخص *إسرائيل* أداة للنفوذ في *الشرق الأوسط*، أو ربما ساروا بحكم قانون العطالة وراء نزعات اليهودية العالمية. فكان *الاتحاد السوفيتي* من أوائل الدول التي اعترفت بـ*إسرائيل*. ومن المعروف أنه زوَّد في بادئ الأمر *إسرائيل* بالأسلحة، إبلّن النزاع الذي نشب بين العرب والإسرائيليين.

بيد أنه تبين هنا أن *"اللجنة اليهودية ضد الفاشية"* تلعب دوراً مستقلاً يختلف عن الدور الذي خططته لها السلطة الشيوعية. وغدت هذه اللجنة مركزاً يجتذب مشاعر يهود *الاتحاد السوفيتي* القومية. فقد وردت إليها مئات الرسائل التي تناشدها تقديم مساعدة فعّالة ل *إسرائيل*، وأصر بعضهم على السماح لليهود بالسفر إلى *إسرائيل*، واقترح آخرون جمع الأموال لمساعدتها. آنذاك حدث ما لم يسمع به أحد من قبل: لقد أصبح عُرضة للخطر كلٌّ من له في الخارج شخص تربطه به صلة قربى بعيدة، أو من تلقّ ى من هناك بضع رسائل. ومن الطبيعي أن عمل اللجنة كله كان م علوماً لمفوضية الشعب للشؤون الداخلية، على الأقل من خلال سكريتيري اللجنة ذاتها. ومما ألقى بظلاله على هذا أيضاً أن سفيرة *إسرائيل*، **غولدا مائير**، كانت تلقى الترحيب من حشود اليهود في موسكو (عادة عند زيارتها للكنيس). وكانت **مائير** نفسها ملتزمة على الدوام بتوجه موالٍ للأميركان سرعان ما التزمت به سياسة *إسرائيل* إجمالاً. واتضح أن اليهود السوفيت يرون أن بوسعهم تقديم مؤازرة فعّالة لسياسة تختلف عن سياسة السلطة الشيوعية.

وكانت *"اللجنة اليهودية ضد الفاشية"* ذاتها قد قامت، كما بات معلوماً فيما بعد، بخطوة في هذا الاتجاه، إذ إنها وجهت أواخر الحرب، عام 1944، رسالة إلى الحكومة تقترح فيها إقامة جمهورية اشتراكية سوفيتية يهودية في *شبه جزيرة القرم*. ولقد استخدم هذا المصطلح تحديداً بحيث كان واضحاً أن المقصود هو قيام جمهورية متكافئة في الحقوق وعلى قدم المساواة مع *أوكرانيا* أو *كازاخستان*، مثلاً، وتتمتع وَفقاً للدستور السوفيتي بحق الانفصال (ناهيك عن حقها بحزبها الشيوعي وحكومتها...إلخ). وكان ذلك أيضاً تصرّفاً لم تشهد الحياة له مثيلاً آنذاك. وراح أعضاء اللجنة "يتقاسمون الحقائب" فيما بيهم، فـ "عُيّن" **ميخوئلس** سلفاً في منصب رئيس الجمهورية...إلخ. (غير أنه لم تصلنا، وَ فق ما قُدِّر لي قراءته، شائعات عن "السكرتير الأول" المقبل، أي أن الدولة الجديدة لم يجر التخطيط لإقامتها وَفق كليشيه جمهورية سوفيتية). كان ذلك كله خرقاً مباشراً لمبدأ السلطة الشيوعية الأساسي، وهو أن "القرارات تنتقل من فوق إلى تحت وحسب". كانت السلطة التي كَسَبَتَ للتوّ حرباً فظيعة تشعر أنها كليّةُ القوة، ولم يكن بإمكانها التنازل. بيد أن من الواضح، عبر كل تصرفاتها، كم كان صعباً (أو مرعباً) أن تُقدِم على مجابهة. لقد صدر في البداية قرار من المكتب السياسي يقضي بحل *"اللجنة اليهودية*

ضد الفاشية " ، مع حاشية مميزة جداً تقول بـ "الامتناع مؤقّتاً عن الإقدام على اعتقال أحد ". بعد ذلك بدأت اعتقالات قادة اللجنة . ويبدو أن **ميخوئلس** قد قتل على يد عملاء وزارة أمن الدولة، علما بأن الرواية الرسمية قالت إنه سقط ضحية حادث سير . على أنه منذ أكثر من عشرين سنة لم تكن التصفية السياسية في *الاتحاد السوفيتي* قد أخرجت بمثل هذا الديكور . واتضح أن بالإمكان بكل بساطة أن يعدَ م رمياً بالرصاص رئيس *الكومنترن* **زينوفييف**، أو خَلَفُ **لينين** في رئاسة مجلس مفوضي الشعب **ريكوف**. أمّا التصرف على النحو نفسه مع الممثل **ميخوئلس** فأمر خطير جداً. وفيما يتعلق **بميخوئلس** يخال المرء أن **ستالين** كان بوسعه تكرار سؤاله الشهير: "كم فرقة عسكرية يملك **بابا** *روما* ؟". ولكن تبين أن **ميخوئلس** كان أكثر خطراً ووزناً من **ريكوف** ضمن تراتبية أخرى ما. إن بصمة الحذر نفسها، التي لم تكن من سمات ماكينة الدولة الشيوعية، تسِ م بميسمها *"قضية اللجنة اليهودية ضد الفاشية "* كلها. فقد استمر التحقيق ما يزيد على ثلاث سنوات، ولم تنعقد المحكمة إلا في العام 1952. ويحمل التحقيق كله آثار صراع خفي ما بين القوى، الأمر الذي لم يلاحَ ظ من قبلُ (في نشاط *لجنة الطوارئ* ، *وإدارة الدولة السياسة الخاصة، ومفوضية الشعب للشؤون الداخلية، ووزارة أمن الدولة*). وفي صيف العام 1952 أوقفت المحكمة العليا النظر بالقضية ، وذلك بهدف إعادتها لاستكمال التحقيق . ولكن قراراً في المكتب السياسي كان قد اتخذ، على ما يبدو . فقد أجريت المحاكمة، ولكنها استمرت شهرين (وليس بضعة أيام كما هو عادة). وكان بوسع المتهمين أن يتبادلوا طرح الأسئلة بحرية فيما بينهم ، وأن يناقشوا الإفادات. غير أن مصيرهم كان محسوماً سلفاً، فقد حُ كِم بالإعدام رمياً بالرصاص على جميع أعضاء اللجنة (13 شخصاً)، باستثناء امرأة واحدة هي الأكاديمية ل . **شتيرن** . وأُعدِ م عشرة آخرون في قضايا أ خرى على صلة بالأمر . وشملت التصفيات عدداً إجمالياً بلغ 110 أشخاص.

يمكن للمرء أن يتصور الصدمة التي أصيبت بها قيادة الحزب الشيوعي عندما اكتشفت أن "الصلة الوثيقة" التي كانت تربط بينها وبين اليهود لا تتعدّى حدّاً معيَّن اً. لقد اصطدمت القيادة بقوةٍ لم تكن سابقاً تنأى بنفسها عنها، ولم يكن بوسعها أن تعين حدود نفوذها . وهكذا تبين أن **جيمتشوجينا (كاربوفسكايا)**، زوجة **مولوتوف** ، كانت قريبة جداً من **ميخوئلس**، وغدا معروفاً أنه كان يلقبها بـ "ابنة اليهود البارّة"، ويشبّهها بـ **أستير** التوراتية. ينبغي أن نعيد قراءة *"سفر أستير"* لكي نقدِّر حق التقدير معنى هذا التشبيه . أما زوجة **فوروشيلوف (غولدا غوربمان)** فتتحدّث إحدى قريباتها عنها قائلة:

"عندما قامت دولة *إسرائيل* سمعتُ من **يكاترينا دافيدوفنا** (زوجة **فوروشيلوف**. – م) هذه العبارة: "ها نحن أيضاً أصبح لنا وطن". طرفَتْ عيناي دهشةً... أهذا كلام تقوله امرأة أممية، شيوعية أصولية**!**".

(فـ*الاتحاد السوفيتي*، "وطن الكادحين في العالم أجمع"، كما كان يقال آنذاك، لم يكن وطناً لها، إذن**!)**.

وأخيراً، فإن **لوزوفسكي (دريزو)** أحد أعضاء *"اللجنة اليهودية ضد الفاشية "* الذين أُعدِموا، كان في أثناء الحرب رئيسَ مكتب الأنباء السوفيتي، ونائباً لوزير الخارجية . أما **شامبرغ**، ابن أحد الموظفين عند **لوزوفسكي**، فقد كان متزوجاً من ابنة **مالينكوف**، **ولوزوفسكي** نفسه كان متزوجاً من أخت **شامبرغ**. وعلى غرار ما كان

يحدث كثيراً آنذاك، كتب **شامبرغ** الأب رسالة إلى اللجنة المركزية أكد فيها أنه لم يكن على علم بأي نشاط تجسسي – قومي يقوم به **لوزوفسكي** . وقام **مالينكوف** بتطليق ابنته من **شامبرغ** الابن . على أنه كان من الواضح أن فصم العلاقات المتشابكة الآن يسبب آلاماً شديدة كتقطيع الجسد الحي.

وبعد ذلك بدأت *"الحملة ضد الكسموبوليتيين "* التي انتهت بـ *"قضية الأطباء "*، وتوقفت بوفاة **ستالين** . وهذه الأحداث بالذات عادة ما تكون المبرر للتأكيد بأن "سياسة العداء للسامية " قد ترسخت في *الاتحاد السوفيتي* بعد الحرب، بل وجرى إعداد خطة لـ "تهجير اليهود إلى *سيبيريا* ". ومن الصعب التوفيق بين هذه النظرة والوضع الحقيقي في البلاد آنذاك.

بداية ، وقبل كل شيء، من الخطأ تفسير *"قضية اللجنة اليهودية ضد الفاشية "* على أنها فعل يسِ م توجهاً خاصاً معادياً للسامية في السياسة السوفيتية آنذاك . إذ ينبغي النظرإلى هذه القضية في ضوء الحياة في تلك الفترة بمجملها . فعلى سبيل المثال، كانت تتفاعل في الفترة ذاتها تقريباً *"قضية لينينغراد"* التي يبدو أن "توجهها الروسي" إلى حدّ ما عُدّ جريمة، علماً بأن هذا التوجه تجلّى على نحو أضعف بكثير من "التوجه اليهودي" في قضية *"اللجنة اليهودية ضد الفاشية "*. إذ كان المقصود بـ *"قضية لينغراد "* آنذاك هو اقتراح لمجموعة من كبار الشخصيات الحزبية يقضي بتأسيس حزب شيوعي لجمهورية *روسيا الاتحادية الاشتراكية السوفيتية* [١٣]، ونقل لجنته المركزية ومجلس وزراء هذه الجمهورية إلى *لينينغراد*. وكان **فوزنِسينسكي**، عضو المكتب السياسي والنائب الأول والوحيد **لستالين** لفترة طويلة في رئاسة مجلس الوزراء، الشخصيةَ الرئيسةَ بين المتهمين في هذه القضية . على أنه يُحتسبُ ل. **فوزنسينسكي** نجاحه في تعبئة الصناعة السوفيتية زمن الحرب، وتنظيم عملية إحيائها من جديد. ومع ذلك، فقد أمكن إعدامه، وذلك خلافاً لمصير **ميخوئلس**. وقد أُعدِم مع **فوزنِسنسكي** أيضاً كل من **كابوستين، وكوزنتسوف، وبوبكوف، ورديونوف** وغيرهم[١٤]. وبلغ العدد الإجمالي للذين أعدموا حوالي ألفي شخص . فإذا ما نظرنا إلى *"قضية اللجنة اليهودية ضد الفاشية "* بوصفها تجلياً فاقعاً "لمعاداة السامية عند **ستالين**"، توجَّب علينا النظر إلى *"قضية لينينغراد "* بوصفها تجلياً، فاقعاً بالقدْر نفسه، للرُّ هاب الروسي (كراهية الروس) عند **ستالين**.

وحقيقة الأمر هي أن النظام حاول في كلتا الحالتين أن يبسط سيطرته على بعض النبضات القومية التي سَمح بها في أثناء الحرب لغايات دعائية . ولم تكن أفعاله هذه إلا عناصرَ ضمن سلسلة تدابير تمّ اتخاذُ ها بعد الحرب من أجل رصّ صفوف النظام الشيوعي الذي انتصر وراح يتوطّد. وتندرج في هذا السياق قوانين تعزيز نظام الكولخوزات، وتشديد الرقابة الإيديولوجية، سواء في العلوم (البيولوجيا والتاريخ)، أوالثقافة (الأدب والموسيقى)...إلخ. أما الآن فيجري تجاهل كل هذه الخلفية التي حددت طابع الحياة في الواقع، وكأن الأمر

[١٣] فضلاً عن تنظيم "الحزب الشيوعي السوفيتي" لعموم البلاد، كان لكل جمهورية سوفيتية، ما عدا روسيا، حزبها الشيوعي المحلّي، وبُناه التنظيمية المستقلة نسبياً. – م.

[١٤] جميعهم من الروس. – م.

مقتصر على القمع الجائر لبواكير الوعي القومي اليهودي، ما يُفسَّرُ أحيانا وكأنه استمرار "لتقاليد أعمال الترويع وبقائم الدم". أما في الواقع، فإن عدد الذين تعرضوا للتنكيل في *"قضية لينينغراد"* يفوق كثيراً عددهم في *"قضية اللجنة اليهودية ضد الفاشية "*، علماً بأن الأمر يتعلق في الحالة الأولى بأناس أخذوا على محمل الجد النَّخْبَ الذي رفعه **ستالين** "بصحة الشعب الروسي"، وما شابه ذلك من تصرفات. وفي كل الحالات المعروفة لدي، التي شمل فيه الاعتقال أناساً في إطار *"قضية اللجنة اليهودية ضد الفاشية "*، كان هؤلاء ضحايا ، لم يرتكبوا ذنباً، ولكنهم من وجهة نظر السلطة آنذاك اقترفوا مخالفة قوانينَ أساسية متعارف عليها كانت تبدو مطلقة ، فقد رحّبوا، مثلاً، بـ **غولدا مائير** أمام الملأ عند زيارتها الكنيس، أو عقدوا صداقات مع مراسلين أجانب ...إلخ. أي أنهم كانوا، من وجهة نظر النظام الشيوعي الذي كان قد تعزز (والذي أسفرت الحرب التي كسبها عن اشتداد بأسه)، كمن يطالب لنفسه بحق الحصانة أمام قوانين الدولة.

ومع ذلك لم يلجأ النظام إلى التكتيك المألوف في الإرهاب الجماعي ، لا ضد من خالفوا قوانينه المتعارف عليها، ولا ضد "الاحتياطي"، أي ضد شرائح بأسرها قادرة على إنجاب مثل هؤلاء الناس . وكان واضحاً أن ثمة مشاحنات ما، من نمط جديد تماماً، لم يعرفها تاريخ النظام الشيوعي قبل الآن.

سأُعيدُ إلى الأذهان هنا بعض الوقائع . فقد ظهر في الصحف تعبير الـ *"كسموبوليتي"* (متبوعاً في الغالب بنعت "عديم الأصل")، الذي كان له، كما كان واضحاً للجميع، منبت يهودي . ربما كان من الصعب أن نساوي بين هذين المفهومين : *"كسموبوليتي"* و*"يهودي"* (إذا ما قصدنا ذاك المعنى الذي كانت الصحافة السوفيتية تحملهما إياه). إذ كان ثمة شعور بأن مصطلح *"كسموبوليتي"* لا ينطبق بأي شكل من الأشكال على **كاغانوفيتش، وميخوئلس، وهوارد فيست، أو إيف مونتان** ، مثلاً . وعلى الأرجح، يمكن فك شيفرة هذا المصطلح، وَفقاً لاستعماله آنذاك، على النحو التالي : "قومي يهودي يعمل على الضد من مصالح الحزب وسياسته ". وكانت تنسب للكسموبوليتيين محاولات لبثّ الانحلال في الروح الوطنية للمواطنين السوفيت، ولإضعاف مناعة النظام السوفيتي ووحدته، عبر نقل عدوى الإيديولوجيا البورجوازية إلى الناس السوفيت، ولتسويد الماضي التاريخي للشعوب المنضوية تحت راية *الاتحاد السوفيتي*. ومن ناحية أخرى، فإن مفهوم "الكسموبوليتية" كان يُنظَر إليه أحياناً على نحو أوسع من إطاره اليهودي أيضاً . فنظريات علمية كثيرة، كنظرية **فيسيلوفسكي** الأدبية حول المواضيع الجوّالة، مثلاً، كانت موضع شجب بوصفها "كسموبوليتية". وفي الحين ذاته كانت تظهر في الصحف مقالات من نمط آخر، هي أهجيات ساخرة لا تتحدث عن الجانب السياسي، بل عن الحياة اليومية، فتصف عمليات نصب واحتيال يقوم بها صاحب عمل ما، يكون واضحاً تماماً من اسمه وكنيته أنه يهودي.

كما جرت ممارسات عملية تهدف إلى نقل بعض اليهود من مناصبهم المؤثرة إلى مناصب أقل تأثيراً . وأنا شخصياً على علم بمثال واحد هو عزلُ عدد من اليهود من مناصبهم كرؤساء أقسام في بعض الجامعات، وكذلك نقْل بضعة آخرين منهم من موسكو إلى الأقاليم.

وأخيراً جرت الاعتقالات. فاعتُقلت مجموعة من الأطباء الذين اتهموا "بإلحاق الأذى"، أي بقتل عدد من القادة الحزبيين بحجة أنهم كانوا يعالجونهم، وبالتطاول على حياة عدد آخر من القادة وبينهم **ستالين**. لقد كان معظم هؤلاء الأطباء من اليهود، ولكن كان بينهم عدد من الروس . غير أن الجانب اليهودي من هذه العملية جرى التأكيد عليه من خلال التهم المتعلقة بمنظمة *"جوينت"* الخيرية اليهودية. وقد أُسدل الستار على هذه الدعوى بعد وفاة **ستالين** فوراً. وأُخليَ سبيل جميع من حُ كِم عليهم بالسجن في معسكر ات الاعتقال بسبب *"قضية اللجنة اليهودية ضد الفاشية"*، وكذلك من كانوا رهن التحقيق في قضايا أخرى.

حملةٌ صحفية، تسريحاتٌ، اعتقالاتٌ، إعداماتٌ ... حتى ليخيَّل للوهلة الأولى وكأننا أمام عملية تطهير ستالينية نموذجية من نوع ملاحقة "المخربين الإحصائيين"، و"ذوي الميول اليمينية"، على غرار عمليات التطهير في الجيش وجهاز السلطة السوفيتية في عامي 1936 و1937...إلخ. ولكنك إذا ما تمعنت في الأمر جيداً اقتنعت حالاً أنك هنا أمام ظاهرة مختلفة كلياً . لقد كان لهذه التنقلات طابع آخر تماماً، إذ إن من كانوا رؤساء أقسام في جامعة لم ينقلوا للعمل في قطع الأخشاب، بل للعمل رؤساء قطاعات في معهد تابع لأكاديمية العلوم، أو في معهد آخر . ثم إن النقل للعمل في الأقاليم لم يكن له طابع النفي الفظ ، أو التمهيد للاعتقال . كان الشخص المعني يُستدعَ ى إلى الوزارة، وكقاعدة، كانوا يعرضون عليه الانتقال إلى مدينة نائية، كمدينة *فلاديفوستوك*، مثلاً. ثم يبدأ ما كان شبه مستحيل في أوقات أخرى، إذ كان هذا الشخص يرفض، ويطرح شروطه، وبعد مفاوضات مديدة يوافق على الانتقال إلى عمل في مكان قريب جداً، مثل *سيربوخوف* أو *كولومنا* (في ضواحي موسكو. –م) يمكن العيش في العاصمة والسفر إليه يومياً. وإنه لذو دلالة أبلغ ذلك الجو الذي أحاط بمن كانوا ضحية مثل هذه الإجراءات ... فلم تكن *تُعقد* اجتماعات لتجريمهم بكل ما يمكن من الخطايا، ولحَمْلِ زملائهم على إبداء الندم كونهم فقدوا اليقظة تجاههم. ولم يُشِحِ معارفهُم بوجوههم عنهم، بل كانوا يعامَلون في أماكن عملهم الجديدة معاملة خالية من أي ارتياب. وكان هذا الجو مفعماً بالثقة على نحو غريب بأنه لا أثر هنا في الأفق لكارثة قادمة.

ويجدر بنا لفتُ الانتباه إلى جانب آخر من جوانب هذا الوضع، وهو أن الحملة كلها قام بها أناس يتمتعون بخبرة كبيرة في عمليات التطهير، أناس عندهم *معيار* معين لكيفية القيام بذلك. ولكي لا تسير الأمور كلها الآن وَفقاً للطريقة النمطية التي كانت تقتضي القيام باعتقالات جماعية تشمل كل من ينتمي من المواطنين إلى المجموعة الملاحقة، والإجحاف بحق كل من له بهم أدنى صلة، إذاً لكي لا تسير الأحداث *وفق هذه النسخة المعروفة*، تطلّب الأمر إصدار تعليمات خاصة، صارمة، ودقيقة؛ وإلا فإن العادة التي تحولت فيهم إلى طبع ثان كانت ستفعل فعلها. وهكذا أعتقدُ أنه لا مجال للشك في أن *القصد من هذه العملية كلها هو التصرف على نحو لم يكن مألوفاً في السياسة السابقة، ولا يتناسب من حيث نطاقه مع ما هو معهود من تطهيرات، إنه شيءٌ مختلف من حيث المبدأ. وبالفعل، فقد اتُخذت إجراءات مُحكَمة تكفل تنفيذ العملية على هذا النحو بالضبط.*

كيف نقيِّم ما جرى؟ يبدو أننا نواجه هنا أول حالة احتكاك ما بين الحزب واليهود، أول حالة لا تتطابق فيها مصالح هاتين القوتين في أمر ما. إن عدم بروز حالة كهذه ولو مرة واحدة من قبل، وعلى مدى ثلاثة عقود من الزمن، إنما يدل على ما بين هاتين القوتين من قربى عجيبة . إنهما ليستا متطابقتين، ولا يمكن اعتبار أي منهما أداةً للأخرى، ولكنّ ما بينهما من وشائج كان وثيقاً إلى درجة حالت دون أن ينشأ بينهما ولو مرة واحدة أدنى قدْر من الاحتكاكات . بل على العكس من ذلك، كانت تُتَّخذ إجراءاتٌ مُحكَمة لاستبعاد ما يمكن وقوعه من حالات سوء التفاهم بخصوص الدعم اليهودي للسلطة السوفيتية في *الغرب* ، والقوانين التي تجرِّم معاداة السامية، أو التأييد الواسع للنشاط اليهودي الثقافي والقومي في *الاتحاد السوفيتي*. وفي الثلاثينات، عندما كان العدد الكبيرمن اليهود المتضررين في صفوف القوى المعارضة ، يمكن أن يثير قلق اليهود عموماً، شنَّ **ستالين ومولوتوف** هجمات ضارية على "المعادين للسامية". ولا يمكن تفسير ذلك كله إلا بأن هاتين القوتين في تلك الفترة كانت كل منهما ترى في الأخرى قوةً لا غنى لها عنها إطلاقاً، وأنه لا يستطيع أي منهما أن يأمل ببلوغ "أهدافه" من دون تعاون وثيق فيما بينهما (إذا فهمنا هذا المصطلح بالمعنى الذي أشرنا إليه في مستهل هذا الكتاب). وإذا بهذه العلاقة، التي بدا وكأنها لا انفصام لعُراها، يعتريها ضعف ملحوظ في الفترة 1948 – 1953. ويمكن أن نرى مغزى هذا الانقلاب الذي شهدته العلاقة بين الحزب واليهود في أنهما *افترقا* ، وأخذا من الآن فصاعداً يعملان كقوتين مستقلتين... مستقلتين، ولكن غير متعاديتين إطلاقاً. ذلك أن الأحداث التي جرت عندنا في هذه المرحلة لا تتعدى كونها مجرد احتكاكات لا مفر منها عند افتراق قوتين لكلٍّ منهما هذا القدْرُ من الجبروت.

إن قصة نقل أسرار صنع السلاح النووي الأميركي إلى *الاتحاد السوفيتي* تصلح مثالاً يشهد على كيفية استمرار العلاقة الوثيقة بين السلطة الشيوعية واليهود. على أن المَشاهد الأكثر دراماتيكية في هذه القصة تعود إلى حقبة الحرب العالمية الثانية، أما جذورها فتمتد إلى ما هو أعمق من ذلك . إلا أن أحداثاً مذهلة وقعت هنا بعد الحرب أيضاً، يصفها المسؤول في الاستخبارات السوفيتية الجنرال **سودوبلاتوف** الذي كتب يقول إن 90 بالمئة من العملاء الذين زوَّدونا بمعلومات هامة في أثناء الحرب كانوا من اليهود . وإلى زمن الحرب أيضاً تعود إقامة الصلة بين الاستخ بارات السوفيتية والمشرف العلمي في المشروع الذري الأميركي **أوبنهايمر** (أشرنا أعلاه إلى الدور الذي لعبته *"اللجنة اليهودية ضد الفاشية"* في هذه المسألة). وبمزيد من التفاصيل يقول **سودوبلاتوف:**

"لعبت **إليزافيتا** ، زوجة **فاسيلي زاروبين**، دوراً هامّاً في استخدام **أوبنهايمر** كمصدر للمعلومات ... كانت تتمتع بجمالٍ ساميٍّ كلاسيكيٍّ يغوي الرجال، وكانت أحد العملاء المجندين الناجحين ... وهي متحدرة من عائلة ثوريين يمتّون بصلة قربى لـ**آنّا باوكر**، مؤسِّسة الحزب الشيوعي الروماني".

أولاً، كانت هذه المرأة العجيبة زوجة **بلومكِن** ، الذي كان يعمل أيضاً ، بين من كانوا يعملون، لصالح **تروتسكي** . فوشت بزوجها، وأُعدِم. ومن ثم أُرسلت إلى *الولايات المتحدة الأميركية* ، حيث عملت تحت قيادة **خيفيتس**. ويعزو المؤلف لتأثيرهما (هي و**خيفيتس**) قيام **أوبنهايمر** بدعوة مهاجر من *ألمانيا* يدعى **فوكس** للعمل في *لوس ألاموس* . وقد لعبت هذه المرأة دوراً حاسما أيضاً في "استخدام" اليهودي الهنغاري **ليو سيلارد** . وبعد

الحرب أمر **بيريا** بوقف تلقي المعلومات من **أوبنهايمر وسيلا رد**، وبتوجيههما للنضال ضد صنع القنبلة الهيدروجينية الأميركية . أما **فوكس** فقد انتقل إلى *إنكلترا* عام 1946، وظل ينقل المعلومات بانتظام إلى عميل سوفيتي حتى يوم اعتقاله في العام 1950. وأستطيع في ما يخصُّ هذه الفترة أن أنهل شيئاً ما من ذكرياتي الشخصية. أتذكر ما رواه لي المرحوم **ساخاروف** في وقت متأخر جداً ، في السبعينات من القرن العشرين، قائلاً إن المعلومات التي نقلها **فوكس** كانت تتضمن عملياً كل الأسرار الذرية الأميركية، كلَّ ما يمكن نقله خطياً . فالنفقات الضرورية، والثروات الباطنية، والخبرة البشرية لا يمكن نقلها على الور ق، وكل ما عدا ذلك أخبرنا به **فوكس**. وأذكر أن ذلك بدا لي آنذاك أمراً يفوق الخيال، وظننت أن **ساخاورف** يبالغ. ولكن مذكرات **سودوبلاتوف** ترسم اللوحة ذاتها تقريباً . فهو أيضاً يقول إن المعلومات التي حصلنا عليها منحتنا الشيء الأهم : الثقة بأن المخزون الاحتياطي الأميركي م ن القنابل الذرية غير كاف لشن حرب ذرية قبل أواسط الخمسينات . وتبين مذكرات **سودوبلاتوف** ذاتها ذلك الدور الذي لا بديل له حقاً في الحصول على المعلومات، والذي لعبته المساعَدة اليهودية، بدءاً من الشخصيات الأساسية في المشروع الذري **(أوبنهايمر وسيلارد)** وحتى "رجال الارتباط"، أمثال **كوهين** أو الزوجين **روزنبرغ** ، مروراً بضباط الاستخبارات السوفيت الذين عملوا في *الولايات المتحدة الأميركية* : **خيفيتس، وناتان سيلفرماستر، وزوجة زاروبِن.**

بقي علينا أن نعاين أيضاً صحة ما أُشيع عن التحضير لعملية عنف (*بوغروم*) ضد اليهود، وترحيلهم إلى *سيبيريا* . تزعم هذه الشائعة أن فكرة "الحل النهائي للمسألة اليهودية" الذي أعده **ستالين** ولم ينفذه، تتلخص في ما يلي : تؤكد الشائعة أن **ستالين** اعتزم تنظيم محاكمة استعراضية "للأطباء القتلة ". وفيها كان يجب، على وجه الخصوص، أن تظهر على المسرح شخصية جديدة (جديدة مقارنة بالمحاكمات الأخرى المشابهة)، هي شخصية مدّع عام يمثّل المجتمع . وأن هذا الدور قد أنيط بالكاتب (اليهودي) **إيليا إهرنبورغ**. وبالطبع كان المفترض أن يُحكَم على المتهمين بعقوبة الإعدام شنقاً في *الساحة الحمراء* . ولكن الشعب الغاضب يقوم من تلقاء نفسه بإعدامهم وهم في الطريق، ثم يبدأ عملية عنف (*بوغروم*). وعندئذ، وحرصاً من السلطة على حماية اليهود، تزج بهم في عربات القطارات وترسلهم إلى *سيبيريا* ، حيث يكون قد بدئ ببناء براكات لليهود المنفيين.

وتزعم الشائعة أن **ستالين** حين عرض هذه الخطة على رفاقه اصطدم بمقاومتهم، إذ وقف **كاغانوفيتش** ضده، بل ومزّق بطاقة عضويته في رئاسة اللجنة المركزية ولمّا طرح **ستالين** الموضوع على التصويت تبين أن الجميع ضده . وإذ واجه **ستالين** معارضة رفاقه لأول مرة في حياته، انتابته حالة هياج ، فأصيب بصدمة أودت بحياته. ولكنْ، يكفي أن نحاول التمعن في هذه القصة حتى تتضح كلَّ الوضوح مجافاتُها التامة للحقيقة . ذلك أن **ستالين** والمحيطين به، أياً كانوا، لم يكن بوسعهم في تلك الفترة (حتى لو أرادوا) إيجاد سند في الحزب لمثل هذه العملية الضخمة . وهاكم، على سبيل المثال، كيف يصف **أفتَرْخانَف** (في كتابه *"لغز موت ستالين "*) النفوذ اليهودي في المكتب السياسي آنذاك. فمن بين 11عضواً في المكتب السياسي كان : ***كاغانوفيتش*** يهودياً، ***وبيريا*** يهودياً بنسبة النصف (أمُّه يهودية، ولكن ما يفوق ذلك أهمية بكثير هو أنه كان يستند، كما سنرى بعد قليل، إلى

الدعم اليهودي). وكان ***مولوتوف، وأندرييف، وفوروشيلوف*** ،متزوجين من يهوديا ت. فيما كان صهر ***مالينكوف***(زوج ابنته) يهودياً. وكانت كرَّة ***خروشوف***(زوجة ابنه) يهودية أيضاً.

كان الإرهاب في البلاد قد كفَّ منذ عهد بعيد عن أن يكون على هذا القدْر من الاتساع (تهجير مئات آلاف البشر). لقد سبق أن أشرتُ إلى أن مضايقات اليهود اتسمت آنذاك بطابع محدو د جداً لا يتوافق البتة مع إجراء يتصف بهذه الدرجة من القسوة. وتبدو غير واقعية تلك المقاومة "الشجاعة" المنسوبة إلى رفاق **ستالين**، ولا سيّما إلى **كاغانوفيتش** الذي سبق أن تخلَّ ى بكل هدوء عن أخيه (الذي أُعدِم). غير أن الأمر الرئيس هو أن عشرات، بل وربما مئات آلاف، من البشر كان من المفترض أن يشملهم إجراء يتصف بهذه الضخامة . فقد كان يفترض أن يُحصَى كلُّ اليهود (وكان يجب أن يُعَدَّ "تعريف" لليهودي: حسب بطاقة الهوية الشخصية، أو حسب قومية أحد الأبوين أو كليهما). كما وكان من المفترض أن يتطلب ذلك تزويد مفارز الاعتقال بالتعل يمات، وتحضير القطارات، بل وحتى تغيير جداول حركة القطارات . إذ كان يتوجب في هذه الحال نقل بضعة ملايين البشر من أقصى البلاد إلى أقصاها. فأين هم الشهود على ذلك؟ لقد هاجر خلال الفترة المنصرمة مئات الآلاف من الأشخاص الذين كانوا ينتمون إلى مختلف شرائح المجتمع السروفيتي، ومن الطبيعي أنه يجب أن يكون بينهم شهود. فلو كان هذا الادعاء صحيحاً لتحدث هؤلاء الشهود عن التفاصيل . وإذا كان **إهرنبورغ** قد أكّد أنه اطلع على رسالة باسم المثقفين اليهود في موسكو يلتمسون فيها تهجير اليهود، وأنه رفض – كما يشاع – التوقيع عليها، فلماذا لم يَرَ أحدٌ آخر هذه الرسالة؟ ثمة عشرات من هذه الأسئلة تطرح نفسها هنا.

وفي وقت لاحق قرأتُ بارتياح في مذكرات **سودوبلاتوف** قوله إن هذه الرواية مجافية للحقيقة، وذلك على أساس هذه الحجج ذاتها.

إنه لبالغ الأهمية، عند التحقق من صحة هذه القصة، أننا نعرف مصدرها . ذلك أنها ظهرت في *الغرب*، وصارت معروفة هناك من "مصدرين مستقلين". الأول هو **إهرنبورغ** الذي أفضى بالقصة لـ **جان بول سارتر** بوصفها سراً خطيراً . وبتعبير آخر، لقد تم اتخاذ كل التدابير الكفيلة بأن تغدو هذه القصة معروفة في *الغرب* على نطاق واسع. والمصدر الثاني والأكثر وضوحاً، هو السفير السوفيتي في هولندا **بونومارينكو** (عضو سابق في رئاسة اللجنة المركزية وسكرتير اللجنة المركزية)، (وقد وردت أخبـار عن هذين المصدرين أكثر من مرة ، مثلاً، في كتاب **أفْتَرخانَف** *"لغز موت ستالين"*). وعلى هذا النحو يكون التفسير الأكثر قرباً من الحقيقة هو أن خلفاء **ستالين** تعمّدوا "إشاعة" هذه القصة في *الغرب*. فالقصد منها واضح للعيان : لقد كان يراد لها أن تكون برهاناً على أن القيادة الجديدة لا تكتفي بأنها لا تكنُّ أية نوايا سيئة تجاه اليهود، بل وسبق أن جازفت بحياتها في سبيل إنقاذهم من الاضطهاد . وهذا الافتراض تؤكده أيضاً تصريحات أخرى مماثلة، إذ يقول **خروشوف** في مذكراته إن **ستالين** أوحى له في حديث بينهما أثناء وليمة، بفكرة تدبير عملية ترويع (*بوغروم*) ضد اليهود في أحد مصانع موسكو، ولكنه (أي **خروشوف**) لم يستجب لهذا الاقتراح بأي شكل من الأشكال . وطبيعي أن هذا أيضاً لا يعدو كونه مجرد إش هار موقف حَسَنٍ حيال اليهود، لأن القصة بحد ذاتها غير واقعية في ضوء

أخلاقيات تلك المرحلة. وأياً ما كان موقف **خروشوف** من اليهود (ربما كان كسب تأييدهم شديد الأهمية بالنسبة إليه)، فإنهم (لو فعل ذلك حقاً) كانوا عاجزين في تلك اللحظة عن حمايته بأي شكل من الأشكال من أن يعتقل ويعدَم رمياً بالرصاص في الليلة ذاتها.

وهكذا، فقد آن الأوان، كما يبدو، لإحالة هذه القصة نهائيا إلى الأرشيف، مع الإقرار بأنها خرافة لا قيمة فيها إلا ***للهدف*** الذي نسجت من أجله. أمّا شعبية هذه الخرافة فتعود إلى كون كلتا القوتين المعنيتين هنا، أي قيادة الحزب التي تولّت مقاليد السلطة بعد **ستالين** من جهة، واليهود من الجهة الأخرى، كان لهما مصلحة بنشر هذه الخرافة. ذلك أن خلفاء **ستالين**، إبان المرحلة الانتقالية التي لم تكن سلطتهم قد توطدت فيها بعد، أظهروا تعاطفاً نحو اليهود، وأعلنوا أن الخلافات القائمة لن تتحول إلى قطيعة جدية. وكانت مصلحة اليهود تكمن في كون ذلك إقراراً بأن وضعهم في *الاتحاد السوفيتي* هو وضع الملاحَقين المضطهَدين من قبل السلطة الشيوعية، وهذا، أولاً، شجعهم هم و *الغربَ* على الدفاع عن حقوقهم المنتهكة، وثانياً ، شطبَ المشكلة الحساسة المتعلقة بدورهم في الثورة، وفي إدارة البلاد في غضون السنوات الخمس والعشرين التي تلت الثورة.

وفي هذا الصدد يخطر على البال سؤال عن سبب وفاة **ستالين**. لقد مات **ستالين**، بالطبع، في سن يدرك الموتُ فيها المرءَ، على الأرجح، لأسباب ليست لغزاً على الإطلاق. ولكنْ، إذا كنا سنناقش "لغز موت ستالين" فمن الطبيعي جداً طرح المسألة في إطار علاقتها بالخلافات التي ظهرت آنذاك بين الحزب الذي كان يتزعمه ستالين من جهة، واليهود من جهة أخرى. وثمة عامل هام في هذا الوضع يتوجب لفت الانتباه إليه، وهو أن **بيريا** ترأس لفترة طويلة أجهزة الأمن الكلية الجبروت تقريباً من جهة، واستند، من جهة ثانية، كما يبدو، إلى دعم يهودي قوي. وهذا يتضح، مثلاً، من الصراع الذي جرى آنذاك داخل الأحزاب الشيوعية في بلدان *أوروبا الشرقية* التي كانت قياداتها في الأساس، على ما يبدو، من صنائع **بيريا**. وفي الحين ذاته كانت هذه القيادات تتألف بأغلبيتها من اليهود. وهاكم، على سبيل المثال، وصفاً للأحداث في *تشيكوسلوفاكيا*،وَفقاً لما ورد في كتاب ت. **وايتلين** الصادر بالإنكليزية بعنوان *"القوميسار":*

" كانت *تشيكوسلوفاكيا* الدريئة الأولى في الصراع ضد مواقع سلطة **بيريا**. إذ كان **بيريا** قد وضع جميع المواقع المفصلية في السلطة هناك بأيدي حلفائه".

غير أن سمة واحدة تسِم هذه العملية برمّتها، وهي أن الذين اعتُقلوا من ذوي المناصب العليا وعلى رأسهم زعيمهم **رودولف سلانسكي** (اسمه الحقيقي **زيلتسمان**)، **وبيدريخ غيليندر**، **ورودولف مارغوليس**، **وأندريه سيمونيه**، **وآرتور لندن**، وتسعة أخرون من محاسيب **بيريا**... كانوا جميعاً، تقريباً، من اليهود.

ويستشهد **دوغلاس ريد** باقتباس من صحيفة "**نيوستيتسمان**" الإنكليزية عام 1952 يرسم لوحة مشابهة:

"في *تشيكوسلوفاكيا* ، كما في بقية *أوروبا الوسطى والجنوبية الشرقية* ، كان المثقفون الحزبيون، وكذلك قادة البوليس السري، في معظمهم، يهوداً من حيث الأصل. ولذلك اعتاد المواطنون البسطاء على المماهاة بين القيادة الحزبية واليهود، واتهام "الشيوعيين اليهود" بكل المصائب.

وفي *بولونيا* كان رئيس أمن الدولة **ياكوب بيرمان** ركيزة **بيريا** المباشرة. ومن بين ثلاثة أشخاص كانوا يمسكون بالسلطة – **غومولكا، بيروت، بيرمان** – كان الأخيران يعتبران صنيعتين من صنائع بيريا.

ومن المناسب، في هذا الصدد، أن نتذكر أن *"قضية الأطباء"* كانت موجهة في الحين ذاته ضد **بيريا** ، إذ أُتهِمَ مواربةً بأنه لم يكن على درجة كافية من اليقظة، بل وتمّ اعتقال صنيعته **أباكوموف**، وزير الداخلية آنذاك.

يمكننا الافتراض أن **ستالين** ، سعياً منه نحو موقف أكثر استقلالية إزاء النفوذ اليهودي، كان يحاول تقليص سلطة **بيريا**، الذي كانت علاقاته اليهودية واضحة **لستالين** ، طبعاً. ولكن هل تسنّى ذلك **لستالين ؟** إن الجانب اليهودي لم يتخلَّ ، على الأرجح، عن وضعه الاستثنائي دون قتال . وليس من قبيل المصادفة أن يكون **بيريا** بمثابة المفتاح لحل "لغز موت ستالين" عند البحث في أي احتمال من احتمالات هذا "اللغز". وبعد موت **ستالين** كان من الطبيعي أن يبرز السؤال حالاً عمّا سيكون عليه مستقبل العلاقات بين الحزب واليهود . ولكنْ هيهات أن نصدّق أن القيادة الجديدة كانت مستعدة للتخلّي عمّا حققته لنفسها أيام **ستالين** من وضع أكثر استقلالية إزاء الموقف من اليهود . ولعل هذا ما كان أحد أسباب إطاحة **بيريا** . غير أن هذه القيادة، التي أخذت درساً من مصير **ستالين**، كان عليها البحث عن سبلٍ ما تطمئن القوى اليهودية داخل البلاد وخارجها إلى انتفاء أية نوايا عدوانية جدية تجاهها . وهنا كان مفيداً قطفُ ثمرة تلك الخرافة التي أشيعت حول أن خلفاء **ستالين** "جازفوا بحياتهم وأنقذوا اليهود السوفيت من النفي إلى *سيبيريا* ". ويخيل إليّ أن هذا الحبكة منطقية، وإن كان لا ينبغي مطلقاً، بالطبع، أن ينجم عن منطقيتها هذه أنها قد وُضِعت موضع التنفيذ فعلاً.

إن مناقشة خرافة تهجير اليهود، التي يُزعَم أن **ستالين** كان يُعِدُّ العدة لتحقيقها، تميط اللثام قليلاً عن النزعات التي كانت سائدة بين خلفائه، وتفضي بنا إلى النظر في المرحلة ما بعد الستالينية. ذلك أننا نقع في هذه المرحلة على ظاهرة جديدة تماماً، وفائقة الأهمية، ألا وهي بداية الهجرة اليهودية من *الاتحاد السوفيتي* . وهنا نصطدم ثانية بواقع أن القيادة السوفيتية تتنازل، أمام الإلحاحات اليهودية، في هذه المسألة ذات الأهمية الحيوية بالنسبة لليهود. لقد صادفْنا من قبلُ مثالاً من هذا النوع عند إقامة دولة *إسرائيل* . غير أن الوضع الآن كان أكثر دراماتيكية بكثير، لأنه كان لا بدّ من اتخاذ قرار يمسّ صميم الحياة الداخلية في *الاتحاد السوفيتي* ، بل وواحداً من أركان هذه الحياة، وليس أرضاً بعيدة عن الحدود السوفيتية . حتى خُيّل وكأنه لا مجال للحديث عن أي نوع من الهجرة ما بقي *الاتحاد السوفيتي* على قيد الحياة، ومن المحال أن تتزعزع سلطة الدولة التي تَعُدّ الفرد مُلكاً لها. ويكفي أن نتذكر ما صدر بحق من لم يعودوا إلى الوطن بعد الحرب من قوانين تعدّهم خونة للدولة، وتجعل حتى أفراد أُسَرِهم عُرضة للنفي. وفي الحقيقة، فقد ظل هذا الموقف موجوداً على المستوى النفسي : أي أن الهجرة كانت تعادل الخيانة. غير أن ما يزيد الذهول شدة هو السماح بهجرة **اليهود** رغم كل ما تقدّم.

إن واقعة حدوث هذا التنازل المبدئي، الواقعة الهائلة بحد ذاتها، لأكثرُ أهمية من مسألة السبل التي اتُّبعت للوصول إليها . إلا أن سبل الضغط هذه أيضاً تبعث على الاهتمام . وأول ما يلفت النظر هنا هو الضغط الاقتصادي الأميركي الذي يعدّه بعضهم العامل الأساس في هذا المجال . ولكن هيهات أن يكون هذا الرأي هو الصواب. ذلك أن **ستالين**، بعد أن وضعت الحرب أوزارها ، رفض رفضاً قاطعاً الاستجابة لدعوة الانضمام إلى خطة **مارشال**، والإغراء بتقديم قروض تقدر بالمليارات . ومما لاشك فيه أن *الغرب* كان سيرضى عندئذ بتنازلات من طرف **ستالين** أقل بما لا يقاس . إذاً، لقد كان ثمة، على ما يبدو، وسائل ضغط أخرى أكثر تأثيراً . وإذا لم يكن واضحاً ما هو الضغط الذي يمكن أن يأتي من الخارج، عدا الضغط الاقتصادي (من المستبعد أن نحمل ضغط "الرأي العام العالمي " على محمل الجد)، فمن المنطقي أن نفترض أن هذا الضغط هو ضغط *اليهود السوفيت* الذين واصلوا الاحتفاظ بوضع نافذ في جهازَي الحزب والدولة، وكان على القيادة السوفيتية تقديم تنازلات لهم مهما كانت مؤلمة.

والمِحَكُّ الآخر لاستيضاح العلاقة بين الحزب واليهود هو موقف *الاتحاد السوفيتي* من دولة *إسرائيل*، بعد أن خُيّل وكأنه موقف لا مجال لما هو أسوأ منه (هذا الكلام يعود لسبعينات القرن الماضي). فلنَدَعِ الحملة الدعائية جانباً، منذ البداية، ففي السياسة *"لا يعلق السباب على ياقة القميص"*، كما يقول المثل الروسي . يبقى، إذاً، تزويد أعداء *إسرائيل* في *الشرق الأوسط* بالسلاح والخبراء . ومن الطبيعي أن يكون مؤلماً ل*.إسرائيل* أن يشن "إرهابيون" مزودون بسلاح سوفيتي غارات على أراضيها بين وقت وآخر ، منطلقين من البلدان المجاورة. غير أن بمقدور *إسرائيل* أن ترد بغارات مماثلة، بل وبفاعلية أكبر بكثير، على أراضي *لبنان والأردن وسورية والعراق* . ولكن المسألة المتعلقة بمدى قدرة جيران *إسرائيل* على تهديد وجودها مسألة جدية بالنسبة ل*.إسرائيل* ولليهود كافة . وهنا تعرضت السياسة السوفيتية لاختبار حاسم أثناء الحرب العربية – الإسرائيلية عام 1973، عندما شرعت *الولايات المتحدة الأميركية* بعد بدء العلميات الحربية بتقديم إمدادات مكثفة من الأسلحة ل *.إسرائيل*، وبات مصير الحرب متوقفاً على قرار *الاتحاد السوفيتي* إن كان سيدخل في سباق مع *الولايات المتحدة الأميركية* في هذا المجال أم لا. ولكن *الاتحاد السوفيتي* رفض الدخول في هذا السباق، الأمر الذي حسم توجه الرئيس المصري **أنور السادات** نحو *أمريكا*، عندما رأى في هذا الأسلوب دون سواه ما يمكّنه من الحصول ولو على بعض التنازلات . وهكذا، مرة أخرى اتخذ *الاتحاد السوفيتي* قراراً يراعي مصلحة اليهود، رغم أن ذلك القرار جعله يفقد أقوى رأس جسر له في *الشرق الأوسط*، أي مصر. وهكذا نرى أن الحزب كان يتنازل دائما لليهود في المسائل ذات الأهمية الحيوية من وجهة نظرهم، مهما كان هذا التنازل مؤلماً له.

وقد تابع الحزب، من الناحية الأخرى، نضاله من أجل الحفاظ ، ولو بقدر ما، على استقلاليته عن النفوذ اليهودي. فما مدى جدية التغيرات الاجتماعية التي استثارتها هذه النزعة؟.. كم كان مفيداً لنا هنا ، لو توفرت مادة إحصائية مستخلصة ومدروسة دراسة نزيهة !.. طبعاً، ليس في حوزتنا أي شيء من هذا القبيل . أما اللوحة، الانطباع العام، فترسمهما الشكاوى التي تتردد عندنا، وبصخب أعلى في *الغرب* على وجه الخصوص . وهنا يخطر على البال ما قاله **دوستويفسكي** عنهم كشعب يُحسِن الشكوى بصوت أعلى من أصوات باقي الشعوب . وهذا ما كان بالفعل منذ غابر الأزمنة . إذ يؤكد **يوسف فلافي**، على سبيل المثال، أن عدد القتلى الذين سقطوا

في *أورشليم*، أثناء الانتفاضة التي قمعها الإمبراطور **تيتوس**، بلغ مليوناً ومائة ألف شخص، في حين أن عدد سكان *أورشليم*، من الرجال والنساء والأطفال، لم يكن ليتجاوز ستمائة ألف نسمة، حسب تقديرات **تاسيتوس**. ونصادف مثل هذه الصورة عملياً في جميع البلدان التي من المتيسر الحصول على معلومات عنها. فغالباً ما كانت الصحف في *ألمانيا* مطلع القرن العشرين تكتب عما يعانيه اليهود من ظلم وإجحاف. وكان ثمة جمعيات تعمل لتغيير هذا الوضع، في حين كان عدد التلاميذ اليهود النسبي في المدارس الثانوية يزيد 4 أو 5 مرات عن عدد التلاميذ المسيحيين، وعدد الطلاب الجامعيين أعلى بـ 5،5 مرات، وعدد الأساتذة والأساتذة المساعدين بعشرين مرة. وكان اليهود في المتوسط أغنى من المسيحيين بـ 3 أو 4 مرات. وكانوا يشكلون بين مدراء المنشآت الضخمة نسبة 13 بالمائة، وفي مجالس الرقابة 24 بالمائة، بينما لم تكن نسبتهم إلى إجمالي عدد السكان تتعدّى الواحد بالمائة. (هذه الأرقام من كتاب **زومبرت** الذي ورد ذكره أعلاه).

سبق وأشرنا إلى أن **ماكس نورداو** صرح بكامل الجدية مطلع القرن الماضي أن اليهود أكثر أمم الأرض بؤساً، وأفقر من الإسكيموس. وفي العام 1911 (أثناء المؤتمر الصهيوني التاسع) تحدث عن اضطهاد اليهود، وعن "جريمة ترتكب بحق ملايين البشر الأبرياء، لا مثيل لها في تاريخهم الزاخر بالمجازر" (!). أما اليوم فإن من المتعذر أن يفهم المرء أية اضطهادات يعني. إذ حتى في أيامنا هذه، وفي ظل ما يتمتع به يهود *الولايات المتحدة الأميركية* من غلبة لا سابق لها، توجد هناك *"رابطة مناهضة التمييز"* التي تضع نُصب عينيها هدفاً هو النضال ضد التمييز بحق اليهود. ومنذ مدة غير بعيدة أصدرت هذه المنظمة بياناً قالت فيه إن عدد اليهود الذين يعملون في القطاع المصرِفي ضئيل جداً، وأن هذا القطاع حصنٌ لأعداء السامية!

ولذلك فإننا لن نركن إلى هذه اللوحة التي أَلِفَها العالم، وإنما سنتعامل مع ذلك العدد الضئيل من الوقائع التي يتيسر لنا الحصول عليها رغم ذلك.

مما لاشك فيه أن العديد من اليهود قد تعرضوا لإزاحة تدريجية من مواقع هامة ومفصلية في المجتمع السوفيتي: من قمة الحزب (مثلاً، إزاحة أمناء لجان المناطق)، وسِلك الجنرالات، والشريحة العليا في السِ لك الدبلوماسي، وربما قيادة *لجنة أمن الدولة (كي جي بي)*. ولكن هذه الإجراءات تظلّ بعيدة جداً عن أن تُعَدّ تمييزاً ضد جميع السكان اليهود، أوعن محاولاتٍ للحط من مكانتهم الاجتماعية. (لماذا، على كل حال، يعتبر وجود مجموعة كبيرة من اليهود في المكتب السياسي، أو في مجلس الوزراء أمراً من شانه الارتقاء بمكانة اليهود أجمعين؟ وللتوضيح، كان ينبغي الافتراض أن اليهود إذ يشغلون مناصب رفيعة، لا يتصرفون كممثلين للحزب أو الدولة، وإنما كقوميين يه ود، ممثلين لليهودية. على أن هذا الاستنتاج هو بالتحديد ما يرفضه اليهود عادة بغضب، بوصفه استنتاجاً "معادياً للسامية"). فما هي حقيقة الأمر، فعلا؟ إننا ندخل هنا ميداناً لا يتوفر فيه إلا قدْر زهيد جداً من المعلومات التي تستند إلى وقائع. فما من شك في أن محاولاتٍ قد جرت للحد من قبول اليهود في العمل هنا أو هناك، وكذلك للحد من قبول الطلاب اليهود في بعضٍ (حرْفياً: بعضٍ) من مؤسسات التعليم العالي. كما أنه لا شك، من ناحية أخرى، في أن نفوذ اليهود ظل قوياً جداً في العديد من الميادين. ومن الأمثلة على ذلك ميادين العلوم والأ يديولوجيا. إذ يشكل اليهود في أكاديمية العلوم نسبة بين الأكاديميين والأعضاء المراسلين تزيد عن 10 بالمائة (بينما نسبتهم إلى مجمل سكان البلاد 0, 8 بالمائة). بل وكان عددهم أكبر من

ذلك في اتحاد الكتاب السوفييت ، وفي اتحاد الموسيقيين السوفيت أيضاً . ومما يدعو للأسف أن ما كان يصدر عندنا من مراجع ببلوغرافية كان يتحاشى مسألة القومية (وليس بوسعي أن أخترع تفسيراً آخر لهذا الأمر إلا الرغبة بعدم مفاقمة الموضوع الذي نناقشه هنا). إلا أن يدي وقعت على مادة تشكل استثناء، وهي دليل اتحاد الموسيقيين في جمهورية *روسيا الاتحادية الا شتراكية السوفيتية* لسنوات 1968 – 1972، وفيه إشارة إلى التركيبة القومية للاتحاد (على أن هذه الهفوة تم تداركُ ها فخلت الطبعات التالية من هذه المعلومات). إذ يُطْلِعنا هذا الدليل – الاستثناء على أن عدد أعضاء الاتحاد كان بتاريخ الأول من حزيران / يونيو 1973 قد بلغ 874 عضواً، منهم 484 روسياً، و218 يهودياً، يليهم الأرمن (34 عضواً)، فالتتار (25 عضواً)...إلخ، أي أن اليهود يشكلون ربع إجمالي أعضاء الاتحاد. أما في منظمة *لينينغراد* التابعة لهذا الاتحاد فيشكلون أكثر من 36 بالمائة، وفي موسكو 28,5 بالمائة، بينما لا وجود لهم في منظمات *تشوفاشيا وبورياتيا وفورونيج* . وعددهم في منظمة *أعالي الفولغا* واحد من أصل عشرين ...إلخ. (يشير المؤلف هنا إلى حضورهم الكثيف في العاصمة والمدن الرئيسة حصراً. . م). ولا بد من أن نأخذ بعين الاعتبار مبدأ الإحصاء ذاته : أي أن الانتماء القومي يتحدد عبر الاستبيان المباشر، أو حسب بطاقة الهوية الشخصية . ووَفقاً لهذا المبدأ في الإحصاء (المعمول به عند إجراء الإحصاء العام أيضاً) تبيّن أن اليهود يشكّلون 0,8 بالمائة من عدد السكان عام 1970. على أن أغلبية اليهود الآن يعتبرون روساً وَفقاً لبطاقة الهوية الشخصية، وهذا يعني أن عدد اليهود في اتحاد موسيقيي جمهورية *روسيا الاتحادية الاشتراكية السوفيتية* كان أكبر من الرقم المذكور أعلاه بكثير . ومن الواضح للعيان أنهم كانوا فيه الأغلبية، بل والأغلبية الساحقة، إذا ما أضفنا أبناء الزيجات المختلطة (الذين يجري في عروقهم دم يهودي). وقد عثرت في مذكرات موسيقار عاش في تلك الفترة على إشارة إلى أن قيادة منظمة الاتحاد في *لينينغراد* كانت تتألّف من: **فينغرت** رئيساً، **يوخلسون** سكرتيراً مسؤولاً، **كيسيلمان** سكرتيراً ثانياً، **وكورتس** سكرتيراً لشؤون التنظيم (جميعهم من اليهود. . م).

سأحيل القارئ هنا إلى كتاب من تأ ليف ف.**توبوروف**، صدر مؤخراً. إذ يخبرنا المؤلف في مقدمة كتابه أنه يهودي مئة بالمئة، غير أن المربية عمَّدته فصُرِ فتْ من عملها بسبب ذلك . وأنه ملحد ، ووطنيّ روسي. أي أنه يشعر بالغربة في أي مكان، وهذا ما يدفعه للقيام بمتابعات فريدة من نوعها، وغالباً ما تكون مموَّ هة، بهدف اقتناص القارئ (العنوان الفرعي للكتاب: اعترافات مشاكس)، فيقول:

"كان يهود البورجوازية الصغيرة، أبناء الأماكن النائية، يشكِّ لون احتياطياً رئيساً لكوادر الثورة الاجتماعية – البروليتارية، كما كانت تسمي نفسها وتصف أهدافها".

ويخاطب المؤلف جليساً يهوديا مفتوَضاً، فيقول:

"ادحضْ تهمة النير اليهودي ما بين 1917 و1937، لأنه لم يكن لهذا النير من وجود . ولكنْ، لا تنسَ أيضاً غلبة اليهود الاستثنائية في مؤسستَي القمع والدعاية لليوتوبيا التي تتحقق ذاتيّاً".

ويحدثنا على نحوٍ أكثر تحديداً عن فترة "ما قبل *البيريسترويكا*"، فيقول:

"كانت منظمة الكتَّاب في *لينينغراد* تتألف من حوالي 80 بالمئة من اليهود، السافرين أو المقنّعين".

إن الوضع المادي، والاجتماعي أيضاً (إمكانية الحصول على عمل أفضل، وفرص للدراسة) أعلى بكثير عند سكان المدن مما في الريف، وهذا ما ينطبق بصفة خاصة على المدن الكبيرة. أما سكان موسكو فكانوا (وما يزالون) يمثّلون النخبة المختارة . ولذلك فإن تحديد مكان إقامة أية مجموعة من السكان : هل في قرية، أم في مدينة، أم في مدينة كبيرة، أم في موسكو، هوالتوصيف الاجتماعي الهام لوضع تلك المجموعة . وفي هذا السياق نورد بعض المعطيات من مجلة *"كولتورا" (الثقافة)* اليهودية غير المرخصة:

"جميع اليهود عملياً (96 أو 98 بالمئة منهم) يعيشون في المدن . وخاصة في المدن الكبيرة، حيث عددهم أكبر بكثير مما في المدن الصغيرة والمتوسطة".

كما ويورد المؤلف الأرقام التالية: يشكل اليهود في *أوكرانيا* أقل من 3 بالمئة من عدد السكان، بينما يشكلون في مدينة *كييف* (العاصمة) 10 بالمئة . وتبلغ نسبتهم في *الاتحاد السوفيتي* (*وروسيا الاتحادية الاشتراكية السوفيتية*) 1 بالمئة، بينما تبلغ تلك النسبة 3,5 بالمئة من سكان *موسكو*.

سنورد فيما يلي بعض الأرقام المتعلقة بمسألة التعليم. وهذا، بالطبع، ليس إلا جانباً واحداً من الجوانب العديدة لهذه المشكلة، إلا أنه جانب نموذجي في تعبيره عن الوضع العام، وربما لهذا السبب بالذات انصبّ عليه يومها أكبر قدْر من الاحتجاجات . ولكي نضمن لمعطياتنا الابتعاد عن التحيز (أو بالأحرى، لكي لا يكون تحيزها إلا من جانب واحد)، فإننا لن نستقيها إلا من مصادر يهودية حصراً.

نشرت مجلة *"الزمن ونحن"* التي تصدر في *إسرائيل* باللغة الروسية مقالة بقلم إ . **دومالسكي** ، يخبرنا فيها (مستنداً إلى الحولية الإحصائية السوفيتية *"الاقتصاد الوطني في الاتحاد السوفيتي"*)، أن عدد طلاب الجامعات والمعاهد العليا في *الاتحاد السوفيتي* للعام الدراسي 1972 / 73 بلغ 4630,2 ألف طالب ، منهم 88,5 ألف طالب يهودي، أي 1,9 بالمئة. وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن نسبة اليهود إلى عدد السكان، وفقاً لإحصاء العام 1970، كانت 0,8 بالمائة، رأينا أن نسبة اليهود بين الطلاب، حتى بالاعتماد على هذه المعطيات، تفوق ضعف نسبتهم إلى مجموع السكان. وثمة أرقام أخرى في المقالة المذكورة تتحدث عن فرص الانتساب للدراسات العليا والعمل بعد ذلك في المؤسسات العلمية (يستند المؤلف هنا على كراس لم يطرح في السوق علناً، وعنوانه *"إحصائيات بمناسبة يوبيل أكاديمية العلوم السوفيتية"*). ففي العام 1973 بلغ عدد اليهود بين العاملين في المجال العلمي 6,1 بالمئة، أي 7,5 مرات أكثر من نسبتهم إلى مجموع السكان ! (والطريف أن المؤلف يؤكد، باستياء على ما يبدو، على أن نسبة الروس بين العاملين في المجالات العلمية بلغت 66,7 بالمئة، في حين لا يزيد عددهم عن 53,0 بالمئة، أي بزيادة تبلغ 1،2 بالمئة!).

ونقرأ في كتاب ر. **ريفكينا** الصادر في وقت لاحق أن نسبة الطلاب اليهود تتقلص باستمرار : من 7,5 بالمئة عام 1927 إلى 3,7 في العام 1959، و2,18 في العام 1962. هذا في حين كانت نسبة اليهود إلى مجموع السكان أقل من 0،8 بالمئة. تقول المؤلفة إن اليهود:

"نشطوا في الإفادة من الحقوق الممنوحة لهم خلال سنوات السلطة السوفيتية، ونجحوا في الاندماج بالبنية الاجتماعية السوفيتية، وأحرزوا الكثير.

وقد بعثت السنوات الأولى التي أعقبت الحرب فيضاً عظيماً من النشاط الاجتماعي لدى اليهود".

على أن هذا "الفيض"، كما تسميه المؤلفة، خلق أيضاً في وقت لاحق نوعاً من القنوات التي ساعدت اليهود فيما بعد على الاندماج بالمجتمع الروسي بطريقة أكثر يسراً.

وتصل المؤلفة إلى الخلاصة التالية:

"لقد شغل اليهود مكانة بارزة للغاية في بنية المجتمع السوفيتي، إذ كانت نسبتهم بين العلماء ، والعاملين في الجامعات، والمعاهد العليا، والمجال الطبي أعلى بكثير من متوسط نسبة سكان مدن البلاد في هذين القطاعين".

(فلننتبه إلى أن المقارنة هنا لا تتعدّى *سكان المدن* حصراً). وعلى سبيل المثال، كانت نسبة اليهود بين العاملين في المجال العلمي ، ومدرّسي الجامعات ، والمعاهد العليا أكبر بخمس مرات تقريباً مما هي بين سكان المدن.

وفي عدد آخر نشرت المجلة إيّاها مقابلةً مع الباحث **زئيف كاتس** ، مدرِّس مادة علم الاجتماع السوفيتي في *جامعة القدس*، أشار فيها إلى أن ما بين 80 و90 بالمئة من اليهود في *الولايات المتحدة الأميركية* حصلوا في العقد الأخير على تعليم عالٍ ، وأن الوضع شبيه بذلك تقريباً في كل من *فرنسا وإيطاليا والأرجنتين ورومانيا* . ثم يتابع قائلاً:

"وهذا هو حال الجيل الشاب من يهود *الاتحاد السوفيتي* . فحوالي 70 بالمئة من اليهود يتخرجون في الجامعات والمعاهد العليا، وبذلك يمثّلون الجزء الأكثر تحصيلاً علمياً بين الشباب في *الاتحاد السوفيتي*" (خط التشديد لنا – المؤلف).

على أن جميع ما أعرف من وقائع يؤكد صحة هذه الملاحظة الأخيرة . بل وأكثر من ذلك بكثير : فقد كان يهود *الاتحاد السوفيتي* ، في سنوات السبعينات والثمانينات ، الفئةَ الاجتماعية الأكثر حظوة في ميدان التعليم، والحصول على عمل في مجالات مرموقة، والرفاه المادي . إذ كانوا يقيمون في المدن، بل في كبرى المدن أساساً، وكانوا وحدهم تقريباً من يتمتعون بإمكانية الهجرة. ولقد نالوا هذه المكانة، طبعاً، عبر صراع ومنافسة مع أبناء القوميات الأخرى الموظفين في جهازَي الدولة والحزب الذين كانوا يرون فيهم منافسين وخصوماً نافذين وخطيرين. إلا أن ما يهمنا الآن هو النتيجة التي تمخضت عنها هذه المنافسة...

بل وكانت مواقع اليهود ذات وزن في السلطة نفسها . فقد كان لدى **ليونيد بريجْنِف** (زعيم الحزب الشيوعي السوفيتي.– م)، مثلاً، مستشاران في السياسة الخارجية، أحدهما مسؤول عن صياغة السياسة السوفيتية الخارجية إزاء *الغرب*، والثاني مسؤول عن صياغة هذه السياسة إزاء *الشرق*. وكان الاثنان يهوديين.

أمّا بعد انهيار النظام الشيوعي، فقد ظهرت مجموعة كاملة من الكتابات التي تصف ما تعرّض له اليهود من مضايقات . وهناك كتاب يحمل عنواناً دراماتيكياً (*"في أسر الفرعون الأحمر"*)،ويعدّ مثالاً نموذجياً، ولذلك سنقتطف منه بضعة مقاطع (وهي في الحقيقة لا تتعدى المرحلة التي سبقت وفاة **ستالين**). يستعرض الكتاب رسائل وشايةٍ إلى "المراجع العليا"، أو "خلاصات لجان شُكِّلت استجابة لمثل هذه "الإشارات". وهاكم أمثلة على ما تتضمنه من تأكيدات:

في مسرح البلشوي :

المدير (بالوكالة): ليونتِف، يهودي

كبير قادة الأوركسترا: ساموسود، يهودي

قائد أوركسترا: فاير يهودي

قائد أوركسترا: ميليك– باشايف، أرمني

قائد أوركسترا: شتاينبرغ، يهودي

قائد أوركسترا: نيبولسين، يهودي

نائب مدير فرع المسرح: غابوفيتش، يهودي

مدير فني للباليه: ميسيرير، يهودي

مدير الكورس: كوبر، يهودي

مدير الأوركسترا: كاوفمان، يهودي

مدير عام الحفلات: جوك، يهودي

الإداري العام: سادوفنيكوف، يهودي

وكان كبار العاملين في هيئة تحرير صحيفة *"كمْسَمولسكايا برافدا"* نصفين، نصف من الروس، ونصف آخر من اليهود.

أمّا صحيفة *"ترود"* فقد أسفرت الملاحقات عن تقلص عدد اليهود العاملين في هيئة تحريرها من 50 بالمئة عام 1950، إلى 20 بالمئة عام 1951.

وفي القطاع الطبي: "يوجد في موسكو ثلاثة معاهد للطب النفسي، وأربع عيادات، وخمسة مستشفيات عصبية – نفسية. وجميع هذه المؤسسات، ما عدا واحدة، كان على رأسها أطباء يهود".

لقد عاصرتُ شخصياً تلك الحملات التي غالباً ما كانت ظالمة، في ما يخصُّ الأفراد، إذ كان دائماً من يُسرَّحون من العمل (أو ينقلون إلى عمل آخر) هم تحديداً الأشخاص الأكثر استقامة . وما أكثر ما طرحتُ على نفسي آنذاك هذا السؤال: ما هذا؟ أهو مبادرة من تحت، أم تعليمات من فوق؟ ثم توصلت في نهاية المطاف إلى استنتاج مفاده أن الأمرين كليهما صحيحان . كان الصراع دائراً على جميع المستويات من أجل "مكان تحت الشمس"، وليس للشخص نفسه وحسب، بل ولأولاده أيضاً.

كانت هذه العملية، في الحقيقة، عملية طبيعية تماماً ، بدأت منذ أيام الحرب الوطنية العظمى (حرب *الاتحاد السوفيتي* ضد *ألمانيا النازية* . – م) عندما أخذت كتلة كبيرة من الروس تشق طريقها إلى السلطة، وخ اصة إلى الحزب. فقد ظهرت منافسة يهودية – روسية، لم تكن تفصح عن نفسها بالكلام في الأساس، واستمرت فترة طويلة يتناوبَ الطرفان فيها النجاح. وخُيّل أن هؤلاء الحزبيين الروس الذين كانوا يفتقرون للوعي القومي الذاتي، ويترددون حيرى إزاء مسألة صياغة أيديولوجيتهم على ن حو واضح، وكأنهم لا حظَّ لهم بالنجاح أمام التكاتف اليهودي الذي كان لا يزال يحمل آثار "اليهودية الكلاسيكية" والتنظيم القَهالي. غير أنهم وجدوا بين أيديهم ما كان قد أنشِئ قبل ذلك بكثير، في العشرينات والثلاثينات، من آليات للصراع أساساً ضد المجموعات الاجتماعية الروسية: أحفاد النبلاء، ورجال الدين ...إلخ. وقد تمثّل ذلك في نظام دقيق شامل يقوم على وجود استمارات

تفصيلية، و"أقسام خاصة" منتشرة في جميع المؤسسات ...إلخ. فاستخدم هؤلاء الحزبيون الروس تلك الأدوات في صراعهم ضد منافسيهم اليهود. ولعل أسلافهم من النبلاء الروس، ورجال الدين، والفلاحين، كانوا سيشمئزون من استخدام مثل هذه الوسائل، إلا أن الأحفاد كانوا جيلاً جديداً يرى في نمط الحياة القائم معطى مسلَّماً به. بل ولم يكن المندفعون منهم إلى السلطة والحزب، في معظمهم، هم الأكثر نقاء واستقامة. وكانت النتيجة أن وجد معظم اليهود أنفسهم وقد أُبعدوا عن بعض المجالات التي كانوا يعدّونها تخصّهم شرعاً : كقيادات الاستخبارات *(لجنة أمن الدولة كي . جي . بي .)*، والجيش، والسلك الدبلوماسي، وبعض مؤسسات التعليم العالي المرموقة في العاصمة. وبالطبع، لم يكن ذلك يشبه في شيء حملة القضاء على النبلاء ورجال الدين "وقُدامى المثقفين" ما بين 1918 و1920، أو عملية تجميع الملكيات. أما اليهود، ومن كان يدور "في الفلك اليهودي"، فكانوا يرون في ذلك (وأظنُّهم صادقين) شيئاً رهيباً لم يسمع به أحد من قبل. وعندها استاء اليهود، واهتزّ موقفهم من النظام الشيوعي. كان ذلك انقلاباً ملحوظاً في مناحي الحياة جميعاً. أذكر، كما سبق وأشرت، كيف كان الناس في ما مضى (قبل الحرب، مثلاً) يتجنّبون قول أي شيء سلبي عن النظام بحضور يهودي (أو متزوّج من يهودية، أو متزوّجة من يهودي). ولم يكن ذلك في جميع الحالات بدافع الخوف من الوشاية، وإنما لأنه كان يبدو أمراً منافياً للَباقة، مثلَ الحديث عن مغامرات امرأة بحضور زوجها. أما في الفترة الواقعة ما بين 1960 و1970 فقد كان اليهودي عادة شخصاً مرتاباً، لا ينتظر أيَّ خير من "هذا النظام"، أو من "هذا الشعب".

يومها ظهر ما صار يُعرَف (فيما بعد) بحركة الدفاع عن الحقوق. على أنه كان في حياة الناس كثير من المظالم حقّاً، ولكنها في الأساس لم تكن تمس اليهود البتة، إذ كان الكولخوزيون محرومين من بطاقة الهوية الشخصية، وكان الدِّين موضع اضطهاد ...إلخ. إلا أن حضور اليهود في هذه "الحركة" لم يكن يتّفق على الإطلاق مع نسبتهم العددية. فلنأخذ ولو تلك المحاكمات التي أثارت في ذلك الوقت كثيراً من الضجيج، كمحاكمة **دانيل** و**سينيافسكي**، و**غينسبورغ وغالانسكوف** ... إلخ، نجِدْ أن الوضع شبيه بما كان سائداً في الحركة الثورية الروسية قبل عام 1917. والشيء الأهم هو أنه في النتيجة لم يعد مسموعاً من الحركة كلها سوى المطالبة بحرية الهجرة، هجرة اليهود أساساً.

أجل، إن سعي اليهود الجامح للهجرة كان بحدّ ذاته مؤشّراً على ما أصاب وضعهم في *الاتحاد السوفيتي* من تغير أثار استياءهم وسخطهم. وهذا ما انعكس بجلاء في الكتابات التي نشرها اليهود الذين هاجروا. وقد أوردت في دراستي القديمةِ العهد، *"الرُّهاب الروسي"*، أمثلة كثيرة من الأقوال التحقيرية، والسافرة العداء، التي وصف بها المهاجرون الجدد كلاً من *روسيا* والروس. ويبدو لي أن من استشفّ مزاجهم بأكبر قدْر من الدقة هو الشاعر **يوسف برودسكي** الذي قال عن *روسيا*:

" ... إن فيها، بتعبيرٍ فجّ، خطةً عظيمة لإنتاج المواد الفاسدة".

يبدو أنه كان هناك بعضُ آمال (ربما مبهمة، لم تتبلور بوضوح) بخصوص *روسيا*، امتنع الروس بعناد عن قبولها. فعند مطالعتي كتابات المؤلفين اليهود التي تُنشَر في *الغرب*، كثيراً ما كنت أصاب بالذهول لكون الروس يثيرون لديهم قدْراً من الكراهية أكثر مما يثيره الألمان. إذ تقتبس **زينابيدا شاخوفسكايا**، مثلاً، مقاطع من كتاب

"حبٌّ متأخر" لمؤلفه **عاموس عوز** الذي يطلق فيه العنان لتخيلاته في تصوّر دبابات يهودية تسير في *روسيا*، فيقول:

"ترتعد الأرض الروسية وتئن . والكنائس تتصدع وتتهاوى . كييف، وخاركوف، وحوض نهر الدانوب، وروستوف... كل شيء مدَمَّر، وقد أُزيل كل شيء على وجه الأرض. الثأرَ! الثارَ! ".

ففي هذا المرجل من الانفعالات نشأت آنذاك نظرية اضطهاد اليهود في *الاتحاد السوفيتي*، أو حتى اضطهاد اليهود، بوصفه جريمة النظام الشيوعي الرئيسية.

ولكن هذه الهجرة، من حيث حجمها، لم تكن تصلح لأي نوع من المقارنة بهجرة ملايين كثيرة من اليهود قبل الثورة. ذلك أن الأكثرية الساحقة من السكان اليهود ظلت باقية في *الاتحاد السوفيتي*، وواصلت خوض صراع عنيد من أجل الحفاظ على وضعها الامتيازي . آنذاك كانت توجد عشراتٌ ومئات من الطرق للالتفاف على الإجراءات التي يتخذها الجزء المنافس لليهود في أجهزة الحزب والسلطة . وإليكم قصةَ عن تلك الأوقات لا تزال في ذاكرتي.

فقد كانت ابنة أحد معارفي تعمل في مجلة تنشر رسائل القراء بانتظام . وكان يرد إلى المجلة كثير من الرسائل التي يذكر فيها كاتبوها الغاضبون أسماء يهودية كاملة، مع اسم الأب واللقب، لأشخاص يتهمونهم بعمليات غش وخداع. وكان رئيس القسم الذي ترد إليه الرسائل في المجلة يهودياً، فاستدعى الفتاة وسألها:

. هل أنت، يا بنيتي، معادية للسامية؟

. كلا، بالطبع!

. إذن، فلماذا تركّزين الانتباه على هذه الاتهامات الخسيسة؟ بدّلي بهذه الأسماء أسماء أخرى عاديّة ... مثل: سيدَروف أو بيتروف[١٥].

وهكذا كانت تصدر المجلة وفيها وصف لعمليات نصب قام بها "سيدَروف"ات و"بيتروف"ات مختلَقون، لا وجود لهم.

كان ثمة سبل أخرى قائمة على ما تبقى لهم من نفوذ في جهاز اللجنة المركزية، وفي السلطة عموماً. فمن حين لآخر كان أولئك الذين تأخذهم الحماسة في تمهيد المكان "للكوادر الروسية" يدفعون مستقبلهم الوظيفي ثمناً لذلك. والمثال الساطع في هذا الخصوص هو مصير فيلسوف الحزب **غ. ف.ألكساندروف** الذي كان في وقت ما رئيساً لقسم الدعاية ، ووزيراً للثقافة في *الاتحاد السوفيتي*. فمن الواضح أنه حتى **ستالين** نفسه كان يتلمس طريقه بحذر في هذا الخصوص. إذ يقول الكاتب **سيمونوف** في مذكراته إنه ذات مرة، في أثناء مراسم تسليم جوائز **ستالين،** ذكر **مالينكوف** اللقب الحقيقي (اللقب اليهودي) لكاتب كان ينشر تحت اسم مستعار، فقاطعه **ستالين** قائلاً إن ذلك لا يجوز. بل وكان واضحاً أن موقف **سيمونوف** نفسه كان يتأرجح بين قطبي النفوذ.

ثم إن هناك، من ناحية ثانية، واقعة أخرى مثيرةً للفضول تميّز الوضع الناشئ، ويلفت **صولجنيتسين** الانتباه إليها في واحد من كتبه. ذلك أنه في العام 1955 أعيد طبع *"معجم اللغة الروسية"* الذي ألَّفه **فلاديمِر دال**. وكان

---

[١٥] من أكثر الألقاب بساطة وشيوعاً عند الروس. – م.

مكتوباً على الغلاف أن المعجم "نُضِّد وطبع وَفقاً لطبعة 1880 – 1882". غير أن النص الذي يتضمّن كلمة "جِيْد"[١٦] وباقي مشتقاتها...إلخ. (على صفحة كاملة تقريباً) كان قد أُسقِط من هذه الطبعة . ولكيلا يطرأ خلل في ترقيم الصفحات تطلَّب الأمر جهداً كبيراً، وتنسيقاً بين مختلف درجات المحررين المسؤولين عن التنضيد ...إلخ.، علماً بأنه ما من مطبوعة كانت تصدر إلا بعد مرورها على دائرة الرقابة . فكيف، يا تُرى، تم تنسيقُ ذلك كله، وضمانُ ألا يطرح أحد سؤالاً بهذا الصدد؟ في حين احتفظت هذه الطبعة من المعجم المذكور بكلمات وأمثال فيها تحقير للروس، ككلمة "*كاتْصاب*"، والقول بأن الموسكوفي لا يؤمَن جانبهُ: "*صادقِ الموسكال، ولكنْ احتفظ بحجرٍ في عُبِّك* " (بمعنى: صادقْه ولا تأمَن له). فما الذي كان مهيناً في تلك الكلمة إهانة لا تحتمل، ذلك ما يشق عليَّ فهمُه. حقاً إنه أحد الطقوس السرّية!

كيف كان رد فعل اليهود من جهة، وجهاز الحزب الشيوعي من جهة أخرى، على ما ظهر من اختلاف في المصالح؟ لقد كان رد فعل اليهود شديد الحدّة (كالعادة دائماً). وفي غضون بضع سنوات انقلبوا من ركيزة للنظام إلى مجموعة معارضة هي الأكثر فاعلية. وتدلّ على ذلك دلالةً ساطعة مشاركتُهم غير العادية من حيث عددهم في "حركة الانشقاق". وبعيداً عن الدخول في تحليل هذه الظاهرة المعقدة، نشير إلى أن مشاركة اليهود لم تكن كبيرة في جميع التحركات "غير الحكومية" التي جرت في تلك الفترة. إذ يتعذّر القول إن اليهود كانوا أكثر نشاطاً من سواهم عند الحديث، على سبيل المثال، عن النضال ضد تلويث بحيرة "*بايكال*"، وضد مشروع تحويل مجاري الأنهار الروسية، وحتى ضد إدمان الكحول، واضطهاد الكنيسة اضطهاداً لا معنى له. لقد انصبّت طاقتهم بصفة أساسية آنذاك على القيام بنشاطات محظورة سلفاً، وذاتِ طابع احتجاجي– استعراضي، كالتظاهرات، والمؤتمرات الصحفية المخصصة للمراسلين الأجانب، وإصدار مجلة (غالباً ما كانت تتوقف بعد العدد الأول). على أن مجلة "*خرونيكا*" غير المرخصة (*ساميزدات*= نشر خاص) استمرت بالصدور مدة بضع سنوات، وكانت تتحدث عن ملاحقات أولئك الذين يقومون بمثل هذه النشاطات. وقد كانت المواضيع الغالبة فيها تدور حول "منع اليهود من الهجرة"، و"إغلاق فرص التعليم أمام أبناء اليهود "، و"تصاعد العداء للسامية في *الاتحاد السوفيتي* ". وكانت صحافة *الغرب*، ولا سيّما إذاعاته، تتلقف هذه المواد وتبثها بحجم مضاعف عدة مرات، وعلى هذا النحو تروِّجها داخل البلاد. ويظهر التوجه اليهودي لهذه الحركة من قائمة المواضيع الأكثر تناولاً، ومن أسماء الكتّاب، بل ومن مؤشرات أخرى . فعندما شرع **ف. ن.أوسيبوف** في العام 1971، مثلاً، بإصدار مجلة "*فيتشي*" غير المرخصة (مجلة نادرة لم يكن لها صلة بالموضوع اليهودي، وصدرت مدة عامين)، سرعان ما ظهر في مجلة "*خرونيكا*" خبر يقول إنه بدأت بالصدور مجلة "غير مرخصة"، ذات اتجاه قومي متعصب معاد للسامية "، فتلقفت الإذاعات الغربية الخبر حالاً، وراحت تكرر بثه. ولمّا كان **أوسيبوف** لا يزال على علاقة قديمة (من أيام معسكر الاعتقال) مع بعض محرري "*خرونيكا*"، فإنه لفت انتباههم إلى أن مجلته لا تأتي على ذكر اليهود بتاتاً . عندئذ ظهر في العدد التالي من "*خرونيكا*" تصويب من قبل هيئة التحرير يفيد بأن مجلة "*فيتشي*" ليست معادية للسامية، وإن كانت قومية متعصبة. غير أن الإذاعات الغربية لم تأت، طبعاً، على ذكر هذا التصويب.

---

[١٦] هي الكلمة التي كانت شائعة الاستعمال في روسيا قبل 1917 بمعنى "يهودي"، ويشعر اليهود بأن فيها شيئاً من التحقير لهم. – م.

وخلافاً للمثل اللاتيني الذي يقول : "بعد ذلك، لا يعني : نتيجة لذلك "، فإن من الصعب ألا نقارن هذا "الاختلاف" بما طرأ في ذلك الوقت من تغير سريع وراديكالي على موقف مثقفي *الغرب* من السلطة الشيوعية في *الاتحاد السوفيتي*. فبينما كتب **سارتر** بعد الحرب يقول إن ما أشيع عن معسكرات الاعتقال في *الاتحاد السوفيتي* ينبغي تجاهله لأنه "يمكن أن يؤدي بالبروليتاريا الفرنسية إلى الإحباط"، غدت الكتب الصادرة في الثمانينات حول هذه المواضيع هي الأكثر انتشاراً، وتصدّرت قائمة المبيعات . وعلى سبيل المثال، فإن أحد الكتاب اليسار يين الفرنسيين، **بيير ديكس** ، الذي كان في مرحلة "الوفاق الحميم " يوضّح أن معسكرات الاعتقال في *الاتحاد السوفيتي* هي دليل على إلغاء استغلال الإنسان للإنسان إلغاء تاماً، نراه الآن يكتب مقدمة تقريظ لرواية **صَلْجينيتسِن** *" يوم في حياة إيفان دينيسوفيتش "*. وكذلك تغير تقيي م النظام الشيوعي من وصفه بـ "التجربة الباهرة"، إلى نعته بـ "إمبراطورية الشر". وثمة أسس لأن نرى أن منبع هذا التغير ينبثق من الافتراق بين السلطة السوفيتية واليهود. إذ يقول الكاتب اليساري، **إسحق دويتشر**، مثلاً، عندما يصل إلى *"قضية الأطباء"*، في كتابه عن سيرة **ستالين** الشخصية:

"وعندها أنزل **ستالين** ضربته بجذر الفكرة التي عاشت عليها الثورة، والدولة، والحزب؛ لقد أتلف شهادة ميلاد نظامه، وكذلك وثيقةَ حُسن السلوك التي تؤكد جدارة هذا النظام الإيديولوجية . بهذا التصرف أقدمت *الستالينية* على الانتحار حتى قبل أن يموت مؤسسها".

أياً كانت المبالغة في هذا القول فإنه، على ما يبدو، قريب من الحقيقة . ولعلّ **ستالين** أجهز آنذاك على سمعته في عيون *الغرب*. فمن الجلي للعيان أنه مسّ مراكز معينة ذات أهمية حيوية، وكان لها الكلمة الفصل، أحياناً، في تقييم الحياة السوفيتية لدى أوساط الرأي العام الغربي . إذ شرعت أوساط الرأي العام هذه تغير خطها تغييراً جذرياً، مثل سفينة تنصاع لربّ انها. وسرعان ما شقّت هذه السفينة طريقها بثقة في الاتجاه الجديد . فقد أخذت الصحف تذخر بتصريحات المهاجرين وهم يتحدثون عمّا في الحياة السوفيتية من أنواع الظلم والقسوة . واتخذ مجلس الشيوخ الأمريكي قراراً يقضي بتجزئة *الاتحاد السوفيتي*. أما الفلاسفة الفرنسيون اليساريون، أمثال **غلوكسمان** و**ليفي**، فراحوا يكيلون الاتهامات بقوة لأنصار **ستالين**. بل ونشأ بين الشيوعيين الغربيين تيار *الشيوعية الأوروبية* الذي سعى لإبراز اختلافه عن القوالب السوفيتية في بعض الأمور.

فكيف كان رد الفعل من جانب السلطة السوفيتية؟ لقد جاء مقصِّراً كثيراً عن أن يكون مكافئاً للفعل نفسه! إذ كان محظوراً، حتى في الأدبيات الدعائية، ذكرُ النفوذ اليهودي. لقد اختُرِعَ تعبيرُ "الصهيونية" الذي كان يستخدِم شكلياً اسمَ التيار اليهودي الهادف إلى إقامة دولته، ولكن هذا التعبير كان يلمِّ ح أحيانا إلى اليهود عامة. وهذا الارتباك دليل على أن السلطة لم تضع نفسها في مواجهة اليهود، ولم تشعر بأنهم خصم لها . وبينما كان اليهود الذين هاجروا من *الاتحاد السوفيتي* قد ملأوا القسم "الروسي" في إذاعة *"الحرية"*، وراحوا بـالفم الملآن يصِمون الشيوعية بأنها نظام عبودي لاإنساني، كان رجال الدعاية السوفيت يغمغمون بكلام خجول عن "الصهيونية"، يلومونها فيه على عدائها الأبدي للاشتراكية والشيوعية (**لـماركس، وتروتسكي؟**). وهذا يعني أن واحداً من طَرَفي السجال (المعبِّرَيْن عن موقف اليهود والسلطة الشيوعية) لم يكن يساوره أي خوف من التسبب بقطيعة نهائية، في حين كان الخوف يُقعِد الطرف الآخر بكل وضوح.

وهكذا خسر النظام الشيوعي في الثمانينات كامل الدعم اليهودي القوي ، الداخلي والعالمي،الذي استفاد منه على مدى عشرات السنين.

مراجع الفصل الثالث عشر :

1– شَفَريفيتش. إ. *روسيا في عهد الشيوعية*. // الشعب الروسي عند مفترق الألْفيتين. موسكو 2000.

2 – *مأساة القرية الروسية*. المجلدان 1 و2، موسكو، 1999، 2000.

3 – إيفنيتسكي. ن.أ. *تجميع الملكيات ونزع ملكية الكولاك مطلع الثلاثينات* . وَفقاً لمواد المكتب السياسي للحزب الشيوعي الروسي (البلشفي) والإدارة الحكومية السياسية الممتازة // مجموعة "*مصائر الفلاحين الروس*". موسكو، 1996.

4 –غوركي . م. (تحرير)، *قناة ستالين "البحر الأبيض – بحر البلطيق* ". من سلسلة "*تاريخ المعامل والمصانع*". موسكو، 1934.

5– *الموسوعة اليهودية الموج زة*، الفصل الثالث ، "*معسكرات الاعتقال الألمانية* ". سان بطرسبورغ، 1911، المجلد 4.

6 – من كان على رأس مفوضية الشعب للشؤون الداخلية . 1934– 1941 (مرجع سابق ورد في الفصل العاشر)

7 – آغورسكي. م.، شكلوفسكايا م. مرجع سابق (ورد في الفصل العاشر).

8 – باغريتسكي. إ. ذكريات معاصرين. موسكو، 1973.

9 – سيمانوف . س. "شبان مرحون " أو فَكُّ بعض رموز روايات إ .إيلف وي .بيتروف // مجلة "موسكفيتيانين" 1992، العدد 1.

10 – فيختفانغِر. ل. "موسكو، 1937"، موسكو، 1937.

11 – ستالين. ي. المؤلفات. المجلد 13، موسكو، 1951.

12 – كونكفيست. ر. الإرهاب الكبير. ريغا، 1991.

13 – كوسطيرتشينكو. غ. في أسر الفرعون الأحمر. موسكو، 1994.

14 – فاسيليِفا. ل. زوجات الكرملين. موسكو، 1993.

15 – سودوبلاتوف. ب. الاستخبارات والكريملِن. موسكو، 1996.

16 – آفتورخانوف. أ. لغز موت ستالين. فرانكفورت على الماين، 1976.

17 – خروشوف. ن. مذكرات. // مجلة "قضايا التاريخ"،،1991 العدد 11.

18 – Wittlin T. Comissar. L. 1972

19 – ريد. د. جدل حول صهيون. (مرجع سابق ورد في الفصل الأول).

20 – Deutsher I. Stalin.N.-Y. 1961

21 – Sombart W. Die Zukunft der Juden, Leipzig 1912

23 – Nordau M. Max Nordau to his people.N.-Y.1941

24 – توبوروف. ف. القعر المزدوج. يوميات مشاكس. موسكو، 1996.

25 – آهارون .إ. بحث في الخواص الديمغرافية للسكان اليهود في الاتحاد السوفيتي // كولتورا (ساميزدات)، موسكو، 1976، العدد 7.

26 – دامانسكي. إ. تكنولوجيا الكراهية // نحن والزمن. إسرائيل، 1978.،العدد 25.

27 – ريفكينا. ر. اليهود في روسيا ما بعد السوفيتية– من هم؟ موسكو، 1996.

28 – كاتس زئيف. مقابلة. // نحن والزمن. إسرائيل. 1976، العدد 4.

29 – شَفَريفيتش إ. الرهاب الروسي (مرجع سابق ورد في الفصل الأول).

30 – سيمونوف. ك. بعيني إنسان من أبناء جيلي. موسكو، 1999.

31 – شاخوفسكايا . ز. اليهود وروسيا // بشير الحركة الأرثوذكسية الروسية . باريس، 1983، العدد 140.

32 – صَلجينيتسِن أ. 200 عام معاً. (مرجع سابق ورد في الفصل الحادي عشر).

الفصل الرابع عشر

الغرب المعاصر

(بعد الحرب العالمية الثانية)

1. تأسيس دولة *إسرائيل*

تزامن انتهاء الحرب العالمية الثانية مع اشتداد النفوذ اليهودي في *الغرب*. وكان الحدث الأبرز في هذا الاتجاه هو إقامة دولة *إسرائيل*. فقد تأسست الدولة الجديدة بقرار من مجلس الأمن الدولي في العام 1948، ووَفقاً لهذا القرار كان ينبغي أن تقوم في *فلسطين* دولتان، إحداهما يهودية والأخرى عربية، وأن توضع *القدس* تحت إشراف دولي. غير أنه لم يتحقق من هذه البنود حتى الآن سوى بند واحد هو إقامة الدولة اليهودية. ثم احتلت *إسرائيل القدس*، وأعلنتها عاصمة لها.

قبل ما يزيد على ألف عام من ذلك انبرت *أوروبا*، المعدَمة في ذلك الحين، لمواجهة *الشرق* الذي كان يفوقها غنى بكثير، واسترجعت مقدساتها، ولو لبعض الوقت. أما اليوم فإن الحضارة التي تسمي نفسها مسيحية، وتسيطر على العالم، كما يبدو، سلَّمت بواقع أن المدينة المقدسة عند المسيحيين قد استولت عليها دولةٌ تقترب حالة المسيحية فيها كثيراً من الحالة التي كانت عليها في *الاتحاد السوفيتي*، دولةٌ يمكن، مثلاً، حرق *الإنجيل* فيها جهاراً، وَفقاً لتعاليم *التلمود* (يورد **شاحاك** حادثة حرق طقسي يوم 13 / 3 / 1980 في *القدس* لمئات النسخ من *الإنجيل* على يد أعضاء من مجموعة *ياد ليهاخيم* الدينية التي تمولها حكومة *إسرائيل*). وكانت كلتا الدولتين العظميين – *الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي* – قد أيدتا قرار إقامة دولة *إسرائيل*. زِدْ على ذلك، أن كلتا الدولتين أسديتا الدعم العسكري للجانب اليهودي في الصدامات العربية الإسرائيلية التي سرعان ما ان دلعت بعد اتخاذ القرار فوراً. ويورد **دوغلاس ريد** مقتطفاً من جريدة *"نيويورك هيرالد"* (5/ 8 / 1948) جاء فيه:

"... قدمت *روسيا* مساعدة ملموسة لـ*إسرائيل* كانت في أمَسِّ الحاجة إليها ... فقد فتحت *روسيا* مستودعات أسلحتها أمام *إسرائيل* ... وفي أثناء استعراض القطعات العسكرية الإسرائيلية في *تل أبيب* كانت البنادق التشيكوسلوفاكية الجديدة تتألّق على الأكتاف".

كما يتحدث رجل الاستخبارات السوفيتي الرفيع المستوى ب . **سودوبلاتوف** في مذكراته عن تزويد المنظمات اليهودية في *فلسطين* بالأسلحة السوفيتية قبل العام 1948.

لذلك يقول **ناحوم غولدمان** الذي مر ذكره أعلاه:

"لولا *الاتحاد السوفيتي* لما كان لـ*إسرائيل* أن توجَد أصلاً. ولا يعود ذلك لتصويت الروس لصالح قيامها، بقدْر ما يعود لتلقي *إسرائيل* كلَّ سلاحها من البلدان الشيوعية في أثناء الهجوم العربي عليها عامي 1948 – 1949".

وذلك ما ذكره **بن غوريون** بشجاعته المعهودة دائماً، إذ قال لصحفيين من التلفزيون الإسرائيلي:

"إذا كنت أستقبلكم الآن في الدولة اليهودية، فإننا مدينون بذلك لـ *الاتحاد السوفيتي* أكثر بكثير مما لـ *الولايات المتحدة الأمريكية*، لأننا في أثناء حربنا من أجل الاستقلال، عندما كنا مطوّقين بالجيوش العربية، لم نتلقَّ بندقية واحدة من *الولايات المتحدة*".

ولعلّ جميع من في العالم كانوا قد أدركوا، بحلول ذلك الوقت، أن الدولة اليهودية في *فلسطين* لا يمكنها أن تلمَّ شمل كل يهود العالم غير المندمجين في المجتمعات التي يعيشون فيها، وأنها لا تستطيع أن تحقق ما هو أكثر من فكرة **آحاد هعام** القديمة القائلة بأن تغدو دولةَ مركزية ليهود العالم.

ومن ناحية أخرى، فقد خلقَ قيام الدولة اليهودية جملةً من المشاكل الحساسة . أوَّلها، أن كل من يَعدُّ نفسه يهودياً ولم يهاجر إلى *إسرائيل* (وسيكون هؤلاء الأغلبيةَ دائماً ، بحكم اعتبارات مادية محض) سيجد نفسه أمام سؤال هو: ما البلاد التي يعدُّ نفسه واحداً من مواطنيها؟ إن الحلَّ الحالي الذي يسمح "بازدواج الجنسية" لا يمكن تفسيره إلا بانهيار في الوعي الاجتماعي أصاب مقولاته الأساسية. إذ لا يمكن أن يكون لأيّ كان إلاّ وطن واحد ، مثلما لا يمكن لأحد أن يكون إلا من جنس واحد (ذكراً أو أنثى). ومن الطبيعي أنه يمكن في الحالتين أن تكون هناك حالة وسطى، ولكن ذلك شذوذ، يكون في العادة مؤلماً لمن وجد نفسه فيه، وللمحيطين به على حدّ سواء . وأياً كانت الأختام التي تمهر بها بِطاقاتُ الهوية، يظل الشعور بالوطن على سابق عهده عند أغلبية الناس. إن ما يُكتَب في خانة "الجنس" لا يغير موقف الإنسان من هذه "النقطة". والسؤال عن الوطن الحقيقي لليهودي لا يجول فقط في خاطر اليهودي الذي لا يعيش في *إسرائيل*، بل وفي خاطر المحيطين بهذا اليهودي أيضاً . على أنه يمكن، لبعض الوقت، استبعادُ أسئلة كهذه من الوعي الاجتماعي، ولكن عبر السعي، فعلياً، لإيجاد وضع مميَّز لليهود، مقارنة بغيرهم من الشعوب الأخرى. إلا أن هذه المعادلة حساسة وتقوِّض أركان المجتمع.

وثانياً، إن قيام دولة *إسرائيل* في *فلسطين* جعل مشكلة الشعب الذي كان يعيش هنا قبل ذلك مشكلةً بادية للعيان، بعد أن كان يلفها الصمت حتى ذلك الحين. لقد رأينا أن التناقضات كانت قائمة، و تجسّدت في الصدامات الدامية التي وقعت بين العرب واليهود (منذ العشرينات). بل وقبل ذلك وقعت حادثة لافتة للأنظار، عندما شهد مؤتمر السلام بـ*فرساي* لقاءً بين وفد صهيوني ومجلس العشرة (ممثلي البلدان المنتصرة الأساسية). فقد عمد أحدُ أعضاء الوفد الصهيوني، وهو **سيلفان ليفي**، إلى تذكير الحاضرين فجأة بأن عدد العرب الذين يعيشون في فلسطين الآن أصبح 600 ألف نسمة، وأن الوافدين اليهود أغنى منهم، ويشترون الأملاك العربية، وأن إقرار مبدأ "الوطن القومي" سيثير سؤالا خطيراً حول حقوق اليهود بكل هذه الأرض. وإثر ذلك لم يمدَّ له أحد من أعضاء الوفد الآخرين يده مصافحاً عند الوداع. غير أن مسألة "الوطن القومي" تم إنقاذها بتدخل من وزير الخارجية الأميركي **لانسينغ**.

ولكن، عموماً، كان تأسيس الدولة الجديدة تجربة بُدئ بها في "مكان خالٍ"، بعيداً عن عبء الذكريات التاريخية المؤذية. لقد كان عدد اليهود في *فلسطين* أيام *الإمبراطورية العثمانية* ضئيلاً (بضعة آلاف من البشر)، وكان في مقدور المهاجرين اليهود أن يؤسسوا علاقاتهم من جديد مع الشعب المحيط بهم، أي مع العرب.

يبدو أن مؤسس الصهيونية **هرتزل** كان ينوي إقامة دولة يهودية دنيوية (مدنية) يلتئم فيها شمل غالبية يهود العالم، وبذلك يحظون بفرصة العيش في وطن لهم، في نهاية المطاف. غير أنه سرعان ما اتضح أن تطبيق

ذلك مستحيل . لقد قام ممثلو الصهيونية ، أمثال **آحاد هَعام وبوبر** ، بنقل التركيز أساساً إلى الجانب الروحي، انطلاقاً من نظرتهم إلى أن الهجرة إلى *فلسطين* تقتضي تكوين نمط من العلاقات الجديدة بين اليهود و الشعوب الأخرى. وبناء على ذلك اتخذ المؤتمر الصهيوني الثاني عشر، الذي انعقد في **كارلسباد** عام 1921، قراراً تحت تأثير **بوبر**، جاء فيه:

"إن الشعبين الساميين العظيمين اللذين وحدّهما الإبداع الثقافي يوماً، سيتمكنان في ساعة انبعاثهما أيضاً من توحيد مصالحهما الحيوية في قضية مشتركة".

وجاء في خاتمة القرار ما يلي:

" يؤكد المؤتمر تأكيداً قاطعاً على أن عملية الاستيطان اليهودي لن تمسّ حقوق الشعب العربي ومصالحه".

ولكن سرعان ما اجتاحت *فلسطينَ* موجةٌ من الإرهاب اليهودي ، كان الهدف منها إثبات تعذّر التعايش بين اليهود والعرب، وإرغام *بريطانيا العظمى* على تقسيم *فلسطين* إلى دولتين. أما قرار المؤتمر الثاني عشر فلم يكن الصهاينة يخرجونه إلى النور إلاّ عندما تقتضي الحاجة تقديمَ برهان للسلطات الإنكليزية على أن تزايد الهجرة اليهودية لا يهدد العرب بشيء. آنذاك كتب **آحاد هعَام** يقول:

"يا ربي العظيم، ها هي النهاية التي وصلنا إليها ! أحقاً أن هذا هو الهدف الذي كان ينشده آباؤنا، ومن أجله تعذّبت كل هذه الأجيال؟ أيعقل أن هذا هو حلم العودة إلى *صهيون* التي علل شعبنا نفسه بها آلاف السنين؟ أن نعود إلى *صهيون* لنروي أرضها بالدماء البريئة ... إذا كان هذا هو *"المسيح المنتظر"* فأنا لا أريد أن أعيش إلى يوم ظهوره".

وفي العام 1938 كتب **بوبر** يقول:

"يتزايد عدد الأصوات التي تردد : "أنْ تعيش مع الذئاب يعني أن تكون ذئباً ". وينسى أولئك أننا جئنا إلى هنا لكي نعود بشراً من جديد".

وفي العام 1948 احتجّ **بوبر** على وجهة نظر شائعة بين اليهود ، مفادها أنهم ضحايا في النزاع العربي الإسرائيلي، فكتب يقول:

"من الذي هجم علينا؟ إنهم، في حقيقة الأمر، أولئك الذين أحسّوا بأنهم ضحايا عدواننا . لقد أسمونا شُذّاذ آفاق، فأجبناهم بأن هذه الأرض كانت لنا قبل 2000 عام. دعونا نكفّ عن اللعب بالكلمات ! فالحقيقة تتلخص في أننا نحن الذين بدأنا بعدوان سلمي عندما تسربنا إلى هذه البلاد".

أما الشخصية اليهودية المعروفة، **روبرت فيلتش،** فيصف تلك الأحداث على النحو التالي:

"بدلاً من "المصالح المشتركة"، والتعاون بين الشعبين، و "الوطن المشترك"، رأينا حقداً قاتلاً، وعداء ينتقل من جيل إلى جيل . لقد فرَّ من *فلسطين* نصف مليون عربي، وسويت القرى العربية بوجه الأرض، وبموجب قانون الحرب انتقلت ملكية الأراضي العربية إلى أيدي الدولة اليهودية بوصفها "أملاك غائبين"، ليس لها صاحب، ووزِّعت على المهاجرين الجدد، أو ضُمّت إلى أملاك اليهود آنذاك".

وبالفعل، فقد غدا الصراع العربي الإسرائيلي في *فلسطين* أطول نزاع عسكري في القرن العشرين . وأصبح عدد اللاجئين الآن 2,5 مليون نسمة . وقتل من العرب 100 ألف إنسان. ويحظى العرب الفلسطينيون بتأييد

العالم الإسلامي كلّه (أو بتعاطفه، على الأقل)، حيث تنشط بعض المنظمات الإرهابية . وقد قامت هذه المنظمات بعدد من أفظع العمليات الإرهابية ، كتفجير سيارة باص كانت تنقل تلاميذ مدرسة، وقتل الرياضيين أثناء الأولمبياد، واغتيال بعض الشخصيات. فكيف ردت على ذلك دولة *إسرائيل* التي ظهرت إلى الوجود من جديد؟ لقد ردت بعمليات إرهابية مماثلة، تتصف عادة بتنظيمٍ وتقنياتٍ أفضل . إنها أول مرة تظهر فيها خلال القرن العشرين إلى الوجود دولة (باستثناء *ألمانيا الهتلرية*) تتنكّر صراحة لكل المعايير والقوانين. على أن العالم بأسره يسلِّم بما كان من شأنه ، لو وقع في حالة أخرى ، أن يستدعي أشد أنواع التنكيل والعقاب. لقد سلَّم هذا العالم باغتيال ممثل الأمم المتحدة ، **برنادوت** ، وبقصف المفاعل النووي في *بغداد* ، واحتلال جزء من *لبنان* ، ومذابح العرب في *فلسطين* ، واختطاف الناس ...إلخ . وللمقارنة ، نذكّر أنه بعد أعمال العنف (*بوغروم*) عام 1938 في *ألمانيا ("ليلة الكريستال")* التي جاءت رداً على عملية إرهابية ضد دبلوماسي ألماني، نظم الباحث المعروف في الدراسات الاجتماعية، **كلاوديوس ميوللر**، استبياناً للرأي (مع التعهد بالمحافظة على السرية) شمل 41 عضواً في الحزب الاشتراكي القومي (النازي) بخصوص موقفهم من هذه الحادثة . فعبر 63 بالمائة منهم عن استيائهم الشديد ، وأعطى 32 بالمائة إجابة غير محددة، فيما لم يستحسن العملية إلا اثنان فقط ، بالقول : "يجب الرد على الإرهاب بالإرهاب". إلا أن دولة *إسرائيل* تشاطر هذين النازيين المتطرفين موقفهما . وأواخرَ القرن العشرين تمثلت *الولايات المتحدة وحلف الناتو* بالموقف نفسه المتنكّر للقانون الدولي (في *العراق وصربيا وأفغانستان*). ويعود السبب الرئيس طبعاً إلى ما خلّفه انهيار *الاتحاد السوفيتي* من خلل وانعدام توازن. غير أنه لا يجوز التقليل من كون العالم كله ظل يتقبل سابقة من هذا النوع على امتداد نصف قرن، رغم وجود الاحتجاجات والاستياءات.

وهكذا، فمن الأهمية بمكان أن نفهم منطق سياسة *إسرائيل* الخاصة هذه، ومنذ لحظة قيام الدولة ، لا بوصف هذا المنطق عاملاً من عوامل التاريخ اليهودي وحسب، بل ومن أجل أن نعي تاريخ البشرية بأسرها . على أن **إسرائيل شاحاك** يقترح تفسيراً لذلك في كتابه الذي سبق أن استشهدنا به، فيعزو سبب هذه السياسة إلى أن الصهيونية التي ظهرت زمنَ **هرتزل ووايزمن** كتيار قومي وعلماني محض، راحت، بغية تعزيز مواقعها، ترتكز تدريجياً ، وأكثر فأكثر ، على دعم حاخامات "اليهودية الكلاسيكية"، أي الأصوليين النافذين . وخطوة بعد خطوة، غدا ما يسمى بـ "الأيديولوجيا اليهودية" المستَمَدّة من مبادئ "اليهودية الكلاسيكية"، التي مررنا على وصفها في الفصل الرابع، أساساً للصهيونية. فقد استمدّوا من تلك الأيديولوجيا على وجه الخصوص مبادئ علاقة اليهود بغير اليهود، وَفقاً لما تتضمنه الأدبيات التلمودية . ويستخدم الساسة هذه النظرية لأغراضهم الخاصة . فكما يقول **شاحاك** ، كان **بن غوريون** ، على سبيل المثال، ملحداً ، بل وكان يتجرأ على ازدراء الأصول الدينية ، ومع ذلك أعلن في الكنيست إبان حرب عام 1956 أن الهدف الحقيقي لهذه الحرب هو "بعث مملكة **داؤود وسليمان**"، فهبَّ كل النواب واقفين، وأنشدوا نشيد *إسرائيل*. وهذا المنبع الديني نفسه هو أساس ما تقوم عليه المطالب التي صيغت مراراً في إطار "الحدود التوراتية" التي تمتد (في أبعادها القصوى) حتى ضواحي *القاهرة* في مصر ، و*الفرات* في *العراق*، وبحيرة *وان* في *تركيا*، بما في ذلك *لبنان وسورية والأردن والكويت وقبرص*.

إن الأساس الفكري الرئيس للسياسة الخارجية والداخلية في دولة *إسرائيل* يقوم، كما يرى **شاحاك**، على موروث القوانين التلمودية. فهو يقول إنه، في طفولته، تعلّم الأصول التلمودية التي تحدد العلاقة بين اليهود وغير اليهود، ويتابع قوله:

"يخيَّل إليَّ أنه لا يمكن فهْمُ الصهيونية، بما في ذلك جانبها الذي يبدو علمانياً، ولا السياسة الإسرائيلية، بدءاً من تأسيس دولة *إسرائيل*، ولا الموقف الذي تخلقت به *"الدياسبورا"* الداعمة لها ... ما لم نأخذ بالحسبان عمق تأثير قوانين ومبادئ ذلك المجتمع الذي صنعها، وتعبر عنه ... إن وجود عنصر هام يمثّل مركز السياسة الإسرائيلية، وينبني على "الأيديولوجيا اليهودية"، يجعل دراسة هذه الإيديولوجيا ضرورة سياسية. إذ تتأسس هذه الإيديولوجيا، بدورها، على موقف اليهود تاريخياً من غير اليهود... وهي تؤثر بالضرورة على كثيرين من اليهود، بغضِّ النظر عمّا إذا كانوا هم أنفسهم يعون ذلك أم لا ... إن موقف اليهودية الكلاسيكية المتصلب إزاء غير اليهود يؤثر على أتباعها تأثيراً عميقاً. ولا يقتصر ذلك التأثير على اليهود الأصوليين وحدهم، بل يتعداهم إلى من يمكن أن نسميهم بـ "المقلدين" (اليهود بالانتماء)، أي الصهاينة الذين عن طريقهم يؤثر ذلك الموقف على التوجه السياسي لدولة *إسرائيل*...".

ويورد الكتاب كثيراً من الأمثلة على الوجود الملموس لهذا التأثير، نكتفي بالإشارة إلى بعض منها.

يتعلق الأمر، في المقام الأول، بالمبدأ الذي ينظر إلى دولة *إسرائيل* بوصفها "دولة يهودية":

"إن القرار الذي يجعل من *إسرائيل* "دولة يهودية" كان له منذ البداية أهمية من الدرجة الأولى في نظر الساسة الإسرائيليين، وجرى تلقينه للسكان بشتى السبل الممكنة...".

وفي عام 1985 أقر الكنيست قانوناً دستورياً بأغلبية ساحقة (أي يتمتع بقوة تفوق قوة أي قانون آخر) يكون بموجبه أيُّ حزب يرفض في برنامجه مبدأ "الدولة اليهودية"، أو يدعو لتغيير هذا المبدأ بالطرق الديمقراطية، ممنوعاً من المشاركة في الانتخابات البرلمانية. ويتلخص مبدأ "الدولة اليهودية" في أن *إسرائيل* ***مُلْكُ*** (وهذا مصطلح رسمي) من تعدُّهم السلطات الإسرائيلية يهوداً، وذلك بغض النظر عن مكان إقامتهم. وعلى العكس من ذلك، فإن *إسرائيل* رسمياً *ليست مُلْك* سكانها من غير اليهود. ووفقا للقانون الإسرائيلي، يُعَدُّ يهودياً كل من كانت أمه أو جدته أو حتى أم جدته (لأمها) يهودية، أو من اعتنق اليهودية عبر طقوس تعترف السلطات الإسرائيلية بأنها تفي بالغرض. ويقضي *قانون العودة* الأساسي بأن يحصل هذا الشخص على الجنسية أوتوماتيكياً، حال وصوله إلى *إسرائيل*. إذ يمكنه، مثلاً، أن يترشح لعضوية *الكنيست*، حتى وإن كان لا يعرف كلمة واحدة من لغته القومية.

إن الأشخاص الذين تعترف بهم السلطات الرسمية "يهوداً" يتمتعون، مقارنة بغيرهم من سكان *إسرائيل*، بجملة من الأفضليات من حيث الحق باختيار مكان الإقامة أو عند استلام العمل، وعموماً، فإن هذه الفئة من السكان من جهة، وبقية السكان من جهة ثانية، ليسوا على قدم المساواة أمام القانون. والحال، إن ملكية 92 بالمئة من أراضي *إسرائيل* تعود للدولة، وتديرها *"الإدارة الإسرائيلية للأراضي"* (Izrael Land Autority) وفقا للمعايير التي أقرَّها *"الصندوق القومي اليهودي"* (Jewish National Fund) التابع للمنظمة الصهيونية العالمية. وهذه المعايير تمنع غير اليهود من حق الإقامة، وفتحِ المنشآت، لا لشيء إلا لأنهم غير يهود. وكما يقول **شاحاك:**

"هناك عدد كبير من القوانين التي تنطوي على هذا التمييز ، حتى ولو كانت . تفادياً "للمشاكل" دونما شك . لا تستعمل علناً مصطلح "يهودي" و"غير يهودي".

غير أن هذين المصطلحين ينص عليهما *قانون العودة* بشكل واضح، ناهيك عن أن القوانين الأخرى يمكن أن تتحدث ببساطة، مثلاً، عن "الجنسية المكتسبة في إطار العودة إلى الوطن".

على أن الأساس في ذلك هو، من الناحية الإيديولوجية، مبدأ "فدية" (أو كفلوّة؟) الأرض. يقول **شاحاك:**

"يجري تلقين الأطفال اليهود، منذ المدرسة الابتدائية ، أن تطبيق هذه الفكرة العظيمة لا يشمل جميع أنحاء دولة *إسرائيل* وحسب، بل ويشمل أيضاً ما صار يعرف بـ "*أراضي إسرائيل*" بعد عام 1967.

وتعترف الإيديولوجيا الرسمية بأن الأراضي التي أضحت ملكاً "لليهود" هي أراض "مفتداة" (أو تم إنقاذها)، سواءٌ أكانت ملكاً خاصا ، أو للدولة اليهودية ، أو للصندوق القومي اليهودي ... أما بقية الأراضي فتعتبر "غير مفتداة" (أو محتلة). وقد عبَّر عدد من الزعماء الصهاينة مراراً عن فكرة "افتداء"، أو "إنقاذ" كل الأرض، أي انتقالها إلى ملكية اليهود، كهدف نهائي. يقول **شاحاك:**

"وعليه،فإن يوتوبيا هذه "الأيديولوجيا اليهودية" التي تعتنقها *إسرائيل* ، ترى أن الهدف هو الأرض "وقد أُنقِذت" بالكامل، فلم يعد أي جزء منها ملكاً لغير اليهود، ولا يستثمره غير اليهود".

يرى **شاحاك** أن أيديولوجيا دولة *إسرائيل* ، وممارستها أيضاً ، لا يجوز مقارنتهما حتى بنظام التمييز العنصري في *جنوب أفريقيا* (كانت *جنوب أفريقيا* لا تزال قائمة عندما كتب **شاحاك** كتابه). ففي *جنوب أفريقيا* كان 87 بالمئة من الأراضي يعدّ مُلكاً للبيض، و 13 بالمئة ملكاً للسود من حيث المبدأ، وكان هناك دول ذات سيادة رسمياً تسمى "بانتوستان". في حين أن "الأيديولوجيا اليهودية" لا تعترف بملكية شبر واحد من أرض *إسرائيل* لغير اليهود. ولا تعترف بحقهم في أن يكون لهم أي رموز سيادية، وهي تلتزم بذلك في الحياة العملية التزاماً لا ينازَع. ويمثّل **شاحاك** على هذا الالتزام ، فيقول إن شيخ *حبرون* (عُمدة *الخليل*) أقام في العام 1974 وليمة دعا إليها الزعماء العرب الميالين إلى التفاهم مع *إسرائيل* . وبهذه المناسبة زيَّن قصره بالأعلام . ولكنّ مجموعات يهودية خاطبت **غولدا مائير** و**موشي دايان** محتجة على ذلك، وأشارت إلى أن أعلام "دولة غير يهودية" لا يمكن أن ترفع فوق أرض *إسرائيل* ، لأن ذلك يناقض المبادئ المقدسة التي تقضي بأن الأرض "ليست مُلكاً" إلا لليهود وحدهم. ونظراً لأن هذه المبادئ المقدسة تحظى باعتراف جميع الصهاينة، فقد اضطرت الحكومة لمنع الشيخ من رفع أعلامه. وهذا ما حَمَل الشيخ الذي تجرّع هذه الإهانة على إلغاء حفل الاستقبال، بينما اتخذت *الجامعة العربية* موقفاً أكثر تشدداً إزاء *إسرائيل*.

وتقوم هذه السياسة في الأساس، حسب **شاحاك**، على موروث "اليهودية الكلاسيكية" التي كانت قد تشكلت بحلول الألفية الثانية بعد ميلاد *المسيح*، وخاصة تلك المبادئ التي صيغت بشأن الموقف من غير اليهود . يقول **شاحاك:**

"يعرف كل من عاش في *إسرائيل* إلى أي حدٍ تعزَّزَ وانتشر على نطاق واسع بين يهود البلاد موقفُ الكراهية والقسوة إزاء كل الوثنيين . على أن هذه المشاعر، في العادة ، لا تُعلَن أمام العالم الخارجي . ولكن بعد تأسيس دولة *إسرائيل* ، وبعد حرب عام 1967، وبعد تزايد سلطات **بيغن** أخذت أقلية معينة من اليهود داخل *إسرائيل*

وخارجها تعبرّ عن رأيها حول هذا الموضوع بمزيد من الوضوح. وفي السنوات الأخيرة أخذ مُ لاك الأراضي الذين يستغلون قوة عمل العرب ، ولا سيَّما أطفالهم، يعبرّون علناً، وحتى على شاشات التلفزة، عن نظريات لا إنسانية ترى في الاستعباد قسمة "طبيعية" للوثنيين".

2– الولايات المتحدة الأميركية وأوروبا الغربية

ما كان لنزعات دولة *إسرائيل* المَرَضية هذه أن تتصف بأهمية كبيرة جداً في نظر بقية العالم على غرار ما تتصف به المبادئ "الأصولية" التي يسترشد بها بعض من الدول الإسلامية، لولا فرق واحد هو أن *إسرائيل* غدت مركز يهود العالم أجمع، وراحت تمارس تأثيراً بالغ الشدة عليهم، ومن خلالهم، على العالم بأسره . إن ما يجري في *إسرائيل* يُظهر على المكشوف ما يجري في الوسط اليهودي العالمي كله.

فلنعُد إلى **شاحاك** مرة أخرى:

"إذا كانت فعالية "الأيديولوجيا اليهودية" رهناً بقوة *إسرائيل* النسبية، فإن ما يحكم هذه القوة، إلى حدّ ٍ كبير، هو الدعم الذي يقدمه ل*إسرائيل* يهود *الدياسبورا* (الشتات)، وخاصة في *الولايات المتحدة الأميركية*...

إن أية إدارة أميركية يتوجّب عليها، وهي ترسم خريطة سياستها فيما يتعلق ب *الشرق الأوسط* ، أن تأخذ بالحسبان ما تمارسه الجالية اليهودية المنظمة في *الولايات المتحدة* من ضغط قوي لصالح السياسة الإسرائيلية . وتتجلَّى هذه الظاهرة نفسها في *كندا* التي ليس لها مصالح خاصة هامة في *الشرق الأوسط*، ولكنها . بالرغم من ذلك . تؤيد *إسرائيل* تأييدا مطلقاً، يفوق تأييد *الولايات المتحدة* لها. وفي هذين البلدين (وكذلك في *فرنسا*، و*إنكلترا*، والعديد من الدول الأخرى) تؤيد المنظمات اليهودية *إسرائيل* بالقدْر نفسه من الثقة الراسخة التي كانت تسِم ولاء الأحزاب الشيوعية ل*لاتحاد السوفيتي* حتى الآونة الأخيرة...

ومن المعلوم جيداً في *إسرائيل* أن ما يسِم موالاة *إسرائيل* من شوفينية، وتزمُّت منتشرين بين يهود *الدياسبورا* المنظَّمِين، يفوق كثيراً شوفينية اليهود الإسرائيليين أنفسهم. وهذا التعصب يظهر بجلاء متميز في كل من *كندا* *والولايات المتحدة الأميركية*...

ولكنْ، ما هو مصدر هذه الشوفينية، المتطرِّفة غالباً، التي تسِم جزءاً واحداً من يهود *أميركا*، لا يشاطره إياها الجزء الآخر؟ يتوجب علينا أن نأخذ بالحسبان الأهمية الاجتماعية، وبالتالي السياسية، للمنظمات اليهودية من النمط *"المغلق"*، التي لا تقبل في عضويتها عموماً أشخاصاً غير يهود ... وهي ما يمكن أن نسميه بـ "اليهود المنظمين". إنهم يمضون الجزء الأعظم من وقت فراغهم، عندما لا يكونون مشغولين في أعمالهم، بالتواصل مع غيرهم من اليهود، تأكيداً منهم، كما أعتقد، على سيكولوجية *"التميز"* اليهودية، ومبادئ اليهودية الكلاسيكية إزاء غير اليهود. وليس بوسعهم، طبعاُ، أن يفصحوا عن هذه المبادئ بحرِّية في *الولايات المتحدة* التي تزيد نسبة غير اليهود من سكانها على 97 بالمئة، ولكن مشاعرهم الحقيقية "يعوِّضها" تأييدهم "الدولة العبرية"، وموقفهُم إزاء غير اليهود في *الشرق الأوسط*".

ويتجلى مثل هذا الوضع بأسطع ما يكون في *الولايات المتحدة الأميركية* التي كتب عنها الناقد **كازين** في مجلة *"نيوز ويك"* عام 1971 ما يلي:

"لا أظن أن في تاريخ الشعب اليهودي، في أي مكان، ما يشبه ذ لك النفوذ الذي يمارسه أصحاب الأدمغة اليهود على الثقافة الأميركية. وبهذا المعنى فإن *أميركا* هي، حقاً، نجاح اليهود الأكبر".

لقد جاء في كتاب ي. **نيتوبورغ** الذي ألفه قبل بضع سنوات خلت، وتناول فيه وضع اليهود الحالي في *الولايات المتحدة الأمريكية*، أن ستة ملايين يهودي يعيشون في *الولايات المتحدة*، يشكلون نسبة 2،7 بالمئة من السكان، و3،5 بالمئة من سكان المدن. وبين المدراء والإداريين تبلغ نسبتهم 40 بالمئة، وفي مهن النخبة 71 بالمئة. وتفوق نسبتهم بين طلاب الجامعات والمعاهد العليا نسبةَ الأطياف الأخرى من السكان مرتين, فيما تزيد نسبتهم بين طلبة الدراسات العليا على ثلاث مرات. وهم يشكلون أكثر من عِشر إجمالي عدد الأساتذة، أما في الجامعات المرموقة جداً (*هارفلود*، مثلاً) فتتراوح نسبتهم بين 20 و30 بالمئة. وجاء في الكتاب أيضاً:

"إن أساس الجالية الإ ثنية الأميركية، وهيكلَها، هو جزؤها الراقي التنظيم المتمثل بمنظومة من المؤسسات والمنظمات الاجتماعية السياسية، والدينية، والثقافية التنويرية، والخيرية المترابطة بأوثق العُرى فيما بينها، والتي تضم أغلبية الأميركيين ذوي الأصل اليهودي".

إن إحدى المنظمات اليهودية "المغلقة" الأكثر نفوذاً هي، بلا شك، منظمة *"بناي بريت"* التي تصفها موسوعة *جودايكا* بأنها واحدة من أقدم منظمات التعاضد اليهودية وأكثرها عدداً، وهي تتألف من محافلَ ومجامع.

وتضيف هذه الموسوعة أن المنظمة كانت في العا م 1970 تضم 500 ألف عضو، ولها 17ألف محفل للرجال، منها 25 بالمئة خارج *أميركا الشمالية*، تضم 210 آلاف عضو، وتبلغ ميزانيتها 13 مليون دولار. ولهذه المنظمة – حسب **نيتوبورغ** – فروع في أربعين بلداً.

يقول نائب رئيس هذه المنظمة، د. **كاوفمان**، في رسالة نشرها عام 1971ما يلي:

"تلعب *بناي بريت* في الوقت الحاضر دوراً بالغ الأهمية في تقرير مصير يهود *الدياسبورا* ومستقبلهم، إذ إنها أخذت على عاتقها القيام بالمهام التي لا تستطيع *إسرائيل* الاضطلاع بها على أساس قانوني، كونها دولة ذات سيادة، لا يحق لها التدخل في الشؤون الداخلية للبلدان الأخرى".

ومن أجهزة هذه المنظمة *"رابطة مناهضة التشهير"*. ويقدِّم لنا المثالُ التالي دليلاً على ما يتمتع به هذا الجهاز من نفوذ شديد القوة. فقد أعلنت الرابطة، في عام 1974، أن اليهود غير ممثلين بالقدْر الكافي في مجال البزنس المالي، وأن هذا البزنس هو الحصن الأخير لمعاداة السامية في *الولايات المتحدة الأميركية*!

تقوم *"رابطة مناهضة التشهير"* بنشاط متعدِّد الوجوه، وله تاريخ حافل، يتضمَّ ن، مثلاً، محاولات مستمرة لاستبعاد مسرحية **شكسبير**، ***"تاجر البندقية"***، من الحياة الثقافية الأميركية. ونتيجة لمساعي الرابطة مُ نعت هذه المسرحية عام 1933 في مدارس *نيويورك الغربية وبالتيمور*. وتناضل الرابطة بلا كلل ضد تلك الأجزاء من القداس المسيحي التي تعتبرها "معادية للسامية". على أن من الصعب تحديد تلك الأجزاء بالضبط، ما دامت تلك الرابطة أيضاً هي التي طرحت مراراً وجهة نظر تقول إن جذر "العداء للسامية" يكمن في أصل وجود المسيحية الذي يضع مسؤولية صلب **السيد المسيح** في أعناق اليهود. وعلى سبيل المثال، يعبِّر كتاب ي. **كاتس** الذي أشرنا إليه أعلاه عن وجهة النظر هذه. زِد على ذلك أن *"رابطة مناهضة التشهير"* تشن صراعاً لا يكلّ على هذا المحور، دون أن تحدد هدفها النهائي. ففي تقرير لها عن العام 1936 ورد ذكر 759 مظهراً من مظاهر العداء

للسامية، بينها 74 مقالة وكرّاساً، و115 محاضرة...إلخ، و 25 تمثيلية من تمثيليات آلام **السيد المسيح**. وبعد هزيمة *ألمانيا* ظلت تمثيلية آلام **السيد المسيح** تحت ضغط متواصل، بعد أن كان سكان قرية *أوبيراميرغاو* في *بافاريا* يقدمونها كل عشر سنوات بمناسبة عيد *الفصح* (منذ عام 1634 شكراً للرب على انتهاء وباء الطاعون). وتحت ضغط من الرابطة وجَّهت وزارة الحربية الأميركية عام 1980رسالة خاصة لفتت فيها انتباه العسكريين الأميركيين الذين يخدمون في *ألمانيا الغربية* إلى "روح العداء للسامية " التي تتصف بها هذه التمثيليات في *أوبيراميرغاو* (هذا ما أفاد به أميركي كان يخدم آنذاك في الجيش، ولم يرغب بذكر اسمه). وفي *الولايات المتحدة الأمريكية* تمكنت الرابطة من منع الصلوات في الأماكن العامة، وتلاوةِ شيء من *الكتاب المقدس* قبل بدء الدروس في المدارس. كما أدى كسبُ الرابطة عدداً من الدعاوى القضائية إلى منع الاحتفال بأعياد ميلاد **السيد المسيح** في المدارس وغيرها من الأماكن العامة، وخاصة الاستعراض العلني لرموز مسيحية ، مثل الصليب ، والمهد.

ولكن، رغم كل شيء، ظل الهدف الأساسي يتمثل في تجاوز واقعة ***صلب المسيح*** المؤلمة، وهي الواقعة التي تُعَدّ، في الوقت نفسه، المعتقد الأساسي عند كل مسيحي . وفي سبيل هذا الهدف قام فرع *بناي بريت* في *أوروبا* بحملة نشاطات ضخمة شاركت فيها جمعية الصداقة اليهودية المسيحية. كما أن **البابا** استقبل ممثل *بناي بريت* ، **جول إسحق،** عدة مرات. فقد استقبله في البداية **البابا بيم الثاني** عام 1949، ثم استقبله في العام 1960 **البابا يوحنا الثالث والعشرون** . وعبرت الكنيسة الكاثوليكية عن تغير في موقفها في قرار صدر عن *المجمع الكنسي الفاتيكاني* الثاني تحت عنوان *"بيان حول الديانات غير المسيحية"* . فقد أقر المجمع هذا البيان بتاريخ 14 تشرين الأول / أكتوبر عام 1965 (وافق على البيان 1173عضواً، مقابل 250عضواً صوّتوا ضدّه)، ونُشر في رسالة **البابا (Nostra Aetate)**. وجاء فيه:

"... إن ما جرى في زمن آلام **السيد المسيح** لا يمكن أن يحمِل وزره جميع من عاش في ذلك الزمن من اليهود دون تمييز ، ولا يهود زمننا . ومع أن الكنيسة هي الشعب الجديد للرب، فإنه لا ينبغي تصوير اليهود بوصفهم منبوذين من قِبَل الرب، أو ملعونين, كما لو أن ذلك نابع من *الكتاب المقدس*".

ولقد جرت عملية إقرار البيان في المجمع بصعوبة، إذ أُقِرَّ في البداية نصٌّ يتصف بلهجة أكثر راديكالية (فصوَّت لصالحه 651، وضده99، وامتنع 242 عن التصويت). ولكن **البابا** قرر تأجيل تصديقه لمدة عام . بعد ذلك أُقِرَّ النص الذي أشرنا إليه أعلاه . واستذكاراً لهذه الرسالة قام **البابا** الجديد **يوحنا بولص الثاني** عام 1986 بزيارة (يبدو أنها الأولى بعد صلب **المسيح)** لكنيس يهودي (في روما)، وقال: "إن العلاقات التي تربطنا بالديانة اليهودية لا تجمعنا على هذا النحو مع أي ديانة أخرى".

وقد شارك **ناحوم غولدمان** أيضاً في المفاوضات مع *الفاتيكان*، ولكنه ظل غير راض عن القرار الذي اتُّخِذ، فهو يقول:

" لقد غدا النص الذي أقرَّه المجمع نصّاً مائعاً".

ومنذ ذلك الحين توجد لجنة مشتركة من اليهود والكاثوليك تعقد جلساتها ثلاث مرات في العام بُغيةَ الكشف عن المواضع المثيرة للجدل في الكتب الكاثوليكية وتصحيحِها.

وعلى إثر بيان مجمع *الفاتيكان* نشر "بيان" أسقف *فرنسا* الذي جاء فيه:

"وخلافاً لما يقول به التفسير الخلافي والمغرق في القدم، لا يجوز أن نستخلص من *العهد الجديد* أن الشعب اليهودي قد حُرم من كونه مختاراً ... والأرجح هو أن الفريسيين والمسيحيين الأوائل كانوا قريبين بعضهم من بعض في العديد من الآراء، وهذا تحديداً ما جعلهم يتجادلون بذلك القدْر من الحماسة...".

غير أن هذا "التفسير الخلافي" هو *الإنجيل* بذاته (مثلاً، *إنجيل متّى* 23، 37 – 38). و"جدال" المسيحيين مع الفريسيين شمل صلب **المسيح** أيضاً.

يبدو أن المسيحية لم يسبق لها أن عرفت مثل هذا التنكُّر العلني ل *الإنجيل*، رغم كل ما لحق بها من اضطهاد. وحتى في زمن الثورة الفرنسية لم يتنكَّر رجال الدين الكاثوليك ل *الإنجيل*، عندما كانت المقصلة تهدد حياتهم. فما هي القوة التي كان لا بدّ منها لكسر موقف الكنيسة الكاثوليكية على هذا النحو؟ على امتداد القرون الوسطى ظلت تتردد في *أوروبا* دائماً أصوات تطالب بإتلاف ما هو موجود من نسخ *التلمود*، نظراً لما فيه من مقاطعَ تجديفية ومهينة للمسيحيين. ثم انتقل هذا الجدل إلى العصور الحديثة، فانبرى *تيار النزعة الإنسانية* الوليد للدفاع عن *التلمود*، واشتهر في هذا المجال إ . **ريخلين**، على وجه الخصوص. وهنا انقلب كل شيء رأسا على عقب. ذلك أن الكنيسة الكاثوليكية، وهي تستجيب لمطالب الأصولية اليهودية، راحت تتخلى عن أجزاء مركزية في العقيدة المسيحية . على أن هذا التراجع لا يجري تحت التهديد بالتعذيب الذي عرفته القرون الوسطى، أو بمحارق محاكم التفتيش!

وطبيعي أن ما عرفته الكنيسة الكاثوليكية من سقوط روحي معاصر لا يجوز اختزاله في مسألة موقفها من اليهودية، بل هو يتجلى في مجالات أخرى أيضاً . فقد تخلت هذه الكنيسة في العديد من البلدان ، على سبيل المثال، عن اللغة اللاتينية التي تؤدى بها القداديس، والأسقف الذي اعترض على ذلك جُرِّد من مرتبته الدينية. إننا لم نورد هذا المشهد كلَّه إلا بوصفه مثالاً على النفوذ اليهودي الذي لا يصمد أمامه شيء في العالم الغربي المعاصر . ويبدو أن مجامع عدد من الكنائس البروتستانتية قد اتخذت قرارات أكثر راديكالية (تتحدث عن مسؤولية هذه الكنائس عن تنكيل الهتلريين باليهود, وفي أغلب الحالات عن مسؤولية الأسلاف)، وهو موضوع يشار إليه في كتاب يتألف من مجموعة مقالات عنوانه *"الفكرة الروسية واليهود"*.

ما من شك في أن القوة المرئية الأساسية، الضامنة لهذا النفوذ، هي وسائل الإعلام الجماهيري ، من صحف، ومجلات وتلفزة. ويتجلى هذا بأكبر قدْر من السطوع في *الولايات المتحدة الأميركية* ، مركزِ العالم الغربي. فمجلة *"تايم"* التي تتحدث عن فضيحة الجنرال **براون** (سنعود إلى هذا الموضع لاحقاً) تورد ما قاله الجنرال شخصياً:

"أتعلمون أنهم يملكون بنوكاً في بلادنا، بل وصحفاً ! ولكنْ، انظروا أين هي الأموال اليهودية..."، غير أن المجلة تَعدّ هذه النظرة "مبسَّطة". وتستشهد المقالة بكتاب أصدره **ستيفان آزيكس** مؤخراً تحت عنوان *"اليهود في السياسة الأميركية"*، فتقتبس منه معلومات تفيد بأن اليهود يترأسون تجمُّعات تملك الشركات التلفزيونية الرئيسة الثلاث، وتصدر صحفاً كبرى، منها ***"نيورك تايمز"***، و*"واشنطن بوست"*، و*"وول ستريت جورنال"*، ولكنهم إجمالاً لا يملكون إلا 3،1 بالمئة من مجمل الصحف الأميركية، وحوالي 8 بالمئة من الصحف التي توزع يومياً.

وتؤكد مجلة *"تايم"* أن ثلاث قنوات تلفزيونية كبرى ، وثلاث صحف أميركية كبرى ، هي : *"نيورك تايمز "*, و*"واشنطن بوست"*، و*"وول ستريت جورنال"* تعود ليهود (نشير إلى أن مدير مجلة *"تايم"* نفسها، الواسعة الانتشار ، هو د. **ليفين**). وإذا ما تحدثنا بمزيد من التفصيل نقول إن *"نيوورك تايمز"* كان يمتلكها منذ العام 1896 أ.**أوكس** الذي يعود بنسبه إلى يهود ألمان، و كان رئيس تحريرها أ . **روزنتال** ، ثم م . **فرانكل** . وكان يملك هذه الصحيفةَ **سولتزبيرغ** ، ثم **أوكس**– **سولتزبيرغ** . وكان مالك صحيفة *"واشنطن بوست"* هو **يو . مائير** ، في البداية، ثم ابنته **كاترين غراهام** . وكان على رأس مجلة *"وول ستريت جورنال"* شخص يدعى **ب. كان** . إن هذه المعلومات تعود إلى السبعينات والثمانينات (من القرن الماضي)، ولكن يبدو أن اللوحة كانت تتغير في الاتجاه ذاته . فكتاب **ديوك** ، على سبيل المثال، يخلِّف عند القارئ هذا الانطباع بالذات . وتجدر الإشارة إلى أن معظم الصحف الأميركية يعيد نشر الأخبار الدولية والمقالات "الإشكالية" نقلاً عن الصحف المركزية الأساسية، ويكتفي بإضافة الأخبار المحلية إليها.

لقد أوردنا رأي مجلة *"تايم"* بشأن السيطرة على الشبكات التلفزيونية الأميركية الأساسية . والمقصود بذلك هو شركات *سي. ب. س*، *وأ. ب. سي*، *ون. ب. سي*. الأولى يديرها **بالي**، والثانية **غولدنسون**، والثالثة **سارنوف**.

وينطبق الأمر نفسه على شركات السينما التي يمكن في العادة رؤية أسمائها (ولكنْ ليس أسماء أصحابها الحاليين !) على شاشات دور العرض . وهذه الشركات هي: شركة *"وولت ديزني"* التي يترأسها **آيسنر** ، وشركة *"تايم ورنر "* وعلى رأسها **ليفين**، وشركة *"ورنر برذورز "* تحت رئاسة **غولدبيرغ** ، وشركة *"توينتي سنتشري فوكس"* ويديرها **تشرنيتس** ، وشركة *"يونيفرسال بيكتشرز "* العائدة لشركة *"سيغران"* التي يرأسها **برونفمان** ، رئيس المؤتمر اليهودي العالمي وأكبر منتج للمشروبات الكحولية . ويتضمّن اسم شركة *"ميترو– غولدوين – ماير"* اسمَي اثنين ممَّن أسَّسوها (في عام 1924)، وكان **م. ليوف** ثالثهم. وقد ظل **ماير** يدير هذه الشركة حتى عام 1950. ويقول المؤرخ السينمائي **آرنهايم**: "نستطيع أن نؤكد دون مبالغة أن صناعة السينما الأميركية هي من عمل أيدي يهود جاؤوا من *شرق أوروبا* ، وعبروا المحيط في القرن الماضي (أي القرن التاسع عشر). لقد بدأ هؤلاء العملَ بقروش زهيدة جمعوها ليصبحوا فيما بعد مسؤولين عن مؤسسات معروفة على نطاق العالم بأسره، تمتلك رؤوس أموال عملاقة ، وجيوشاً من العاملين فيها ... إنهم **تسوكور**، **وغولدوين**، **وماير**، **وورنر**، **وشينك**، **وفوكس**، **وليوف**.

إلا أن وسائل الإعلام ما هي، بالطبع، إلا أداة للوصول إلى السلطة . على أن ما للسلطة من أبعاد أكثر واقعية إنما يتجلى في احتلال المناصب العليا في الدولة . وهذا أمر يمكن تقصّيه جزئياً إذا ما أخذنا *الولايات المتحدة الأميركية* مثالاً . فاليهود موجودون كأعضاء في الحكومة بانتظام ، بدءاً من أيام الرئيس **جونسون** (1965) الذي كان **كوهين** في عهده وزيراً للمعارف والضمان الاجتماعي. لقد اتُّهِم الرئيس **نيكسون** بعدم الوفاء لليهود (قيل إن أشرطة تسجيل أحاديثه مع مساعديه، أي الأشرطة التي طُلبت منه بإلحاح في سياق "حجب الثقة عنه"، كانت تتضمن شكاوى من نفوذ اليهود المتزايد). ومع ذلك (بل وربما لهذا السبب بالذات) عَيّنَ **كيسنجر** وزيراً للخارجية، **وشليزنجر** وزيراً للدفاع، **وبرانس** رئيساً لصندوق الاحتياط الفيدرالي (الهيئة التي ترسم *للولايات المتحدة* سياستها النقدية)، **وغرامنت** رئيساً لقسم حقوق الإنسان لدى البيت الأبيض . أما الرئيس **فورد** الذي خلَّف

نيكسون فقد أبقى **كيسنجر** في منصبه، وعين **ليفي** وزيراً للعدل، **وغرينشبان** رئيساً لصندوق الاحتياط الفيدرالي. وهكذا نصل إلى نهاية ولاية الرئيس **كلينتون** التي كانت فيها **مادلين أولبرايت** وزيرة للخارجية، **وكوهين** وزيراً للدفاع، **وروبين** وزيراً للمالية، **وبيرغر** رئيساً لمجلس الأمن القومي، **وغيرنشبان** رئيساً لصندوق الاحتياط الفدرالي. كما استُحدِث منصبٌ من أجل ممثّلٍ خاص للجالية اليهودية لدى الرئيس، و قد شغل **فوتليك** هذا المنصب. ويتضمن الكتاب الذي أصدره *مجلس الدوما* (البرلمان الروسي) ترجمة لمقتطف من *"وول ستريت جورنال"* يقول إن رأسمال المال اليهودي دفع 75 بالمئة من نفقات الحملة الانتخابية للمرشح **غور**، وما بين 30 و50 بالمئة من نفقات حملة المرشح الآخر، **بوش**. وفيما يتعلق بحكومة الرئيس الجديد **بوش** ظهرت في *"واشنطن بوست"* مقالة بقلم **ر. كوهين**، عنوانها *"لا يهود في هذه الحكومة"*، جاء فيها أن أقرب من فيها إلى اليهود هي **ليندا شافيتس**، بوصفها على الأقل متزوجة من يهودي.

وهنا أورد مقتطفاً من كتاب د. **ديوك** *"المسألة اليهودية كما يراها أميركي"*. إن المؤلف، كما سبق وذكرت (في الفصل الأول)، لا يعلل أحكامه بدقة دائماً. ولكن الكتاب، من ناحية أخرى، يتضمن العديد من الاقتباسات الدقيقة، المأخوذة من كتب ومجلات. وقد تسنّى لي تفحُّصُ بعضها فتبيَّن أنها صحيحة. ولذا سأورد قولاً اقتطفه المؤلف من صحيفة *"معاريف"* الإسرائيلية (لم أتمكن من الحصول عليها). جاء في مقال للكاتب **بار يوسف آفيونات** بعنوان *"يهود حكموا في بلاط* **كلينتون***"*:

"لا وجود في *الولايات المتحدة* بعد الآن لحكومة غير يهودية. ثم إن اليهود في الحكومة الحالية شركاء أنداد في اتخاذ القرارات على جميع المستويات. ولعلّ من المستحسن إعادةَ النظر ببعض جوانب القوانين اليهودية الدينية المتعلقة بمفهوم "الدولة غير اليهودية"، فقد شاخت هذه القوانين بالنسبة لـ*لولايات المتحدة الأميركية*".

كان يمكن أن نعُدَّ هذا الكلام مبالغةً من كاتب منفعل، ولكننا نقرأ في المقال نفسه ما يلي:

"يتألَّف مجلس الأمن القومي من أحد عشر عضواً يشغلون أعلى المناصب، سبعةٌ منهم يهود".

وتلي ذلك قائمة بأسمائهم، ثم يتابع الكاتب القول:

"والوضع لا يختلف كثيراً في إدارة الرئيس، حيث يوجد الكثير من الصهاينة الغيورين...".

وتلي ذلك أيضاً قوائم طويلة.

وأخيراً، يمكننا أن نتذكر عدداً من المَشاهد الساطعة التي جرت خلال السنوات الثلاثين أو الأربعين الأخيرة. ففي عهد الرئيس **كارتر**، على سبيل المثال، كان الزنجي **أندريو يانغ** مندوبَ *الولايات المتحدة الأميركية* في *هيئة الأمم المتحدة*. وعُرفت عنه مواقف مستقلة للغاية إزاء إدارة الرئيس. لقد كان يتصرف كطفل مدلّل، متقلبِ الأهواء، يُطلق تصريحات شديدة الإحراج لوزارة الخارجية، كقوله، مثلاً، إن عدد المعتقلين السياسيين في *الولايات المتحدة* أكثر مما في *الاتحاد السوفيتي*، أو: إن القوات الكوبية في *أنغولا* هي عامل استقرار. ومع ذلك كان كل شيء يمرُّ بسلام. ولكنْ، ما إن التقى بالممثل الفلسطيني في الأمم المتحدة **زهدي لبيب الطرزي** لقاء شخصياً (غير رسمي)، حتى أصدرت الاستخبارات الإسرائيلية بياناً بهذا الشأن، وبادر **كارتر** إلى تنحيته عن منصبه فوراً، علماً بأن **يانغ** كان شخصية بالغة الأهمية بالنسبة **لكارتر**، إذ بوصفه واحداً من أبرز المسؤولين في الجالية الزنجية الأميركية، ساعد هخلال حملته الانتخابية في ضمان الحصول على أصوات الزنوج. وقد أثارت إقالة

يانغ استياء كبيراً في أوساط الزنوج. وسرعان ما كان **كارتر** على أعتاب دورة ثانية من الانتخابات الرئاسية، فكان عليه أن يختار بين 18 مليون زنجي و5 ملايين يهودي. ولكن يبدو أن الخيار كان واضحاً أمامه.

يتعلق المشهد الثاني بكلمة الجنرال **براون**، رئيس هيئات الأركان الأميركية المشتركة (العسكري "رقم واحد" في *الولايات المتحدة الأميركية*). لقد سبق أن أتينا على ذِكره. كان الجنرال يتحدث أمام طلاب *جامعة* **ديوك**، حين تطرق في كلمته إلى سياسة *الولايات المتحدة* في *الشرق الأوسط*. في البداية التزم الجنرال الحذر، ولكنه انزلق فجأة في معرِض حديثه عن "اللوبي اليهودي"، فقال:

"قد لا تصدقون كم لهم من نفوذ! إذ يأتينا ممثلو *إسرائيل* للحصول على أسلحة. وحين نقول لهم إن *الكونغرس* لن يوافق، يجيبوننا قائلين: لا تقلقوا بشأن *الكونغرس*، فنحن نأخذ ذلك على عاتقنا. هذا ما يقوله لنا أجانب، ولكنهم حقاً قادرون على تحقيق ذلك!".

وأعقب ذلك كلام ذكرناه أعلاه حول مصادر النفوذ اليهودي المتمثلة في البنوك والصحف.

وتورد المقالة إياها تفاصيلَ أخرى مثيرة للاهتمام. فما إن ظهر الخبر (في صحيفة *"واشنطن بوست"* المذكورة أعلاه) حول تصريحات الجنرال حتى انهال على *البيت الأبيض*، و*البنتاغون*، و*الكونغرس* سيل من الرسائل والبرقيات التي تتضمن احتجاجات غاضبة. أما السكرتير الصحفي لـ*البيت الأبيض*، ووزير الحربية **شليزنجر**، فقد دانا كلمة الجنرال **براون**. كما أن الرئيس **فورد** استدعاه إلى القاعة البيضاوية ووبخه مدة عشر دقائق. وطالب السيناتور **جافيتس** بإجراء تحقيق، بينما دعا السيناتور **بروكسمير** لإقالة الجنرال. أما **براون** شخصياً فقدم اعتذاره فوراً، وأعلن أن كلماته "لا تعبر عن آرائه الحقيقية"، وأن حق الدفاع عن المصالح (ممارسة الضغط عن طريق *"اللوبي"*) هو "لبُّ" الديمقراطية.

وأخيراً، ثمة مشهد آخر ترك أثراً واضحاً في الصحافة، وهو يتعلق بمصير عضو *الكونغرس* الأميركي **فيندلي**. فقد كان **فيندلي** عضواً في اللجنة الفرعية للعلاقات مع *أوروبا* و*الشرق الأوسط*. وبصفته هذه قام برحلات إلى *الشرق الأوسط*، والتقى مسؤولين في *سورية* و*اليمن* (بخصوص العمل على الإفراج عن عميل أميركي أدين بالتجسس في اليمن). وحين التقى **فيندلي** في العام 1978 **عرفات** أعرب له عن تأييده إجراء مفاوضات بين *إسرائيل* و*منظمة التحرير الفلسطينية* (الأمر الذي كان يتطابق آنذاك مع موقف *الولايات المتحدة* الرسمي). وسرعان ما تغير وضعه تغيراً حاداً، فانكفأ عنه رفاقه في الحزب، وصاروا يتخوفون منه بشكل واضح، بمن فيهم **ريغان** نفسه. وبرغم ذلك، تسنّى له في العام 1980 أن يفوز مجدداً بعضوية *الكونغرس*. وفي العام 1982 أعيد النظر بتقسيم الدوائر الانتخابية، وتحدد موعد إجراء انتخابات جديدة، فخسر الجولة. ومع أن خسارته كانت بفارق 1 بالمئة فقط من الأصوات، وثمة العديد من الأسباب لهزيمته، كما يُعتقد، إلا أن المنظمات اليهودية أعلنت جَهاراً أنها هي التي أسقطته عقاباً على موقفه "المعادي لـ*إسرائيل*".

غير أن ردَّ فعل **فيندلي** لم يكن كردِّ فعل غيره من أبطال القصص المماثلة، إذ إنه اهتم بالظاهرة التي اصطدم بها، وراح يجمع المواد من الصحف، ويجري شخصياً مقابلات مع الناس، إلى أن نشر في نهاية المطاف كتاباً مترعاً بالوقائع عن *اللوبي الإسرائيلي* في *الولايات المتحدة الأميركية*.

يعرف **فيندلي** في هذا الكتاب أشخاصاً آخرين ممن دفعوا مستقبلهم الوظيفي ثمناً لتصريحات غير حذرة، بريئة حسب ظنهم، تنتقد سيا سة *إسرائيل*، وهم: النواب **ماك كلوسكي، وفاونتروي، وديومالي**، وأعضاء مجلس الشيوخ **إيدلاي ستيفنسون** (مرشح للرئاسة)، **وفولبرايت، وأبو رزق، وريبيكوف، وماتياس، وبيرسي، والسفير ويست**، والصحفيان **روجر برودريك وآنّ هاير**، والممثلة السينمائية **فانيسا ريدغريف**، والموظف الحكومي **كواندت** (نائب **بجزينسكي**)، و**يانكا**، والأساتذة الجامعيون **تشومسكي**، و**إقبال أحمد، ومظهر حميد، والقس ساير** راعي الكاتدرائية البروتستانتية الأرفع مكانة وسمعة في واشنطن...إلخ.

ويصف المؤلف أشكالاً متنوعة من الضغط: تدبير الفشل في الانتخابات، التهديد بالمقاطعة في مجال العمل المهني بعد اعتزال العمل السياسي، إحباط الاجتماعات، والسطو على المنازل ... وينبغي أن نشير إلى أن الأميركيين يتميزون بحساسية مفرطة بالمقارنة معنا، نحن الروس. ذلك أن الشخص المضطهد في عرفنا هو مَن زُجَّ به في معسكر اعتقال، أوعُذِّب، أو قتل. أما الأميركيون فشديدو الحساسية جرّاء ضغوط أكثرَ ليونة، إذ يكفي عدمُ إدراج اسم باحث علمي في قائمة المستفيدين من منحة إضافية ما لكي يعدَّ نفسه مضطهداً، إذ إنه لن يستطيع السفر صيفاً للاستجمام مع أسرته في جزر *البوليار*.

وحول ما يجري في المؤسسة العسكرية يروي **فيندلي** العجائب. إذ يتبين أن المفاوضين الإسرائيليين مطّلعون على حالة التسليح الأميركي اطلاعا أفضل من اطلاع العاملين في هذه المؤسسة بالذات. وهم يطلبون صفقات من أسلحة لا تزال سرية في *الولايات المتحدة* نفسها، ويحصلون عليها. وإذا ما كان لدى ممثلي الجانب الأميركي أي نوع من الاعتراضات على رغبات *إسرائيل* فإنهم يخشون التعبير عنها خطّياً، لكيلا يتعرّض مستقبلهم الوظيفي للأذى. فرغم أن الوثائق السرية تضيع رزماً رزماً، وكثيرون من الموظفين الإسرائيليين أُبعدوا، فإن *الولايات المتحدة الأميركية* لم توجِّه إليهم يوماً تهمة رسمية بالتجسس. ويقول **فيندلي** إن "العسكريين يطلقون على *البنتاغون* وصف "متجر إسرائيلي، الخدمة فيه ذاتية".

ومن وسائل الضغط المألوفة أيضاً الاتصالات الهاتفية، وبيانات أعضاء في *الكونغرس* يؤكدون فيها أن لهذه الصفقة أو تلك من صفقات الأسلحة ضرورةً مطلقة لأمن *إسرائيل*. ويتعرّض أعضاء *الكونغرس* بدورهم للضغط من جانب العديد من المنظمات اليهودية التي تعبئ أعضاءها من أجل إجراء اتصالات هاتفية وتوجيه رسائل، أو للقيام بزيارات إلى أعضاء *الكونغرس*. ويصبح أي تلكؤ، أو تمنّعٍ سبباً لاتهام صاحبه بـ "العداء للسامية"، أو بـ "معاداة اليهود". وتوزَّع " قوائمُ بأسماء الأعداء" الخطرين في هذا المعنى. ويبلغ هذا الضغط درجة من الفعالية تجعل بعض المؤسسات التعليمية يعيد في بعض الحالات ما استلمه من أموال مقابل برامجَ معينة، وذلك لسبب واحد هو أن الأموال جاءت من بلدان عربية. وفي حالات أخرى ترفض تلك المؤسسات التعاون مع مَن هم أميركيون من أصل عربي.

إليكم مشهداً محدداً من هذا الكتاب. فقد نشرت *"المجلة الجغرافية"* الشهيرة مقالة عن *دمشق*، ورد فيها مقطع صغير يتحدث عمّا تنعم به الطائفة اليهودية هناك من أوضاع ميسورة نسبياً. فأثارت تلك المقالة عاصفة من الاحتجاجات، وتلقت هيئة التحرير أكثر من 600 رسالة استياء، تطالب بأن تنشر المجلة وجهة نظر معاكسة. وعبثاً حاول المحرر أن يثبت أن المجلة موجودة منذ العام 1888، ولم يسبق لها أن قامت بتراجع من هذا القبيل

يوماً. وعند ذلك أقيمت مظاهرة عاصفة عند مكاتب المجلة . وتدخل *"المؤتمر اليهودي الأميركي"* في هذه القضية. فكانت النتيجة أن استسلمت هيئة التحرير ونشرت بياناً جاء فيها : "إن منتقدينا كانوا على حق . لقد أخطأنا".

عندما التقى مسؤول مجلس الجاليات اليهودية **بيرنباوم** وغيره من النشطاء اليهود مع ممثلي جريدة *"واشنطن بوست"* أبلغوهم أن الجريدة عندها "مشكلة يهودية"، فوافقت الجريدة على أن يشرف **بيرنباوم** في هيئة التحرير على مراقبة إعداد الأخبار ونشرها مدة أسبوع.

من الطبيعي، في ظل ضغط كهذا، أن تتُّخذ قرارات تتناقض تناقضاً بيِّناً مع ما ل *الولايات المتحدة الأميركية* من مصالح قومية. ويورد **فيندلي** مثالاً على ذلك هو اعتماد مبلغ 250 مليون دولار عام 1984 لتطوير تصنيع طائرة مقاتلة في *إسرائيل* هي طائرة *"لافي"* التي أصبحت تنافس نظيرها من ا لطائرات المصنّعة في *الولايات المتحدة الأمريكية* آنذاك. وقد صوَّت على هذا القرار 379 نائباً في *الكونغرس*، واعترض عليه 40 نائباً. وصرّح أحد المعترضين قائلاً:

"ستكون النتيجة فقدان 6000 فرصة عمل ... إنهم لا يكتفون بسلب دولارات الأميركيين من أجل إقامة صناعة أجنبية، بل وعلى الأميركيين أن يفقدوا عملهم أيضاً".

ولعل المشهد الأكثر دراماتيكية هو التضحية بمصالح الأميركيين وحياتهم في سبيل مصالح *إسرائيل*، وذلك على غرار ما جرى للسفينة *"ليبرتي"*. إن وصف هذا المشهد في كتاب **فيندلي** يتطابق تماماً مع ما جاء في كتاب **ديوك**. وثمة كتبٌ أخرى مكرسة بالكامل لقصة هذه السفينة.

فقد وقعت هذه القصة يوم الثامن من حزيران عام 1967، في أثناء الحرب العربية الإسرائيلية . آنذاك قصفت القوات الإسرائيلية سفينة التجسس الأميركية *"ليبرتي"*، فقتل من بحارتها 34 وجرح 171. وفي اليوم التالي قدمت الحكومة الإسرائيلية اعتذارها، وقالت إنها ظنت السفينة مصرية. غير أن عدداً من الكتّاب الذين وصفوا الحادث يوردون براهين على أن الهجوم كان وليد خطة مسبقة، بل وأكثر من ذلك، أن حكومة *الولايات المتحدة الأمريكية* كانت على علم به . فقد وقع الهجوم، حسب ذكريات من نجوا من الحادث، عند الساعة الثانية ظهراً ، عندما حلقت فوق السفينة بضع طائرات نفاثة. كان العلم الأمريكي يرفرف واضحَ المعالم على متن السفينة بفعل النسيم الذي يهب في هذا الوقت. ثم تعرضت السفينة لهجوم من جانب الطائرات الإسرائيلية التي راحت تقصفها بالرشاشات، وتلقي قنابل النابالم على متنها . ثم قُصِفت السفينة *"ليبرتي"* بالصواريخ من زوارق الطوربيد . كذلك كانت قوارب النجاة التي أُنزِلت من السفينة إلى الماء هدفاً للنيران الإسرائيلية. زِد على ذلك أن حاملتي طائرات أميركيتين هما *"ساراتوغا"* و*"أميركا"* كانتا على مقربة من المكان . واستجابة لإشارات الاستغاثة الصادرة عن *"ليبرتي"* أقلعت منهما مرتين طائراتٌ للنجدة، ولكنها سرعان ما كانت تعاد بأمر من القيادة العليا (مرة بأمر من وزير الخارجية **مكنمارا**). ولم تأت قوات النجدة، وتبدأ عملية إجلاء الجرحى على متن الحوامات ، إلا في اليوم التالي، بعد أن غدا واضحاً أن السفينة تقاوم الغرق بإصرار. وكما يؤكد **فيندلي**، مثلاً، فإن السلطات كانت على علم بأن الهجوم مدروس. ثم إن *وكالة المخابرات المركزية* الأميركية كانت قد حذرت من هذا الهجوم قبل يومين. ويرى **فيندلي** أن سبب العملية كلها يعود إلى خَشية الحكومة الإسرائيلية من أن تكشف السفينةُ استعدادات

إسرائيل للقيام بهجوم على *سورية* (وهو م ا وقع فعلاً بعد يومين، علماً بأن *إسرائيل* كانت قد وقّعت هدنة مع البلدان العربية). يقول **فيندلي** إن الرئيس **جونسون** أحاط المسألة بكتمان شديد كان له الفضل في بقاء الوقائع مجهولة تماماً تقريباً طيلة 16عاماً بعد مغادرته سُدَّةَ الرئاسة. وقد أخذت الحكومة الأميركية بالرواية الإسرائيلية . في حين نشرت اللجنة التي شُكِّلت للتحقيق في الموضوع تقريراً التزمت فيه الصمت إزاء حقيقة أن تابعية السفينة كانت معروفة قبل وقوع الهجوم بوقت طويل ، ولم تتضمّنه إشارة إلى قنابل النابالم، ولا إلى قوارب النجاة التي تعرضت لإطلاق النار . وذكر التقرير أن الهجوم استغرق دقيقتين ، علماً بأنه استمر سبعين دقيقة . ثم تم توجيه أمر صارم للبحارة الناجين بالتزام الرواية الرسمية، وعدمِ الإدلاء بأية معلومات أخرى.

وقد غدا ما نشره **إنْس**، الضابط السابق في *"ليبرتي"*، مصدراً أساسياً لفضح ما حدث. كان من المميز للوضع في *الولايات المتحدة* (آنذاك) أن يستطيع **إنْس**، رغم كل شيء ، نشر كتابه في العام 1980، أي بعد سنتين من إحالته على التقاعد. لقد قام هذا الضابط سرّاً بجمع ذكريات من بقيَ من رفاقه على قيد الحياة. فلاقى كتابه، كما يقول **فيندلي** ، مقاومة منسَّقة عالمياً ، شاركت فيها وزارة الدفاع الأميركية، و *رابطةُ مناهضة التشهير* ، و*اللجنة الأميركية الإسرائيلية للعلاقات الاجتماعية*، ودور النشر، ووسائل الإعلام، ووزارة الخارجية الإسرائيلية.

ورغم كل الظروف ، تمكن **إنْس** من إلقاء عدد من الكلمات حول موضوع الكتاب، ولكن بعض هم كانوا يقاطعونه في أثنائها، فيصفونه بالكذّاب وعدوّ السامية. وظلت تردُه رسائل بهذا المضمون طيلة عشر سنوات بعد ذلك.

وبصرف النظر عن هذا الجو الاجتماعي ، تقدّم السيناتور **داماتو** في العام 1984 بمشروع قانون حول ضرورة "إخماد لهيب معاداة السامية المنتشر في البلاد"، فأُقرّ كقانون يسري مفعوله في 16 ولاية.

لقد استطاع الرئيس **كارتر** تحقيق الكثير لـ *إسرائيل* على صعيد السياسة الخارجية . ففي عهده عُقدت *اتفاقية كمب ديفيد* بين *إسرائيل ومصر* . وبمقاييس الحربين العالميتين الأولى والثانية وقّعت مصر "سلاماً منفرداً" مع *إسرائيل*. يومها سجلتُ في دفتري الخبر التالي الذي بثته إذاعة *بي. بي. سي*:

"ذكرت صحيفة *"صنْدي تايمز"*، يوم الأحد 15 تشرين الأول / أكتوبر، أن الرئيس **كارتر** تحول في يوم واحد من شخص عديم الخبرة يتدخل في شؤون الغير، إلى رجل دولة حكيم . يستحيل أن يكون الرئيس **كارتر** على درجة من عدم الكفاءة بحيث لا يحفظ درسه". (أي أن يستنتج العبرة الصحيحة).

يمكننا أن نرى، منذ ذلك الحين وحتى أيامنا هذه، أن *إسرائيل* تستخف بـ*الولايات المتحدة الأميركية* وكأنها تابعٌ لها. فهي التي تحدِّد لـ*واشنطن* نوع السلاح الذي تستطيع بيعه، ولأي بلدان تبيعه. كما أن *إسرائيل* تنتهك شروط المعاهدة التي بموجبها تبيعها *الولايات المتحدة* الأسلحة. وعندما يجمِّد الأميركيون تسليم الصفقات، تفسخ *إسرائيل* المعاهدة بغضب، فتصاب *الولايات المتحدة* بالرعب، وتتراجع. وقد وصل الأمر بالرئيس **ريغان** أنْ شكا بطريقة كوميدية (خلال مؤتمر صحافي في أيلول / سبتمبر من العام 1981) من أن *إسرائيل* تمارس ضغطاً كبيراً جداً على سياسة *الولايات المتحدة الأميركية* الخارجية.

وعندما فُصِلت *إسرائيل* من *الوكالة الدولية للطاقة النووية* بأصوات البلدان العربية (وبطريقة قانونية تماماً، لأن *إسرائيل* رفضت تقديم الأدلة على أنها تستخدم الطاقة النووية لأغراض سلمية حصراً)، سارعت *الولايات المتحدة*

الأميركية فانسحبت من هذه الوكالة مع *إسرائيل* في وقت واحد . ثم أعلنت وزارة الخارجية الأميركية أن رد فعل *الولايات المتحدة* سيكون على هذا النحو تماماً إذا ما حاول أحد فصل *إسرائيل* من أي وكالة متخصصة أخرى من وكالات منظمة الأمم المتحدة . وأخيراً، عندما كان هناك تخوُّف من أن تنجح بلدان *العالم الثالث* بفصل *إسرائيل* من *منظمة الأمم المتحدة* ، أعلنت *الولايات المتحدة الأميركية* أنها ستنسحب عندئذ من هذه المنظمة أيضاً. يبدو أن *الولايات المتحدة* فقدت استقلاليتها إزاء *إسرائيل*.

لقد حاول الرئيس **كلينتون** ، في أثناء ولايته الرئاسية الثانية، الوصولَ إلى تسوية سلمية في *الشرق الأوسط* . وتعبيراً عن عدم ارتياحه لموقف *إسرائيل* المتعنت ، لم يوجه الدعوة لزيارة *البيت الأبيض* إلى رئيس الوزراء الإسرائيلي أثناء وجوده في *الولايات المتحدة* . وعلى الفور انبرت **لوينسكي** ، وهي سكرتيرة في مكتب الرئيس ، وراحت تتحدث بقدْر كبير من التفاصيل القذرة عن علاقة شخصية تربطها بالرئيس . وبسبب هذه الفضيحة انطلقت إجراءات حجب الثقة عن الرئيس (علماً بأن الرئيس لم يتهَّم بتصرفات قام بها، بل بإنكاره تلك التصرفات في البداية). وعندها، على ما يبدو ، أدرك **كلينتون** مَن هو صاحب السلطة الحقيقي . وفي اليوم الذي بدأت فيه إجراءات حجب الثقة عنه – 12 كانون الأول / ديسمبر 1998 – طار **كلينتون** إلى *إسرائيل* تصحبه زوجته وكل أسرته (وحتى كلبه). على أن رئيس الوزراء الإسرائيلي صرح بأنه لم يوجِّه ولو دعوة إلى **كلينتون**، بل هو نفسه من ألحَّ على القيام برحلته هذه. وبعد جملة من التصريحات العلنية عن ندمه غفروا له، وتوقفت إجراءات حجب الثقة . كانت الغلبة في *إسرائيل* للتيار الراديكالي . ففي أيلول / سبتمبر من العام 2000 انتهك **أرئيل شارون** حرمة *المسجد الأقصى*، أحد أهم الأماكن المقدسة عند المسلمين. على أن **شارون** يلقَّب في الأوساط العربية بـ "جزَّار لبنان"، لأنه كان وزيراً للدفاع عندما وقعت مجازر مخيَّمي *صبرا وشاتيلا* ، ثم أُقصيَ عن الحكومة تحت تأثير السخط الذي أثارته هذه المذبحة ، وكذلك بفعل السخط داخل *إسرائيل* . لقد كان ظهور **شارون** بالقرب من هذا المكان العربي المقدس استفزازاً سافراً، ومدبَّراً، إذ كان في حراسته بضعة آلاف من الشرطة. وهذا ما أعطى الانتفاضة دفعاً جديداً وقتها، وراح الوضع يتدهور بسرعة، إلى أن أصبح **شارون** نفسه رئيساً للوزراء. وها نحن الآن (أواخر العام 2001) أمام حرب عربية – إسرائيلية كاملة الأبعاد.

كيف ينظر يهود *الولايات المتحدة* إلى أنفسهم؟ تفيد إحصائيات الباحثين الاجتماعيين أن 9 من 10 يفضلون الاندماج في المجتمع الأميركي، ولا يناصرون الصهيونية. غير أن 4 من 5 يعتبرون أن دعم *واشنطن* لـ*إسرائيل* هو لمصلحة *الولايات المتحدة الأمريكية*. وفي العام 1988 قال **جيري توبين:**

"تحتل دولة *إسرائيل* الآن المرتبة المركزية في تعريف الهوية اليهودية".

بالطبع، هذا هو النفوذ اليهودي ليس في *الولايات المتحدة* وحدها، بل وفي *العالم الغربي* بأسره. ففي أواخر الستينات ومطلع السبعينات، مثلاً، عاش *الغرب* أزمة شديدة الوطأة . وقد تجلى ذلك بشكل رئيس في اضطرابات طلابية سيطر الطلاب خلالها على الجامعات، ناهيك عن اضطرابات الزنوج الأميركيين. وكان مصطلح "الثورة" يتردد على شفاه الجميع، فيما يؤكِّد زعماءُ الحركة أن ما يجري هو خمس ثورات : ثورة اقتصادية تطيح النظام الرأسمالي، وأخرى قومية لفصل بضع ولايات جنوبية عن *الولايات المتحدة الأميركية* ، وثالثة سياسية لتحطيم النظام الديمقراطي القمعي، ورابعة جنسية لتحطيم الأسرة البرجوازية، وخامسة نفسية توحِّد ثقافة تعاطي المخدرات

جماعياً، والرقص على موسيقى *الروك* (وهذا كله مجتمِعاً كان يجب أن يدمِّر الفردية البورجوازية). ومرة أخرى، على غرار ما جرى في الثورة الروسية عام 1917، وسنوات الثورة في *ألمانيا* 1918 – 1923، والثورة الهنغارية 1918، نرى بين القادة هنا كثرة من اليهود لا تتناسب وعددهم عامة : **كوهين بنديت**، و**جيري روبين**، و**آلن غينسبرغ**. لقد جاء الزعماء الأيديولوجيون لهذه الحركة من *"مدرسة فرانكفورت"* الفلسفية، وكانوا في الوقت نفسه من أتباع **ماركس** و**فرويد**، مثلما كانوا جميعهم من اليهود، بلا استثناء تقريباً : **أدورنو** ("بعد *أوسفيتسم* يستحيل الشعر")، و**ماركوزه**، و**هوركهايمر**، و**فروم**.

وثمة مثال ساطع يتمثّل في مصير المؤرخين المعروفين تحت اسم واحد هو *"التحريفيون"*. ذلك أن القاسم المشترك بينهم هو سعيهم لإعادة النظر في ما هو متعارف عليه من آراء في *الغرب* بشأن الحرب العالمية الثانية. فللبعض منهم يحاول البرهان على أن هناك مبالغة كبيرة في القول بأن عدد اليهود الذين قُتلوا على أيدي السلطات الهتلرية هو "ستة ملايين". فيما يحاول آخرون إقامة الدليل على أن الألمان لم يستخدموا غرف الغاز في معسكرات الاعتقال. أمّا أنا شخصياً فلا أفهم كثيراً ما الدوافع التي تحرِّكهم، كما سبق وذكرت في الفصل الثاني عشر. ولكنْ، أيّاً كانت دوافع هؤلاء الباحثين *"التحريفيين"*، فإن المذهل في الأمر ليسوا هم، بل ذلك الرد الذي واجهوه. إذ يتحدّث مؤرخ ألماني معاصر بحذر شديد عن هذا الموضوع، فيقول:

"غير أن ما يظل مدعاة لحزن شديد، هو أن الأدبيات المعترف بها تفتقر كل هذا الافتقار للقاعدة العلمية الأساسية، أي إلى "الإصغاء للطرف الآخر".

حقّاً، إن خصوم *"التحريفيين"* لا يردّون عليهم، وإذا ما جاؤوا على ذكرهم اكتفوا بوصفهم بـ "النازيين الجدد"، أو بـ "الراديكاليين اليمينيين"، غير أن *"التحريفيين"* يظلّون عُرضة للملاحقة باستمرار. وعليه، فإن عدداً من هؤلاء المؤلِّفين محكوم عليهم بالسجن: في *كندا وألمانيا وفرنسا وسويسرا*. كما حُكِم على آخرين منهم بغرامات مالية ضخمة، أو سُرِّحوا من وظائفهم محرومين من حقوقهم التقاعدية (أي قُضي عليهم بالخضوع للفقر والحرمان). وذلك رغم أنه ما من أحد اتهمهم بأي نوع من الجرائم سوى تأليف كتب يوردون فيها حُججاً تدحض آراء تُعَدُّ "مُحرَّمة" لا تُمَسّ. تلكم هي حصيلة "النضال من أجل حرية الكلمة" الذي استمر قروناً في *الغرب*! صحيح أنه لم يعُد من الجائز الآن أن يُزجَ بأحد في السجن بسبب تأكيده أن الأرض تدور حول الشمس، إلا أن الاحتمال كبير أن يكون السجن بانتظار من يؤلِّف كتاباً يتضمَّن حقائق عن عدد ضحايا *"الكارثة"*، وعمّا إذا كان لغرف الغاز وجود أم لا في هذا المعسكر أو ذاك من معسكرات الاعتقال الألمانية...إلخ.

ينبغي القول إن الأميركيين، رغم كون وعي الأميركي المتوسط خاضعاً للتحكم والتوجيه مثل سيارة جيدة، يتشبثون "بالتعديل الأول" الذي أقرَّ حرية الكلمة. ولا يزال وجود محاكم ضد حرية الكلمة أمراً مستحيلاً في *الولايات المتحدة* حتى الآن. غير أن حكم المحكمة ليس المصيبة الوحيدة التي قد تَحِلّ بالناس! فقد أسس *"التحريفيون"* الأميركيون، على سبيل المثل، معهداً كاملاً هو *"معهد البحوث التاريخية"*، ولكنَّ مبنى المعهد احترق منذ بضع سنوات، فقُضيَ على المكتبة.

يقول د. **ديوك** في كتابه آنفِ الذكر:

"... إن مصطلح *"حكومة الاحتلال الصهيونية"* دخل مجال التداول، فظننتُ أن هذه التسمية مبالغ فيها بعض الشيء، ولكنني بعد طول تأملات وبحث في هذه المسألة أدركت أنها أنسبُ وصف لما تشهده *واشنطن* من أمور محزنة في مجال السياسة الداخلية والخارجية".

إن ما أوردناه من وقائعَ يشير إلى أن الأمور تسير في *العالم الغربي* بأسره على هذا المنوال، وذلك ليس في مجال السياسة الداخلية والخارجية وحده، وإنما في مجال الدِّين، والآراء السياسية والاجتماعية، بل و في الحياة كلها جملةً.

مراجع الفصل الرابع عشر :

1- Shahak I. (مرجع سابق ورد في الفصل الأول).

2 – ريد. د. (مرجع سابق ورد في الفصل الأول).

3 – سودوبلاتوف. ب.(مرجع سابق ورد في الفصل الثالث عشر).

4 – Goldmann N. (مرجع سابق ورد في الفصل الثالث).

5 – Weizmann Ch. (مرجع سابق ورد في الفصل العاشر).

6 - Cohn H.(مرجع سابق ورد في الفصل الثاني عشر).

7 - Encyclopaedia Judaica, Jerusalem, 1972

8 – "Bnai Brith Magazine" March. 1938

9 – " إعلان حول الموقف من الديانات غير المسيحية . المجمع الفاتيكاني الثاني . دساتير، مراسيم ، إعلانات. بروكسل، 1962.

10 – Laurentin R. (abbe). L`Eglise et les juifs a Vatican II. 1967

11 - "نداء الأسقفية الفرنسية". / مجلة "بشير الحركة الطلابية الروسية المسيحية ". مجلد 108، 109، 110 باريس، 1973.

12 – Katz J. (مرجع سابق ورد في الفصل الرابع).

13 – الفكرة الروسية واليهود. مجموعة مقالات. موسكو،1994.

14 – الموسوعة اليهودية الموجزة . مادة"السينما "، المجلد 4.

15 – نيتوبورغ ي. اليهود في أميركا المعاصرة. موسكو، 1998.

16 – Who`s Who in American Jewry. N.-Y. 1927

17 – Korn D. wer ist wer im Judentum. Munchen 1996

18 – كومي د. كلٌّ وموقعه في تاريخ اليهود. لندن – موسكو،1974، 1995.

19 – "Time". Nov. 25, 1974

20- Findly P. They dare to speak out. N. Y. 1985

21 – Nolte E. مرجع سابق ورد في الفصل الثاني عشر.

22 - "انهيار منظومة الدولار العالمية". يو. د. ماسليوكوف (محرر). موسكو، 2001.

23 – Cohen R. " No Jews in This Cabinet". "Washington Post". Jan.16. 2001

الفصل الخامس عشر

في الثورة الروسية الثانية

(أواخر ثمانينات – مطلع تسعينات القرن العشرين)

وقع في بلادنا ، أواخر الثمانينات ومطلع التسعينات من القرن العشرين ، انقلابٌ لا يقل راديكالية عن ثورة العام 1917. فلقد تغير نظام البلاد السياسي، ونمطها الاقتصادي. وتمزّقت البلاد أجزاء. وتقلصت أنواع الإنتاج كلّها مرتين وأكثر . واندلعت حروب بين الدول التي تشكلت مجدداً . ونتيجة لهذه الحروب، وللتدهور العام في مستوى الحياة، وشعور الإحباط المنتشر بين السكان ... تقلص تعداد السكان عدة ملايين، وأصبحت نسبة الولادات في *روسيا* أدنى مما كانت عليه زمن الحرب الأخيرة (العالمية الثانية. – م).

يسمى هذا الانقلاب عادة بـ *"البيريسترويكا"* ، هذا المصطلح الماكر الذي ابتُدِعَ بدايةً لسترِ طبيعة التغيرات الجارية (وربما بغية عدم فهم ما سيتمخّض عنه ذلك كله، بدعوى أنه – على حد الزعم – ليس إصلاحاً ، بل مجرد إعادة بناء ، أي *"بيريسترويكا"*). إلا أن هذا الانقلاب له كامل الحق بأن يسمى ثورة . ورغبةً بالاختصار سوف أسميه "ثورة التسعينات" من القرن العشرين (وإن كانت تغيرات مصيرية قد بدأت قبل ذلك ببعض الوقت).

وهكذا، فإن *روسيا* تكابد ثورتها الثانية في غضون قرن واحد . فما حقيقة مشاركة اليهود في هذه الثورة؟ إن أول ما يلفت النظر هو أن السلطة، عندما شرعت بأول التحولات، كانت بالكامل في أيدي أناس روس (بالمعنى الإثني المحض للكلمة). وما زلت أذكر من تلك الأيام اجتماعاً احتفالياً نظمته أكاديمية العلوم ، وحضره جميع أعضاء المكتب السياسي الذي كان على رأسه **غورباتشوف**. كان واضحاً لي، وأدهشني، أن الوجوه كلها كانت روسية! وبالفعل، لم يكن بينهم حتى ذلك العدد الكبير من الأوكرانيين الذين ظهروا في عهد **بريجنيف**. وباستثناء **شيفاردنادزه** و**علييف** اللذين كان ظهورهما مؤقتاً ، كان جميع الحاضرين من أبناء *روسيا الكبرى* (كانت *روسيا* فيما مضى تسمَّى بهذا الاسم، تمييزاً لها عن *روسيا الصغرى* أي *أوكرانيا*، و*روسيا البيضاء* أي *بيلوروسيا* . – م). ناهيك عن أنه لم يكن في ذلك الاجتماع يهودي واحد. وربما كان ثمة ، على الأرجح، مستشارون، وسكريتيريون، وموظفون في اللجنة المركزية من اليهود. ولكن لم يكن المستشارون هم مَن انتخب المكتب السياسي ، بل إن أعضاء المكتب السياسي هم الذين عيّنوا هؤلاء المستشارين!

ولكي نقدِّر بمزيد من الوضوح ما جرى فعلاً ، سنقفز إلى الأمام بضع سنوات، وننتقل إلى الفترة التي شهدت تبلور وانتصار الاتجاهات الأساسية . ففي العام 1996 نشرت صحيفة أميركية ، هي *"الكلمة الروسية الجديدة"* التي تصدر باللغة الروسية، مقالة هي أشبه بالختامية فيما يتعلق بالموضوع الذي يهمنا. وينبغي التذكير بأن هذه الصحيفة تتوجه إلى جالية اليهود المهاجرين من *روسيا*، ولا تموِّه هذه الحقيقة، بل إن ما تنشره من إعلانات عن حفلات الزفاف، والوفيات، والاجتماعات...إلخ. يفصح عنها تماماً . وهذه هي دائرة القراء الذين تخاطبهم المقالة التي نحن بصددها. وهي بعنوان *"سعادة اليهود"*، بقلم كاتب من *روسيا* هو **ليونيد رادزيخوفسكي**. وقد تزامن نشر المقالة مع حدث هام هو الاجتماع العام التأسيسي لـ*المؤتمر اليهودي الروسي* الذي انضم إلى عضوية *المؤتمر*

اليهودي العالمي . ويعبر كاتب المقال في هذا الصدد عن جملة من الآراء حول وضع اليهود في *روسيا* المعاصرة، فيقول:

"يشكِّل اليهود اليوم جزءاً هائلاً من النخبة الروسية، الفنية والفكرية (وبالمناسبة، فإن هذا ما كان عليه الوضع طيلة القرن الأخير)، ومن النخبة السياسية والاقتصادية أيضاً.

فهناك من الساسة اليهود: **جيرينوفسكي، ويافلينسكي، وتشوبايس**، ووزير الخارجية السابق **كوزيرِف**، ووزير الخارجية **بريماكوف**، ووزير الاقتصاد **ياسِن**، ومساعدا الرئيس **ليفشين وسَتاروف**، ومحافظ *نيجيني نوفغورود* **نيمتسوف**، والنائب الأول لحكومة مدينة موسكو **ريسين**...إلخ. وبقليل من الجهد يمكننا أن نضم **غايدار** إلى هذا الرتل...(المقصود هو أن دماً يهودياً أيضاً يجري في عروق **غايدار**.– م).

يشكل اليهود ، إذاً، جزءاً هائلاً من باكورة النخبة الاقتصادية في البلاد . والبنوك الكبرى في موسكو جميعها تقريبا يرأسها يهود ...فـ **ألكسندر سمولينسكي** على رأس بنك *"ستوليتشني"*، **وفلاديمير غوسينسكي** على رأس *"موست بنك"*، **وميخائيل خودوركوفسكي** على رأس بنك *"ميناتيب"*، **وفيتالي مالكين** على رأس *"روسكي كريديت"*، **وبيتر آفين وميخائيل فريدمان** على رأس *"آلفا بنك"*... ويندرج في عِداد أكبر رجال الأعمال في *روسيا* كل من **فلاديمير ريسين** إياه، ملك أعمال البناء في موسكو، وكذلك المطرب المشهور بالفضائح **يوسف كوبزون** الذي توجَّه له الاتهامات دائماًبصلاته مع *المافيا*، **وبوريس بيروزوفسكي**، وغيرهم".

وبعد عامين من ذلك تناولتْ هذا الموضوع مقالةٌ نشرت في صحيفة *" أرغومنتي إي فاكتي"* (أدلّة وحقائق) التي تصدر في موسكو، بقلم ي. **توبول** الذي بدأ يكتب في العهد السوفيتي ، ثم هاجر إلى *أميركا* (يبدو أنه يكتب في مجال الأدب البوليسي ... لم أقرأ له). كانت المقالة بعنوان *"أحبِبْ روسيا يا* **بوريس أبراموفيتش !"**، وعنوان فرعي : *"رسالة مفتوحة إلى* **بيريزوفسكي، وغوسينسكي، وسمولينسكي، وخودوركوفسكي** *وغيرهم من الأوليغارشيين"*.

كتبت هذه الرسالة بالقلم العريض، ففيها تعبيرٌ عن النظرة إلى رسالة اليهود العالمية، وتوصياتٌ تتعلق بالنشاط في *روسيا* المعاصرة. ولكنني الآن أكتفي بإبراز تقويم للوضع الحالي في *روسيا* عبَّر عنه أثناء جلسة ضمته مع **بيريزوفسكي** "في دارة قديمة تم ترميمها وَفق ما يسِم سلوك الروس الجدد من أبهة وبذخ...".

يقول الكاتب:

"يا **بوريس أبراموفيتش** ... يوجد في التلفزيون ، كما تعرفون ، برنامج يسمّى "الدُّمى"، وفيه تتحرك دُمى تمثِّل كلاً من **يلتسين، وياسترجيمبسكي، وتشرنوميردِن، وكوليكوف** وسواهم. ولكن محرك الدُّمى الرئيس هو مَن يقف وراء الشاشة، واسمه **شيندروفيتش**. وفي الحياة الواقعية ثمة حكومة روسية مؤلفة من **يلتسين، وكيرييينكو، وفيودوروف، وستيباشين** . ولكن محرِّك الدُّمى الرئيس فيها له اسم يهودي طويل هو : **بيرويزوفسكو– غوسينسكو– سمولينسكو– خودوركوفسكي** ...إلخ. أي أننا تولَّينا السلطة الفعلية في البلاد لأول مرة منذ أن استوطن اليهود *روسيا* قبل ألف عام".

هذه هي ، إذاً، صورة الوضع الحالي التي رسمها الكاتب . وهي، كما يظهر من متابعة الحوار، لا تلقى اعتراضاً من جانب **بيريزوفسكي** . ثم يَرِد بعد ذلك تعبير عن وجهات نظر مثيرة للاهتمام، ولذا سنتابع مع الكاتب:

"– أود أن أسألكم صراحة : كيف تنوون استخدامها (السلطة في *روسيا* كما قيل أعلاه . – المؤلف)؟ وماذا تعتزمون أن تفعلوا بهذه البلاد؟ هل ترمونها في فوضى البؤس والحرب، أم تنتشلونها من الوحل؟ وهل تدركون ، يا ترى، أن مثل هذه الفرصة تأتي مرّ ة كل ألف عام؟ وهل تشعرون بمسؤوليتكم أمام **جماعتنا** (التشديد لنا . – المؤلف) عمّا تقومون به؟

. أتعلمون، . ردّ **بيريزوفسكي** بصعوبة، . نحن بالطبع نرى أن السلطة المالية صارت في أيد يه ودية، ولكننا، من وجهة نظر المسؤولية التاريخية، لم نكن نتطلع إلى ذلك قطّ...

. أوَلم تناقشوا هذا الموضوع يوماً في دائرتكم الضيقة؟

. كلا".

فلنتجاوز مناظرات **بيريزوفسكي** حول أسباب سوء حظ رجال المصارف الروس، ولنتابع اقتباس فكرة الكاتب:

" . ولكنْ، ما دام الأمر قد جرى على هذا النحو الذي جعل السلطة المالية كلها تتركز في أيدينا، بينما الحكومة تتألف من **كيريينكو وتشوبايس** اللذين تجري في عروق كل منهما دماء يهودية ...، هل تشعرون بكل مدى المجازفة التي تعرِّضون شعبنا لها في حال سقوط *روسيا* في الهاوية؟ فأعمال الترويع المعادية للسامية قد تتحول إلى *هولوكوست* . "محرقة" جديدة.

. هذا مستحيل، . قال **بيريزوفسكي**، . هل تعلمون كم هي الآن نسبة معاداة السامية في *روسيا* ؟ ثمانية بالمئة فقط**!** هذا مؤكد علمياً**!**".

ولكن الكاتب لا يتفق مع هذا الموقف المتفائل، ويورد حجة أخرى:

" تعلمون أنه عندما كانت جميع الأموال الألمانية موجودة في أيدي رجال المصارف اليهود في *ألمانيا*، ولم يكن هؤلاء يفكرون إلا بمضاعفة ثرواتهم وسلطتهم، ظهر هناك **هتلر**، وانتهى الأمربـ*الهولوكوست* (المحرقة)".

نورد شهادة أخرى من تلك الأوساط. ففي العام 1997 زار **إسرائيل** وفدٌ من كبار رجال المصارف في *روسيا* ، مؤلَّفٌ من **آفين، وبيريزوفسكي، وغوسينسكي، ومالكِ ن، وخايت** (مطابق للقائمة التي وردت في مقالة **رَدزيخوفسكي** بالضبط تقريباً). وقد أجرى معهم التلفزيون الإسرائيلي مقابلة جماعية. وقد وصل شريطٌ مسجل عن المقابلة إلى **روسيا** وتناقلته الأيدي. وإليكم مقتطفاتٍ منه:

"لقد تمت إعادة توزيع للممتلكات هائلةٌ، منقطعةُ النظير . إن 75 بالمئة من الممتلكات التي كانت بيد الدولة، انتقلت . بعد العام 1991. إلى أيدي الأفراد". – **بيريزوفسكي**.

"إن الأرباح والمداخيل في *روسيا* لم يُعرَف لها مثيل في أي مكان آخر". – **خايت**.

"إن 50 بالمئة من رأس المال يخص البيزنس اليهودي". – **مالكِن**.

ويكشف المتحدثون تلك الطرق التي تم بها إنجاز هذا الانقلاب. أحياناً بشكل شاعري:

"بدأنا بقروش..."، – ثم : سارت الأمور، وسارت، وسارت...". – **غوسينسكي**.

ويتحدثون أحياناً بطريقة أكثر تحديداً:

"كان يمكن التحرك يميناً، ويساراً، وإلى الأمام، وإلى الوراء". – **مالكِن**.

"ترافقت هذه المرحلة بالثقة على صعيد شامل". – **مالكِن**.

"مدة عامين لم ندفع أية ضرائب". – **خايت**.

"ظهرت فرص لإعادة توزيع ثروات تقدر بالمليارات". – **بيريزوفسكي**.

"كان ذلك رزقاً سائباً". – **بيريزوفسكي**.

"كان يتوقف على توقيع موظف ما إذا كان هذا الرزق سيؤول إليك أم لغيرك". – **بيريزوفسكي**.

وثمة فكرة أكثر عمومية، هي:

"إذا كنت تساعد السلطة فأنت إذن تكتسب هيبة معنوية . وهذا الرأي المتكامل للبزنس الكبير يؤثر على التعيينات في المناصب الرسمية". – **مالكِن**.

ويطرح مقدِّم البرنامج السؤال التالي:

"أوَلم تحاولوا التأثير على الانتخابات؟"، فيأتي الجواب:

"لقد حاولنا (مع ابتسامة عريضة) وأثَّرنا...". – **غوسينسكي**.

يلي ذلك أفكار مماثلة:

"توظيف المال في وسائل الإعلام ليس بزنساً ، بل هو حماية للمصالح الخاصة (وليس الخاصة فقط)". – **بيريزوفسكي**.

في العام 1996، ومع اقتراب موعد الانتخابات ، نشر رجال الأعمال في *روسيا* رسالة أشاروا فيها بصوتٍ آمِر إلى الخطوط الأساسية في السياسة الروسية المقبلة . وقد وقَّع هذه الرسالة أحدَ عشرَ "رجل أعمال"، بينهم **بيريزوفسكي، وسمولينسكي، وخودوركوفسكي، وفريدمان**. ومما أوعزت به الرسالة:

"... ينبغي أن نضع حدَّاً يفصل فصلاً دقيقاً بين السياسة البناءة والمتاجرات بالموضوع القومي ... نحن جميعاً من *روسيا* . ليس بوسعنا أن نمارس عملاً تربوياً، مضنياً، وعقيماً... لقد صار رجال الإعمال من أبناء الوطن يمتلكون الموارد الضرورية، والإرادة، من أجل التأثير على الساسة اللامبدئيين ، والمتشددين إلى حدّ الإفراط".

وباختصار، كان ذلك صوتَ السلطة الجديدة.

يتطرق كتاب ف. **تويوروف**، الذي سبق ذِكرُه إلى موضوع دور اليهود في *"البيريسترويكا"* :

"إن اليهود جملةً (سواءٌ في ذلك مَن يَعُدّون أنفسهم يهوداً، وأولئك الذين يكتفون بالنظر إلى أنفسهم وأقربائهم بوصفهم ضحايا حتميين لما هو آتٍ من ملاحقات واضطهادات)... أقدموا على الخيار الرأسمالي، "الديمقراطي"، الموالي لـ **يلتسين**، شاءوا أم أبوا– وبحماسة عظيمة، إذا ما توخينا الدقة!– آخذين بذلك على عاتقهم جزءاً من مسؤولية التحولات على صعيد الدولة عامة، والتحولات الاجتماعية الاقتصادية التي تتصف بأكثر الصفات تهلكة... بل جزءاً هائلاً من المسؤولية! ومرة أخرى تغافلوا عن المسألة القومية، على الأقل لأن هذه المسؤولية سوفُ تلقى على كاهلهم، إنْ عاجلا أم آجلاً".

عقدت الأوساط الاجتماعية اليهودية ، في أثناء حملة الانتخابات الرئاسية، لقاء في "دار السينمائيين" تأييداً لـ **يلتسين**. ونشرت *"يفريسكايا غازيتا"* (الصحيفة اليهودية) خبراً عن ذلك اللقاء تحت عنوان *"اليهود حددوا خيارهم"*. وأرسل رجالات الثقافة في *إسرائيل* رسالة إلى الصحيفة المذكورة تتضمن نداء يدعو "لمقاومة إحياء القديم". ومما يدل على هذا الاتجاه أيضاً أن عشرين مليون روسي من سكان *الاتحاد السوفيتي* الذين وجدوا أنفسهم خارج حدود *روسيا* ، لم يحصلوا على حق المشاركة في الانتخابات، بينما أقيمت في *إسرائيل* مراكزُ انتخابية خصيصا للمهاجرين من *روسيا* ! يناقش د. **فورمان** هذه المسألة بلغة الأرقام ونتائج "الاستطلاعات السوسيولوجية"، فيقول، اعتماداً على استطلاع أُجريَ في العام 1991:

"إن الفكرة القائلة بأن أفضل مجتمع ممكن هو المجتمع الذي أنشئ في *الغرب* ، وأن علينا السير على خطا *الغرب*، هي فكرة أيَّدها 13،2 بالمئة من الروس، و52،5 بالمئة من اليهود".

ويؤكد المؤلف (دون أن يورد هنا نسباً مئوية) أن اليهود ، مقارنة بالروس ، "لا يبْدون طموحاً خاصاً لأن يصبحوا رجال أعمال".

"ولكن، عندما لا يدور الحديث عن المستفتين أنفسهم، بل عن أولادهم ، فإن نسبة من يختارون مهنة رجل أعمال هي 18،6 بالمئة من الروس، و30 بالمئة من اليهود".

وفي ما يتعلق بالفكرة القائلة إن السوق هي الشكل الأكثر فعالية في الاقتصاد، ويجب الانتقال إليه ا بأسرع ما يمكن، بغضِّ النظر عمّا تتطلَّبه من تكاليف، فقد أيدها 22،1 بالمئة من الروس، و30 بالمئة من اليهود . وكانت نسبة اليهود أقل بمرتين ، مقارنة بالروس ، في ما يتعلق بالموافقة على القول إن *"روسيا* يجب أن تدافع عن مصالح الروس في الجمهوريات السوفيتية السابقة الأخرى بكل الوسائل، بما في ذلك استخدام القوة العسكرية وتعديل الحدود". وفي ما يتعلق بالقول إن *"روسيا* لا يجوز أن تتدخل في الشؤون الداخلية لغيرها من الجمهوريا ت المستقلة، حتى ولو تعرضت حقوق الروس هناك للانتهاك"، فكانت النسبة 1إلى 4.

ويصوغ المؤلف استنتاجاته، بناء على الاستطلاع الذي أجراه، فيقول:

"في كل مكان، في العالم كله، وعلى الدوام، كان عدد اليهود في الحركات التقدمية والثورية غير متناسب البتة مع حجمهم، قياساً إلى عدد السكان . وفي تاريخ *روسيا* ... أصابت الأيديولوجيات الثورية نجاحاً خاصاً في أوساط اليهود، وكان دور اليهود في ثورتنا كبيراً على نحو خاص. فهل تتجلّى هذه الاستراتيجية النشطة في زمن ثورتنا الثانية المناهضة للشيوعية؟ نعم! إنها تتجلّى، طبعاً...".

ويشار في هذ ا السياق إلى المسار الطبيعي التالي . ففي زمن "الدورة الثورية الأولى " وقفت غالبية اليهود النشطة سياسياً إلى جانب الثورة... التي أقامت في الوقت نفسه نظاماً شمولياً...

وبرأيي، فإننا، وعلى نحوٍ ملطّف جداً... نرى المنطق نفسه في ما يتعلق بأغلبية اليهود في سنوات 1989 – 1993".

يعزو المؤلف هذا الأمر إلى سبب واحد هو الخوف من "معاداة السامية "، وإن كان الحديث يدور، وَفقاً لتأكيده حول "الخوف" أكثر مما يدور حول عامل واقعي في الحياة.

كان **غوسينسكي** الذي سبق ذكره (في اقتباس لنا من مقالة *"سعادة اليهود"* ، مثلاً) قد قال وهو يتحدث لإذاعة *"الحرية"* عام 1994 بوصفه ممثلاً لـ "باكورة النخبة الرأسمالية في روسيا":

"لقد موّلنا كامل الطيف السياسي الذي لا يتخذ موقفاً فاشياً، راديكالياً أو قومياً متطرفاً... فالبلاد بلادنا، وليس بوسعنا أن نسمح بأن يأتي الفاشيون إليها".

ونظراً لأن تعبير "الفلشيين والقوميين" يعني في هذه الأوساط أولئك الذين يحاولون النطق بكلمة عن المصالح الروسية، أو حتى عن المصالح الطبيعية للدولة (وهذه ما تؤكده كثرة هائلة من الأمثلة)، فإن كل من عداهم، بالمعنى الوارد أعلاه، يتلقون إعا نات من "باكورة النخبة الرأسمالية " التي يشكل اليهود غالبيتها العظمى ، حسب دلالة المقالة المذكورة.

تتحدث الباحثة الاجتماعية ر . **ريفكينا** في كتاب لها عن خصوصية وضع اليهود في *روسيا* بعد *"البيريسترويكا"* ، فتقول:

"تقدم الإنتلجنسيا اليهودية نفسها من جديد بوصفها واحدة من الفصائل الأكثر فاعلية بين الإصلاحيين : رجال المصارف، وقادة المنظمات الاجتماعية الجديدة، والعاملين في الصحافة وغيرهم".

وبالرغم من أن المؤلفة لا تورد هنا، للأسف، أية معطيات محددة، فإنها تقترح تفسيراً ما لهذه الظاهرة:

"... إن اليهود يتمتعون بالقدرة على المنافسة ل تولي المناصب في أشكال الاقتصاد الجديدة والأكثر تعقيداً ، كالمالية، والعلاقات الاقتصادية الخارجية، وسوق الأوراق المالية، وسوق الكمبيوتر... إلخ".

(حبذا لو سمعنا من *باحثة اجتماعية* تحديدا ماذا تعني "القدرة على المنافسة "... أهي مؤهلات موروثة، أم وضع اجتماعي أفضل... إلخ.؟؟)

وبالرغم من هذا التأثير القوي الذي يملكه اليهود في حياتنا، فإنه يصعب علينا النظر إلى موقفهم من *روسيا* بوصفه موقفَ تعاطف ودي. ها هي **ريفكينا** تورد معطيات الاستطلاع الذي أُجريَ بين اليهود حول سؤال : "في أي مرحلة من التاريخ الروسي كنت تفضل أن تعيش؟". فأجاب العدد الأكبر من المستفتين بالقول: " كنت أُفضِّل ألا أعيش في *روسيا* أصلاً". فيما أجاب عدد قليل منهم بقوله إنه يفضل العيش في عهد **غورباتشوف** أو **بريجنيف**... إلخ.

نستطيع أن نسوق عدداً كبيراً من الأمثلة المشابهة، ولكن الاستنتاج واضح سلفاً . فكما أيَّد "اليهود" بمجملهم الثورة عام 1917، أيدوا أيضاً "ثورة التسعينات"، وكانوا إلى جانب *"البيريسترويكا"* ، وساندوا في الواقع العملي ذلك الاتجاه الذي أعطى مفهوم *البيريسترويكا* مغزاه الحالي . ومن الطبيعي أن "الديمقراطيين" لم يكونوا جميعاً من اليهود (وإن كان عدد أولئك الذين ينسبهم **رادزيخوفسكي** إلى "المجال اليهودي" كبيراً جداً، ولافتاً للنظر). هذا في حين أن معسكر "الوطنيين" المقابل كان خلواً من اليهود تقريباً.

وهذا ما يتحدث عنه **توبوروف** أيضاً في سياق آخر:

"إن الثورة اليهودية الثانية (كما الأولى في عام 1917) تهدد بأن تنقلب إلى تراجيديا، سواء بالنسبة للبلاد بأسرها، أو بالنسبة لليهود الذين يحتفلون بانتصار اللحظة الراهنة".

كيف حدث هذا الانقلاب الهائل؟ لقد ابتدأ بنداءات تُ زوِّقها بلاغةٌ شيوعية من قبيل : "التسريع"، "مزيداً من الاشتراكية"... وانتهى (بعد بضع سنوات فقط) بأن طارت مُ لكية أغنى دولة في العالم من أيدي هذه الدولة (لا تكاد الدولة الروسية الآن تملك 10 بالمئة من ثروات البلاد). فأين ذهب الباقي؟ هل بيع بالمزاد؟ ولكن الدولة في فقر مدقع، لا تستطيع إعالة الجيش ، ولا الإنفاقَ على التعليم العام والرعاية الصحية ، وغالباً ما تتأخر في دفع رواتب المتقاعدين . لقد ذهبت الثروات، إذاً، إلى أيدي أفراد، وَفقاً للوصفة التي تحدث عنها **بيريزوفسكي** للتلفزيون الإسرائيلي، حين قال: "جاءت فرصة لإعادة توزيع ثروات تقدَّر قيمتها بالمليارات. كانت ثروات سائبة ! وعلى توقيع موظف واحد كان يتوقَّ ف إن كان ذلك سيؤول إليك أم إلى غيرك". ولكنْ، بأية وسائل كان يتم الحصول على "توقيع الموظف"... هذا ما تتحدث عنه مكتبة كاملة من كتب المذكرات، غير أن القضية ليست في التفاصيل التقنية.

فلماذا أفلتت الدولة ، إذاً، من أيديها كل شيء : الثروات، والبلاد؟ بدهي أن تكون جملة من العوامل قد تضافرت في هذه الأزمة.

هناك، في المقام الأول، ما طرأ من تغير أصاب المجتمع الشيوعي، فلندثر على نحو ما ، وفي لمح البصر تقريباً، ولا سيّما شريحته العليا . لقد اختفى تماماً نبض نضال ذلك المجتمع في سبيل سلطته، و ضاع تلاحم ه وقدرته على التضحية من أجل الاستيلاء على السلطة، والاحتفاظِ بها. هذه الخصال التي كانت سائدة في البيئة المحيطة ب**لينين** (كان الجميع يجازفون برؤوسهم). وكان المحيطون ب **ستالين** ما زالوا يتذكرون ذلك . ولكنْ، فيما بعد ، راح يدير دفة البلاد أناسٌ كانوا يتخيلون أن سلطتهم "أمر مفروغ منه ". أما التضحيات التي يتوجب تقديمها من أجل هذه السلطة، فكانوا ينظرون إليها كشيء خارجي، غير ملزم. وتتمثل هذه التضحيات، بالدرجة الأولى، في الخضوع بلا نقاش، وفي "الوحدة الصلبة" المكفولة بـ "ضريبةالدم"، أي بالاعتقالات والإعدامات التي تتكرَّر بين حين وآخر. وتتمثل، ثانياً، في ثراء البلاد المثير. لقد كان هذا الثراء تحت سلطتهم، ولكنْ "بمقتضى المنصب" لا غير. على أنه لمّا كان من المستحيل توريث مناصبهم الامتيازية لأولادهم رسمياً ، كان لا بد من الإقدام على الا حتيال. إذ كان فقدان المنصب يعني ضياع كل شيء عموماً ... لقد راح يتولّد عندهم إحساسٌ مغيظ مصدرُه أنهذه الثروة "لي وليست لي"، ومضت تراوده م أفكارٌ بأن يجعلوا هذه الثروة لهم بكل بساطة، وإن تخلوا (جزئياً) عن السلطة. إن شخصية مركزية في هذا الانقلاب مثل **غايدار** تعترف بأن جوهر هذا الانقلاب يمكن التعبير عنه بكلمات ثلاث هي: "**المال مقابل السلطة**".

على أن العامل الثاني الذي لا بد من الإشارة إليه هو أن قوة اليهود الجبارة كانت قد رست في الكفة المقابلة.

لقد جرت عملية *"البيريسترويكا"* في ظل ذلك "الطلاق" الذي وقع بين اليهود والنظام الشيوعي، والذي تحدثنا عنه في الفصل الثالث عشر . وهذه السنوات القليلة (1988 – 1991) لا يزال يحيط بها الضباب ح تى الآن. كانت القرارات تتخَّذ وراء الكواليس. فمن الذي قرر التخلي عن منطقة النفوذ السوفيتي (*"المعسكر الاشتراكي"*) ل *الغرب*؟ ذلك ما لم يناقَ ش، بصرف النظر عن ملمح الديمقراطية الوليدة. والذين شاركوا في هذا الموضوع ما زالوا يلتزمون الصمت المطبق حول ه. فقد كان السماح بتصدير النفط (أو المشتقات النفطية) إلى خارج البلاد ، وبيعه هناك بأسعار لا تقا رَن بأسعاره داخل *الاتحاد السوفيتي*، هو ما فتح الطريق لنهب البلاد. فمن الذي كان

وراء هذا السماح، وتحت أية ضغوط؟ لقد كان في السلطة أناس ترعرعوا وهم يعملون في ميدان الاقتصاد، ولم يكن بوسعهم ألا يدركوا ماذا يفعلون . وهذا ناهيك عن قرار "حل" *الاتحاد السوفيتي* دونما تفكير بحدود *روسيا* ، وبالناس الذين يعيشون خلف تلك الحدود.

ومع ذلك ، فإن في وسعنا أن نتبين بعض الوقائع خلف هذا الضباب . لقد تم إنجاز كل هذا الانقلاب الاقتصادي– السياسي بسرعة، في غضون سنتين أو ثلاث سنوات. إذ كان من المهم ألا تعي الكتلة الأساسية من الشعب ماذا يجري، أي أن مدخراتها ستختفي، ومرتباتها التقاعدية ستتقلص مثل جلد الحَمَل، وأن المعلم والمهندس سيتحولان إلى "تجار شنطة "، والضباط سيُصرَفون من الخدمة . لقد نعت أحد منظّمي الإصلاحات مجمل منظومة هذه الإصلاحات بأنها "عملية جراحية جرت تحت التخدير دون موافقة المريض".

وقد كانت وسائل الإعلام هي هذا "المخدِّر". وكدليل ساطع على ذلك ، أضرب مثلاً بإذاعة *"الحرية"* . ذلك أن برامج هذه الإذاعة كانت تبدأ بالإعلان عن أنها إذاعة يموّلها *الكونغرس* الأميركي. وبعد انهيار *الاتحاد السوفيتي* ناقش *الكونغرس* الأميركي مسألة ما إذا كان ينبغي إغلاق هذه الإذاعة أم لا، " نظرا لانتهاء الحرب الباردة "، وهذا يعني أنْ لا مجال للشك في أنها تأسست لتكون أداة من أدوات "الحرب الباردة ". وما إن ابتدأت *"البيريسترويكا"* حتى توقف التشويش على هذا الإذاعة ، وبات بالإمكان التقاطُ برامجها في أية بقعة من بقاع *الاتحاد السوفيتي* على مدار الساعة . كانت تتدخل في حياتنا ، وكانت أداة لسياسة بعينها . كما كانت مقولتها الرئيسة هي الإعلان عن أن هدف *"البيريسترويكا"* هو "خلخلة الروح الشعبية الروسية ". وتركز اهتمامها دوماً على كشف مفاسد التاريخ الروسي ، والثقافةِ الروسية . وكانت تكيل أقذع السُّباب للكتاب الروس **أستافيِف، وبيلوف، وراسبوتين** ، حتى أن مصطلحات من نوع "ظلامي " أو "مسعور " كانت من أكثر التعابير رصانة عندها. وكانت تروِّج للنزعات الانفصالية أياً كان مضمونها... البلطيقية، والأوكرانية، وحتى السيبيرية.

فمن هم أولئك الذين كانوا يُعِدُّون هذه البرامج؟ لقد وقعتْ في يدي قائمة بأسماء مقدِّمي البرامج (المحررين) خلال الفترة الأولى من *"البيريسترويكا"* . ووجدت أن ما لا يقل عن نصف من أُدرِجت أسماؤهم في هذه القائمة، وعددهم عشرون شخصاً، كانوا يحملون أسماء يهودية : **رويتمان** ، **ليفِن، وخينكِن**...إلخ. لقد اشتغل في هذه الإذاعة عند تأسيسها العديد من مهاجري "الموجة الثانية ". وفيما بعد قامت مجموعة ممن هاجروا، أيام كانت السلطة تتغاضى عن هجرة اليهود من *الاتحاد السوفيتي* (المجموعة التي توجهت إلى *أوروبا* بدلاً من *إسرائيل*)، بإثارة ضجة حول الروس العاملين في الإذاعة، واتهمتهم بـ "العداء للسامية". وتمكن أفراد هذه المجموعة من نقل الموظفين الروس إلى وظائف ثانوية، واحتلال أماكنهم . وعندئذ رُفدت قائمة العاملين الأساسيين ببضعة أسماء يهودية أخرى : **خينكِنا** ، و**تولتس، وماتوسيفِتش**، واختفى **كراسوفسكي** (الروسي) **وغارسيا** (الإيطالي). وفي أواخر الثمانينات، كما يخبرنا **م.ف. نازاروف** الذي كان يعمل هناك، لم يعد ثمة إلا أربعة أو خمسة من الروس بين 23 شخصاً كانوا مسؤولين عن القسم الروسي في هذه الإذاعة . وفيما بعد أطلقت المجموعةُ إياها صفة "العداء للسامية" على برنامج عن كتاب ل. **صولجينيتسين** ورد فيه أن **بوغروف** الذي قتل **ستوليبين** كان يهودياً . وكان على مُعِدِّ البرنامج أن يبرر موقفه ، ويبرهن على أنه هو نفسه يهودي... ولكن هذا كله لم يكن في تلك المرحلة ظاهرة منعزلة عن *روسيا* ، ذلك أن إذاعة *"الحرية"* كانت قد تضافـرت مع وسائل الإعلام الجماهيري

السوفيتية والروسية . ثم ظهر عندنا ، فيما بعد ، كثير من الأسماء التي كانت تتردد على أثير *"الحرية"* : **مارك ديتش، وفاديم بيلوتصيركوفسكي، وسافك شوستر...**

وفي وقت لاحق غدا التلفزيون أكثر قوة، وشملته "الخصخصة"، فخرج قسم كبير من العاملين فيه من تحت إدارة الدولة، ونتيجة لذلك وضع اليهود أيديهم على إدارة ثلاث قنوات (من أصل ست قنوات) تابعة للتلفزيون المركزي. إن عامة الشعب تسمي الشاشة الصغيرة في *روسيا* "تلفزيون الكوشر" (وكلمة "كوشر" تعني الطعام الحلال شرعاً عند المتدينين اليهود)، و"تل أفيفزيو ن" (تلفزيون *تل أبيب* .. م). على أن القناة الأبرز في هذا المجال هي قناة *"إن.تي.في."* التي صار صاحبُها ، **غوسينسكي** ، في الوقت ذاته رئيسَ *المؤتمر اليهودي الروسي*، ومالكَ صحيفة *"سيفودنيا"* (اليوم)، وإذاعة *"إيخو موسكفي"* (صدى موسكو)، ويسمونه في العادة "قطب الميديا". لقد لعبت قناة *"إن.تي.في."* دوراً متميزاً لفترة طويلة.

وعلى سبيل المثال، كان التلفزيون بمجمله ، في أثناء الحملة الشيشانية الأولى ، عدائيَّ المزاج إزاء القوات الروسية، يحثّ المشاهدين على التعاطف مع فصائل **دودايف**. ولكن هذا التوجُّه كان واضحاً على نحو خاص في قناة *"إن. تي. في."* التي كانت تبث على الدوام برامج من *شيشنيا* **دودايف**. فقد كانت تعلن أن إدخال قوات عسكرية إلى بلاد الشيشان أمر مخالف للدستور ، ويشكل انتهاكاً لحقوق الإنسان. غير أن القناة المذكورة لم تُبدِ أي اعتراضات من هذا القبيل عندما قامت دبابات **يلتسن** بقصف البرلمان الروسي عام 1993.

وكانت هذه القناة ثابتة في عدائها لفكرة الاتحاد بين *روسيا وبيلوروسيا* ، وللرئيس البيلوروسي **لوكاشينكو** (بل وأكثر عداء من القنوات الأخرى).

وكانت تثير حساسيةَ الوعي الروسي إثارة مؤلمة واضحة تلك الموادُّ الإعلامية الإباحية التي ملأت في تلك الفترة (بل وما تزال تملأ حتى الآن) وسائل الإعلام الجماهيري الروسية ... كان ذلك مؤلماً لأن الوعي الروسي ، تاريخياً، كان ينأى بنفسه عن هذه المواضيع. ومنذ لحظة ظهور أدبنا المكتوب لم يكن عندنا ما يشبه في شيء غزَل الشعراء الجوّالين (*المينيستريل*)[١٧] ، ولا *"تريستان وإزولدا"* (قصة حب من القرون الوسطى . – م). إذ تنحصر مواضيع الحب الموجودة في الأدب الروسي القديم، كما يبدو لي، في *"مرثية ياروسلافنا"* (مشهد من ملحمة *"كلمة عن جيش إيغَر"* . – م). ومما لاشك فيه أن هذا التدمير الذي استهدف الأنماط القومية المترسخة كان واحداً من عوامل تدمير الوعي القومي . وفي هذا المجال كانت القناة المذكورة سبّاقة في ما بثته من برامج حول هذا الموضوع.

وكان حدثاً صارخاً قيام هذه القناة عام 1997 بعرض فيلم *"الإغواء الأخير للمسيح"* . كنتُ قد شاهدتُ هذا الفيلم قبل ذلك على شريط (كاسيت)، وبدا لي أنه يثير الاشمئزاز عن عمد، فثمة مشاهد جنسية في الفراش بين **مريم المجدلية** و**المسيح** (حتى ولو فسَّرنا ذلك على أنه "حلم المصلوب"...). وردّاً على الاحتجاجات العديدة ، قال أصحاب الشأن في القناة المذكورة: "لا يستطيع أحد أن يمنعنا من عرض ما نريد عرضه ". وهذا ما تبيَّن أنه صحيح تماماً. غير أن الأمر الأكثر إثارة للاهتمام هو السؤال: *لماذا* كانوا بحاجة لعرض هذا الفيلم تحديداً ؟ فهم

[١٧] **من الكلمة الفرنسية menestrel ومعناها مغنٍّ جوّال، أو موسيقي، أو ممثل، وغالباً ما كان شاعراً، في فرنسا وإنكلترا إبان القرون الوسطى، ينشد ما ألّفه هو، أو ما ألّفه آخرون. – م.**

لا يستطيعون عرض جميع الأفلام، بل يختارون بعضاً معيناً منها. والجواب، للأسف، واضح بما فيه الكفاية. ذلك أنهم في بداية الأمر كانوا ينوون عرض الفيلم بمناسبة عيد *الفصح* الشرقي تحديداً، أي كان المقصود توجيه إهانة متعمدة لمشاعر الأرثوذكس الدينية. ثم جاء احتجاج رسمي من البطريرك، فمَن غيرُه أحقُّ منه بالنطق باسم المسيحيين الأرثوذكس؟ وإذا ما توسعنا نقول إن الثقافة الروسية والتاريخ الروسي برمّتهما قائمان على العقيدة الأرثوذكسية. فقد قال **دميتري دونسكوي** في تأبين المقاتلين الذين سقطوا في ساح الوغى إبان موقعة **كوليكوفو** *: "إنكم ضحيتم بأنفسكم في سبيل مقدسات الكنيسة، في سبيل الأرض الروسية، وفي سبيل العقيدة المسيحية".

لقد انصهرت هذه الأقانيم (المقدسات، والأرض، والعقيدة) في قالَب واحد. وهذا يعني أن تصرف قناة *"إن.تي.في."* كان يستهدف جميع الروس، ناهيك عن أن مالِك هذه القناة يشغل مكانة رفيعة في سلم التراتب اليهودي الرسمي، وأن المخرج الرئيس فيها هو **فايفمان**. كنا نتخيَّل أننا ابتعدنا كثيراً عن القرون الوسطى، أيامَ كانت جموع الغوغاء الهمجية تتهم اليهود بارتكاب أعمال التجديف بحق المسيحية. فلمَ القيام مجدداً باختلاق تربة ملائمة لمثل هذه المشاعر؟

يعتقد البعض الآن أن هذه القناة تتعرض للمضايقات، وأن في ذلك انتهاكاً "لحرية الكلمة في *روسيا*". ولكنَّ كل ما في الأمر هو أن **غوسينسكي** يعيش في مكان ما خارج البلاد، وقد انقسم العاملون في القناة قسمين، وها هم الآن يبثون عبر قناتين مختلفتين.

لنعُدْ إلى بداية *"البيريسترويكا"*. لقد كان الصراع الإيديولوجي مستعراً في وسائل الإعلام آنذاك. فمن ناحية، كان الصراع دائراً ضد "الستالينية"، أو "نظام الأوامر". وكان البعض يعدّ ذلك شجاعة قصوى، علماً بأنه ما من شيء بعدُ كان يتهدد من يقوم به. وكما يتضح الآن من إلقاء نظرة إلى الوراء، فإن العدو المباشر لـ "الصحافة الديمقراطية" كان يتمثل بالدولة التي وقفت، بعد أن غدت ضعيفة، عائقاً في طريق "الخصخصة" (ربما لم تكن ثمة أية خطط دقيقة لذلك). ومن ناحية ثانية، كان ثمة شعور بوجود صلة روحية ما، تؤلِّف بين جميع هؤلاء الصحافيين وحقبة العشرينات، بينهم وبين المفوَّضين (القوميسارين) "ذوي الخوذات المغبَّرة"، كما كانوا يكتبون. ولذلك أعلنوا أن العام 1937 هو "خط المعركة"، فكتبوا عن ويلاته بنوع من الشهوانية، ودافعوا عن كل الحقبة التي سبقته دفاع من يكادون أن يلقوا بأنفسهم تحت الدبابات (مجازياً طبعاً). كتبوا يقولون: "أمامنا سنوات العشرينات... إن لم تكن من بدايتها، فلتكن من نهايتها". ودافعوا عن هذه السنوات قائلين: "لماذ يجب أن نساوي بين إجرام **ستالين** ولاأخلاقيته، من جهة، وقنوط الثوار، من جهة أخرى؟". هكذا، إذاً، يجب أن نفهم *لجنة الطوارئ* (يشير المؤلف إلى الإرهاب الذي مورس بعد الثورة في العشرينات. – م).

في هذا المناخ الذي أشاعته *البيريسترويكا* صدرت رواية **ريباكوف** *"أولاد أربات"* التي جرى الترويج لها على أوسع نطاق. تتحدث الرواية عن المصير الصعب الذي عاشه في فترة 1934– 1938 أولاد عليَّة القوم الشيوعية التي استقرت في حي أربات (ومن هنا عنوان الرواية). على أن هذه الرواية التي باتت طيَّ النسيان الآن، استخُدمت في تلك الفترة أداة من أجل إحداث انعطافة في الوعي الجماهيري، و لاقت دعماً عريضاً بالأسلوب المألوف: "إنها الحقيقة التي تقال لأوّل مرة بعد أن لفَّها الصمت طويلاً". والرواية تعكس الموضوع

الذي نحن بصدده، موضوع مساهمة اليهود في العملية التي كانت جارية آنذاك . هذه المسألة تُطرَحُ فوراً على نحو راديكالي. فالمؤلف، **أناتولي ناعوموفِتش ريباكوف**، يصف، مثلاً، كيف يلتقي بطلا الرواية: الأول **بوريس سولوفيتشيك** (يهودي)، والثاني **ساشا** (يبدو أن نصف دمه يهودي ، ثمرة زواج مختلط)، مع شخص "من السابقين"، حسب مصطلحات العشرينات، (مجرد طاهٍ سابق من الدرجة الرفيعة) هو **أنطون ستيبانوفِتش** (روسي). ويشرع هؤلاء الثلاثة بالحديث عن العودة إلى البيت من المنفى الذي كانوا فيه. ثم يطالعنا المشهد التالي:

. " إلى البيت؟ – نظر **أنطون ستيبانوفيتش** بكراهية إلى **بوريس**، – أين هو بيتك [18]؟ في مدينتك *بيرديتشِف*؟ (...)

. انقلِعْ من هنا، ألعنُ أصلك حتى سابع جيل...! – قال **ساشا**.

. كلا! . ونهض **بوريس**، فمضى إلى الباب، وأغلقه بالمزلاج.

. ما لكم يا شباب؟ – غمغم **أنطون ستيبانوفتِش** جزعاً، – إنني أمزح.

. فلتكن هذه مزحتك الأخيرة، أيها الفاجر، – ابتسم **ساشا** ساخراً.

ثم انقضّ **بوريس** على **أنطون ستيبانوفتِش** ودفع رأسه إلى الحائط.

. اتركوني يا شباب، – حشرج **أنطون ستيبانوفتِش** وبياضُ عينيه القميئتين يدور في المحجرين.

. لا تكمل خنقه يا **بوريس**، دع لي نصيبي، – قال **ساشا**.

كان يكره هذا الخطم المنتفخ! يا للجيفة! عنّ له أن يسخر منهما! حشرة! شحّاذ!(...)".

كانت كلمات العجوز فظة، لا جدال في ذلك. ولكنّ ردّ الفعل كان رمزياً، له دلالته، ومنسجماً تماماً مع لبّ قانون 1918 الخاص بمعاداة السامية، والذي "يضع المرء خارج القانون".

وما كاد يخفت الهدير الذي أثارته رواية *"أولاد أربات"* حتى دوّت ضجة مثيرة أخرى، هي قصة **غروسمان** *"كل شيء يتغير"*. كان **غروسمان** واحداً من أبرز الدعاة، ومن عيار إ**هرنبورغ** في الحقبة الشيوعية، بدءاً من عهد **ستالين**. ولقد لعب الموضوع اليهودي دوراً في حياته أيضاً، ففي أول قصة قصيرة ينشرها بعنوان *"في مدينة بيرديتشِف"* يصور هذا الموضوع تصويراً بارعاً جداً. أما قصته القصيرة *"جحيم تريبلين"* فقد وزعت في محكمة *نيورنبرغ*. ومن ناحية أخرى، وقَّع **غروسمان** رسالة إلى **ستالِن** تطالب بإنزال أشد العقوبات بـ "الأطباء القتلة"، علماً بأن اليهود عامة كانوا يرون في هذه القضية مظهراً من مظاهر "معاداة الدولة للسامية". لقد كتب **غروسمان** قصته *"كل شيء يتغير"* أوائل الستينات، إذ أنجزها قبيل وفاته (1964)، وظلت طيَّ الكتمان، إلى أن أصبحت معروفة أول مرة في مطبوعة *"ساميزدات"* الممنوعة. ومع انتصار *"البيريسترويكا"* نُشِرت هذه الرواية رسمياً، وعملت وسائل الإعلام على زرعها، مع روايته *"حياة ومصير"*، في الوعي العام وكأنها فتحٌ جديد، و"خرقٌ للمحرمات". إنها قصة مدهشة حقاً. فهي تستعرض بجلاء شديدٍ فهماً جديداً للتاريخ الروسي، بل ول

---

[18] **إشارة إلى أنهما يهوديان، ولا بيت لهما في روسيا، لأنها ليست وطنهما. – م.**

روسيا بشكل خاص، (يتحدث المؤلف عن "النفس الروسية ")، بوصف هذا التاريخ تجسيداً لمبدأ "العبودية الأبدية ". على أن هـ ذا التعميم لا ينطبق على مرحلة معينة (المرحلة "الستالينية "، مثلاً)، أو على شريحة اجتماعية ما، بل يرى المؤلف أن هذا المبدأ يتجسد في مجمل تاريخ *روسيا* ("العبدةِ منذ ألف عام")، وحتى في النفس الروسية ("العبدة")، وأن *روسيا* عموماً "مِزْجَلُ عبودية".

وبمعنى ما ، كانت هذه القصة تـعكس ما يمثِّل مزاجاً عامّاً في تلك السنوات . فقد كان الطموح لتحقيق إصلاحات سريعة في تلك الفترة مترافقاً بالرعب من أن تحول دون ذلك قوةٌ ما، يمكن إجمالها تحت اسم "الروح القومية الروسية". على أن نظرية "النفسُ الروسية عبدةٌ أبدية "، ومصطلح "المطامع الإمبراطورية" الدارج في تلك السنوات، ساعدا في قمع "النزعة القومية الروسية " الخطيرة. وفي وقت من الأوقات تطابقت الصورة الغائمة لـ "عدوّ *البيريسترويكا* "، أي صورة "النزعة القومية الروسية "، مع صورة جمعية *"بامِت"* (الذاكرة). وقد شُنت بهذا الصدد حملة في العالم بأسره يمكن مقارنتها تماماً ، من حيث اتساع نطاقها، بالحملة التي شُنَّت بصدد *"قضية **دريفوس**"*، أو *"**قضية بليليس**"*. كما كتبت الصحف الشيوعية، والصحف الأميركية أيضاً، عن الخطر الذي تمثِّله جمعية *"الذاكرة"*. وحتى البرلمان الأوروبي اتخذ قراراً يطالب بحظر هذه الجمعية. وها هو جليّ الآن، بعد انقضاء 11أو 12عاماً، أن هذه الجمعية لم تثبت وجودها بأي شكل من الأشكال، ولم تؤثر على حياتنا بشيء. ومعنى ذلك أن كل هذه الحملة العالمية لم تكن تعكس، كما يقال اليوم، إلا "واقعاً افتراضياً". بل وأبعدُ من ذلك، فإن العالم كله كان يغلي خوفاً من أن *روسيا* تهدده بما يعتمل فيها من "نزعة قومية روسية "، و"عداء للسامية ". فقد نشرت صحيفة *"واشنطن بوست"* مقالة بقلم مراسلها في موسكو **د. ريمنيك** بعنوان *"حرية التعبير تجعل أصوات أعداء السامية مسموعة"*. ونشر الأكاديمي السوفيتي الراحل **غلودانسكي** مقالة في الصحيفة إياها بعنوان *"معاداة السامية: عودة الكابوس الروسي"* (نشرت صحيفة *"سوفيتسكايا روسيا"* ترجمة لهذه المقالة). تتوجه المقالة إلى القارئ الأميركي لتطلعه على أن بلادنا "يزدهر" فيها صنف من "المَلَكيين الفاشيين" الذين "يسعون لإتمام ما بدأه **هتلر**". والمثال الوحيد الذي يورده هو شجار وقع في *دار الأدباء* بموسكو. على أن "حادثة *دار الأدباء*" هذه لم تبقَ يومها صحيفةٌ من الصحف الديمقراطية جميعاً إلا وتحدثت عنها، علماً بأن كل خسائر تلك الحادثة لم تتعدَّ كسر نظارة أحد الأشخاص. (وبتعبير أكثر دقة، كان ثمة ضحية بشرية واحدة، ومن جماعة *"الذاكرة"* تحديداً، وهو **سميرنوف – أوستاشفيلي** الذي اعتُقل وحُكِم عليه بالسجن عدة سنوات، ثم "وُجِد مشنوقاً في زنزانته" قبل بضعة أشهر من إخلاء سبيله). وفي الوقت ذاته كان الروس يسقطون قتلى في أعمال ترويع وقعت في *دوشنبه* و*توفا* (إشارة من المؤلف إلى ما تعرض له الروس من أذى في الجمهوريات السوفيتية السابقة بعد انهيار *الاتحاد السوفيتي*. م). غير أن مجموعة من الشخصيات الاجتماعية الديمقراطية كانت تطالب، وهي في حالة من القلق، بإعادة العمل بـ "قانون مناهضة العداء للسامية" (كما في العام 1918).

كانت الصلة المعقدة بين هذين "الرُّهابين" بادية للعيان هنا، رُهاب "النزعة القومية الروسية "، ورُهاب "العداء للسامية ". فعندما كانت تسير في *كيشنيوف* (عاصمة *مولدافيا*) مظاهرات ترفع شعارات فظيعة ، من قبيل: "فلنُغرِقِ الروس في دماء اليهود !"، لم تشعر الصحافة الديمقراطية بالقلق . وعندما كانت وحدات من قدماء المحاربين في قوات الصاعقة الهتلرية (*إس.إس.*) تسير في الاستعراضات في منطقة *البلطيق*، لم تشعر تلك

الصحافة الديمقراطية بالقلق أيضاً. لكأن المسألة لم تكن تمسُّ البتة موضوع مصالح الكتلة الأساسية من اليهود ومشاعرها الحقيقية ، ولا سيما مصالح ومشاعر تلك الملايين الثلاثة "في المجال اليهودي " التي أحصاها **رادزيخوفسكي**. بل على العكس ، كانت مصالح أولئك الناس تُداس بفظاظة لصالح شريحة صغيرة طامحة إلى السلطة والثروة. وهنا نتذكر العلاقة بين "الأشراف" و"العوام" في الوَهَال الذين يتحدث عنهم **برافمان**. وعلى وجه الخصوص، فإن ما جرى تأجيجُه من شائعات بشأن أعمال ترويع مرتقبة ضد اليهود قد تسبب في تشديد الهجرة، وتحديداً هجرة كثيرين من تلك الدائرة العريضة، المؤلفة من أناس كانت تربطهم علاقات كثيرة بحياتنا . لقد قطعوا هذه العلاقات متألِّمين، وهاجروا يستحثهم الرعب، و الأمل بـ "إنقاذ الأولاد". لقد بات واضحاً الآن أنه لم يخطر على بال أحد أي تهديد فعلي باللجوء إلى "أعمال ترويع". وأذكر أن حاخاماً من *القدس* جاء في تلك الفترة إلى موسكو، وأبدى رغبة بلقائي . وقد تطرّق الحديث بيننا يومها إلى أمورٍ منها خطر وقوع أعمال ترويع . قال الحاخام مبتسماً بارتياب، إنه لا يأخذ على عاتقه بأي حال من الأحوال تقدير مدى صحة هذه المخاوف، ولكنه أكد أن الشعور بالخوف حقيقي جداً.

ومن الطبيعي أن تسعير هذا الخوف اتخذ شكل بحثٍ عن "العداء للسامية " لا يزال مستمراً حتى الآن. إذ تؤكد ر. **ريفكينا**، مثلاً، على أن "العداء للسامية" صفة أبدية عند شعوب *روسيا*. تقول:

"صار واضحاً أن العداء للسامية في *روسيا* (المقصود هو العداء للسامية عند المجموعات السياسية) هو أحد الثوابت في جميع أنظمتها السياسية، أي أنه سيظل قائماً، بصرف النظر عن نوع النظام السياسي الذي يكون في البلاد". (سواءٌ أكان في السلطة **لينين**، أو **غورباتشوف**، أو **يلتسين**، فإن "العداء للسامية" باقٍ؟).

مع العلم أن معنى هذا المصطلح الفظيع يظل غامضاً، كما كان من قبل. والباحثة نفسها تفرّق بين أربعة أشكال منه. فما هو الشكل الذي يَعنونه منها عندما يتهمون شخصاً بذلك (أي بالعداء للسامية)؟

ويتضمن الكتاب نتائج استطلاع للرأي أجريَ وسط اليهود، حول ما إذا كان "العداء للسامية " موجوداً في *روسيا* أم لا، فأجاب جميع المستَطلَعين عملياً بالإثبات "نعم". أما السؤال عمّا إذا كان قد اصطدم المستطلَع أو أحدُ أفراد أسرته بهذا العداء، فكان عدد من أجابوا عليه بالإثبات أقلَّ بمرتين. وعندما تورد المؤلِّفة أمثلة ملموسة عن "الدعاية المعادية لليهود " نكتشف "اهتمام التلفزة بالانتماء القومي للسياسيين النشطاء "، و"التحيُّز القومي في القضايا الجنائية مثل قضية **ياكوبوفسكي** أو **فاينبرغ**"، وحتى في "الموقف من **بوروفوي**" (شخصيات يهودية اتهمت في قضايا جنائية كالفساد والاحتيال، بعد *البيريسترويكا*... إلخ. م).

عندما أُجريَ مع **بيريزوفسكي** ذلك الحديث الذي يرويه **توبول**، أجاب الأول، ردّاً على سؤال عن إمكانية وقوع "محرقة" (*هولوكوست*) في *روسيا* قائلاً: "هذا مستحيل!... وهذا مؤكد علمياً!". أعتقد أن هؤلاء القواد كانوا في قرارة أنفسهم على يقين من ذلك طول الوقت. ولكنْ, ما همَّ أن الدمار أحاق بحياة آلاف من البشر، ما دامت قد ترسَّخت في العالم بأَسْره صورةُ السفاحين الروس، صورة *روسيا* الحُبلى بأعمال الترويع. أما السلطة التي كانت تلجم هذه البلاد بمزيد من الإصلاحات الجديدة فقد كان *الغرب* مستعداً لدعمها، غير آبه بأي من أركان الديمقراطية.

لعلَّ صبِّ الشتائم على الروس بهذه الطريقة كان له أهداف أخرى (أو كان ذلك فورة انفعالات لا عقلانية). غير أنه استمرَّ طول الوقت، ولا يزال مستمراً حتى اليوم؛ فتارة يعرضون على شاشة التلفزة خنزيراً ويقولون: هذه هي *روسيا* بمركبّات نقصها التي لا شفاء منها؛ بعد ذلك يغسلون ذلك الخنزير في طشت، ثم ينحرونه ويوزعون لحمه قِطَعاً على المشاركين في هذه التمثيلية وهم يضحكون. وتارة تنشر الصحف كلُّها صورة لشخص يدقِّق النظر تحت ذيل بقرة من شمع، و قد كُتب تحتها: "رحلة في أعماق *روسيا* ". إنها صورة من معرض **مَ رات غيلمان**. (لقد شاهدتُ هذا العمل أول مرة في مجلة *"إيتوغي"*. واحتفظت بنسخة منه كانت جريدة *"زافترا"* قد أعادت نشره ا). وحيناً يعلنون أن الروس هم، منذ مئات السنين، مريضٌ "يطرح فضلاته تحته"، أو أن المكان الذي يليق بالروس هو زنزانة السجن، "بالقرب من جردل البراز"، أو يقولون إن التاريخ الروسي يدور منذ الأبد في حلقة مفرغة ما، وأن روسيا خطيرة على العالم كالقنبلة النووية[١٩].

وإليكم مثالاً قريب العهد. فقد ظهر على شبكة الإنترنيت عام 2001 خبر عن معرض جديد للفنان **مكسيم كانتور**. يقول الخبر:

"المقصود هو *روسيا* التي يقدّمها **كانتور** بوصفها ثقباً عالمياً أسوَد ... إنها بقعة دميمة على خارطة العالم، مكانٌ قفر يبتلع نفسه. يقطنه عدد كبير من السكان ... عُوجٌ، قبيحون، يُخفون وجوههم في طيات الشحم ...". وتستمر هذه الأوصاف حتى تملأ صفحة ونصف الصفحة من النص. وفي الختام يعبِّر كاتب المقال عن تعاطفه مع الفنان الذي يعرِّي "هؤلاء الأنذال، ذوي الأرجل العوجاء. ولكنهم في جميع الأحوال لن يفهموا شيئاً".

قبل عشرين عاماً كتبت لدار النشر (*ساميزدات*) غيرِ المرخَّصة كتاب *"الرُّهاب الروسي"* الذي قمت فيه بالتدقيق في مقالات كانت نشرت آنذاك في *(ساميزدات)* لمؤلفين طواهم النسيان الآن، أو أصبحوا في المهجر الجديد، مثلما يدقِّق عالِم حفريات (أركيولوجي) بالعظام، بغية استعادة هذه الظاهرة الغريبة، القائمة على الاشمئزاز من الروس، والكراهية لهم، الظاهرة التي طغت على أناس أمضوا الجزء الأكبر من حياتهم في *روسيا*. وإذا بي أرى برعب، منذ أكثر من عشر سنوات، كيف يصرِف هذا الغول الشيطاني بأسنانه مطلاً عبر صفحات الجرائد وشاشات التلفزة. وقد اندلعت روح الرهاب الروسي هذه من الدعاية لتصبَّ في السياسة الخارجية. إذ كانت حكومتنا تصدّ، بنوع من التلذذ الشهواني، أجزاء من الشعب الروسي، وشعوباً أخرى جاهدت لئلا تنسلخ عن *روسيا*، وكانت مستعدة لأن تدفع دماً في سبيل ذلك، سواءٌ في *شبه جزيرة القرم*، أو منطقة **بريدنيستروفيه**، أو**أبخازيا**، أو**أوسيتيا الجنوبية**. وقد أرسى أساس هذه السياسة وزير الخارجية المجتهد **كوزيرِف** (الذي أصبح فيما بعد عضواً في رئاسة *المؤتمر اليهودي الروسي*)، ولا تزال مستمرة حتى أيامنا هذه، أقلُّه من خلال تسليم منطقة **بريدنيستروفيه** (لجمهورية مولدوفا. – م).

---

[١٩] **للاطلاع على عرض مستفيض لواقع الصراع الروسي اليهودي بعد البيريسترويكا، أنظر الفصل (روسيا واليهود اليوم، ص87 – 147) في كتاب:**

د. نوفل نيوف. *روسيا من الداخل*، دمشق، دار الحصاد، ط1، 2005. – م.

فما هو موقف يهود *روسيا* الآن؟ ثمة كتاب في هذا الصدد، غني المضمون ، عنوانه *"ماذا يريد اليهود منا؟"* لمؤلفه أ. **سيفاستيانوف**. لقد جمع المؤلف في كتابه، حول هذا الموضوع بالذات، مادة ميدانية كبيرة أوصلته إلى وجهة نظر متكاملة (وإن كان بعض من آراء الكتاب يبدو لي أقل متانة، أَمْلَتْه العواطف، أو انفعالات أخرى).

يشير المؤلف، قبل كل شيء ، إلى انتهاء الحقبة التي كان فيها اليهود المنظمون يعدّون السفر إلى *إسرائيل*، أو *الولايات المتحدة* ، هدفاً أساسياً. وأذكر شخصياً أنني تلقيت "رسالة مفتوحة" قبل 19 عاماً، لاحظ فيها كاتبها بطريقة شاعرية أنه "آنَ أوان الافتراق بين شعبينا". وكان هذا الشعور منتشراً في أوساط اليهود.

أما الآن فقد تغير الوضع بحدة. لقد آن أوان "الافتراق" بالنسبة لكاتب تلك الرسالة (إذ إنه انتقل إلى *الولايات المتحدة*)، ولكن ليس بالنسبة "لشعبينا". ويخبرنا **سيفاستيانوف** بوجود اتفاقية سرية بين *الولايات المتحدة* ، *وإسرائيل، والاتحاد السوفيتي* (تعود إلى عام 1989) تقلصت بموجبها هجرة اليهود إلى *الولايات المتحدة* تقلّصاً حاداً. وقد جاء ذلك في *" مذكرة حول هجرة اليهود السوفيت "*، وضعتها اللجنة الدولية *"من أجل حدود مفتوحة "*، ووردت هذه المذكرة في كرّاس لم أتمكن من الحصول عليه . وبعد السفر إلى *إسرائيل* يتأكد هذا الوضع من مصادر متاحة لعامة الناس بيسر أكبر. فقد أطلعت صحيفة *"يفرييسكايا غازيتا"* (الجريدة اليهودية) قراءها أكثر من مرة على الموقف السلبي المتزايد إزاء اليهود القادمين إلى *إسرائيل* من *الاتحاد السوفيتي*، ثم من *روسيا*. إذ يقول **ليبرمان**، مدير ديوان رئيس الوزراء، مثلاً:

"سبق لي أن تحدثت أكثر من مرة عمّا يتجلّى في مجتمعنا من تمييز إزاء العائدين إلى الوطن من *الاتحاد السوفيتي* السابق. لقد نشأ وضعٌ كثيراً ما صار يُنظَر فيه إلى كل رجل أعمال من الناطقين بالروسية وكأنه عضو في المافيا الروسية، و إلى كل امرأة مليحة ترتدي ملابس أنيقة على أنها مومس، وإلى كل مهندس من اثنين بوصفه حصل على شهادته بالمال، و يشار فيه إلى كل واحد من ثلاثة عائدين بشبهة العمالة لـ *"كي. جي. بي"*.

وعلى نحو أكثر تحديداً يؤكد استطلاع للرأي نشرته *"الجريدة اليهودية"* ما يلي:

"34 بالمئة من الإسرائيليين يقولون إن "العائدين من بلدان *الاتحاد السوفيتي* السابق يخيفونني".

ويعارض 63 بالمئة من مواطني البلاد معارضة قطعية تنظيم موجات جديدة من الهجرة الجماعية من *رابطة الدول المستقلة*.

و80 بالمئة من الرأي العام يرون أن "العائدين الجدد ينافسون الإسرائيليين في سوق الأجور" (...).

وتصل بين الإسرائيليين نسبة من يصفون العائدين الجدد من *الاتحاد السوفيتي* السابق بأنهم طفيليون (25 بالمئة)، أو بأنهم مدمنو مخدِّرات / عاهرات (19 بالمئة). وقد تقرر إعادة تسمية "قسم مكافحة الجرائم الفائقة الخطورة" التابع للشرطة الإسرائيلية ليصبح "قسم مكافحة المافيا الروسية والجريمة المنظمة".

أذكر أنه قبل 15 – 20 سنة خلت كان يدهشني أن أي طلب للحصول على تأشيرة سفر لدخول *إسرائيل* (حتى بذرائع من قبيل "كان لي عمة أو خالة يهودية ... وقد توفيت الآن") كان يلبَّى مباشرة. فلماذا كانت السلطات في *إسرائيل* بحاجة إلى هجرة مثل هؤلاء الناس من *الاتحاد السوفيتي*؟ أما الآن فقد أصبح هناك قواعد جديدة تطبَّق حتى على السياح من بلدان رابطة الدول المستقلة . وأكثر من ذلك، وَفقاً لما تذيعه *"الجريدة*

اليهودية"، أن الصحافة تنشر في الآونة الأخيرة ما تتقدم به الأحزاب الدينية من مطالب جديدة تتعلق، بالمناسبة، حتى بالتعديلات التي قد تحول دون هجرة غير اليهود في الأُسر اليهودية إلى *إسرائيل*.

وبالطبع، فإن الهجرة تشهد تناقصاً ملحوظاً. وتقول ر. **ريفكينا** : "ابتداء من عام 1992 راحت فورة الهجرة... تصبح شيئاً من الماضي".

وتضيف قائلة إن متوسط عدد من يحصلون على إذن بالهجرة سنوياً قد تراجع مرتين.

ومن ناحية أخرى، يورد **سيفاستيانوف** جملة من العوامل التي تشهد على تقديم دعم منتظم للجاليات اليهودية في *أوروبا*. تقول *"الجريدة اليهودية":*

"بموجب الاتفاقية التي عُقدت مع الجالية اليهودية، بعد انهيار *الاتحاد السوفيتي* عام 1991، سمحت *بون* لعدد كبير من اللاجئين اليهود من *الاتحاد السوفيتي* السابق بالاستيطان في *ألمانيا*. ويحصل هؤلاء المهاجرون على مساكن، ويتلقون مساعدات مالية، وتنظَّم لهم دورات مجانية لتعلم اللغة الألمانية. وبإمكانهم الحصول على الجنسية الألمانية إذا ما رغبوا في ذلك... ولقد تضاعف عدد السكان اليهود في *ألمانيا* فبلغ ستين ألفاً".

وتفيد المعلومات التي توردها ر. **ريفكينا** بأن الأغلبية الساحقة من المهاجرين اليهود (ما بين 70 و80 بالمئة) تتوجه بعد العام 1992 إلى *ألمانيا*، ولا يسافر منهم إلى *إسرائيل والولايات المتحدة* إلا عدد قليل جداً.

ويتحدث مدير دائرة رابطة الدول المستقلة لدى "الوكالة اليهودية من أجل إسرائيل " عن الوضع في بلد آخر فيقول: "تضمُّ الطائفة اليهودية في *هنغاريا*، حسب تقديراتنا، ما بين 80 ألفاً و150ألف شخص... ونحن نقوم بتعليمهم اللغة العبرية ، ونطلعهم على تاريخ الشعب اليهودي قديمه وحديثه، وننظم مخيمات يهودية، وندعم المدارس اليهودية، ونُعِدُّ معلمين يهوداً ... وتنشط في *هنغاريا* الآن عشرات المنظمات اليهودية التي يشمل نشاطها ما بين 80 و130 ألف يهودي يعيشون في هذا البلد".

وعلى ضوء ذلك يغدو مفهوماً ما طرأ من تغير على موقف الطائفة اليهودية في *روسيا*. يقول مسؤول مكتب الوكالة اليهودية في موسكو:

"ثمة مقاربة متطرفة تقول بأن على جميع اليهود أن يعودوا إلى *إسرائيل*، وثمة موقف آخر أكثر اعتدالاً بكثير... إن الشعب اليهودي متخوِّف جداً من الاندماج، أو من الزوال، إذا شئتم. وهذه واحدة من المسائل الملحّة التي تقدِّم *إسرائيل* للـ*دياسبورا* نفسها مزيداً من العون من أجل حلها".

تضع "الوكالة اليهودية من أجل إسرائيل " نُصب عينيها أهدافا جديدة، منها "تعزيز العلاقات بين الـ*دياسبورا* و*إسرائيل*، وتطوير التعليم اليهودي...".

ويؤكد رئيس قسم العودة والاستيعاب لدى الوكالة اليهودية أن موظفيه "سيبذلون قُصارى جهدهم من أجل إبقاء العودة إلى *إسرائيل* عام 1996 في مستواها السابق، على الأقل"، ولكنه يعبر عن ثقته بأن:

"كل يهودي، ومعه أولاده وأحفاده، حتى وإن لم يعودوا إلى *إسرائيل*، سيبقون يهوداً".

وفي المؤتمر المذكور نفسه قال أ. م. **موردخوفيتش:**

"لقد آن الأوان للحديث عن أعمال ملموسة. فنحن ينقصنا التواصل. ويجب أن نتذكر أن موسكو مدينتنا".

إن هجرة اليهود من *الاتحاد السوفيتي وروسيا* ، التي بلغت مطلع تسعينات القرن المنصرم 300 ألف شخص سنوياً ، تدنت في العام 1996 إلى 60 ألف شخص . ولكن ، بالمقابل ، تمَّ تأسيس المؤتمر اليهودي الروسي ، الفرع الروسي للمؤتمر اليهودي العالمي. ويصوغ الكاتب في *"الجريدة اليهودية"* مهام هذا الفرع على النحو التالي:

"إن أمام المؤتمر اليهودي الروسي ثلاث مهام أساسية . تتلخص الأولى منها في التأكيد علانية للعالم بأسره أننا يهود، ومستعدون للاعتراف بأننا جزء من الطائفة اليهودية . والمهمة الثانية هي لمُّ شَمل الجزء الأساسي من السكان اليهود في *روسيا* تحت ظل الطائفة اليهودية الموحَّدة. ويتمثَّل الهدف الثالث في العمل على أن يأخذ اليهود الميسورون على عاتقهم عبء مساعدة المنظمات اليهودية".

ويقول كاتب آخر في الصحيفة ذاتها: "إن المؤتمر اليهودي الروسي هو، من وجهة نظري، مرحلة انتقالية في تكوين الطائفة اليهودية في *روسيا* . لقد انتهت مرحلة النشاط القائم على الحماسة والسطحية ، وحلت مرحلة البرامج الكبيرة المحددة، مرحلة توحيد يهود *روسيا* ، مثقفين، ومتدينين، ورجال صناعة ومال".

وبعد أن يصف الانعطافة الحادة في أمزجة اليهود الروس ، من الولع الشامل بالهجرة إلى ترتيب عيشهم في *روسيا* ، يورد **سيفاستيانوف** دليلاً يفسِّر حتمية هذه الانعطافة . لقد سبق أن أوردنا شهادات كتَّاب يهود عن الثروات التي صارت في أيدي "رجال أعمال " يهود نتيجة *"البيريسترويكا"*. وإذا كانت هذه الثروات تتخذ، في بعض الحالات ، شكل حسابات في البنوك الغربية، فإنها اتخذت شكلاً مختلفاً في حالات أخرى. وهاكم مثالاً من مقالة نشرتها صحيفة *"إزفيستيا":*

"لقد آن الأوان لكي نوضِّح من هو **بوريس بيريزوفسكي**، ولماذا يكون له الكلمة الأخيرة، والحاسمة أحياناً، بشأن المسائل البرنامجية (في القناة التلفزيونية *أو. إر. تي*). إننا نجده في وثائق الأنظمة الداخلية عضواً في مجلس *"البنك المتحد"* ونائباً لرئيس مدراء قناة *"أو.إر. تي"*. وفي الوقت نفسه ، فإن **بيريزوفسكي** هو رئيس الشركة المساهمة *"لوغو فاز"* (للسيارات. – م). وبالرغم من أن هذه المؤسسة التجارية يمثلها في مجلس المدراء شخص آخر، فإن **بوريس بيريزوفسكي** يملك عملياً 8 بالمئة من أسهم *"البنك المتحد"*، و8 بالمئة من أسهم *"لوغوفاز"* في رأس المال الاسمي للتلفزيون الروسي العمومي ، أي 16 بالمئة، في حين لا يملك الباقون من "الخواص" إلا ما بين 3 و5 بالمئة.

وهاكم مثالاً آخر من *"الجريدة اليهودية":*

"لقد تحدث **ليونيد رايتمان** بالتفصيل عن الكيفية التي تتطور بها أعماله في مجال البزنس ، وعن الأمداء التي بلغها، فقال:

"إنني أملك حيَّاً كاملاً، تبلغ مساحته 17 ألف متر مربع في منطقة محطة مترو *"تاغانكا"* بموسكو. وأنا أقوم بتأجير هذه المباني، وأجني أرباحاً. ثم إن أسعار هذه العَقارات ترتفع كل عام".

وهناك العديد من الأمثلة على مثل هذه الثروات التي يستحيل أن يصطحبها المرء معه إلى الخارج . وإذا كان بعض من "الأوليغارشيين " اليهود الذين مرَّ ذكرهم أعلاه، قد أبعدوا (بهذه الدرجة أو تلك) عن ثمار *"البيريسترويكا"*، فإن يهوداً آخرين، بالمقابل، حلّوا محلّهم، مثل **أبراموفيتش**، و**ماموت**... وبالتالي، بقيت الصورة على سابق عهدها.

قبل وقت قصير جداً نشرت صحيفة *"كَمْسِمولْسكايا برافدا "* قائمة تتضمّن أسماء "الأشخاص الأغنى في روسيا"، ومقاديرَ ثرواتهم (بمليارات الدولارات)، ومنهم:

خودوركوفسكي 3،7

أبراموفيتش 3،0

فريدمان 2،2

بوتانين 1،8

بوغدانوف 1،6

آلكبيروف 1،4

ديريباسكا 1،1

(هذا مع العلم بأن رؤوس أموال أول ثلاثة منهم تفوق بشكل ملحوظ رؤوس أموال الأربعة الآخرين). على أن هذه القائمة لا تتضمّن إلا أسماء مَن هم في"القمة"، وتحتجب خلفهم جمهرة من "رجال الأعمال" من العيارين المتوسط والصغير. ولهذا، فإن استنتاج **سيفاستيانوف** يبدو جيد التعليل، ومنصفاً أيضاً، حتى بعد مُضيّ سنتين على نشر كتابه. إنه يصوِّر "هدف" اليهود (نزوعَهم الأقوى) في *روسيا* على شكلٍ "مزدوج":

"تكاملُ اليهود مع المجتمع الروسي والمؤسسة الروسية الحكومية، مع الاحتفاظ بهويتهم القومية كاملة".

ويرتبط هذا التكامل بتعاظم هائل لقوة نفوذ اليهود الروس . حتى إن الوضع يغدو شبيهاً بما كان عليه في *روسيا* إبان عشرينات القرن الماضي . ونستطيع أن نرى أن ثمة نزعاتٍ تظهر للدفاع بحزم مماثل عن هذا الوضع، كما في تلك السنوات . فأنا أذكر، على سبيل المثال، أن القصف الرهيب (الذي تعرض له البرلمان الروسي) عام 1993 أدركني وأنا في اليابان (بدعوة من علماء في الرياضيات هناك). لقد انهمرت الأحداث عليَّ كالثلج على الرأس. كانت التلفزة تعرض صور المبنى وهو يحترق تحت القصف، ولكنني لا أفهم ما يقال باللغة اليابانية. كنت أستطيع الحصول على صحف أميركية، غير أنني كنت عديم الثقة بها تماماً . وأول جريدة باللغة الروسية حصلت عليها، أخيراً، كانت *"موسكوفسكي كَمْسَمولِتس"*. وقد استقرَّ في ذاكرتي منها رأيان:

"لقد أرادوا نظاماً روسياً، وهم سيحصلون عليه".

خينشتاين.

"... أؤيد بلا تحفظ. فقد كانت الفاشية الروسية تتبختر أمام أنظارنا".

غوسمان.

ثمة تصريحات عديدة من هذا النمط، مثل: ما كان أعدلَ قصف البرلمان، ياللمتعة التي أثارها هذا المنظر، حتّى إنه لا يجوز التوقف عند هذا الحد...

وبفضل مقاومة الشعب الصامتة، وغير المنظمة لم يعيدوا حتى الآن العمل بقانون عام 1918: "يُعَدُّ خارجاً على القانون...". ولكن من الواضح أن ثمة ميولاً من هذا القبيل.

وفي مقالة شديدة الانفعال يقول أستاذ في جامعة *بار إيلان* الإسرائيلية، هو **إليعازر فورونيل – داتسيفتِش:**

"ثمة كثيرون مقتنعون اليوم بأن *روسيا* يحكمها اليهود . إنني لا أرى هذا الرأي. ذلك أن *روسيا* تحكمها حثالات بكلّ معنى الكلمة، ولا أهمية في هذه الحالة لانتمائهم القومي . ولسوء الحظ ، فإن الشخصيات الرهيبة التي طفت على السطح لها أسماء مطابقة (يهودية. – م)، إذ إن ما يدور الحديث حوله، في نظري، شيء آخر ، إنه السفينة التي استولوا عليها".

ويلاحظ **توبوروف** قائلاً:

"لا نقول إن عداء جديداً للسامية على مستوى الدولة آخذ بالنضوج عندنا (إذ لا وجود لها ليس موجوداً)، ولكنَّ تخصيب التربة المؤاتية له يزداد باستمرار . وهذا التخصيب يجري ، بالدرجة الأولى، بأيدي يهود تحديداً، يهود ناجحين، هم "محطّ الأنظار "، كما يقال اليوم، (أي: نالوا نصيباً كبيراً من الدعاية . – المؤلف)، مظفَّرين، ولكنهم يرفضون الالتفات، مهما كلَّف الثمن، إلى طبيعة نجاحهم القومية (وهي طبيعة مافيوزية في هذه الحالة)؛ وأكثر من ذلك أنهم يمنعون جميع الباقين من هذا الالتفات...

غير أن محاولة تحقيق التناظر (التي تمثلت جزئياً في السطور السابقة) تبوء بالفشل حتماً: ذلك أن كفَّة من يحبّون اليهود وكفَّة من يكرهونهم ما تزالان متعادلتين على نحوٍ ما ، ولكن ردَّ فعل اليهود أنفسهم على مناقشة هذه المسألة الحساسة والمؤلمة – وهو رد فعل مختلٌّ دائماً – إنما يشوّه الصورة..."

إن ردَّ الفعل هذا لغزٌ محيِّرٌ حقاً. ربما تكون ثمة مركَّب نقص في الأعماق، مرتبط بعمليات الإبادة في القرون الوسطى، ثمَّ عزّزه **هتلر**... وهو مركَّب النقص الذي أثار خوفاً غير عقلاني في بداية *البيريسترويكا* ، في ظل الوهَن الذي اعترى السلطة. بيد أنه ، خلال ما يزيد عن عشر سنوات ، كان يمكن تماماً أن ندرك أن هذا الرعب حالة ظرفية زائلة (وخاصة بالنسبة لذهنية اليهود العقلانية). فقد كتب الأكاديمي **غولدانسكي** نفسُه، بعد مرور ما يزيد عن عشر سنوات على مقالته الأولى، مقالة أخرى (لا يتوجّه هذه المرة بها إلى القراء الأميركيين، بل إلى الروس)، يقول فيها:

"عند نهاية القرن العشرين صار البلدُ الأكثرُ تضرّراً من الهتلريين بؤرةً رئيسةَ للأيديولوجيا النازية...".

قول كهذا لا يمكن تفسيره بمركبات نقص غير عقلانية . وأنا شخصياً تلقيت، عندما صدر كتابي *"الرهاب الروسي"*، رسائلَ دراماتيكية من هذا النوع ... لقد كتب إليّ أحدهم يقول إن وقوع أعمال ترويع في المستقبل القريب حقيقة لا تقبل النقاش، وسألني : " فماذا ستقول في هذه الحال؟ ". وفي رسالة أخرى تسألني امرأة: "كيف سيكون بوسعك ، يا **إيغَر رَستِسلافِتش**، أن تعيش في هذه الدنيا إذا ما تبين أن بذمتك دماءَ أناس أبرياء؟". وها قد مضى على ذلك 15 سنة! فهل اعتذر ولو واحد ممن كتبوا تلك الرسائل؟ كلا، لم أسمع شيئا من هذا القبيل . ولكنْ، فلنْتابع ما يقوله **توبوروف:**

"... لقد غدا ذلك ملحوظاً على نحو خاص في السنوات الأخيرة، عندما تهاوت حواجز عداء الدولة المضمَر للسامية، وأصبح بإمكان المرء أن يشتريَ بالمال كل ما يخطر على البال ، سواء في ذلك احتفال اليهود الحسيديين بعيدهم في *الكرملين*، أو فترات البث التلفزيوني، أو حتى التلفزيون ذاته. إذ إن الكلمة المهينة "تل – أفيفيزيون" لم يأت من فراغ".

وبالفعل، فإن الموقف الشمولي المتشابه الذي اتخذته وسائل إعلامنا إزاء هذه المسألة أمر يدلُّ عليه، على الأقل، ردُّ فعلها على موجة الاحتجاجات التي اجتاحت *أوروبا* مؤخراً (ربيع 2002) ضد ما تقوم به السلطات الإسرائيلية في الحرب الإسرائيلية – العربية الدائرة الآن . هناك حشود من الناس في شوارع المدن الأ وروبية تحرق العلمين الإسرائيلي والأميركي، وعلماء يدعون لمقاطعة *إسرائيل* علمياً وثقافياً، ويوقِّعون بالمئات على نداء بهذا الخصوص. وثمّة عدد من العلماء المقيمين في *الولايات المتحدة الأميركية* اعترضوا.

ونشرت **إرينا خا ن**، السكرتير العام لـ*منظمة العفو الدولية* ، احتجاجاً على تصرفات *إسرائيل* في الأراضي العربية المحتلة. كما وفتحت هذه المنظمة موقعاً على شبكة الإنترنيت خصيصاً لهذه القضية.

ونشرت مجلة *"تايم"*، وهي واحدة من أكثر المجلات الأميركية انتشاراً، مقالة يسأل فيها كاتبها:

"لماذا يتباين الموقف بين الأميركيين والأوروبيين إلى هذا الحد إزاء الوضع في *الشرق الأوسط* ؟". ثم يقترح جواباً كان يمكن التنبؤ به سلفاً:

" قبل كل شيء، لأن ظِلَّ المحرقة (*الهولوكوست*) وعارها ينطلقان من الماضي، ويضعان يدهما الباردة على فهمنا المعاصر للعالم".

لا ريب في أن بعض المنظمات العربية تقوم في الحين ذاته بأعمال إرهابية دموية في *إسرائيل* . وأنا لست مؤهلاً البتة للحكم في هذا الموضوع كله، ولكن ما من شك في أن هذه الأخبار هي "الأهم". على أنني شخصياً، في الوقت نفسه، لم أجد *إشارة واحدة* إليها (تلك الحرب) في وسائل إعلامنا، مثلما لم يسمع أحد، ممن سألتهم، شيئاً عن ذلك.

يحدّثنا **جورج أورويل** في روايته ***"1984"*** كيف أن المغضوبَ عليهم سياسياً تُحذَف أسماؤهم من التاريخ، ويطلق عليهم اسم "لا شخصيات (nonpersons)". والحال، فإن جميع تلك الأحداث التي تثير القلق في *أوروبا*، جعلوا منها عندنا "لا أحداثاً".

مراجع الفصل الخامس عشر:

1 – رادزيخوفسكي ل. السعادة اليهودية.// الكلمة الروسية الجديدة //، 17 كانون الثاني / يناير 1996.

2 – توبول ي. أحبب روسيا يا بوريس أبراموفيتش ! // أرغومنتي إي فاكتي//، 1998، العدد 38.

3 – صحيفة " كمسمولسكايا برافدا"، 2 آذار / مارس 2002.

4 – صحيفة " نيزافيسمايا غازيتا "، 27نيسان /ابريل 1996.

5 – توبوروف ف. (مرجع سابق ورد ذكره في الفصل الثالث عشر).

6 – فورمان د. الوعي الجماهيري عند اليهود الروس ومعاداة السامية ، // سفوبودنايا ميسل //، 1996، العدد التاسع.

7 – ريفكينا ر. (مرجع سابق ورد ذكره في الفصل الثالث عشر).

8 – غايدار ي. الدولة وعملية التطور. موسكو، 1995.

9 – ربّاروف م. إذاعة "الحرية" في النضال من أجل السلام. موسكو – ميونيخ، 1992.

10 – في ساحة موقعة كوليكوفو. موسكو، 1980.

11 – كورايف أ. كيف يجعلون من المرء معادياً للسامية. موسكو، 1998.

12 – ريباكوف أ. أولاد أربات. موسكو، 1988.

13 – غروسمان ف. كل شيء يتغير. مجلة "أكتوبر"، 1989، العدد 6.

14 – Washington Post. April 12 , 1990

15 – "سوفيتسكايا روسيا"، 7 نيسان / أبريل، 1990، العدد 80.

16 – صحيفة "زافترا"، العدد 46 (259)، 1998.

17 – آخيزير أ. روسيا. نقد التجربة التاريخية. ثلاثة أجزاء, موسكو، 1991.

18 – الإنترنت. http.\\www. Vist.ru\2001\10\10043106.html

19 – سيفاستيانوف أ. ما الذي يريده منا اليهود. موسكو، 2000.

20 – صحيفة "نيزافيسمايا غازيتا"، 10 تشرين الثاني / نوفمبر، 1998، العدد 209.

21 – إليعازر فورونيل– داتسيفيتش. المرآة المهشمة، //زافترا//، العدد 34 (299).

22 – Elliot M. Children of the Holocost. Time, April 29, 2002

الفصل السادس عشر

المواهب اليهودية

لعلّ الفصول الأخيرة من هذا الكتاب قدمت تصوّراً عمّا عرفه النفوذ اليهودي في العالم من تصاعد خيالي. فما هي إلا 200 أو 300 سنة حتى تحول اليهود من سكان مغلولين بقيود قهالاتهم في بلدات ريفية (كانت منتشرة في *أوكرانيا وروسيا البيضاء* والمناطق القريبة منها . – م.) إلى جماعة هي الأكثر نفوذاً في العالم المعاصر، أي يتصرّفون برؤوس الأموال العالمية، والاقتصاد، بل و بالنفوس البشرية (عن طريق وسائل الإعلام). تلك واقعة لا مثيل لها في التاريخ تقريباً. ولا يخطر على بالي ما يشبهها إلا ظاهرة واحدة هي انتشار النفوذ الإغريقي في العصر الهيلليني، بدءاً من حروب **الاسكندر المقدوني** وحتى الفتح الروماني. على أن هذه الظاهرة، من الناحية الجغرافية، لم تشمل "العالم كله"، ولكنها بالنسبة إلى زمنها شملت فضاء قابلاً للمقارنة، امتدّ من *الهند الغربية* في *الشرق* حتى *صقلية وجنوب إيطاليا* في *الغرب*. ثم إن عملية الانتشار كلها آنذاك كانت أسرع زمنياً، إذ امتدت من القرن الرابع قبل الميلاد حتى القرن الثالث قبل الميلاد. وكانت واضحة أسبابُ ذلك الانتشار الانفجاري الذي عرفه النفوذ الإغريقي، ذلك أن الإغريق حملوا معهم ثقافة شديدة الخصوصية، محببَّة، وجذابة. ومعهم انتشرت "المعارف الإغريقية". وعليه، فإن سبب الهللينية المباشر واضحٌ للعيان تماماً. إنه يكمن في ما كان يتمتع به الإغريق من مقدرة إبداعية غير عادية. ففي غضون بضعة قرون وضعوا النظريات الأساسية للعلوم الطبيعية، والعلوم التي بها نحيا حتى الآن، وهم من أبدع الأدب الإغريقي من **هوميروس** وحتى التراجيديا الكلاسيكية، وفن النحت الإغريقي، وفن العمارة. كما ظهرت *الديمقراطية*، وبلغت أوج ازدهارها، بكل ما لها من مزايا وما عليها من عيوب، في المجتمع الإغريقي أيضاً.

فهل نحن، يا ترُى، شهود على "هللينية يهودية" مماثلة؟ ثمة فروق ظاهرية جلية، فعلى سبيل المثال، كان النفوذ الإغريقي في الحقبة الهللينية مرتبطا بانتشار اللغة الإغريقية، بينما لا نلاحظ الآن أي تغلغل للغة العبرية في وسط غير يهودي. ولكنْ، مع ذلك، فقد يكون السبب الأساسي مماثلاً؟ ربما يكون السبب الأساسي للنفوذ اليهودي كامناً في قدرة اليهود الإبداعية الكبيرة، في كون اليهود موهوبين؟ غالباً ما تطالعنا وجهة النظر هذه. إذ يحدثنا **روزانوف**، على سبيل المثال، عن أن الشاعر **مينسكي** قال له: "طبعاً، إن اليهود أكثر ذكاء من الروس، وهم يرغبون في أن يتصدَّروا الصفوف". وتأكيدا لذلك تُطرح أسماء يهودٍ أعلامٍ في العلم المعاصر: **ماركس، وفرويد، وإنشتاين**. كما أن "الموسيقى المعاصرة" بدأت من **شونبرغ، وألبان بيرغ**. وكان **مندلسون- بارتولدي** مؤسس أول كونسرفاتوار في العالم. وعندنا، في *روسيا*، جاء تأسيس أول كونسرفاتوار على أيدي **أنطون روبنشتاين** في *بطرسبورغ*، **ونيقولاي روبنشتاين** في *موسكو*. كذلك انطلقت الاتجاهات الجديدة في الأدب من **هاينه وكافكا**... وهناك عدد كبير من هذه الأمثلة.

على أن هذه الحجة يجب تفحصها بإمعان . ولنبدأ أوّلاً من الأسماء الأكثر شهرة : **ماركس، وفرويد، وإنشتاين** . حتّى أن نكتة حول هذا الموضوع كانت شائعة ذات يوم (لعلها ظهرت في الوسط اليهودي) بخصوص "العظماء اليهود الثلاثة".

لقد كان تأثير **ماركس** على عقول الناس قوياً جداً ، ولكنه لم يكن طويل الأمد . وقد ابتدأ هذا التأثير بعد وفاته، ثم تدهور في العقود الأخيرة تدهوراً حادّاً، يبدو أنه سيستمر مدّة طويلة، أو يدوم إلى الأبد. ما زلت أذكر ذلك الوقت الذي كانت فيه تعاليم **ماركس** تغُرَس في بلادنا بقوة السلطة، غير أن الإنتلجنسيا في *الغرب* أيضاً، كلها تقريباً، تقبلت هذه التعاليم، بهذا الشكل أو ذاك. لقد كان بوسع المرء أن يعبّر عن اختلافه مع هذه التعاليم ، ولكنْ مع كثير من التحفظات، كالقول : ("أنا، طبعاً ، لا أنفي عمق هذه الأفكار ومتانة أسسها العلمية ..."). وما من أحد جازف بالتعبير عن "عدم الموافقة بلا تحفظ" على تلك التعاليم، باستثناء أشخاص نادرين فقط، ممن حظوا بمكانة واعتراف سابقين (سنذكر بعضاً منهم فيما بعد). ولكنني اقتنعت غير مرة بأن الولاء للماركسية، في المعسكر الاشتراكي وخارجه، لم يكن يقوم على أساس المعرفة بأعمال **ماركس** ، ولا سيَّما أعماله في مجال الاقتصاد السياسي. فقد كان تأثير **ماركس** يأتي من مصدر آخر تماماً . إذ قال **إنجلز** في كلمة تأبين **ماركس** : " كان **ماركس** ثائراً بالدرجة الأولى". وهذا يعني أن الحافز الأساسي في حياته كان إطاحة، وتدمير، نمط الحياة القائم آنذاك. وتجد وجهة النظر هذه تعليلاً مسهباً، مدعوماً بالحجج في كتاب **زومبرت** الذي يحاول إقامة البرهان على أن نظرية **ماركس** حول ديكتاتورية البروليتاريا، والثورة البروليتارية، والصراع الطبقي، وفضل القيمة، وأعماله في مجال الاقتصاد السياسي، قد ظهرت كتجسيد لهذا الحافز ، ونتيجة له . بل ويظهر ذلك جلياً من خلال المراسلات بين **ماركس** و**إنجلز** . فهي تبيّن بوضوح أن ضرورة التأسيس النظري الذي اتّخذ شكل بحث علمي كانت تنبع من منطق النضال الثوري . فمنذ تشرين الأول / أكتوبر 1844 يقول **إنجلز** في رسالة إلى **ماركس:**

"إن جماعتنا... نشيطون جداً ، ولكنْ ثمة شعور بوجود نقص في الركيزة المناسبة. وما لم نطوِّر مبادئنا في كتابين أو ثلاثة، ما لم نستنبطها منطقياً وتاريخياً من العقائد السابقة والتاريخ السابق كاستمرار ضروري لها، فإن العمل كله سيبقى ناقصاً...".

كما أن **إنجلز** يدعو **ماركس** بتاريخ 26 تشرين الثاني / نوفمبر 1847 "*المعاقبة* **لوي بلان**"، فيقول:

"... فلتُرِه فعلياً كم نحن أرفع منه (...). إن الجانب النظري حتّى الآن، للأسف، يشكِّل قوَّتنا الوحيدة، ولكن ذلك، بالنسبة لهؤلاء المنافحين عن "العلوم الاجتماعية"، و"قانون الكفاية الإنتاجية"...إلخ. يتصف بأهمية كبيرة.

وأخيراً، كتب بتاريخ 31 كانون الثاني/ يناير 1869 يقول:

"... وبغية المحافظة على سمعتنا عند الجمهور، بالرغم من **فوغت** وشركاه، يجب علينا أن نقدِّم أعمالاً علمية... كُن ولو مرة واحدة أقلَّ التزاماً بالإتقان في ما يتعلق بالعمل الذي تكتبه شخصياً؛ فهو سيظلّ بالنسبة لهذه الجماعة الجَرباء عملاً جيداً للغاية. أهمّ ما في الأمر هو أن يُكتب العمل ويُنشر، أما جوانب الضعف فيه، الجلية بالنسبة لك، فلن يلاحظها الحمير".

لم يشرع **ماركس** بإرساء هذا الأساس النظري للنشاط الثوري إلا في ع قد الستينات **(بعد الخطوط العريضة الأولى عام 1859 في** "نقد الاقتصاد السياسي "**)**. ثم يبدأ العمل بـ "رأس المال". وبتاريخ 18 حزيران / يونيو 1862 يكتب إلى **إنجلز**، يقول:

"إنني أتوسع كثيراً في هذا المجلد، ذلك أن الكلاب الألمانية تقدّر قيمة الكتاب بحجمه".

وهذا يعني أن **ماركس** و**إنجلز** كانا على صواب تماماً عندما استشعرا أن العمل الثوري آنذاك سيتلقى دفعاً قوياً إذا ما دُعِم بـ "أساس علمي". فقد كان الاستناد في ذاك الوقت إلى هيبة العلم يتمتع بقوة سحرية . وهذا ما استشعره من قبلُ أيضاً سلفا **ماركس** و**إنجلز** ، أي **سان سيمون** و**فوريه** ، ولكنهما أرسيا هذا "الأساس العلمي " على نحو ساذج جداً . وعلى سبيل المثال ، كان **سان سيمون** يؤكد أنه اكتشف في المجتمع "قانون الجاذبية " المماثل لقانون **نيوتن.** وكان **فوريه** يتحدث عن سنن مماثلة لـ "القطع الناقص، والقطع الزائد، والقطع المكافئ ". ولكن أياً منهما، **سان سيمون** أو **فوريه** ، لم يستطع أن يخبرنا أين تكمن فحوى هذه "القوانين". أما **ماركس** فقد حاكى الأسلوب العلمي بنجاح أ كبر كثيراً . وكانت هذه "المحاكاة العلمية" تخلّف انطباعا م ذهلاً، كما يظهر من مذكرات ثوّار تلك المرحلة **(فيرا زاسوليتش،** مثلاً**)**.

عمل **ماركس** جاهداً لإنجاز مؤلفاته في الاقتصاد السياسي ، إذ كان ينبغي أن تشكل هذه المؤلفات الأساس العلمي للعمل الثوري المقبل . إذ خُيِّل أن موجة الثورة في تصاعد مستمر . ثم إن *كومونة باريس* **جعلت** الآمال لدى **ماركس** و**إنجلز** تحلّق من جديد. ولكن الآمال هنا لم تتحقق (كما لم تتحقق من قبلُ، إبّان ثورة 1848 في *ألمانيا* **)**. وقد تبيّن في مؤتمر الأممية الأول أن **باكونين** أصاب نجاحاً في مجال مكائد العمل السري (تحت الأرض) أكبر مما أصاب **ماركس وإنجلز** معاً. لقد انتفى الحافز الأساسي للبحوث النظرية عند **ماركس**، فتخلى عنها. فبعد أن رأى *"رأس المال"* النور في عام 1867، لم يعد **ماركس**، حتى وفاته في عام 1883، إلى تناول هذه المسائل في المطبوعات . وراح يهتم بمسائل ت أسيس حساب التفاضل . ومن سوء حظ **ماركس** أن *"مخطوطاته الرياضية "* زُوِّج لها بطبعات شعبية في *الاتحاد السوفيتي* ذات حين ، وغدت معروفة على نطاق واسع. فهي تتصف بكل صفات التعالم العقيم، والذهن الذي يعمل سدى.

أمّا من الناحية الفكرية ، فإن **ماركس** كان ممثلاً عاديّاً تماماً للقرن التاسع عشر . لقد استوعب، على سبيل المثال، وتمثّل تماماً نظرية التقدم السائدة كما هي ، ولم يزِد على أن قرنها بنظرية الصراع الطبقي الـتي كانت موجودة آنذاك . وليس في تحليله نشأ ةَ الرأسمالية إلا القليل جداً من الأفكار الجديدة، في حين تظل أبحاث م. **فيبر**، أو ف. **زومبيَت** أكثر سطوعاً وأصالة بكثير.

لم يحظَ **ماركس** بشعبية واسعة إلا بعد وفاته، عندما تزعم أنصاره الذين ساروا على خطاه قيادة الحركة العمالية الألمانية التي كان **لاسال** قد أسسها قبل ذلك الحين . وكان **إنجلز** دائب التشديد دائماً على أنه يحتلّ المرتبة الثانية بعد **ماركس** ("دائماً كان له المقام الثاني في حياة **ماركس"**)، غير أنه بالمقابل كان بين الأحياء أوّل المؤتمَنين على أفكار العبقري الراحل وشرّ احها. وفي ذلك الحين ، أواخرَ القرن التاسع عشر، ابتدأت شهرة **ماركس** على صعيد العالم بأسره.

إلا أن نجاح الماركسية كان على الدوام رهن علاقتها بال ثورة. وقد نجحت الماركسية بوصفها "نبوءة"، أي توقعاً للحدث الذي ساعدت النظريةُ ذاتُها على وقوعه . على أن التاريخ دحض هذه النبوءة بالذات . فالثورة الاشتراكية حدثت ، وكأنما انتقاءً، في بلدان لم تكن الأكثر تطوراً رأسمالياً على الإطلاق ، بل قامت "ديكتاتورية البروليتاريا " في بلدان فلاحية بنسبة 80 أو 90 بالمئة . وفي المحصلةً تبيّن أ ن المجتمع الذي بناه الحزب الماركسي لم يكن مجتمعاً وطيداً ، ذلك أن انهياره لم يكن وليد تأثير عامل خارجي أو كوارثَ طبيعية، بل وقع بفعل قوى انحلاله الذاتية . وجملة هذه العوامل أدّت إلى تراجع الاهتمام بالماركسية تراجعاً شاملاً. فحتى أنصار الشيوعية في *روسيا* الآن، على سبيل المثال، لا يرفعون أبداً صور **ماركس** في اجتماعاتهم الجماهيرية ومظاهراتهم. وما يثير الفضول أن الاهتمام ب**ماركس** قد "انطفأ". ولم يتخذ ذلك صفة التخلي عن نظرية علمية ما تخلياً يقوم على نقدها ومناقشة جملة من نقاط ضعفها . فقد غدا الآن واضحاً أن نجاح الماركسية، وتراجُعَ الاهتمام بها على حد سواء، هما ظاهرتان محض إيديولوجيتين. ولا علاقة لهما بالعلم بتاتاً.

حتى إن **فرويد**، كما يبدو لي، أكثر بعداً عن العلم ممّا هو **ماركس**. وبوسعي أن أسوق كثيراً من الأدلّة على ذلك، غير أنني سأكتفي بمثال واحد محدد، هو مقتطف من مقالة **فرويد** "*عسر الحضارة*"، المقالة التي تعدُّ أحد أعماله الإيديولوجية الأكثر عمقاً. ففيها يتحدث **فرويد** كيف استخدم الإنسان النار، ويقول في حاشية طويلة:

"إن مادة التحليل النفسي، مع كل ما يعتورها من نقص، واختلاف في المعنى ، تسمح على الأقل باحتمال واحد – يبدو خيالياً– في ما يتعلق بأصل هذا الإنجاز البشري الضخم . فقد كان شيئاً عادياً تقريباً في نظر الإنسان البدائي إذا ما صادف ناراً أن يطفئها بالتبول عليها واجداً في ذلك لذة طفولية . والخرافات الموجودة اليوم لا تدع مجالاً للشك في تفسير الأصل القضيبي لألسنة اللهب المتصاعدة . إن إخماد النار بواسطة التبول عليها (فلنتذكَّر أن هذا ما كان يلجأ إليه فيما بعد الأولاد العمالقة، **جوليفر** في بلاد الأقزام ، و**غرغانتوا** عند **رابليه**) كان على هذا النحو شبيهاً بالفعل الجنسي مع الرجل، بالتلذذ بالقدرة الذكورية في مباراة المثلية الجنسية (اللواط). إن أوّل من تخلّى عن هذه اللذة، مَن أخذته الرأفة بالنار ، هو من استطاع أن يأخذها معه ويضعها في خدمته. وهو من روَّض نار الطبيعة بأن أخمد نار التهيج الجنسي في نفسه . وكان انتصار الحضارة الكبير هذا بمثابة مكافأة للإنسان على تمكنه من كبح غريزته . وبعد ذلك غدت المرأة وكأنها اختيرت حارسة للنار المكبّلة والمقيّدة في الموقد المنزلي، لأنها بحكم تكوينها العضوي لم تكن قادرة على الاستسلام لإغراء ملذّاتٍ من هذا النوع".

يخيّل إلينا أن من كتب هذا الكلام لا يملك تصوراً عمَّا هو البحث العلمي . فمجمل هذا الكلام لا يعوزه البرهان وحسب، بل وهو عديم المعنى أيضاً . إذ لماذا لا يلبث الرجل أن يسيطر على النار حالاً، ما إن يتخلى عن متعة التبول على النار؟ إنه لمن العبث طرح مثل هذه الأسئلة . (أو لماذا **جوليفر** طفل عملاق؟). على أن هذا ليس بالأمر الغريب النادر ، أو بالكسوف العقلي العَرَضي، فأعمال **فرويد** مليئة بمثل هذه المحاكمات . إن الشخص من يفكر على هذا النحو يمكن أن يكون من تشاء : مهووساً ، جامح الخيال، واعظاً ، صانع أساطير ، ولكنه لا يمتّ للعلم بأي صلة من الصّلات . ومع ذلك فقد أقيم مؤخراً احتفال بيوبيل **فرويد** ، فرفعه العالم بأسره إلى مصاف أعظم العلماء في عصرنا (أي في القرن العشرين)!

كان يخيَّل إليّ، منذ زمن بعيد، أن التأكيد المتكرر على أن **ماركس** و**فرويد** عالمان عظيمان ما هو إلا تلقين مباشر يتناقض بجلاء مع الوقائع ، شأنه شأن "*ملابس الامبراطور الجديدة*"[٢٠]. ولعلّي ما كنتُ لأجازف بالتعبير علناً عن مثل هذا الرأي الهرطقي لو لم أقع على أفكار **فون هايك** الذي يقول:

"إذا ما قيض لحضارتنا أن تبقى على قيد الحياة، و لن يكون ذلك إلا إذا ما وعت أخطاءها، فأعتقد أن الأجيال القادمة سوف تنظر إلى زماننا بوصفه عصر وساوس مرتبطةٍ أساساً باسمَي **كارل ماركس** و**زيغموند فرويد**".

يؤكد **فون هايك** أن الحديث يدور عن "وساوسَ بالمعنى الحرفي للكلمة...".

على أن هذه الفكرة بالذات كان قد عبّر عنها **كارل ياسبرز**، ويبدو أن **هايك** لم يكن على علم بفكرة **ياسبرز** هذه (التي سبقه إليها بحوالي عشرين سنة). ثم إن **فون هايك** يُعَدُّ واحداً من أبرز علماء الاقتصاد في القرن العشرين، وهو حائز على جائزة **نوبل** في الاقتصاد، في حين أن **ياسبرز**، الفيلسوف الواسع الشهرة، صنع لنفسه اسماً في البداية كطبيب في التحليل النفسي (وهو، أساساً، ينتقد **فرويد** من وجهة نظر محترف). وهكذا، فإن **هايك** مؤهل، بالتأكيد، للحكم على **ماركس**، مثلما هو **ياسبرس** مؤهل للحكم على **فرويد**.

أمّا **إنشتاين** فإن الحديث عنه أكثر حساسية، كما أعتقد. إذ هيهات أن يكون في مقدور أحد أن يشكَّ في أنه كان فيزيائياً يتمتع بموهبة استثنائية. ولكنه في المنظور العام أُعطيَ دوراً آخر. فهو يُعَدُّ بمثابة مثالِ العبقرية العلمية ورمزها. ذلك أن الناس عندما يريدون الثناء على شخص ما، يقولون عنه: "إنه **إنشتاين** بعينه**!**". وعند الحاجة للتعبير بصورة رمزية عن العلم، أو حتى عن العقل البشري، فإن صورة وجه **إنشتاين** هي التي تظهر لتمثّل هذا الرمز. وفي سيرته المفصَّلة يجري الحديث عن "تطويب **إنشتاين** قديساً". ففي العام 1919نشرت صحيفة "*برلينر إلوستريرته*" صورة له وقد كُتِب تحتها: "**ألبرت إنشتاين** العملاق الجديد في التاريخ العالمي". وكتب المؤرخ الشهير **أرنولد توينبي**: "إن إنجازات العلوم الطبيعية خلال القرن العشرين تتجسد بالنسبة لنا في شخصية **إنشتاين**" (وإن كان مشكوكاً في أن **توينبي** نفسه يدرك كُنْهَ تلك الإنجازات). إن هذه المكانة التي تبوّأها **إنشتاين** في الوعي الاجتماعي تبدو لي غير مسوَّغة، ومفبركة. وقد أحسّ "العقل الباطن الجماعي" بهذا الطابع "الإعلاني" لصورة **إنشتاين**، إذ إن صور **إنشتاين** المتحركة تروّج للبيرة على شاشات التلفزة. أظن أنه من ضروب المحال أن يتصرف أحد على هذا النحو مع **نيوتن أو هايزنبيرغ**.

لقد عرفت الفيزياء تطوراً عاصفاً للغاية أواخر القرن التاسع عشر و مطلع القرن العشرين، وأثارت اهتماماً فائقاً، واجتذبت كثيراً من الطاقات. ويندرج **إنشتاين**، كما أتصور، في عِداد كوكبة كاملة (لا تقل عن عشرة أشخاص) تضم أكثر علماء الفيزياء موهبة، أمثال **ريزرفورد، ولورينتس، وبوانكاريه، وبلانك، وبور، وهايزنبيرغ، وشريدنغر، وديراك** وغيرهم، ممن كان بعضهم أكثر من **إنشتاين** عمقاً، وأوسع اطلاعاً. وهناك اعتراف في العادة بأن مأثرة **إنشتاين** الرئيسة هي اكتشاف "النظرية النسبية". وقد جرى وضع هذه النظرية على مرحلتين : "نظرية النسبية الخاصة"، و"نظرية النسبية العامة". إذ يعود عمله الأساسي على "نظرية النسبية الخاصة" إلى عام

---

[٢٠] أنظر الترجمة العربية لحكايات الأطفال التي كتبها الأديب الدانمركي الشهير هانس أندرسون: "*أقاصيص*"، ترجمها محمود ابراهيم الدسوقي، طبعة جديدة، وزارة الثقافة، دمشق، 2006.– م.

1905. وفي وقت واحد عملياً (قبل ذلك بأسبوعين) صدر كتاب في الموضوع نفسه للمفكر المدهش **بوانكاريه**، العالم الرياضي بالدرجة الأولى، والفيزيائي والفيلسوف البارز في آن معاً. ولذا كان يحق لـ **إنشتاين**، عند اللزوم، أن ينسب لنفسه أنه وضع "نظرية النسبية الخاصة " في وقت واحد مع **بوانكاريه**، وبصرف النظر عنه. ولكن المسألة أكثر تعقيداً. ذلك أن نظرية النسبية لم تحظَ بهذا القدْر من الشهرة إلا بسبب مطالبتها التخلّي عن بعض التصورات التي كانت تبدو أمراً مفروغاً منه، مثل تزامن حدثين. غير أن **بوانكاريه** كان قد كتب منذ عام 1898 عملاً، بعنوان *"بُعْدُ الزمن"*، يثبْت فيه بطلان هذا المفهوم منطقياً . وقد أدرج مضمون هذا العمل في كتابه الفلسفي *"العلم والفرضية"* الذي صدر عام 1902وحظي بشعبية كبيرة جداً . ولئن كان **إنشتاين** لا يشير في أي مكان إلى أبحاث **بوانكاريه** هذه، حتى ليبدو وكأنه لم يطّلع عليها قطّ، فإن مذكرات معاصريه تبين أنهم درسوا تلك الأبحاث مع **إنشتاين**، وأنها أثّرت فيهم تأثيراً قوياً. وحين عُرِض على **إنشتاين** منصبُ أستاذ في *زيوريخ* زكّاه **بوانكاريه** بكتاب قال فيه: "إن السيد **إنشتاين** واحد من أكثر المفكِّرين أصالة بين من أعرفهم، وبغضّ النظر عن صغر سنه فهو يشغل مكانة جليلة جداً بين أبرز علماء زمننا . وإن ما يثير الإعجاب ، على وجه الخصوص، هو تلك السهولة التي يتلقّى بها الأفكار الجديدة (أو بترجمة أدقّ: "يتكيف معها")، ويستخلص منها جميع الاستنتاجات الممكنة".

إن أحد أكثر استنتاجات "نظرية النسبية الخاصة" شهرةً هو مبدأ "تكافؤ الكتلة والطاقة " الذي يتحقق بمعنى ما في الانفجار الذري . على أن أوّل من أثبت هذا المبدأ هو عالم الفيزياء النمساوي **هازِنيورل** الذي كان زميل **شريدنغِر** في الدراسة ، ثم قتُل في الجبهة أثناء الحرب العالمية الأولى . ونقرأ عنه في التعليقات على مؤلفات **شريدنغر** ما يلي:

"بينما كان، في عام 1904، يدرس الإشعاع في حيّز مغلق، صاغ لهذه الحالة مبدأ تكافؤ الكتلة والطاقة . (إذ إن **إنشتاين**، الذي صاغ هذا المبدأ على نحو شديد العمومية، لم يكن على علم بعمل **هازنيورل**)".

وفيما يتعلق "بنظرية النسبية العامة "، فإن عمل **إنشتاين** على استخلاص معادلتها الأساسية، كما اتضح الآن، كان يجري في فترة مراسلاته المكثفة مع **جيلبرت** أكبرِ علماء الرياضيات في ذاك الوقت (بعد وفاة **بوانكاريه**). هذا مع العلم بأن **إنشتاين** كان يسعى للكشف عن الشكل الأكثر بساطة لهذه المعادلة ، انطلاقا من أنها كان يجب أن تلبّي شروطاً معينة، بينما استخلصها **جيلبرت** رياضياً من مبدأ عام معين . ومع ذلك، فليس في أعمال **إنشتاين** إشارات إلى مساهمة **جيلبرت**. ولكن ثمة رسالة منه كتبها إلى **جيلبرت** في وقت متأخر تحمل طابعَاً "تصالحياً ". (في أوقات مختلفة كانت تطرح تأويلات مختلفة للعلاقة بين **إنشتاين وجيلبرت** . وأنا أورد الرواية الأميل لصالح **إنشتاين**).

يمكن أن نتصور عالِماً ناسكاً، قليل الاهتمام بأبحاث الآخرين، بلغ الكثير بمفرده، ولم يكترث كثيراً بمشاكل الأسبقية (كان هناك مثل هؤلاء العلماء)، ولكن **إنشتاين** تحديداً لم يكن من هذا النوع . إذ تحدِّثنا سيرة حياته الأكثرُ تفصيلاً عن مطالعاته التي قدّمها في *ألمانيا وفرنسا واليابان*، وكان يروِّج فيها أفكاره:

"في أيار / مايو وحزيران/ يونيو من عام 1925 انطلقا (**إنشتاين** وعقيلته) في رحلة جديدة فزارا هذه المرة *الأرجنتين والبرازيل والأورغواي* . وحيثما حلا، من *سنغافورة* حتى *مونتيفيديو* ، كانت الجاليات اليهودية تقيم لهم ا أكثر الاستقبالات حفاوة".

إن السجالات حول مسألة الأسبقية تدور على مدى مجمل تاريخ العلم. وكثيراً ما نستطيع مؤخراً أن نرى أنّ وجهة نظرٍ أحاديةَ الجانب تسيطر لفترة من الزمن، فتبالغُ في دور عالِمٍ واحد على حساب غيره من العلماء . ولكن القاعدة العامة هنا تتمثل على النحو التالي : إن ترجيح كفة شخص بعينه يمكن أن يكون أقوى درجة، وأن يستمر في الهيمنة مدة أطول، تبعاً لحجم الدعم الاجتماعي الذي يحظى به هذا الشخص. ويمكن أن يتمثل هذا الدعم الاجتماعي في مدرسة علمية قوية، أو حتى في دعم من بعض التيارات الفكرية أو السياسية . ومما لاشك فيه أن ما لعب هذا الدور في مصير **إنشتاين** هو انضمامه إلى عدد من التيارات الفائقة التأثير في العالم، و في طليعتها الحركة القومية اليهودية . ذلك أنه كان منذ عام 1919 على علاقة وثيقة ب واحد من أبرز قادة الصهيونية هو **بلومنفيلد** الذي "كلَّفه غير مرة إعداد بيا ناته بخصوص موضوع الصهيونية " (كما يقول كاتب سيرته). لعل **إنشتاين** لم يكن نصيراً للصهيونية، إلا أنه تعاون مع هذه الحركة تعاوناً وثيقاً . ففي عام 1921 زار *الولايات المتحدة* بصحبة **وايزمن** من أجل جمع الأموال "للجامعة العبرية " في *فلسطين*؛ وفي عام 1923 زار *فلسطين* فحلَّ ضيفاً على المندوب السامي البريطاني **هربرت صموئيل** . والحركة العالمية الأخرى التي كان بمقدورها إمداده بدعم جبار، هي حركة السلام التي انبرى **إنشتاين** لمناصرتها منذ بداية الحرب العالمية الأولى . (والمفارقة هي أنه إبان الحرب العالمية الثانية ساعد في صنع السلاح ال ذري). ثم إن **إنشتاين** كان من أنصار فكرة " *الولايات المتحدة الأوروبية* "، وعضواً في *"اتحاد الوطن الجديد"* ("رابطة النضال من أجل حقوق الإنسان ")، و"جمعية أصدقاء *روسيا* الجديدة" (بدءاً من عام 1923)... إلخ. أي أن **إنشتاين** كان مشاركاً نشطاً في التيار "اليساري" البالغ التأثير في *الغرب* آنذاك، بل وفيما بعد أيضاً.

وهذا ما يفسر، حسب ظني، الصورة "الإيقونية" التي صُنعت ل **إنشتاين**، علما بأنه كان، بلا شك، واحداً من أكثر علماء الفيزياء موهبة بين أبناء جيله. لقد كان لانشغاله بنظرية النسبية مدة 15سنة لم يعرف خلالها الكلل (ولأعمال غيره من المؤلفين) أهمية هائلة بالنسبة لإنجاز هذه النظرية (ولا سيّما بعد وفاة **بوانكاريه**). ول **إنشتاين** أعمال أخرى في الفيزياء، منها، مثلاً، الأثر الفوتوإلكتروني الذي نال عليه جائزة نوبل عام 1921. غير أن من الصعب التوفيقَ بين نشاطه العقيم تماماً طيلة حياته بعد العام 1920، وبين الصورة التي نعرفها له كعالِمٍ في الفيزياء خارقِ العبقرية.

وإذا ما تحدثنا عن أسماء أخرى، فإن **هاينِي**، مثلاً، كتب أشعاراً فاتنة، ولم يكن من باب العبث أن ترجمه الكلاسيكيون الروس . ولكنه لا يعدو كونه في هذا المجال تابعاً لتيار الرومانسية الألمانية. غير أن ما أكسبه مكانة متميزة تماماً هو هجاؤه الصفراوي، ذلك "الأسلوب الهجائي" الذي أدخله **هايني** الشعر؛ شيء من الاختلاق غريبٌ على الشعر كشعر؛ ووصفهُ كما هو الحال عند **كافكا**، حالاتٍ فظيعةً تثير التقزز، كأنها إرهاص بـ "أفلام الرعب " المعاصرة، ولكن بوسائل تقن ية أضعف؛ أو ابتكار سلّم الدرجات الإثنى عشري في الموسيقى عند **شينبيرغ**. ما من شك في أن إنشاء معاهد (كونسرفاتوار) للموسيقى، أوّلا في *لايبزغ*، ثم في *بطرسبورغ* وموسكو،

على أيدي **ميندلسون – بارتولدي** والأخوين **روبنشتاين**، كان له أقوى التأثير على تطور الموسيقى. إلا أن ذلك كان أقرب إلى العمل الاجتماعي، التنظيمي. فللموسيقار الراحل **سفيريدوف** يعبِّر في خواطرهالتي نشرت بعد وفاته، عن فكرةٍ مفادُها أن ذلك (إنشاء كونسرفاتوار .– م) كان مرتبطاً بالتوجه نحو إنتاج [٢١] عدد كبير من الموسيقيين المحترفين، وأن معظم الملحنين الكبار آنذاك، سواء في *الغرب* (**شومان، وبرامس، وفاغنر**)، أو في *روسيا* (*"الثلّة الجبلّوة"* [٢٢])، كانوا يسيرون في طريق آخر، وكانت علاقاتهم غير ودية مع هذا الاتجاه.

حقاً، إن عدد اليهود كبير جداً بين "الموهوبين من الدرجتين الثانية والثالثة"، بين "حِرَفيِّي الثقافة"، وكان دورهم في الثقافة يتصاعد طرداً مع تصاعد دور الجمهور، أي الإصدارات الجماهيرية، والصحافة الجماهيرية (جرائد وإذاعة وتلفزة)، عندما لم يعُدِ العلماء الأفراد هم مَن يدفع العلم قُدُماً، وإنما المؤسسات العلمية، وغدت نجاحات العلم رهن الاستثمارات المالية، وبات عدد العلماء يقدر بالملايين.

من العسير القول هنا ما الذي كان سبباً، وما الذي كان نتيجة، أي: هل كيَّف اليهود الثقافة وَفقاً لأسلوب تفكيرهم، أم صاروا يلجونها جماعاتٍ (جماهيرَ) عندما اتخذت أسلوباً قريبا منهم؟ والأرجح هو أن العمليتين تضافرتا معاً.

وعلى العموم، فإن مشاركة اليهود الكبيرة في مجالٍ ما من مجالات الثقافة لا تقررها قدراتهم الإبداعية في ذلك المجال، وإنما بعض أسباب أخرى، أكثر تعقيداً بكثير. إذ لا يكفي أن يكون اليهود، على سبيل المثال، يشكلون غالبية أعضاء اتحاد الملحنين السوفيت، لكي نستنتج أنهم يتمتعون بموهبة فذّة كملحنين. ذلك أن 874 عضواً (في *روسيا الاتحادية السوفيتية* وحدها) لا يمكن أن يكونوا جميعاً من الملحنين أصحاب المواهب الباهرة، لأن أصحاب المواهب الكبيرة هؤلاء لا يولد منهم إلا بضعة أشخاص في كل جيل. إن اتحاد الملحنين منظمة شديدة البيروقراطية، وجهاز نموذجي لـ "للقطاع الإيديولوجي". والأغلبية الساحقة بين أعضائه تتمتع بمواهب إبداعية فوق الوسط، ثم إن قبول الأعضاء فيه مشروط بعوامل عديدة، جلُّها لا علاقة له بالموسيقى. ولعل حال هذه المنظمة في المرحلة التي سبقت الحرب (قبل الحرب العالمية الثانية) كان شبيهاً بحالها اليوم (مع مزيد من رجحان كفة اليهود). ولكنْ، ما هي الأسماء التي بقيت؟ إنها أسماء **شوستاكوفيتش، وبروكوفيف، ومياسكوفسكي** (جميعهم روس.– م)... يذكر **سفيريدوف** في أوراقه التي نُشرت بعد وفاته الملاحظات التالية:

"لقد كفّ اتحاد الملحنين منذ زمن بعيد عن أن يكون منظمة تُعنى بمشكلات الإبداع. وضاع المغزى الذي ضمَّنه إياه مؤسسوه إنه (الاتحاد) تحول إلى معلف للملحنين العاديين، ومنظمة عملاقة للدعاية الذاتية، للمسؤولين الموظفين النشطاء فيه كي يثبتوا أنفسهم في المجال الإبداعي. ويحتفظ هؤلاء المسؤولون بعدد كبير من الناس الذين يعملون على تمجيد أولياء نعمتهم.

---

[٢١] **يستخدم المؤلف تعبير "الإنتاج الجماهيري" الذي ظهر في ظل النظام الشيوعي، ويعني إنتاج سلعة ما بكميات كبيرة تسدُّ حاجة عامة الجماهير (المواطنين) دون التفات إلى جودة الإنتاج ومواصفاته النوعية أو الجمالية– م.**

[٢٢] **"مجموعة من الموسيقيين التقدميين الروس في النصف الثاني من القرن التاسع عشر (بالاكيريف، بورودين، موسورغسكي، ريمسكي ـ كورساكوف وكوييه) ناضلت من أجل تطوير الثقافة الموسيقية الوطنية". ـ انظر: *"قاموس اللغة الروسية"* في 4 أجزاء، موسكو، 1999،ج 2). ـ م.**

إن أتباعهم الطيعين يقبعون في كل المؤسسات، ويتحكّمون بـ (مجمل) الحياة الموسيقية في البلاد تقريباً، بما في ذلك الاحتفالات الحكومية (أموال ضخمة)، والجهات المسؤولة عن تنظيم الحفلات ؛ ولديهم دار نشر تابعة لهم، وأقسام للموسيقى في الإذاعة والتلفزيون، والصحافة الخاصة... والعامة أيضاً!

ثمة خطر من أن تتحول مؤسسات الدولة إلى فروع تابعة لاتحاد الملحنين يديرها موظفو الاتحاد المأمون، عديمو الشعور بالمسؤولية ، بواسطة أناس طيعين نصّبوهم في أماكنهم، ويشغلون مناصب حساسة في المؤسسات السوفيتية. كما أن الدعاية في الخارج موجودة في أيدي هؤلاء ، حيث يمضون بضعة أشهر كل عام لتمثيل ثقافتنا، وفنّيا، بموسيقاهم عديمة الموهبة.

إنها منظمة خانت مبادئها، يسيّرها رجال أعمال حاذقون، يطالبون لأنفسهم ولنشاطاتهم الفني بتبجيلات لا حد لها. وهم ينفثون من التملّق ما يثير الدهشة ، والتقززَ عند الإنسان ذي الذوق ... (كلمة غير مفهومة في أوراق **سفيريدوف**).

المسارح ، والفرق الموسيقية، والاحتفالات الحكومية ، وبيوت الاستجمام الخاصة ، ودور الإبداع، والعلاج . ملايين من أموال الشعب تهدر على هؤلاء المتزلفين.

في أيديهم جميع نشاطاتنا الفنية العالمية (والسوفيتية أيضاً)، والتعليم (الكونسرفاتوارات، والمدارس الموسيقية)، حيث يهينون ثقافتنا الوطنية من ناحية المستوى العلمي، إذ يخصصون لها مكانة "هامشية"؛ كما أن في أيديهم الأقسام الموسيقية في المجلات ، والصحف، والمطبوعات المتخصصة جميعها، واتحادات الملحنين (في *روسيا الاتحادية* بالكامل)، والفيلهارمونيات؛ والنقد (100بالمئة تقريباً)، أي الرأي العام . وتقع أقسام الموسيقى التابعة للوزارات تحت سيطرة اتحادات الملحنين أيضاً . كذلك الإذاعة والتلفزيون (الحقيقة، إن السيطرة فيهما ليست كاملة)، والمسارح الموسيقية، والفرق الموسيقي وقادتها (تقريباً 100بالمئة).

رائعٌ هذا كله، منظمٌ على الطريقة العسكرية ... انضباطٌ حديدي لا تشوبه شائبة ، نظامٌ مطلق، وانعدامُ رحمة، تماماً كما في **صبرا** و**شاتيلا**.

إنهم يعملون في هيئات التحرير *عشرات السنين* . وهم أصحاب خبرة وحِنْكة ، ولكن خبرتهم وحنكتهم لا تعملان لخير ثقافتنا، إنما لإلحاق الأذى بها".

وفي هذا الصدد تطابقت معلومات حصلتُ عليها بمحض الصدفة ، تتعلق بالتركيبة القومية لاتحاد الملحنين السوفيت، مع الملاحظات التي سجلها هذا الموسيقار الفذّ على مدى سنوات طويلة حول عمل الاتحاد . غير أنه ما من أساس للظن بأن هذا الوضع لم يكن موجوداً إلا في مجال الموسيقى . على أن هذا لا يخص إلا المدة الأخيرة، المدة التي أعقبت الحرب حصراً.

أمّا إذا ما تعمّقنا بعض الشيء في ماضي بلادنا، فإننا سنصطدم بعمليات ضخمة غيّرت بنيتها الاجتماعية . لقد سبق أن أشرنا إلى كتاب **يو . لارين (لوريه)**، المكرس لوضع اليهود في *الاتحاد السوفيتي* . جاء في هذا الكتاب أن مليونين و200 ألف يهودي كانوا يعيشون قبل الثورة في مدن صغيرة وبلدات، بينما الآن (أي في عام 1926) لم يبق منهم في هذه الأماكن سوى 800 ألف شخص. والسؤال هو: من هم أصحاب تلك الأماكن التي انتقل إليها في المدن حوالي مليون ونصف مليون يهودي؟ وبالدرجة الأولى، وحرفياً، ما هي البيوت والشقق التي

انتقلوا إليها؟ فمن المعروف أنه لم يكن هناك البتةَ، في تلك الفترة، مشاريعُ لتشييد مبان سكنية، ولم يكن بالإمكان الحصول على شقة إلا بإخلائها من أصحابها، أو بـ "التضييق"[٢٣] عليهم فيها. ثم، إذا ما توسعنا في السؤال : أماكن مَن شغلوا في جهازَ ي الحزب والدولة، وفي الصناعة والعلم والثقافة (إذ من الجلي أنهم لم يتوجهوا إلى القرى في الأرياف)؟ هو ذا المؤلف نفسه يخبرنا عن بعض من نتائج هذه الانقلاب الهائل، فيقول:

في *أوكرانيا* كان 26 بالمئة من مجمل طلاب المرحلة الجامعية يهوداً ، أما في معاهد الطب فبلغت هذه النسبة 44،8 بالمئة. وفي جمهورية *روسيا الاتحادية الاشتراكية السوفيتية* شكل اليهود نسبة 11،4 بالمئة من الطلاب (في حين كان اليهود قبل الثورة يشكلون نسبة 2،4 بالمئة من عدد السكان في *روسيا* ومعها *بولونيا وليتوانيا ومولدافيا*). وفي موسكو كانت نسبة اليهود المئوية 2،2 عام 1920، و5،6 عام 1923، و6،5 عام 1926".

كما أن أولادهم أيضاً شغلوا أماكن أولاد آخرين، ربما لم يكونوا قد وُ لِدوا بعد. كنت ما أزال بعدُ فتى مراهقا عندما التفتُّ إلى أن والديَّ ينحدران من فئة مثقفي (الإنتلِيجينسيا) ما قبل الثورة التي لم تعرف الثراء ولا العمل الوظيفي. وقد حافظا على العلاقة مع حلقة صغيرة من الأصحاب، الذين كانوا أصدقاء منذ أيام المدرسة الثانوية أساساً. فلاحظت أنهم جميعاً إما لم يكونوا متزوجين ، وإما لم يكن لديهم أطفال . كما أنني كنت الطفل الوحيد لوالديَّ. ثم تذكرت أنني في المدرسة لم أصادف أولاداً من عائلات المثقفين الروس الذين عاشوا قبل الثورة. ومن أصحابي الذين بوسعي تذكرهم كان واحد والده عامل كهرباء، وآخر كان يعيش مع أمه التي تعمل كنَّاسة ... وكان لديَّ أصحاب في المدرسة آباؤهم وأمهاتهم أطباء ومهندسون ومحامون ... ولكنهم كانوا يهوداً . وهذا يعني، وَفقاً لذكرياتي الشخصية ، أن فئة المثقفين الروس ، التي كانت قبل الثورة ، قد انقرضت، فبقي المكان بعدها شاغراً، "خالياً". وبعد انقضاء وقت طويل جداً، أي في السبعينيات، لخص كاتب يهودي هذا الوضع على النحو التالي:

"إن اليهود إذ ملأوا الفراغ الذي نشأ بعد اختفاء الإنتلجنسيا الروسية، صاروا هم هذه الإنتلجنسيا".

إن عملية القضاء على الإقطاعيين والنبلاء لم تمس اليهود . زِد على ذلك أنهم ظلوا في مأمن من أرهب جائحة في تلك المرحلة، أي من عملية تجميع الملكيات ونزع ملكية الكولاك (مُلاك الأراضي الميسورين . . م.). وللمقارنة، نورد الوقائع التالية : أُنشئتْ أواخر العشرينيات مستوطناتٌ زراعية يهودية في *القرم*، وفي ضواحي *أوديسا* (من أجمل المناطق السوفيتية طبيعة ومناخاً– م.). وكان الانضمام إليها طوعياً تماماً. ثم كان المستوطنون يزوَّدون مجاناً بالآليات والمواشي، مع إعفائهم من الضرائب . وفي العام 1923 خصصت ميزانية الدولة لهذه المستوطنات خمسة ملايين روبل، وخصصت لها منظمة *"جوينت"* اليهودية الأميركية عشرين مليوناً ! ورغم أن المخطط لم يكن يقضي بتوفير السكن في تلك المستوطنات إلا لـ 26 ألف أسرة ، فإن تنفيذه لم يتحقق... لقد كسبنا الحرب بدماء الفلاحين، ومع ذلك كان "معوَّقو الحرب، سكان المناطق الريفية " لا يستلمون

---

[٢٣] كانت سياسة "التضييق" السكنية تقضي بتجريد أصحاب البيت أو الشقة من حق الملكية، وجعل أسرة أو أكثر تشاركهم سكنهم بالمساحة والمرافق عامة وعلى قدم المساواة. – م.

حتى معاشاتهم التقاعدية. وفي عام 1946 ألمت المجاعة مرة أخرى بالعديد من المناطق الريفية، غير أن 98 بالمئة من اليهود، كما سمعنا، كانوا يعيشون في المدن آنذاك.

وبعد ذلك كان كل شيء يسير "تلقائياً"، دونما أي جهد تقريباً . وسأورد مثالاً واحداً يعود إلى زمن أقرب، أقتبسه من مجلة تصدر في *إسرائيل* باللغة الروسية روت القصة التالية:

"**يلينا إسحاقوفنا شورس**، تُعَدّ روسية حسب تذكرة هويتها، ولكنها في واقع الأمر حفيدة بطل الحرب الأهلية **نيقولاي شورس** ، القائدِ العسكري الأسطوري المعروف من خلال أغنية *"آثار دماء مفروشة على العشب الكثيف"*. وزوجة **شورس** هذا في تلك الفترة التي لا تنسى هي **فروما روستوفا** التي لا أعرف كنيتها الحقيقية . كانت **فروما** الحديدية هذه تعمل في *"لجنة الطوارئ"* (جهاز الاستخبارات)، وتسحق أنصار الثورة المضادة كالبقِّ في مدينة *روستوف* التي أوكلت إليها مؤقتاً من أجل هذا الهدف، وقد تمكنت من أن تنجب من **شورس** ابنتها **فالنتينا** ، التي تزوجت في صباها من الفيزيائي **إسحاق خالاتنِكوف**، العضو المراسل في أكاديمية العلوم السوفيتية الآن (أي في عام 1976، ثم أصبح أكاديمياً فيما بعد). على أن قصة حياة **خالاتنِكوف** المهنية أكثر مدعاة للعبرة بعدُ. ذلك أنه عندما كان يعيش في مدينة *خاركوف* استدعاه الأكاديمي **لانداو** إلى موسكو للالتحاق بالدراسة في حلقة البحث العلمي التي يشرف عليها . لقد كان **لانداو** في ذلك الوقت مثقلاً بقائمة طويلة من أسماء اليهود الذين تتألف مدرسته منهم، وإذا به يقع على اسم **خالاتنيكوف** الذي جعله يظن خطأً أنه يأتي إلى مدرسة الفيزيائيين النظريين هذه ولو باسم شخص روسي واحد، نزولاً عند الطلبات المتكررة في هذا الخصوص من جانب الحزب والحكومة. ويمكنكم أن تتصوروا كم كانت مقذعة شتائم **لانداو** عندما علم بأن **خالاتنيكوف** القادم من *خاركوف* ما هو بـ**خالاتنيكوف** أبداً، بل هو **إسحق ماركوفيتش**".

يا للخفة المدهشة، ممزوجةً بروح النكتة الأوديسية (نسبة إلى مدينة *أوديسا* التي يسكنها عدد كبير من اليهود . – م.)، التي تترِم هنا طرح موضوع "المرأة الحديدية العاملة في *لجنة الطوارئ* التي كانت تسحق أعداء الثورة كالبق"، وموضوعاً آخر أكثر حداثة هو "القائمة الطويلة من أسماء الطلاب اليهود" عند **لانداو !** مع العلم بأن هذا اتهام أخلاقي شديد الوطأة، يشبه اتهام المرء بأنه لا يقبل أحداً إلا أقرباءه للعمل في المؤسسة التي يرأسها.

لا أعرف مدى صواب الكلام الذي يسوقه المؤلف وهو يصف الوضع في مدرسة **لانداو**. فالأرجح أن مقالته تعبّر عن اتجاه المجلة التي نشرتها . غير أن آراء تلاميذ **بوغولوبوف**، وهو عالم كبير آخر في الفيزياء النظرية (والرياضيات أيضاً) آنذاك، تنطوي على مرارة مبعثُها وضعهم كـ "هامشيين"، مقارنة بمدرسة **لانداو** التي كانت قد ترسخت آنذاك. إذ ابتدأ كل شيء من التنافس بين مديرَي المدرستين على أرضيةِ نظرية ذرّات الهليوم الفائقة السيولة [٢٤] التي قدم **بوغولوبوف** تقريراً عنها في أكاديمية العلوم السوفيتية عام 1946، في حين كان **لانداو** مشغولاً بتلك النظرية قبل خمس سنوات من هذا التاريخ . يقول أحد تلامييذ **بوغولوبوف**، وهو **د. شيروكوف** (الذي أصبح أكاديمياً فيما بعد): "تفيد ذكريات المشاركين في الاجتماع أن **لانداو** وجه انتقاداً حاداً لـ **بوغولوبوف**. ولكنه سرعان ما هضم وقوّم كل ما سمعه منه، إذ لم يمضِ أكثر من أسبوعين أو ثلاثة أسابيع

---

[٢٤] سائل الهليوم فوق درجة 2 مطلقة يتصرف كسائل عادي، أمّا تحت هذه الدرجة فيبقى سائلاً مهما انخفضت درجة حرارته ويكون عندئذ عديم اللزوجة، فيسمى بالسائل العجيب، أو السائل ذي السيولة الفائقة. – م.

حتى أرسل **لانداو** إلى المطبعة مقالة يقترح فيها ad hoc (أي بلا أساس. – المؤلف) منحرياً مع زيادة انحنائه نحو الأسفل بالنسبة لطيف تذبذبات ذرات الهليوم... إن منحني **لانداو** ينجم عن معادلة **بوغولوبوف** مع بعض تعديلات طابع التفاعل بين ذرات الهليوم2. ولكن مقالة **لانداو** لا تتضمن أية إشارة إلى **بوغولوبوف**. ويقول ف. **صرولوفيوف**، وهو تلميذ آخر من تلاميذ **بوغولوبوف**: "انتُخب **بوغولوبوف** في خريف العام 1953 أكاديمياً في قسم الرياضيات الفيزيائية. وكان لمدرسة **لانداو** في هذه الفترة كامل السيادة ولمّا كانت أعمال **بوغولوبوف** التي أنجزها خارج مدرسة **لانداو** تحظى باهتمام كبير، كان التشديد ينصبّ بشتى الوسائل والأشكال على أن **بوغولوبوف** ليس عالِماً في الفيزياء النظرية، وإنما هو عالم في الرياضيات". وفيما يتعلق بانتخاب **بوغولوبوف** عضواً في أكاديمية العلوم فإنني أذكر شخصياً أن عالم الرياضيات الشهير ل. **بونترياغِن** حدثني فيما بعد بأن **لانداو** (الذي كانت تربطه به علاقة ودية في ذلك الوقت) قال له: "من المؤسف أنك لم تترشح، ولو ترشحت لكنا انتخبناك بدلاً من **بوغولوبوف**". هذا مع العلم بأن انجازات **بونترياغِن** الأساسية كانت آنذاك في مجال الطبولوجيا، ولم يكن لدى **لانداو** الكفاءة لتقييمها بأي حال من الأحوال. وفي حديثه عن مطلع الخمسينيات (من القرن العشرين) يقول **صرولوفيوف** أيضا: "إذا تمت الموافقة على تقرير علمي في حلقة البحث التي يشرف عليها **لانداو**، فهذا يعني أنه تمت الموافقة على رسالة الدكتوراه (التي يتحدث عنها التقرير .– م) أو على نشر التقرير نفسه. وإذا لم يحظَ الاتجاه العلمي بتأييد في الحلقة، فهذا يعني أنه لا حظَّ له عملياً بالاستمرار... وكان يُعَدّ مشاركاً على قدم المساواة في حلقة البحث مَنْ ينجح في امتحانات الحد الأدنى النظري عند **لانداو**، وعددها تسعة. وفي أثناء كل امتحان، وبحضور **لانداو** شخصياً، كان يتوجب على الممتحَن أن يحل ثلاث مسائل، وأن يجيب على أسئلة إضافية... وقد علمت أن بعض المتقدمين للامتحان كانوا يعرفون سلفاً المسائل التي ستطرح عليهم. أما أنا فلم أكن أعرف أي مسألة... ولذلك حسبت أنه قد يكون ثمة انتقاء خفيّ ما". ثم يمضي الكاتب يتحدث عن تلاميذ **بوغولوبوف** فيقول: "كانت توضع صعوبات مصطنعة من قبل هيئة تحرير *"مجلة الفيزياء التطبيقية والنظرية"* وهيئة التحرير السوفيتية آنذاك لمجلة "Nuclear Phisics" (الفيزياء النووية)، فيحول ذلك دون نشر أعمالنا العلمية. ثم يضيف: "بعد عام 1965 تعايشت مدرسة **لانداو** ومدرسة **بوغولوبوف** بسلام، وكذلك اتجاهات أخرى في الفيزياء النظرية... ولكنني أعتقد أن ما يسَّرَ، إلى حد كبير، هذه النهاية السلمية هو مواهب **بوغولوبوف** السياسية والإدارية غير العادية.

على أن من الجليّ أن الأمر لم يقتصر على مدرسة واحدة. وأنا أذكر مثل هذه المدارس العلمية، وحلقات البحث في الرياضيات أيضاً. ولم يقتصر الأمر كذلك على بلد واحد. فعلى نطاق العالم كانت تتشكل على النحو ذاته سمعة هذه الجهة أو تلك، وكانت تعالَج مسائل الأولوية، وتوزَّع جوائزُ ذائعة الشهرة...

غير أن جميع هذه الاعتبارات لم تمس جوهر المسألة ذاته. ومناقشة لبِّ هذه المسألة هو ما أود الانتقال إليه الآن. إنه يتلخص، كما يبدو لي، في أن نبوغ الشعب، من حيث المبدأ، لا يقاس بنبوغ هذا الشخص أو ذاك من أبنائه.

فنحن، عندما نتحدث عن الإنسان، مثلاً، لا نقصد العمل المثالي الذي يقوم به عضو من أعضاء جسمه كالبنكرياس، إنما ذلك النشاطَ الذي يسِم إنسانيته كفرد، أو نتاجَ روحه، وَفقاً للمصطلحات القديمة. ذلك أن

الشعب الموهوب لا يُعرَف بعدد الموهوبين من أبنائه ، بل بقدرته على خلق ما يخصه وحده دون سواه من قيم هي ثمار روح الشعب، كالدراما الإ غريقية ، والرسم الإيطالي، والموسيقى الألمانية، والأدب الروسي، والشعر الفارسي... وقد يتمثل ذلك أحياناً في نتاج إبداع عدد من الشعوب المتقاربة، كما هو الحال في صورة العالَم الفيزيائية الرياضية المعاصرة التي خلقتها الشعوب الرومانية الجرمانية.

وبهذا المعنى يتبين أن اليهود، كشعب، محروم ون من ملكة الإبداع. فمنذ *يهودا القديمة* كان النشاط الثقافي برمّته، على ما يبدو، مسخّراً بالكامل في سبيل هدف واحد هو خلق دين ذي مركزية إثنية. وبعد ذلك هيهات أن يكون بوسع أحد أن يشير إلى أي ثمرة تخص الثقافة اليهودية حصراً. ويمكننا أن نحاول تفسير ذلك بكون اليهود أمضوا حياتهم في الشتات، وإن لم يكن ذلك يحول بينهم وبين الحفاظ على الوعي بوحدتهم القومية، في حين نجد هذا الوعي مرتبطاً على الدوام لدى الشعوب الأخرى بوجود الثقافة القومية. وها هو خلقُ دولة يهودية صرفة هي *إسرائيل* لم يغيّر في ذلك شيئاً. بل وأصبح الوضع أكثر حدة. إذ كان يخيّل أ ن هذه المواهب اليهودية اللامعة تظهر في بلدان يتوضّع اليهود فيها جماعات صغيرة توضُّ عَمادّة اليورانيوم في الخامات المعدنية المحيطة بها. فإذا ما جمعناهم معاً توجّب بكل بساطةٍ وقوعُ انفجار نووي ثقافي! ولكننا في واقع الأمر لم نحصل على غير الفراغ. حتى في مجالات النشاط اليهودية على نحو خاص . فخيرة عازفي الكمان في العالم ، مثلاً، جميعهم من اليهود تقريباً، ولكنني لم أسمع بعازف كمان شهير واحد من *إسرائيل*. وينطبق هذا الكلام على لاعبي الشطرنج أيضاً. إن *إسرائيل* (كدولة معترف بها) موجودة منذ ما يزيد على نصف قرن، ولكنها أنجبت من المواهب أقل مما أنجبت بلدان صغيرة أخرى، مثل *هولندا* ، أو *الدانمارك*، أو *النرويج*. لقد رأينا أيضاً في هذا الاستعراض الذي نقدمه أن اليهود أسهموا بقسط كبير في تطوير تيارات معينة عرفتها البشرية ، كتطوير الرأسمالية في *أوروبا الغربية* ، مثلاً. غير أن الرأسمالية كانت آخذة بالتشكل في *إيطاليا*، *وفرنسا* ، ولم يساهم اليهود إلا في إسباغ سمات معينة عليها ، تتلخص في الاتجاه وجهةَ المضاربات المالية . وكذلك هو حال مساهمتهم في تطوير الاشتراكية خلال القرنين التاسع عشر والعشرين . فالاشتراكية بحد ذاتها، كتعاليم نظرية ، كانت موجودة قبل ذلك بزمن طويل، منذ **أفلاطون** . ولكن اليهود لعبوا دوراً هائلاً في جعلها أساساً للحركة الثورية، وفي انتصار الثورة الاشتراكية، وترسيخ السلطة الثورية. وفضلاً عن ذلك، ساهم اليهود بعد حقبة التحرر (في القرنين التاسع عشر والعشرين) في النشاط الثقافي لكثير من البلدان ، جنباً إلى جنب مع أبناء الشعوب الأصلية (صاحبة الاسم، كما يقال الآن)، وذلك، مثلاً ، في تطور الأدب والموسيقى الألمانيين، والفيزياء والرياضيات على النطاق الأوروبي، والأموال العالمية، وغير ذلك . ثم إنني أعرف في مجال اختصاصي ، وهو الرياضيات، العديدَ من أسماء الرياضيين اليهود الأذكياء، الموهوبين، بدءاً من القرن التاسع عشر، و قد التقيت بعضهم شخصياً. ولكنهم جميعاً كانوا يعملون في إطار الموروث الثقافي الرياضي الذي سبق أن أرست شعوب *أوروبا الغربية* أسسَه ولم يكن اليابانيون، واليهود، والروس، والصينيون وغيرهم إلا متابعين في إطار ذلك الموروث. بل ولنضرب حتى مثلاً بسيطاً هو السلسلة العبقرية من أغاني الموسيقار **شوستاكوفيتش** *"من الشعر الشعبي اليهودي"*. يبدو أنه كان يوجد فولكلور يهودي باهر في البلدات اليهودية في *روسيا* ، حتى إنه جُمِع جزئياً

(من قبل موسيقيين يهود ، كما سمعت)، ولكن كان لا بد من **شوستاكوفيتش** (الروسي) لكي يتحول هذا الفولكلور إلى موسيقى عالمية.

ولا أستطيع أن أشير إلا إلى فعل إبداعي واحد يخص اليهود تحديداً كشعب، هو أنهم خَلقوا من أنفسهم سبيكة فريدة تماماً من الدين والقومية لا مثيل لها من قبل، تقوم على فكرة الاصطفاء (الشعب المختار). وقد حافظوا على هذه الظاهرة المدهشة، وعززوها على مدى أكثر من ألفي عام. ولكن هذا الفعل ليس البتةَ من تلك الثمار التي نتج عن الثقافة، والتي نعنيها عندما نتحدث عن الإغريق، والألمان، والصينيين ...إلخ. أما في الفهم العادي، الأكثر نمطية، فإن اليهود يشاركون في عمل الشعوب *الأخرى*، ضمن إطار الثقافة التي سبق أن خلقتها تلك الشعوب. بل وهم يجعلون تطور بعض المجالات أو الاتجاهات أكثر سرعة. ففي كتابي القديم، *"الرُّهاب الروسي"* ، شبّهتُ دور اليهود في الثورة الروسية بدور المحفِّزات في التفاعلات الكيميائية . إنها عناصر تسرِّع التفاعل الكيميائي، مع أن التفاعل سيحدث في شتى الأحوال، حتّى في غياب هذه العناصر، ولكنْ بفاعلية أقلّ.

ويرتبط بهذا الأمر خطرٌ موضوعي، أكثر عمقاً، هو خطر مساهمة اليهود المفرطة في تطوير ميدان ما. ذلك أن اليهود أنفسهم يحتاجون إلى أن تكون الكتلة الأساسية من أبناء الشعب الذي يخلق، من حيث المبدأ، الثقافة الجديدة. وبدون ذلك (أي، مثلاً،إذا صار اليهود أغلبية، إذا "سادوا") ينضب الإبداع الثقافي نفسه، ولا يبقى فيه مكان لليهود. وعندئذ ينشأ وضع مماثل للوضع القائم في دولة *إسرائيل* الآن.

على أن العالم يشهد اليوم مثل هذه النزعات تحديداً. يقول **كاتس**، الباحث السيوسيولوجي في جامعة *القدس*:

"ويبرز سؤال هو : مَنِ الذي سيكون عليه أن يغدوَ النخبة الفكرية في المجتمع ما بعد الصناعي ، هل هم اليهود، أمِ السكانُ الذين يشكلون الأغلبية الإثنية المطلقة في هذا البلد أو ذاك".

وإذ يلفت هذا الباحث الانتباه إلى أن:

"... *إسرائيل* في هذه الحالة يجب أن تصبح المركز، بل والمركز الروحي ليهود العالم ..."، يعبِّر عن شكِّه، فيقول:

"هيهات أن توافق هذه الأغلبية الإثنية على أن يتمتع 80 بالمئة أو 100 بالمئة من اليهود بتعليم عالٍ ، في حين يتخلّف باقي السكان عنهم بمرات كثيرة، وعلى أن يظلّ اليهود على رأس المراكز العلمية الأهم في البلدان التي يشكلون نسبة مئوية ضئيلة، أو ضئيلة نسبياً، من عدد سكانها".

ويتابع **كاتس**:

"على أن الصورة تبدو على هذا النحو اليوم"، ثم يورد جملة من الأمثلة المذهلة حقاً. ففي المعهد التقني الأساسي في *الولايات المتحدة الأميركية* (*معهد ماساشوسيتس التكنولوجي*) تكاد تكون المناصب العلمية والإدارية الرئيسة جميعها ، بما في ذلك منصب رئيس المعهد، منوطةً باليهود . ورئيس الجمعية الملكية في لندن (*الأكاديمية الإنكليزية في ميدان العلوم الطبيعية*) يهودي. ثم إن اليهود يتبوَّأون المناصب الرئيسة في العديد من جامعات *فرنسا* وغيرها من بلدان *الغرب*.

وهنا تلوح معالمُ تصوّرٍ ما لمستقبلِ البشرية القريب، يكاد يكون "يوتوبيا": فمع الانتقال إلى المجتمع ما بعد الصناعي لا يعود من يبدع الثقافة هم أفراد ، أمثال **غاليلو** ، **ونيوتن** ، **وفيردي** ، ولا أمثال **روبليوف** ، ومصوري

أيقونات القرون الوسطى المجهولين ، وبُناةِ الكنائس، وإنما التجمُّعاتُ الضخمة، أي المؤسسات الإنتاجية أو التجارية، ومعاهد البحث العلمي. كما أن مفهوم "الثقافة" بحد ذاته يكتسب معنى جديداً ، إنه الإنتاج الآلي، إنتاج الكميات الكبيرة، تلك "الثقافة المكرورة" التي تحدث عنها **أندريه بيلي**. أما زعماء هذا النشاط فيكونون من اليهود الذين يجمعهم مركز روحي عالمي هو *إسرائيل* . على أن ما يخيف هنا ليس اغتصابَ اليهود الدورَ الذي تستطيع أن تلعبه "الأغلبية الإثنية"، وإنما كون هذه "اليوتوبيا" شديدةَ الشبه بتنبؤات **زامياتين، وهاكسلي، وأورويل**.

مراجع الفصل السادس عشر :

1 – Sombart W. Der Prolitarische Sozialismus ("Marxismus"). Jena, 1924. bd.1,2

2 – ماركس ك.، إنجلز ف. المؤلفات. موسكو، 1934(المراسلات: المجلدات 21- 25).

3 – فرويد. ز. عسر الحضارة. المؤلفات المختارة. المجلد 1، لندن، 1969.

4 – Hayk F.A. Laws, Legislation and Liberty, V.3, Chicago 1979

5 – Jaspers K. Vernunft und Widervernuft unserer Zeit. Munchen 1956

6 – بايس أ. نشاط ألبرت إنشتاين العلمي وحياته. موسكو. 1989.

7 – فيزغِن ف. حول اكتشاف إنشتاين وجيلبرت معادلات الحقل المغناطيسي // نجاحات العلوم الفيزيائية، 2001، العدد 12.

8 – – شريدِنغر ي. الأعمال المختارة في الميكانيك الكوانتي. موسكو، دار "ناووكا"، 1976.

9– Weizman Ch. Trial and Error. (مرجع سابق ورد ذكره في الفصل العاشر).

10 – سفيريدوف غ. مدونات متنوعة . مجلة " ناش سَفريمِنِك" (2000، العدد 12), مجلة "موسْكفا" (2000، تشرين الثاني / نوفمبر).

11 – خازانوف ب. رائحة النجوم. تل أبيب.

12 – سوصرلوف إ. ثلج العام الفائت. مجلة "الزمن ونحن". إسرائيل، 1976، العدد 4.

13 – بوغولوبوف ن.ن. عالم في الرياضيات، والميكانيكا، والفيزياء.دوبنا، 1994.

13 – زئيف كاتس.(مرجع سابق ورد ذكره في الفصل الثالث عشر).

الفصل السابع عشر

مناقشة

1 – "من هو اليهودي"

سنحاول في هذا الفصل صوغ بعض الاستنتاجات النابعة من الفصول التاريخية السابقة. وبالتأكيد، فإن هذه الاستنتاجات ترسم لوحة فيها عدد كبير من الثغرات. ذلك أن تاريخ الجماعة اليهودية أوسع بكثير (على الأقل من حيث الفترة الزمنية التي يغطيها) من أن يحيط به بضعُ صياغات دقيقة. حتى إن **دوستويفسكي** سبق أن كتب يقول:

"لم تحن بعد جميع *الأزمان والآجال*، رغم انقضاء أربعين قرناً، ولا تزال الكلمة الأخيرة، التي ستقولها البشرية عن هذه القبيلة العظيمة، طيَّ المستقبل".

يبدو لي أن هذه الفكرة لا تزال صائبة حتى الآن. ولذلك فإنني أضع نُصْبَ عينيَّ هدفاً محدوداً جداً، هو أن أستخلص من الوقائع التاريخية المعروفة بضعة استنتاجات محدَّدة، علّها تكون مفيدة في المستقبل (أعني للروس بالدرجة الأولى، ولكن ليس لهم وحدهم) من أجل بلورة موقف من هذه الظاهرة المحيِّرة، أي من الجماعة اليهودية. وبكلام أكثر دقة، من أجل إقامة علاقات مع اليهود من شأنها أن تأخذ بالاعتبار أهدافنا التاريخية الأساسية.

ونستطيع، قبل كل شيء، أن نعود إلى السؤال الذي ناقشناه في مستهل هذا الكتاب: ما الشيء المشترك الذي يشكل الجماعة اليهودية؟ لقد كرَّس الحاخام **آدين شتاينزالتس**، المتنفذ في الأوساط اليهودية، كتاباً خاصاً لهذه المسألة، قبل مدة قصيرة، تحت عنوان *"من هو اليهودي"*. وقد اقتبسنا عنوان كتابه، *"من هو اليهودي"*، فجعلناه عنواناً لهذا الفصل. وبالرغم من أن السؤال بحد ذاته ليس بجديد، إذ كُتب الكثير عن ذلك، وبأقلام كتاب يهود أيضاً، فإننا نسأل: ما هي الجماعة اليهودية؟ هل هي أمَّة، أم دِين، أم "روحُ جماعةٍ يهودية" ما؟ وقد تبيَّن أن هذا السؤال دقيق جداً، وأنا لا أعتزم تقديم جواب عليه من عندي، وكلُّ ما أريده هو تكثيف بعض الملاحظات التي تنبع من الاستعراض التاريخي السابق.

إن الفصول التاريخية التي أوردناها أعلاه تتيح لنا أن نشير إلى بعض سمات نصادفها دائماً، وتقترن باليهود. ففي كتابه عن *"العداء للسامية في العالم القديم"* يشير **س. يا. لوريه** إلى صفة مميزة من صفات الشعب اليهودي (في القديم)، فيقول:

"ولمّا لم يكن له (الشعب اليهودي) أرضه ولا لغته، وكان مشتتاً في العالم كله، فإنه بالرغم من ذلك ... يظلُّ كيان دولة قومية".

ويقول **دستويفسكي**:

" كلا، إن هذا الشعب الفائق القوة والطاقة، والذي لا مثيل له في العالم، لم يكن في مقدوره البقاءُ دون status in statu" (أي دون أن يشكل دولة ضمن الدولة. – المؤلف).

ويقول **ياكوف كلاتسكين** عن "نظام الدولة اليهودي": "لقد أنقذناه كأنه دولة متنقِّلة، تخلق لنا حتى في الشتات ما يشبه كيان دولة ذاتي الحكم"، "إن الجدار المتين الذي أقمناه حولنا كان يعزلنا عن شعب البلاد، وخلف ذلك الجدار كانت تعيش دولة يهودية مصغَّرة". ويقول الفيلسوف الديني الروسي ، ابن القرن العشرين الأب **س. بولغاكوف:** "على أن وحدة بني *إسرائيل* بحد ذاتها تظل السرَّ الأعظم في تاريخهم". ويقول مفكر آخر من التيار ذاته، هو **ف. زينكوفسكي** : "إن أكثر ما يثير عجبنا من الجماعة اليهودية، بعد تشتتها، هو قدرتها الوحيدة والاستثنائية على الحياة ككلّ قوميّ واحد". "إن الجماعة اليهودية العالمية... تبقى موحدة... في ما تمليه الحياة من متطلبات داخلية تقرر مصير اليهود الخاص، وطريقهم الخاص ". وما هذا كله إلا تفرعات مختلفة من ملاحظة **غريتس** التي أوردناها في بداية هذا الكتاب، وتتحدث عن "العلاقة العجيبة التي تخلق بين أعضاء العالم اليهودي وحدة لا انفصام لعُراها".

وبالطبع، فإن أبسط الأمور أن يحاول المرء إيجاد تفسير لهذه الوحدة باللجوء إلى تلك المقولات التي تشكِّل، في العادة، خلال التاريخ قواسمَ مشتركة بين البشر، كالدِين، والأمَّة. فالقوانين الروسية قبل الثورة، مثلاً، كانت تنظر إلى اليهود بوصفهم طائفة دينية حصراً ("أبناء الدين اليهودي"). كذلك تماماً كانت وجهة نظر اليهود في مرحلة الشغف بالتحرر والاندماج: "لسنا إلا ألماناً على الشريعة الموسوية" (أو إنكليزاً، أو روساً...إلخ). أما الآن، فإن الغلبة لوجهة نظر أخرى تقول: "إن اليهود قوميّة". وهكذا، فإن الصهيونية كانت في عهد **هرتزل** و**وايزمن** تياراً قومياً علمانياً صِرفاً. إذ يقول **وايزمن**، مثلا، (بعد الحرب العالمية الثانية ، بصدد إنشاء دولة *إسرائيل*):

"مع العلم بأننا سنحترم دين كل إنسان، فنحن لا نستطيع إعادة عقارب الساعة إلى الوراء بأن نجعل الدين أساس الدولة... إن الدين لا يجوز أن يتحكم بنشاط الدولة".

(ولكن تبيَّن، في الحقيقة، أن الواقع يتنافى مع هذا التصريح).

إن الجدل حول ما إذا كان اليهود قومية، أم أن ما يجمعهم هو الدين، له هو جدل له جذور أبعد في التاريخ. وهو يلقي الضوء، مثلاً، على مقالة محيِّرة كتبها **ماركس** مبكِّراً، تحت عنوان *"حول المسألة اليهودية"*. إذ تنطوي هذه المقالة على عدد من الآراء المذهلة، ومنها، مثلاً:

"إن قومية اليهودي العجائبية هي قومية التاجر، وصاحبِ المال عموماً.

فللمال هو ربٌّ *إسرائيل* الغيور الذي لا يجوز أن يقف أمامَه أيُّ ربّ آخر".

لو أن هذه الأفكار نُشرت الآن لوُصِم **ماركس** على الفور بأنه معادٍ للسامية.

يبدو أن تفسير هذه الحالة الغريبة مرتبطٌ بالسياق الأوسع لهذه المقالة، فهي ردٌّ على مقالتين كتبهما **برونو باور** حول المسألة ذاتها. ويسعى **باور** في المقالتين لكي يثبت أن المسألة اليهودية مسألة دينية. فهو يؤكد أن الدولة المسيحية لا تتأسس على مبدأ التساوي في الحقوق. وما على اليهود إلا أن يناضلوا ضد مبادئ الدولة المسيحية ذاتها، أو أن يرضوا بالمكانة (وبجملة الامتيازات) الممنوحة لهم. ولكنهم يريدون أن يظلوا يهوداً، وأن يتمتعوا بالحقوق التي يتمتع بها المسيحيون أنفسهم، أي أنهم يطالبون لأنفسهم بوضع خاص. أما **ماركس** فلم تكن مقبولة لديه، على وجه الخصوص، تلك النظرية التي تؤسس التاريخ على المبادئ الدينية، وكان لا بدّ له

من من حصر المسألة كلّها في حدود العلاقات الاقتصادية المتبادلة بين اليهود والمسيحيين . وهو مستعدّ من أجل ذلك أن يصوِّر بني قومه بأشدّ الألوان سواداً، بل حتى إنه يطرح نبوءته الشهيرة، إذ يقول:

"ما إن يتسنّى للمجتمع إلغاءُ جوهر اليهودية الإمبريقي، أي روحَ المتاجرة ومقدماتها، حتى يغدو اليهودي ... مستحيلاً". (وهذا ما تم التحقق من صحته على وجه اليقين في *روسيا* بعد ثورة 1917!).

يبدو أنهما من واحدة من وجهتَي النظر هاتين (اليهودية دين ، اليهودية أمة) تجعل الظاهرة بمجملها أكثر قرباً من الفهم. على أن كل ما عرضناه في هذا الكتاب حتى الآن يقودنا بالضرورة، كما يخيَّل إليّ، إلى أن فهم هذه الظاهرة يتطلب منّا *الجمع*َ بين وجهتَي النظر كلتيهما، أي أن الجماعة اليهودية هي سبيكة فريدة من دين وأمة. ذلك أن جميع حالات سوء الفهم كانت تنجم عن محاولة حصر الجماعة اليهودية في واحد من تصنيفات الظواهر التاريخية في أنساق م علومة. فتارة كانوا يقولون إن اليهود شعب ، كالإغريق ، والرومان ، والألمان ، والفرنسيين... ثم يتبين أنه لا يوجد وجهُ شَبَهٍ وطوراً يقولون إنهم دين، كالوثنية القديمة ، والبوذية، والهندوسية، والمسيحية، والإسلام. ومرة أخرى لا يكون ثمة شبه. بينما يكمن حل اللغز في كون الجماعة اليهودية ظاهرةً لا مثيل لها في التاريخ : إنها الحالة الوحيدة التي يكون فيها الدين ذو المركزية الإثنية مقترناً بشعور الأمة الديني، وتكون فكرة الاصطفاء (الشعب المختار) هي ما يجمع بين العنصرين. وهذا ما نراه في جزء من الجماعة اليهودية المعاصرة هو *إسرائيل* التي يَعُدُّ 80 بالمئة من سكانها أنفسَهم ملحدين، بينما يقررمجلس الحاخامات فيها أهمَّ الأمور في الحياة، كشكل الزواج، والاعتراف بالجنسية...إلخ. وجليٌّ أن السكان الملحدين في *إسرائيل* يقرُّون بأن اليهودية الأصولية عامل ضروري للتلاحم القومي.

لا وجود في أي مكان آخر لمثل هذا التشابك والتداخل بين الأمة والدين . كان الإغريق القدماء يرون أن آلهتهم هي أيضاً آلهة الطرواديين . ووفقا ل **هوميروس** ، كان الطرواديون يعبدون **زِفس** ، **وأبولّو**، **وأفروديت** . وعندما احتكَّ الإغريق بدائرة أوسع من الشعوب انطلقوا من أن هذه الشعوب أيضاً تعبد الآلهة ذاتها، ولكن تحت أسماء أخرى . وعلى سبيل المثال ، يقول **هيرودوت** إن "المصريين يعبدون **ديونيس** الذي يسمونه **أوزيروس**". هذا ، فضلاً عن أن ما يسمَّى "بالأديان العالمية " – اليهودية والمسيحية والإسلام – يخاطب البشرية جمعاء. ولكنْ، فلنتذكَّرْ تلك المواعظ التلمودية (التي أوردها **أيزنمينغر**):

"... إن شعوب الأرض لا يسمون بشراً لأن أصل نفوسهم من روح شريرة . أمَّا مَن يسمُّون بشراً فهم *بنو إسرائيل* الذين أصل نفوسهم من الروح القدس الإلهي". "و يقول الحاخام **شمعون بار يوحاي** : أنتم تسمون بشراً ، أما غيركم من الشعوب فلا يسمون بشراً، بل بهائم".

... عندما نتذكر ذلك يغدو جليّاً للعيان أننا أمام ظاهرة من نمط آخر تماماً ، يختلف عن المجموعات الدينية أو القومية المعروفة.

وعلى هذا النحو أنشئت تقاليد راسخة جداً . فمثلاً، يقول المنظر اليهودي المعاصر المعروف **م. غيفتر**، وهو يتذكر فترة شبابه:

"... لم أكن آنذاك يهودياً . كنت أعرف، ولكن لم أكن أشعر . ربما صددتُ هذه المعرفة عني، ولكن ليس بسبب الخوف! بل على الأرجح بحكم عقدة **ماوغلي***.

وهذا يعني أن صورة *طفل بشري بينَ الوحوش* تنسجم تماماً وموقف الحاخام **سيم ون بن يحاي** . بل إن **ناحوم غولدمان** يتساءل عن سرّ الآلية الدفاعية التي صانت اليهود من كل أنواع الاضطهاد؟ ويجيب:

"يتلخّص وصف هذه الآلية ببضع كلمات: كان اليهود ينظرون إلى مضطهديهم كعرق أدنى".

وأكثر من ذلك أن اليهودية ليست اتحاداً شكلياً بين القومية العبرية والدين اليهودي . فعن أية جذور دينية أو قومية يمكن الحديث فيما يتعلق، على سبيل المثال، باليهود الذين شاركوا في ثورة 1917: **تروتسكي، زينوفييف**... إلخ؟ لقد كان **ليتفينوف** يؤمن إيماناً راسخاً باندماج اليهود، وكان يكتب في الاستمارات أنه روسي **(مكسيم مكسيموفيتش)**، علماً بأن اسمه منذ الولادة هو **مئير غينوخ موفشيفتش فالاخ.**

أمّا الكاتبة الصحفية **س. مارغولينا** التي تعيش الآن في *ألمانيا* ، وهي من موجة "المهاجرين الثالثة"، فتقترح إعادة النظر في هذه المسألة، وتقول:

"إن السؤال الذي يتفادونه عادة عند مناقشة دور اليهود الخاص في المجتمع السوفيتي، بغضِّ النظر عمّا لهذا السؤال من طابَع مركزي، هو : هل من الصواب أن تُعطى صفة القومية اليهودية لليهود المندمجين الذين لا ينظرون إلى أنفسهم بوصفهم يهوداً؟

في زمن الثورة، عندما وصل اليهود إلى السلطة، كان المفكرون القوميون اليهود الذين انسلخوا عن الجماعة اليهودية، يؤكدون أن الثوار لم يكونوا يهوداً "حقيقيين"، بل وكانوا خونة للشعب اليهودي. غير أن ذلك لم يكن إلا مجرد تدبير دفاعي في وجه الاتهاما ت التي تحمّل اليهود المسؤولية عن الإرهاب الأحمر . وقد كان **سيمون دوبنوف** يَعُدُّ هذه التفاصيل والتقسيمات غير جوهرية ، مقارنة بكراهية السكان . ففي عام 1918 كانت اللجنة المركزية البلشفية في قصر ***سمولني*** تسمَّى في أوساط الشعب بـ "الحكومة اليهودية". وبمرارة سجل **دوبنوف** هذه "المزحة" في يومياته، مدركاً كل الإدراك أنها تتطابق مع الحقيقة تمام التطابق...

لا يستطيع المرء أن ينفصل عن شعبه لمجرد "رغبة"، أو "قرار" منه. فهو يستطيع النظر إلى نفسه بوصفه غير يهودي، والبقاءَ مع ذلك منتمياً إلى الموروث اليهودي بكل ما يرتبط به ذلك الموروث...

رداً على سؤال حول يهوديته كان **تروتسكي** يقول: أنا اشتراكي ديمقراطي، ولا شيء أكثر ... إن اليهود الذين كانوا يتخلون عن اليهودية، كما **تروتسكي،** لم يشاؤوا أن يفهموا أن نمط "لايهوديتهم" كان نمطاً يهودياً بامتياز ... يقول **إسحق دويتشر :** "إن المنشق اليهودي الذ ي يقطع مع الجماعة اليهودية ينتمي إلى موروث يهودي معين تماماً".

إن بعض الأفكار التي يُنظر إليها أوّل الأمر في شكلها الديني (كأفكار دينية) قد يتشرَّبها الشعب على مدى كثير من الأجيال، ثم تظهر عند الأحفاد الذين قطعوا مع الدين، ولكنها تتخذ صيغة أخرى. وعلى سبيل المثال، يورد **كوبرين** في رسالة إلى **باتوشكوف ،** أشرنا إليها في الفصل العاشر، "معجماً" لترجمة إيديولوجيا واحدة من لغة *العهد القديم* إلى لغة اليهود المعاصرين المتحررين. فهو يقول إن المفهوم الأساسي عند اليهود التقدميين في عصره لا يعدو كونه ترجمة للأركان الأساسية التي يقوم عليها الموروث اليهودي الأصولي إلى لغة أخرى ، ويختصرها في الجدول التالي:

وجهة النظر المعاصرة	وجهة النظر التقليدية
أ – *الشعب اليهودي هو أكثر الشعوب موهبة، ودمه أكثر الدماء أر*ستقراطية.	أ– *الشعب اليهودي شعب الله* "المختار"، ولا يجوز أن يختلط بأي شعب آخر.
ب– الظروف التاريخية حرمته من كيان الدولة والأرض، وجعلته عُرضة للاضطهاد.	ب– ولكن الله سخط عليه بسبب خطاياه، وأرسل له المحن وسط قبائل غريبة.
ج– لم يتمكن الاضطهاد مهما كان من كسر اليهود، وكل ما هو الأحسن إنما صنعه وسيصنعه اليهود.	ج– ولكن الله نفسه من سي رسل المخلِّص المنتظر، ويجعل اليهود حاكمين.

وتقول **س. مارغولينا:**

"اليهوديُ ليس بـِدعةً خيالية. إن وعي الذات عنده يبتدئ من إحساسه "بلختلافه" عمّ ن سواه. وهذا عائد بالدرجة الأولى إلى تقاليد ه"الاصطفائية" التي تحولت، بعد أن فقدت مضمونها الديني، إلى شعور بالتفوق. أي أن اليهودي يشعر نفسه مغايراً، لا بسبب تجربته في الا حتكاك مع غير اليهود وحسب، بل و عبر الطموح الذي تورثه إياه الثقافة لأن "يكون مختلفاً، ومتميزاً بشيء ما".

أو لنأخذ ما يقوله **زينوفييف** في كتابه *"تاريخ الحزب الشيوعي الروسي (البلشفي)":*

" إنهم ("الاقتصاديون") يقولون: "وهل ترون أ ن الطبقة العاملة هي المخلِّ ص المنتظر"؟ وعلى هذا أجبنا، ونجيب: إن المخلِّص المنتظَر، والخلاصية، ليسا من لغتنا. فنحن لا نحب مثل هذه الكلمات. ولكننا نتقبلّ ما تتضمَّن من مفهوم. نعم، إن الطبقة العاملة بمعنى م علوم هي المخلِّص المنتظَر، ودورها خلاصي، إذ إنها الطبقة التي ستحرر العالم بأسره".

هكذا، فـإن الأفكار الدينية، إذا ما تـوجم ت إلى لغة أخرى، قد تُ لهِ م وتوحِّ د أناساً يَعُدُّون أنفسهم ملحدين وماديين.

ويؤكد **روزانوف** أن الجماعة اليهودية تشكل كياناً أكثر تماسكاً من الجماعة القومية، أو الدينية:

"إنهم في جوهر الأمر *أقرباء* فيما بينهم".

ويصفهم **غيرشينزون** على هذا النحو، فيقول:

"14مليوناً من البشر الذين يشعرون أنهم عائلةً واحدةً".

كما أن الحاخام **شتاينزلتس**، في مقالته التي استعرنا عنوانها لهذه الفقرة، يقترح وجهة نظره الخاصة، فيقول: إن اليهود هم *"آل يعقوب"*، أو *"بنو إسرائيل"*، إنهم عائلة، أي كياناً لا يمكن الانسحابُ منه، حتى في حال إشهار القطيعة معه على الملأ.

وها هو **ف. توبوروف** أيضاً يصف، كما لو "من الداخل"، ما لهذه "المتَّحد" من طابع غير بسيط، فيقول:

"المظهر الخارجي، والكنية، وعلاقات القربى، والسمات العسيرة على الالتقاط التي تظل رغم ذلك من سمات السلوك القومي، ذلك ما يميز اليهودَ الإثنيين، وأنصافَ اليهود، وأحياناً أرباعَ اليهود (يا للدم القوي !)؛ ومن العلامات الفارقة يجب أن نشير حتماً إلى حساسية ردِّ الفعل على مجرد طرح المسأ لة اليهودية، الحساسية التي

كثيراً ما يتصف بها مَن هم مِن أصل غير يهودي، أي متزوجين من يهوديات ، أو متزوجات من يهود، ولا سيَّما إذا كان لهم أولاد".

بالطبع، كثيراً ما اتحد البشر عبر التاريخ في دول، وقبائلَ ، وأحزاب، واتحادات شتى . غير أنه، منذ أيام الإغريق، كان المعاصرون (وضمِناً مَن هم مِن أصل يهودي) ينظرون إلى الجماعة اليهودية كشيء متميز عن غيره من الظواهر المماثلة. سأورد هنا شيئاً شبيهاً واحداً. فللنحلة بحد ذاتها كائن بدائي التنظيم تماماً، من حيث جملة مؤشرات، فهي ، مثلاً، لا تستطيع الاحتفاظ بدرجة حرارة مختلفة عن درجة حرارة المحيط الذي تكون فيه. ولكنّ خلية النحل تتمتع بالعديد من صفات الكائن الأرقى منها تنظيماً بكثير . إذ تحتفظ الخلية، مثلاً، بدرجة حرارة دائمة ، بحدود 33– 34 درجة مئوية (في ذاك الجزء من الخلية الذي تكون فيه البيوض واليرقات في مرحلة الحضانة). والنحلات تتبادل الغذاء دائماً (عندما أ عطيَ شرابٌ مشعّ لأقل من 0،1 بالمئة سرعان ما صار 70 بالمئة من النحل مشعاً). أي أن في ا لخلية نظيراً للاستقلاب . وكون النحل يرفرف بأجنحته طول الوقت يخلق تيار هواء يشبه التنفس. وأخيراً، فإن الخلية "تتكاثر" بطريقة جنسية : ذلك أن اليعاسيب والملكات، من حيث عدد الكروموزومات (الصبغيات)، تشبه الخلايا الجنسية عند الذكر والأنثى. وبسبب وجود عدد من هذه الصفات، يرى بعض علماء الحشرات أن نا لا نستطيع فهم أداء الخلية وظائفَها ما لم ننظر إليها بوصفها جسماً *خارقاً* (ما فوق عضوية) تتألّف خلاياه من النحل (كل نحلة هي خلية في هذا الجسم). ولكنْ، علينا أن نشير إلى أننا لا نصادف هذا الشكل من أشكال تنظيم الحياة إلا بين الحيوانات الدنيا، أمَّا ما هو أكثر رقيّاً من أشكال الحياة فمرتبط بتطور مختلف جوانب الفرد، والعلاقات الفردية.

وقد تمثّل هذا الجسم الخارق في شكل الجماعة اليهودية التي تطلّب ظهورُها أكثر من ألفـَي سنة، وتضمَّن وضْعَ نظرية الشعب المختار الدينية، وإيديولوجيا الدين اليهودي الكلاسيكية ، والتنظيمِ القهالي، وعدداً كبيراً من المنظمات اليهودية (كأخوية *"بناي بريت"*) وغيرها من الجمعيات اليهودية "المغلقة" في *الغرب* المعاصر.

على أننا نصادف في التاريخ جماعات (متّحِدات) بشريةً أخرى تشبه أيضاً هذه ا لعضوية الخارقة . والمثال الساطع هو البلشفية ال تي تعتمد ع لى "حزب من طراز جديد ". ذلك أن البلشفية تحديداً هي التي قدّمت لنا الوصف الأبلغ لهذه الظاهرة "من الداخل"، متمثِّلاً في شهادة قائد بلشفي هو **بياتاكوف**، أي في ما رواه (في أثناء رحلته إلى الخارج) لشخص كان من قبلُ رفيقاً له في الحزب . وقد سُجل هذا الحديث أوَّلاً، ثم نُشر هناك . وفيه يشدِّد **بياتاكوف** تحديداً على تخلّي المرء عن فرديته من أجل الانصهار في الحزب ، وعلى التضحية "بالكرامة، وعزة النفس، وغير ذلك". بل ويصرح بأن الحزب إذا ما رأى لون الشيء أسوَدَ، ورآه هو أبيضَ على وجه اليقين، فيجب أن يرغِم نفسه أيضاً على أن يراه كما يراه الحزب . وهو يصفُ شدَّة مشقّة هذا "الإكراه الذي يمارَس على الذات". "فما التخلي عن الحياة، وإطلاق النار على النفس من مسدس، إلا ترّهات تماماً" مقارنة بذلك. غير أن ما يعوِّ ض عن ذ لك كلِّه هو شعور غير عادي "بالشرف والسعادة" جرّاءَ كونك في صفوف حزب "يجعل المستحيل ممكناً". (أوردتُ كاملَ نصِّ ما وصلنا من حديث **بياتاكوف** هذا في كتابي عن الاشتراكية). على أن هذا التوازي (التشابه بين اليهود والشيوعيين .– م) ليس اعتباطاً، ما دام الحديث يدور عن ظاهرتين تربط بينهما علاقات قربى روحية . وإذا كان **شاحاك** ينظر إلى التجمعات اليهودية التي بُنيَت في القرون الوسطى ، على

طريقة القهالات، على أنها "من أشدّ التجمعات انغلاقاً وتوتاليتارية (شمولية) في تاريخ البشرية كله"، فلا عجبَ في أن تكون التقاليد الروحية التي تشكلت هناك أمراً لا بديل له من أجل إقامة مجتمع توتاليتاري في القرن العشرين. وإذا كتب **غيرشينزون** يقول إن الإرادة الشعبية في الجماعة اليهودية "كان يجب أن تغذي الإرادة الشخصية لكل فرد"، فإن ذلك يذكِّرنا بقول **بياتاكوف**: إن "الشيوعي البلشفي العقائدي" الذي يكون الشيءُ أبيضَ اللون في نظره، سيراه أسوَدَ اللون، إذا ما كان ذلك هو قرار الحزب.

وتحديداً بفضل ما ل هذا "الجسم الخارق" من صفات تكوَّنت على مدى بضعة آلاف من السنين، تكون مساهمة اليهود في إنشاء "جسمٍ خارقٍ" جديدٍ مساهمةً فعالةً على نحو خاص. وهذا ما عشناه في الثورة الروسية عام 1917 والعقود التي تلتها. وعندما قلَّ، لأسباب طبيعية جداً، عدد اليهود ضمن الشريحة القائدة في المجتمع (مقارنة بالعدد السابق وحسب، مع بقائه أعلى من نسبتهم إلى مجموع السكان)، فقد انهارت السلطة الشيوعية أيضاً. فأُخضِعت *روسيا* لنمط آخر هو الرأسمالية المضاربة، وكان النفوذ اليهودي عند هذا المنعطف هو الأقوى أيضاً.

2. "مصائر الشعب اليهودي"

يقول **روزانوف** الذي فكَّر كثيراً بدور اليهود في حياتنا:

"ليس هناك أي شعب آخر (غير اليهود. – م) أرغب في أن أقول عنه إنه صاحب "رسالة"، سواء أكانت تلك الرسالة خيراً أم شراً، نوراً أم ظلاماً. وتكمن هذه الحقيقة في شيء من التخصص، في وجود "ملكات استثنائية"، شيءٍ من "نقطة علام" سواء في الواقع التاريخي، أو في السيكولوجيا، أو في "تكوين العقل".

هل يمكن أن نستخلص من التاريخ المعروف لنشوء الجماعة اليهودية فيمَ تتمثّل هذه "الرسالة"؟ فذلك، في الحقيقة، معادل للإجابة على سؤال: ما هو "مغزى"، أو "هدف" تاريخ الشعب اليهودي؟ نستطيع حالاً أن نطرح هذه الأسئلة جانباً، بوصفها "ضبابية للغاية"، و"عديمة المعنى". على أن الموسيقار العظيم **شوستاكوفيتش** كتب بخصوص هذه المسألة تحديداً، وهي المسألة التي نذر لها حياته، فقال: "عندما نقول إن المغزى موجود في الموسيقى، يبدو لكثيرين أن هذا القول غير مألوف... غير أنه ما من شكّ في أن لهذه الأسئلة الحقَّ بالوجود، وذلك بصرف النظر عن سذاجتها، بل وفظاظتها". وعندئذ، ألا ينطبق هذا الحكم نفسه على الأسئلة التي تخصّ مغزى التاريخ أيضاً"؟ وهنا يكون من العسير ألا نوافق **روزانوف** على أنه إذا كان هناك من شعب يشهد التاريخُ كلُّه على وجاهة طرح هذا السؤال بصدده، فهو الشعب اليهودي قبل أي شعب آخر. أمّا كون هذه الأسئلة صعبة إلى أقصى الدرجات، فذلك أمر آخر. وكان **دوستويفسكي** قد حذَّر من أن "الأزمان والآجال لم تحِن بعدُ" للإجابة على تلك الأسئلة. ومع ذلك، فقد كُتب الكثيرُ عن هذا الموضوع. ويبيِّن تعدُّد الآراء بحدّ ذاته في هذا الخصوص أنه لا وجود لجواب مختصر ونهائي. على أن كتاب **م. س. غيرشينزون** "*مصائر الشعب اليهودي*" هو، من بين كل ما اطّلعتُ عليه، الكتاب الوحيد الذي خلق لديّ الانطباع الأعمق. وقد استعرت اسم هذا الكتاب وجعلته عنواناً لهذه الفقرة. وكان أوّل اكتشاف صعقني هو أن **غيرشينزون**، الكاتب في مجلة "*فيخي*" (معالم)، بل ومؤسسَها، والخبير المرهَف في ميدان الأدب الروسي، والرجل الذي كان يبدو لي مثال اليهودي

المتحرِّر تماماً (فقد كتب غير مرّة : "نحن، المثقفين الروس ...")، يفاجئني بهذا القدْر من الاهتمام الشغوف بمصير الشعب اليهودي! زِد على ذلك أن الكتاب مشبع بمشاعرَ قويةٍ، وأفكارٍعميقة تسعى إلى الإقناع. ومقالته في *"فيخي"*، مثلاً، تترك انطباعاً أخفَّ بكثير. إذ إنه، على ما يبدو، يشعر بتعذّر حلّ هذه المسألة بما ألفناه من أساليب التفكير العقلاني الذي يستند إلى العوامل التاريخية ، أو السوسيولوجية. ولذلك نراه أمْيل إلى الاستنجاد بالصور والمشاعر.

ومن دواعي الأسف أن حجم كتابنا هذا لا يسمح لنا بأن نورد أكثر من مقتطفات من مقالة **غيرشِنزون**. انظروا كيف يصف المؤلف مجمل هذه المسار التطوري:

"مغزى فكريٌّ عميق، في أقصى درجات التعقيد، وخطّةٌ شديدة الوضوح؛ والخطوط الأساسية على قدْر من البروز يجعل الطفل قادراً على تتبُّعها؛ غير أن كلاً من هذه الخطوط تمليه اعتباراتٌ بالغة الدقة، ويساعد على تحقيق غايات الكل المتنوعة : كذلك هي إبداعات الفنان العبقري، و على هذا المنوال كان روح الشعب اليهودي يبدع تاريخه الظاهر".

وبمزيد من التفصيل، ومرحلةً إثر مرحلة:

"إذا ما تمعّنّا عن قرب بأوّل إرهاصات الجماعة اليهودية تكشَّفتْ لنا صفاتٌ غريبة ... فقد ثبت في ذاكرة الشعب اليهودي على الدوام شيء واحد من طفولته، هو أن دينه وشريعته لم يتشكلا بطريقة عاديةٍ، ولا في ظلّ عيشٍ مستقر متجذّر، بل في الترحال، في الحركة.

كان ذلك إرادة مشبوبة، لجوجة... فبعد أن شكّلت شعباً متينَ البنيان، قوامُه حبيبات رمل، سارعت فشقّته من الداخل، وظلّت قروناً تُمعِن في تفتيته أجزاء متزايدة الصغر إلى أن جعلته محضَ غبار. ولكنَّ الذرات الجديدة كان عليها أن تكون ذرات نوعية، تختلف عن الذرات الأولى بأن إرادة الشعب كان يجب أن تكون فعّالة في كل ذرة منها. وكان يجب أن تنفذَ إلى الإرادة الشخصية لدى كل فرد ، فتجعله، وهو يحقق رغباته الأنانية، يحقق أيضاً أهدافها عبر طبيعة تلك الرغبات، وعبر طريقة تحقيقها.

لقد كان التيه ضرورياً لروح الشعب، فقد أرادت تلك الروح أن تنفصل عن الأرض، وأن تقتلع جذورها.

أيام **عزرا ونحميا**... صارت الجماعة اليهودية شبيهة بجسمٍ صلب واحد، لا بالمعنى الجسدي، وإنما بالمعنى الروحي، لأن ذراته جميعاً كانت الآن مشبعة بمشيئة واحدة.

إن الكارثة التي أنزلت بالمملكة اليهودية ضربة قاضية عام 70 م. لم تكن حدثاً خارجياً، بل كانت محض إرادة الجماعة اليهودية، تلك الإرادة التي كانت راضية وحكيمة في استخدام قواها الروحية حين أخرجتها إلى العالم المحسوس في الأجل الذي رأته مناسباً.

ظل العنصر اليهودي في العالم يتعرض لعمليات غليٍ وتقطيرٍ مدة تزيد على ألف عام، إلى أن أصبح جاهزاً تماماً، نبيذاً نقياً هو الأقوى (...). وعلى امتداد القرون اللاحقة وجد مراراً أن عليه أن يزيد من تعزيز الأواصر وشدِّ الأحزمة ، لكي لا يتفتت العقل اليهودي بين البشر. هكذا وُضِعتِ *المشناه* في القرن الثاني ، و*التلمود* في القرن الخامس، وهكذا ظهرت *الحاخامية* ونظام *القهال*.

وعموماً، فقد تحقق الهدف: ليس لليهود مدينة على الأرض.

وخلال ألفيَ عام تمكَّن اليهود من كسر أقسى الأغلال التي ترتبط الإنسان بالأرض.

وأعتقد أنه لهذا السبب صار الشعب اليهودي شعب المهن المتنقِّلة، شعب الحِرَف، والتجارة، والتبادل. إن روح الشعب تحرِّم على اليهودي أن يشتغل بالزراعة، وذلك لأن الإنسان إذا ما انغمس بالأرض كان من أسهل الأمور عليه أن يلتصق بالمكان، ويتمسك بشكل الحياة المستقر.

إن 14مليوناً من البشر الذين يشعرون بأنهم عائلة واحدة قد تفرّقوا في 70 بلداً؛ إنهم شعب له ثقافته، ثم تشتت داخلياً بين عشرين ثقافة مختلفة؛ شعبٌ نسيَ لغته الأم، ويتكلم بلغات غريبة كثيرة؛ شعبٌ حرباءُ، شعبٌ تاجرٌ، معزولٌ عن الطبيعة، أضعفته حياة المدن".

كما ويُعمِل المؤلف فكره بوجهة هذا التطور، إذاً وبهدفه، بمعنى ما. فيؤكد أنه تطورٌ نزاعي، ولا يخلو من آلام:

"لم تكن الجماعة اليهودية شيئاً تافهاً بالنسبة للعالم طيلة هذه القرون العشرين. إذ كانت الشعوب تتحرّق وهي تتابعها باهتمام، وكلّما أطالت النظر إليها ازدادت أنظارها اتقاداً بالخوف والكراهية. فثمة حقيقة خالدة ما، في العمل الذي يقوم به اليهودي، ولكنها حقيقة مرعبة.

كان العالم يظن أنه يعاقب اليهود، بينما كان في حقيقة الأمر يخدمهم، مثلما يخدم أي إرادة.

ولولا الدِّين، لولا *التوراة* ووعيُ الشعب ما يوحّده، لما عَبَرَ هذه الآلام مرصوصَ البنيان. إن آخر الثوابت يتمثل في رؤية اليهودي المؤمن بأن *التوراة* لا بديل لها، وأن الجماعة اليهودية عصية على الانحلال؛ أما بالنسبة لليهودي غير المؤمن، فيتمثل في الشق الثاني على الأقل.

هل أقول لكم نبوأتي؟ ولكن الوقائع بحد ذاتها ناطقة مثل كتاب مفتوح. أرى أن إرادة الشعب اليهودي الخفيةَ ماضيةٌ باتجاه تدمير هذا الحصن الأخير أيضاً...

يخيّل إلي أن الجماعة اليهودية تلج الآن المرحلة الأخيرة من طريقها.

نستطيع الآن أن نتنبّأ واثقين بأن الإنسان في الجماعة اليهودية سيصبح فقيرَ الروح؛ أليس هذا هو الهدف الذي تسعى إليه البشرية جمعاء.

إنهم سيُتخَمون بطعامٍ لم يذقه العالم من قبل، ذلك أن القيم الدنيوية كلها مائدةُ مأكولات صناعية زائفة".

وفي كتاب **غيرشينزون** الذي يميل ميلاً قوياً باتجاه الصوفية والغيبيات، نستطيع إبراز بضعة مواقف محددة، يمكن مقارنتها بالمادة التاريخية التي أوردناها أعلاه، بل وبوقائع الحياة المعاصرة.

1) العمل بلا كلل على مدى ثلاثة آلاف عام من أجل خلق تكاتف الجماعة اليهودية، وإخضاعها "لإرادة واحدة"، كـ "الغلي والتقطير".

2) وكذلك السير في اتجاه واحد، وهو ما يُعرَف بمصطلحات "الانفصال عن الأرض"، "التخلي عن الجذور"، و"ليس للجماعة اليهودية مدينة على الأرض".

3) استمرار الحفاظ على الوحدة عن طريق الدين (*التوراة، الهالاخاه*) والشعور بالذات القومية حتى في الظروف البالغة القسوة.

4) التنبؤ بانهيار هذه العلاقات أيضاً . وللوهلة الأولى تبدو هذه الرؤية متناقضة، فماذا تعني الجماعة اليهودية إذا ما تخلت عن مبدئيها المشتركَين هذين، أي الدين والأمة؟ إن **رادزيخوفسكي** ، على سبيل المثال ، يشير إلى وجود حوالي 600 ألف يهودي في *روسيا* حسب بطاقة الهوية، وحوالي ثلاثة ملايين "ضمن المجال اليهودي". على أن عدد الزيجات المختلطة بين اليهود في تزايد ، وهو يربو الآن على نصف مجمل الزيجات عندهم. أليس من المحتمل ، إذَن، أن يكون هذا تحقيقاً لحلم أنصار فكرة الاندماج القائلة بأن "يذوب" اليهود في الروس؟ إلا أن **غيرشينزون** يفهم المسألة على نحو آخر:

"عندما تنتش البذرة ينشقّ قشرها".

ويكتب قائلاً:

"من هو اليهودي؟ إنه مَن تحرِّكه قوة اليهود الشعبية...

فالإرادة القومية التي تحرِّكه هي التي توجِّه خطواته إلى الطريق المطلوب".

يبدو أنه قد تكونت في العالم كله شريحة مؤلفة من يهود أ صوليين، ومن يهود غير متدينين، أي أوّلاً: ممن "اختلطت دماؤهم بدم يهودي "(حسب تعبير **لينين**)، ومن أعضاء أُ سَرِهم؛ وثانياً : ممن يمتّون، بهذا الشكل أو ذاك، بصِلة إلى الجماعة اليهودية، على غرار التصاق الناس عموماً بالسلطة أياً كانت.

فما الذي يوحِّ د كل هذه الشريحة ؟ يشير **شاحاك** إلى مركز تنظيمي هو اليهود الأصوليون ، ومقرُّهم في *إسرائيل* ، والمنظمات القومية اليهودية في ال *دياسبورا* (أي في شتّى أنحاء العالم). ويؤكد أن *إسرائيل* تقع تحت سيطرة الحاخام ات، وأن سياستها تقرِّ رها، كما يقول "الإيديولوجيا اليهودية " أكثر مما تقررها مص الح البلاد الجيوسياسية (وإن كانت مصالح إمبريالية). ولكنه يضيف:

"وفضلاً عن تأثيرها على سياسة *إسرائيل* ، كما يمكن الاعتقاد، فإن "الإيديولوجيا اليهودية " تؤثر أيضاً على مجموعات معتبرة من يهود الشتات (ال*دياسبورا*)، إن لم يكن على معظمهم".

على أن هذا التأثير، ولا سيما في *الولايات المتحدة الأمريكية* ، كما يقول، يتحقق عبر منظمات يهودية من النمط "المغلق"، فلا تقبل في عضويتها أشخاصاً من غير اليهود . ولمّا كنا نعرف كم يتقن اليهود تلقين *الآخرين* وجهات نظرهم ، وإصابتهم بعدوى المزاج اليهودي ، يمكننا أن نتصور كم هو كبير تأثير الي هودية الراديكالية المنظمة على اليهود الآخرين، وأعضاء أسرهم، والمقربين منهم . ذلك أن *إسرائيل* تقوم، على سبيل المثال، بأعمال عدوانية إرهابية ضد العرب تبعث فيهم أشدّ الكراهية تجاهها . ثم يخوِّفون يهود ال *دياسبورا* ، فيهدِّدونهم بأنهم إذا لم يدعموا سياسة إسرائيل الآن، فإن العرب هناك سيذبحون اليهود كلّهم، بل وربّما تبدأ أعمال الترويع ضد اليهود في العالم بأسره. وإني لأذكر جيداً كيف انتشرت عندنا في البلاد عدة مرات قبل 12عاماً موجاتٌ من الرعب قريبةٌ من أعمال الترويع . ولئن كان ذلك المسلسل، على ما يبدو، تدبيراً مفتعلاً ك اذباً، فلَغالِبُ الظنِّ أن هستيريا الرعب التي أثيرت كانت حقيقة.

ذلك يعني، على ما يبدو، أن المسألةَ مسألةُ *سلطة* (وهي في أيامنا سلطةٌ تشمل العالم كله تقريباً) تمتلكها فئة معينة قد لا يكون فيها اليهود (كيفما فهمنا هذه الكلمة) هم الأغلبية، غير أن مشاركتهم ضرورية من أجل وحدة هذه الفئة كلها ، وضمان قدرتها على الفعل . وهذا ما يحس به إحساساً بكل هذا الجلاء حتى شخص مثل

غيرشينزون ، وهو المثقفث الروسي، الضليع بالأدب الروسي، والمساهم في مجلة *"فيخي"* بل ومؤسسها ، كما أنه، وفقاً لمؤشرات كثيرة، ليس متديناً، وطبيعي إذاً أنه غير مرتبط بأي قهال، يقول:

"إن العنصر اليهودي غير قابل للهلاك، ولا ينحلُّ بأية تفاعلات . قد يذوب الشعب اليهودي في العالم فلا يبقى منه أثر، وأعتقد أن هذا ما سيكون، ولكنّ ذلك لن يزيد روح الجماعة اليهودية إلا رسوخاً".

وأخيراً، كيف علينا أن نفهم نزعة "الانفصال عن الأرض"، "الانخلاع من الجذور "، تلك النزعة التي يشدد عليها **غيرشينزون** باستمرار؟ تبدو هذه الكلمات بلاغة عديمة المعنى (بينما تبدو في مقالته حجةً في الصراع ضد الصهيونية الذي تعيره هذه المقالة قدْراً كبيراً من الاهتمام). إلا أن هذه الكلمات تتطابق مع النزعة التي حركت *العالم الغربي* على مدى القرون الأخيرة . فهي تعني إقامةُ ما يسمَّى بـ "الحضارة التكنولوجية" التي تبتدئ من تدمير طبقة الفلاحين ، كركيزة أساسية للحياة، و تبني حياة أكثر اعتماداً على التقنية، ولذلك تعرَّف أحياناً بأنها محاولة لتدمير الطبيعة ، والاستعاضةِ عنها بطبيعة مصطنعة ، أي بتقنية (ولكن الإنسان جزء من الطبيعة !). وهذا ما يجري الترويج له الآن على أنه إيديولوجيا "المجتمع ما بعد الصناعي "، وتتجسد هذه الإيديولوجيا عبر توظيف مبالغ من الأموال في مضاربات البورصة تفوق بعشرات المرات ما يوظف في الاقتصاد الفعلي. على أن من يقوم بتطبيق هذه السياسة بإصرار هو "نظام الاحتياط الفدرالي" الذي يشرف على إصدار الدولارات الأميركية، وهو النظام الذي ترأّسه لمدة طويلة كل من **بول فولكر** ، **وآلان هيرشمان**. إن أكبر الثروات التي تُجمَع الآن تأتي إمّا من مضاربات البورصة ، وإمّا من إنتاج مواد "الواقع الافتراضي". بل وحتى ثورتنا عام 1917 رفعت أيضاً شعار "الأممية"، أي أنها قطعت مع تلك "المأكولات الصناعية الزائفة"، كالوطن والوطنية. وفي ذلك الوقت بالذات كانوا يناضلون ضد "الأسرة البورجوازية". بل إن "الثورة الجنسية" التي أرغت وأزبدت في الغرب خلال الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين إنما وضعت نُصْبَ عينيها الهدف نفسه. وقد كان تعاطي المخدِّرات يُعَدُّ طريقاً نحو القضاء على "الفردية البورجوازية القمعية". على أن **جاك أتالي** يتنبأ، في كتابٍ ألّفه قبل عشر سنوات، بأن مصير البشرية في القرن الحادي والعشرين سيقرره جيلٌ جديدٌ من المنتصرين والمهزومين، إذ يقول:

"بعد القضاء على كل "رباط" قومي، وتمزيقِ وشائج الأسرة، والاستعاضة عن كل ذلك بمعالِجات إلكترونية بالغة الدقة... سيتحول المستهلكون أبناء المناطق ذات الامتيازات في العالم إلى "بدوٍ أثرياء".

ستظهر آلافٌ مؤلفة من الرحَّل الفقراء. وسيضرِب هؤلاء القراصنةُ الذين حل بهم الإملاق في أرجاء الكرة الأرضية بحثاً عن الطعام والمأوى.

إن شعور التعلق بالمكان الذي أنجب كل الثقافات، سينقلب إلى مجرَّد ذكرى باهتة يرثى لها".

وحصيلةُ ذلك: "إن الإنسان، وقد زُرِعت فيه أعضاء اصطناعية، سيغدو هو نفسه كائناً اصطناعياً، وسيكون بالإمكان شراؤه أو بيعُه كأي مادة أو سلعة أخرى..

وهو على هذا النحو سوف ينضمّ إلى ما يعود في نهاية المطاف إلى طقس الافتراس (أَكْل لحم البشر) الصناعي".

كان بالإمكان ألا نلتفت إلى ذلك كله، بوصفه بلاغة ضئيلة الشأن، لولا أن قائله، **جاك أتالي**، شخص جدِّي (من يهود الجزائر، وكان المستشار الاقتصادي للرئيس الفرنسي **ميتيران**، ثم أوَّلَ رئيس لصندوق النقد الدولي). إذ يبدو أنه يودّ أن يوصل إلينا بعضاً من نزعات النخبة الحاكمة في العالم اليوم. ذلك أن ثمة تطابقاً لافتاً حتى في المصطلحات بين **غيرشينزون** الذي يتحدث عن الدين اليهودي والشرائع، فيقول إنها "لم تتشكل بالطريقة المألوفة، ليس في تجذر وطيد للحياة الحضرية، وإنما في الترحال، في الحركة"، وبين **أتالي** الذي يتحدث عن "حضارة الرحَّل" المقبلة، وعن أن المجتمعات التي تعيش النمط الحضري في الحياة ما هي إلا مرحلة انتقالية بين مرحلتين من البداوة".

إن الإقرار بصحة رأي **غيرشينزون** القائل إن نزعة "الانخلاع من الجذور"، "الانفصال عن الأرض"، تتخلل تاريخ اليهود كله، إنما يعني أن اليهود هنا، على هذا الاتجاه، كانوا يسيرون في طليعة البشرية خلال القرون الأخيرة. على أن هذه الفكرة سبق أن صاغها **غيرشينزون** منذ أن كانت مقدماتُ "المجتمع ما بعد الصناعي" ما تزال في بداية تشكلها.

يؤكد **غيرشينزون** أن اليهود، وهم يطورون هذه النزعة، إنما يساعدون بذلك في تحقيق "الهدف الذي تصبو إليه البشرية جمعاء". إنه لمن الصعب التأكد مما إذا كانت البشرية كلها تسعى حقاً إلى بلوغ ذلك الهدف، إلا أن هذا التيار موجود، ما في ذلك شك. ويفسر **غيرشينزون** هذه الحال على نحو أكثر تحديداً ولو قليلاً، بقوله إن "القيم الدنيوية جميعاً" ستغدو في النتيجة "مثل المأكولات الصناعية الزائفة". وهنا، ربما، يكمن سبب جميع النزاعات الممتدة عبر التاريخ كله بين اليهود وغيرهم من الشعوب. فالشعوب الأخرى ليست مجرَّد متمسكةٍ على نحوٍ محافظ بـ "قيمها الدنيوية"، بل وهي تشعر أن فقدان هذه القيم يعادل هلاك الشعب. إن الدين، والتقاليد القومية، والأخلاق، والأُسرة، هو ما يتألف منه "الجزء غير المرئي" من جسم الشعب، وهو الجزء الذي بدونه يهلك جسمُه المرئي. إن جميع الشعوب "العادية" التي وُجِدت حتى الآن (ربما باستثناء اليهود) غير قادرة على الشبع من هذا الطعام الذي لم يذقْه العالم بعدُ"، حسب تعبير **غيرشينزون**. ذلك أن القيم الدنيوية لدى هذه الشعوب ليست "مأكولات صناعية زائفة"، وإنما هي الشرط الذي لن يكون بمقدورها أن تعيش بدونه.

لقد رأينا، وفي الوقت نفسه، مدى القوة الهائلة التي يمتلكها اليهود، وبأية طاقة خارقة يستخدمون هذه القوة لزرع المبادئ التي يسعون لإدخالها في روع باقي البشرية، سواء أكان ذلك الثورة العالمية، أو سيادة "القيم العالمية" في "عالم جديد" موحَّدِ المقاييس.

كنا قد أوردنا في الفصل الثاني من هذا الكتاب قول **غريتس** بأن رسالة اليهود هي أن يصبحوا معلِّمي البشرية جمعاء. وقد جرى التعبير عن وجهة النظر هذه مراراً. وقبل مدة قصيرة صاغها شاعر يهودي بخصوص الموقف من *روسيا*، فقال:

إننا في المكان الذي لم يدعُنا إليه أحد

ولكننا في الليل المدلهمِّ قبل الفجر

نحن ربيبو *روسيا* العمياء

ونحن من يقودُها في الطريق.

لعل هذا المبدأ هو الذي كان "القاسم المشترك" بين جميع النزاعات الشديدة الاختلاف التي تورّط فيها اليهود خلال تاريخهم. أما الاتهامات بالرِّبا الفاحش، وصناعةِ الخمور، وحتى بالسعي لتولِّي قيادة العمل الثوري، أو بالعمل في *لجنة الطوارئ* ، *والإدارة السياسية العامة*، *ومفوضية الشعب للشؤون الداخلية* (كلها تسميات لأجهزة الاسخبارات السوفيتية. – م)، فليست إلا تجليات معينة لهذا التصادم ما بين العقائد.

3 . مسألة السلطة مرة أخرى

إذا ما تصفـَّحنا الفصول السابقة مرة أخرى، ولو على وجه السرعة، فـإن أول ما سوف يلفت أنظارنا ، كما أعتقد، هو ظاهرةٌ واحدةٌ قوامها تعاظم النفوذ اليهودي في العالم كله تعاظماً مذهلاً . يقول الأميركي ***ديوك*** إن الأوساط الوطنية في *الولايات المتحدة* تطلق على السلطة هناك اسم *"حكومة الاحتلال الصهيونية "* . إذا كانت تلك هي الحال في *الولايات المتحدة الأمريكية*، فماذا نقول عن العالم كله الذي تفوض سلطتها عليه الآن؟ لذلك، فهيهات أن يكون بوسعنا أن نفهم الوضع في العالم المعاصر إذا ما تفادينا طرح سؤال، لعله أكثرُ الأسئلة تحريماً، وهو: هل من أسس للقول بأن لليهود سلطة على العالم الآن؟

أعتقد أنه لا يمكننا أن نجيب على هذا السؤال بـ "نعم"، أو "لا"، هكذا ببساطة . بل وهذا هو الحال بشأن معظم أسئلة الحياة. هناك عالِم رياضيات راحل كان يسخر من محاولات الحصول على جواب واحد من هذين الجوابين ردّاً على أي سؤال كان، ويقول: "وماذا لو سألكم أحد: كم لكم من العمر؟".

يخيّل إليّ أن الوضع القائم في العالم الآن قريب من الوضع الذي تناولناه في الفصل الحادي عشر ، حيث ناقشنا سؤالاً ، هو: هل حقاً كانت في *روسيا* سلطةٌ يهوديةٌ في السنوات الأولى التي أعقبت ثورة 1917؟ يتهيأ لي أن **س. سيمانوف** يعبّر عن تصورات مثيرة للاهتمام حول هذا الموضوع ، في مقالة نشرها مؤخراً . فهو يقول إن هناك قناعة منتشرة بين الفرنسيين تزعم أن كل الألمان شقر، بينما يبيّن الواقع أن نسبة الشقر بين الألمان أقلُّ من النصف . ولكنْ، مع ذلك ، فإن نسبة الشقر بين الألمان أكبر بعدة مرات مما هي عليه بين الفرنسيين . وهكذا، فإن رأي الفرنسيين الخاطئ يعكس موضوعياً ملاحظة صحيحة . ويقول **سيمانوف** إن هذه الدرجة نفسها من الصحة هي ما يتمتع بها رأيٌ يتردَّد كثيراً، مفادُه أن"السلطة السوفيتية في العقدين الأول والثاني بعد الثورة كانت سلطة يهودية ". أعتقد أن الحديث يدور في جميع هذه الحالات حول تأكيد *تقريبي* يستهين بجملة من التفاصيل. ذلك أننا نستطيع أن نتفحص المادة البعيدة في خطوطها العامة بواسطة العين المجردة، أو بواسطة المنظار، إذا كان لا بد لنا من رؤية تفاصيلها. ولعله، من وجهة النظر هذه ، لا لوم على الأميركي **ديوك** عندما يقول إن السلطة في *روسيا* بعد الثورة كانت في أيدي اليهود، فهو يكتفي بهذه الدرجة من التقريب . ولكنّ من المهم للروسي أن يعرف تاريخه بأكبر قدْر من التفاصيل، سيما وأن الفرصة الآن متاحة لتحقيق ذلك.

على أن التأكيد بأن سلطة "اليهود" على العالم قائمة الآن، هو أول اقتراب مماثل من الحقيقة، كما أظن. ذلك أن هذا التأكيد يعكس حقيقة من الحقائق الهامة ، مفادها أن اليهود يشغلون مكانة فائقة التأثير في بضعة مجالات مفصلية ذات صلة بالسلطة (كالمال، ووسائل الإعلام الجماهيري، والماكينة السياسية)، وهم قادرون

على أن يلعبوا دوراً *حاسما* عندما يقفون صفاً واحداً. غير أن هذه الرؤية التقريبية تتجاهل جملة من التفاصيل الهامة. أوّلاً: إن ما نقصده ليس سلطتهم على "العالم كله"، إذ إن *الصين* لا تخضع لهذه القوى، وكذلك *الهند*، إلى حد كبير. كما أن *روسيا* ليست خاضعة لها خضوعاً تاماً حتى الآن. وثانياً، إن اليهود لا يشغلون جميع المواقع في أي مؤسسة كانت من مؤسسات السلطة. ذلك أن النفوذ اليهودي الفعّال يتأتّى تحديداً من خلال تجلّيه في تيارات (سواء في ذلك الثورة البروليتارية العالمية، واقتصاد السوق، و"القيم العالمية") تشمل كثيرين من أبناء الشعوب الأخرى: الروس، والألمان، والأنغلوساكسون.

إننا هنا أمام شكل غير مألوف من أشكال الغلَبة أو السلطة، يختلف، مثلاً، عن سلطة العرب في مرحلة الفتوحات الإسلامية (في القرنين السابع والثامن الميلاديين). يومها كان كل شيء واضحاً. كان هناك إيديولوجيا معلنة بوضوح، هي الإسلام. وبهذا القدْر نفسه من الوضوح كان التقسيم إلى مسيطرين وخاضعين (فالجزية لا يدفعها إلا المغلوبون الذين لم يعتنقوا الإسلام). على أن هذا التقسيم كان لبعض الوقت إثنياً، إذ إن المسلمين كانوا أساساً من العرب.

يشعر كثيرون الآن أن هناك سلطة جديدة، بسطت سلطانها على جزء كبير من العالم، يسميها خصومها بـ "العولمة" ("موندياليزم"، أو "غلوباليزم")، وأنها على ارتباط بالنفوذ اليهودي المهيمن في ذلك الجزء من العالم، على غِرار ما كان عليه الأمر في *روسيا* إبّان العقود الأولى من عمر السلطة الشيوعية. وعلى نحوِ ما كان يومها أيضاً، فإن الميزة الأكثر جوهرية بالنسبة إلى السلطة الجديدة تتلخص في أن النفوذ اليهودي فيها لا يمكن اختزالُه إلى أرقام تعبّر عن الحضور اليهودي. أي إن ثمة شعوراً بالقدرة على تقديم أرقام صحيحة مذهلة، ولكن جوهر القضية ليس في هذه الأرقام. فلنفترِضْ أن هناك بنكاً عالمياً ما، وعلى رأسه شخص لا يخفى اسمُه اليهودي الصريح على أي كان. غير أن هذا الشخص ليس هو من يقرر سياسة ذلك البنك (على كل حال، ليس وحده من يقررها). إلا أن معرفة أعضاء مجلس الإدارة مسألة أكثر صعوبة بكثير، بل و إني لأسلِّم تماماً بأن اليهود قد لا يكونون هم الأغلبية فيه. ويمكن في حال الضرورة إناطةُ منصبِ الرئيس بلورد من اللوردات، ذلك أن اللوردات هم أكثر من يناسب هذا المنصب. ولا توجد الآن أية إمكانية لتقدير نسبة الأماكن التي يشغلها اليهود في أهمِّ بنى السلطة العالمية، بل و ما من ضرورة لذلك، إذ من الواضح أن مشاركة هذه الخميرة أمرٌ ضروري من أجل قيام السلطة بوظيفتها على نحوٍ فعّال. إن المسألة لا تقاس بالأعداد، إذ توجد في جسم الإنسان خمائر تُقاس مقاديرها بملايين الأجزاء من الغرام، ولكن وجودها ضروري ضرورة مطلقة لحياة الجسم.

ومن ناحية أخرى، فإن هذه السلطة بمجملها لا تعمل البتة في اتجاه تحقيق ما للكتلة الأساسية المؤلفة من 14 أو 15 مليون يهودي في العالم من مصالح إنسانية مباشرة. ويعبر إ. **شاحاك وس. مارغولينا** وغيرهما، عن مشاعر أولئك الذين ضاقوا ذرعاً بالعيش منعزلين في جماعات يهودية "مغلقة"، وبالبقاء تحت ضغطٍ دائمٍ تمارسه عليهم قيادتُهم، والمخاوفُ والمحرَّماتُ القديمة التي يجري الحفاظ عليها بطريقة مصطنعة. أجل، بل وهكذا كان واقع الحال دائماً. فلا الثوار اليهود في *روسيا*، ولا رجالات المصارف اليهود الذين زوَّدوهم بالمال فكّروا بمصير مئات آلاف اليهود الذين سيحيق بهم الخراب نتيجةَ الثورة، أو سيقتلون في غمار الفتنة، وكذلك قادةُ المنظمات اليهودية في *الولايات المتحدة الأميركية* الذين دعوا إلى حرب اقتصادية ضد *ألمانيا الهتلرية*، وأجَّجوا المشاعر

التي أفضت إلى القيام بعمليات إرهابية ضد مسؤولين رسميين ألمان ، ما يزالون حتى اليوم، على ما يبدو، يتجاهلون علاقة ذلك بما يسمّونه بـ "المحرقة" (*هولوكوست*). وأنا، على الأقل، لم أ شهد يوماً مناقشة لمشكلة المسؤولية إزاء هذا الموضوع. على أن هؤلاء كانوا يعرفون مع مَن يتعاملون . وقد كان من السه ل تماماً على "خطة **كاوفمان**" أو "خطة **مورغينتاو**" أن تكون منشوراً لإثارة روح *"زونديركوماند"* (فصائل التطهير النازية).

أذكر كيف اصطدمتُ أوّلَ مرّة، قبل قرابة ثلاثين عاماً ، بمثل هذا الموقف في مخطوطة كانت تتناقلها الأيدي، مؤلفها يهودي ذو توجه قومي فـائق، يرى أن مستقبل الشعب اليهودي يكمن في تطو ير دولة *إسرائيل* على أساس قيام أعداد متزايدة من اليهود باعتناق المسيحية. وخلال حديثه تطرّق إلى ذكر اليهود الذين قُتِلوا بسبب الاضطهاد الهتلري، وطرح السؤال التالي: ما الموقف الذي علينا اتّخاذُه حيالهم؟ وقد صعقني جوابه، إذ قال: "لقد كانوا أناساً لا يؤمل منهم شيء من أجل إقامة دولتنا الجديدة . كانوا "القشّ اليابس" الذي لا بدّ أن يحترق". يومها أخذني العجب، لأن مَن كتب هذا الكلام هو قوميٌ يهودي! غير أن آراء من هذا القبيل (وأحياناً اتهامات للقيادة الصهيونية بمثل وجهة النظر هذه) كانت، منذ ذلك الحين، تطفو على السطح، بين وقت وآخر، مثلُها في ذلك مثل مصطلح "القش اليابس" ذاته. بل إن حياة اليهود تحت سلطة *القهالات*، ومحاكم *"بيت دين"*، و*"المتعقّبين السريين"*، تتبدّى، على نحوِ ما يصفها **برافمان**، مثلاً، حياةً غيرَ سارّة بتاتاً. إذ يقول **برافمان**:

"إن *التلمود* الذي تتبني عليه أسس حياة اليهود، قسمَهم منذ القِدم إلى فئتين تفصل بينهما حدودٌ صارمة، هما الأشراف والعوام، ووضع قواعدَ خاصة تحدِّد العلاقة بينهما".

وبين هذه القواعد ما يقضي بأن "العامّي لا يؤتمَن على سرّ"، و"مسموح بأن يقطَّع كما تقطّع السمكة"، ثم إن إقامة الأشراف علاقات نسب مع العوام عن طريق الزواج تُعَدّ بمثابة نكاح البهائم. وجميع الواجبات تجاه الدولة يحدِّدها الأشراف، وتقع على عاتق العوام.

ومنذ السنوات التي أعقبت الحرب (ستينيات القرن العشرين) تتحدث الباحثة اليهودية الأصل **آنّا آريند**، في كتاب لها حول نشأة النظام الشمولي (التوتاليتاريا)، عن العلاقاتِ المتبادلة المميّزة بين اليهود والسلطة في ظل "النظام القديم" (قبل مرحلة الثورة الفرنسية) في *أوروبا*. فقد كانت تلك العلاقات قائمة، حسب رأي الباحثة، على أساس يمنح اليهود "المختارين"، أي علّيَّة الجاليات اليهودية، وضعاً امتيازياً. وقد حافظوا على هذا الوضع عن طريق الحيلولة دون تحديث الجزء الباقي من الجاليات . وترى **آريند** أن أحد أسباب المشاعر المعادية لليهود ("العداء للسامية") التي تجلَّت آخرَ المطاف في أعمال السلطات النازية (أي في "الكارثة")، إنما يعود إلى استمرار رجال المصارف اليهود بالبقاء ركيزةً وحيدة تقريباً للسلطة في عهد الثورات الديمقراطية.

وعليه، فإن مسألة نفوذ "الجماعة اليهودية" ليست مسألة قومية، ولا تنحصر في الأطر الدينية. إنها، في الحساب الأخير، مسألة السلطة، سيّما وأن الحديث في هذه الحال يدور حول سلطة تسيطر على العالم بأسره تقريباً.

على أن هذا الوضع، في كثير من جوانبه، شبيه بنظيره الذي شهدته *روسيا* بعد ثورة 1917م. صحيح أن عملية "العولمة" وليدةُ أسباب تاريخية عميقة، مرتبطةٍ بماضي شعوب *أوروبا الغربية*، ولكن إنجازه ذه العملية بسرعة، والتأييدَ الفعّال للسلطة الآخذة بالتشكّل من جديد يتطلّبان تلك "الخميرة" التي تتمثّل باليهود.

4 . ملاحظات لروسيا

إن صوغ موقفٍ قومي واع إزاء ظاهرة "الجماعة اليهودية" هو الآن، بالنسبة ل *روسيا* ، ضرورةٌ جلية أكثر مِمّا لأيّ بلد آخر . ذلك أن *روسيا* عاشت في القرن العشرين كارثتين اتصفتا بطابع ثوري، وهما عام 1917، والانقلاب الذي وقع أواخر الثمانينيات وفي التسعينيات من القرن العشرين . فقد أصابت هاتان الكارثتان معاً *روسيا* بزلزال على قدْر من القوة جعل استمرار وجودها الآن موضع سؤال. ولقد لعب الجزء اليهوديّ من سكان *روسيا* دوراً هائلاً في كلتا هاتين الكارثتين. كما أن الشعب كان منقسماً في الحالتين : أوّلاً، إلى "بيضٍ" و"حُمرٍ" في عام 1917، وثانياً، إلى "وطنيين" و"ديمقراطيين" في التسعينيات. وفي كل من الحالتين وقفت الجماعة اليهودية ككل، وعلى نحو واضح ، إلى جانب طرف واحد هو الانقلاب الذي وقع. هذه واقعة تاريخية أساسية تمسّ الشعبين، الروسيَّ واليهودي، على حدٍّ سواء . ويتعيّن على الشعبين، الروسيّ واليهودي، وعيها بطريقة ما، فهذا ما سيبيِّن مدى قدرة كل من الشعبين على وعي تاريخه.

وأنا أريد التأكيد على أنني، إذ أتحدث عن صوغ موقف واع إزاء اليهود، لا أعني البتة أن ذلك سيسفر عن "حل للمسألة اليهودية" (في *روسيا*). فكما يقول **توبوروف**:

"إن "الحلّ النهائي"، والتهجيرَ القسري، وسوى ذلك من "الأشياء البديعة" التي يحلم بها ولو أقلُّ القوميين الراديكاليين شأناً، أمور غير قابلة للتحقيق، أقلُّه من الناحية العملية".

(وَفقاً لتقديرات **توبول** ، فإن في *روسيا* الآن ما بين 10 و15 مليون شخص ممّن يمكن أن تشملهم قوانين *نورنبيرغ*). بل وقد أثبت **هتلر** بالبرهان سخف نزوات كهذه. إذ تطالعنا صيغة هذا الحل في خطاباته عدة مرات، إلا أنه، على ما أظنّ، لم يقل يوماً ماذا كان يعني بهذا "الحل". وأعتقد أنه، في واقع الأمر، لم يكن لديه أي فكرة محددة عنه. فقد كان في وقت من الأوقات يناقش فكرة تهجير اليهود الأوروبيين إلى *مدغشقر*، في حين كانت *مدغشقر* (بل وغيرها الكثير) بعيدة عن متناول يده. على أن أهمّ شيء هنا هو أن هذا الطريق يشوّه روح الشعب الذي اختاره. أما الروس فلن يلقى هذا الحل عندهم صدى قَطّ ، و"هذا مؤكد علميا"، كما قال **بيريزوفسكي** في مقابلته مع **توبول**.

وفضلاً عن ذلك، فإن هذه الصيغة عموماً تبدو لي خطيرة من حيث المبدأ، إذ إنها تموِّه وتحجب عن الرؤية مَصيدة منطقية. فعندما يجري الحديث عن "حل" مسألة ما، يُفترَض ضمناً أن هذا "الحل" موجود، ولو نظرياً ، ولم يبقَ لنا إلا العثورُ عليه . على أن هذا كثيراً ما يكون غير أكيد ، وأحياناً يكون غلطاً بكل بساطة . والرياضيات، مثلاً ، تعرف عدداً كبيراً من المسائل التي لا حل لها، منها تربيع الدائرة، وتثليث الزاوية ...إلخ. حتى إن البرهان على عدم وجود حل للمسألة (في ظل صياغتها صياغة دقيقة) يكون في حالات كثيرة مرتبطاً بتقدم كبير في العلم.

وإليكم مثالاً دالاً يتعلق تحديداً بالمسألة التي تهمنا في هذا الكتاب. لقد سبق أن ذكرنا في الفصل الرابع، أنه في عهد القيصر **بافل الأول** ، مطلع القرن التاسع عشر ، أُنيط بالأديب **دِرجافِن** أمر دراسة أسباب الأوضاع المزرية (المجاعات المتكررة) التي يعيشها الفلاحون في *بيلوروسيا* . وأفضى به تقصّيه إلى استنتاجٍ مفادُه أن

نشاط اليهود الاقتصادي هناك يلعب، ضمن بضعة أسباب أخرى، دوراً كبيراً في ذلك. وتضمّن "الرأي" الذي تقدّم به **دِرجافِن** اقتراحَ منظومة تدابير ، منها إلغاء سلطة القهالات والرسوم التي فرضتها، وتغيير نظام تعليم اليهود، ومنع الزيجات الباكرة بينهم، واجتذاب اليهود إلى العمل في ال معامل، والحِرَف، والعمل الزراعي، وإقامة معامل جديدة، وإعادة توطينهم . وقد قوبلت هذه المقترحات بمقاومة نش طة من قبل القهالات . ويتحدث كتاب **برافمان** (وثائق 280 – 286) عن أعمالهم في هذا المجال. فقد جاء في إحدى الوثائق المذكورة (رقم 280) ما يلي:

"السبت، الأول من شهر تيبير عام 5562 (1802م)، أسبوع قسم **ميكيتس**.

في الاجتماع الاستثنائي بحضور قادة المدن وهيئات القهالات ك افة، ونتيجة للأخبار السيئة الواردة من العاصمة *بطرسبورغ*، تقرر وضع مصير جميع اليهود الآن في أيدي خمسة وجهاء لهم كامل السلطة في تصريف هذا المصير وفق ما يرتأون، وإننا مضطرون للتوجه إلى *بطرسبوغ*، بهدف التماس صاحب الجلالة القيصر،عظّم الله مجده، منْعَ تطبيق أية تدابير جديدة عندنا . ولمّا كان هذا الأمر يتطلب نفقات كبيرة فقد تقرر ، بموافقة الجميع، فرضُ رسم مؤقت بنسبة مئوية تحدد على الوجه التالي: 1) نسبة 0،5 بالمئة من السيولة المالية الموجودة نقداً ، ومن البضائع ، والقروض المكفولة ؛ 2) نسبة 0،25 بالمئة من قيمة العقارات؛ 3) يتوجب على أصحاب البيوت والحوانيت تسديد 10 بالمئة من عائداتها السنوية؛ 4) يسدد الأزواج الشباب (كل زوج وزوجة حديثي القران) الذين يعيشون على نفقة الوالدين نسبة 1 بالمئة من مجمل ما يملكون...".

ويسجّل **دِرجافِن** شائعة تقول عن هذه الرسوم، وأن من المتوقع أن تسفر جبايتها عن جمع مليون روبل لشراء "هدايا". وهكذا أحيلت (في عهد القيصر **ألكسندر الأول**) منظومة التدابير التي أعدَّ ها **دِرجافِن** بتروٍ ودقة، إلى لجنة مؤلفة في غالبيتها من ملاك الأراضي (البولونيين أساساً) الذين يؤجرون أراضيهم لليهود، فراح **ألكسندر الأول** يبدي لـ **دِرجافِن** جفاء متزايداً، إلى أن عزله في نهاية المطاف من منصبه كوزير ، فقوّرت اللجنة إبقاء كل شيء على سابق عهده كما كان.

يمكننا أن نقول الآن إن هذا ما كان ينبغي توقعه سلفاً . غير أن سذاجة **دِرجافِن** آنذاك كانت مفهومة، ذلك أنه لم يكن قد مضى في تلك المرحلة سوى بضعة عقود على وجود أعداد كبيرة من اليهود بين سكان *روسيا* . ولم يكن قد اتضح بعدُ مقدار ما تنطوي عليه المشكلة من صعوبة وتعقيد. أما نحن اليوم فنعرف أن الحديث يدور حول "مسألة" حاول "حلها" **فراعنة** مصر ، و**ملوك** *آشور وبابل* ، *وأباطرة* **روما**، و**ملوك** *القرون الوسطى* ، و**قياصرة** *روسيا* ، و**هتلر** . على أن جميع هذه المحاولات باءت بالفشل . وما من مؤشرات تدلّ على أن الناس أصبحوا مع مرور الزمن أكثر حكمة بحيث أنهم سيتمكنون الآن من "حل" هذه المسألة. وأغلب الظن أنها تندرج في عداد المسائل "العصيّة على الحل"، أقلّه في حدود الحقبة التاريخية التي تغطّي الآلاف الأخيرة من السنين.

قد يبدو هذا الوضع غريباً، بمعنى أن "المشكلة" موجودة، ولكن "الحل" غير موجود. غير أن هذا الوضع هو ، من جانب آخر ، حالة عادية في الحياة. فها أنا ، على سبيل المثال ، أشيخ، وهذه "مشكلتي"، فهل من "حل" لها؟ واضح أنها بلا حل (اللهمّ إلا إذا استثنينا الحل الذي وجده **فاوست** ، أي توقيع اتفاق بالدم، أو اللجوء إلى ساحرة). وعليّ هنا أن أسلك واحداً من طريقين . فلمّا أن أتجاهل "مشكلتي"، أي أن أتصرّف وكأنني ما أزال شاباً. والأرجح أن العاقبة ستكون عندئذ وخيمة. كأن أقوم، مثلاً، بتسلق الجبال، فيصيبني دوار، وتزلُّ قدمي

فلتحطّم، وربما أتسبب أيضاً بإسقاطُ من أكون مربوطاً معه بحبل واحد. وإمّا أن أتعامل بوعيٍ مع "مشكلتي"، وأحاول التعايش معها، أي أن آخذها بالحسبان في سلوكي . وأعتقد بأن هذه هي الطريقة الواقعية الوحيدة التي يستطيع الروس الاهتداء بها في تعاملهم مع "مشكلة" العلاقات الروسية اليهودية.

وعلى أية حال، يخيَّل إليّ جليّاً تماماً أنه ما من هجرة، أياً كانت، تستطيع أن تحل مسألة العلاقات الروسية اليهودية. إذ ليس هناك بلد في العالم يستطيع استقبال هؤلاء السكان، لا *إسرائيل*، بل ولا حتى *الولايات المتحدة الأميركية*. زِد على ذلك أنه ليس ثمة نزوع باتجاه هجرة واسعة النطاق من هذا القبيل. وأعتقد بأن وجهة نظر أ. **سيفاستيانوف** (الذي أوردنا حججه في الفصل الخامس عشر) لها ما يسوّغها تماماً . أي أن الأوساط اليهودية النافذة، وفقاً لوجهة نظره تلك لم تعد ترى في هجرة اليهود من *روسيا* إلى *إسرائيل* هدفاً جوهرياً لها. فقد كتبت **س. مارغولينا**، على سبيل المثال، في مطلع تسعينات القرن الماضي تقول:

"يجري الآن "*الخروج*" مرة أخرى، ذلك أن حجم هجرة اليهود من *الاتحاد السوفيتي* لا يترك أدنى شك في أننا أمام تصفيةٍ واحد من أضخم مراكز اليهود في التاريخ الحديث".

بل وما من مقالةٍ تقريباً في كتاب *"الفكرة الروسية واليهود"* إلا وتشهر هذا الخروج، حتى إن أحد مؤلفي الكتاب يتساءل عمّا إذا كان ذلك علامةَ لعنةٍ إلهية، فيقول: "أمّا أنتم، فليبقَ بيتكم خراباً"!! على أنه أصبح من الواضح الآن أننا لسنا مهددين بأي "خروج" (ولا باللعنة الإلهية أيضاً). ولا نرى أسباباً من شأنها أن تغيّر هذا الوضع في المدى المنظور . لقد كتب **آحاد هعام** ذات مرة قائلاً : "إن جمهور اليهود محكوم عليه أن يبقى في الشتات ". وينطبق هذا القول تماماً على الروس، فهم "محكوم" عليهم أيضاً في المرحلة التاريخية القريبة أن يعيشوا جنْباً إلى جنْب مع جالية يهودية كبيرة (من أكبر الجاليات اليهودية في العالم)، وهي محكوم عليها أن تعيش معنا جنباً إلى جنب. وما لم نأخذ هذه الحقيقة بالحسبان لن يكون بوسعنا أن نخطط مستقبلنا على نحو واقعي.

لا شك في أن الروس قادرون على التعاون مع أتباع الدين اليهودي الأصوليين الذين لا ينوون مغادرة *روسيا*، ومع من يضعون منهم نُصْبَ أعينهم الرحيل إلى *إسرائيل*، وكذلك مع جميع الأطياف الأخرى "الموجودة في المجال اليهودي"، سواء بسواء. يستطيع الروس التعاون مع هؤلاء في ميادين العلم، والفن، والمشاريع الحرة، وفي أي عمل آخر. ثم إن اليهود سيكونون مفيدين لـ*روسيا* لسبب محدد تماماً هو أنهم يختلفون بقوة عن الشعوب الأخرى. ولكنّ ثمة شرطاً يُعَدّ أساساً لوجود *أي* شعب، ولحياة مستقرة في بلده. ويتلخص هذا الشرط في أن السلطة في البلاد التي تتألّف من هذا الشعب يجب أن تكون أساساً في يده، وينبغي أن تعكس، ولو تقريبياً، التركيبة الإثنية في البلاد. على أن يراعَى ذلك ليس فقط في قمة سلطة الدولة، كرئيس الدولة، أو الحكومة، بل وأن يشمل القيادات على جميع المستويات، وعلى الصُعُد كافة، أي في السياسة، ووسائل الإعلام الجماهيري، والثقافة، وكنيسة الغالبية، والاقتصاد، وفي الأمور المالية (مهما كان ذلك عسيراً).

لقد اكتسبت *روسيا* في القرن العشرين تجربة غنية جداً، وخَبِرت، على ما يبدو، جميع أشكال الحكم المعروفة: من المَلَكية المطلقة، والمَلَكية الدستورية، إلى النظام الشمولي، والديمقراطية الحزبية المأخوذة عن النموذج الغربي. وفي جميع هذه الأشكال نرى فئة حاكمة من نوع ما . أما وظيفة هذا الشكل أو ذاك من أشكال الحكم فهي العمل على أن تضمن هذه الفئة تنفيذ ما يطرحه باقي السكان من مطالب بالغة الأهمية في الحياة. ووحدهم

ممثلو السلطة، القريبون في أصولهم من بقية الشعب، هم القادرون على استشعار القرارات التي يمكن أن يتقبلها الشعب بعد أن يعدَّها "قراراته". ولا يمكن إلا في هذه الأطر أن توجد الحلول بطرق مختلفة : بالتصويت، أو بالاستيلاء على السلطة... إلخ.

أما إذا ما استمر الوضع شبيهاً بما يرسمه **تويول** (بخطوط عريضة جداً)، حيث يقول: "عموماً، السلطة المالية كلُّها في أيدينا (أي اليهود، حسْب سياق النص)، والحكومة تتألف ممّن هم أنصافُ يهود، **كيريينكو وتشوبايس**"، فإن هذه السلطة ستقوم، ولو بخلاف ما ترغب، بدفع *روسيا* في اتجاه كارثي. ذلك أن مبدأ الارتباط بين السلطة والشعب بحد ذاته ليس مبدأ ميكانيكياً. ولا بد لوضعه موضع التطبيق من أن تكون السلطة في *روسيا* بأيدي الروس. وإلا ازدادت سرعة انقراض الروس، وكفوّا عن الدفاع عن *روسيا*، وعموماً فقدوا الشعور بأن مصيرهم مرتبط بمصير بلادهم. وعندها ستسقط *روسيا* في هاوية من النزاعات، والتدخلاتِ الأجنبية التي لا تؤدي إلى هلاك كثير من الروس وحدهم، بل ومن اليهود أيضاً (بل وقد ينقلب الأمر كارثة عالمية). إن السعي بتأنٍّ وتدرّج لجعل *روسيا* غير روسيةٍ لن يُكتَب له النجاح، لأن الروس ليسوا هنود *أميركا الشمالية*. بل على العكس، فاليهود. بالمقارنة مع الروس. أكثرُ قِدَماً في التاريخ، وهم يتأقلمون مع الحياة المعاصرة، مستندين إلى مفاهيمَ قديمة بعضُها توراتي، وبعضها تلمودي وما بعد تلمودي.

وهنا، في تقديري، يكمن سببُ الأزمة الروسية الأساسي، أي أن السلطة عندنا ليست سلطة روسية، بل وهي كذلك على امتداد قرن كامل. وحتى قبل ذلك، قبل الثورة، كانت الحياة تزداد ميلاً في هذا الاتجاه. وما قول **تويول** في مقالته تلك ("*لقد حصلنا على السلطة الفعلية في هذا البلد* ") إلا تعبيراً مبسّطاً جداً عن لوحة معقدة. ذلك أن السلطة في الواقع دوليةٌ ("أممية"– كما كانت من قبل). وقد يكون اليهود أقليةً من الناحية العددية في قمّة هذه السلطة، ولكنهم يلعبون دوراً جوهرياً للغاية، بفضل ما ترسّخ فيهم من "آليةِ تكاتف"، وتماهٍ مع السلطة. ولذلك، فإنَّ فهمَ دور الجماعة اليهودية مقدِّمةٌ ضرورية لبقاء الشعب الروسي في الظروف الراهنة.

تبدو وجهة النظر هذه واضحة للعيان في *روسيا* المعاصرة التي يشكّل الروس ما يربو على 80 بالمئة من سكانها. ومن ناحية أخرى، فقد رأينا العواقب الكارثية التي يؤدي إليها انتهاك مبدأ علاقة القربى القومية بين السلطة والشعب. صحيح أن كل ثورة هي هزَّة، ولكنها ليست مدعوّةً حتماً للقضاء على فئات كاملة من السكان، وعلى الموروث التاريخي بكامله. فعندما تولّت قيادةَ الثورة أكثريةٌ ساحقة من غير الروس انتهى الأمر بنا إلى إلى سلسلة من الكوارث. ولو كان الشعب يتمتع آنذاك بما يتمتع به الآن من خبرة لتمكَّن من الإحساس، أقلُّه في ضوء هذه المعادلة، بأن تلك الثورة "ليست ثورتنا"، وليس لنا أن ننتظر منها خيراً، لا لروسيا ولا للروس.

وهكذا، بوسعنا الآن صوغُ المنطلقات التالية:

1. يعيش الروس تحت سماء واحدة مع "جماعة تاريخية" استثنائية القوة، "مشبوبةِ الهوى"، تفوق كثيراً في قوتها الشعوب الأخرى في جملة من الجوانب. فهي تتفوق، مثلاً، بتجربتها التاريخية التي عمرها آلاف السنين، أو بـ "آلية تكاتفها" الخاصة، وبما يسميه **غيرشينزون** والحاخام **شتاينزالتس** شعور "العائلة الواحدة" الذي تكوَّن على مدى هذه الآلاف من السنين، الأمر الذي ما زلنا، نحن الروس، بعيدين عنه غاية البعد. ولا يسع المرء إلا أن ينتابه الحسد وهو يقرأ واحدة من وصايا حاخام من القرون الوسطى أوردها **شاحاك**، وهي:

"*أن تحبَّ كلَّ يهودي يعني أن تهتمّ به كما تهتمّ بنفسك*".

(والحقيقة، في شكل غريب بالنسبة للروس، أي: "*أن تهتمَّ به وبمالِهِ، كما تهتمُّ بنفسك وبمالِكَ*").

2 . إن التعايش في بلد واحد مع مجموعة نافذة تُ ماهي نفسَها مع اليهودية، أو حسب مصطلحات ل . **رادزيخوفسكي**، تقع "في المجال اليهودي"، هو قدَر الروس في المرحلة التاريخية القريبة.

3 . يتوجَّب علينا أن نعيش معاً، ولكن هذا التعايش ليس بالبسيط أبداً . فالحياة بين الروس، في بلا دٍ روسيةِ الروح، تثير نفوراً عنيفاً عند كثيرين من اليهود . فما هو أساس هذا النفور؟ ما الذي أنتج كلاً من **غيرشوني، وبوغروف، وسفيردلوف، وفرينكِل**؟ إن فهمَ ذلك أمرٌ عسير، ولعلّه ليس الأهمّ الآن. فلَهمُّ منه الاعتراف بهذه الواقعة . وبالطبع، فإن ذلك النفور لا تعود أسبابه إلى "عدم المساواة"، ولا إلى أعمال العنف ضد اليهود، أو إلى قضية **بيليس**. على أن الإيمان بذلك قد تجذّ ر عميقاً في الوسط اليهودي . فرغم أنه لم يكن في *ألمانيا*، بدءاً من أواسط القرن التاسع عشر، وجود لأية قيود على اليهود، وكثيراً ما كان يُضرَب بها المثل بوصفها البلد الذي ليس لليهود فيه تظلُّمات إزاء المجتمع، وكان يشار إليها كمثال يمكن أن تحذو *روسيا* حذوه، رغم ذلك كلّه كادت مشاركة اليهود، كما رأينا، في قيادة الثورة الألمانية أعوام 1918 – 1923 أن تكون أكبر من مساهمتهم في ثورة 1917 الروسية. وعدم انتصار الثورة في *ألمانيا* آنذاك لا يعني أن القوى اليهودية التي انخرطت فيها كانت قليلة.

ويُعَدّ موقف **وايزمن** من *روسيا* مثالاً على هذا النفور القَبْلي. فهو يقول:

"كانت معلوماتي عن الوثنيين قليلة، ولكنهم أصبحوا في نظري منذ وقت مبكر جداً رموزاً لقوى شريرة عليَّ أن أصارعها، مستجمعاً كل قواي الفتية، لكي أجد لنفسي مكاناً في الحياة".

وهو، بالفعل، كثيراً ما يتحدث عن كراهيته لـ *روسيا*، حتى من غير أن يحاول تفسير هذه الكراهية، إذ يقول، مثلاً: "ولمّا كان يعرف كراهيتي لـ*روسيا*، فإنه توجه إليَّ..." إلخ.

هذا الرفض الراديكالي لنمط الحياة الروسي تحديداً ظلَّ يطالعنا حتى الآونة الأخ يرة (انظر الفصل الخامس عشر).

يجب علينا أن نأخذ هذه الحالة المحزنة بعين الاعتبار، فلا نغمض عليها أعيننا. إذ يبدو أن ثمّة في الروس شيئاً يصعب على تكوينٍ روحي معين أن يطيقه. ولكننا لسنا مَ ن يجب عليه،بسبب ذلك، أن يغيِّر نفسيته القومية. وينبغي، طبعاً، أن نمنح فرصة الرحيل لأولئك الذين لا يستطيعون العيش معنا، سيّما وأن هذه الفرصة سانحة لهم اليوم، حقاً. أمّا مَن يفضّلون البقاء بيننا فيجب إيجاد صيغة للتعايش معهم، تكون، قدْر الإمكان، أقلَّ إيلاماً لهم، شريطة أن نراعي بالدرجة الأولى الحفاظَ على الهوية القومية الروسية. ذلك أننا، بكل بساطة، لا نستطيع الرحيل من بلادنا، بل وليس لنا، كشعب، مكان نرحل إليه.

4 . لكي تكون الحياة ممكنة في *روسيا*، يجب أن تكون السلطة روسية أساساً، في جميع مجالات الحياة، وعلى المستويات كافّة. على أن أكثر المتطلّعين إلى السلطة من غير الروس خلال القرون القريبة المقبلة هم ممثلو الجماعة اليهودية العالمية (وإن لم يكونوا الوحيدين حصراً). ومع ذلك، فإن هذا الاستنتاج لا ينبع، ولا بحال من الأحوال، من أي شعور بالضغينة. ذلك أن مفهوم "الثأر" بعيدٌ كلَّ البعد عن الوعي الروسي عموماً. فالغزو المغولي، مثلاً، لم ينطبع في الوعي الروسي كمحرقة (*هولوكوست*). وما نقول به هنا ليس إلا شرطاً (شديدَ الجلاء منطقياً، وأثبتته التجربة مراراً) لا بدَّ منه كي يعيش الشعب حياة طبيعية، مستقرة. وبغير ذلك فإن بلادنا كلَّها لن تعيش طويلاً، وستكون النتيجة مأساوية على جميع سكانها، بمن فيهم مَن يقطنها مِن اليهود. بل وقد تعالت الاحتجاجات مراراً، ومن الجانب اليهودي تحديداً، ضد الطرق التي تدفع اليهودية العالمية الحياةَ باتجاهها.

ثمة تقليد عريق وراء هذا "الانشقاق اليهودي". ولعل بدايته تعود إلى **داكوستا** الشهير (في القرن السابع عشر). هناك **برافمان**، ومؤلفو كتاب *"روسيا واليهود"*، و**آنّا آرندت**. وفي زمن ما بعد الحرب العالمية الثانية هناك **س. مورغولينا** التي كتبت، مثلاً، عن عدم لباقة اليهود المعاصرين الذين يتعالى أنينهم قوياً بخصوص ما يعانونه من اضطهادات مزعومة. فهي تقول:

" إن المسألة اليهودية المصطبغة بالعداء للسامية وخيالاتِ أعمال الترويع، لا تحتل موقعاً شديد البروز، مقارنةً بالصدامات الدموية في *ناغورني كاراباخ*[٢٥]، والأطفال المشنوقين والنساء الممزقات إرَباً في **أوزبكستان**، وبالأطفال **الأوسيتيين** الرضّع الذين تجمّدوا في الثلج.

والرصيد المعنوي الكبير الذي اكتسبه اليهود بسبب*"أوشفينتس"* (معسكر اعتقال نازي في *بولونيا*. – م) قد تم هدرُه على ما يبدو.

والآن من حق العالم أيضاً أن يتخذ من اليهود الموقف الذي يتخذه من جميع الشعوب الأخرى.

فلا يجوز عزل مصير اليهود عن مصير غيرهم، لأن النضال من أجل حقوق اليهود ليس أكثر تقدمية من النضال في سبيل حقوق الشعوب الأخرى".

وعلى هذا النحو ينظر **توبوروف** أيضاً:

"ومع ذلك، فإن هناك نوعاً من جنون العظمة القومي يرغم اليهود على ابتّاع شتى السبل لتضخيم خطرٍ عابر، طواه الزمن، أو هو موهوم أصلاً، وذلك بأشد الطرق أذى لهم، غير آبهين في الوقت نفسه ب الخطر الحقيقي".

وأخيراً، يكتب **شاحاك** بقنوط عن تحول إسرائيل إلى دولة شمولية قائلاً:

"إن الديانة اليهودية التاريخية ووريثتيها – اليهودية الأصولية والصهيونية – عدوٌّ لَدود لنظرية المجتمع المفتوح، فيما يتعلق بـ*إسرائيل*".

---

[٢٥] **بين الأرمن والأذربيجان مطلع التسعينيات،، بعد انهيار الاتحاد السوفيتي . م.**

ويدعو **شاحاك** إلى إعادة النظر بالموقف من "الماضي اليهودي"، وإلى الاعتراف بوجود فكرة "الاستثنائية اليهودية"، بل ويتوجّه إلى تلك الإيديولوجيا التي يقوم عليها ذلك الموقف وتلك "الاستثنائية" بنداء **فولتير** الشهير: "اسحقوا الحشرة**!**".

كان أمراً رائعاً لو أن انقلاباً روحياً من نوعٍ ما وقع في داخل الشعب اليهودي، ونحّى جانباً ضغطَ اليهودية العالمي الذي عانينا منه على مدى القرن المنصرم عبر "سعيهم إلى السلطة"، ونظرةَ اليهود إلى قيمنا الحياتية وكأنها "مأكولات صناعية زائفة". غير أنه ما من شعب يستطيع التعويل على أن يأتيَه حلُّ مشاكله تلقائياً من خارجه. ولذا، فإن الروس، باطمئنانهم إلى أن هؤلاء الكُتّاب يعكسون تياراً عريضاً في الفكر اليهودي، لا يستطيعون الاتكال إلا على قواهم الذاتية في المسائل المتعلقة بمستقبلهم.

5. طبيعيٌّ أن الحديث عن قوى روسية ما، في ظروف *روسيا* الحالية، يبدو ضرباً من السخرية المريرة عموماً. ولكن ينبغي أن نأمل أنّ جميع الكوارث التي ألمَّت بالشعب الروسي لم تضْرِب منه مقتلاً، ولم تزِد على أن أوقعته أرضاً، وهو الآن يثوب إلى رشده بالتدريج.

وإلى ذلك، فإن القوة الرئيسة التي تجثم اليوم على صدر *روسيا* (أي *المجتمع الغربي* المنخلع من قوميته، والرأسمال المالي العالمي المتمركز في *الولايات المتحدة الأمريكية* والمسلّح بـ*حلف الناتو* وغيره) هي نفسها تعاني أزمة عميقة. إن انحطاطَ الإبداع الروحي، والفني، والعلمي، سواءٌ بسواء، وتراجُعَ دور الدول القومية، وتنامي الشعور بـ"النهاية"، والمستقبلِ المنذر بالهلاك، سواءٌ بحرب نووية، أو باكتظاظ سكاني، أو بأزمة بيئية، وأخيراً الأزمة المالية العميقة، وتنامي الإرهاب (وقد يكون هذا الإرهاب محاولة لستر الأزمة المالية)، كلّ ذلك مؤشرات إلى نهاية ذلك النمط من الحضارة الذي نشأ وتكوّن في *أوروبا الغربية والولايات المتحدة الأميركية*. وسيكون القرن الحادي والعشرون، بالتأكيد، شاهداً على سقوط هذا النموذج الحضاري، ولنا في تدمير *الاتحاد السوفيتي* مثال على هذا الانهيار الفجائي المنتظَر. على أنني قدّمتُ في آخر أعمالي تحليلاً مفصّلاً للحجج التي تؤكد حتمية هذه النهاية. وعندئذ سيتقلَّص العبء الضاغط على *روسيا* تقلصاً كبيراً، وتتاح فرصة ممكنة لأن تقرر *روسيا* مصيرها بنفسها. وهذا الافتراض تحديداً هو الدافع الأساس، على أية حال, لمواصلة الحياة والجهود:

لِيكنْ أنّ المعركةَ غيرُ متكافئة،
ولا أملَ في القتال.
ففوقنا الكواكبُ صامتة في الأعالي
وتحتنا القبور صامتة أيضاً.

تتلخّص مأساويةُ تاريخنا الحقيقية في أننا، عندما تحين اللحظة التي يُفترَض أن نكون فيها قادرين عملياً على تقرير مستقبلنا، قد نكون غير مهيئين فكرياً. ولهذا تحديداً يتوجب علينا أن نجعل من إقامة سلطة روسية مقدِّمةً

لتحديد هدفنا *الأوّل*، وهو *الذود عن حقنا في التفكير والنقاش بخصوص مصيرنا وتاريخنا* . حقنا في النقاش بحرية، من غير أن نستدرك عشر مرات قائلين: "صحيح أننا روس، ولكننا لسنا شوفينيين"، ودون أن نحاول موازنة كل عبارة بعبارة أخرى تلطف من وقعها، ودون أن نسير مثل جندي في حقل من الألغام، لأن ذلك سيؤدي في نهاية المطاف إلى أن يكفَّ القارئ (وربما المؤلف ذاته) عن فهم ما يدور الحديث حوله . وبكلمة مختصرة، أن نتكلم دون "رقيب داخلي " (ناهيك عن الرقيب الخارجي). فنحن ننتمي إلى نوع الإنسان العاقل Homo sapiens، والعقل، أي القدرة على المحاكمة والفهم، هو إحدى أقوى الأدوات التي استخدمها الإنسان طيلة وجوده. فكيف يمكن أن يُطلَب منا في مسألة على هذا القدْر من الأهمية بالنسبة لشعبنا، أن نتخلى عن هذه الأداة، أو أن نستخدمها حصراً في أطر ضيقة معينة؟

6 . على أن الضغط على الفكر البشري ، وتحديداً في المسألة التي نناقشها في هذا الكتاب، شديدٌ جداً في العالم كله تقريباً . وهنا بالضبط يقع خط النضال من أجل حرية التفكير . إن تهمة "معاداة السامية " (التي قال عنها أحد الكتاب الأميركيين : "ما من أحد يعرف معنى هذه التهمة، ولكن الجميع يعرفون أنك إذا ما رُميتَ بها كان عليك أن تنتظر أكبر المكروهات") تستخدم في الغالب الأعم ذريعةً للرقابة تحديداً.

إن مثالاً واحداً جعل الوضع في الآونة الأخيرة يتبلور بوضوح شديد . فبمناسبة صدور كتاب **سولجنيتسين** المكرَّس للعلاقات الروسية اليهودية، عبَّر محرر *"الصحيفة اليهودية العالمية"* عن رأيه مستهجناً، فقال:

"ليست هذه الأيام بالوقت الذي تحتاج فيه البلاد إلى مواجهة جديدة أخرى لا تفضي إلى أي شيء إيجابي، ولا تزيد على أن تخلق عقدة بالغة الخطر هذه المرة".

وهذا يعني، إذا ما تحدثنا بلسان **توبول**:

"لقد حصلنا على السلطة الفعلية في هذا البلد لأول مرة منذ ألف سنة مرت على استيطان اليهود في روسيا".

والآن "ليست هذه الأيام بالوقت الذي..." لكي نتذكر كيف حصل ذلك. إنها فكرة مفهومة جداً ، وعقلانية جداً ، ولكن من وجهة النظر اليهودية. أما من وجهة النظر الروسية ، فمن الطبيعي بالقدْر نفسه أن نسعى لكي نفهم كيف نشأ هذا الوضع، وذلك بغية تغييره، والعملِ على ألا يتكرر بعد الآن.

وتتردد هذه النغمة بمزيد من الوضوح في تعقيب على الكتاب نفسه بقلم الكاتب **مارك ديتش** الذي لا تنقصه الشهرة:

"ما حاجة كاتب "*كلاسيكي حيّ*" إلى هذا الخزي، بل أكاد أقول، إلى هذه الخِسّة، أي لأن يستقصيَ بإسهاب، بعد مُضيّ مائة عام، عمّا إذا كان ثمة خبرٌ صحفيٌ مبالَغٌ فيه عمَّن قاموا بفظائع أعمال الترويع"؟

إن في هذه الكلمات تعبيراً مباشراً عن منع التطرق إلى موضوع محرَّم.

وبالفعل، فإن حيثيات الجرم ماثلة منذ أول صفحة في الكتاب، حيث يقول المؤلف:

"... أؤمن بأن هذه القصة، محاولةَ إدراك كنهها، لا يجوز أن تظل محرّمةً".

7 . إن المسألة التي تناولناه ا في هذا الكتاب بالغ ة الأهمية بالنسبة للشعب الروسي . وإيجاد موقف منه ا يتناسب مع مصالحنا القومية شرطٌ *ضروري* لاستمرار وجود *روسيا* . غير أن هناك فَرقاً، في الرياضيات ، مثلاً، بين الشرط الضروري والشرط الكافي. وتحديد طريقة صحيحة للتعامل مع مسألة العلاقات الروسية اليهودية يُعَدّ، بالتأكيد، مجرّدَ شرط *ضروري* لاستمرار *روسيا* في الوجود. فحتى لو توصّلنا إلى سلطة في *روسيا* تكون روسية بمعظمها وعلى جميع المستويات، هل هناك ما يضم ن أن تجد هذه السلطة الحل الصائب؟ ذلك أن السلطة الروسية أيضا يمكن أن تكون مأجورة، أنانية أو غبية ، بكل بساطة. بل ولقد شهدنا في تاريخنا أمثلة كثيرة من هذا النوع. ففي زمن *الفتنة* قام بعض ***البويّار*** (أي وجهاء القوم) المتحدرين من أعرق العائلات الروسية باستدعاء ملك *بولونيا* ليتربعَّ على عرش *الكرملين*، بينما أسرع بعضٌ آخرُ منهم للركوع أمام *لصّ توشينو* . كما أن البواعث التدميرية التي أفضت إلى الثورة في نهاية المطاف كان وراءها أبناء نبلاء من عائلات عريقة : **تشا آدايف، وباكونين، وغيرتسن**. أما **تشرنيشيفسكي، ودَبْرَلوبَف، وبيسَرِف** الذين أرسوا إيديولوجيا العداء ل*روسيا* التاريخية بين أبناء الجيل ال ذي أعقب أولئك النبلاء، فقد كانوا روساً دونما أدنى شك . ثمَّ إن العديد من الثوار ، و"الديمقراطيين" فيما بعدُ ، كانوا روساً أيضاً. وكان أعضاء *الحكومة المؤقتة* (بعد ثورة شباط / فبراير 1917– م.)، والمكتب السياسي أيام **غورباتشوف** من الروس أيضاً. بل وحتى في أيامنا هذه ، لو كان غياب النفوذ اليهودي الواضح يشكل ضماناً للتمسك بمصالحنا الروسية، لكان الشيوعيون الحاليون هم الحزب المثالي في هذا المجال. ولكنهم (الشيوعيين اليوم)، بالرغم من كل ما يتسترون به، يُقدِمون على مساومات على حساب المصالح الروسية دائماً ، سواء بشأن *القرم، أو سيفاستوبل، أو بريدنيستروفيه* (منطقة نهر دنيستر التي جرى نزاع بشأنها بين أنصار الانضمام إلى *روسيا* وأنصار الالتحاق بجمهورية *مولدوفا* خلال تسعينيات القرن العشرين . – م.)...إلخ. وعلى العموم ، فليس من الصواب، على ما يبدو، أن نعزوَ سبب جميع ما في حياة الشعب من مصاعبَ وويلاتٍ إلى العامل *الخارجي وحده*. لقد كرّر **ليف تولستوي** القول غيرَ مرة بأن السبب الرئيس الكامن وراء جميع المصائب هو الملكْية الخاصة للأرض. فكم كان سعيدَ الحظ، لأنه لم يعش حتى الثلاثينيات (من القرن العشرين.– م) ليشهد إلغاء هذه الملكْية! وكان أقلَّ حظاً منه كثيرون من أعداء الشيوعية الذين كانوا على يقين من أن القضاء على السلطة الشيوعية لن يلبث أن تعقبه عودةُ المياه إلى مجاريها الطبيعية على نحوٍ من الأنحاء. وقد امتدّ العمر بكثيرين منهم حتى شهدوا رحيل الشيوعية حقاً، غير أن الحياة لم تزدَدْ إلا سوءاً. ويمكن للمرء أن يجد نفسه في وضع مشابه تماماً ، إذا ما صدَّق الآن أن سبب كوارث الروس الأساسيَّ والوحيد هو تأثير اليهود على التاريخ الروسي تأثيراً لا يتناسب وحجمهم.

8 . إن تحديد معالجة ا لعلاقات الروسية اليهودية بطريقة تنسجم مع مصالح الروس القومية، لا يعدو كونَه شرطاً ضرورياً لخروج *روسيا* من أزمتها الراهنة... *مجرَّد شرط ضروري، ولكنه ذو أهمية مصيرية* . لقد كان التأثير اليهودي على التاريخ الروسي هائل القوة في القرن العشرين. وهذه حقيقة "أكيدة، خليقة بإيجاد تفسيرٍ لها، وما إنكارها إلا نوعاً من العبث واللاجدوى"، كما يقول **ليفين** في مقالة ضمّها لكتاب *"روسيا واليهود"*. وبالطبع، لم يكن هذا التأثير هو م ا تحكّم بمسار التاريخ الروسي، ولكنه أسبغ على ا لنزعات التي ظهرت في هذا التاريخ

تأويلاً راديكالياً، كثيراً ما كان كارثياً على المصير الروسي. ولكي نقيّم التأثير اليهودي نُجري هذه "التجربة الذهنية": لنفترض أن اليهود، لسبب خيالي ما، لم يكن لهم أي تأثير على حياة *روسيا* في القرن العشرين. وبالرغم من ذلك، فإن *روسيا* كانت ستعاني، بالطبع، من أزمة في مطلع القرن العشرين، ولكن القاعدة المالية للصحافة المعارضة، بل ولمعظم الأحزاب، كانت ستختفي بالكامل تقريباً. ومن الطبيعي أن **ريابوشينسكي وموروزوف** كانا سيقدمان المال لتلك الصحافة والأحزاب، ولكن بمبالغ أقلّ ممّا هو معروف بكثير. ولَمَا وُجِدَ قادة لمنظمة *"الاشتراكيين الثوريين"* المقاتلة، ولا حزبُ *"البوند"*، ولترأّس **بليخانوف** بمفرده تقريباً تنظيم *الاشتراكيين الديمقراطيين*، ولمَا تمكّن من تأسيس البلشفية. ولَمَا نجحت عملية اغتيال **سطوليبين**. ويمكن القول إنه كان سيوجَد قاتل روسي، على شاكلة الإرهابيين الروس الذين حاولوا اغتياله في حي جزيرة *أبتيكَرسكي*. إلا أن تلك المحاولة باءت بالفشل، وهذا يعني أن منفذّيها لم يكونوا "مؤهَّلين" بالقدْر الكافي. صحيح أنه لا جدوى من التكهّن بالطريق التي كان سيسلكها تاريخ *روسيا*، ولكنْ مِن الواضح أنه كان سيسلك طريقاً أخرى. لعلّ ثورة شباط / فبراير 1917 ما كانت ستفضي إلى شيء، مثلُها مثل ثورة 1905؛ ولعل الانتفاضات الفلاحية، والجيوش البيضاء هي التي كانت ستنتصر في الحرب الأهلية؛ ولربما كانت عملية تجميع الملكيات ستفشل. من الواضح أمرٌ واحدٌ، ألا وهو أن هذا التاريخ كان سيسير على نحو آخر، إذ إن *روسيا* لم تكن بحاجة إلا إلى قليل من تخفيف الضربات المنهمرة عليها، لكي تخرج من عنق الزجاجة، فقد تأرجح مصيرُها غيرَ مرة مثل كفتّي ميزان.

وستسفر هذه "التجربة الذهنية" عن النتيجة نفسها، إذا ما طبقناها على "الثورة الثانية"، أي على الانقلاب الذي وقع في تسعينيات القرن العشرين. على أن المشكلة ليست في رئيسَي *الاتحاد السوفيتي وروسيا* اللذين كانا يصغيان بوضوح لإيعازات من الغرباء، وإنما في تلك المجموعة من السياسيين، والمدراء، ورجال المال المدرَجة أسماؤهم أساساً في مقالة *"السعادة اليهودية"* (التي تناولناها سابقاً)، ورجال الدعاية الذين تحولوا بلمح البصر من شيوعيين إلى ديمقراطيين، فقد كان لهم مفعول "جلمودِ صخرٍ حطّه السيلُ من علٍ" جرف كل شيء. ذلك أنه لو لا تدمير الحياة كلّها بتلك القوة والاندفاع لتسنّى للشعب، ربّما، أن يعيَ ما يجري، وأن يفرز من داخله قوى قومية ما.

تبين المقارنة بين هاتين الأزمتين (1917 وتسعينيات القرن العشرين) أننا، نحن الروس، نستوعب دروس التاريخ ببطء شديد. صحيح أن المرحلة الفاصلة بين الأزمتين لم تكن مؤاتية كثيراً لكي نعيَ مصيرنا القومي. ورغم ذلك، فقد كان بوسع بعض ممثلي الإنتلجينسيا أن يوصلوا إلى الشعب رؤية أكثر وضوحاً. ولكنْ، ما نفعُ الندم على ما فات! فالخطير هو أننا عند المنعطف التالي من منعطفات التاريخ قد نجد أنفسنا على القدْر نفسه من عدم الاستعداد. ولذلك، فإن مهمتنا الفعلية التي يمكن، إذاً ويجب أن نعمل على تحقيقها هي، على الأقل، الحيلولةُ دون الوقوع في هذا المطبِّ من جديد.

9. لقد خلص كثيرون ممّن أعملوا فكرهم بتاريخ الجماعة اليهودية إلى أنهم يقفون أمام لغز. فكيف لنا أن نواجه هذا اللغز قبل "انقضاء كل الأوقات والآجال"، على حدِّ تعبير **دَستويفسكي**؟ ذلك أننا لا نستطيع الاكتفاء

بتجاهله، لأن حياتنا متوقفة عليه، بل ووجودنا كلّه. وفي هذه الحال ثمة ثلاثة مواقفَ ممكنة. الأول، هو تجاهلُ المشكلة ذاتها، وإقناعُ أنفسنا بأنها غير موجودة. وهذا هو المخرَج الأسوأ. فقد جرى اختباره في عهد السلطة الشيوعية، عندما حاولوا حلّ مسألة العلاقات بين القوميات عموماً (بل وكثيرٍ غيرها من المسائل) عن طريق تحريم مناقشتها. والموقف الثاني، هو السعي لحل اللغز بالقفز فوق هوّة الجهل التي تفصلنا عن الجواب . وعلى هذا النحو نشأ عدد من النظريات، أبسطُها النظرية القائلة بوجود مؤامرة يهودية حاكتها حكومة اليهود السرية قبل ثلاثة آلاف عام . على أن القاسم المشترك بين هذه النظريات جميعها هو تعذّر البرهان عليها أو دحضها، بل وهي لا تسعى لأن تكون مسنودة بتعليل وقائعي أو منطقي . وما علينا إلا أن نصدِّقها، أو لا نصدِّقها. ويتلخص الموقف *الثالث* في عدم المطالبة بجواب نهائي ، بـ "حل للغز ". إذ ينبغي علينا جمعُ الحقائق التي يمكن استخلاصُها من المادة الواقعية المتراكمة على مدى ثلاثة آلاف عام، و استخلاص النتائج التي تنبثق منها . ولنحاول ، على ضوء هذه النتائج أن نتلمَّس خطاً ما لسير اللغز ، مدركين سلفاً أنه خط ينبني على أساس "معلومات ناقصة"، فنحن في الحياة لا نملك "معلومات كاملة" قَطّ. وكتابنا هذا قائم على أساس هذا المبدأ الذي يهتدي بفكرة عبّر عنها **غوته** بقوله:

"افهمْ ما يُدرَك، وتقبّلْ بهدوء ما ليس يُدرَك".

الحياة مليئة بالألغاز ، سواءٌ في الرياضيات، أوالفيزياء، أوالبيولوجيا ، أوالتاريخ، ولا سيّما في كل ما هو مرتبط بالإنسان. لا بد من مقدار معيَّن من الشعور بالتسليم لكي نتقبل الحقيقة القائلة بأن حل معظم هذه الألغاز لن يعرفه أحد في حياتنا.

مراجع الفصل السابع عشر

1 – دوستويفسكي. انظر الفصل الأول.

2 – شتاينزالتس أ. من هو اليهودي // نوافذ 4 –10 كانون الثاني / يناير 1996.

3 – لوريه س. انظر الفصل الثاني.

4 – .Weizmann Ch انظر الفصل العاشر.

5 – ك. ماركس، ف.انجلز. المؤلفات. المجلد 1، موسكو، 1955.

6 – غيفتر م. صدى المحرقة والمسألة اليهودية في روسيا. موسكو، 1995.

7 – .Goldmann N أنظر الفصل الثالث.

8 – .Margolina S انظر الفصل الأول.

9 – كويرين أ. انظر الفصل العاشر.

10 – زينوفييف غ. انظر الفصل الحادي عشر.

11 – غيرشينزون م. انظر الفصل الأول.

12 – آتالي ج. على أعتاب الألفية الجديدة. موسكو، 1993.

13 – شوفين ر. من النحلة حتى الغوريللا. موسكو، 1965.

14 – شرَفَرَيفتِش إ. المؤلفات. المجلد 1، موسكو، 1994.

15 – روزانوف ق. الديانة اليهودية // خبايا إسرائيل. انظر الفصل الأول.

16 – .Shahak I انظر الفصل الأول.

17 – موروز س. في كتاب: – *" الضوء الثنائي"*. موسكو، 1996.

18 – سيمانوف ي. فضُّ المشاكل الروسية اليهودية. موسكو، 2001.

19 – ديوك د. انظر الفصل الأول.

20 – تويول ي. انظر الفصل الخامس عشر.

21 – برافمان يا. انظر الفصل الرابع.

22 – سيفاستيانوف أ. مرجع سابق ورد في الفصل الخامس عشر.

23 – الفكرة الروسية واليهود. انظر الفصل الرابع عشر.

24 – شفاريفتش إ. الأسس الروحية للأزمة الروسية في القرن العشرين. موسكو، 2001.

25 – الصحيفة اليهودية العالمية. العدد 32 (358)، آب / أغسطس، 2001.

26 – ديتش م. صحيفة "مَسْكوفسكي كَمْسَمولِتس"، 11 نيسان /أبريل، *2001.*

الفهرس